مسخ الكائنات

ميتامورفوزس

METAMORPHOSES

Bibliotheca Alexandrina
0119375

الشاعر أوفيد

رسوم پيكار وپيكاسو

نقله الى العربية وقدم له

ثروت عكاشه

الدكتور ثروت عكاشه

ولد بالقاهرة عام ١٩٢١ وتخرّج فى الكلية الحربية عام ١٩٣٩ ، ثم فى كلية أركان الحرب عام ١٩٤٨ . فاز بجائزة فاروق الأول العسكرية الأولى فى مسابقة القوات المسلحة للبحوث والدراسات العسكرية عام ١٩٥١ .

حصل على دبلوم الصحافة من كلية الآداب جامعة فؤاد الأول (القاهرة) عام ١٩٥١ . ونال درجة الدكتوراه فى الآداب من جامعة السوربون بباريس عام ١٩٦١ . وشارك فى حرب فلسطين (١٩٤٨) وفى ثورة يوليه (١٩٥٢) .

عيّن رئيسا لتحرير مجلة التحرير (٥٢ - ١٩٥٣) ، ثم ملحقا عسكريا بالسفارة المصرية ببرن ثم باريس ومدريد (٥٣ - ١٩٥٦) ، ثم سفيراً لمصر فى روما (٥٧ - ١٩٥٨) . ثم وزيراً للثقافة (٥٨ - ١٩٦٢) . وشغل منصب رئيس مجلس إدارة البنك الأهلى المصرى (٦٢ - ١٩٦٦) ، ثم منصب نائب رئيس الوزراء ووزير الثقافة ورئيس المجلس الأعلي للفنون والآداب (٦٦ - ١٩٧٠) ، ثم عيّن مساعدا لرئيس الجمهورية للشؤون الثقافية (٧٠ - ١٩٧٢) . وعمل أستاذا زائرا بالكوليج دو فرانس بباريس لمادة تاريخ الفن (١٩٧٣) ، ثم انتخب زميلا مراسلا بالأكاديمية الملكية البريطانية (١٩٧٥ -). انتخب رئيسا لجمعية الصداقة المصرية - الفرنسية (١٩٦٥ -) وكان عضوا منتخبا بالمجلس التنفيذى لمنظمة اليونسكو (٦٢ - ١٩٧٠) . كما عمل نائبا لرئيس اللجنة الدولية لإنقاذ مدينة فينيسيا وآثارها (٦٩ - ١٩٧٨). انتخب رئيسا للجنة الثقافة الاستشارية لمعهد العالم العربى بباريس (١٩٩٠ - ١٩٩٣) . منحته الجامعة الأمريكية بالقاهرة درجة الدكتوراه الفخرية فى العلوم الإنسانية (١٩٩٥) .

الهيئة المصرية العامة للكتاب

صورة غلاف امامى
مىكلانجلو : ليدا وطائر البجع
ناشونال جاليري بلندن .
(انظر الكتاب السادس : ١٠٨)

مسخ الكائنات

رقم الايــداع : ١٩٩٧/١٠٠٣٣
الترقيم الدولــى : 977-19-4122-4

الطبعة الرابعة

الهيئة المصرية العامة للكتاب

مسخ الكائنات

ميتامورفوزس

METAMORPHOSES

الشاعر أوڤيد

رسوم ب. پيكار (١٧٣٢) وب. پيكاسو (١٩٣١)

نقله الى العربية وقدم له

ثروت عكاشه

الطبعة الرابعة

١٩٩٧ م

الإشراف الفنى : الفنان محمود القاضى

كلمة أولى

١

إنى إذ أقدّم هذا العمل «التحوّلات أو مسخ الكائنات Metamorphoses» من تأليف «پوبليوس أوڤيديوس ناسو Publius Ovidius Naso» إلى قراء اللغة العربية يغالبني الشعور بالحاجة إلى التمهيد له بمقدمة أبسط فيها الصلة بين عالمنا الحديث والمعاصر من جهة وبين الآداب الكلاسيكية والدراسات القديمة من جهة أخرى، كما أعرّف بحياة المؤلف ومكانته شاعراً، وما تركه من أثر فى شتّى المجالات. وحسبي فيما سأقدم من مؤلفات أوڤيد أننى سأتيح للقارىء أن تقع عيناه على قَصَص يسحر الوجدان ولفكره أن يشرد فى عالم أسطوري رحب فسيح. ولست أحسب في ذهب الأرض كله ما يعدل نشوة التحليق فى عالم الخيال الخصيب.

ويقدّم هذا الكتاب باقة من الأساطير القديمة المختارة من خرافات اليونان والرومان وحضارات الشرق العريقة ومن التراث الشعبي الروماني نفسه، تكشف لنا عن جوهرها ومدى صلتها بثقافتنا الحاضرة. وكم كان الدارس لثقافة اليونان والرومان فى فروعها المختلفة من فلسفة أو سياسة أو أدب أو تاريخ أو فنون بعامة يجد نفسه يتعثّر فى دراسته لتعدّد أسماء الشخصيات الأسطورية القديمة وزحمتها، ولكثرة أسماء الآلهة المتكرّرة هنا وهناك، الأمر الذى تسبّب فى عُسر الإقدام على درسها والتمحيص فيها. ولعل شيئاً من هذا القبيل هو الذى حال بين العرب القدامى وبين تناول آداب اليونان والرومان أو فنونهم والاكتفاء بفلسفاتهم وعلومهم لأنها خِلْوٌ من الأساطير المعقّدة التي تزخر بها تلك الفنون الكلاسيكية بأسمائها المتعددة.

ودور الأسطورة فى الآداب القديمة والحديثة واضح لا يحتاج إلى بيان، أفاض فيه الكتّاب والمؤرخون. والواقع أن الأسطورة أدّت أكثر من دور، فقد كانت فى صورها المحلية حكايات

يُقصد بها التربية والتثقيف، واعتاد التلاميذ فى المدارس اليونانية القديمة أن يحفظوا أشعار هوميروس عن ظهر قلب، ولكن لم يلبث أفلاطون أن ثار على هذا الوضع وطرد شعراء الأساطير من المدينة الفاضلة ونظر إليهم نظرته إلى المفسدين للفكر. غير أن الأسطورة عادت للظهور فى شكل جديد وقد تحوّلت إلى تراچيديا «مأساة»، وصار هذا التحوّل نفسه نقطة تغيّر واضحة ووجهة نظر جديدة فى الأسلوب الأسطوري نفسه. ولم تعد التراچيديا حكاية من الحكايات بل تأملا فى موضوع بذاته أو فى حدث من أحداث روائية مسلسلة بعينه، وتميّز هذا التأمل أول الأمر بالغنائية معبّراً مع ذلك عن مآسي الحروب وويلات البشرية فى حلقات صراعها الضّاري المتجدّد.

ولم يلبث كلٌّ من أيسخولوس وسوفوكليس وأوريپيديس أن أسهموا فى كتابة التراچيديا غير أن حرصهم على أن تكون هذه التراچيديا أعمالا أدبية عدّل كثيرا من تكوين الأسطورة نفسها كما أدّى إلى تغيير أسلوب سردها. فكانت بعض الشخصيات تحظّى باهتمام لم تحظ به في الحكاية الأصلية، كما كان الضوء يُسلّط فجأة على بعض المظاهر أو العادات التى ليس لها نظير فى القصة القديمة. ولا شك أن الأهداف الأدبية التى كان يتطلّع إليها المؤلف المسرحي هى التى كانت تؤدي إلى تحريك الأحداث والوقائع والأشخاص على نحو مختلف بين صياغة مؤلف وآخر. ولكن لا شك أيضاً فى أن الحرص على تحقيق بعض الأهداف الاجتماعية والسّعى إلى تثبيت عدد من المعاني الفكرية والفنية قد أسهما فى إحداث تغيير جوهري فى طريقة الاستفادة من الأسطورة على المستوى الأدبي والفني. ولهذا كله كان لانتشار الفلسفة فى القرن الثالث قبل الميلاد أثر فى تحوير الأسطورة من أجل استخدامها الفكري استخداماً لم تعرفه من قبل، إذ بدأت تشارك مشاركة جادة فى حمل أعباء الفكر الفلسفي إلى جانب الاهتمام بالمعاني الأدبية الخالصة. وعندما اتسع المجال فى استخدام الأسطورة على هذا النحو صارت غنية بالرموز التى تُفْلِتُ بها من عقاب أصحاب السلطان دون أن تفقد دلالتها الأصلية.

ومنذ عرفت الأسطورة الإشارة إلى معان معينة عن طريق الرمز باسم البطل أو الإله أو الشخصيات الأسطورية المختلفة اكتسبت هالة فنية معبّرة وطاقة روحية تهدف إلى تغيير القيم المتراكمة فى المجتمع. ولم تلبث أن استيقظت الأساطير من جديد وسايرت التاريخ، فإذا كتّاب القرن الثاني عشر بأوروبا وكُتّاب عصر النهضة وروّاد الآداب الحديثة والمعاصرة يلجأون إلى إحياء الأساطير القديمة متناولين وقائعها وشخصياتها فى رواياتهم الحديثة فى ظلّ فلسفات العصر.

ومن العسير بمكان أن نتعقّب هذا الاتجاه إحصاءً لدى المؤلفين والأدباء والشعراء وكتّاب المسرح، لكننا لا نكاد نلقي نظرة على الآداب الحديثة والمعاصرة حتى ندرك أمرين: أولهما أثر الأسطورة فى إحياء بعض المعاني والقيم، وثانيهما أثر تكرار استخدام الأسطورة أو الأسماء

الأسطورية لدى الأدباء والمؤلفين لإثارة المعاني الخاصة المطلوبة ولتوجيه العمل توجيهاً هادفاً، فنجد راسين [١٦٣٩ - ١٦٩٩] على سبيل المثال يعيد فى مسرحيته «صحراء طيبة» أو «الأخوة الأعداء» إحياء الموضوع القديم نفسه الذى أثاره أيسخولوس فى مسرحيته «السبعة ضد طيبة»، وهو الموضوع ذاته الذى تناوله أوريبيديس فى مسرحية «الفينيقيات»، كما تناول راسين أيضاً موضوع «إيفيجينيا» [إيفيينيا] الذى تناوله أوريبيديس من قبل. وصار من المألوف حتى أيامنا هذه مشاهدة تفسير حديث للتراجيديا القديمة ممثّلة فى الأسماء الأسطورية أو فى الأبطال القدماء أو الآلهة، فإذا بنا نرى چيرودو فى قرننا الحالي يتناول موضوع «إلكترا» تناولاً جديداً، كما تناولها چان پول سارتر أيضاً تناولاً مختلفاً فى مسرحيته «الذباب».

ولست أحاول هنا أن أتتبع كل الآماد والمجالات التى استخدمت فيها الأساطير استخداماً أدبياً مستحدثاً، لكننى أذهب أولا إلى أن الكثير من الأسماء الأسطورية القديمة قد عادت إلى الظهور فى مؤلفات الكتاب والشعراء من راسين إلى سارتر، وأحاول ثانياً إقناع القارئ المعاصر بأنه بحاجة ماسة إلى معرفة الأساطير والحكايات الخرافية القديمة، حتى تتسنّى له قراءة الآداب الحديثة وإدراك كنهها ومعرفة ما يهدف إليه الكاتب عند تناول الاسم القديم واستخدامه من جديد فى المناسبات المعاصرة. ويكفي أن نعرف مدى المرونة التى تحملها الأسطورة القديمة فى التعبير عن الأفكار والمعاني من استخدام سارتر لأسطورة «أوريستيس» فى شرح بعض مبادىء فلسفته الوجودية، وذلك فى أحلك الأوقات التى مرّت بها فرنسا أثناء الحرب العالمية الثانية عندما احتلتها جحافل ألمانيا النازية.

٢

وُلد أوڤيد فى مدينة سولمونه على بعد تسعين كيلو مترا شرقي روما، وكان مولده سنة ٤٣ قبل الميلاد، ويعدّ آخر الشعراء الذين كان يُطلق عليهم اسم «الأوغسطيين»، وهم جملة من الشعراء الرومان الذين سجّلوا أشعارهم وأنجزوا أعمالهم من سنة ٢٧ قبل الميلاد حتى سنة ١٤ بعد الميلاد، وهى الحقبة التى كان فيها أوغسطس قيصر إمبراطوراً لروما. وكانت معظم كتابات هؤلاء الشعراء ذات أصالة جليّة، بالإضافة إلى ما استوحوه من الأساطير والآداب اليونانية القديمة وما تبعها من آداب العصر المتأغرق، وهو العصر الذى عُرفت به القرون الثلاثة الأخيرة قبل الميلاد.

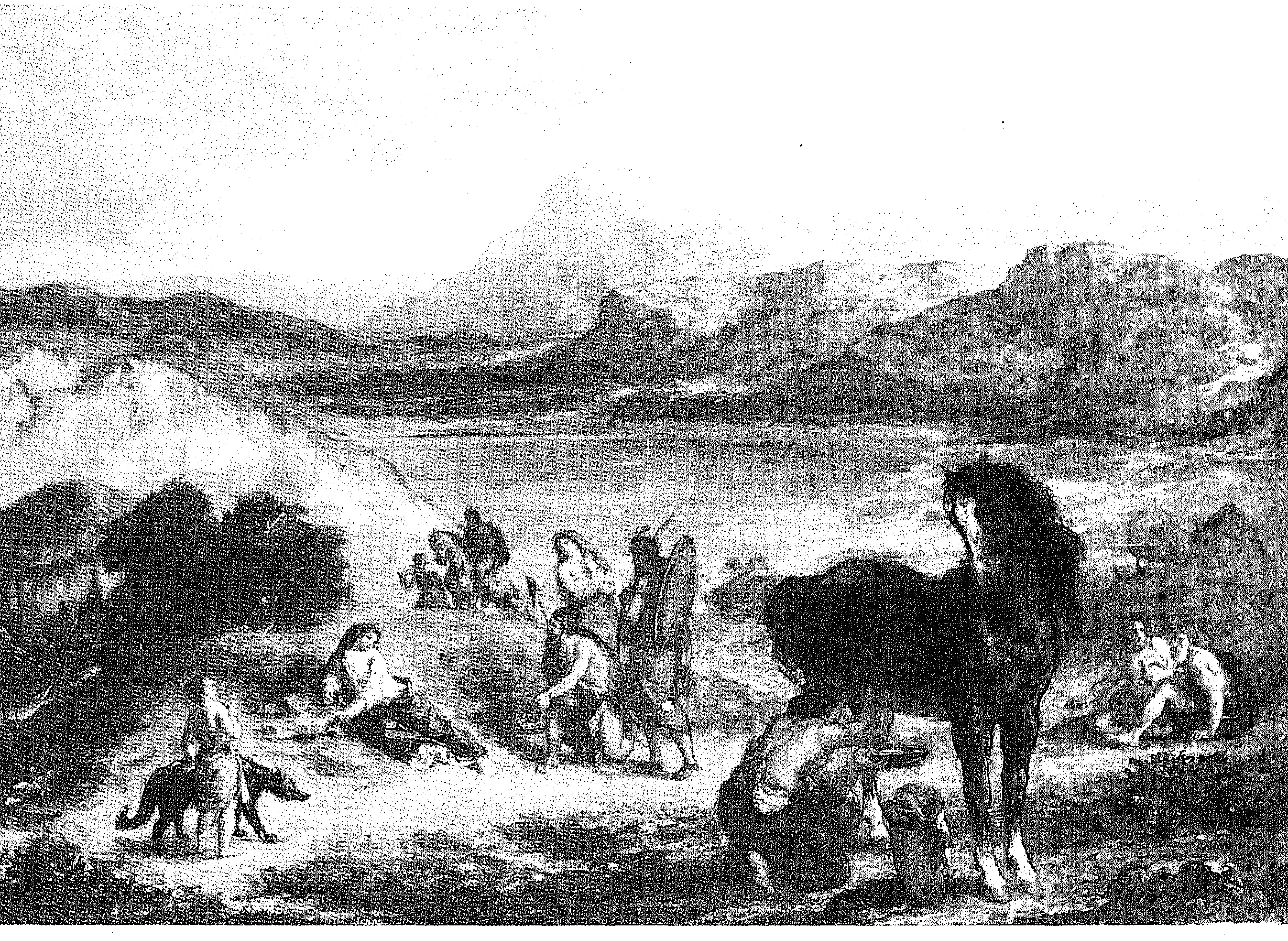

لوحة ١ . ديلاكروا : أوڤيد في منفاه بسكوذيا .
مجموعة خاصة بسويسرة .

وأرفع ما بلغه الأدب الأوغسطي هو ما حققه ڤيرچيل فى «الإنيادة» [٧٠ ق. م. - ١٩ ق. م.]، تلك الملحمة المشهورة التى أُعدّت على نمط إلياذة هوميروس، ثم أُشْرِبت بعض المعاني والملامح الخاصة بالأدباء المتأغرقين وأخذت طابع تلك الفترة، وكان ڤرچيل صديقاً لأوڤيد. ومن هؤلاء الشعراء أيضاً هوراس [هوراتيوس] الذى عاش بين سنة ٦٥ ق. م. وسنة ٨ ميلادية، وتميّز شعره بروح غنائية، واستخدم عَرُوضاً شعرية يونانية خاصة بالأغاني القديمة، وأعاد تناول بعض الموضوعات والأفكار التى شاعت فى أشعار الإغريق القدماء، وكان هو الآخر صديقاً لأوڤيد. ومن الشعراء المبرِّزين أيضاً فى هذه الفترة پروپيروتيوس المعاصر للشاعر هوراس، وكان شعره تقليداً ومجاراة للشعر المتأغرق.

أما شاعرنا أوڤيد المتوفَّى سنة ١٨ م بمنفاه في بلدة «توميس» على البحر الأسود [كونستانزا برومانيا حالياً] فقد بدأ حياته بنظم القصائد الغزلية مثل الشاعر پروپيروتيوس، وما لبث أن واصل رسالته الفنية المتّسمة ببساطة ميّزته عن كل مَنْ عداه من شعراء تلك الفترة. ونستطيع استقاء كل شيء عن حياة أوڤيد وأحداثها من خلال حديثه هو نفسه وتسجيله لمظاهر معاشه وعصره، فهو يعترف بأنه لم يكن يجد شيئاً أمتع من الحديث عن نفسه، وهو القائل فى كتابه «فن الهوى»: «فليسعد غيري بأن يجترّ ذكريات الماضي، أما أنا فأهنّىء نفسي لأنى وُلدت فى هذا العصر الذى يلائم طبعي ومزاجي».

وكان أبوه قد ربّاه وأعدّه ليشغل إحدى الوظائف السياسية أو الإدارية فى الدولة، فانتقل إلى روما مع أخيه حيث اختلف إلى المدارس يتلقّى العلم على أيدي الأساتذة المشهورين، غير أنه لم يجد إشباعاً لذوقه وحسّه فيما كان يتعلمه على أيديهم، وأحسّ بخطر الابتعاد عن الأصالة الشعرية الحقة وعن ميوله الذاتية فى صناعة الشعر ونظمه، فقد كان يشعر فى قرارة نفسه بأنه خُلق للشعر وأن الشعر يتدفّق من بين شفتيه كما يتدفّق الماء الرائق من الينبوع الصافي. وأخذ بعد ذلك يلتقي رجال الأدب فى روما وشُغِلَ بالتعرّف عليهم دون أن يُغْفل متع الحياة ولذّاتها فى مدينة كبيرة مثل روما، وصار بعد وقت قصير شخصاً مرموقاً بين خلاّن على حظ من الدعابة والمرح.

وكان عهد الامبراطور أوغسطس عهد تفاؤل وانطلاق ومرح، وعهد إنجاز المشروعات المعمارية الكبرى وتشجيع للآداب والفنون بعد أن أشاع روح السلام فى ربوع البلاد. ولم تلبث الطمأنينة أن انعكست على حياة الناس، فأخذوا ينهلون من ألوان الرخاء والمتعة دون تخوّف أو قلق. وامتلأت ردهات الأدب بالعديد من الكتّاب، كما اكتظّت بالشعراء والأدباء الذين اعتادوا شحذ ملكاتهم والمران على التعبير والخطابة والكتابة الأدبية وممارسة الهوايات التى تناسب

مواهبهم وتصادف هوىً فى نفوسهم بعيداً عن المشاغل المادية وعن الظروف المحيطة. وهكذا هيّأت الظروف لأوفيد فرصة قرض الشعر فقصر كل جهوده عليه بعد أن أتاح له ميراث أبيه التحرّر من ثقل الوظائف الإدارية، فإذا هو يخلّف لنا مجموعة من الأعمال الشعرية ذات أصالة فنية لا تبارى.

٣

كان أول أعمال أوفيد ديوانه الصغير المسمّى «الغزليّات» Amores وهو مجموعة من القصائد التى تتمحور معانيها حول الغزل - كما يشي عنوان الديوان - أكثر فيها من الإشارة إلى أسماء أبطال الأساطير القديمة فى غضون قصائده، الأمر الذى ينبىء عن مدى إلمام أوفيد المبكّر بالأساطير اليونانية التى اعتاد أن يقتبس منها فى أشعاره الغزلية بما يجمّلها ويعيد إلى الذاكرة الحكايات الخرافية التقليدية، إلاّ أن أوفيد كان يتعمّد أن يُسبغ على هذه العناصر الأسطورية التى يقتبسها فى أشعاره نضارة فيّاضة، كما اعتاد أن يُضفي على الأساطير القديمة حيوية وشبابا متجدّداً. وقد نَظَم قصائده على الوزن الإيليجي، وهو الوزن الذى يتكون من بيتين أحدهما سداسي والآخر خماسي.

وقد شبّب فى «غزليّاته» بعشيقة أسماها «كورينا» يظن النقاد أنها لم تكن شخصية حقيقية، ولعلها كانت نمطاً حشد فيه صفات العديد من النساء اللاتي عرفهن. وقد كان أوفيد سريع الوثوب إلى المغامرات الغرامية، ولو أننا نظرنا إلى بعض ما يكتب على أنه يحمل ظلاً من الحقيقة لاستقر فى نفوسنا أنه هام بمُحْصَنات إلى جانب العذارى، وأنه عرف الخليعات كما استمال إليه الحرائر.

وقد قسّم غزليّاته إلى كتب ثلاثة(١): تحدث فى أولها عن وقوعه فى أسر كيوبيد إله الحب الذى صرفه عن حديث الحرب إلى الخوض فى قصص الهوى، وهكذا علق قلبه بزوجة رجل لم يكن يعبأ بوجوده وبخليعة حاول أن يطهّرها من دنسها. وتحدث فى الكتاب الثاني عن عبوديته لمعشوقته التى اجتاحتها رغبة فى هجر المدينة التى كان يرى أنه لا يكتمل بهاؤها إلا بوجودها فيها، ثم يكشف عن شغفه بأن يجمع بين هوى فتاتين بينما يدفع عن نفسه تهمة خيانته لعشيقته مع

---

(١) جرت العادة لدى الكتّاب الرومان على تسمية فصول الكتاب الواحد باسم «كتاب Liber».

وصيفتها. ثم نجده فى الكتاب الثالث يصف بعض ما صادفه من عثرات عاقته عن أن يلحق بمعشوقته، كما يصف لحظات أخرى نَعم فيها بمتعة اللقاء.

وجاء ديوانه الثانى «البطلات» Heroides يشمل عدداً من الرسائل كتبها على ألسنة نساء شاعت مآسي غرامياتهن فى عالم الأساطير والحكايات الشعبية، فضمّن رسالة «پنيلوپي» إلى زوجها أوديسيوس الشكوى من تباريح الهوى والبعاد وقسوة الانتظار والقلق على الزوج الذى احتجزته حرب طرواده ثم مغامراته البحرية بعيداً عن زوجته. وعرض فى رسالة الحورية «إينونيه» مأساة انصراف حبيبها «باريس» عنها وانشغال قلبه بـ«هيلينا» التى اختطفها ثم اتخذ منها زوجة له. ونقرأ فى رسالة الأسيرة «بريزييس» عتابا لأخيل الذى سعدت بأن تكون محظيته فإذا هو لا يتحمّس لاستردادها حين طمع فيها الملك «أجاممنون». وقد حظى هذا الكتاب بانتشار واسع لما انطوى عليه من براعة لا تُجارَى فى السرد القصصي وعمق الإلمام بطبيعة المرأة وردود فعلها الدفينة.

ثم ظهر كتابه الثالث «فن الهوى» Ars Amatoria(٢) فى العام الميلادى الأول فى أسلوب تعليمي جذاب، وقد قسّمه إلى كتب ثلاثة تضمّن أولها وثانيها نصائح للذكور بينما خصّص الثالث للنصائح الموجّهة للإناث.

والكتاب الأول توجيه للرجل إلى البحث الذكيّ الدءوب عن المرأة الجديرة بهواه، ثم عن طريقة التعرّف بها واستمالتها وإغرائها بالحديث العذب واللفتة البارعة والاهتمام بأناقة المظهر.

والكتاب الثاني تدريب للعاشق على الاحتفاظ بمعشوقته أسيرة دائمة لهواه، لا ينسى فى ذلك أثر الكلمة المنعشة للأفئدة أو الهدية الغالية ولا المظهر الحسن أو الخلق الرصين.

والكتاب الثالث نصيحة ثمينة لأية امرأة تريد غزو القلوب بجمالها، وإرشادها للطريق المثالي الذى يجعل منها امرأة جذابة فى حديثها ومَشْيتها ولفتتها وزينتها.

ومع ذلك فليس الكتاب دعوة إلى الانغماس فى متع الهوى بقدر ما هو دعوة إلى الرقة فى المسلك والأناقة فى المظهر والتزوّد بالمعرفة والإلمام بالفنون، وهى الأمور التى يعتبرها أوڤيد أشدّ تأثيراً فى القلوب من جمال الملامح وبهاء الحليّ والجواهر. هو دعوة إذن إلى خلق مجتمع تزدهر فيه أرفع العلاقات بين الرجال والنساء، وترقّى فيه العادات والتقاليد، ويُصْقَلُ فيه الحسّ ويكتمل فيه الذوق الرفيع.

ثم فاجأ أوڤيد قراءه الذين كانوا يتلقّفون كتبه السابقة بكتاب يمثّل الوجه الآخر لكل ما سبق وقدّمه، فطالعهم بـ«الاستشفاء من الحب» Remedia Amoris يستحثّ فيه الناس على اطّراح

---

(٢) «فن الهوى» لأوڤيد. ترجمة كاتب هذه السطور، وراجعه على الأصل اللاتينى د. مجدى وهبه. الطبعة الأولى: دار الشروق ببيروت ١٩٧٣. الطبعة الثانية والثالثة: الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٩ و١٩٩١ على التوالى، والطبعة الرابعة عن دار الشروق ١٩٩٧.

الهوى والانصراف عن الغرام إلى الأعمال النافعة كالفلاحة أو الرماية أو الصيد أو الانشغال بالرحلات والأسفار الطويلة، وينصح فيه العشّاق بنسيان مغامراتهم الغرامية والتخلص من ذكرياتها، رسائل كانت أم صوراً. ولم يكن إقدام أوڤيد على وضع هذا الكتاب الأخير إلاّ محاولة لتهدئة ثورة الفلاسفة ودعاة الأخلاق والمتزمّتين من أصحاب النفوذ والسلطان ممن اعتبروا مؤلفاته دعوة إلى الفجور والانحلال.

ثم تحدّث أوڤيد عن الأعياد والمهرجانات والشعائر الدينية والمناسبات التاريخية فى قصيدة تعليمية طويلة مقسّمة إلى إثنى عشر جزءاً كان كل جزء منها خاصّاً بشهر من شهور السنة وسمّاها «التقويم» Fasti، رجع فيها إلى وثائق الدولة ومصادر التاريخ والميثولوجيا وعلم الفلك. غير أنه للأسف لم يعثر الدارسون إلاّ على ستة أجزاء منه، ولا نعلم هل أكمله كما يزعم أم احترق ضمن ما حرقه يوم نُفى من روما، أم أنه لم يكتب أصلاً غير هذه الأجزاء الستة.

وكانت هذه الفترة بمثابة مرحلة للمران على تناول موضوعات تراچيدية أهّلته لكتابة مأساته الرائعة «ميديا» التى لقيت شهرة كبيرة فى عصره ونالت استحساناً عظيما، وإن لم يبق منها شىء مع الأسف لأنها ضاعت ضمن ما ضاع من التراث الروماني. ويبدو من حديث المعقّبين المعاصرين له أنها كانت نفحة شعرية ممتازة، وإن لم يشجّعه ذلك على المضى فى مثل هذا النوع من الإنتاج الأدبي. ثم ما لبث أن ظهر له كتاب «مسخ الكائنات» الذى نقدم ترجمته العربية هنا.

ولقد نفى الإمبراطور أوغسطس الشاعر أوڤيد إلى مدينة توميس على البحر الأسود جزاء له على تأليف كتاب «فن الهوى»، غير أن شاعرنا كذّب الزعم هذا قائلا إنه نُفى لإفشائه سرّاً يفضح به علاقته بإبنة الإمبراطور!

ومما يذكر عن أوڤيد أنه نتيجة لغضبه وحزنه معاً فى لحظة فراقه لعاصمته المحبوبة ألقى بكتابه «مسخ الكائنات» فى النار معبّراً بذلك عن يأس قاتم حيال مستقبله الشعري. ولعله كان يحاول تقليد الشاعر ڤيرچيل الذى مات قبل أن يختتم ملحمته «الإنيادة»، إذ لم يكن راضياً عنها كل الرضا فحاول التخلّص منها ولكن حيل بينه وبين ذلك. والراجح أن أوڤيد كان واثقاً من وجود نسخ أخرى من هذا الديوان لدى الكثيرين من أصدقائه مما يؤكد أن محاولته لم تكن عن رغبة حقيقية فى التخلّص من الكتاب.

وواصل أوڤيد بعد ذلك الكتابة من منفاه، فدوّن أشعاراً كثيرة بديعة مصقولة ملتمسا من الامبراطور العفو والغفران، وسجّل فى أشعاره كل ما شهده فى منفاه من صور الهول والفزع. ولكن مضت الأعوام ولم ينل العفو الذى كان يرجوه وظل يواصل كتابة أشعاره، وإن كان قد بدأها مثقلة بالأسى والقنوط والاكتئاب فى كتابيه «المنظومات الحزينة» و«رسائل من پونتس»، ثم ما لبث أن تخلّى عن هذه الكآبة التى انتابته أول الأمر، وإن لم نكن مع ذلك نخطىء نغمة الحنين

الجارف التى ظلت واضحة فى كل أشعاره أو نبرة الشوق العارم إلى العاصمة اللتين طبعتا كل ما نظمه من القصائد فى منفاه، لأن شاعرنا ظل إلى آخر يوم فى حياته مشدود الفكر إلى مدينته الأثيرة مشوقاً للعودة إلى ربوعها الحانية.

وقد استهل «أوڤيد» أعمال منفاه بمدينة «توميس» بكتاب «المنظومات الحزينة» Tristia الذى يصوّر عنوانه مضمونه المُثقل بأسى الوحدة وشقاء الغُربة، وقسّمه إلى خمسة أجزاء وجّه ثانيها إلى الامبراطور أوغسطس يدفع فيه عن نفسه التهم التى ألصقها به خصومه بعد نشره كتاب «فن الهوى» الذى اعتُبر تحريضاً على الفسق والفجور، مستعطفا الامبراطور أن يخفّف من قسوة عقابه وأن يبدله من «توميس» مدينة أرحب لمواهبه الأدبية وأفسح. أما أجزاء الكتاب الأخرى فهى مجموعة من الرسائل الشعرية وجّهها لأصدقائه دون أن يذكر أسماءهم خوفاً عليهم من بطش الامبراطور الغاضب عليه، وتقطر هذه الرسائل مرارة تثير الشفقة عليه فى محنته التى كانت تطحنه بلا رفق.

وكأنما لم يخفّف كتاب «المنظومات الحزينة» شيئاً من وحدة أوڤيد، فوضع كتابا ثانيا أسماه «رسائل من پونتس» Epistulae ex Ponto يضمّ أربعة كتب تحوي رسائل شعرية وجّهها هى الأخرى إلى أصحابه، لكنه فى هذه المرة صدّرها بأسمائهم الحقيقية. وتفيض هذه الرسائل بالشكوى مما ينوء به من عذاب تذوبُ له القلوب، ومن إسهاب يُهوّن من وطأة أساه فى نفس القارئ.

ولم تكن كتابات أوڤيد فى منفاه كلها حزناً وشكوى، فقد كتب مقطوعة طويلة أسماها «إيبيس» Ibis أى طائر أبو منجل المائي المعروف باسم أبى قردان، وفى هذا الكتاب يصبّ جام غضبه على رجُلٍ لم يُسَمِّه متهماً إياه بمحاولة الاعتداء على زوجته وأمواله فى غيبته. ولعل هذا الكتاب أعرق موسوعة فى السّباب لأنه يضم مجموعة نادرة من اللعنات والشتائم المستخلصة من أقدم كتب التاريخ والأساطير والحكايات الشعبية.

ومات أوڤيد بمنفاه عام ١٨ ميلادية دون أن يحقّق الحلم الذى ظل يراوده حتى آخر حياته (لوحة ١).

***

وقد اخترت أن أنقل هذا الكتاب إلى العربية لأسباب عدّة:

أولها: إحساسي بحاجة اللغة العربية إلى مادة تتمثّلُ فيها الأساطير والحكايات الخرافيّة الشائعة التى تجلو لنا ما كان عليه آلهة الإغريق والرومان وأبناء تلك الحضارة القديمة.

ثانيها: أن هذا الكتاب يروي هذه الأساطير بأسلوب شعري متدفّق وبلغة عذبة رقيقة لا تنفّر القارىء وترسّخ أسماء الآلهة والأبطال فى ذهنه، مما يجعلها قريبة إلى ذاكرته حين تصادفه مرة

أخرى فى مطالعاته للآداب القديمة أو الآداب العالمية التى تواصل استخدامها للرمز أو الإيماء إلى أدوار محدّدة أو وقائع معيّنة .

ثالثها : ما كان لهذا الكتاب من أثر كبير فى تاريخ الأدب العالمي عامة وعند الرومان خاصة ، فلم يحظ كتاب آخر بمثل ما حظى به هذا الكتاب من التأثير فى القراء سواء لما تميّز به من أسلوب أدبي رائع أو لما اختص به من موضوع شائق جذّاب .

رابعها : أن دراسة المنجزات الفنية من نحت وتصوير وموسيقى وغناء ودراما على مرّ التاريخ وتذوّقها باتت تحتاج إلى حد أدنى من الإلمام بالأساطير الإغريقية والرومانية .

فالشاعر أوڤيد يعنى هنا بموضوع واحد يَخْلُصُ عن طريقه إلى التأليف بين عدد من الأساطير والحكايات الخرافية ذات السّمة المميزة ، وهو موضوع تغيّر صور الكائنات الحيّة وأشكالها وتحوّلها من شكل لآخر أو من طبيعة إلى أخرى . ويتابع الشاعر رواية هذه التحوّلات نقلا عن أصولها مع ما يُضفيه على أسلوبها من الأداء الأدبي الممتاز ومن الشاعرية الملهمة والتشبيهات الرائعة ، مما جعل كتابه من أبرز الأعمال الأدبية التى قدّمها الأدباء والشعراء الرومان . وقد وردت معظم هذه الحكايات الخرافية فى مؤلفات شعراء الإغريق الأقدمين التى كان لها دور أساسي هام فى تثقيف الرومان أنفسهم وفى تربيتهم خلال المراحل الأولى من نشأة الدولة . لكننا لا نملك بعد قراءتها إلا الاعتراف بقيمة المجهود الفذّ الذى بذله الشاعر أوڤيد حين أقدم على اختيار هذه الأساطير القديمة باعثاً فيها الحياة من روحه الشاعرية ، مُعيداً روايتها فى رشاقة ويُسْر حتى صار يُضرب بها المثل فى الأخذ بمجامع القلوب والاستحواذ على لبّ كل من يقرؤها أو يستمع إليها .

ومن هنا نرى أن العالم قد كسب بهذا الكتاب مصدراً أدبياً ثراً يُعدّ كنزاً حافلاً بالأساطير والحكايات الخرافية ، لايزال يقرؤه ويتطلّع إليه الجميع فى كل اللغات بشغف كبير حتى يومنا هذا . وظل هذا الزاد الضخم من الحكايات منبعاً تستقى منه الآداب الغربية الإلهام فى فنونها المستحدثة ، كما تستمد منه الحضارات الحالية قوة روحية فريدة . ومع ما يفيض به هذا الشعر من ألوان البلاغة والتعبير البياني فهو ينبض بنضارة العالم الأسطوري الذى يصفه شعره القصصي الجذّاب .

وقد وصف الشاعر الروماني كوينتليانوس هذا الكتاب بأنه ملحمة شعرية ، وإن لم يعدّه بعض النقاد ملحميا لخلوّه من التكوين الموحّد الضروري فى حالة الملحمة . والحق إن أوڤيد قد نجح فى أن يخلق من هذا العمل الشعري الذى يتألف من خمسة عشر فصلاً مُصاغة فى وزن سداسي التفعيلات بناء محكماً أتاح للقارىء الانتقال من قصة لأخرى دون أن يشعر بأى انفصال أو خلط فى ترتيب الكتاب .

ويبدأ الشاعر هذا الكتاب بالثناء على الآلهة وحمدها على ما أسدت من خير للوجود، ثم يمضي فيتحدّث عن أصل العالم ومراحل نشوء الكون منذ العماء إلى انبثاق الحياة، ثم تتابع الأجيال جيلاً بعد جيل وعصراً بعد عصر إلى ما انتهى إليه الكون من نظام. وإذا هو يُقسّم تلك العصور إلى أربعة: العصر الذهبي والعصر الفضي وعصر البرونز ثم عصر الحديد الذى تجلّى فيه عدوان البشر وشرورهم. وكان چوپيتر [زيوس عند الإغريق] هو الذى أنهى إلى سائر الآلهة بتحوّل أول آدمي وهو ليكاؤون إلى حيوان، وكانت تلك العقوبة على ما كان له من شرور وآثام. وعندها شرع العمالقة فى هزّ عرش الآلهة إلاّ أن چوپيتر كبير الآلهة وربّ البشر استطاع القضاء على محاولتهم. وما لبث أن عقد العزم على إفناء العنصر البشري بأكمله قاصداً إنهاء عصر وبدء آخر، فراح يُرسل سيولاً وفيضانات متلاطمة الأمواج لإغراق الأرض، فلا يبقى بعد الطوفان سوى ديوكاليون وزوجه پيرا لتعمير الأرض من جديد.

وقد بدأت قصائد الكتاب بوصف هذا الحادث، ثم استرسلت بعد هذا تروي قصة أپوللو وهو يفتك بالأفعوان پيثون الهائل، ثم إذا هو يقع فى غرام دافني. ومن هنا أخذت غراميات الآلهة تتوالى فى صور مختلفة وصفها أوڤيد خلال الكتب الخمسة الأولى [أى الفصول الخمسة] حتى منتصف الكتاب السادس، لينتقل بعد ذلك إلى موضوعات تتّصل بأبطال اليونان القديمة مثل چاسون وثيسيوس وأضرابهما حتى حرب طراودة. ويستمر أوڤيد على هذا النحو فى سرد البطولات الخالدة ابتداء من شخصية أينياس إلى أن يصل إلى رواية قصص إيطالية ورومانية قديمة تتّصل بحياة الملوك. وفى نهاية الكتاب تَرِدُ على لسان أوڤيد قصة تحوّل يوليوس قيصر إلى كوكب وانتسابه إلى الآلهة، وهى القصة التى اختلقها على سبيل الإطراء لإبنه بالتبنّي الإمبراطور الحاكم قيصر أوغسطس واستدراراً لعطفه.

ولقد تميّز هذا الكتاب «مسخ الكائنات» فى مجموعه بحشد هائل من القصص الخرافي المصوغ فى أسلوب شعري توفّرت له كل وسائل الخيال والحسّ والعاطفة والمشاعر الوجدانية الدافئة. ولا يكاد المرء يطالع أبيات شعره عن شخصية من الشخصيات من أمثال پيجماليون أو كاليستو أو ڤينوس حتى يلمس القدرة الفنية العالية والبراعة فى تصوير مواقف العشق والغرام مع ذكاء حاد فى النفاذ إلى الطبيعة البشرية فى خضم معارك الحياة اليومية.

على أن أحداث الأساطير التى جاءت على لسان أوڤيد ليست جميعا ذات صلة بالتحوّلات الخَلْقيّة وحدها، بل كان الكثير مما يرد فى غضون رواياته مواقف تشير إلى الرغبة فى إنعاش القلوب بالبهجة. من ذلك ما رواه عن أورفيوس وقد هدّه العشق والهوى، فيربط أوڤيد بين هذه

القصة وبين قصة الإلهة سيريس وپروسيرپينا [پيرسيفونى عند الإغريق] رغبة منه فى التأثير على القراء تأثيراً عميقا بما احتشدت به هذه القصة من ألم دافق ولَوْعة حارقة على الرغم من أنها لا تتصل عن قرب بموضوع مسخ الكائنات.

وهذه الفكرة القائمة على انتقاء مجموعة من الحكايات الخرافية والأساطير لم يكن أوڤيد مبتدعها بل سبقه إلى ذلك شعراء العصرين الإغريقي والمتأغرق الذين تناولوا موضوع تحوّل الآدميين إلى طيور. ولا شك فى أن أوڤيد لم يكن السابق إلى هذا العمل كما لم يبتكره لأن فكرة جمع الأساطير من هذا القبيل عُرفت من قبله، ولكن من العسير أن نعرف إلى أى حدّ كانت هذه المجموعات السابقة ذات تأثير على مؤلّفه. غير أنه مما يبعث على الإعجاب بمقدرة أوڤيد طريقته الفنية الحاذقة فى ربط هذه الحكايات بعضها ببعض، فليس ثمة رباط بين الحكايات المتعاقبة التى يرويها أوڤيد، لكنه استطاع بما أوتيه من مهارة أن يصل فيما بينها بطريقة بارعة، بحيث يقرن بين طابع شخص وشخص أو بين اسم واسم أو بين موقف وموقف. فيستغل أوڤيد هذه المشابهات فى إلحاق قصة بأخرى على أساس الانتقال من موضوع إلى ما يشبهه ومن صفة إلى ما يماثلها، وليس فيما بين هذا الربط الفني تلفيق أو تكلّف إلا فى القليل النادر. ومن هنا تجلّت فى الكتاب وحدة جامعة، بخاصة وأنه عمد إلى الربط بين الأحداث ربطاً دراميا سليماً بطريقة شاعرية تعين المستمعين على استكشاف الصلة العميقة الوثيقة بين البشر والطبيعة التى تحتضن سائر الكائنات الموجودة من إنسان وحيوان ونبات وجماد فى آن، تلك الرابطة التى تصل بين الإنسان والكون المحيط به، وهى الأساس الذى بنى عليه هذا الموضوع، وأصبح عنصراً مشتركاً بين هذه الحكايات الخرافية الواردة بين دفّتىْ الكتاب، وإن كانت الرابطة بين الحيوان والإنسان فى عالم الطبيعة الحيّة هى الغرض المنشود من إثارة هذه الحكايات وروايتها فى هذا الأسلوب العذب الشائق.

ويلفتنا فى هذا الكتاب تكرار ورود أسماء الآلهة حتى تكاد أن تكون قاسماً أعظم فى كل الأحداث، كما يسترعي انتباهنا أن چوپيتر هو مصدر تهديد دائم للحوريات من ناحية وللعذارى من ناحية أخرى، ويرد ذكر أپوللو وميروكوريوس دَوْماً دون أن يُحاطا خلال الأقاصيص التى يرويها أوڤيد بهالة القدسية والتقدير المعهودة. ولم يكن هذا الموقف بجديد فقد جرت العادة عليه منذ أقدم العصور كما هى الحال مع هوميروس الذى لم ينظر دائماً نظرة الإجلال إلى آلهة الأوليمپوس الذين يرتكبون كل الخطايا التى يرتكبها البشر، ويلهون مثلهم ويعبثون، ويقعون أحياناً فريسة للغيظ والحسد والحقد والكراهية والطمع والشراهة. وهو ما أتاح لأوڤيد أن يستغل خياله فى تصوير هذه الأحداث المتصلة بالآلهة، وأن يُفيد من خلال هذا المجال الرحب لإثارة المشاعر المختلفة - فضلاً عن السخرية - لدى قرائه ومستمعيه. فإذا حديث الآلهة يَرِدُ كما يَرِدُ حديث البشر على لسانه وكأنهم معاً أبطالٌ فى مسرحية ضخمة يعدّها القدر، ويرسم خطوطها

المصير المحرّك لكل ما يجري فى الكون من أحداث ويسيّرها القضاء المحتوم، ويخضع لها الصغار والكبار بما فى ذلك الآلهة والأبطال على السواء.

واعتاد أوڤيد أن يكرّر بعض الأبيات من حين لآخر وسط أشعاره دون أن يستشعر القارىء أية غضاضة، بل قد يجد فى هذا التكرار نوعاً من الأنس المستحبّ، فلم يكن ينقص أوڤيد براعة الاستهلال أو القدرة على تغيير النغم والأسلوب فى بعض الأحيان. ولم يتخلّف أوڤيد عن التسامي بعباراته إلى أرفع المراتب باستخدام الفقرات الشعرية ذات الوقع المرهف الجميل. فيبدأ الكتاب الأول - كما أسلفت - بعبارات عليها مسحة من جلال، إذ هى تتّصل بقصة خلق العالم ووصف أحداث الكون وهو فى مرحلة النشوء والتطور، ولهذا فقد امتاز هذا الفصل بطابع أشعار الملاحم بما لها من جلال ورهبة، وهو ما يصدق أيضاً على الكتاب الخامس عشر لأنه أكثر جنوحاً إلى الأفكار الفلسفية. ومن هنا تتهدّر الأنغام قوية التأثير عندما تعمد إلى وصف ريح الشمال، ثم تعانق النشوة الغنائية عند ذكر باكخوس [ديونيسوس عند الإغريق] إله الخمر، وفيما بين هذا وذاك تمضي الألفاظ والعبارات رقيقة هادئة وديعة حتى تكاد تبلغ فى عذوبتها همس الأنغام.

ويسرد أوڤيد فى الكتاب الخامس عشر حديثاً مُسْهبا للفيلسوف اليوناني پيثا جوراس، متبنّيا فلسفته الشاعرية الحالمة مُعارضاً بها الفلسفة الأبيقورية التى كانت شائعة وقتئذ، كما أورد بعض الآراء التى تدور حول نظرية تناسخ الأرواح التى نادى بها پيثا جوراس كأنما يلتمس فيها تعضيدا وتبريراً لما يتعرّض له موضوعه الشعري فى هذا الكتاب وهو مسخ الكائنات من حال إلى حال، وتناسخ الأرواح كما نعرف هو انتقال روح الميت بعد وفاته إلى كائن آخر حيواناً كان أم نباتاً. لكنه لم يستطع أن يجلو هذا الأمر حق جلائه لغلبة الروح الشاعرية والبلاغية عنده على قدرته الفكرية، ثم ما كان منه من نفور من التضحية بأناقة العمل الشعري من أجل إبراز بعض الأفكار الفلسفية أو بعض الأحداث التاريخية، وكان أوڤيد يتجنّب دوما طغيان مفردات النظريات العلمية على التعبير الشعري وجماله وأناقته وسلاسته. وهذه الميزة هى التى وَقَتْ شعرَه من الإسفاف ومن احتمال تحوّله إلى نظمٍ تعليميّ فحسب خال من روح الشعر. وانساب أثر ذلك كله على مجموعة أعمال أوڤيد الشعرية فأُترعت بوصف نادر للطبيعة وجمالها وروعتها. ولعلنا لا نبالغ كثيراً إذا قلنا عن أوڤيد أنه كان من أبرع الشعراء الذين وصفوا الطبيعة بخصوبة خيالهم الخلاّق. وستظل أوصافه للطبيعة نمطاً فذاً لشعر الوصف بين كل الشعراء الأقدمين والمحدثين، فلقد أدّت هذه البراعة إلى تحويل المشاهد الخيالية إلى مشاهد ناطقة بحكم ما تميزّ به من دقة التعبير ومن القدرة الخارقة على الأداء الشعري. ومن هنا نال شاعرنا تقدير كل من دانتي وشكسپير، وحسبنا شهادة مثل هذين الشاعرين دليلاً على بلوغه المستوى الأعلى فى كتابة الشعر. فبهذه الأبيات تحدّث دانتي عن أوڤيد:

سمعت وقتئذ صوتاً يقول: «مجّدوا الشاعر الأعظم، فطيفه يعود بعدما ارتحل. وبعد أن توقّف الصوت وسكت، رأيت أشباح عظماء أربعة قادمين نحونا لم يكن لهم مظهر الحزن ولا السعادة. بدأ أستاذي الطيّب يقول: انظر إلى من حمل بيده ذلك السيف ويتقدّم ثلاثة كأنه السيّد. ذلك هو هوميروس أمير الشعر، والثاني الذى يأتي بعده هو هوراتيوس الساخر، والثالث أوڤيديوس والأخير لوكانوس. ولأن كلا منهم يشترك معي فى الاسم الذى نطق به الصوت الوحيد، فهم يشرّفونني، وبذا يحسنون صنعا»(٣).

لقد ظل شعر أوڤيد نموذجا فريداً فى الأداء الفني، وأمكن للكثيرين ممن درسوه وتعمّقوه وفهموه أن يجدوا فى مطالعته متعة حقة وأن يتبيّنوا فى ثنايا أعماله فناً أصيلاً ملَكَ جُماع القلوب فى كل البقاع وفى كل اللغات. ولعلّي بترجمتى هذه أسْهِمُ بإتاحة هذه المتعة لأبناء لغتنا العربية حتى يشاركوا فى استكشاف هذا الكنز النادر.

وقد تناول الكثيرون كتاب «مسخ الكائنات» بالدراسة والنقد العميقين، وتُعدّ الدراسة التى عرضها الأستاذ هرمان فرانكل فى كتابه «أوڤيد شاعرٌ بين عالمين» من أهمّها جميعاً، ونستطيع أن نوجز ملاحظاته فى أمور ثلاثة:

أولها: أن الملحمة أول محاولة لأوڤيد يقصّ فيها قصصاً بطريقة فنية متصلة بحيث يكون لها بداية ووسط ونهاية، وبحيث تتناسب مع قواعد كتابة الملحمة التى تتطلب من الشاعر التزام البيت الطويل ذى التفعيلات الستّ والاسترسال فى القصّ خلال ملحمة طويلة ضمّت أكثر من إثنى عشر ألف بيت فى خمسة عشر فصلاً [أو كتاباً]. فقد فرض عليه التسلسل القصصي فى ملحمته أن يربط بين أجزائها بروابط لا يكاد يحسّ معها القارئ هذا الربط، فلجأ إلى حيل شتى، وذلك بأن تكون ثمة صلة بين شخصيات القصص، أو بأن يكون ثمة تشابه بين موضوع القصص، إلى غير ذلك من وسائل مماثلة.

ثانيها: أن اختيار موضوع التحوّلات أو مسخ الكائنات الذى تناوله الشاعر يرجع إلى نظرة له فى الكون اكتسبها من شغفه بالقصص الأسطوري بما ينطوي عليه من فتنة وإثارة للخيال يستطيع أن يُسبغ بهما على ما يرويه منطقاً لا يرتبط بالواقع فى شيء، حيث يبدو الموت وكأنه لا وجود له فى ذلك العالم السحري الذى لا يموت فيه كائن بل يتحول من شكل إلى شكل وفى هذا كل السلوان، على حين أن الواقع ينطق بغير هذا فإن الموت والفناء يغشيانه لاسيما فى عصر عنفوان الدولة الرومانية المؤسَّسة على القهر والطغيان. ومن ناحية أخرى يكشف أوڤيد عن إيمان بـ«وحدة الروح» فيذهب إلى أن الروح تنقسم على نفسها وتزدوج، وينصبّ كل جزء منها فى

(٣) الكوميديا الإلهية لدانتي: الجحيم. النشيد الرابع ٩٠. ترجمة حسن عثمان. دار المعارف ١٩٥٩.

كائن آخر غير الذى فَنَى، وفى هذا ما يدل على وحدة الروح الخالدة. وهو ما يفسّر لنا اهتمامه فى الكتاب الخامس عشر بخطبة پيثا جوراس حين يناشد الناس أن يتجنّبوا ذبح الحيوان لأن فيه إهدار للروح وحيلولة بينها وبين الخلود، ويمكن اعتبار هذه الخطبة أساساً فلسفياً لاتجاه أوڤيد فى قصص هذا الكتاب.

ثالثها: أن عقيدة أوڤيد الدينية كانت أقرب إلى اللا أدرية منها إلى الإيمان الإيجابى، وهو ما يكشف عنه بيتٌ فى الكتاب الأول من قصيدة «فن الهوى» حيث يقول: «حقاً إنه من الخير أن يكون ثمة آلهة. . . . فلنؤمن إذن بوجودها». غير أن القراءة الدقيقة للنص تبيّن أنه يُقرّ عبادة الآلهة بل يحبذها بشرط ألا يظن الناس - كما ظن الفلاسفة الأبيقوريون - أن الآلهة فى عليائهم لا يكترثون بما يحدث على الأرض. فأوڤيد يعتقد أن الآلهة يُشغَلون بأمور البشر من وقت لآخر، ومن ثم يَجْمُلُ بنا عبادتهم فى خشوع، فهم الذين يمنحون الثواب لمن لا يعتدي على غيره. والراجح أن أوڤيد كان يعتقد أن الإنسان لا يستطيع أن يحيا حياة صالحة إن لم يؤمن بأن ثمة قوة عليا تراقبه وتحاسبه على سلوكه. ولم تكن الديانة التى اعتنقها أوڤيد هى تلك الديانة البدائية المرتبطة بالعبادات اللاتينية العشائرية المحلية، باستثناء ربّة الحظ «فورتونا» التى لم ترْقَ إلى مستوى الآلهة وإن كانت تنفّذ إرادتهم فى أمور الدنيا، بل هى الديانة الإغريقية العامرة بالأساطير الذكية اللمّاحة الرامزة إلى عوالم النفس وتقلبات أحوال الطبيعة. ولقد انعكس هذا الميل نحو الديانة الإغريقية القديمة بالمثل على الإمبراطور أوغسطس لما فى تلك الديانة القديمة من توقير لمفهوم النظام وتوطيد للاستقرار بالرغم منْ تقلّبات الأحداث ومفاجآت الدهر والطبيعة. ولذلك عدّت الديانة الرسمية فى روما الإمبراطور ممثلاً شخصياً لربّ الأرباب چوپيتر على الأرض ولقبّته «بالإله الماثل بيننا». هكذا أصبحت الديانة الرسمية وسيلة لربط الأمة بولاء ديني موحّد ومشترك لا يهتم بتعاليم خاصة دون أخرى وإنما يفتح المجال للديانة الإغريقية القديمة الموحّدة، فغداً الآلهة حلفاء للدولة والدولة حليفة الآلهة. وقد حاول أوڤيد مجاراة العقيدة الرسمية السائدة وإن كان فى قرارة نفسه لم يُعْنَ كثيرا بأمور السياسة والمُلك، فهو لا يؤمن إلاّ بأمرين اثنين: الفن والإنسان. وكان اهتمامه بالأساطير من مظاهر إيمانه بالفنون والآداب لا لإيمانه بمعتقدات دينية بعينها.

ومن حيث تكوين الملحمة لاحظ الأستاذ فرانكل أمرين هامين:

أولهما: التوازن بين الكتاب الأول والكتاب الخامس عشر، ففي الأول وصف لبدء الخليقة من حيث هو تحوّلٌ من حالة فوضى وانقسام إلى حالة نظام وانسجام. وفى الكتاب الأخير وصف لتاريخ روما من حيث هو تحوّلٌ من مغامرات فردية إلى نظام سياسي يغدو فيه الامبراطور إلهاً. فعلى حين كان الآلهة فى الكتاب الأول هم خالقي النظام الكوني، إذا «النظام السياسي» فى الكتاب الأخير هو الذى رفع قيصر من البشريّة إلى الربوبيّة.

ثانيهما : أنه على حين تحتفظ الملحمة بأسلوبها القوي الجارف فى الكتب الأحدَ عشر الأوائل، تفقد قدراً من حيويتها فى الأربعة الأخيرة.

٥

وبالرغم من أن أوڤيد قد أنهى حياته فى المنفى بعيداً عن جمهور قرائه فى روما، وبالرغم من أن كتاب «فن الهوى» الذى كان قد ألّفه قد حُرِّم تحريماً قاطعاً، وأن كتاب «مسخ الكائنات» كان صاحبه قد ألقى به فى النار، إلاّ أن نسخاً من هذين المؤلّفين كانت فى متناول القراء فى روما نفسها أثناء السنين الأولى من الامبراطورية. وهناك شعراء من القرن الأول الميلادى من أمثال مارتياليس وستاتيوس چوڤيناليس كانوا يطالعون دواوين أوڤيد بحماسة، وكذا امتدحه الناقد كوينتيليانوس فى كتبه كما أسلفتُ بوصفه شاعراً ملحميا وغنائيا ومسرحيا وإن أخذ عليه الانطلاق على هواه، كما لم يؤمن أن الكتاب كله يستحق التقريظ بل بعضه فقط. ثم ما لبث ذوق العصر أن تغيّر وأخذ قراء أوڤيد يتناقصون شيئاً فشيئاً إذ كانت العصور الأولى للمسيحية عهد انكماش لمكانة أوڤيد، فلقد تعمّد الكتاب المسيحيون الأوَل الحطّ من كافة الكتّاب الوثنيين لاسيما الشعراء منهم بوصفهم أشدّ الكتاب خطراً على عقول القراء، إذ تزخر مؤلفاتهم بقصص ماجن عن آلهة الوثنية كما تنطوي على عربدة واستهتار. وهذا إن دلّ على شيء فإنما يدلّ على تخوّف رجال الدين من أثر هذه الكتب فى نفوس المؤمنين لما فيها من جاذبيّة وتشويق. وبالرغم من ذلك كله مضى النسّاخ ينقلون شعره سراً فيطالعه الناس من جميع الطبقات فى الخفاء. بل إن بعض رجال الدين أنفسهم كانوا يطالعونه، إذ يشير عالم اللاهوت المشهور «لكتانتيوس» إلى كتاب «مسخ الكائنات» مستشهداً به للبرهنة على أن إلهاً واحداً قد خلق العالم، حتى وإن جاء ذلك على لسان شاعر وثني! كما وصلت إلينا بعض المخطوطات من القرن السادس كتبها عالم لغوي اسمه «پلاكيدوس» تحوي ملخّصات نثرية لبعض الأساطير التى ذكرها أوڤيد، وأغلب الظن أن هذه الملخّصات كانت تمارين لغوية مدرسية لطلاب اللغة اللاتينية. وفى عصر الامبراطور شارلمان قرّظه «ثيودولفوس» أسقف أورليان - وكان من أهم رعاة التعليم فى بلاط الامبراطور - تقريظاً مُعْجباً، هذا إلى أنه ذكَره بين كتّاب اللغة اللاتينية الذين ألفَ قراءة ما يكتبون طوال حياته. ثم أضاف قولاً له شأنه، هو أن مطالعة كُتب أوڤيد لا شك تفيد القارىء لأن ما يليق منها يتضمّن حقائق عميقة كامنة وراء قناع الخيال. ومع ذلك كان ڤرچيل هو الشاعر الأشهر، ولم يرق أوڤيد إلى درجته ليحلّ محله فى كافة أنحاء أوربا إلاّ مع بدء العصور الوسطى. وكان ذلك التطور طبيعياً بالنسبة لعصر مولع بقصص الخيال والمغامرات. ويبدو أن شعره الغزلي قد اجتذب جمهوراً كبيراً، فعدّه شعراء «الجوليارد» - وهم الطّلاب الرُّحل ناظمو الشعر الماجن - راعيهم. ومما لا شك فيه أيضاً أن شعراء التروبادور والمينيزنجرز قد وجدوا فى قصائده ينبوعاً ثراً لإلهامهم أشعارهم.

وقد ورد اسم أوڤيد فى القرن الحادى عشر ضمن قوائم كتب المطالعة المدرسية فى مدن ألمانيا، كما ظهر اسمه فى فرنسا خلال القرن الثانى عشر، فوضع «ألكسندر نيكام» أستاذ الآداب بجامعتىْ باريس وأكسفورد كتاب «مسخ الكائنات» لأوڤيد ضمن الكتب المقررة فى منهجه الدراسي. وقد سمّى البعض القرنين الثانى عشر والثالث عشر بـ «العصر الأوڤيدي» Aetas Ovidiana، إذ ظهرت ترجمة ألمانية لكتاب «مسخ الكائنات» صدرت فى فجر القرن الثالث عشر إلاّ أنها لم تصل إلينا. كذلك كان لهذا الكتاب تأثير كبير فى إسپانيا خاصة فى «ملحمة الإسكندر» الشهيرة Libro de Alexandre فى أواخر القرن الثالث عشر. وفى فرنسا ترجم «كرتيان دى تروا» أول شاعر فرنسي جدير بالذكر إبان القرن الثالث عشر أجزاء من كتاب مسخ الكائنات، كما نُسبت إليه معالجة موسّعة لأسطورة فيلوميلا عنوانها «فيلومينا». وثمة معالجات بالشعر الفرنسي القديم ترجع إلى العصر نفسه لأسطورة نارسيسوس وأسطورة پيراموس وثيزبي، والثابت أن أوڤيد هو أول من دوّن الأسطورة الأخيرة هذه للآداب اللاحقة على عصره.

وكذا نتبين ملامح كتاب مسخ الكائنات فى المنظومة المشهورة المسمّاة «قصة الوردة» Roman de la Rose التى تعدّ من روائع الأدب الفرنسي القديم يتجلّى فيها تأثير أوڤيد الغزليّ. وهناك أيضا قصيدة بلهجة إقليم پروڤانس من القرن الثالث عشر تتضمن عددا من القصص التى ينبغي على كل شاعر أن يتعرّف عليها، منها قصص كثيرة لم ترد فى غير كتاب مسخ الكائنات. وفى الوقت نفسه تقريبا حدث تحول غريب لكتاب مسخ الكائنات نفسه، فلكى تتاح للقارئ فرصة الإطلاع على الكتاب دون المساس بالقيم الخلقية جُمعت بعض نصوصه مع تفسيرات رمزية مسهبة لمغزى الأساطير تربط كلما أمكن بين حكايات أوڤيد وقصص الكتاب المقدس! حتى لقد استُغلت قصة الخلق والطوفان على سبيل المثال استغلالاً دينياً وأخلاقياً بارعاً. بل لقد ذهب بعض الكتّاب إلى أبعد من ذلك فاستخلصوا من الأساطير عبرًا لو وصلت إلى علم أوڤيد لأصيب بالدهشة والعجب. وثمة نص فرنسي قديم من أوائل القرن الرابع عشر بعنوان «أوڤيد معالجاً علاجاً أخلاقياً» Ovid Moralisé فيه تأويل رمزي لما جاء على لسان أوڤيد، فإذا هو يربط قصة الطوفان التى جاءت فى التوراة بنظيرتها فى «مسخ الكائنات» جاعلاً من حديث أوڤيد ما يدلّ على أن الطوفان عنده لا يُراد به غير طوفان الخطيئة التى يغرق فيها الآثمون، كما ذهب إلى أن مُراد أوڤيد بالأفعوان پيثون هو الشيطان، وأن مراده بأپوللو الذى قضى عليه هو المسيح، واحتملت أسطورة أپوللو ودافني ما لا يقلّ عن خمسة تفسيرات رمزية مختلفة. وثمة أيضا كتاب إيطالي لمؤلف مجهول من القرن الرابع عشر حاول أن يفسّر فيه بعض الأساطير تفسيرات لا أساس لها، فإذا هو يصف أكتايون بأنه صيّاد يذهب إلى أن الصيّد لون من ألوان الجنون ولذا هجر الصيّد، غير أنه رحمة بكلاب الصيّد احتفظ بهم، فإذا هذه الكلاب تُكثر عليه بمطالبها الشَّرهة، وإذا هو يعجز عن الاستجابة لها فتجتمع عليه وتنهشه. وقد شاع هذا النوعَ المُؤَوّلُ من التفاسير شيوعاً كبيراً وقتذاك.

وفى القرن الثالث عشر تُرجم كتاب مسخ الكائنات إلى اللغة اليونانية، وهى اللغة الأصلية لأغلب هذه الأساطير، وبقيت هذه الترجمة الهامة التى قام بها الراهب البيزنطي «بلانوديس» حتى يومنا مرجعاً أساسياً فى تحقيق الأعلام الجغرافية. وفى إيطاليا نفسها جاءت ملحمة «الكوميديا الإلهية» العظيمة لدانتي عامرة بالإشارة الدالة على مدى إلمامه بمؤلفات أوڤيد وإعجابه بها. ولا شك أن كتاب مسخ الكائنات كان أهم مصدر لدانتي لما جاء فى ملحمته عن الأساطير الكلاسيكية، بل إنه يتحدّى أوڤيد فى أحد مواضع ملحمته بأنه سيبزّه فى حقل اختصاصه، بأن ابتكر نمطا مزدوجاً من التحوّل هو مسخ الإنسان إلى ثعبان ثم تحوّل الثعبان إلى إنسان من جديد. وكان «بوكاتشيو» أيضاً من المولعين بأوڤيد، ففى قصيدته الطويلة «الرؤيا العاشقة» Amorosa Visiona يعيد سرد قصص كثيرة من قصص أوڤيد ومن بينها الأسطورة الشهيرة لپيراموس وثيزبي. وإن لم يكن كتاب ديكاميرون «الأيام العشرة» لبوكاتشيو قد أخذ عن أوڤيد مباشرة فهو فى إطاره العام يوحي بأسطورة من أساطير أوڤيد، فقصص ديكاميرون هى مسامرات لبعض الأشراف للتخفّف من ملل حياة الريف بعد هروبهم من طاعون كان يعمّ المدينة، مما يذكّرنا بأسطورة بنات ميناس فى كتاب مسخ الكائنات اللاتي أخذن يتسامرن على حين كانت سائر النساء قد اختلفن إلى مهرجان باكخوس.

وكان أوڤيد حاضراً فى أذهان الأدباء الإنجليز أيضاً منذ القرن الثانى عشر، فذكره المؤرخ «وُولتر ماپ»، غير أن «تشوصر» فى القرن الرابع عشر هو الذى تأثر تأثراً كبيراً بشاعرنا الروماني، وأغلب الظن أنه قد تعلق بأوڤيد أثناء وجوده فى فرنسا. ففى قصيدته الطويلة «دار الشُّهرة» The Hous of Fame كرّس أحد أعمدة الدار لأوڤيد «أديب ڤينوس». ولا شك أن لشعر أوڤيد الغزلي تأثيراً كبيراً على كتابات تشوصر إلى جانب شعره القصصي، ففى «أسطورة الفاضلات» The Legend of good Women نجد قصة پيراموس وثيزبي شديدة الصلة بالأصل الأوڤيدي، كما نتبينّ أيضاً بعض القصص الأخرى المستمدة من كتاب مسخ الكائنات. ولا شك أيضاً أن أروع ما كتبه تشوصر وهو «قصص كانتربري» Canterbury Tales[٤] كان متأثراً فيها إلى حد بعيد بأوڤيد. وفى الوقت نفسه روى الشاعر جاوار بعض أساطير أوڤيد فى منظومته الكبرى «اعتراف عاشق» Confessio Amantis.

والثابت أن شهرة أوڤيد بلغت ذروتها فيما بين القرنين الثانى عشر والرابع عشر. ومع ذلك فقد استمر عالقاً بأذهان القراء حتى بعد ذلك العصر باعتباره من أشهر كتاب العصر الكلاسيكي، إذ أخذت ترجمات كتاب مسخ الكائنات تتزايد شيئاً فشيئاً فى لغات أوربية مختلفة على الرغم مما

(٤) انظر «حكايات كانتربري» لتشوصر: ترجمة د. مجدى وهبة ود. عبدالحميد يونس. الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٣.

شاع فى بعض هذه الترجمات من خروج على النصّ ومن تأويلات رمزية خُلقية، فظهرت ترجمات عدة فى القرن السادس عشر بالإنجليزية والألمانية والإيطالية والإسبانية والفرنسية. والمعروف أن الشاعر الإيطالى «أريوستو» كان مولعاً بأوڤيد وينسج فى شعره على منواله، وأن الفيلسوف الفرنسي «مُونْتينْى» قد اعترف بأنه التهم كتاب مسخ الكائنات من قبل أن يلتحق بالمدرسة. وظهر تأثير قصص أوڤيد واضحاً فى كتابات «سيرڤانتيس»، وبصفة خاصة فى مسرحيات الكُتّاب المسرحيين الإسبان خلال القرن السابع عشر. وقد ترجم الشاعر الفرنسي لافونتين بعض أساطير أوڤيد فى كتابه «القصص»، بل استخدم أسطورتين من كتاب مسخ الكائنات فى مرثيته عن أدونيس. وكانت أول أوپرا ظهرت إلى الوجود والتى قُدِّمت فى فلورنسا عام ١٥٩٤ هى «دافني» المستمدة من أسطورة بنفس الاسم فى كتاب مسخ الكائنات.

وتُرجم كتاب مسخ الكائنات فى إنجلترا خلال القرن الخامس عشر وطبعه وليام كاكستون عام ١٤٨٠ على أول مطبعة صُنعت فى إنجلترا. أما أول ترجمة هامة لهذا الكتاب فهى ترجمة آرثر جولدنج التى نُشرت عام ١٥٦٧. وكان شعر أوڤيد يُقرأ إما كاملاً أو كمنتخبات شعرية فى كافة مدارس إنجلترا حتى قبل ترجمة جولدنج. واقتبس «إدموند سپنسر» الكثير من كتاب مسخ الكائنات فى ملحمته «ملكة الجان» The Faerie Queene. أما شكسپير فأغلب الظن أنه قرأ بعض أوڤيد فى الأصل اللاتيني غير أنه من المؤكد أنه قرأ ترجمة جولدنج كاملة. وذهب ناقد معاصر له يدعى فرانسيس ميرز إلى «أن نَفْسَ أوڤيد العذبة الذّكية مازالت حيّة عند شكسپير ذى اللسان المعسول»، وأغلب الظن أنه كان يشير إلى روح أوڤيد أكثر مما يشير إلى موضوعات مؤلفاته. ومع ذلك فثمة مواضع فى أعمال شكسپير تدل على التأثر المباشر بموضوعات أوڤيد. وقد تكون أشهر النماذج ذلك التقليد الساخر لقصة پيراموس وثيزبي التى أدخلها شكسپير فى مسرحيته «حلم ليلة منتصف الصيف». وثمة نموذج آخر فى مسرحيته «العاصفة» حيث نتبيّن أن دعوات پروسپيرو لأرواح الجان شديدة القُرب من تعاويذ ميديا فى الكتاب السابع من مسخ الكائنات، وتحكي أول قصيدة كتبها شكسپير وهى «ڤينوس وأدونيس» حكاية واردة عند أوڤيد. ومع أن شعر ميلتون كان أقرب ما يكون إلى شعر ڤيرچيل أسلوباً غير أنه أولع بكتاب مسخ الكائنات ولعاً شديداً، حتى لقد كتب بعض الأشعار باللغة اللاتينية يُذَيِّل بها مجموعة من الصور المطبوعة بطريقة الحفر تمثّل بعض مواقف كتاب مسخ الكائنات.

وظهرت فى عام ١٦٢٦ ترجمة ثانية شهيرة لكتاب مسخ الكائنات «لجورج ساندز» بعنوان طويل هو «مسخ الكائنات لأوڤيد مترجمة إلى الإنجليزية تتناول الأساطير ومزوّدة بصور تفسيرية». وفى أواخر القرن السابع عشر ترجم الشاعر الإنجليزي «چون درايدن» بعض فصول مسخ الكائنات وكان الكتاب الخامس عشر أرفعها شأناً، ونشر هذه الترجمات إلى جانب ترجماته الشعرية لقصص من هوميروس وتشوصر وبوكاتشيو تحت عنوان «حكايات قديمة وجديدة».

وفى القرن الثامن عشر كان الإلمام بكتاب مسخ الكائنات لأوڤيد جزءاً من تربية كل مثقّف، وما أكثر ما كان كتّاب ذلك العصر يترجمونه إلى الشعر الإنجليزي، وذكر «ألكسندر پوپ» أنه ترجم أكثر من رُبْع كتاب مسخ الكائنات كممارسة أدبية لكنه لم يُعدّ للنشر إلاّ مقطوعتين هما قصة «دريوپى» وقصة «پومونا وڤيرتومنوس». وبعد القرن الثامن عشر أخذت شهرة أوڤيد فى الاضمحلال، فلم يتحمّس له شعراء العصر الرومانسي ولو أن استلهامه واضح بعض الشىء فى شعر كيتس وشيلي وبايرون وبراوننج.

٦

وإذا كان لعبقرية أوڤيد التصويرية فى شعره أثر كبير فى آداب أوربا الغربية منذ فجر العصور الوسطى حتى أوائل القرن التاسع عشر فلا شك أنه كان لشعره أيضاً الأثر نفسه فى الفنون التشكيلية. وكانت موضوعات الفن التشكيلي فى أوربا الغربية منذ أوائل العصور الوسطى رهينة اثنتيْن: قصص الكتاب المقدس من ناحية مع الاهتمام بحياة المسيح وموته خاصة، ومشاهد الحياة اليومية المعاصرة من ناحية أخرى. كذلك اختلطت التصاوير الذاتية التى بدأت تظهر فى ذلك الحين لرعاة الفنون من الحكام والأثرياء بتصوير الموضوعات المقدّسة أو بتصوير الحياة اليومية.

وقد شهد بدء عصر النهضة فى إيطاليا مصدراً جديداً للفن هو العنصر القصصي فى شعر أوڤيد الذى غدا موضوعاً جديداً يمكن تصويره إلى جانب الموضوعات الدينية والاجتماعية، وذلك بعد أن تحوّل رجال الكنيسة عن تحريمهم السابق لموضوعات أوڤيد لما تحويه من زندقة ودينونة بالحسّية. وقد ساير هذا الاتجاه الجديد فى الفن نهضة العلوم والآداب الإغريقية واللاتينية القديمة المعروفة بـ«المذهب الإنساني» والتى تُعدّ عند كثير من المؤرخين الأساس الفكرى والذّوْقي لما يسمّى بعصر النهضة فى أوربا.

وكان لكتاب «مسخ الكائنات» بطبيعة الحال أثر كبير فى تزويد خيال الفنانين بموضوعات شتّى تتجاوز نطاق ما ألفوه من قبل، وخاصة أن تعدّد الترجمات لهذا الكتاب قد ساعد على ذيوعه بين العامة والخاصة على السواء، فضلاً عن أنه بالنسبة للدارسين والمثقفين كانت اللغة اللاتينية أكثر شيوعاً من اليونانية، وهو ما أفسح المجال أمام قرائه، كما أن وجود الأساطير مجتمعة فى كتاب واحد قد أعان كثيراً على استيعابها فى سهولة ويسر.

وعلى سبيل المثال نستطيع القول بأن أسطورة «پيرسيوس» وانتصاره على الجورجونة ميدوسا قد كُتبت لها الحياة فى خيال العصور التالية لعصر النهضة فى تمثال برونزي للفنان «بنْڤنوتو تشلّليني»، وأن أسطورة مسخ «دافني» شجرة غار قد كُتبت لها الحياة هى الأخرى فى تمثال مرمري

للفنان «برْنيني»، وأن الأسطورة المشهورة لاختطاف «أوروبا» لا نتصوّرها إلاّ من خلال لوحات «پَوْلُو ڤيرونيزي» و«كُورچْيو» و«پييرو دى كوزيمو». أما قصة «مغازلة ڤيروتومنوس لپومونا» فقد أصبحت ترتبط فى أذهان الناس بتصويرها فى النسجيّات المرسّمة التى أنتجتها مناسج بروكسل خلال القرن السادس عشر.

ومن أدلّة ذيوع كتاب «مسخ الكائنات» ما ذهب إليه كارلو ريدلفي - أحد نقاد الفن - فى كتاب له عن فنون عصره سمّاه «روائع الفن» (١٦٤٨) من أن فناني عصره باتوا لا يستطيعون العثور على مصدر أكثر إثارة لخيالهم من كتاب «مسخ الكائنات» لأوڤيد لا لأنه موسوعة أساطير قديمة فحسب، بل لأن أوڤيد فى شعره الوصفي يُهْدِي الفنان إلى الطريقة المُثلى لتصوير الموضوع من خلال دقة تجسيده اللفظي للمواقف التى تحظى بها الأساطير المختلفة.

ولا مجال هنا للاستطراد فى اختيار نماذج التصوير أو النحت التى استوحاها أعلام الفنانين على مسرى السنين من كتاب «مسخ الكائنات» وإلاّ لاقتضى ذلك مجلّداً بأكمله، ولذلك فقد اجتزأتُ بانتقاء أهم هذه الأعمال وجمعتُها فى دليل ألحقته بهذه الترجمة(٥). وأغراني هذا البحث عن تأثّر الفنانين التشكيليين بأعمال أوڤيد على أن أضيف دليلاً آخر يضم أسماء المعزوفات الموسيقية والغنائية والراقصة التى استوحاها مؤلفوها من المصدر نفسه(٦).

يقول مؤرخ الفن كنيث كلارك فى كتابه «المناظر البرّية تتحوّل إلى فن»: هناك شاعران فحسب من العصر القديم هما أوڤيد وڤرچيل اللذان احتلاّ مخيّلة الفنانين فى عصر النهضة. وعلى حين كان أوڤيد أحبّ الشعراء إلى مصوّري الشخوص لما فى شعره من وصف واضح وتفصيلي للقصص الخرافية كان ڤرچيل هو مصدر الوحى لمصوِّري المناظر البرّية. ويقول إروين پانوفسكي فى كتابه: [مشاكل إيقونوغرافية متعلّقة بتتسيانو]: «كلما أراد تتسيانو أن يصوّر حكاية حقيقية كان يستوحيها من كتاب «مسخ الكائنات» لأوڤيد باستثناء موضوع لوكرتسيا الذى كثيراً ما اجتذبه، إذ أنه كان قليل الاهتمام بالموضوعات الكلاسيكية التى لا تمتّ إلى الأساطير بصلة». وحسبنا فى هذا الصدد أن نَقْدُرَ جَهْدَ أوڤيد حقّ قدره الذى بدأت الدراسات الإنسانية الغربية تُعنَى به منذ حوالى عام ١١٠٠ إلى يومنا هذا. فليس ثمة كاتب كلاسيكي آخر تناول مثل ما تناول هو من موضوعات أسطورية، وليس ممن كتبوا فى هذا الموضوع مَنْ يضارعه فى إقبال الناس على أعماله بالقراءة والترجمة والتفسير والتعليق والتصوير. وليس فى هذا ما يدعو إلى العجب، فلم يكن عبثاً أن طُبعت طبعات عديدة من كتاب «مسخ الكائنات» لأوڤيد فضلا عن التعليقات عليه كما

---

(٥) انظر الملحق الأول: دليل المنجزات الفنية التشكيلية المستوحاة من كتاب «مسخ الكائنات» لأوڤيد.
(٦) انظر الملحق الثاني: دليل الأعمال الموسيقية والغنائية والراقصة المستوحاة من كتاب «مسخ الكائنات» لأوڤيد.

ذكرنا قبلُ، وقد تضمّن عنوان أغلب هذه الطبعات عبارة «إنجيل الشعراء» بين الفرنسيين و«إنجيل المصوّرين» بين الألمان.

وكانت صلة المصوّر البندقي تتسيانو بهذا الشاعر الذى «عاش بين عالمين» كما كان يدُعى صلة خاصة، فمما لا شك فيه أنهُ أحسّ بالوشائج القوية التى تربطه بكاتب يتميّز بالعُمق وبسرعة البديهة وبالنزعة الحسّية فى الوصف، كما يتميّز أيضاً بإيمانه بمأساة خضوع الإنسانية لنواميس القضاء والقدر. وكانت هذه الصلة الروحية هى التى أتاحت لتتسيانو أن يؤوّل نصوص أوڤيد تأويلات تجمع إلى الحَرْفيّة التصرُّف، كما كان يُعنى عناية كبرى بالتفاصيل كأن يُطلق العنان لروح الابتكار تشيع فى جوانبه دون تردّد. وليس ثمة فنانٌ كبير مثله اهتم بالقصص الأسطورية واعتمد أكثر ما اعتمد هو على أوڤيد، فهو يستطيع من جملة واحدة فى النص أن يصوّرها وقد أودع فيها انطباعات شتّى لها شأنها. ومع ذلك فلم يقتصر اقتباسه على نص أوڤيد وحده بل كان شأنه شأن غيره من كبار الفنانين يعود إلى مصادر أخرى يستمدّ منها إلهامه، باستثناء حالة واحدة فريدة استطاع فيها أن يغيّر من دلالة النص تغييراً جوهرياً، وغير متأثّر بالتيار التصويرى فى هذا المجال الذى ازدهر من حوله فى كثير من الطبعات المصوّرة والترجمات والتفسيرات المرقّنة لكتاب مسخ الكائنات.

وكنت قد ضممتُ إلى مقدّمة الطبعة الأولى (١٩٧٢) من هذه الترجمة تسع عشر لوحة للفنان تتسيانو تمثّل بعض الأساطير التى جاءت بالكتاب، وكذا مائة وتسع وعشرين تصويرة إيضاحية أبدعها الفنان ب. بيكار يعاونه فنانون آخرون فى طبعة قديمة لكتاب «مسخ الكائنات» صدرت عام ١٧٣٢ بأمستردام باللغتين اللاتينية والإنجليزية وبتعليق باللغة الفرنسية للأب بانييه، وقد طُبعت على أصل حجري محفور[٧]. وهو كتاب من القطِع الكبير فيه النص اللاتيني فى نهر، وفى نهر أمامه ترجمة شعرية بالإنجليزية بعضها للشاعر الكبير چون درايدن (١٦٣١ - ١٧٠٠) والبعضُ الآخر للشاعر المشهور ألكسندر پوپ (١٦٦١ - ١٧٩١). وقد كانت هذه الصور التى ضممتُها إلى تلك الطبعة من الكثرة بمكان مما زاد فى ضخامة هذا الكتاب ورفع سعره إلى خمسة جنيهات! فعزّ اقتناؤه على الجماهير. وهو ما دفعني إلى أن أستبدل بها فى الطبعتين الثانية والثالثة مجموعة أخرى من الصور أقل عدداً وإن كانت لا تقلّ قدراً، فجاءت فى ثلاثين تصويرة

---

(٧) Lithography الطباعة بواسطة الحجر هى استنساخ اللوحات بعد رسمها بقلم شمعي أسود على سطح الحجر الجيري الأملس الدقيق الذرّات والمسام، ثم يُغمر الحجر فى الماء حتى يتشبّع به، مع ملاحظة أن السطح المغطّى بالشمع يطرد الماء على حين تمتص المسام الحجرية عن الشمع الماء، فإذا دارت الأسطوانة المشبعة بالحبر على سطح الحجر استقر الحبر على الأسطح المغطّاة بالطبقة الشمعية التى مرّ عليها القلم، فى حين لا يلتصق الحبر بالأجزاء المبلّلة، حتى إذا تم بسط الورق على الحجر بعد تحبيره والضغط عليه انطبعت الصورة عليه بشكل عكسي بنفس الدقة التى رُسمت بها بالشمع على الحجر. وقد ابتكر هذه الطريقة سويسري يُدعى سينفلدر سنة ١٧٩٦ فغدت من أكثر وسائل طبع اللوحات المرسومة إتقاناً [المعجم الموسوعى للمصطلحات الثقافية لكاتب هذه السطور. لونجمان ١٩٩٠ «م.م.م.ث»].

خطّية نادرة للفنان بابلو پيكاسو رسمها خصيصا لكتاب «مسخ الكائنات» (١٩٣١)، وتفضّلت دار الكتب القومية بباريس فسمحت لى بنقلها عن نسختهم الفريدة، هذا إلى رسم آخر للفنان نفسه يمثل أسطورة موت أورفيوس بالكتاب الحادى عشر.

على أنى أعود فى هذه الطبعة الرابعة إلى ضمّ تصاوير الفنان ب. پيكار الإيضاحية المائة وتسع وعشرين تلبية للعديد من رغبات القراء، كما أقدم بعض تصاوير تتسيانو لقصص أوڤيدية مثل لوحته «باكخوس وأريادنى (لوحة ٢)، التى لم يكن موضوعها مألوفا فى الفن الكلاسيكى ولا فى فن ما بعد العهد الكلاسيكى حتى إن أحد النّقاد قد وصفها جهلاً منه بأنها صورة مُرْعبة تمثّل الكاهن لاؤوكون! وذلك لأن ثمة شخصا فى مقدمة الصورة من اليمين - هو فى الحقيقة باكخوس - كان يلتفّ حول جسده ثعبان(٨). وبعد عشرين سنة من إعداده لهذه اللوحة صوّر لوحة «داناى» التى مُثّلت خلال العصور الوسطى فى تصويرات متعدّدة، إما بوصفها أميرة معاصرة يحيط بها جمعٌ من الوصيفات بدلا من المربّية العجوز التى وردت فى النص الأوڤيدي وقد اقترب چوپيتر منها متنكّرا فى شكل بائع مجوهرات، وإما باعتبارها تجسيداً للحياة إلى جوار بُرج أطلق عليه اسم بُرج الحشمة، كما كانت تصوَّر أحيانا بوصفها البشير بالعذراء مريم، وهو ما حمل فرنسيسكوس ديرتزا على أن يتساءل: «إذا كانت داناى قد حملت من چوپيتر من خلال رذاذ من ذهب فلمَ لا تحمل مريم البتول بالمسيح إذا مسّتها الروح القدس!» وتسترخي داناى فى لوحة تتسيانو (لوحة ٣) فوق وسادة متطلّعة فى شوق إلى شؤبوب قطرات الذهب التى تحوّل إليها چوپيتر ليُتاح له مضاجعتها. وإذا كان تتسيانو قد أجاد التعبير عن ارتوائها الجسدى إلا أنه أوحى بنذير يستخفي فى الآفاق حيث تتساقط قطرات ذهب حمراء من سُحب داكنة فى سماء هادرة راعدة، لأن چوپيتر لم يشأ الكشف عن هويّته فى شؤبوب حان وإنما فى انفجار عاصف، على حين تؤدي المربّية العجوز المنهمكة فى جمع الذهب المتساقطُ دورها لا فى إبراز شباب داناى وجمالها فحسب بل أيضا فى الإشارة إلى إعجاز الحادث الذى يؤجّج جشع العجوز ويُشيع السّكينة فى جسد داناى الذى يحتضن بذرة البطل پيرسيوس جنيناً فى رحمها. وتُرهص هذه اللوحة بأسلوب تتسيانو فى أيامه الأخيرة، حيث يسيطر على التكوين كله التّباين بين مساحات كبيرة من الضوء الملوّن - على نحو مانشهد فى جسد داناى وفى أغطية الفراش - ومن الظلمة الملوّنة

---

(٨) Laocoon بعد أن فشل الإغريق فى الاستيلاء على طروادة بقوة السلاح لجأوا إلى صنع الحصان الخشبي الضخم وانصرفوا متظاهرين بالعودة إلى سفنهم. وحين تقدم من الحصان نفرٌ من أهل طرواده ليتبيّنوا أمره حاول الكاهن لاؤوكوون أن يحذّرهم مغبّة سحب الحصان إلى داخل المدينة وصوّب رمحه صوبه فصدر عنه رنين يكشف لقومه أنه حصان أجوف لم يُصنع من كتلة صمّاء من الخشب. وما كاد لاؤوكوون يستعد لتقديم القرابين إلى الآلهة على شاطئ البحر حتى انسلّ ثعبانان رهيبان من جوف الماء وانقضّا على ولديه، فهبّ إلى نجدتهما غير أنه أخفق فى إنقاذهما، وما لبث الثعبانان أن طوّقاه مع ولديه فاستماتت فى صراعهما دون جدوى، فقد اعتصر الثعبانان ثلاثتهم وغرسا أنيابهما فى أجسادهم تحقنهم بالسّم الزّعاف. وتكشف الأسطورة عن قسوة آلهة الأوليمپوس التى لم يكن ثمة ما يدعو إليها مع بشر عُزّل. [المعجم الموسوعى للمصطلحات الثقافية لكاتب هذه السطور].

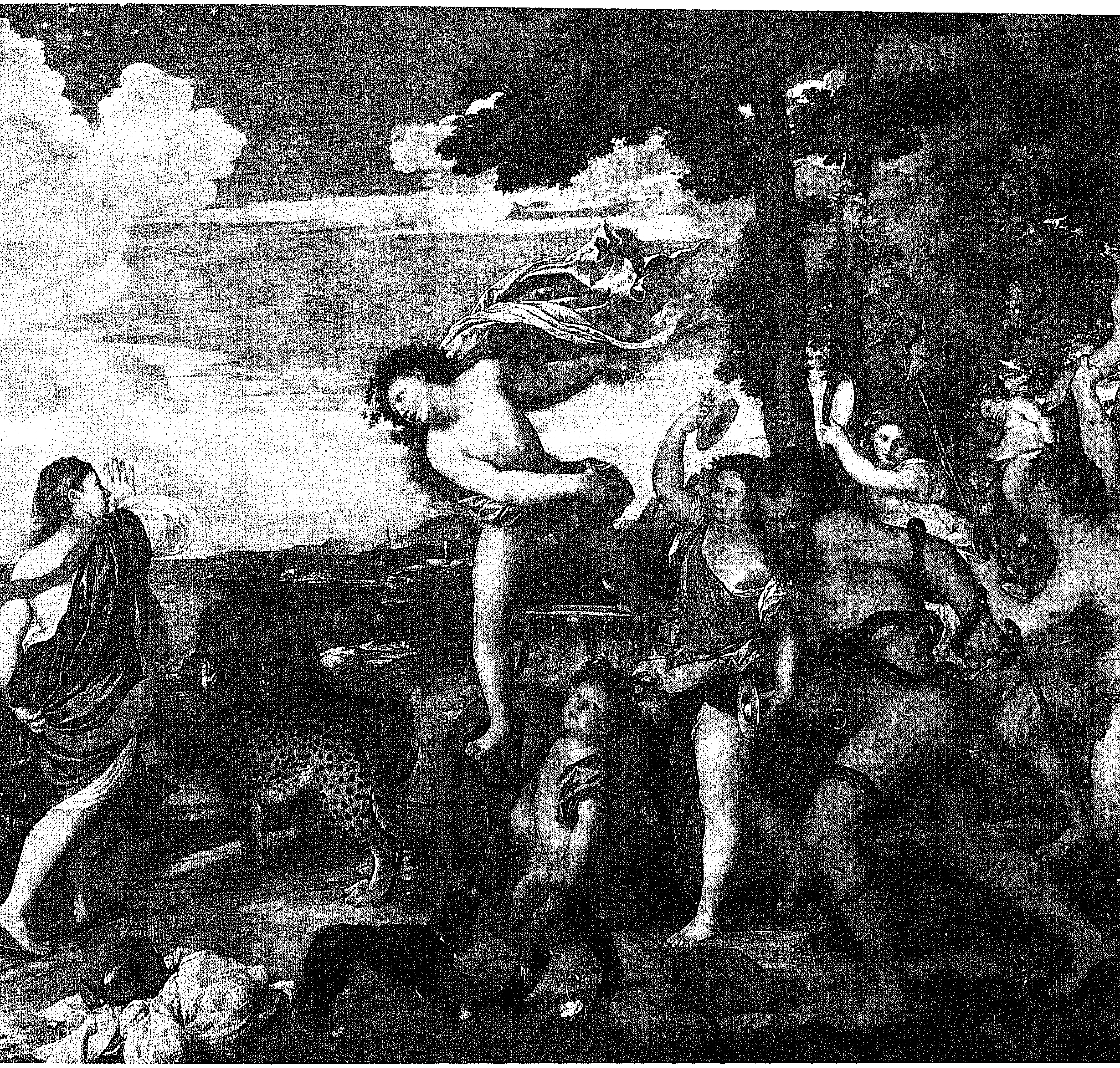

لوحـة ٢ . تتسـيانو : باكـخـوس وأريادني .
الناشونال جاليري بلندن .

لوحة ٣. تتسيانو : داناي. متحف پرادو بمدريد.

التي تُغشّي السماء. وكذا تنطوي هذه اللوحة على آخر مظاهر النزعة التكلّفية[٩] عند تتسيانو حيث يلتوي الجسد فى وضعة غير مألوفة وتستطيل النسب بعيدا عن الواقع، كما تتألّق اللوحة بتلوين يتورّد بعذوبة حانية وقوة دافقة ويتوهّج بألق الجواهر.

ولقد عُهد إلى تتسيانو بأن يصوّر سلسلة من أربع لوحات من القصص الأسطوري بقى منها اثنتان والثالثة معروفة من خلال نسخة مطبوعة على الحجر المحفور أعدّها الفنان چوليو سانُوتّو. وقد استوحى تتسيانو موضوع هذه السلسلة من الكتاب الرابع من «مسخ الكائنات»، فنرى رُكنا من أركان العالم السفلي وصفه أوڤيد بأنه «ديار الشرّ» حيث تشهد چونو عذاب أربعة من كبار الآثمين أوّلهم تيتيوس هاتك عِرْض لاتو وقد انقضّ النسر ينهش كبده بلا توقّف، وكان المعروف وقتذاك أن الكبد هو مقرّ العشق فى جسم الإنسان (لوحة ٤)، ثم تاتنالوس الذى أفشى أسرار الآلهة وهو يحاول دوما وعبثا أن يُدرك الطعام والشراب (لوحة ٥)، ثم سيزيفوس وهو أكثر الرجال دهاء وغدراً يدفع صخرة ثقيلة إلى أعلى الجبل فتتدحرج الصخرة منه إلى أسفل فيعود ويدفعها إلى أعلى من جديد (لوحة ٦)، وأخيرا إكسيون الذى حاول الاعتداء على چونو زوجة كبير الآلهة فشُدَّ إلى عجلة تدور به إلى ما لا نهاية (٤ : ٤٥٠).

وثمة موضوع تناوله تتسيانو المرّة بعد المرة هو موضوع انفلات أدونيس من عناق ڤينوس ليتبع كلاب الصيد نحو صيد الخنزير البرّى الذى لقى معه مصرعه رغم توسّلات عشيقته ڤينوس له بعدم الخروج للصيد وتحذيرها له من مخاطره، بينما يستغرق كيوپيد فى نعاسه تحت شجرة، وهو الحدث الذى أورده أوڤيد فى كتابه «مسخ الكائنات» (١٠ : ٥٢٠). ولكى يبثّ تتسيانو الإثارة فى الموقف مستعرضا مواهبه صوّر ڤينوس من ظهرها وقد استدارت فى جلستها بحيث يتجه رأسها وقدميها فى اتجاهين متضادين. غير أن اللوحة تكشف فى الوقت نفسه عن تأويل تتسيانو لفراق ڤينوس وأدونيس حيث يبدو أدونيس وكأنه ينتزع نفسه من بين أحضان ڤينوس لينطلق إلى مغامرة الصيد، وهو الأمر الذى يخالف النص الأوڤيدي، فعلى حين أن «أدونيس» أوڤيد طيّع مستجيب فإن «أدونيس» تتسيانو ينتزع نفسه من أحضان ڤينوس انتزاع النبي يوسف نفسه من قبضة زليخه، وبهذا يكون تتسيانو قد اختلق قصة فرار أدونيس من ڤينوس مكان قصة وداعه لها (لوحة ٧).

---

(٩) Mannerism هو ما يطرأ على الأسلوب الفني من تكلّف أو تأنق أو غلوّ، ويُعزى إلى التصوير الإيطالى خلال القرن ١٦، واستغرق الفترة ما بين النهضة الشمّاء ونشأة أسلوب الباروك، وقام أساسا على الإعجاب بميكلانچلو وما تلا ذلك من إفراط فى محاكاة تكويناته الفنية ومن تحريف معبّر مقصود لأشكاله. وأهم خواص الأسلوب التكلّفي المبالغة فى إظهار القوى العضلية أو إطالة أشكال الشخوص أو إضفاء التوتر على الحركات والإيماءات، أو ازدحام التكوين الفني أو المغالاة فى بعض النسب والمقاييس، وما يترتب على ذلك كله من استخدام للألوان الصارخة [المعجم الموسوعى للمصطلحات الثقافية لكاتب هذه السطور «م.م.م.ث.» لونجمان ١٩٩٠].

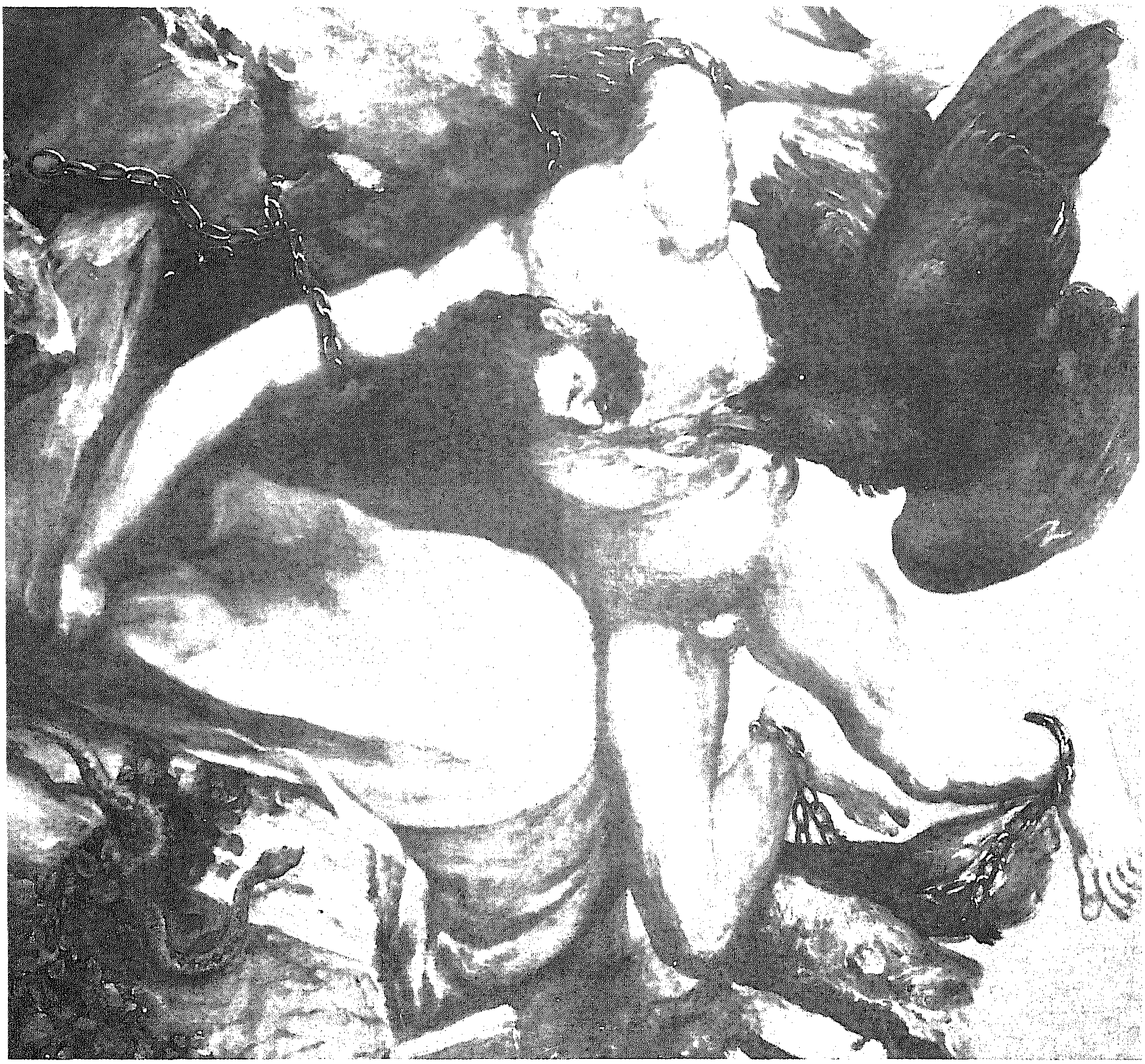

لوحة ٤ . تتسيانو : تيتيوس . متحف پرادو بمدريد.

لوحة ٥ . تتسيانو : تانتالوس. المتحف البريطاني

لوحة ٦ . تتسيانو : سيزيفوس . متحف پرادو بمدريد .

لوحة ٧. تتسيانو : فراق ڤينوس وأدونيس.
متحف پرادو بمدريد.

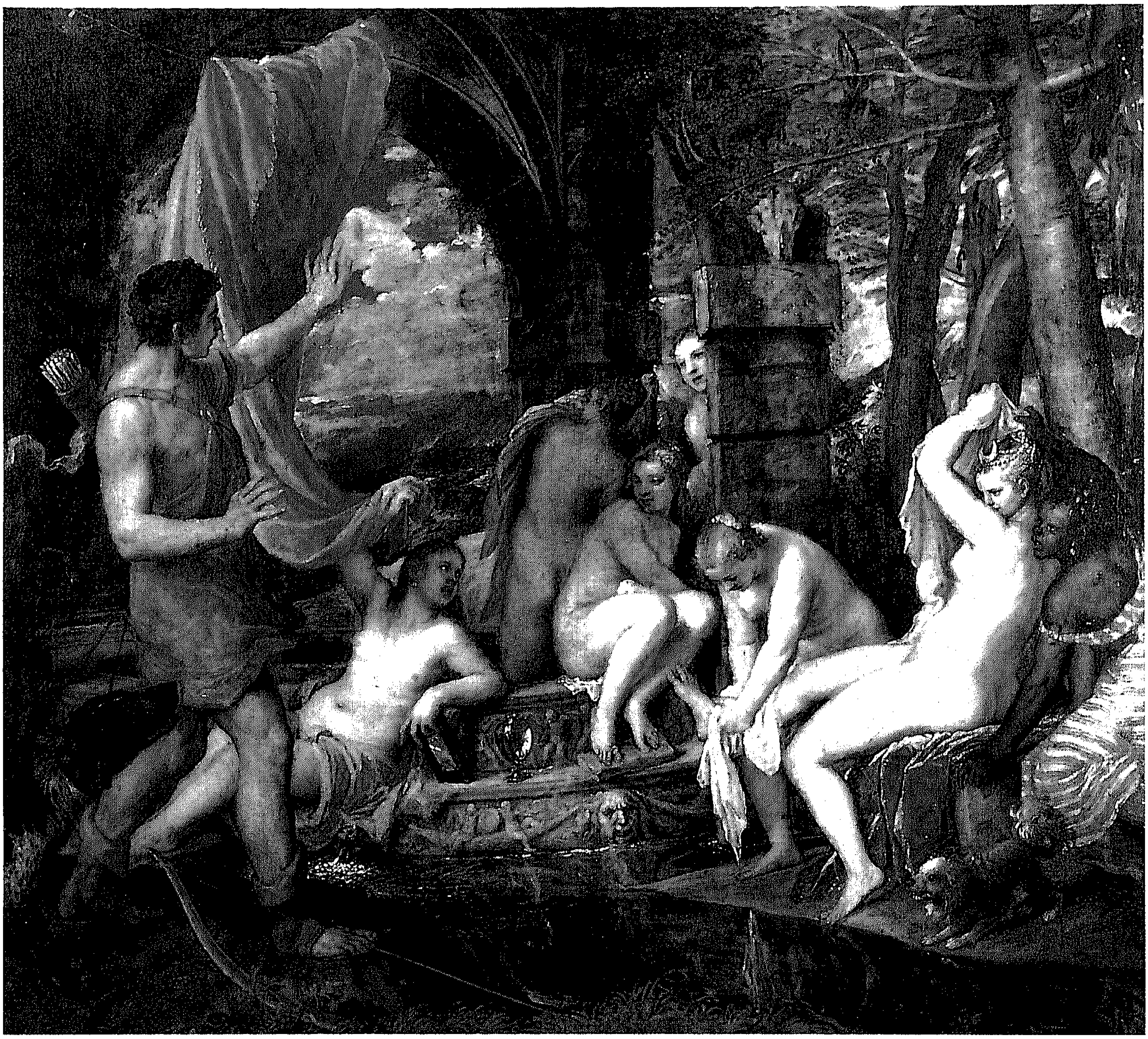

لوحة ٨. تتسيانو: مفاجأة أكتايون لديانا وحورياتها أثناء استحمامهن. الناشونال جاليري بأدنبره

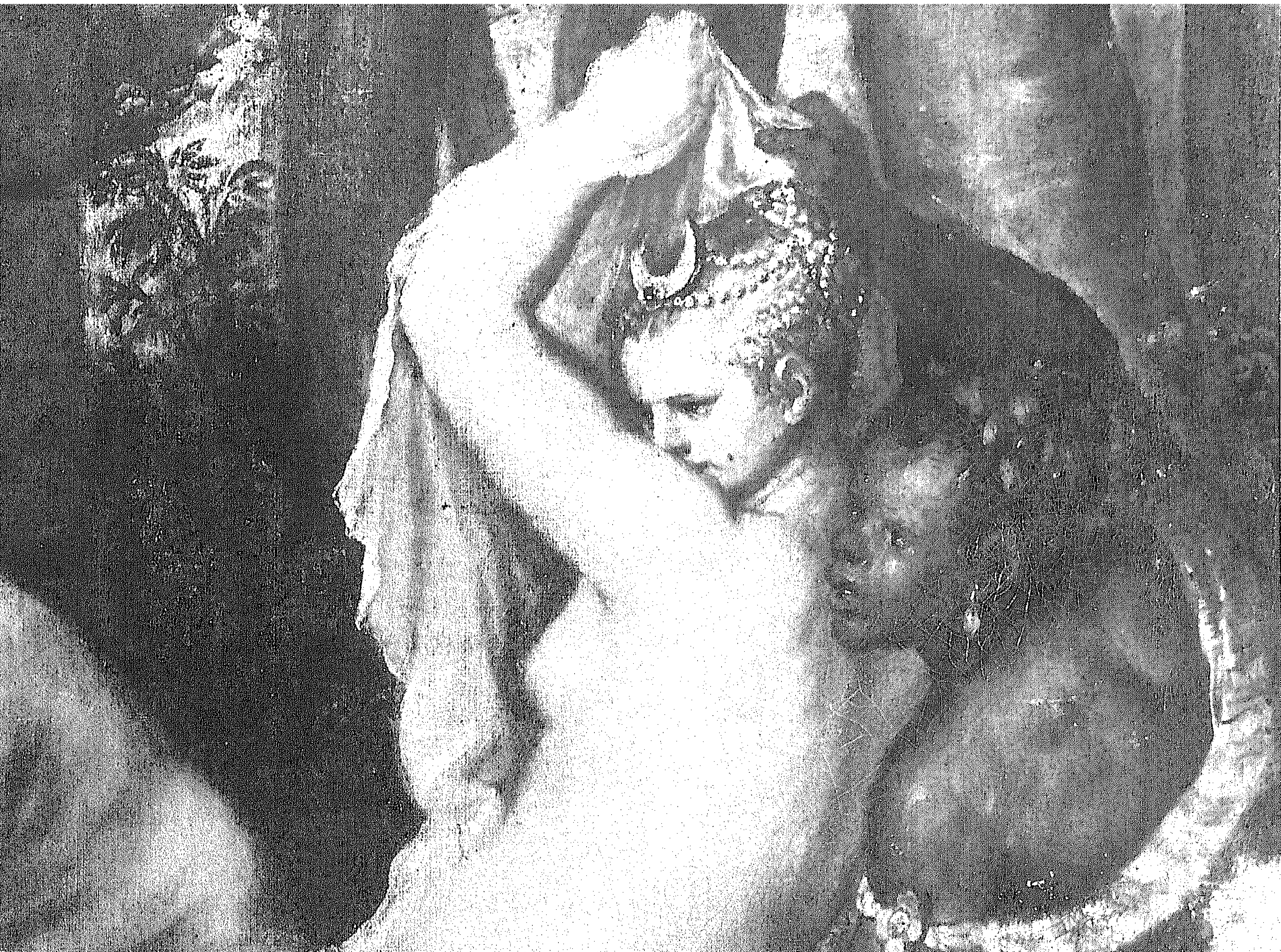

لوحة ٩. تتسيانو : مفاجأة أكتايون لديانا وحورياتها أثناء استحمامهن. (تفصيل الربّة ديانا.

لوحة ١٠ . تتسيانو : مفاجأة أكتايون لديانا
وحورياتها أثناء استحمامهن (تفصيل) .
أكتايون يقتحم خلوة ديانا .

وفى عام ١٥٥٦ قدّم تتسيانو صورتين لأسطورتين أوڤيديتين أخريين هما ظهور أكتايون فجأة بين الإلهة ديانا وحورياتها أثناء استحمامهن (٣: ١٤٠) واكتشاف ديانا لحمل الحورية كاليستو (٢: ٤٠٥). وعلى العكس من لوحتيْ داناى وڤينوس وأدونيس تتماثل هاتان اللوحتان حجما وشكلا وتكوينا ومضمونا، وتسيطر على كليهما الخطوط المائلة المتداخلة، كما تكشف اللوحتين عن ستارين وُضعا متماثلين فى الركنين العلويين، ويتوسط كل منهما عمود زُخرِج قليلاً إلى اليمين فى صورة أكتايون، وإلى اليسار فى صورة كاليستو. وفى كلتا اللوحتين تبدو الربّة ديانا الجميلة القاسية القلب وهى تشفي غليل غضبها بالانتقام من فريسة بريئة. والواقع أن التكوين الفني البديع المثير للشجن فى أسطورة ديانا وأكتايون (لوحات ٨ إلى ١٠) لا يدين لأى تصوير سابق على أسطورة أكتايون بل هو يختلف عنها جميعا ليس من خلال لمسات تتسيانو الذاتية مثل الستار الأحمر والحورية الزنجية القائمة بخدمة ديانا فحسب بل لغرابة المشهد المعماري الجامع بين عمود حجري وعقْد قوطيّ متداع. وليس فى ذلك - كما يذهب البعض - أى جنوح شاعري بل هو ذكاء الخيال وسعةَ الإطلاع والمعرفة الشاملة بالكثير من الآثار الفنية، فلقد استوحى تتسيانو وصف أوڤيد الأدبي ثم أعمل فيه فكره، فبدلا من تصوير غار خلّفتْ الطبيعة فيه ما يشبه الأعمال الفنية، صوّر مشهدا معماريا أبدعته الطبيعة العبقرية على غرار الأعمال الفنية. فبين أطلال مبنى تكسوه الأعشاب والنباتات نرى ديانا وحورياتها يستحممن مستترات وراء ستار أحمر وقد اقتحم أكتايون عليهن خلوتهن دون قصد أثناء تجواله للصيد. وعبّر تتسيانو دراميا عن وصوله بإزاحة الستار خالقا بذلك مساحة من الظل فوق حوض الماء الذى تستحم فيه عذراوات ديانا تحت أشعة الضوء المتوهّج فإذا جسدها يتكشّف متألقا فى عينيْ أكتايون. ويزيد من فاعلية الضوء المسلّط على جسد ديانا العاري وجود الحوريتين القائمتين بتجفيف جسدها وقد اتخذت إحداهما موقعها فى شبه الظل، والأخرى زنجية ترتدي ثوبا ذا خطوط حُمر وبيض. وتحجب الستار المنظر الطبيعي الذى يبدو جزء منه من فتحة العقد القوطي، وتتحلّق المستحمّات حول الحوض فى خلفية منتصف التكوين. وثمة تدفّق متّصل من الضوء والظل على هذه الأجساد العارية البديعة، كما يتوهّج الضوء بالحيوية المنتعشة بحركة الطبيعة والسماء التى تكشف عنها فرجات أغصان الشجر، وتعكسها على النقوش البارزة فوق حافة المياه والينبوع فى أمامية الصورة الذى يتضاعف تألّقه مع كل ومضة ضوء على مياهه.

ويروي أوڤيد قصة كاليستو فى الكتاب الثاني من «مسخ الكائنات» وهى أيضا ضحية بريئة لظُلم أرباب الأوليمپوس. وعلى غرار لوحة أكتايون تجمع هذه اللوحة بين النزعة التكلّفية البادية فى سلسلة الإيقاعات واستطالة الأجسام وبين الأثر الكلاسيكي، فتمثال أحد ولْدان الحب الذى يصبّ الماء من الجرّة له أسلاف كلاسيكيون، والحركة العنيفة للحورية وهى تفضح كاليستو بتعريتها من ثوبها للكشف عن حَمْلها يكاد ذراعها المرفوع يحجب وجهها لها مثيل أيضا فى الفن

لوحة ١١ . تتسيانو : الحوريات يكشفن لديانا
عن حَمْلِ كـاليسـتو . الناشـونال جاليري
بأدنبره .

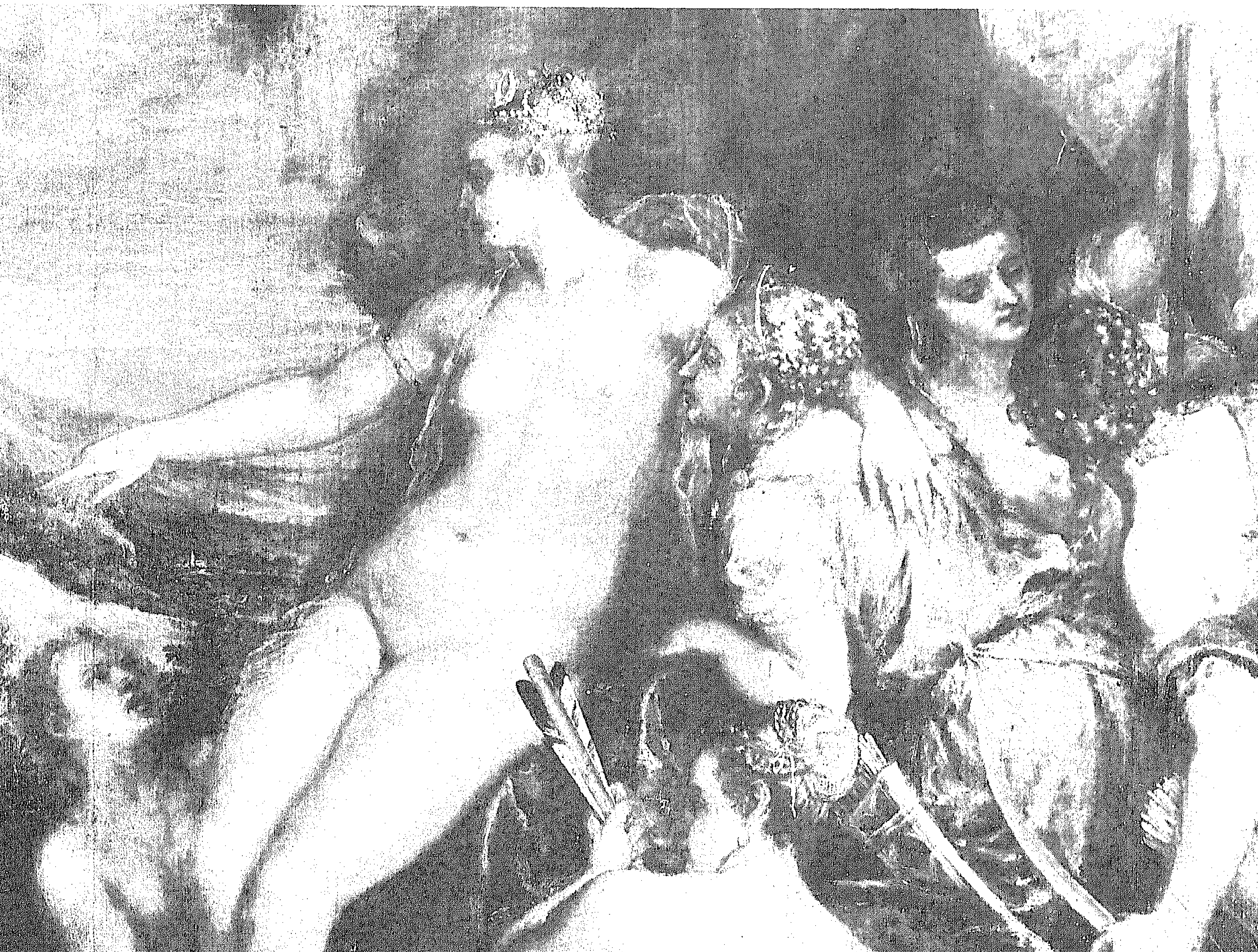

لوحة ١٢ . تتسيانو : الحوريات يكشفن لديانا عن حَمْل كاليستو (تفصيل). ديانا تُعنّف الحورية كَاليستو .

لوحة ١٣ . تتسيانو : ديانا وحورياتها وكاليستو .
الحوريات يكشفن عن خطيئة كاليستو .
(تفصيل)

لوحة ١٤ . تتسيانو : اختطاف أوروبا . متحف
إيزابيللا ستيوارت جاردنر ببوسطن .

لوحة ١٥ . تتسيانو : پيرسيوس ينقذ أندروميدا
من الوحش . مجموعة والاس بلندن .

الكلاسيكي، وكذلك وضْعة ديانا نفسها. ومع ذلك اطّرح تتسيانو كافة القيود التى التزم بها من قبل، فهجر الوضعات المواجهة والحواف المحوّطة الشديدة الدقّة والوضوح (لوحات ١١ إلى ١٣).

والثنائي الأخير من الأساطير التى صوّرها تتسيانو هو «اختطاف أوربا» (٢ : ٨٣٠) (لوحة ١٤) و«پيرسيوس ينقذ أندروميدا من الوحش» (٤ : ٦٧٠) (لوحة ١٥). وقد تجلّى فى اللوحة الأخيرة الجمع بين النزعة التكلّفية والتأثير الكلاسيكي من حيث الاستطالة المُغالَى فيها والوضعة المائلة لجسم أندروميدا والتواء ساقيها، كما تتألق إشراقة الألوان، وتشيع فى اللوحة بأسرها الخطوط المائلة التى تبثّ الحركة النابضة بالحياة فى جميع الأرجاء. وينأى تتسيانو عن إبراز علامات الهلع الذى لا شك كانت أندروميدا تكابده أمام فكّى الوحش الفاغر خطمه المتأهّب لالتهامها، ليسكب فى جسدها البضّ اختلاجات من النشوة وكأنها بين أحضان عاشق موله. والجدير بالملاحظة أن تتسيانو لم يكتف بمشاهدة ما ظهر قبلُ من صور ومنحوتات لهذه الأسطورة، بل لقد قرأ النص الأوڤيدي بعناية فضمّن لوحته عناصر ثلاثة لم يسبق ظهورها فى أى من لوحات أسطورة أندروميدا يدين بها إلى أوڤيد: أولها شُعَب المرجان الظاهرة عند الشاطىء، وثانيها التضاؤل النسبي(١٠) لجسد پيرسيوس حيث تعلو قدماه على رأسه حسبما جاء فى النص الأوڤيدي، وثالثها أنه يلوّح بسيف معقوف شبيه بالمنجل لا بسيف عادي مستلهما وصف أوڤيد حرفيا.

ولا يفوتني في هذا المقام أن أشير إلى لوحة «حريق البورجو» الخالدة التى أبدعها الفنان رافائيل عام ١٥١٧، والتى أطلق اسمها على القاعة التى تضمّها بالڤاتيكان. وتصوّر اللوحة قصة الحريق الذى شبّ عام ٨٤٧ فى الضاحية [البورجو] المجاورة لبازيليكا القديس بطرس القديمة التى كان شيّدها الامبراطور قسطنطين فى القرن الرابع، وما كاد البابا ليو الرابع يطلّ من شرفة مقرّ إقامته المشيّد وفق طراز برامانتي المعماريّ المعاصر لرافائيل راسماً علامة الصليب حتى انطفأ الحريق. وتظهر فى أمامية اللوحة الضخمة مجموعات درامية ثلاث: فإلى اليمين مجموعة تحاول إطفاء الحريق، وفى الوسط مجموعة من أربع نساء يولولن مذعورات بصحبة أطفالهن، وإلي اليسار مجموعة تفرّ من الحريق، فإذا رافائيل يباغت المشاهد بإقحام موضوع قديم مستقرّ فى الذاكرة الشعبية التاريخية، هو موضوع مغادرة البطل أينياس لمدينة طرواده بعد سقوطها حاملا والده أنخيسيس على منكبيه ممسكاً بابنه الصبيّ أسكانيوس (لوحة ١٦). وما من شك فى أن رافائيل قد استوحى تفاصيل لوحته من الأوصاف التى ساقها حول هذا الموضوع كلٌ من ڤرچيل فى «الإنيادة» وأوڤيد فى كتاب «مسخ الكائنات» [١٣ : ٦٢٥].

---

(١٠) FORESHORTENING التضاؤل النسبي هو إيحاء بالعُمق الفراغي وبالبُعد الثالث فى سطح اللوحة نتيجة ضمور أبعاد الأشياء وأحجامها شيئا فشيئا كلما أمعنّا عُمقا، وهو خدعة بصرية تُضفي لونا من ألوان الإيهام بامتداد ذلك العُمق [المعجم الموسوعي للمصطلحات الثقافية لكاتب هذه السطور. «م.م.م.ث». لونجمان ١٩٩٠].

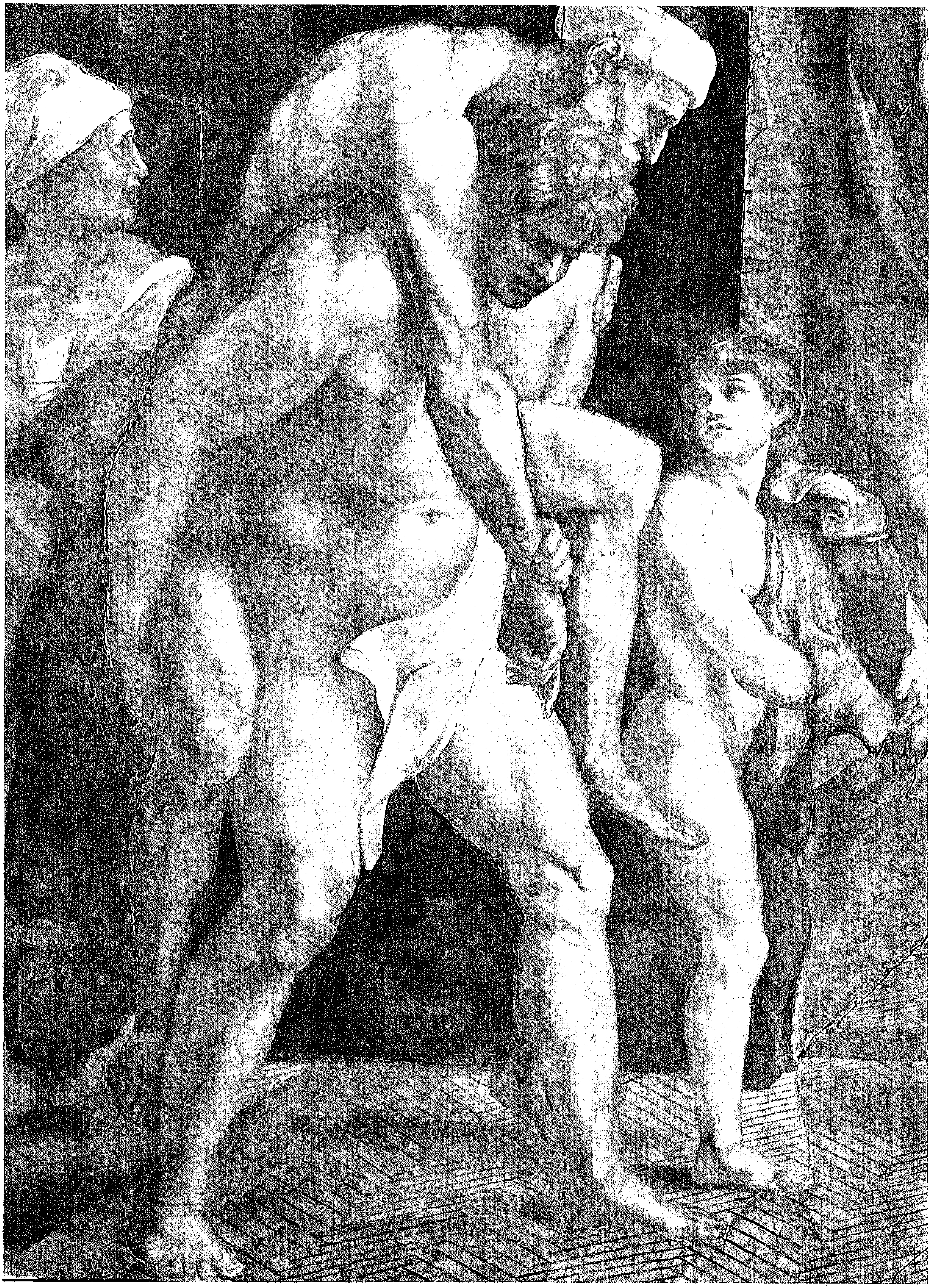

لوحة ١٦ . رافائيل : حريق البورجو. (تفصيل)
البطل أينياس يغادر طرواده بعد سقوطها
حاملا والده العجوز أنخيسيس، ممسكا
بابنه الصبىّ أسكانيوس. متحف
الفاتيكان.

أما عن تصاوير پيكاسو الخطّية فنعلم أن هذا الفنان قد أخذ حوالى عام ١٩٢٣ فى رسم بعض اللوحات المستقلة التى تصوّر رؤوس رجال ونساء تضم معاً وجهين متراكبيْن أو متجاوريْن على جسد واحد، ضارباً صفحا عن المظهر الحقيقي المرئي للشخوص طالما أننا لا نستطيع أن نرى سوى جانب واحد منها. غير أن پيكاسو الثائر المتمرّد لم يلبث أن عدل عن هذا الاتجاه، مُهْملاً تصوير الوحدة المظهرية للشيء المرنو إليه، مهتماً بتصوير مظاهره المتعاقبة، محقّقاً بذلك نوعاً من الحركة الزمانية - المكانية للوضعات المختلفة فى الفراغ. ثم عاد فى عام ١٩٢٧ فهجر هذا الأسلوب متمسكاً بأهداب التقاليد الفنية، وخاصة فى لوحاته التى استخدم فيها طريقة الحفر الحمضي Eau-Forte على الزنك أو النحاس لطباعتها بعد ذلك على الورق(١١)، مضمّنا رسومه نماذج لنساء عاريات أو مكتسيات ولشخوص تُعدّ إرهاصة للأسلوب الموفّق الذى استخدمه فى رسومه الثلاثين الخطّية(١٢) لكتاب «مسخ الكائنات» وغيره من الروائع.

وفى عام ١٩٣١ طبع ألبرت سكيرا فى لوزان بسويسره ثلاثين لوحة من تصاوير پيكاسو مع النص الكامل لكتاب «ميتامورفوزس» فى نسخ محدودة هى الآن مبعثرة فى جهات مختلفة من أنحاء العالم، وصفحاتها متنازعة بين المتاحف وبين أيدى الهواة، وأصبح جمع هذا الشتّات اليوم من الصعوبة بمكان. وقد استطعت بعد تذليل مصاعب جمّة الحصول على مجموعة الصور كاملة نشرتها فى الطبعتين الثانية والثالثة من هذا الكتاب، وأعيد نشرها هنا فى نهاية الطبعة الرابعة هذه(١٣).

وأغلب الظن أن پيكاسو قد أتم هذه الرسوم دفعة واحدة، وهى تستمد قوتها وأناقتها - كما يلمس القارىء - من الخطوط المحوّطة(١٤) النابضة بقوة التعبير، ومن تلقائية الفنان الجيّاشة، ومن تركيزه الذى كان يقصد فيه إلى الاهتمام بمواضع من الجسد أكثر من غيرها. وقد أصاب پيكاسو التوفيق فى الإفصاح عما أحسّه وتخيّله، فالرسم - فيما أظن - إذا خلا أحياناً من التحوير جاء رسماً

---

(١١) ETCHING الطباعة بطريقة الحفر بالإبرة (الخربشة) على سطح معدني. هى نوع من أنواع حفر الرسوم على صفحات معدنية من الزنك أو النحاس بعد تغطيتها بطبقة شمعية أو برنيقية تشقّها أداة الحفر، وهى سن مدبّبة رفيعة. ثم تُغمر الصفحة بطناً لوجه فى الحامض الذى يتخلّل الخدوش فينفذ إلى السطح المعدني ليغور فى مواضع تلك الأخاديد. وينزع الفنان الطبقة الشمعية ويغسل الصفحة لإزالة آثار الأحماض، ثم تُمرّر الأسطوانة المشبّعة بالحبر على الصفحة المعدنية حتى تمتلىء الفجوات الغائرة بالحبر الذى يبقى فيها. وبعدها يُجفّف السطح الخارجي، وبهذا تصبح الصفحة صالحة للطباعة فتوضع فى المكبس لتنطبع الأخاديد المشبّعة بالأحبار على سطح الورقة [م.م.ث].

(١٢) LINEAR التشكيل الذى يعتمد فى تأثيره على المُشاهد على الأشكال المكوّنة بالخطوط أكثر من اعتماده على الكتل اللّونية والتظليل [م.م.ث].

(١٣) ظهرت هذه اللوحات فى طبعة سكيرا فى غير أماكنها من فصول الكتاب، ولقد وفقت إلى وضعها فى أماكنها الحقة من فصول الكتاب فى هذه الطبعة مستهديا بالنص.

(١٤) OUTLINES أو الحواف المحوّطة أو الحدود الخارجية، وهى ما يحيط بجسم أو مساحة ما من حدود تكون فاصلة بين أى منها وبين الفراغ رسماً وتصويراً سواء أكانت فواصل خطّية أو فوارق لونية [م.م.ث].

جامداً لا ينبض بانفعال أو تعبير. ومن هذا المنطلق شاع الزعم بأن ثمة صلة بين پيكاسو وآنجر مصوّر القرن التاسع عشر الذى عمد إلى الخروج على الواقعية بخطوطه الأرابيسكية(١٥) المنحنية النابضة بشهقة أوتار الكمان حين تعلو على أنغام جوقة الأوركسترا، فأضاف فقرات إلى العمود الفقرى وأسبغ انتفاخاً على العنق، كما هى الحال فى لوحة «المحظية» المشهورة بمتحف اللوڤر ولوحة «إيفيجينيا وثيتيس» بمتحف إكس، وهكذا انتصر الخط المنغّم «الأرابيسك» وانحنت الواقعية أمامه مستسلمة. فآنجر لم يبال بأى تحريف تشريحي حتى يتيح لخطوطه البروز بكمالها كله للتعبير عن خط متناغم لا يعنى بمطابقته للواقع، فكان قصاراه أن يحفظ لهذا الخط المحوّط تأثيره النوراني، وجاء من بعده پيكاسو فاستعار هذا الخط النوراني فى رسومه كافة. ولا ندري أكان أشد تمسّكا بإبراز طرافة المشهد بتسجيل جوهره المحرّك للعواطف، أم أنه استوحى الفن الإغريقي فى تمسكه بإظهار جمال الجسد ورفضه التعبير عن التفاصيل التى قد تهوّن من شأنه؟

على هذا النحو استطاع پيكاسو بمهارة أن يقدّم لنا المثالية الإغريقية بلغة عصرية. ويتجلّى لنا هذا الجهد فى ذلك الإنسجام الذى بلغ أقصاه وكذا جمال الخط فى لوحة «يوريديكي بعد أن لدغت الأفعى كاحلها» [الكتاب العاشر]، فقد كان هذا المضمون كفيلاً بأن يثير فى الصورة الجَزَع والهلع، غير أننا لا نرى فى التصويرة غير جسد بديع يتهاوى فى رفق يُحدِّده خطٌ منحن لطيف يفيض حسّية زاخراً بعطف تابعاتها وهن يُهْرعن إلى حملها وامتصاص السم من موضع اللدغة. ويخلو الرسم مما يشير إلى أن ثمة انزعاجاً ما باستثناء تلميحة جاءت غاية فى البساطة لامرأة تستدير بجسدها طلباً للنجدة.

وثمة عناصر فى هذه التصاوير تشترك كلها فى الإيحاء بقلة اكتراث الفنان بما يمسّ دخيلة نفوس الشخوص المصوّرة، كالوجوه التى يغشاها السكون والدعة، ومجموعات النساء والرجال التى تضمّ - فيما تضمّ - الرُّواة والمستمعين. وهو ما يدفعني إلى مناشدة القارىء ألاّ يعبأ كثيراً بخروج پيكاسو على النص منساقاً وراء استقلاليته فى رؤيته الفنية الذاتية. ويصل پيكاسو قمة البلاغة الخطّية فى لوحة مطلع الكتاب الرابع عشر حيث يصور ردْفى أنثى فيما لا يجاوز أقواساً أربع تحوي كل ما يمكن أن تنطلق به مشاعر الإنسان الغريزية أمام هذه المتعة المشتهاة.

ويستعين الفنان لماما بإثراء الملابس ببعض الوحدات الزخرفية البسيطة أو الخطوط المستقيمة، أو بالإيحاء باستخدام درجات الضوء الثلاثة، كما هى الحال فى لوحة مطلع الكتاب التاسع، حيث يعبّر عن الضوء والغبش والعتمة بالخطوط الطولية تارة وبالشبكية تارة أخرى.

---

(١٥) ARABESQUE الخط الرشيق المتأوِّد المتّسق المنغّم [م. م. م. ث].

غير أن كافة الرسوم تجلو لنا ثقة الفنان بنفسه وتَشَبُّعه بالإحساس بالموضوع المصوّر، وعدم التردّد فى إسقاط الخطوط على اللوحة، وتعمّده تجنّبْ استخدام الظلال، مانحاً التفرّد بالبطولة للخط فى التعبير، مما يُكسب اللوحات شفافية أثيرية تربطنا بأساطير الماضي. وبالرغم من السكينة التى يوحي بها الخط إلا أنه فى تحوِّيه يُعرب عما يعتلج فى نفوسنا من أحاسيس دفينة.

٧

وكلمة «ميتامورفوزس» التى هى عنوان الكتاب تعني حرفيا الانتقال من حال إلى حال لا يُشترط فيها حالٌ دنيا ولا حالٌ عليا. وإذ كان الكتاب كله تحوّل من مرتبة عليا إلى مرتبة دنيا غير حالات أربعة: هى تحوّل رومولوس وأينياس مؤسّسي روما إلى الألوهية، وهذا ضرب من إضفاء الهيبة على الدولة بتمجيد زعمائها الأسطوريين، ثم حالتا تأليه يوليوس قيصر وابنه بالتّبني قيصر أوغسطس، وكان ذلك فيما يبدو نوعاً من التملّق للإمبراطور ولم يتطابق مع الأسلوب الذى ألّف الشاعر الكتاب من أجله أو مع مساق سائر رواياته. من أجل هذا حين آثرت أن أسمّي الكتاب «مسخ الكائنات» لا تحوّلها أو انتقالها غير ملتزم فى ذلك بما جرى عليه مَنْ ترجم هذه الكلمة، جنحتُ إلى ما عليه الغالب من أساطير الكتاب من التحوّل من الحالة العليا إلى الحالة الدنيا، ثم مسترشداً بما جاء فى القرآن الكريم من استخدام هذه الكلمة التى توحي بأن المسخ كان من أعلى إلى أدنى. يقول الحق: «ولو نشاء لمسخناهم على مكانتهم فما استطاعوا مُضياً ﴿يس ٦٧﴾». ومن هذا كله أجدُنى لم أحِدْ فى ترجمتي لهذا العنوان حين جعلته المسخ لا التحوّل ولا الانتقال، وغاية ما فعلت أني استوحيت الترجمة من معنى الأساطير الواردة فى الكتاب ولم أقف جامداً عند حرفية اللفظ.

كذلك يرى أصحاب نظرية التناسخ أن «النسخ» هو نقل الروح إلى جسم أرفع، و«المسخ» هو نقل الروح إلى ذوات الأربع، و«الفسخ» هو نقل الروح إلى الحشرات، و«الرسخ» هو نقل الروح إلى النبات والجماد(١٦).

وفى هذا المعنى يقول أبو العلاء المعرّى(١٧) فى التناسخ:

تَعَوَّذْ بالإله من الممسوخ — وسَلْهُ أن تكون من النُّسُوخ
لقد خاب امرؤ يُمْسِي ويُضْحِي — يُنَقَّلُ فى فسوخٍ أو رسوخِ

(١٦) لزوم ما يلزم. الجزء الأول. صفحة ٢٢٤. الطبعة الثانية ١٩٣٠.
(١٧) لزوم ما يلزم. الجزء الأول. صفحة ٢٢٥. الطبعة الثانية ١٩٣٠.

وترجمتي هذه تعتمد على الترجمة الإنجليزية للنص التى قام بها الأستاذ «فرانك چوستوس ميلر» فى مجموعة «لُويب» الكلاسيكية التى ظهرت باللغتين اللاتينية والإنجليزية وصدرت فى مجلدين عن هارڤارد يونيڤيرستي پريس، ثم على ترجمة إنجليزية ظهرت فى مجموعة پنجوين للسيدة «ماري إينيس» فيها شيء من التصرّف، إذ ثمة فقرات جاءت نثراً مسروداً مبسّطا وهى فى الأصل فقرات خطابية. كذلك اعتمدتُ على ترجمة فرنسية حرفية للأستاذ «شامونار» ظهرت فى مجموعة الإخوان جارنييه لترجمات روائع الأدبين اللاتيني واليوناني، فى مجلدين باللغة اللاتينية والفرنسية فى صفحات متقابلة. واستعنت بالمثل بترجمة فرنسية أخرى للأستاذ چورچ لافاظ فى سلسلة «مجموعة جامعات فرنسا» نشرت بباريس عام ١٩٢٨ فى ثلاثة مجلدات. وقد آثرت الاحتفاظ بأسماء الآلهة كما وردت فى النص الأوڤيدي، وهى الأسماء اللاتينية، مضيفاً إلى أهمها بين قوسين مقابلها اليوناني.

وكانت الرغبة التى استأثرت بوجداني طوال صياغتى لهذه الترجمة هى أن أقدّم نصّا يتميز إلى جانب أمانته بالنسبة لفكر المؤلف بالبساطة والوضوح اللذين يجتذبان القارىء ويشيعان فى نفسه الإحساس بالمتعة التى يجدها قارىء النص الأصلي فى لغته اللاتينية. وقد واجهتني خلال هذه المهمة عقبتان: أولاهما ازدحام النص بأسلوب الالتفات، وهو الانتقال المفاجىء من صيغة المتكلم أو الغائب إلى صيغة المخاطَب، وهو أسلوب غير شائع فى العربية بمقدار ما هو شائع فى الشعر اللاتيني الملحمي. وقد حاولت جاهدا قدر الاستطاعة تقليل هذه الانتقالات التى قد يصعب فهمها واستيعابها والتى قد تكون سببا لبلبلة القارئ. وثانيتهما إفراط المؤلف فى الاستشهاد بأسماء الآلهة وأبطال الأساطير اليونانية والرومانية التى كانت معروفة أيامها للقارىء العادي فى حين أنها لا تعطي نفس إيحاءاتها ودلالاتها للقارىء العربي المعاصر الذى لم تُتح له قراءة معمّقة فى الكلاسيكيات والأساطير القديمة. ومع أني قد أضفت فى نهاية كل فصل تعقيبات وشروحاً تناولت عدداً كبيراً من أسماء الآلهة والأبطال وشمائلهم والأماكن إلا أنني أجزتُ لنفسي أن أقحمَ هنا وهناك عبارة مفسّرة قصيرة وراء بعد الأسماء أو الأماكن أو الأحداث حتى لا أقطع على القارىء متعته حين يجد نفسه مضطراً لتقليب الصفحات والبحث بين التعقيبات عن تفسيرات لما يقرؤه. ولعلي أكون بذلك قد أعنت القارىء غير المتخصّص على مواصلة المطالعة الميسَّرة، دون أن أكون قد أثقلت على القارىء المتخصّص بوقفات هو فى غير حاجة إلى التريّث عندها.

وقد قام الأستاذ الدكتور مجدي وهبة رحمه الله بجهد العالم المدقّق الأمين مشكوراً بمقابلة النص العربي بالنص اللاتيني لضبط الترجمة وهو النص المطبوع فى مجموعة «جيوم بوديه» بباريس ١٩٢٨ والمأخوذة عن المخطوطة الشهيرة «مارسيانوس ٢٢٥» المحفوظة بمكتبة «لاورنتيانا» بفلورنسا، كما رجع فى حالات اللّبس إلى الطبعة التى حققها الأستاذ «ميركل» فى لايبزج، وهى الطبعة الثانية عام ١٨٧٥.

وحين أقدمتُ على إصدار الكتاب فى طبعة ثانية رأيت ألا ألتزم بالصياغة الأولى، فأحوّرُها بعض التحوير ولا أساير النص بحرفيته كما فعلتُ أولاً بل أنفذ إلى روحه، فهذا أجدى للقارىء العربي الذى سيجد أنه ليس ثمة خروج عن روح النص لا بقليل أو كثير، وكما فعلت مع الطبعة الثانية فعلت مزيداً مع الطبعة الثالثة، كما استأنستُ قبل ظهورها بالأستاذ الدكتور أحمد عتمان الضليع فى اللغة اللاتينية حرصاً منى على أن أكون كما قلت قبلُ مسايراً للنص بشاعريته. وكم أسعدني أنه رآني على الجادة لم أنحرف قيد أنملة، فله منى جزيل الشكر. أما عن الطبعة الأخيرة فقد نحوتُ فيها نحواً آخر، مستضيئا بترجمة جديدة للأستاذ أ د. ملقيل ظهرت عام ١٩٨٦ بنيويورك عن أوكسفورد يونيڤير ستي پريس، مما جعل من هذه الطبعة الأخيرة ترجمة تكاد تكون جديدة تماما.

ثروت عكاشه

المعادى فى ١٠ نوفمبر ١٩٩٦

الكتاب الأول

الكتابُ الأول

ها أنذا أشرعُ فى الحديث عن تحوّل لكائنات كانت على صُوَر ثم إذا هى على صور أخرى. وإنى لأبتهلُ إليكم أيّها الآلهة - وإليكم زمامُ ما يجري فى الكوْن من تحوّلات - العونَ على بلوغ مقصدي بوحي من إلهامكم أقْوَى به على أن أنسجَ فى قصيدي هذا خيطاً من الشِّعر لا ينقطع، تنتظم بين طرَفيه أحداثُ الكون منذ بدء الخليقة حتى عصرنا القائم.

أصلُ العالم

قَبْلَ أن تكونَ أرضٌ، وقبل أن تكونَ بحارٌ، وقبل أن تكونَ سماءٌ تُظلّ هذا الكون أجمع، كان ثمة عماءٌ يلفّ العالم كله بردائه ولا يبين منه غير شكلٍ واحد لا سواه. كان كتلةً مضطربة لا شكل لها، جرماً لا حياة فيه، وبذورا متناجزة لعناصر متنافرة، ليس ثمة صلة بينها ولا رابطة. ولم تكن ثمة شمسٌ يفيضُ نورُها على العالم، كما لم يكن ثم قمرٌ له مع كل يوم وجهٌ جديد، يكْمُلُ ثم يعودُ ناقصاً كما بدأ. ولم تكن الأرضُ بعدُ قد احتواها الفضاء المحيط تتهادى فيه بثقَلها، كما لم تكن مياه المحيطات قد بسطت بعدُ ذراعيها حذو الشطآن النائية. ومع أنه كان ثَمة أرض وبحرٌ وفضاء، إلاّ أن الأرض كانت تعوزها الصّلابة لا يستطيع أحد وطأها، والبحر تعوزه السيولة لا يستطيع أحد عبوره، على حين كان الفضاء ظلمة معتمة فى

عوَز إلى النور. لم يكن ثمة شئ يحتفظ بشكله ثابتا، وكانت العناصر جميعا على تضاد وخلاف. ومع كونها كتلة سديمية واحدة فقد كان ثمة صراع بين الحرارة والبرودة، وبين الوَمَد والجفاف، وبين الليونة واليُبْس، وبين الخفّة والثّقل. وكان لابد لهذا الصراع من حسم حاسم، فتجلّى الإله - أو الطبيعة العطوفة المُنسِّقة - كي يفصل بين الشيء ونقيضه، ففصل ما بين السماء والأرض، وما بين الأرض والبحار، وخلّص السماء الأثيرية من كثافة الجو المحيط. وما إن تم له فصل هذا كله وتخليصه من فوضى الكُتلة العمياء حتى غرس الوئام والسلام بين هذه العناصر فخصّ كُلاً بمكانه المميّز، رابطاً ما بينها في تآلف وانسجام، فإذا العناصر الملتهبة معدومة الوزن التي تشكّل قبة السماء تصّاعد لتحتل ذروة بناء الكون، وإذا الهواء الذي يضارع اللّهب خفّة يتخذ مكانه بعدها، وإذا الأرض وهي أثقل منهما معا تشدّ إليها العناصر المتماسكة الأشدّ كثافة فتهوي جميعا إلى القاع متراكمة فوق بعضها البعض، وإذا الماء المتدفّق يحتلّ ما خَلاَ في الوجود محتضناً بذراعيه كتلة الأرض الصّلبة.

وما إن فرغ الإلهُ - أيّ إله كان - من تشكيل تلك الكتلة الهيولية وتنسيقها وإخضاعها لنظامه الكوني، حتى شكّل الأرضَ كرة ضخمة متماثلة السطح من كل جانب. ثم أمر المياه أن تنطلق وتنبسط، وأن تطيع الريح الهوجاء، فتعلو أمواجا، وتطرح نفسها حول الشطآن لتُمنطق الأرض. ولكي يبلغ الأمر مداه فجّر الينابيع وأفاض المستنقعات الراكدة التي لا حصر لها، وخلق البحيرات، ثم حبس الأنهار المنسابة من علٍ بين ضفافها المنحدرة كما وزّعها على سطح الأرض. فمنها ما يُفضي إلى بحر فتختلط مياهها بمياهه وتفنَى في ذاك الخضمّ، ثم تعود ثائرة فيصدّها البرّ، ومنها ما لا ينتهي إلى بحر وتبتلعه الأرض في جوفها. كما بسط السهول وخدّد الوديان، وكسا الغابات بالأشجار الوارفة، ورفع الجبال ذات القنن الصخرية. وإذ كان قد قسّم قبة السماء مناطق: اثنتين إلى اليمين واثنتين إلى اليسار، وبين هاتين وهاتين خامسة أشدّ حرارة، كذلك قسّم الأرض التي تُظلّها السماء مناطقَ بأمرِه تتناسب مع مناطق السماء عدًّا، فالوسطى لا حياة فيها لشدّة قيظها، وغطّت الثلوج المتراكمة منطقتين من هذه المناطق، وبقيت الوُسطيان بين هذين الطرفين تتمتعان بمناخ معتدل يجمع بين البرودة والحرارة[1].

وفوق هذا كله حلّق الهواء بما رُزق من خفّة لم تُرْزَقْها الأرض والمياه بثقلَيْهما، وكانت خفّة الهواء دون خفّة النار. وأقرّ الإله الضّباب والسّحاب مقرّهما في الهواء، كما جعل للرعد

مقراً، هذا الرعد الذى يثير الخوف فى أفئدة البشر. كذلك جعل للرياح مقارّها، تلك الرياح التى تتّحد مع الصواعق فينفذ من خَلَلهما البرق. غير أن هذا الإله مهندس الكون - حرْصاً على سرمديته - لم يترك تلك الرياح تجري على أعنَّتها تهبُّ من حيث تشاء وكيف تشاء بل جعل لكل ريح مهابّها، على الرغم من أنها إلى اليوم عصيّة على أن تخضع لنظام فى مهابّها، إذ أن ثمة تنافر شديد بين الرياح الإخوة: فريحُ «إيوروس» تنطلق صوب مناطق ربّة الفجر ومملكة النبط فى بلاد العرب، ونحو سلاسل الجبال التى تكلّل أشعة الفجر قممها فى بلاد الفرس. وريحُ النسيم «زفيروس» تهبُّ نحو الشطآن التى تنكسر عليها أشعة الشمس فى غروبها فتخلّفها دافئة. أما ريح «بورياس» القارصة فتهبّ نحو بلاد السكوذيين [السكيثيين] وشتى نواحى الشمال. وريح «أوستير» على غير مهابّ الرياح كلها تجلبُ إلى الأرض ضباباً مستديما وسُحُبا حُبْلى بالمطر. وكان أن خَلَق الإله الأثيرَ الذى لا وزن له ولا تَعْلَقُ به شائبة من شوائب الأرض.

وما كاد يفصل بين هذه العناصر أجمع ويجعل كلا منها يلتزم حدوده حتى أخذت النجومُ تتألّق فى رقعة السماء بعد احتجابها طويلاً فى طيّات الكتلة التى كانت تكنُّها. ولكى لا تُحرم أيةُ منطقة من وجود كائناتها الحيَّة أفسح للكواكب والآلهة أدنى طبقات السماء. واتخذت الأسماك بحراشفها البرّاقة المياه مساكن ومسالك لها، واحتضنت الأرضُ الحيوان منذ نشأته الوحشيّة الضّارية، مثلما احتضن الهواء السابح الطّير.

وكان ثمة كائن من معدن أنفس يتميز بالفكر الخلاق الذى يفرض به سلطانه على سائر المخلوقات مايزال غائبا، فكان الإنسان. ومَنْ يدري لعل إله هذا الكون الذى شكّله على تلك الصورة البديعة قد خلق الإنسان من بذرته! أوْ مَنْ يدري لعل الأرضَ فى عنفوانها حين نبذت عنها طبقات الأثير كانت قد انطوت على بذرة من صُلب أختها السماء! ثم أتى بروميثيوس بن يابيتوس[٢] فقبض قبضة من تراب الأرض عجنها بماء جار صاف وسوّاها إنساناً على صورة الآلهة المهيمنة على كل شىء. وعلى حين خُلق الحيوان مُكبّا بوجهه على الأرض لا يطالعُ سواها، خُلق الإنسان مشرئباً بوجهه إلى السماء متأمّلاً فيها داعياً ربّه أن يشدّ بصره بالكواكب. وهكذا تغيّرت الأرض التى كانت إلى حين قريب شيئا مضطربا غير مميَّز فضمّت أشكال بشر غير مسبوقين.

وكان ثمة عصرٌ ذهبيٌ فى بدء الخلق أظلّ قوماً على إيمان عميق ومبادئ سامية، لم يُشرَّع لهم قانون يلزمون حدوده أو يخافون عقابه، وعاشوا لا وازع يردعهم غير الضمير؛ فلا قضاة يفصلون بينهم، ولا حكّام يجازونهم، إذ لم يكن ثمة نزاع أو عدوان، وكان الناس حيث هُم؛ لا هجرة ولا نزوح عن أرضهم. ولم يكن جذع شجرة الصنوبر قد اقْتُلع بعدُ من مكانه فوق الجبال ليطفو فوق الخضَمّ المائج ويطوّف حول العالم، ولم يكن البشر على علم بغير تلك الشواطىء التى نشأوا عليها، ولم تكن القلاع تحوطها الخنادق المعوِّقة المغمورة بالمياه، ولم يكن قد ظهر بعدُ ذلك النفير النحاسي المستقيم ولا البوق النحاسي المقوّس. ولم تكن ثمة خوذات ولا سيوف، إذ كان الناس آمنين لا تُفزعهم حروب، ولا هُم فى حاجة إلى جيوش تدفع عنهم شرّ العدوان. كانت الأرض تُؤتي أكُلَها دون عزق أو حرث والناس بما لديهم من طعام قانعون، فهم وادعون لا يكدّون ولا يعملون، يأتيهم رزقهم رغداً من بلّوط چوپيتر[٣] الممتدة فروعه، ومن ثمار الشجيرات، وتوت سفوح الجبال، وأعناب البراري الغزيرة المتدلّية من غصونها. وكانت النسمات الرّخيّة الدافئة تحمل عبق الزهور فى ربيع لا ينتهى فتنشر فى الجو أريجها... وتتالت الأحقاب، فإذا الأرض التى لم يسبق حرثها تكتسي بعيدان القمح التى انبثقت دون غرس، وإذا الحقول تلتحي بنصاعة بياض السنابل. وساد الربيع الأعوام فلا برد ولا مطر، وفاضت الأنهار لبنا ونكتارا حلو المذاق [شراب الآلهة]، وسالت الأشجار المخضرَّة شَهْداً ذهبيّ اللون.

ووقع ساتورن[٤] [كرونوس عند الإغريق] أسيراً فى يد چوپيتر [زيوس عند الإغريق] فألقى به فى ظلام تارتاروس وانفرد هو بحكم العالم، وكان من هذا بداية العصر الفضّي الذى حلّ محل العصر الذهبيّ وإن كان مع ذلك فى مرتبة أدنى منه وأرفع من عصر البرونز المُصْفَرّ الذى تلاه. واختصر چوپيتر فصل الربيع الذى كان يمتد على مدار السّنة فى العصر السابق، وقسّم السنة إلى فصول أربعة: شتاء وصيفا وخريفا متقلّبا وربيعا قصير الأمد. فإذا الجو الجاف يتوهّج بالقيظ، وإذا كتلُ الجليد المدلاّة تتجمّد بفعل الرياح الصّقيعية، وإذا الناس يبحثون عن دور تقيهم غوائل الطقس بعد أن كان مأواهم الكهوف والأجمات الكثّة والغصون الموشّجة بلحاء الشجر. ومضى البشر يكدّون فى فلح الأرض وحرثها، ويبذرون فيها حبوب الحِنْطة التى جادت بها عليهم سيريس [ديميتير عند الإغريق]، وأخذت الثيران تئنّ تحت نير المحاريث.

لوحة ١ . پيكار : الإله يفصل ما بين السماء والأرض، ومـــا بين الأرض والماء، ويخلّص الهواء الكثيف من شفافية الأثير.

لوحة ٢. پيكار : پروميثيوس يقبض قبضةً من تراب الأرض عجنها بماء المطر وسوّاها إنساناً.

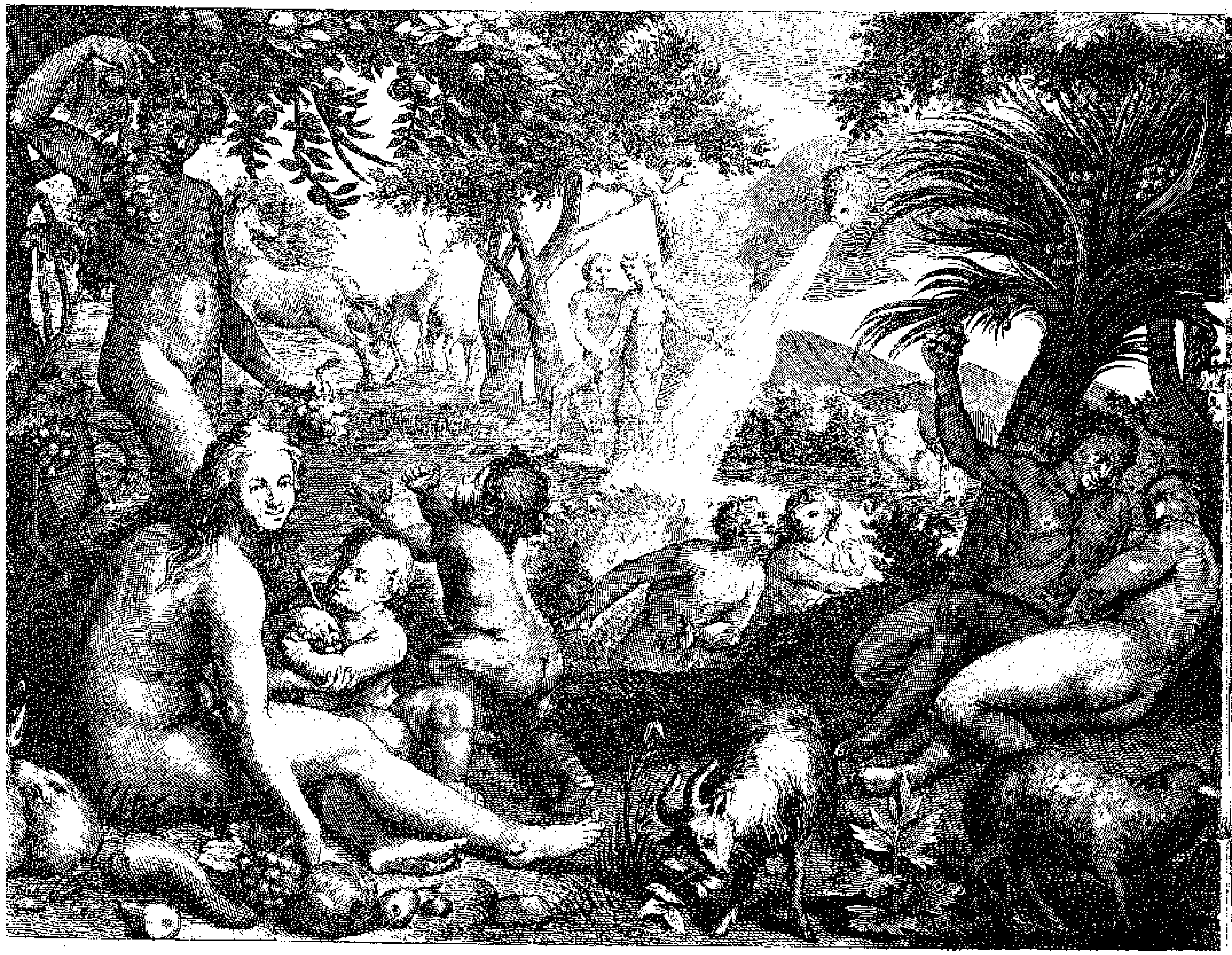

لوحة ٣. پيكار : العصر الذهبي.

ثم كان العصر الثالث، وهو عصر البرونز، الذى طَبع البشر فيه بطابع الغِلْظة والقسوة فاستسلموا إلى المنازعات وشاعت بينهم الصراعات، غير أن الشرّ لم يكن قد غلَبهم على كل أمورهم.

وكان أخيراً عصر الحديد الصّلب الذى اشتق اسمه من معدن أقل قيمة، حين برزت الجرائم فى أبشع صورها وغاب الحق وانمحى الصدق ووُئد الوفاء واختفت الطاعة وطغت الغطرسة والخيانة وساد الطمع والخداع وتفشّى العنف والجشع. وأعدّ البحّارةُ أشرعةً يُشرعونها للريح وهم بعدُ على غير معرفة معمَّقة بالسفن وأشرعتها، واصطنعوا من الأشجار التى كانت تُزْحم سفوح الجبال الشامخة سُفناً تمخر عباب البحر متغطرسة بفعل قلاعها المنتفخة وأثر الرياح، تتقاذفها أمواج المحيطات المجهولة وتأخذها بعيداً بعيداً عن مواطنها. وتجزّأت الأرض وراء حدود بعد أن كانت ملْكا مشاعاً بين الجميع يستمتعون بها استمتاعهم بالشمس والهواء. ولم يكتف الناس باعتصار الحقول السّخية بالقوت والمحاصيل التى تجود بها عليهم فحسب، بل انطلقوا يحفرون الأرض أيضا منقّبين عن معادنها الخبيئة فى أحشائها، فانتزعوا الثروات التى خبّأها الإله الخالق وطَمَرها عميقا فى مملكة الظلال قرب نهر ستيكس، وإذا هى تغدو مصدر شقائهم. فاستخرجوا الحديد المُهْلك وكانت معه الويلات، وأتبعوه بالذهب وكان أشدّ من الحديد وَيْلاً، إذ كان كلٌّ من الحديد والذهب عوناً لهم على الحرب والقتال. وبالأيدي الآثمة شُهرت السيوف لتلقَى السيوف مُصَلْصلة مُجَلْجلة. وعاش الناس على السَّلب والنهب لا يأمن الضيفُ مضيفَه، ولا يطمئن الزوجُ لحميه، ولا يثق الأخُ بأخيه. وغاض الودّ من صدور الناس، وأصبح كلٌّ زوجين لا يأمن أحدهما للآخر، وغدت زوجات الآباء تَدْسُسْن السّم فى الطعام لأبناء أزواجهن، والأبناء يتآمرون على موت آبائهم وعلى الخلاص منهم، وحلّ عقوق الأبناء بالوالدين محل البرّ بهما، ولم يعد للتقوى موطىء فى القلوب، كما تمرّد البشر على طاعة آلهتهم؛ فعمّ الأرضُ البلاء وسالت الدماء، فهجرتها آسترايا العذراء[٥] آخر مَنْ كان على الأرض من أرباب السماء.

العمالقة

وتطلّع العمالقة إلى الأثير لا يبغون أن يكوَن آمناً كما لم تَعُدْ الأرضُ آمنةً، ولكى يغزو العمالقة ملكوت السموات جعلوا الجبال جبلاً فوق جبل حتى يرقوا إلى حيث النجوم. عندها

لوحة ٤ . پيكار : عصر الفضة، وعصر البرونز، وعصر الحديد.

أرسل عليهم سيّد الكون القدير صواعقه؛ فتداعَى جبل أوليمپوس، وتزحزح جبل پيليون من فوق جبل أوسّا، وإذا تحت ذلك الركام الهائل جثث العمالقة هامدة، وإذا أمّنا الأرض قد غُمرت بدماء أبنائها العمالقة. ولكى تبقَى الحياة متصلة، قيل إن الأرض الأم قد نفثت من روحها فى هذا الدم الدافىء المتخثّر، فإذا هى مخلوقات تحتفظ بشىء من سمات نسلها السابق بعد أن اتخذت شكل البشر. غير أنه سرعان ما خالف هؤلاء أمر الآلهة وثارت فيهم ثائرة ذلك الدم المسفوح الذى خلقتهم الأرض منه، فغَلُظَت قلوبهم وعَدَا بعضُهم على بعض[6].

ليــكاوون

وعندما رأى ربّ الأرباب - ابن ساتورن - من فوق عرشه العلوىّ ما حاق بالأرض ثار غضوباً وزفر زفرة مدوِّية وقد تمثّلت فى ذهنه وليمة ليكاوون الرهيبة التى لم يكن يعلم بها أحد من أفراد ملكوته، فدعا الآلهة إلى مجلسه واستجابوا له طائعين، سالكين سبيل المجرّة التى تُرى وضّاءة عندما تكون السماء صافية حتى انتهوا إلى حيث يقيم ربّ الصواعق الجليل. وكانت من حواليهم إلى اليمين وإلى الشمال بيوت كبار الأرباب الخاصّة بهم، وهو المكان الذى لا أجد حرجاً لو أوتيت شيئاً من الجرأة فى أن أطلق عليه اسم پالاتينوس السموات العُلَى[7]، على حين كانت دور صغار الأرباب موزّعة هنا وهناك مختلفة عن تلك كل الاختلاف. وفى قاعة من الرخام انعقد مجلس الأرباب، واعتلى كبيرهم منصّته معتمداً على صولجان من عاج، وهزّ خصلة شعره الرهيبة مرات ثلاثا أو أربعاً فارتجّت الأرض واضطربت النجوم، ثم خطبهم بقوله: «لم أحسّ قط بمثل ما أحسّه اليوم من قلق على ما يسود النظام العالمي من اضطراب، حتى ولا يوم حاول العمالقة ذوو أذيال الأفاعي أن يلفّ كلٌّ منهم أذرعته المائة حول السماء لكى يستولوا عليها. ولقد كادوا يفعلون لولا أنهم كانوا قلة ولم يكن ثمة مَنْ يشاركهم هذا الشرّ. إن أخْوَفَ ما أخافه أن يمتدّ هذا الشرّ إلى غيرهم فيستفحل الخَطْب، لذا كان لا معدى عن إفناء البشر كافة فلا يبقى منهم أحد فى العالم الذى تحيط به تلك البحار الصاخبة. أقْسمُ بأنهار العالم السفلي التى تسري فى غيضة ستيكس المندسّة فى أعماق الأرض أننى قد جَهدتُ كى أقوّم أمرهم ما استطعت، غير أن ذلك لم يُغْن شيئاً وكان لزاماً أن يُجتَثّ الشرّ من جذوره. وثمة أنصافُ أربابٍ وأرواحٌ وحوريات وساتير وجان فى الغابات

لوحة ٥ . پيكار : چوپيتر يُرسل صواعقه للقضاء على العمالقة، وظهور السلالة البشرية بعد أن نفثت «الأرض» من روحها فى دماء العمالقة الدافئة .

لوحة ٦ . پيكار : چوپيتر يرأس مجلس الآلهة.

والتـــلال[8] لم نكن قد أفسحنا لهم مكاناً فى السماء، حتمٌ علينا أن نهيىء لهم حياة على الأرض، وما ظنّى بأنهم ناجون من شرّ ليكاوون الذى أعقب خمسين من الجاحدين وحاك الدسائس من حولي، وأنا ربّ الصواعق وزمامها فى يدي، بل وربّكم أيضاً».

وهَمْهَمَ الأرباب وزمجروا وغمرهم شعور من الذعر أشبه بذلك الذى غمر الناس حين انتهى إليهم خبر مقتل قيصر[9] عندما حاولت فئة متمرّدة إخماد شعلة روما، فلقد ألقى فى روعهم أن ثمة دمارا سيُحيط بالعالم يزلزل جميع أركانه. من أجل هذا نادى الأرباب بإنزال العقاب على مَنْ كان سبباً لهذا البلاء. وكما أن ولاء رعاياك يُشيع البهجة فى قلبك يا أوغسطس، فكذلك كان چوپيتر يَسْعَدُ بولاء أتباعه من الأرباب. لكن چوپيتر ربّ الأرباب ردّهم إلى سكونهم بإشارة منه ثم نهض بينهم خطيباً فقال: «لقد نال جزاءه ولم يعد يُخشى بأسه، وإليكم ما فعل وما أصابه على ما فعل. فلقد انتهى إليّ أن ثمة مُرْجفَات تؤذنُ بنُذُر فى هذا الزمان الذى يُظلُّنا فهبطتُ منْ عليائي فى الأوليمپوس إلى الأرض فى صورة آدمي، ورأيت، ويا هوْل ما رأيت! فلقد سمعتُ دون ما وقع عليه بصري. وجُزْت جبال ماينالوس إلى بلاد تعجّ بالحيوانات الضّارية، ومنها إلى كيلينيه، ثم إلى ليكايوس قارصة البرد حيث غابات الصنوبر[10]. وما إن آذنت الشمس بالمغيب وأوشك الليل أن يرخي سدوله، حتى كنت على باب منزل ليكاوون طاغية[11] أركاديا، وعندها خلعتُ عنّي صورة الآدمي وعُدْتُ إلى ألوهيتي. وما إن رآني الناس حتى ازدحموا حولي مصلّين خاشعين، فأثار ذلك سخرية ليكاوون وقال للناس غاضباً: سترون إن كان من التفَفْتُم حوله إلهاً أم غير إله، وكان فى عزمه أن ينقضّ عليّ على غرّة مني فيقتلني وأنا نائم، وكان يريد أن يجعل من هذا دليله على بطلان ألوهيتي وأنني من البشر. وكانت ثمة رهائن بين يديه من شعب مولوسوس[12]، فإذا هو إمعاناً فى فجوره وجبروته يقطع رقبة أحدهم بسيفه البتّار، ويلقي بجسده وهو لا يزال ينبض بالحياة فى النار، يجعلُ منه شواء. وأعدّت المائدة وصُفّت الصِّحاف وجلس يلتهم ما فيها بنهم وشره. فنقمتُ عليه فعْله وأرسلتُ على بيته شواظا من نار أحرق البيت بما فيه من تماثيل لأسرته نصبها آلهةً زوراً وبهتاناً. غير أن ليكاوون استطاع أن ينجو، ففرّ هارباً إلى الريف وهو ثائر غاضب. وهناك وجد نفسه أخرسَ لا يستطيع تحريك لسانه بكلمة، وألفَى ما عليه من ثياب قد تحوّلت إلى شَعرٍ شائك، وإذا ذراعاه قد تحوّلتا إلى ساقين، وإذا هو قد مُسِخَ ذئباً مِنْ

أشرس ما تكون الذئاب، فعدا فاغر الفم إلى حيث قطعان الماشية ينهشها نهشاً ويقتلها تقتيلاً. وكان على الرغم من صورته تلك التى تحوّل إليها لايزال يحمل شيئاً من ملامحه الأولى، فلقد بقى له شعره الأشْيب كما بقى له وجهه الجهم البغيض بشراسته وقسوته، وكذا بقى له بريق عينيه وما فيهما من نظرات مرهوبة. ولم تحرق الصاعقة التى حرقت داره غيرها من دور الفساد، وهكذا سوف يظل فى أنحاء الأرض أثر لربّة الانتقام[١٣] التى لا تمارس غير القسوة. ألاَ إن ما صادفته لم يكن غير مؤامرة من مؤامرات الإجرام، لذا قرّ قراري الذى لا رجعة عنه أن يُوفَّى كلٌ جزاءه».

وهنا صاح بعض الآلهة مناصراً چوپيتر فيما قرّر مطالباً إياه بالمزيد، على حين لزم آخرون الصمت. غير أنهم قد ساءهم جميعاً ما سوف يلقَى البشر من عذاب، وما سوف تكون عليه الأرض بعد أن يُقضى على هذا الجنس البشري كله، وما سوف تكون عليه معابدهم فى الأرض بعد أن لن تجد منهم مَنْ يختلف إليها مقدِّماً القرابين، وخال الأرباب أن الأرض بعد أن ينفذ فيها حُكْم چوپيتر سوف تكون مرتعاً للوحوش الضارية. وأدرك ربّ الأرباب ما يساور الأرباب من خوف وجزع فأعلن فيهم أن الأمور سوف تجري دون إضرار، وأنه سوف يخلق بشراً غير البشر يختلفون عنهم الاختلاف كله، ويولدون من أصل سوف يكون معجزة من المعجزات.

وكان چوپيتر على وشك أن يُرسل صواعقه على الأرض لتأتي على مَنْ فيها أجمع، لولا أنه خشى إن هو أطلق صواعقه الخارقة أن تشبّ النار فى طبقات الجو العليا التى يسودها الصفاء وتنتقل منها إلى قبة السماء كلها، كما ذكر ما جاء فى لوح القدر من أنه سيكون وقتٌ تشتعل فيه الأرض والبحار وقبة السماء وينهار الكون أجمع، فعدل عما كان سيأخذ فيه من استخدام وسائل التدمير التى أعدّها «الكيكلوپيس»[١٤]، ورأى أن يعمّ العالم بسيول جارفة تأتي على البشر أجمع. فحشد رياح الشمال فى كهوف أيولوس، وضمّ إليها الأعاصير التى تبدّد السّحب الكثيفة، ثم أرسل رياح الجنوب من محابسها، فراحت تضرب بأجنحة مبلّلة فى غياهب الظلمات وئيدة لثقل ما تحمل من أمطار تتساقط من خصلاتها البيضاء ومن حولها الضباب يُنْذر بمقْدَمها، ثم ما لبثت أن ألقت فيها سيلاً متدفّقاً عمّ الأرض وفاض فى أرجائها. وكانت إيريس رسولة چونو [هيرا عند الإغريق] وراء هذا العقاب مرتديةً ثوباً من ألوان قوس قُزَح تُنشيء

لوحة ٧. پيكار : چوپيتر يمسخ ليكاؤون ذئبا.

السُّحب الأولى إنشاءً وتُرسل بها مَدَدا فى إثر بعضها، فإذا ما على الأرض من زرع وشجر ظل المزارعون يصلّون طويلاً من أجل نمائه يُقتَلع ويُبدَّد، وإذا هم يبكون فى حسرة على ما بذلوا من جهد طوال العام سدى. ولم يقنع چوپيتر بما تحت يديه من عوامل الدمار التى يُسخّرها حسب هواه فى مملكته بل طلب إلى شقيقه نپتون [پوسيدون عند الإغريق] أن يرسل هو الآخر أمواجه اللازوردية على الأرض، فإذا البحار والأنهار والسماء بما تُرسل من أمطار كلها حربٌ على الأرض لم تترك فيها ركناً مشيداً ولا بُنياناً قائماً إلاّ أتت عليه، وإذا صفحةُ الأرضِ كلها مغمورة بالمياه.

وأرسل كبير الآلهة يستدعي الأنهار، وما إن مَثَلوا أمامه فى قصره حتى ابتدرهم قائلاً: «ليس أمامنا وقت نبدّده الآن فى مُسهب العظات، فأمامكم مُهمّة عاجلة: أن تمارسوا كل ما تملكون من طاقات وأن تندفعوا بكل سطوتكم مرتدّين إلى أوطانكم تكتسحون ما بها من أسوار، مُطلقين لمياهكم الجارية العنان».

هكذا كانت أوامره، فعادت الأنهار إلى مواطنها، وبعد أن فتحوا أفواه ينابيعهم انطلقوا بعنف صوب البحر فى سيول عاتية.

وضرب نپتون الأرض بعصاه الثلاثية [صولجانه ذى الشُّعَب الثلاث] فارتجفت واهتزّت، وانشقّت مجار للمياه تدفّقت فيها وفاضت على الجانبين، فإذا هى تقتلع النباتات من جذورها، وتُغرِق المحاصيل والكروم والناس والماشية، وتُهدّم البيوت على مَن فيها والمعابد على المصلّين بها، وتسوق الكتل العاتية لأصنام الآلهة سَوْقاً، وتغمر الشاهقات والشواهق فلم يعد يُرى منها غير قممها. ولم يفلت مبنى من هذه الكارثة إلاّ دمّرته موجة أعتَى من الأولى فتهاوى سطحه تحت الماء، واختلط الأمر فلم تعد ثمة حدود بين الأرض والبحر، بل غدت الأرض كلها بحراً بلا شطئان. وهُرع نفرٌ إلى قمم الجبال يجدون فيها عاصماً من الغرق، ونفرٌ إلى السفن ذوات الحيازيم[١٥] المقوّسة يضربون بالمجاذيف فوق أرض كانوا يخطّون فيها بالمحاريث، وأقلع آخرون بقواربهم وسط المياه التى غمرت الحقول وكانت تعجّ بالأمس بحنطتها والبيوت التى كانت فيما مضى مأواهم. وهنا وهناك كانت عيونهم تلمح أسراب السمك عالقةً بغصون أشجار الدردار. وأرسى بعض الملاّحين سفنهم حيث كانت المراعي

لوحة ٨ . پيكار : الطوفان يكتسح الكون.

الخضراء، وأحياناً كانت السفن المسطّحة القاع تمسّ الكروم التى ترقد تحتها. وفى الأماكن التى ٣٠٠ كانت قطعان الماعز ترعى الأعشاب فيها آمنة انسابت كلاب البحر القبيحة تشقّ طريقها بين الأمواج، وانتابت الدهشة حوريات النيرياديس حين رأين الغيضات والمدن والدور مدفونة تحت المياه، واحتلت الدلافين الغابات تشدّ الأغصان العالية وتهزّ جذوع أشجار البلوط التى ترتطم بها. وسبحت الذئاب بين قطعان الماعز، وحملت الأمواج النمور والأسود المصفرّة السُّمرة. أما الخنازير البرّية فلم تُغْنها أنيابها الناهشة، كما لم تُسعف الوعول سيقانها القوية التى تُعينها على العَدْو، فإذا الفيضان قد ابتلعها جميعاً. وحلّقت الطيور فى الجو ما شاءت أن تحلّق حتى كلّت أجنحتها فهوت فى ذلك الخضم. وإذا هذا الفيض قد غطّى التلال وبلغ ذروة الجبال، وإذا الجنس البشرى قد فنى أكثره، ومن نجا منهم من هذا الفيض أهلكه الجوع[١٦].

ديوكاليون وپيرا

وكان فيما غمر الماء أرض فوكيس[١٧] الخصبة التى كانت حدّاً فاصلاً بين حقول بويوتيا وحقول أويتا. وكان ثمة جبل شامخ هو جبل پارناسوس له قمتان توأمان تكادان تلمسان النجوم تغشّى السّحب سفوحه رسا عليه الفُلك الذى كان يحمل ديوكاليون وزوجته. وكان ٣٢٠ ديوكاليون بن پروميثيوس[١٨] خير البشر وألزمهم للطريق السّوىّ، وكانت زوجته پيرا إبنة إپيميثيوس أكثر النساء إجلالاً للآلهة. وكان أول ما فعله الزوجان أن اتّجها بالشكر إلى ربّات الجبل حوريات كوريكيا، وإلى ثيميس ربّة الوحى الكاشفة عن الغيب، فقاما يصلّيان لهن عرفانا بنجاتهما. ورأى چوپيتر الأرض وقد غمرتها المياه الآسنة، وأنه لم يبق من الرجال الذين بلغت عُدّتهم آلافاً غير واحد هو ديوكاليون، وأنه لم يبق من النساء اللاتى بلغت عدّتهن آلافاً غير واحدة هى پيرا، وكانا من عباد الآلهة المخلصين، لذلك نَجَوا من الهلاك وسَلِمَتْ حياتُهما.

وأطلق چوپيتر رياح الشمال من محبسها فبدّدت السّحب بَدَدا، وانقشع الضباب فبدت صفحة السماء صافية وظهرت رقعة الأرض مبسوطة، وسكنت الأمواج وهدأت ثورة البحر بعد أن رمى ربّ البحار والأمواج بيمينه صولجانه ذا الشُّعَب الثلاث. وكان نپتون قد طلب إلى تريتون أن ينفخ فى صُورِه الحلزونيّ، ذلك الصُّور الرنّان الذى يتسع شيئاً فشيئاً حتى يبلغ

مخرج الصوت. وما إن جلجل صوته حتى ارتدت مياه البحار والأنهار منحسرة عن الأرض، وهدأت الأمواج وسكنت ثورتها منذ أن مسّ فمه الصُّور إلى اليوم. ثم ضمّ تريتون شفتيه على الصُّور ثانية، فصدر عنه صوتٌ اجتاح الشطآن التى يَطْلَعُ عليها فويبوس إله الشمس مع مستهل رحلته اليومية فى الفضاء ومنتهاها. ومالت لحية تريتون ربّ البحار والأمواج والماء يقطرُ منها وأمر المياه بالانحسار، فإذا مياه الأرض كافة ومياه السهول التى لم تنحسرْ والأمواج فى أنحاء الكون تستجيب لهذا الأمر السماوي. واستقرت الأنهار فى سرائرها والبحار فى وهداتها، وبدت تربة الأرض نديّة، وبرزت التلال والجبال، وكلما تراجعت المياه اتسعت مساحة الأرض، ومضت أيامٌ طوال قبل أن تتخلّص الأشجار مما علق بها. وعادت الحياة سيرتها الأولى.

ونظر ديوكاليون فألفَى نفسه وحيداً، ليس إلى جواره فى الفضاء الممتد غير پيرا فجزع، وإذا عيناه تدمعان فمال إلى پيرا يقول لها «يا ابنة عمّي وزوجتي، أيتها المرأة الوحيدة التى قُدّر لها أن تبقى بعد فناء النساء جميعا، إليك أفزع فزع القريب إلى قريبه والزوج إلى زوجه. لقد جمعتْ ما بيننا الأهوال، وليس ثمة على الأرض غيرنا ولا تطالع الشمس سوانا فى مطلعها ومغيبها بعد أن ابتلع اليمّ البشر. وإني على ذلك غير مطمئن فقد يُصيبنا ما أصاب إخوتنا بالأمس، فلازال خيال السُّحب فى مخيّلتي يُروّعني. تُرى، على أية حال كنا سنكون لو قُدِّر لنا ألاّ نلتقى، وهل كنت ستَقْوين على مغالبة المخاوف وحدك، ومَن كان سيقف إلى جانبك ليُعينك على المخاطر؟ أقْسمُ لكِ غير حانث أن أرعاك بحياتي، وأنني لا أملك غير أن أقذف بنفسي فى اليمّ لو عجزتُ عن أن أدفعه عنك ورأيته يبتلعك يا زوجتي الحبيبة. كم أتمنى لو أنني أعدتُ العالم عامراً كما كان ناهجاً النهج نفسه الذى انتهجه أبي، وكم أتمنى لو استطعت أن أنفخَ فى الصلصال الذى تصنعه يداى روحاً. إن بقاءَ الجنس البشري أمرُه إلينا وحدنا، ولهذا جمعتْ بيننا مشيئة الآلهة».

جهشت پيرا بالبكاء بعد سماعها مناجاة ديوكاليون، ووقفت إلى جواره يضرعان إلى الربّ أن يلهمهما العونَ. ثم مضيا إلى مياه نهر كيفيسوس فى بويوتيا التى كانت ماتزال تنساب فى قنواتها قبل أن يعاودها صفاؤها القديم، فغسلا بمياهه رأسيهما وثيابهما، ثم تقدّما إلى هيكل الإلهة المقدسة ثيميس، وكان سقفه المسنّم قد أحالت لونه الأعشابُ المتخلّفة عن المياه

المنحسرة وساد الظلام هيكله، فركعا ولثَما أرضه النّدية خاشعيْن وتوجّها إلى الإلهة ثيميس قائليْن: «هل من مطمع فى أن تستجيب الإلهة إلى صلواتنا الطاهرة فترفع عنا غضبها، ألهمينا يا ثيميس كيف نقوَى على إصلاح ما حاق بالجنس البشرى، ولتكوني أيتها الربّة الرحيمة لنا عونا فى محنتنا». وأخذت الربّة الشفقة بهما فأوحت لهما بالأمر الإلهي متمتمة: «اخرجا من معبدي، وضَعَا على رأسيكما غطاء، وتخفّفا من الأحزمة التى تشدّ ثيابكما، واقذفا وراءكما عظام أمّكما الجليلة»[١٩]. وكان حديث الربّة غامضاً غير بيّن فتملّكهما العجب، وعزّ على پيرا أن تستجيب لأمر الربّة خشية الإساءة إلى طيف أمها إذا هى أزعجت عظامها فى لحدها، لكنها لم تلبث أن عاودتها طمأنينة أطلقت شفتيها الراجفتين بالدعاء للربّة أن تغفر تردّدها. أخذ الزوجان يتدبّران نبؤة الربّة الغامضة، وانتهى ديوكاليون بن پروميثيوس إلى أن قال لپيرا ابنة إپيميثيوس: «إن الربّات على حق، وهن لا يُشرْن بما لا تُحمد عقباه، وإنى لأخال أن الأم الجليلة التى جاءت على لسان الربّة ليست غير الأرض، وأن تلك العظام ليست غير الأحجار التى فى باطنها، وأن علينا أن نخلّف هذه الأحجار وراءنا».

آمنت پيرا بما خال ديوكاليون، غير أنها بقيت يخالجها شىء من الشك فيما أشارت به الربّة، وكان لا معدى لهما من أن يمضيا فى التنفيذ ليبين لهما صدق ما قالت. فهبطا من قمة الجبل ورأساهما مغطّيان، وقد تخفّفا من الأحزمة التى تشدُّ ثيابهما، وأخذا يُلقيان بالأحجار وراءهما كما أشارت الربّة. مَنْ يصدّق ما حدث بعد ذلك لولا أن التاريخ الخالد يشهد به؟ فإذا الأحجار تلين، وإذا هى تتشكّل أشكالاً، وإذا هذه الأشكال على صور هياكل آدمية رغم أنها لم تكن ذات سمات واضحة بل كانت أشبه بكتل تماثيل من الرخام لم يكتمل نحتها ولم تُصقَل بعد. ثم ما لبث الحجرُ أن تحوّل لحماً فكسا تلك الهياكل العظميّة، كما تحوّلت العروق التى كانت تتخلّل الصخور عروقاً فى تلك الأجسام الآدمية، وكان كلُّ حجرٍ يُلقيه ديوكاليون يأخذ صورة رجل، وكل حجر تُلقيه پيرا يأخذ صورة امرأة.

وإلى هذه النشأة القاسية الصُّلبة يُعزى كل ما فى الجنس البشري من عنف وغلظة وقسوة، فكما نشأ كان.

لوحة ٩ . پيكار : انحسار الطوفان.

پيثون

عندما أطلقت الشمس المُشرقة أشعّتها بالدفء تُبدِّد الوَمَدَ المتلبّث من سيول الطوفان أخذت الأرض تنشقّ عن حيوانات جديدة مختلفة الأنواع، وبدأت الأوحال والمستنقعات الراكدة تعلو لتُفسح للبذور الدفينة أن تُطلق سيقانها بعدما تشقّ باطن الأرض الذى كان أشبه بالرحم يضمّ الجنين إلى أن يكتمل نضجه، ومع مرور الزمن تعدّدت تلك النَّبتات ألواناً وأصنافاً. وإنّا لنجد شيئاً من هذا مع فيض نهر النيل ذى المصبّات السبعة حين يفيض تاركاً الطّميْ على الأرض، فما يلبث ذلك الطمى بعد أن تُرسل عليه الشمس أشعّتها أن ينفرجَ عن هوام كثيرة يجدها الزارعون حين يُقلّبون الأرض بفؤوسهم، منها ما اكتمل نموّه وبات على وشك أن ينبض بالحياة، ومنها ما دبّت الحياة فى عضو واحد من أعضائه بينما بقيت الأخرى صلصالاً لم يتشكّل بعد. ثم ما تلبث الهوام أن تتدرّج فى سُلّم الحياة بين الدفء والوَمَد وهما قوام الحياة، كما هى الحال فى النار والماء؛ فعلى الرغم مما بينهما من تضاد، فمردّ حياتنا إلى دفء هذه ونداوة ذاك. وهذا التواؤم القائم على التضاد بين الدفء والنداوة هو سرّ الحياة على الأرض[٢٠].

وحين بعثت الشمسُ الحانية فى السموات بالدفء إلى الأرض الموحلة بفعل الطوفان انبثّت على الأرض مخلوقات حيّة لا تُعدّ ولا تُحصى، منها ما جاء على أنماط ما كان، ومنها ما جاء على أنماط جديدة لا عهد للأرض بها، ومنها پيثون المهول الذى ظهر للوجود على الرغم من إرادة الأرض. ولقد جاء على صورة خارقة تبعث الرعب فى قلوب الجنس البشري الجديد، إذ كان فى جسم الزواحف هائل التكوين يكاد يفترش سفح الجبل كله، فهالت أپوللو رامي السهام ضخامته وخافه على المخلوقات البشرية حديثة التكوين فوق سطح الأرض. ولم يكن أپوللو يُطلق سهامه قبل ذلك إلاّ على شارد الظباء أو مفزوع الفؤاد من قطعان الأغنام البريّة، غير أنه ما إن وقعت عيناه على هذا الأفعوان الرهيب حتى سدّد إليه سهامه كلها لم يُبق منها سهماً، فإذا هذه السهام تنفذ فى جسمه وتمزّقه إرْباً إرْبا، وإذا الدم يتدفّق غزيراً من جراحاته العديدة أسودَ قاتماً. وخلّد الإله ذلك النصر بإقامة مهرجان تدور فيه ألعاب تسمّى الألعاب الپيثويّة[٢١] نسبة إلى هذا الأفعوان الذى قهره أپوللو. وكانت ثمة تيجان من أغصان

لوحة ١٠ . پيكار : ديوكاليون وپيرا أمام هيكل
الإلهة ثيميس.

شجر السنديان تُمنح للفائزين فى تلك المباريات التى كانت تنتظم ألواناً من العَدْو والمصارعة وسباق المركبات، ولم يكن الغار قد عُرف بعد. ومن ثم مضى فويبوس [أپوللو] يبحث عن شجرة تزوّده بإكليل من أغصانها الحانية يحوط رأسه ويتوّج هامته ذات الشعر السَّبْط المسترسل.

دافـــني

وقع فويبوس لأول مرة فى غرام دافني إبنة إله النهر پينيوس(٢٢)، ولم يكن هذا شيئاً عارضاً بل كان من تدبير كيوپيد الذى رأى أن يثأر من أپوللو لسخريته منه ساعة أحسّ الزُّهُوْ لفتكه بالثعبان پيثون. لمح أپوللو كيوپيد يجتذب قوسه المشدود فبادره قائلا: «فيم تطاولك أيها الصبىّ العربيد باستخدام أسلحة المحاربين؟ إن كتفىّ وحدهما هما اللتان خُلقتا لتنكُّب مثل هذه السهام، إذ أنا وحدي الذى يَقْوَى على أن يُصيبَ فُيصْمِي مَنْ يعترضُه من الحيوان الضّاري أو مَنْ يناوئه من بني الإنسان. وحَسْبُك شاهداً على ذلك آثار سهامي العديدة النافذة فى جسد پيثون السّام، ذلك الثعبان الذى كان يفترش المساحات الفسيحة. دَعْ عنك السّهام واقنع بشُعلتك وسيلة تؤجّج بها الهوى، فما أقصر بَاعَك عن أن تبلغَ نصيبي من الثناء». فردّ عليه كيوپيد بن ڤينوس قائلاً: «على رِسْلك يا أپوللو، فأنت إن قويتَ على أن تُصيبَ بسهامك الحيوان والإنسان فإنني بقوْسي وسهامي قادر على أن أصيبك فلا أخطئك، فأين مجدك أنت حين تصيب الحيوان من مَجْدي أنا حين أبلغ بسهامي الآلهة؟».

وما إن فاه كيوپيد بقوله هذا حتى انطلق طائراً يشقّ أجواز الفضاء، وإذا هو يحطّ على قمة جبل پارناسوس. عندها نثر كنانته واختار سهمين: أحدهما ذهبيّ اللون محدّد الطّرف يُشعل جذوة الحب فى القلوب، وثانيهما رصاصيّ اللون ثلم الحدّ يُخمدها. وسدّد كيوپيد هذا السهم الأخير إلى دافني إبنة پينيوس، على حين رمى أپوللو بالسهم الأول فنفذ فى لحمه إلى النخاع، فإذا أپوللو قد هام حبّا، وإذا دافني تُولّي فرارا إلى الغابات وقد ضمّت شعرها بشريط كما فعلت الإلهة ديانا حين أبت أن تستجيب لسلطان الغرام.

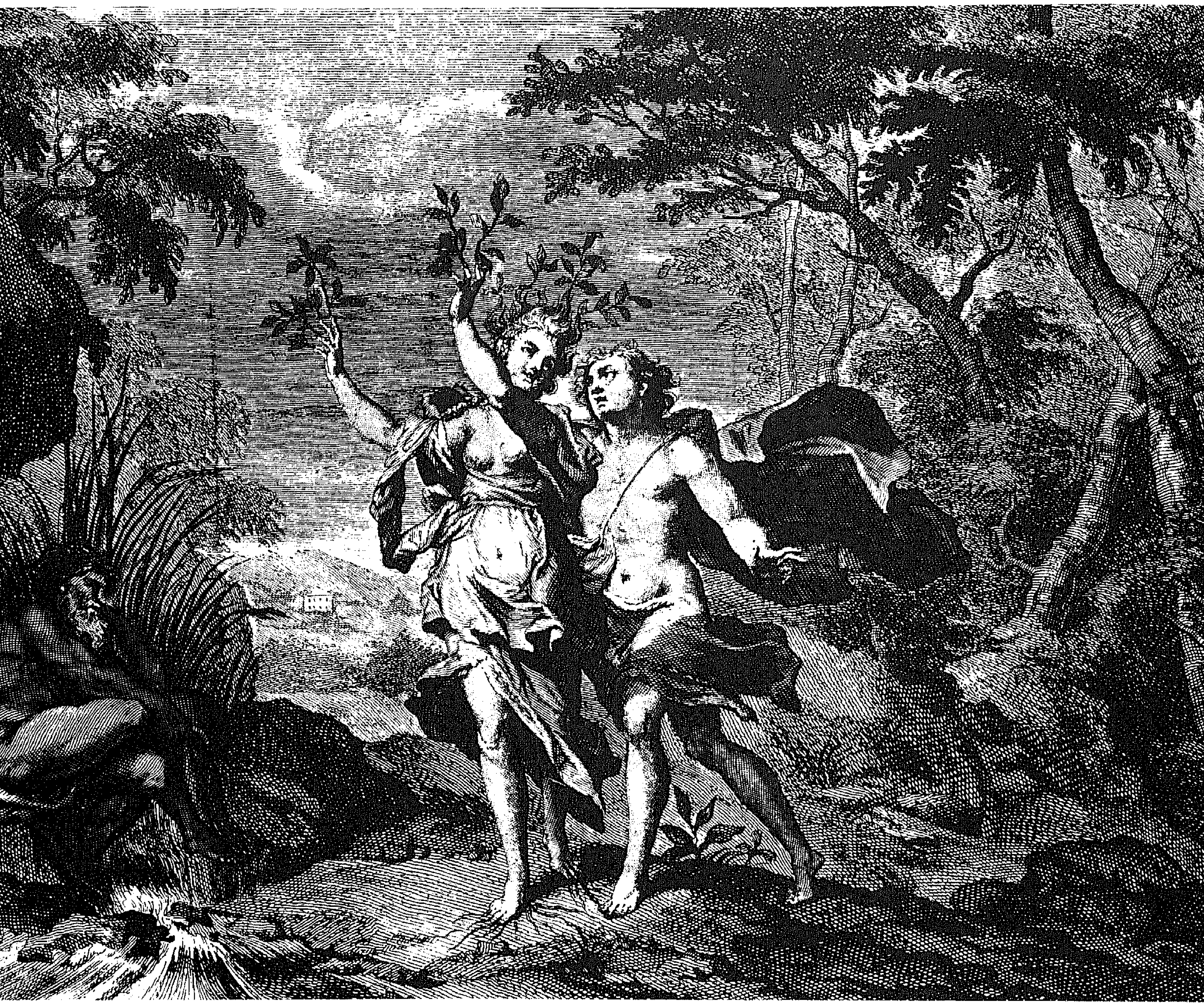

لوحة ١١ . پيكار : أپوللو يطارد دافني، وإذا هي
تتحوّل إلى شجرة غار .

ومن قبلُ هام كثيرون بدافني ابنة پينيوس وهى لا تفتأ تجول بين الأشجار غير مكترثةً بهيام الرجال بها، وما دار فى خَلَدها شيءٌ عن الحب أو عن الزواج. وما أكثر ما لامَها أبوها على عزوفها عن الرجال وتمنّى عليها لو تزوجت وأعقبت بنين وبنات. وكم كان وجهها يتورّد خجلاً حين كان يحدّثها بشيء من هذا لأنها كانت تعدّ مثل هذا الحديث لغوا ممجوجا. وكم توسّلت إليه أن يكفّ عن الاسترسال فى موضوعه الأثير هذا، إذ كانت تُؤْثِر أن تعيش حياةً عُذرية كما عاشت ديانا إبنة چوپيتر منذ الأزل. ولم يجد الأب بُدًّا من الانصياع لرغبة ابنته فأمسك عن مفاتحتها فى هذه الأمور، غير أن جمالها الفتّان وشبابها الريّان ما لبثا أن غَالَبَاها فغَلَبَاها وقاداها إلى غير ما كانت تنشد وتريد. وكان أن وقعت عينا فويبوس على دافني فإذا هو يهيم بها وإذا هو يتحرّق شوقاً إلى أن يبني بها، وأخذ يسعى سعيه للظفر بقلبها إذ كان حبّها قد ملأ عليه جوانحه. فكان إذا تطلّع إلى شعرها متهدّلا على جيدها إلى كتفيها تمنّى أن لو كانت عقصته حتى لا تُولهه، كذلك كانت تُسْبِيه عيناها المتألّقتان تألّق النجمتين الساطعتين، وتُغريه شفتاها القرمزيتان، وتفتنه أناملها الدقيقة وكفّاها البضّتان وذراعاها الحاسرتان، مثلما كانت تشغل خياله مفاتنها المحجوبة عن الأنظار.

وما إن أحسّت دافني متابعة فويبوس لها حتى ولّت الأدبار فى سرعة الريح، ولم تتلبّث لحظة لتستمع إلى توسّلاته وهو يناجيها قائلاً: «لا تروغي مني أيتها الحورية يا ابنة پينيوس فما أنا بعدوٍّ تخشينه. رِفْقاً بي، ولا تفرّي مني فرار الحَمَل من الذئاب، أو الغزال من الأسد، أو الحمامة من الصقر، فما يحفزني إلى ملاحقتك غير الحب الذى يتأجّج فى صدري. كم أشفق عليك وأنت تفرّين أن تزلّ بك قدماك فتُدْميهما الأشواك وأكون أنا الذى أخذتُ بيدك إلى هذا المصير. رفقاً ولا تسلكي سبيلا غير سويّة، وقرّي حيث أنت، وأعدُك أن أقْصر خُطاى وألاّ أسرع. وما عليك إلا أن تُسائلي نفسك: مَنْ هذا الذى خلبت لبّه وسَحرت قلبه؟ فلستُ فلاحاً يعيش فى الوديان، ولا راعياً يرعى أغنامه فى السهوب والسفوح المعشوشبة. إنك لا تعرفين أيتها الفتاة الغريرة ممّن تهربين وإلاّ لما هربت. إننى سيّد دلفي وكلاروس وتنيدوس وقصر پاتارا[٢٣]، أنا ابن چوپيتر. بدهائي أعرفُ ما كان وما يكون وما سيكون، وبقُدرتي تُردّد أوتارُ القيثارة أنغام الموسيقى. إن سهامي لا تطيش على الرغم من أن ثمة مَنْ هو أقدر مني على التسديد. أنا الطبيب الآسي، والطبُّ أنا ابتدعتُه، وما من خاصةٍ لعُشْب تبدو إلاّ وعندي

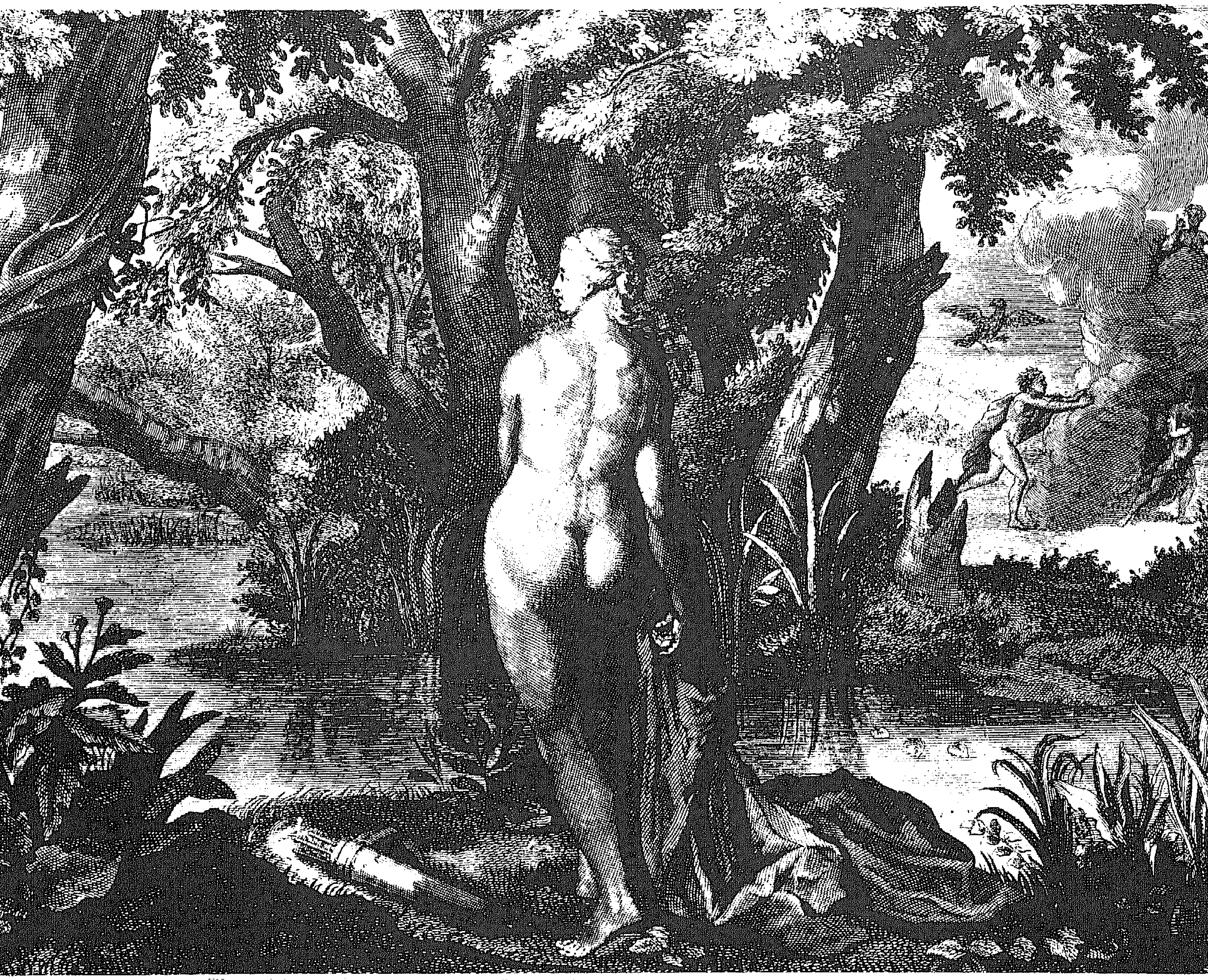

لوحة ١٢ . پيكار : چوپيتر يوقع حورية النهر إيو
في حبائله .

علمها. ولكن واأسفاه ليس ثمة من الأعشاب ما ينفع فى شفاء الحب، فما أشقاني بقدرتي إذا ما أعْجَزَتني عن عون نفسي على حين أقدر على إسعاف الآخرين».

وكان فويبوس على وشك أن يسترسل فى مناجاته، غير أن إبنة پينيوس ولّت عنه فراراً حياءً وحذراً وخلّفته حيث هو، ولم تُتح له فرصته ليقول ما يريد، وعبثت الرياح بثَوْبها فجعلته يَعَضُّ بجسدها فيجسّدُ مفاتنها، كما عبثت بشعرها فإذا هو يتهدّل متموِّجاً، وإذا هى بهذا وذاك أبهَى ما تكون فتنة وسحرا. ولم يقنع الإله الشاب بما ناجاها به من تشبيب، فدفعه الهوى إلى أن يُسرع خطاه ويطاردها، مثله فى ذلك مثل كلب بلاد الغال[٢٤] الذى يلمح أرنباً برِّياً عن بعُد وهو يعدو فى حقل أجرد فيعدو إثره ويلاحقه، وكلما خال أنه أدركه ومدّ خطمه ليمسكه إذا هو قد أفلت منه، وهكذا يمضيان لا يدرك أحدهما الآخر. وكانت هذه هى حال الإله والفتاة.

وما إن أحسّ الإله الشاب انفلاتها من بين يديه حتى خفّ إثرها، وإذا هما يعدوان كلٌّ يريد تحقيق هدفه، العذراء يحدوها الأمل فى أن تنجو، والإله يملؤه الخوف من أن يُخفقَ. وكان الإله أسرع عَدْواً لأن أجنحة الحب كانت تُعينه فإذا أنفاسه تقع على شعرها المتطايرْ، وإذا هى تكلّ ولا تقوَى على العدْو، فتخرّ منهوكة القوى إلى جانب مياه پينيوس وهى تصرخ قائلة: «أمدد إلىّ يد العون يا أبتاه، ودَعْ مياهك - إذا كانت لها تلك القدرة القدسية حقاً - أن تمسخ جمالي هذا الذى أثار الإعجاب بي فى قلوب الجميع». وما إن انتهت من ضراعتها حتى استرخت، فإذا صدرُها جذعَ شجرة، وإذا شعرُها أوراقاً، وإذا ذراعاها أغصاناً، وإذا قدماها جذوراً، وإذا وجهها قمة تلك الشجرة، ولكنها على هذا بدت فاتنة.

ولم يُثْن هذا المصير فويبوس عن حبّه لها، فتحسّس بيده جذعها يتلمّس مكان قلبها الذى ما فتىء ينبض تحت اللحاء، وأخذ يحتضن الأغصان ويُغرق الشجرة بقبلاته، فإذا هى تتضاءل وتَضْمُر فصاح بها قائلاً: «إذا كان ثمة ما يحُول بينك وبين أن تكوني عروسي ورفيقة حياتي، فابقي لى كما أنتِ شجرة أهيمُ بها وأطوف، ولسوف يكون شعْري فى وصفك، ولسوف تتغنّى قيثارتي بسَجاياك، كما سوف تكون سهامي فى الذَّوْد عنك، ولسوف أجعلُ من أغصانك تيجانا لهامات المحاربين عندما يشهد الكاپيتولينوس فى روما مواكب النصر،

ولسوف تقفين أنت على أبواب مدينة أوغسطس تحرسينها وفيّة مخلصة، كما سوف تذودين عن أكاليل أوراق البلوط العالقة بها. وكما سيبقى رأسي يزيّنه الشباب، كذلك سيظل رأسك تجلّله الخُضرة التى لن يعتورها ذبول».

وما إن انتهى الإله من مناجاتها حتى طأطأت شجرة الغار رأسها وأرختْ غصونها، وكأنها بهذا وذاك تُعلن عن رضاها وقبولها لمطلبه.

بعدها. . . . لم يعد عند الإله المخلّص أپوللو ما يقول.

إيُـو وأرجُسْ وسيرينكس

ثمة غيضةٌ فى بلاد هايمونا[٢٥] تكتنفها من كل جانب منحدرات عامرة بالغابات تُدعى تمْپي. وعلى تلك المنحدرات تفيض مياه نهر پينيوس فتُخلّف على صفحتها زَبَدا رابيا. وهذا النهر تتجمّع مياهه أول ما تتجمّع من تساقط الأمطار على جبال پِنْدُوس، ثم تنصبّ منحدرة على سفوحه فتتحوّل أبخرةً ثم سُحباً متكاثفة سرعان ما تتساقط قطراتها على تلك الغابات، فإذا لها صوت مدوٍّ يصمُّ الآذان ويتردّد صداه فى الأرجاء البعيدة. وفى هذا الموقع الذى كان ينبع منه هذا النهر، كان ثمة كهف قد شُقّ فى الصخور يُعدّ محراباً لهذا النهر الكبير، ومنه تنطلق كلمته لمياه الأنهار جميعها قبل أن يجري كل نهر إلى حيث كُتب له، ويقضي بين ٥٨٠
الأمواج كما يقضي بين الحوريات اللاتى يقطنّ مجراه. وإلى هذه البقعة وفدت أنهار بلاده: نهر سپيرخيوس الذى تحفّ به أشجار الحَوْر، ونهر الإنيپيوس ذو المياه الفائرة، ونهر أپيدانوس الهَرِم، ونهر الأمفريزوس السّاكن، ونهر أياس وغيره من أنهار أخرى، لا يدري أيٌّ منهم هل يتقدم إلى نهر پينيوس والد دافني مهنّئاً أم مواسياً. ثم جاءت بعد ذلك الأنهار والجداول الأخرى التى تجري كلها متدفّقة لتُلقي بأحمالها إلى البحر بعد رحلاتها الشاقة. ولم يتخلّف من هذه الأنهار كلها غير إيناخوس الذى قبع فى الكهف لم يغادره، ولبث يغذّي مياهه بقطرات دموعه التى ما فتئت تنهمر منذ أن غابت عنه ابنته إيو وغابت عنه أخبارها، فلم يعد يعرف لها مقرّاً ولا يسمع عنها كلمة، ولم يعد يدري أمع الأموات هى أم مع الأحياء.

وقد جاء فى قصة إيو أن چوپيتر رآها مرة وهى آيبة من شاطىء نهر أبيها إيناخوس، فتصدّى لها قائلا: «أيتها العذراء . . . . لست أهلاً لغير چوپيتر، ولسوف يسعد بك مَنْ تكونين له، ولكن تُرى من سيكون هذا السعيد؟ تعالىْ ننطلق معاً فى ظلال تلك الغابات الباسقة ننعم ونهنأ. ألا ترين إلى الشمس وقد توسّطت كبد السماء وأرسلت شواظاً من نار ألهبت به وجه الأرض فلم تَعُدْ تقوَى على مسّه قدم؟ هنالك فى ظلال أشجار الغابة سوف تجدين من نفحات النسيم ما يعوّضك عن لفح الشمس، وسوف تجدين من تُربتها النديّة موطئاً ناعما، ولكن حذار أن تمضي إلى الغابة وحدك فإنى لا آمنُ عليك من شرّ الضّواري. أما فى صحبتي فسوف تكونين فى رعاية إله ليس كمثله إله آخر، بيده كل مفاتيح السماء، فهو الذى يُطلق الرعد والبرق، تعالىْ ولا تحاولي الهروب مني».

وما إن فرغ چوپيتر من مراودته إياها حتى ولّت إيو هاربة تطوي مراعي ليرنا ثم حقول لوركيونَ الزاخرة بالأشجار. غير أن چوپيتر ما لبث أن أرسل السّحب فغشّت وجه الأرض فإذا هى ظلام كلها، وإذا إيو أعجز ما تكون عن أن تمضي فى هربها فوقعت فريسة لچوپيتر، وإذا هو يعدُو عليها.

وتطلّعت چونو زوجة چوپيتر من مكانها فى السماء إلى أرجوس، ودهشت إلى هذه السّحب التى أحالت النهار ليلاً فتعجّبت، وزاد من عجبها أن هذه السّحب لم تنشأ عن مياه النهر ولا عن نداوة الأرض. وإذ كانت على علم بما يرتكبه زوجها من خيانات بعدما أوقعته مرات عدّة متلبّساً بما لا ينبغي له أن يقترفه، ولمّا لم تجده حولها فى السماء ساورتها الظنون بأنه لابد مرتكب شيئاً إدّاً، فهبطت من الأثير إلى الأرض وأمرت السّحب أن تنقشع ومضت تبحث عن زوجها فيما حولها. وكان چوپيتر قد توقّع أن زوجته لابد قادمة، فمسخ إيو ابنة إيناخوس بقرةً ذات أرداف وضّاءة، إلاّ أنها على الرغم من هذا التحوّل ظلت جميلة فاتنة.

وتقدمت ابنة ساتورن إلى البقرة تُطريها زَيْفاً وتمتدح جمالها وكأنها لا تعلم حقيقة أمرها، وساءلت چوپيتر قائلة: «أنىَّ لك بهذه البقرة، وإلى أية فصيلة من البقر تنتمي؟». ويفطن چوپيتر إلى ما أرادت إليه ابنة ساتورن، ويسعى إلى الحيلولة بينها وبين الخوض فى الموضوع فيقول لها كاذباً: إنها إبنة الأرض. لكن إبنة ساتورن كانت تفوقه دهاءً، فطلبت إليه أن يعطيها

لوحة ١٣ . پيكار : چوپيتر يمسخ إيو بقرة خوفاً
من زوجته چونو .

البقرة هديّة. ويغمّ الأمر على چوپيتر، فهو إن نزل عن البقرة ضحّى بأعزّ ما يملك، وإن هو ضنّ بها على زوجته أثار شكوكها وكان غير وفيّ لها إذ لم يُسْعفها بحاجتها. وتنازعه عاملان، عامل الحب يَثْنيه، وعامل الوفاء لزوجته التى تعقد بينه وبينها صلة الرحم الواحدة، غير أنه آثر ثانيَهُما ووهب زوجته - التى هى شقيقته فى آن معا - البقرة حتى لا يكون جَحُودا، وحرْصاً على ألاّ يثير فى نفسها شكّا بسموّها عن مثْلِ هذه البقرة.

وتلقّت الزوجةُ الإلهة الهديّة فى شىء من الحذر، فلقد كانت تخشى أن يكون چوپيتر قد بيّت شرا وأن قد يعود فيسلبها إياها. من أجل ذلك وكَلَتْ إلى ابن أريستور، وكان يُدعى أرْجُس حراستها. وكان لأرْجُس مئة عين تستريح منها اثنتان على التوالى على حين تظل بقيّتها يقظة، أى أنه كانت من تلك العيون المئة ثمان وتسعون عينا يقظة دوماً. وكانت نظرات تلك العيون تمتد إلى كل مكان فترى ما بين يديه وما خلفه، وما عن يمينه وما عن يساره. وهكذا ظلّت إيو فى محيط بصره استقبلها أو استدبرها. وكان يدعها مع النهار ترعَى من أوراق الأشجار والأعشاب المُرّة، حتى إذا ما غربت الشمس حبسها ووضع فى رقبتها رَسَناً.

وكانت إيو إذا ما عنّ لها أن تستريح افترشت أرضا غير مُعشبة ولا شراب لها إلاّ من مياه كدرة. وكم حاولت أن تشكو إلى أرْجُس غير أنها لم تكن تملك ذراعيْن ترفعهما إليه بالشكوى، فكانت تُرسل فى الجو خوارا تنزعج هى نفسها منه. وحين قصدت يوماً إلى شاطئ إيناخوس حيث كانت ترتع وتلعب فيما مضى، هالها ما عكسته صفحة الماء من خطم وقرنين فولّت خائفة مذعورة. ولقد أنكرتها جنّيات البحر وما عرفنها كما أنكرها إيناخوس ولم يعرفها. وبقيت مثار إعجاب الأب ودهشة شقيقاتها، يُطْعمها الأب بيديه الأوراق التى يقتطفها فَتَلْثُمُ يديه بِفيها وتلعقها بلسانها وهى لا تملك أن تُفْصح عن شىء، وتلمس هذا العَجْز من نفسها فتنهمر دموعها. واهتدت أخيراً إلى أن تخطّ على الأرض قصّتها، ويطالع إيناخوس ما خطّت فيعرف أنها ابنته، فيتعلّق بقرونها ورقبتها وهى ترتجف بين يديه فيناجيها قائلاً: «ألاّ ما أشقاني، أأنت ابنتي التى مازلت أطلبُها فى كل مكان؟ لقد كان فَقْدُكِ أهْوَنَ علىّ من أن أراك على تلك الصورة، إنك لا تقوين على الكلام ولا تستطيعين أن تُجيبيني، وكل ما أسمعه منك تنهدات تصدر عن صدرك المحزون، ثم ذلك الخوار الذى يذكّرني بخوار البقر. لقد كان همّي أن أزفّك إلى زوج وأن أرى لك بنين وبنات، وأن أهيّىء لك بيت عُرسك بفراشه ومشاعله، أما الآن فلن

يكون لك زوج إلاّ من أبناء جنسك ولن تلدي غير ذرّية من البقر. لو لم أكن إلها لآثرتُ الموت هرباً مما أرى. وعلى هذا النحو سأظل فى غمرة الحزن إلى الأبد». وبينما كان الإثنان فى حزنهما يبثّ كلٌ منهما لواعجه للآخر، طلع عليهما أرْجُس برأسه ذي الأعين المئة، وانتزع الفتاة من يدىْ أبيها وساقها أمامه إلى المرعى، وارتقى جبلاً حتى بلغ قمته وأخذ يتطلّع هنا وهناك.

ولم يعد سيدّ الآلهة يطيق احتمال كل هذه الآلام التى ألَمَّت بحفيدة فورونيوس، فصاح بابنه ميركوريوس [هرمس عند الإغريق] من مايا إحدى نجوم البلياديس المتألّقة وأمره بأن يقضي على أرْجُس. وسرعان ما لبىّ الابن أمر أبيه فضمّ جناحيه إلى قدميه وأخذ صولجانه فى يديه، ذلك الصولجان الذى يُغْرق مَنْ مسّه فى نوم عميق، كما ألقى على رأسه غطاءه، حتى إذا ما أشرف على المكان الذى يضمّ أرْجُس رفع غطاءه عن رأسه وفكّ جناحيه وهبط إلى الأرض يحمل صولجانه فى يده وشقّ طريقه فوق دروب متعرّجة متنكراً فى صورة راعٍ من الرعاة يهشّ على قطيعه، وأخذ ينفخ فى مزماره فانصرفت إليه الأغنام مجذوبة بما تسمع من أنغام، كما شَدَه بها أرْجُس فناداه قائلاً: «إلىّ يا هذا ولتكن مَنْ تكون، فليس ثمة مكان تستطيع أن تجلس عليه غير هذه الصخرة، كما أنه ليس ثمة مكان أخصب من هذا المكان تقع فيه الأغنام على عُشب وفير، كذلك لن يجد الرعاة مكاناً ظليلاً غيره». وجلس حفيد أطلس يحدّث أرْجُس حينا وينفخ فى مزماره حيناً، علّه بتلك النغمات الرتيبة يدفع أرْجُس إلى النوم فيهجع ويسدل جفونه. وغالب أرْجُس النوم ما استطاع، يغمض بعض عيونه ويفتح بعضها، وأخذ يسائل رفيقه عن ذلك المزمار كيف أبْتُدع إذ لم يكن له عهدٌ به. فانطلق رفيقه يحدّثه ويقول: «ثمة فى جبال أركاديا الباردة وبين الهامادرياد(٢٦) فى نوناكريس(٢٧) حورية مشهورة بين الحوريات تدعى سيرينكس، كثيراً ما كانت تفلت من مطاردة الساتير والجان الذين يسكنون الغابات الظليلة والحقول الخصيبة، وكانت تدين بإلهة أورتيجيا [ديانا] تحاكيها فى عفّتها ومسلكها، كما كانت أشبه ما تكون بابنة لاتو [ديانا] فى تشمير ردائها بحزام، ومع أن قوسَها كان من القرون وقوس الإلهة كان من الذّهب إلاّ أن اللَّبس بينهما كان ممكناً. وذات مرة حين كانت هابطة من مرتفعات ليكيوم رآها بان وعلى رأسه إكليل من عساليج الصنوبر».

وانبرى ميركوريوس يروى قصة هرب الحورية التى لم تحفل بتضرُّعات پان وفرارها إلى ضفاف لادو[٢٨]. وهناك حيث تفيض المياه على الرمال فتصفو وتسكن توسّلت سيرينكس إلى أخواتها حوريات المياه بأن يمسخنها، وذكرت لهن كيف كان پان يُمسك بقصبات المستنقعات وهو يخال أنه قد أمسك بها، وكيف أن القصبات كان ترجّع صدى أشجانه وترسلها فى الهواء أنّات شجيّة. وفُتن پان بحُسن ما يسمع من أصداء فصاح مشدوها: «حسبي أن أحتفظ بهذه الأصداء منك إلى الأبد». وهكذا خلد اسم سيرينكس بفضل تلك القصبات المتفاوتة طولاً، والتى ضُمّ بعضها إلى بعض برباط من الشمع.

وحين أخذ ميركوريوس يتهيأ لاستكمال قصّته وجد أرْجُس قد استسلم للنوم وأطبق جفونه جميعا، فأمسك عن الحديث. وحين أخذ النعاس يشتد شيئاً فشيئاً بأرْجُس مسّه بصولجانه السحري. وما إن رآه قد غلبه النوم حتى حمل عليه بسيفه المقوّس فأطاح برأسه وطوّح به بعيداً والدماء تسيل منه على صخرة عالية فتلطّخت الصخرة كما تلطّخ سطح الهاوية، ثم انتصب واقفاً وهو يقول: «ها أنتذا الآن يا أرْجُس جثة هامدة بلا حراك، قد ذُبُل خدّاك فلم تَعُدْ لهما نُضْرتهما، واظلمّ نورُ عيونك المئة وكأن عليها غشاوة». ولم تملك چونو ابنة ساتورن إلا أن تجمع تلك العيون المئة وترصّع بها ريش طاووسها كما رصّعت ذيله بجملة من الأحجار البرّاقة[٢٩].

وتصدّت چونو لغريمتها الأرجوسية وهى أشدّ ما تكون غضباً، فوكَلَتْ بها إحدى ربّات الانتقام «الإيرينات»، وزوّدت البقرة بمنخاس خفيّ فى صدرها يدفعها إلى الهرب دائماً مصطحبةً ذُعرها أنّى حلّت. وبقيتَ أنت أيها النيل آخر المطاف لرحلة إيو الشاقة المتواصلة. وما إن انتهت إيو إلى النهر حتى خرّت ساجدة على شاطئه، رافعة رأسها متّجهة إلى السماء. وما كانت تملك غير ذلك. وعيناها تذرفان الدمع، وهى تطلق خوارا شديداً وكأنها تجأر إلى چوپيتر ضارعة أن يجعل لآلامها نهاية. وطوّق الإله بذراعيه عنق زوجته متوسّلاً إليها أن تستجيب لها وهو يقول بعد أن أشْهَدَ على نفسه مستنقعات نهر ستيكس: «لا تخشيْ بعد هذا اليوم منها بأسا». واطمأنت الإلهة إلى ما قطعه الإله على نفسه، وعادت إيو إلى صورتها الأولى، فتساقط الشعر الذى كان يكسو جلدها، وغابت القرون شيئاً فشيئاً، وارتدّت عيناها

إلى استطالتهما بعد أن كانتا مستديرتين، وأخذ فمها يصغُر، واستوت لها كتفاها ويداها، وانخلعت عنها حوافرها وحلّت مكانها أصابعها الخمس بأظافرها، ولم يتبق من صورتها وهى بقرة غير بياضها الناصع. عندها هبّت واقفة على قدميها وهى تردّد بعض الكلمات تختبر صوتها مخافةَ أن يكون كما كان خواراً، وحين اطمأنت إلى أنها استردّت صوتها أخذت تستعيد قدرتها على الكلام، وغدت إلهة بين الإلاهات الشهيرات، تُقدِّم إليها القرابين حشودٌ من الناس التفوا بأردية من الكتّان[٣٠].

فــــايثـــون

وضعت إيو إبناً هو إيپافوس[٣١] يقال إنه كان ثمرة اجتماع چوپيتر الجليل بها، ونجد معابده تقام إلى جوار المعابد التى لأمّه. وكان فايثون ابن إله الشمس أشبه بإيپافوس خصالاً وأقرب إليه سنّا غير أنه كان معتزاً بأبيه فويبوس اعتزازاً شديدا، فساقه ذلك يوماً إلى التفاخر على إيپافوس الذى لم يعد يحتمل هذه الخيلاء فعايره قائلا: لأنت مخدوع يا فايثون، يا مَنْ تثق بكلّ كلمة تقولها لك أمّك، ويا مَنْ أوهموك فاصطنعوا لك أباً نسبوك إليه». فاحمرّ وجه فايثون خجلاً وكظم غيظه فى نفسه، وسارع إلى أمه كليمينيه ليخبرها بما سمعه من إيپافوس، ثم أردف قائلاً: «جديرٌ بك أن تألمي لما أصابني من هوان، وإنه لعزيزٌ علىّ أن ينالني ما نالني وأنا صامت لا أفُوه بكلمة، فقد كنت أخشى أن يكون إيپافوس صادقاً فيما رماني به، وعليك أنت وحدك إن كنتُ حقّاً من السماء انحدرتُ أن تعطيني الحجّة على ذلك. عندها سوف نمسحُ عنّا معاً هذا العار الذى لحقنا». وانكفأ على أمّه يطوّق جيدها بذراعيه، ويستحلفها بحقّه وحق ميروپس[٣٢] وبشعلات أفراح أخواته ألا أخبرته عن أبيه مَنْ هو؟ وأحفظت هذه الكلمات كليمينيه وأثّرت فى نفسها توسّلاته، واتّجهت إلى قرص الشمس الوضّاء رافعة ذراعيها لتُقْسم قائلة: «أحلفُ لك يا بنىّ بحق هذا الكوكب الذى يُبهرنا بضوئه والذى هو على ما أقول شهيد، إنك ابنٌ لإله الشمس هذا الذى يسمعنا ويرانا والذى إليه مدار حياة العالم. وإن كنت كاذبة فلتُغَشّ الشمسُ على بصري فلا أعود أتطلّعُ إليها، ولتكن هذه نظرتي الأخيرة إليها. وما ٧٦٠

عليك يا بنىّ كى تعرف أسلافك من الآلهة إلاّ أن تمضي غير بعيد حيث موطن هذا الإله الواقع على حدود بلادنا فتسأله عن كل ما تريد» . وملأ الاطمئنان قلب فايثون وعمّه الفرح عند سماعه قولها ، وإذا هو فوق الأثير يقصد ذلك المكان الذى يطلع منه أبوه ، مجتازاً موطنه إثيوپيا ، وبلاد الهنود القريبة من قرص الشمس الملتهب .

لوحة ١٤ . بيكار : پان يخلّد الحورية سيرينكس بإطلاق اسمها على المصفار المشكّل من قصبات الغاب.

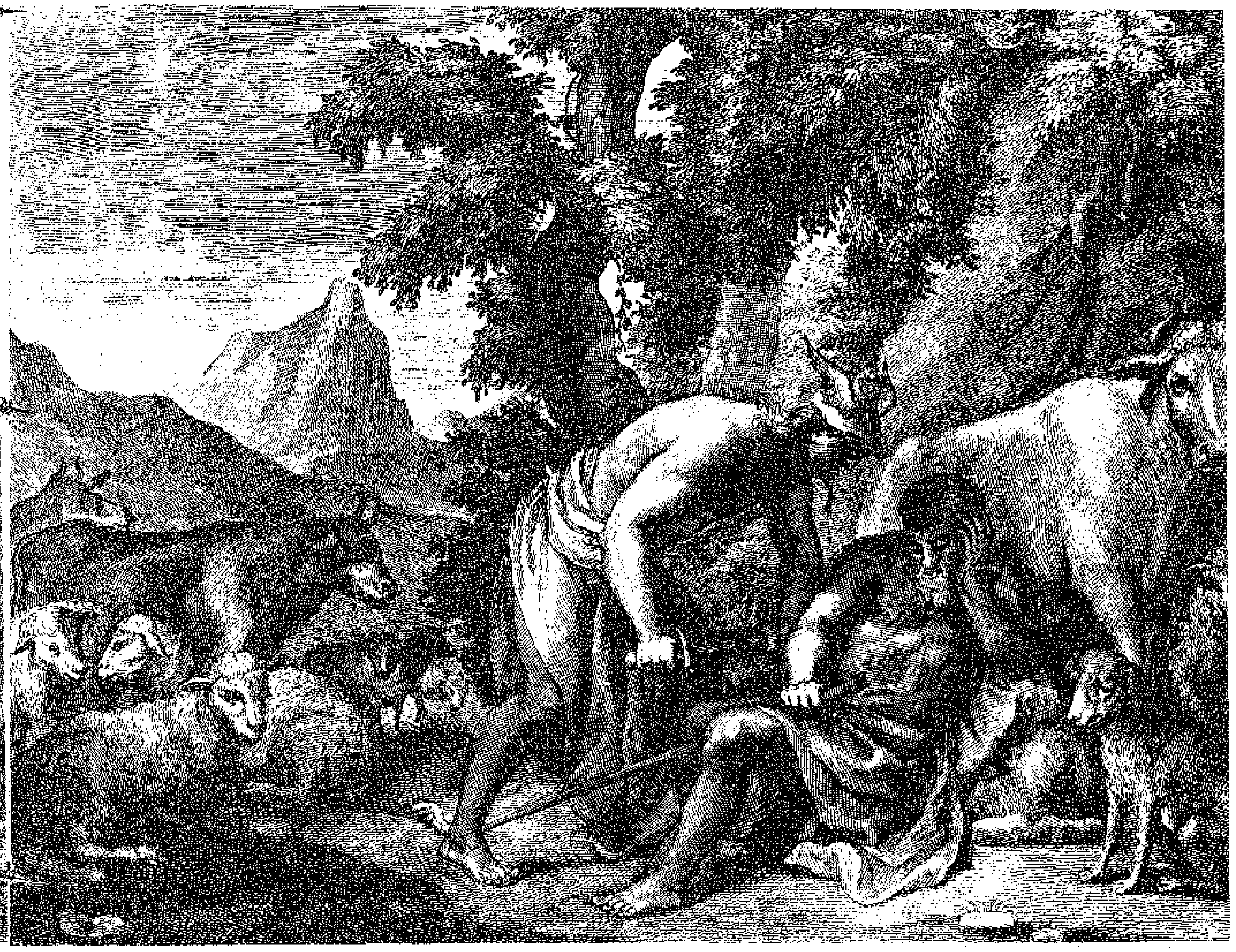

لوحة ١٥. پيكار: الإله ميركوريوس يصرع
أرجس ذا العيون المئة بسيفه.

لوحة ١٦. پيكار: چونو تجمع عيون أرجس
المئة بعد مصرعه لترصّع بها ريش
طاووسها.

الكتاب الثاني

الكتاب الثانى

فــــايثـــــون

تميّز قصر إله الشمس بأعمدته الشامخة المتألقة ببريق ذهبه وبرونزه ومسطّحاته العاجية الصقيلة، وبأبوابه الفضّية ذوات المصاريع العاكسة للأضواء، والتى كانت جودة صُنعها الإبداعية تفوق القيمة الماديّة لمعادنها؛ فقد نقش مولكيبير[1] فوقها أشكال البحار ضامّة الأرض فى رحابها تعلوها السماء. وفى خضمّ الموج ظهر آلهة البحار: تريتون[2] الشّادي، وپروتيوس[3] ذو الأشكال المتعدّدة، وأيجيون[4] المتكىء بذراعيه على ظهر حُوتَيْن، ودرويس[5] وبناتها بين سابحة فى الماء أو ممتطية ظهر سمكة أو جالسة على صخرة تجفّف شعرها الذى كساه البحر من زُرقته، وكُنّ على الرغم من تَخَالُف ملامحهنّ تُقارب فيما بينهن روح الأخوّة. وظهرت فوق الأرض جماعات البشر والمدن والغابات والوحوش والأنهار والحوريات وجنّيات الريف، تُظلّها جميعاً السماء ببروجها الإثنيْ عشر[6]، ستّة على المصراع الأيمن للباب، والأخرى على مصراعه الأيسر.

وأصعد ابن كليمينيه إلى قصر الإله وهو يسائل نفسه أية قرابة تلك التي بينه وبين إله الشمس؟ ثم تقدّم نحو أبيه، غير أنه لم يقو على الاقتراب منه فقد بهرَه بوهَج نوره. وكان إله الشمس جالساً

فى ثوب أرجواني على عرش يتألّق بزمرّداته، واصطفّت إلى جانبه على مسافات متساوية ربّات الزمن: «اليوم» و«الشهر» و«السّنة» و«القرون» و«الساعات». وهناك أيضاً الربيع الغضّ مكلّل الرأس بالزهور، والصيف الأجرد حاملاً سنابل القمح بيمينه، والخريف بقدميه المبلّلتين بعصير العنب الأرجواني المهروس، والشتاء القارص الأشهب بخصلات شعره الأبيض.

وتملّكت الصّبىَّ رِعْدَةٌ ذَهَلاً من غرابة ما يراه، واستدار إليه الإله الشمس وهو فى جلسته وسط حاشيته وحدجه بعينه التى ترى كل شىء، وسأله: «فيم جئت؟ وما قصدك من زيارة هذه القلعة يا فايثون، يا مَنْ لا يملك أبوك أن ينكر بنوّتك»، فأجابه قائلاً: «أبي، أيها الإله فويبوس، يا مَنْ يهنأ كلُّ ما فى الكون الفسيح بنورك، إذا كنت قد أجَزْت لى أن أناديك «أبي»، وإذا كانت كليمينيه لا تكذبني ولا تُخْفي عني أسرار خطيئة ارتكبتها، فلْتقدِّم لي دليلاً على صدقها وبرهاناً يُثبت بنوّتي لك يبدّد كل شكوكي».

وما إن أفصح فايثون عن مطلبه حتى طرح الأبُ عن رأسه وهج أشعته وسأل ابنه أن يقترب منه، وما كاد يفعل حتى احتضنه قائلاً: «إنك قمينٌ بأن تكون ابنا لي، وقد صدَقَتْك كليمينيه فيما حدّثتك به عن نسبك، ولسوف أستجيب إلى أى مطلب لك كى أبدّد شكوكك مُشهداً على ذلك تلك البحيرة التى يُقْسم عندها الآلهة، والتى لم يقع عليها بصرٌ قط».

اندفع فايثون يطالب أباه أن يتخلّى له عن يوم يقود خلاله مركبته سائسا خيولها المجنّحة الأقدام. عندها ندم إله الشمس على ما وَعَد به ابنه، وهزّ رأسه المتألّقة مرات ثلاثا، وقال: «إن استجابتي لمطلبك تُفصح عن تسرّعي وحمقي، وكم أودّ لو استطعتُ النكوص عن وعدي. ولتعلم أن هذا الذى تطلبه مني هو ما آباه عليك وأحُول دونك ودونه، فأنت مُقْدمٌ على التورّط بأمرٍ خطير تَقْصُرُ عنه قوتك ويعجز عنه شبابُك الغضّ. وهل أنت غير بشر، وما فى قدرة البشر الفاني فعْل ما تريد، وإن جهلَك بالأمور هو الذى يجعلك تطمع فيما لا يناله الآلهة أنفسهم، فهُمْ على ما بلغوا من قوة لا يشاركونني ارتقاء هذه المركبة الناريّة التى لا يقوَىَ على قيادتها كبير آلهة الأوليمپوس نفسه رغم بأسه وتسلّحه بالصواعق يطوّح بها بيده القوية، فمَنْ تراه يفوق جبروت چوپيتر؟ والخيل لا تقوَى على ارتقاء الطريق الصاعد إلاّ بجهد حتى وهى ماتزال فى عنفوان حيويتها فى البكور، وكم أُصَابُ أنا بالهلع ويخفق قلبي كلما بلغتْ المركبةُ

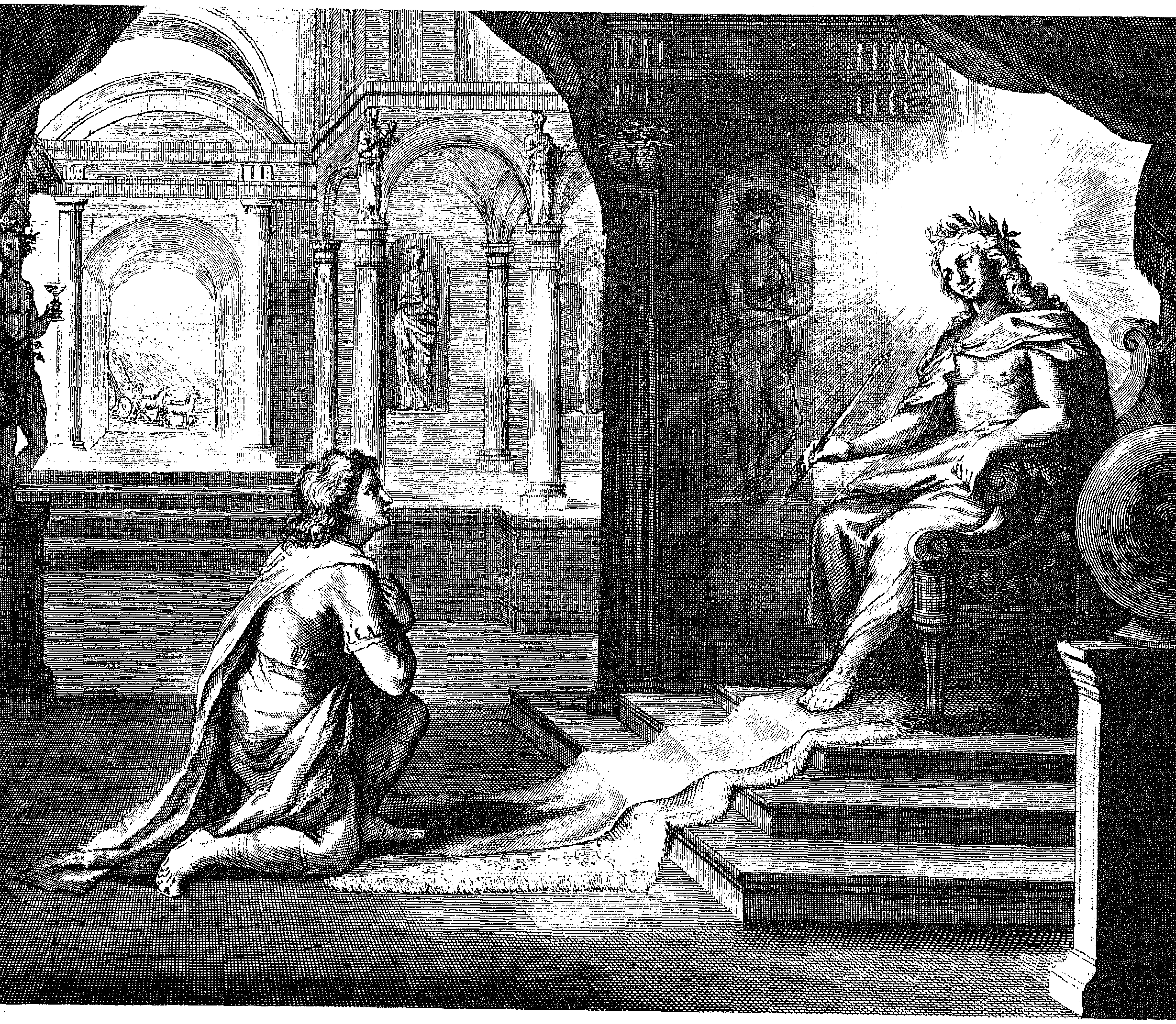

لوحـة ١٧ . پيكار : فـايثـون يَمْثُلُ بين يدي أبيـه
أپوللو إله الشمس [فويبوس].

سمْتَ السموات العُلَى مُطلاً منها على الأرض والمحيطات. ثم إن الطريق ينحدر هابطاً بعد ذلك فتغدو قيادة الخيل أصعبَ مراساً وفى حاجة إلى يد مُترعة بالقوة والصلابة والتّحكّم، حتى إن الإلهة تيثيس[٧] التى تستقبلني فى عميق مياهها كانت تخشَى عليّ من الانحدار من علٍ. هذا إلى ما كان يضطرم فى قبة السماء من حركة أزلية أبدية تدفع النجوم العلّيّة مُدوّمةً فى مداراتها المتسارعة المُرنِّحة[٨]، وكان عليّ أن أشقّ طريقي نحو مجابهتها فلا تغلبني الحركة المتسارعة المتغلّبة على كل ما يصادفها، فأنا وحدي القادر على الاندفاع ضد مدار الكواكب الدائرة فى أفلاكها. وما الذى تستطيعه أنت لو أسلمتك المركبة؟ أتراك قادراً على الصمود أمام دورة القطبين العنيفة دون أن تقذف بك بعيداً قُبَّةُ السماء الدوّارة؟ هل تخال السماء ملأى بالغيضات المقدّسة ومُدُن الآلهة والمحاريب التى تفيض ثراء؟ ما أبعد ذلك يا بنيّ عن الواقع، إن عليك أن تشقّ طريقك وسط شراك خطرة ووحوش ضارية، ولو قُدِّر لك أن تسلك طريقك السويّ دون أن تنحرف عنها فسوف يكون عليك أن تتجنّب قرنيْ برج «الثور» الخطير وقوس بُرج «الرّامي» وأنياب الأسد الهائج، وأذرعة العقرب التى قد تُطْبق عليك من ناحية على حين تهدّدك أذرعة السرطان من ناحية أخرى[٩]. ثم كم ستُثْقل عليك قيادة خَيْلي حين تشتعل النيران المختزَنة فى صدورها وتنفثها من خطومها وخياشيمها، فهى لا تكاد تطيق شَدَّة الرَّسَن بكفِّي لحظة تستعرُ حماستها وتثور ولا تطيع رؤوسها أعنّتي. إنني أحذّرك خشية أن يكون فى استجابتي لمطلبك ما يَجُرّك إلى الهلاك، وإن الفرصة لاتزالُ سانحةً بين يديك أن تطلب ما تشاء عوضاً عما منحتك إياه مما قد ينفعك. فليس ثمة برهان على أبوّتي لك أوْضَحُ من لهفتي وخوفي عليك. فلْتتطلّع إلى وجهي لعل عينيك تستطيعان النفاذ إلى أعماقي واستكشاف ما يضطرم فيها من قلق عليك. تلفّت إلى خَيْرات الكون حواليك وتَشَهَّ ما شئت من طيّبات الأرض أو البحار أو الأجواء فلن أضنّ عليك بشىء منها، واعلمْ أني لن أنكصَ عمّا وعدتُك به، غير أنه لن تكون به سعادتك بل شقاؤك. فيم إذن معانقتك لي تستعطفني وأنت لا تعي كُنه طلْبتك؟ ومع ذلك فعلى الرغم من هذا كله فلا تخش ألاّ أحقّق لك ما طلبت فلقد أقسمتُ على الوفاء بنهر ستيكس، ولكني أريد منك أن تُنعم النظر فيما سوف تقرّر وتختار».

وضرب الابن بتحذيرات أبيه ونصائحه عُرض الحائط، فقد كان توّاقاً إلى قيادة مركبة إله الشمس. وحين أدرك الأبُ ذهابَ محاولاته عبثاً فى أن يُثْني ابنه عن عزمه رافقه إلى مركبته

الضخمة التى صنعها له ڤولكانوس إله النار والحدادة وصاغ من الذهب محاورها وعريشها وأطُر عجلاتها، كما جعل أقطار عجلاتها من الفضّة، ووشّى نيرها بالزبرجد، ورصّعها بصفوفٍ من الجواهر تُرسل بريقاً حين ينسكب عليها نور فويبوس.

وحين أخذ فايثون الطَّمُوح يتحسّس أجزاء المركبة بتلهّف كانت «أورورا» ربّة الفجر المشرق قد بدأت تفتح فى أقصى الشرق أبواب قاعاتها المُترعة بالورود، فانسلّت النجوم تدفع صفوفها الطويلة نجمة الزُّهَرة[١٠] التى كانت آخر مَنْ خلّفت مكانها فى السماء. وما إن رآها إله الشمس تغربُ مع قَرْنَىْ القمر وسط السماء الوردية حتى أمر ربّات «الساعات» السريعة الخُطى بشدّ الجياد إلى النِّير، فاستجابت «الساعات» لأمره وأخرجت الجياد من الحظائر السماوية، تنفث اللّهب مُتْخمةً بما التهمت من الأمبروزيا [طعام الآلهة]، وربطتها إلى المركبة.

وطَلَى الأب وجه ابنه بدُهنٍ مقدّس كى يقيه وهج النيران، وتوّج رأسه بحزمة من أشعة الشمس، وأطلق زفرة عميقة كشفت عما يحدسه من فاجعة متوقّعة، وقال: «فلتُطع نصائح أبيك ما استطعت. كن مترفّقاً فى استعمال السوط، وشُدّ كفّيك على الأعنّة بكل ما تملك من قوة، ودع الجياد تندفع فى عَدْوها فالويل لك إن هى أبطأت، وتجنّب الطريق المستقيم المار بمناطق السماء الخمس، واتبع الطريق المنحدر الدائري الفسيح المار خلال مناطق الكون الثلاث الوسطى متجنّباً القطبين الشمالي والجنوبي وعواصفهما الشديدة البرودة، ولسوف تتبيّن فى هذا الطريق آثار عجلات المركبة. ولا تجنح إلى طبقات الجو العليا أو السفلى، ودع الدفء قسمة عادلة بين الأرض والسماء، فإنك إن ارتفعتَ عالياً أشعلتَ النار فى قبّة السماء، وإن هبطت إلى أسفل أحرقت الأرض، وإن آمن الطرق أوسطها. ولا تنحرف يميناً صوب كوكبة الأفعى الملتفّة حول نفسها، ولا يساراً نحو منخفضات كوكبة المجمرة، وكن بينهما على بُعد وَسَط. وسوف أترك ما وراء ذلك لـ «فورتونا» إلهة الحظ سائلاً إياها أن تحيطك برعاية تفوق ما تملك أنت لنفسك. هيّا الآن فقد بلغ الليل الشاطىء الغربي وما فى استطاعتنا أن نتلبّث، وعلينا أن نبادر بالظهور فقد بدأ نور الفجر ينبلج وأخذت الظُّلمة تتبدّد. اقبض بأقصى قوّتك على الأعنّة، برغم أنى مازلت آمل أن تستجيب إلى نُصحي ولا تُقْدِم على ركوب هذه المركبة، فما برحتَ قادراً على التّراجع عن رغبة فيها هلاكك، وما برحت قدماك ثابتتين على الأرض الصّلبة. إنك مازلت قليل الخبرة، وإذا شئت أن تنعم عيناك بالنور وأنت آمن، فَدَعْني أسكبُه

لك على الأرض». غير أن فايثون اندفع فى حماسة الشباب ممتطيا المركبة التى لم تنؤ بجسده الغضّ، وتناول الأعنّة من يد أبيه فرحاً، واتخذ مكانه واقفاً ولسانه يلهج بشكر والده المحزون.

أخذت خيول إله الشمس الأربعة پيرويس وإيووس وأيثون وفليجون[11] تزخم الفضاء بصهيلها وأنفاسها المشتعلة، وتضرب الحواجز بحوافرها. وسرعان ما أزاحت الإلهة تيثيس الحواجز من طريق الخيل المندفعة جاهلةً المصير الذى ينتظر حفيدها، فتفتّحت أبواب السماء أمام الجياد التى اندفعت صاعدة فى الفضاء بحوافرها المجنّحة متخطّية رياح الشرق العاصفة فى مهادها. وأحسّت الجياد بالمركبة أكثر خفّة مما كانت حين كان يمتطيها إله الشمس، وبدت المركبة كالسفينة يتلاعب بها الموج لخفّتها، فمضت تتأرجح وتعلو وكأنها خالية، وما إن أحسّت الجياد بذلك حتى انحرفت عن طريقها وتخلّت عن اتجاهها المألوف. واستولى القلق على قائد المركبة الذى كانت تعوزه المهارة فى القبض على أعنّة الخيل فانفلت زمامها من يديه ولم يعد يعرف إلى أين ستمضي به خيول المركبة، ولو قُدِّر له أن يعرف فلن يستطيع السيطرة على الجياد. عندها التهبت كوكبة الدبّ الأكبر الثلجية للمرة الأولى، وعبثاً حاولت أن تبترد فى مياه البحر المحرّم عليها، واندلعت ثورةٌ مشبوبة فى كوكبة الثعبان التى كانت برودتها تعطّل حركتها، ويقال إن كوكبة «راعي الشاء» قد ولّت فرارا وقلبها مشحون قلقاً رغم بطء حركتها ورغم كونها أسيرة مركبتها المتهادية.

ووقع بصر فايثون التعس من السماء الشاهقة على الأرض التى على بعُد سحيق، فعلا وجهه الشحوب وارتجفت أطرافه رعباً، وغشّى الوهج عينيه، وتمنّى لحظتها لو لم تمسس يداه قط أعنّة جياد أبيه، وعراه الندم على محاولته تعرّف نَسَبه وعلى استجابة أبيه لرغبته، وتمنّى لو كان ابنا لميروپس بدلاً من فويبوس[12] وقد أخذت المركبة تهتز كسفينة جرفتها رياح الشمال العتيّة، فأسْلَم ربّانها لها القياد تاركاً رعايتها للآلهة يضرع إليها بالدعاء. ماذا تُرى فايثون فاعلاً؟ لقد قطع مسافة شاسعة من السماء وكانت ثمة مسافة أبعد مدى عليه أن يجتازها، فاتجه بنظره إلى الغرب الذى لن يبلغه ثم إلى الشرق وراءه، وهو بينهما حائر عاجز عن إرخاء العنان وجذبه والسيطرة على الجياد التى كان يجهل حتى أسماءها.

لوحة ١٨ . پيكار : جياد مركبة الشمس تجمح
بفايثون .

وزادته خوفاً تلك الوحوش الضارية الضخمة التى وقع بصره عليها متناثرة على صفحة السماء المرصّعة بالنجوم، ورأى العقرب يمدّ مخالبه نحوه على شكل قوسيْن مُرْخياً ذيله، باسطاً أذرعه المستديرة على جنبيه فوق نجمين. ولم يكد فايثون يراه فى صورته القبيحة يتقاطر منه السّم الناقع حتى جَمُدَ الدم فى عروقه وعراه فزع أسقط من يده العنان على ظهور الجياد التى وجدت نفسها طليقةً مُرْسَلَةَ الزِّمام، فانحرفت عن طريقها المألوف وانطلقت هائمة خلال أجواز الفضاء تطرق دروباً مجهولة، واتجهت إلى النجوم العالية تجرّ المركبة وراءها متنقّلة من هوّة إلى أخرى، صاعدة المرتفعات تارة وهابطة المنحدرات تارة أخرى حتى اقتربت من سطح الأرض. واستبدّ العجب بـ «لونا» ربّة القمر وهى ترى جياد أخيها تهوي والدخان ينطلق من السُّحب المشتعلة والنيران تلتهم مرتفعات الأرض فتتشقّق وتتبعج فيها الأخاديد لجفاف تربتها وتلتهم المراعي فتنقلب هشيماً، وألسنة اللهب تأكل الأشجار وأوراقها متّخذة من حصاد الحقول وقودها. ولم يكن هذا كله إلاّ أمراً هيّناً إلى جانب اندثار المدن الكبرى واحتراق الأسوار وتهدّمها وتحوّل شعوب بأسرها إلى رماد، واشتعال الغابات على سفوح الجبال. وقد أكلت النار جبل آثوس[١٣]، وجبل الثور[١٤] فى سيليسيا وجبل تيمولوس[١٥]، وجبل أويتا[١٦]، وجبل إيدا[١٧] الذى كانت ينابيعه الثَّرة ذائعة الشهرة قبل نضوبها، كما أتت النيران على جبل هيليكون موطن ربّات الفنون، وجبل هيموس[١٨] الذى ارتبط اسمه بعد ذلك باسم أورفيوس، وتأجّجت نيران بركان إتنا[١٩] فتطاولت ألسنتها إلى آفاق عالية. واشتعلت القمم التوائم بجبال پارناسوس ذات القمّتين وإيريكس[٢٠] وكينثوس[٢١] وذاب جليد جبال أوثريس[٢٢] ورودوپى[٢٣] وميماس[٢٤] وديندِيما[٢٥] وميكالي[٢٦] وكيثايرون[٢٧] مهد الطقوس الدينية، ولم يَحْم الصقيع جبال سكوذيا من أن تلتهمها النيران، وكذلك كان مصير جبال القوقاز[٢٨] وأوسّا وپيندوس، وتوهّج اللهب فى الأوليمپوس[٢٩] أعظم هذي الجبال شأنا، وبلغت الحرائق جبال الألب الشاهقة الارتفاع وسلسلة جبال الأپنيْن التى تتوّج السُّحب قمتها.

وجد فايثون نفسه وسط عالم محترق مشتعل ملتهب فغشيته حرارة شديدة عجز عن احتمالها فأرسل زفرات حارة كتلك التى تُطلقها المواقد المشتعلة، يحاصره وهج مركبته ويلسعه شَرَرُها المتطاير، ويلفّه الدخان الساخن وتُعميه الظلمة الحالكة فلا يدري أين هو ولا

إلى أين يسير، تجمح خيوله العَجْلَى على هواها حيث تقودها أقدامها المجنّحة. وشاع بين الناس أن بَشَرة الإثيوبيين قد اسودّت فى هذه اللحظة إذ انبثق الدم مندفعا إلى بَشَراتهم. وفى تلك اللحظة أيضا جفّفت الحرارة مياه ليبيا فتصَحَّرت، وأخذت الحوريات ينزعن شعورهن نائحات على ينابيعهن وبحيراتهن المفقودة، وعبثاً حاولت بويوتيا البحث عن ينبوع ديركي[٣٠] بين ظهرانيها، وأرجوس عن ينبوع أميمونيه[٣١]، وإفيري[٣٢] عن مياه پيريني.

ولم تسلمْ مياهُ الأنهار المتدفّقة فى مجراها السويّ من لفح النيران الذى جفّف الينابيع، فقد تبخّرت مياه نهر تانايس[٣٣] حتى بدا جافًا، كما جفّت مياه نهر پينيوس[٣٤] العتيق، ونهر كايكوس[٣٥] فى ميسيا، ونهر إسمينوس[٣٦] سريع الجريان، وحاق المصير نفسه بنهر إيريمانثوس بأركاديا، وبنهر زانزوس[٣٧] الذى غاض ماؤه بعدُ. وكذا نهر ليكورماس[٣٨] الأصفر، ونهر مياندر[٣٩] الذى يتلوّى بمجراه فى منحنيات شبيهة بالدوائر، ونهر ميلاس بطراقيا، ونهر إيروتاس باسبرطة، وكذلك نهر الفرات ببابل، والعاصي بسوريا، وثرومودون[٤٠] الجيّاش ونهر الجَنْج بالهند، وفازيس[٤١]، وهيستر[٤٢]، وفارت مياه نهر ألفيوس[٤٣] والتهمت النيران شواطىء نهر سپيرخيوس[٤٤]، وانصهر الذهب المكنوز بأعماق نهر تاجه، واحترقت طيور نهر مايونيا[٤٥] وطيور نهر كايستر[٤٦] التى أضفى تغريدها على شواطئه ذيوعاً لصيته، وأمسك الذعر بنهر النيل فولّيتَ هارباً مُخْفياً رأسك فى أقاصي الأرض حيث استَقْرَرْتَ هناك، وقد خلّفتْ مَصَابُّك القنوات السبع جافة لا يغمرها غير التراب، وبقيت سبعة وديان بلا مياه. وحاق هذا المصير بنهريْ الهيبر[٤٧]، وستريمون[٤٨] الواقعين فى بلاد الإيزماروس[٤٩]، وكذلك أنهار منطقة هيسپيريا[٥٠] وهى الراين والرون وپو والتيبر الذى وعدت الآلهة بأن يسود الكون يوماً.

أخذت الشقوق تغشّى الأرض ويتسرّب من خلالها الضوء حتى بلغ تارتاروس، مُلْقيا الرُّعب فى قَلْبَىْ عاهلىْ العالم السفلى. وتقلّصت المحيطات مخلّفة مساحات شاسعة غطّتها كثبان الرمال، مُبرزة جبالاً كانت مستورة تحت المياه العميقة[٥١]، فتكاثرت سلاسل المرتفعات المنتشرة فى الكون، وغاصت الأسماك فى أعماق المستنقعات، وجَبُن الدرفيل عن القفز فى الهواء كعادته، وطفت جثث عجول البحر فوق سطح البحار، وقيل إن نيريوس وزوجته

دوريس وبناتهما قد استشعروا وَهَجَ الحرارة وهُمْ فى أغوار كهوفهم، وعجز نپتون عن إخراج رأسه وذراعيه من مياه البحر بعد أن حاول ذلك مرات ثلاثا لاشتعال الهواء خارج البحار.

وحين نفذت مياه البحار والمحيطات الملتفّة «بالأرض» إلى أحشائها وملأت جوفها المعتم اشرأبّ رأس «الأرض» من بين الرماد وأحاطتها بيديها تحميها من شدّة الحرارة اللافحة، ثم اضطرب كل شىء اضطرابا عنيفاً، وهَوَتْ الأرضُ من مكانها وهى نافثة ألما، مُهَمْهِمةً: «إن تكن هذه إرادة القدر، وإن يكن هذا مصيري، فلم لا تُعَجِّل أيها الإله القادر بإرسال صواعقك لأهلَكَ على يديك إن يكن قد قُدِّر هلاكي بالنار، فأية كارثة تبعث بها أنت يهون عليّ الامتثال لها». وكانت حرارة الأجواء تلسع حلقها حين تتحدّث، فأردفت تقول: «لَكَمْ يشقّ عليّ أن أفتح فمي لأتحدّث. وها هو ذا شعري قد احترق، وانساب الرماد إلى عينىْ فغطّيا وجهي. أهذا هو جزاء خصوبتي؟ أهذا هو التكريم الذى أناله مقابل خدماتي؟ أمِنْ أجل هذا احتملتُ الجراح التى شقّتها فى جسدي المحاريث والفؤوس دون أن أنال قسطاً من راحة طوال العام؟ أهذا ما أجَازى به عن تدبيري الأوراق والأعشاب الطّرية للماشية، والغلال للبشر، وإنباتي الأخشاب العطرة التى تُحرَق من أجلكم بخوراً أيتها الآلهة؟ . وإذا كنت مستحقة للهلاك، فأىّ ذنب جنته المياه؟ وماذا جَنَى أخوك حتى تتضاءل البحار التى مُنحها ساعة تقسيم الكون؟ . فإذا لم تكن بي مُشْفقا ولا بأخيك، فلتتلفّت حواليك ولتُشفق على مملكتك السماوية، فلقد أمسكت النار بالقطبين ولو أتت عليهما لانهدم قصرُك. ولتنظر إلى أطلس[٥٢] يعاني مُثْقلا بحمل السماء المشتعلة فوق كتفيه، وتذكّر أنه لو هُلكَتْ الأرض والبحار والسماء لانتهى الأمر بنا جميعاً إلى الفوضى. فلتبادر إلى إنقاذ ما يسعك إنقاذه من الدمار أيّها الإله الأجَلّ، وأدْرك الكون برحمتك واكتب له النجاة».

ولم تكَدْ ضراعة إلهة الأرض تنتهي حتى أطرقت برأسها ودلفت إلى الكهوف المتاخمة لعالم الموتى عاجزة عن احتمال مزيد من شدّة الحرارة. واستدعى ربّ الأرباب الآلهة إليه ومن بينهم إله الشمس الذى أسْلَمَ مركبته إلى ولده فايثون، وبعد أن أشْهدهم جميعاً على أن نجاة الكون من الفجيعة المرتقبة رهنٌ بمعونة فويبوس صعّد عالياً فى السماء إلى ذلك المكان الذى اعتاد أن يُطلق منه الغيوم والرعود والصواعق الخاطفة، غير أنه لم يرسل سحباً ولا أمطاراً وإنما

أطلق رعداً مدوّيا، ورفع بيده الصاعقة قريباً من أذنه اليمنى ثم صوّبها إلى قائد مركبة الشمس فأحرقت المركبة وانطلقت خيولها مولّيةً الأدبار على غير هدى، وتناثرت أجزاء المركبة فراحت عُدّة الجياد يُمنة بينما ذهب عريش المركبة يُسرة، وهنا وهناك برامق العجلات وحطام المركبة. وهوَى فايثون فى الفضاء والنار مشتعلة فى خصلات شعره تتحوّى من ورائه كأنها نجم لاهب فى السماء الصافية يحترق، حتى هبط فى بقعة قصيّة من الأرض بعيدة عن مسقط رأسه، وتلقّاه نهر إيريدانوس[٥٣] العظيم فبلّل وجهه المحترق، وقامت الحوريات الإيطاليات بدفن رفاته التى التهمتها النيران ذات الألسنة الثلاثة، ثم نقشن على شاهد ضريحه:

«هنا يثوي فايثون قائد مركبة أبيه.
وهو وإن لم يُكتب له التوفيق فى قيادتها
إلا أنه قضى نحبه شهيد شجاعته الخارقة».

أدّت الحوريات هذا الرثاء عن أبيه التعس الذى أمضّه الشّجن فغطّى وجهه وأخفاه عن جميع الأنظار. وإذا كان حقاً ما يقول الراوي، فلقد احتجبت الشمس فى ذلك اليوم فإذا النيران المشتعلة تُضيئ الكون، وهكذا كانت لكارثة فايثون حسب هذا الرأى نفعٌ ما.

وكانت كليمينيه أم فايثون أول من بكاه بكاء زاد من هول المأساة، فلقد أفقدها حزنها وعيَها فشقّت ثوبها عن صدرها، وراحت تضرب فى الأرض على غير هدى بحثاً عن جثة ولدها حتى وجدتها دفينة فى شاطئ ذلك النهر البعيد، فاحتضنت الصخرة التى نُقش عليها اسمه وبلّلتها بدموعها مُلْصقةً صدرها العاري بها[٥٤].

ولم يكن حزن بنات الشمس على أخيهن أقلّ من حزن أمّهن عليه، فاستسلمن للنحيب والعويل، وضربن صدورهن بأكفّهن وألقيْن بأجسادهن فوق ضريح فايثون ينادينه ليل نهار دون أن يسمع صراخهن. ومضت أشهر أربعة وشقيقات فايثون مقيمات عند القبر يؤدّين طقوس الحداد التى أصبحت من كثرة تكرارها عادة مألوفة. وذات يوم تهاوت على الأرض كُبراهن فايثوزا وشكَت عجزها عن تحريك قدميها، فخفّت لنجدتها أختها الشقراء لامپتييه، غير أنها ما لبثت أن وقعت فى قبضة جذور شجرة نبتت فجأة، واكتشفت الثالثة وهى تشدّ

شعرها أنها تقطف من رأسها أوراق شجرة، وأطبق جذعُ شجرة على ساقيْ الرابعة، بينما تحوّل ذراعان أخريان إلى غصنين طويلين. وعلى حين أخذتهن جميعا الدهشة بما يجرى لهن كان لحاء الأشجار يلتف حول أفخاذهن ويغطي أجسادهن شيئاً فشيئاً فكسا خصورهن وصدورهن ثم أكتافهن وأيديهن، ولم يبق إنْسيًا غير شفاهن التى كانت تنادي أمّهن عبثاً.

ولم يكن بوسع الأم الملتاعة غير أن تهرول هنا وهناك تدفعها أحاسيسها كى تختلس من بناتها القبلات ما أمكنها ذلك. لقد حاولت فى أوج ثورتها تمزيق أجساد بناتها وإنقاذهن من جذوع الأشجار، وهشّمت الأغصان غصناً غصناً، وكانت كلما هشّمت غصناً انسكبت منه قطرات دم كأنه جرح ينزف، وصاحت إبنة لها وهى تكسر غصنها قائلة: «رفْقاً بي يا أمّاه، ناشدتُك ألا تؤذيني، إنك تُصيبين بالإيلام جسدي الذى يتحول إلى شجرة، فوداعاً . . . وداعاً يا أماه».

وما لبث لحاء الشجرة أن انطبق على هذه الكلمات الأخيرة، وانسابت دموعٌ جمّدتها الشمس فإذا هى كهرمان[٥٥] أخذ يتساقط من الأغصان الجديدة على صفحة النهر الوضّاءة، فتحملها مياهه بعيداً كى تغدو فى الأيام القريبة زينة عرائس الرومان.

سيجنوس

وقد شهد هذه المعجزة سيجنوس [كيجنوس] بن سثينيلوس الذى كان أكثر قرباً إلى فايثون بعواطفه منه بقرابته، وكان قد بسط سلطانه على شعوب ليجوريا[٥٦] ومدائنهم العظمى، غير أنه ما لبث أن خلّف مملكته ليردّد نهر إيريدانوس[٥٧] وشطآنه الخُضر صدى أنّاته وأحزانه، ولتمتلىء بعويله الغابات التى زادت أشجارها بعد أن تحولّت شقيقات فايثون إلى أشجار، وبحّ صوته من طول نحيبه فهَزُل جسمه، وتحوّل شعرُه إلى ريش أبيض، واستطالت رقبته، واحمرّت أصابعه ونما فيما بينها غشاء، وبرز من جنبيه جناحان، وتحوّل فمه إلى منقار غير

لوحة ١٩ . پيكار : ضريح فايثون ومن حوله شقيقاته يُعولن ويندبن ثم يتحولن إلى أشجار . سيجنوس يُمسَخ بجعا .

مدبّب، وإذا سيجنوس قد تحوّل إلى نوع جديد من الطيور هو طائر البجع بعد أن لم يعد يثق بالسماء أو بجوپيتر، وظل يذكر فى أسى إرسال جوپيتر لصاعقته، ولشدّة نفوره من النيران آثر العيش بين الأنهار والبرك والبحيرات الفسيحة على التحليق فى الفضاء.

وارتدى أپوللو والد فايثون ثياب الحداد وانطفأ بريقه المألوف وكأنما غشّاه الكسوف، وسخط على الضياء وكره نفسه كما كره نور النهار وأسلم نفسه لأحزانه وأقعده الغضب عن أن يطالع العالم بنوره، ومضى يحدّث نفسه قائلاً: «لشدّ ما سئمت عملي المحدّد الرتيب الذى حُرمت معه الراحة منذ بداية الكون، وتولاّني الإرهاق من عمل لا نهاية له وجهود لم أنل عليها تقديراً. إذن فلْيَقُمْ غيري ممن يَعْنيهم الأمر بقيادة مركبة الفضاء، فإن أحجم الآلهة عن القيام بهذا الواجب ولم يتقدم لها متطوّع فلْيَقُدْها چوپيتر نفسه، وهو إن تصدّى لقيادة مركبتي والسيطرة على زمام جيادي فلسوف يعزف عن إرسال تلك الصواعق التى تحرم الآباء من أبنائهم، ولأدرك وهو يمسك بأعنّة تلك الجياد النارية الأقدام الشديدة البأس أن الموت لا يَجْمُلُ أن يكون جزاء من يعجز عن قيادتها». وإذا الآلهة تحلّق حول إله الشمس يلحّون فى الرجاء ألاّ يدع العالم أسير الظلمة، كما اعتذر چوپيتر عن إرساله الصاعقة، وشارك بدوره فى الرجاء المشوب بالوعيد، على غرار ما يفعل الملوك. وتقدّم فويبوس فأمسك بزمام جياده التى كانت ماتزال تُرْعَدُ خوفاً فألهب ظهورها بسوطه، ووخزها وهو فى غمرة الحزن ووقدة الغضب وكأنها المسؤولة عن تلك الفاجعة التى نزلت بولده.

كاليستو

هبّ كبير الآلهة الشامل القدرة يطوف حول أسوار السموات يتعرّف الأضرار التى ألحقتها بها ضراوة النيران، وحين اطمأن إلى أنها لا تزال على حالها صلبة متينة مدّ بصره فوق الأرض يتأمل ما صنعته أيدي البشر. وحرّكت أركاديا[٥٧] التى يُؤْثرُها قلقَه، فأسرع يُعيد المياه إلى الينابيع والأنهار التى كانت قد كفّت عن الجريان، وكسى الأرض بالخضرة وأنبت الأوراق فى الأشجار، وبثّ النماء والخضرة فى الغابات المحترقة من جديد.

وخلال تطوافه وقع بصره على حوريّة أركادية فإذا هو يَجْمُد أمامها وقد احتدمت فى نفسه الرغبة. ولم تكن فتاة من غازلات الصوف الناعم أو المُغْرمات بتصفيفات الشعر المتنوّعة بل كانت إحدى تابعات الربّة فويبيه [ديانا]، رداؤها فضفاض ثُبِّت بمشبك، وشعرها المنسدل على ظهرها يضمّه شريط أبيض، وقد أمسكت بيدها تارة رمحاً أو قوساً تارة أخرى، وكانت أحبّ حوريات جبل ماينالوس إلى قلب ربّة «مفترق الطرقات»، غير أن الحظوة لا تدوم طويلاً[٥٩].

وعندما مالت الشمس قليلاً عن كبد السماء، دلفت الحورية إلى أجمة لم تمسس أشجارها فأس حطّاب، وحطّت كنانة سهامها عن منكبها وأخرجت منها قوسها الطّيّع وتمدّدت على العُشب مُسْندة رأسها إلى كنانتها الزاهية الألوان، وأبصرها چوپيتر فى هذا الوضع عزلاء فناجى نفسه قائلاً: «سيكون لي معها أمرٌ لن تعرف به زوجتي، ولو فُرض أنها عرفته فسوف يكون كفَاءَ ما أناله من تأنيب». وأسرع فتقمّص شخصية ديانا مرتدياً رداءها، ومال على الفتاة يحدّثها بلسان مولاتها قائلاً: «هل كنت تبحثين عن صيد، وأين يا أعزّ مريداتي إلى قلبي؟ وأيَّ جبلٍ عبرت سفوحه؟» فنهضت الحورية وهى تصيح فرحة قائلة: «لك يا مولاتي الربّة تحياتي، إننى أراك أعظم من چوپيتر، وما أخشَى أن يسمع ذلك مني». وضحك چوپيتر سعيداً بتفضيلها له فى صورته هذه على صورته الحقّة وقبّلها قبلة لا براءة فيها ولا تُقَبِّلها بها فتاة من بنات جنسها. وحين أخذت تقصّ عليه مغامرات صيدها فى الغابة لم يُمهلها فضمّها إليه محاولاً أن يغشاها فافتضح لها أمره، وتأبّت الحورية عليه وقاومته بكل ما تملكه أنثى، وياليتكِ كنت شاهدتها يا چونو. يقيناً كان غضبك سيخفّ، ولكن أنَّى لفتاة مهما أوتيت أن تنجح فى قهر رجل، ثم مَنْ ذا الذى يستطيع أن يغلب چوپيتر على أمره؟ ونجح چوپيتر فى الظَّفر بها حتى إذا ما نال وطره منها عاد أدراجه إلى السموات العُلى. وصبّت الحورية لعناتها على الغابات والغيضات التى شهدت اغتصابها، كما أنسيت كنانة سهامها وقوسها وكانت قد علّقتهما حيث افترشت الأرض.

ورأت ديكتينا[٦٠] وهى تتسلّق جبل ماينالوس الشاهق الفتاة الأركادية فنادتها، فولّت الفتاة هاربة وهى تخالها چوپيتر وقد عاد متقمّصاً شخصية ديانا، غير أنها حين رأت تابعات مولاتها يُحطن بها اطمأنت إلى أنها الربّة حقاً وأن الأمر ليس حيلة من حيل كبير الآلهة، فعادت

أدراجها لترافق الإلهة وتابعاتها. ما أشقّ أن يُخفى المرء إحساسه بالخطيئة، فقد عجزت الفتاة عن رفع بصرها عن الأرض ولم تدن من الربّة على غرار ما كانت تفعل من قبل، وتخلّفت عن زميلاتها ملتزمةً الصمت، وأخذ الخجل مما ارتكبت من خطيئة يَغْشَى وجهها، ولو لم تكن ديانا إلهةٌ عذراء لاستطاعت كشف سرّها بتلك الأمارات العديدة التى بدت عليها. ويحكي الرواة أن زميلاتها فَطِنّ إلى ما تكتم من أمرها.

وهلّ القمر بدراً مرات تسعا، وأوت ديانا - بعد جولة صيد مرهقة وسط حرارة الشمس اللافحة - إلى أجمة رطبة الأنسام يجري وسطها جدول هامس يتموّج ماؤه فوق رمال القاع الأملس. ولم تكد الربّة تبلغ هذا الجدول حتى غلبتها البهجة فغمست قدميها فى الماء، ونادت تابعاتها قائلة: «طالما أن العيون لا تصل إلينا هنا، فلنخلع ثيابنا ولنستحم فى هذا الجدول». وحين خلعت الفتيات ثيابهن وقفت الفتاة الأركادية مُحْجِمةً وقد احمرّ وجهها خجلاً، فتقدّمت زميلاتها ونزعن عنها ثوبها وكأنهن حين كشفن عنها ثوبها كشفن عن خطيئتها، وعندها صرخت ديانا فيها قائلة: أغرُبي عنّي، ولا تدنّسي مياه هذا الجدول المقدّس»، وأمرتها بالانسحاب من حاشيتها.

ولم يخف الأمر طويلاً على زوجة إله الرعد الجبّار، فاعتزمت إنزال عقاب قاس بغريمتها، لكنها ظلّت تتخيّر اللحظة المواتية حتى وقع ما يستحيل معه الانتظار، فلقد وضعت غريمتها ابنها أركاس، وأخذ مرأى هذا الطفل يشحن قلبها وعينيها غضباً فصرخت فى أمّه قائلة: «لم يكن ينقصك إلاّ أن تضعي هذا الطفل أيتها الزانية لكى يُشيعَ إهانتي على الملأ، ولكى يغدو دليلاً على خطيئة زوجي الشائنة.. إنني لن أتركك دون عقاب، وسوف أسلبك أيتها الفاسقة هذا الجمال الذى أغرى بك عاشقك».

ومدّت يدها إلى جبين الفتاة وقبضت على شعرها واجتذبتها بقوة فطرحتها أرضا. وحين بسطت كاليستو ذراعيها متوسّلة تطلب الغفران، إذا بهما تكتسيان بشعر أسود خشن، وإذا كفّاها تستديران وتنتهيان بمخالب معقوفة وتغدوان قدميْن أماميتين، وإذا وجهها الذى فُتن چوپيتر بجماله من قبل يتشوّه وينفرج فيه فكّان عريضان. ولكى تقضي الإلهة على توسّلاتها حرمتها القدرة على الكلام فلم يعد يصدر عن حنجرتها سوى زمجرة بشعة، غير أنها تركت

لوحة ٢٠ . پيكار : چوپيتر متقمّصا شخصية
ديانا يغازل الحورية كاليستو .

لها إدراكها كما كان رغم تحوّلها إلى دُبّة تبثّ حزنها بأنين متصل، وتفزع للسماء ضارعة بذراعيها بعد تحولهما إلى ساقيْن. وأحسّت جحود چوپيتر دون أن تستطيع الإفصاح عمّا يدور بخلدها، وكم ثَقُلت عليها الإقامة فى الغابة فراحت تحوم حول دارها مقتربة من مقرّها القديم، وكم من مرّة أخذت تطاردها الكلاب بنباحها إلى أن تعود أدراجها بين الصخور، وهكذا باتت صيادة الأمس تلتمس الهرب من الصيّادين. وما أكثر ما كانت تغيب عن ذهنها صورتها الجديدة فتختبىء عند رؤية الوحوش الضارية. ومع أنها مُسخَت دبّة إلاّ أنها كانت تخشى رؤية الدّببة فى مكامنها بالجبال، كما كانت تُصاب بالذعر أمام الذئاب رغم أن أباها كان واحداً منها[٦١].

أركـــاس

بلغ أركاس الخامسة عشرة من عمره دون أن يدري ما وقع لأمه إبنة ليكاوون. ومضى ذات يومٍ يتعقّب آثار الحيوانات المتوحّشة فى الغابات ويتعرّف أفضل الأماكن لصيدها وينصب شباكه فى غابات إيريمانثوس[٦٣]، فإذا هو أمام هذه الدبّة التى توقّفت محدّقةً فيه مُطيلةً النظر إليه دون أن تحوّل عينيها عنه. وحين دفعها تشوّقها الشديد إليه إلى محاولة الاقتراب منه أسرع برفع يده برمحه المميت ليمزّق أحشاءها به، فإذا چوپيتر الجبار يُمسك بيده ليحُول بينه وبين ارتكاب جريمة، مُبْعداً الإبن عن الأم. وما لبث أن حملتهما معا ريحٌ خلال الفضاء ليجعل منهما كوكبتين متجاورتين[٦٣].

وحين رأت چونو غريمتها تتألّق وسط نجوم السماء تولاّها غضب عاصف، وخاضت البحار العميقة للقاء الإلهة تيثيس الشّيباء وزوجها العجوز أوقيانوس لما لهما من مكانة بين الآلهة الأخرى. وحين سألها كلاهما عن سرّ زيارتها أجابت قائلة: «تسألاني أنا ملكة الآلهة لماذا تركتُ مكاني فى السماء وهبطتُ إلى حيث تعيشان؟ لقد فعلت ذلك لأن ملكة أخرى أخذت مكاني فى السماء، فإذا ما نشر الليل ظلاله فوق الكون انظرا فسوف تريان كوكبتين حلّتا لتَوِّهما فى السماء مُحاطتيْن بإجلال يُلْحقُ بى الهوان، إذ تتألّقان فى أعلى مكان بالسماء وفى المنطقة التى تحيط فيها آخر الدوائر بالطّرف الضيّق من محور العالم. وهل ثم مَنْ لا يسخر مني حين يراني لا أنال منهما؟ ماذا جنيتُ أنا، وما أعظم ما أملكُ من قدرات؟ لقد شئتُ

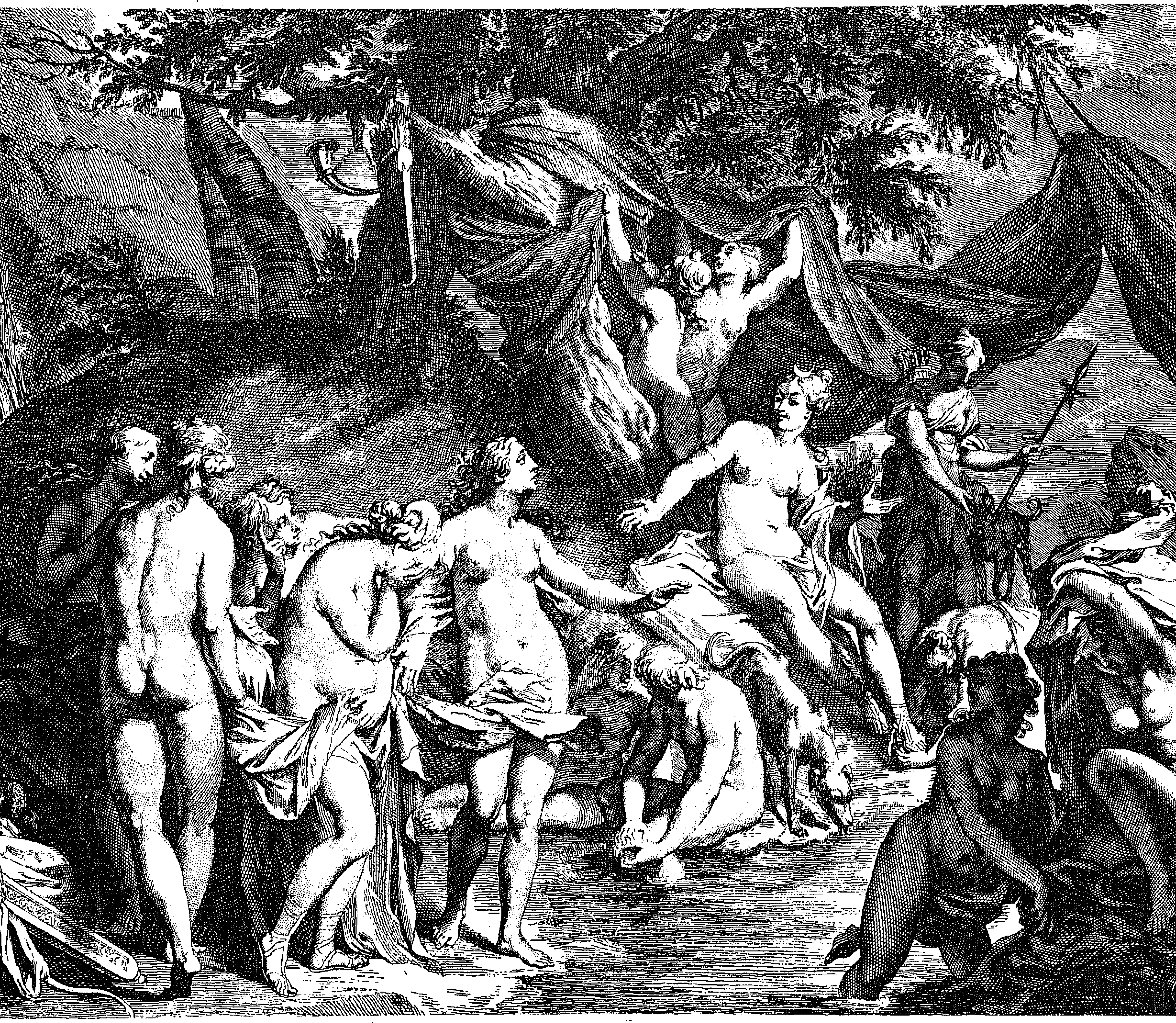

لوحة ٢١ . پيكار : ديانا تطرد الحورية كاليستو
من صحبتها بعد أن كشفت زميلاتها عن
حَمْلها.

تجريدها من إنسانيتها فمسختُها دُبَّة فإذا هى تتحوّل ربَّة، وإذا العقاب الذى أردتُ أن أُنْزِله بالمُذنب - وكان أقصى ما أملك - يتحوّل تكريما. ألا فليردّ چوپيتر إليها جمالها المسلوب وليحرّرها من صورتها البهيمية كما فعل من قبل مع إيو الأرجوسية، ولمَ لا يخطو إلى أبعد من ذلك فيطلّق چونو، ويتزوّج من هذه المحبوبة الجديدة ويُنْزلها فى فراشي ويتّخذ من ليكاوون صهراً له؟ إذا كنتما تحسّان بأن ما نلته من امتهان يمسّكما وأنا التى ربّيتماها صغيرة، فاعملا على أن تدفعا عن أمواجكما الزرقاء هاتين الكوكبتين [الدبّ الأكبر والدب الأصغر] اللتين لم تُرفعا إلى السماء إلاّ تكفيراً عن سلوك فاضح، ولا تُتيحا لامرأة زانية أن تستحم فى مياه بحاركما الطاهرة».

وأقرّ إلاها البحر ما قالته كبيرة الآلهة، وانطلقت چونو ابنة ساتورن وسط الأثير بمركبتها المحلّقة التى تجرّها الطواويس الزاهية الألوان بريشها الجديد المرصّع بعيون أرجُس بعد مصرعه بأخرة، فى الوقت عينه الذى تحوّل فيه ريشُك الناصع البياض أيّها الغُداف الثرثار إلى أسود داكن، فلقد كان ريشُك فى الماضي فى بياض الفضّة يباري لونَ ريش اليمام الخالص البياض، كما لم يكن يقلّ بياضا عن ريش الإوز الذى قُدّر له أن يُنْقذَ الكاپيتولينوس(٦٤) يوماً بصَيْحاته اليقظَى، ولا عن ريش البجعة عاشقة المياه. غير أن ثرثرة لسان الغُداف كانت سبب مأساته، فإذا هو يفقد لونه الأبيض ويتحوّل إلى نقيضه الأسود.

كورونيس

لم تكن فى أنحاء ثيساليا بأسْرها فتاة تبزّ كورونيس مواطنة مدينة لاريسا جمالا، وكم ظَفرتْ بإعجابك يا ربّ دلفى طالما احتفظت بطهارتها أو بأمْرها مستورا أمام عينيك إلى أن اكتشف الغداف طائر فويبوس ذات يوم أنها قد تخلّت عن عفّتها، فانطلق مسرعا بجناحيه الخفّاقين نحو مولاه على عادته فى نقل الأخبار وإفشاء الأسرار، غير أن الغراب الذي لا يقلّ عنه ثرثرة تعقّب الغداف مسرعا متلهّفا للوقوف على الأخبار، حتى إذا أحاط علما بالهدف الحقيقي من رحلة الغداف قال: ما جدوى هذه الرحلة التى لن تعود عليك إلاّ بالخسارة، ولن تجني من ورائها مغنما؟ خذ حذرك ولا تهوّن من نصيحتي واعتبرْ بما حدث لي، انظر إلى ما

لوحة ٢٢. پيكار: چونو تمسخ الحورية كاليستو دبّة.

كنتُ عليه وما صرتُ إليه الآن، إذن لوجدتَ أن إخلاصي هو الذى أوْدَى بي : فذات يوم وُلد طفل بلا أم يُدعى إيريخثونيوس أخفته الإلهة پالاس فى سلّة مجدولة من خيزران أكتيا[٦٥]، وعهدت بالسلّة إلى بنات الملك كيكروپس[٦٦] الذى كان نصفه الأدنى على هيئة ثعبان، وأوصتهنّ بألاّ يرفعن عن السلّة غطاءها للوقوف على سرّها، ثم اختبأت بعد ذلك وسط أغصان شجرة الدردار المورقة لمراقبتهن. وكانت پاندروسوس وهيرسي أمينتين على ما أؤتُمنتا عليه بينما رَمَتْ ثالثتهن أجلاوروس شقيقتيْها بالجبن، ثم ما لبثت أن فكّت رباط السلّة فإذا فى داخلها طفل وقد انبسط إلى جواره ثعبان.

وحين قصدتُ الإلهة منيرڤا وشيتُ لها بما كان من أجلاوروس كان جزائي إعفائي من مهمّتي مرافقا للإلهة، وصرتُ أدنى مكانة من طائر الليل[٦٧]. وما أجدر ما نالني من عقاب بأن يكون تحذيرا لسائر الطير لتجنّب الضّرر الناجم عن الثرثرة والنميمة. ولعلك ترى أن استبعادها لي لم يكن عن إرادتها، فأنا لم أسع وراء هذا السرّ وإنما وقفتُ عليه بمحض الصُّدفة. وما عليك إلا أن تسأل پالاس فإن غضبها الحالي مهما احتدم لن يؤدّي بها إلى إنكار الحقيقة.

وإليك قصةً شهيرة يعرفها الجميع. لقد أنجبني كورونيوس الذائع الصيت فى بلاد فوكيس. ولا تستهن بأمري فإن دماءً ملكية تسري فى عروقي، وكثيرون من الأثرياء جاءوا يسعون لخطبتي. ولقد كان جمالي مصدر مأساتي، فبينما كنت أخطر كعادتي فوق الرمال الناعمة أبصرني إله البحر فحرّكتُ إعجابه، وجعل يغازلني ويتوسّل إليّ برقيق الكلمات، وحين تبيّن له أنه لن يجني من وراء محاولاته شيئاً أخذ يخطّط لاغتصابي وتملُّكي بالقوة، فهربتُ منه وخلّفت رمال الشاطئ الصّلبة لأمْرُقُ عبثا وسط الرمال اللّينة، ومضيتُ أسير فى غير اتجاه معيّن وصرخت منادية الآلهة والبشر لنجدتي فلم يصل ندائي إلى أذن بشرية، بينما تحرّكت الشفقة فى قلب ربّة العذارى على واحدة من العذارى فمدّت لي يد العون. وحين رفعتُ ذراعَيْ نحو السماء إذا هما جناحان يكتسيان بريش خفيف داكن، وعندما جهدتُ لاطّراح عباءتي من فوق منكبَيْ إذا هى أيضا ريشٌ يضرب جذوره العميقة فى جلدي، وحاولت ضرب صدري العاري بيدىْ فإذا أنا بلا يديْن ولا ثدييْن. وحين حاولت أن أعدو لم تغص قدماى فى الرمال كما كان الحال من قبل بل وجدتني أعلو مسرعةً فوق سطح الأرض،

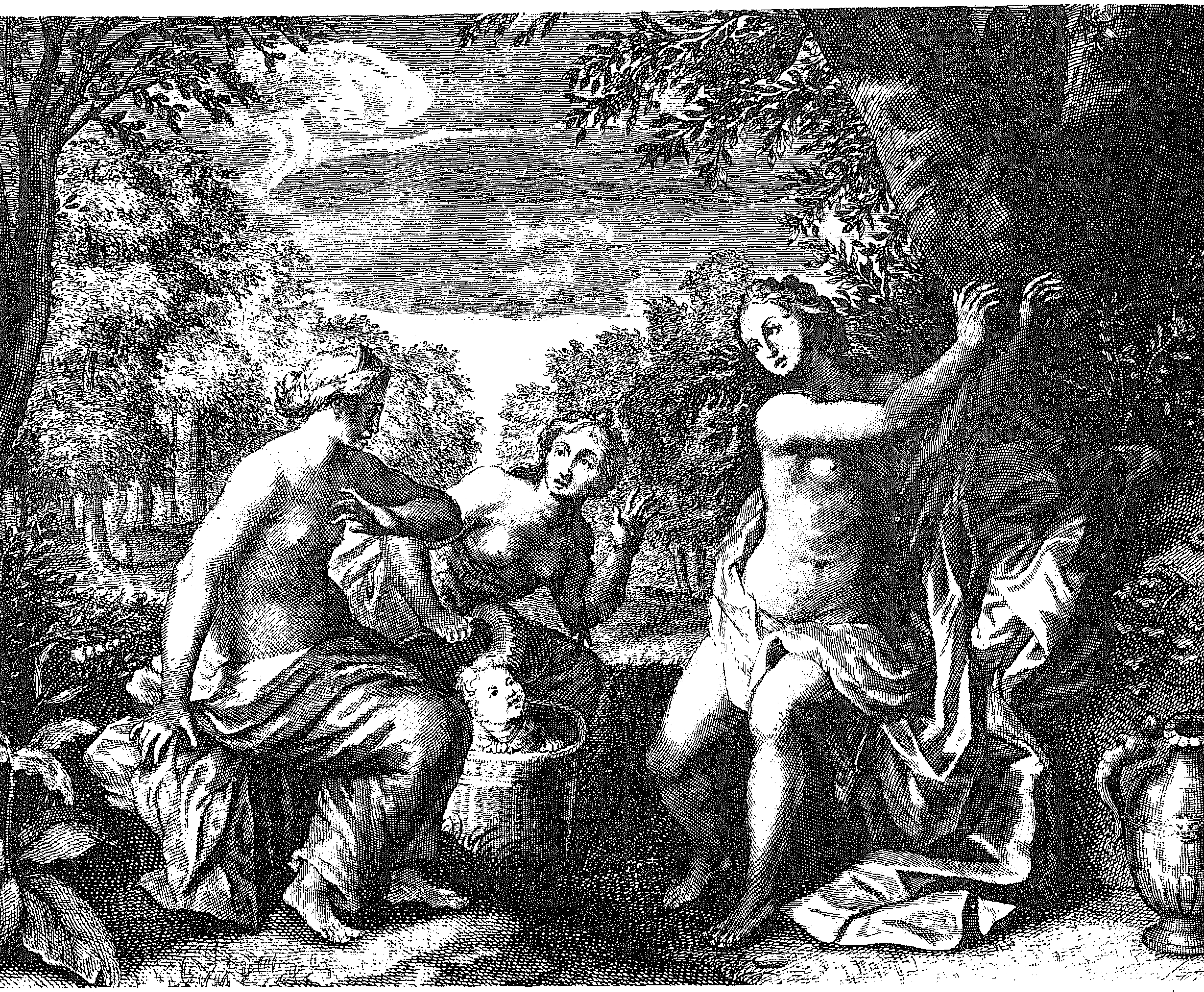

لوحة ٢٣ . پيكار: بنات الملك كيكروپس حول السلّة التى عـهـدت بهـا إليـهن الإلهـة پالاس.

وأخذتُ أحلّق عالياً فى السماء إلى أن عُهد إلى باصطحاب الإلهة منيرڤا لأكون لها رفيقة طاهرة الذيل . لكن ما جدوى ذلك الآن إذا كانت نيكتيمينيه[٦٨] التى تحوّلت إلى طائر جزاء خطيئتها الخسيسة قد انتزعت مني مع ذلك شرف هذا المنصب؟ ألم يصل إلى سَمْعك نبأ تلك القصة الشائعة فى أرجاء ليسبوس عن تدنيس نيكتيمينيه لفراش أبيها؟ ومع أنها قد تحوّلت بدورها الآن إلى طائر، إلاّ أن شعورها بالإثم جعلها تتخفّى عن عيون الناس وتتفادى ضوء النهار محاولةً ستر عارها فى ظلمات الليل منبوذة من الجميع فى أرجاء الفضاء المضيئة .

وأجاب الغداف على الغراب قائلاً : «إنى لأزدري تحذيرك العقيم الواهي، ولن تنجح محاولاتك فى إثنائي عمّا اعتزمت» . وواصل رحلته دون تلبّث قاصداً مولاه فويبوس، ليُسِرّ إليه نبأ مشاهدته كورونيس تضاجع شاباً من ثيساليا . وما كاد عاشق كورونيس يقف على فحوى هذه الخيانة حتى سقط إكليل الغار عن رأسه وتبدّلت قسمات وجهه وتغيّر لونه وسقطت ريشة العزف من يده، واحتدم الغضب فى نفسه فقبض على قوسه المنحنية وأطلق منها سهماً لا يخطئ هدفه، فإذا هو ينفذ فى الصّدر الذى طالما نَعِم بضمّه إليه . وتأوّهت كورونيس الحسناء ألما، وانتزعت السهم من جسدها فتدفّق الدم القاني غزيراً على أطرافها البيضاء، وصرخت قبل أن تلفظ أنفاسها الأخيرة مع آخر قطرة من دمها، وسرت فى جسدها قشعريرة الموت وتمتمت معاتبة : «أما كان الأجدر أن تُنْزِلَ بي عقابك بعد أن أضع حَمْلي منك، فلقد قضيتَ بصنيعك على ضحيّتين معاً؟» . وبينما هى تُتمتم بكلماتها تلك لفظت آخر أنفاسها مع دمها المتدفّق، وأفلتت الحياة من جسدها الذى احتوته برودة الموت . وما أسرع ما أحسّ العاشق - واأسفاه - النّدم على عقابه القاسي . وحَنِقَ على نفسه لإنصاته للوشاية ولانسياقه فى غضبه الجامح، وكره الطائر الذى قاده فضوله إلى كشف خطيئة كورونيس التي حرّكت سخطه عليها، ولعن يده وقوسه وسهامه المتسرّعة التي سدّدها، وضمّ جسد كورونيس المُسَجَّى أمامه محاولاً وقف إرادة القدر، فذهبت محاولته شفاء جرحها أدراج الرياح بعد أن فات الأوان .

وحين رأى المحرقة مشتعلة والنار موشكة على التهام أطرافها وأيقن بفشل كل محاولاته فى إنقاذها، عَصَرَه الألم دون أن تدمع عيناه لأن الآلهة لا تبكي . ومن أعماق قلبه أطلق زفرات آسية مثلما تُطلق البقرة خوارها عندما تلمح الساطور فى يد القصّاب ليهوِي به على

جبين وليدها الرضيع. ثم انطلق يصبّ على صدر كورونيس الخامد العطور الجنائزية، وضمّها إلى صدره ضمّة أخيرة، وقدّم لها الطقوس المناسبة التي لا جدوى منها بالنسبة لِمَنْ رحل. وإذْ لم يحتمل أن تُحيلَ هذه النيران فلذة كبده إلى رماد، انتزع ابنه(٦٩) من رحم أمه منقذاً إياه من اللّهب وحمله إلى كهف القنطور خيرون ذي رأس الإنسان وجسد الحصان(٧٠).

ووقف الغداف منتظراً جزاءه على إخلاصه بقول الحقيقة، فقضى فويبوس بإقصائه من بين الطيور البيضاء الرّيش.

أوكيروييه

ابتهج القنطور خيرون باصطفاء الإله له لرعاية ابنه، وأفعم قلبه فرحةً بهذا التشريف وتلك المسؤولية. وفجأة ظهرت ابنته أوكيروييه(٧١) ذات الشعر الذهبيّ الضارب إلى الحُمرة المنسدل على منكبيها والتى أنجبها من الحورية خاريكلو(٧٢) التي أطلقت على ابنتها اسم النهر الذى وضعتها على ضفافه. ولم تكتف أوكيروييه بإجادة الفنون التى أخذتها عن أبيها بل أضافت إليها القدرة على التنبؤ وكشف أسرار الغيب. وحين رأت الطفل الإلهي خفق قلبها حماسة وتولّتها حمّى التنبؤ وتمتمت قائلة: «ألاَ فلتشُبّ أيها الطفل الذى تدّخره الأقدار لإسباغ الصحة على البشر أجمعين. لسوف تدين لك أجساد البشر بحياتها، ولسوف تُوهَب القدرة على إعادة الروح إلى الأجساد بعد مفارقتها. ولسوف تثير يوماً غضب الآلهة حين تجرؤ على إحياء الموتى، فتُجرّدك صاعقة جدّك(٧٣) من قدرتك على منح هذه الهبة مرة أخرى. وعندها ستتحوّل من جسد إلهي إلى جسد بشريّ فان ثم تُبعث إلها من جديد، فتُبدّل مصيرك مرتين.

خيرون

أما أنت يا أبى الغالي، وقد قُدِّر لك أن تحيا إلى الأبد لأنك واحد من الخالدين، فسوف تشتاق الموت يوم يسري فى أطرافك سُمّ أفعوان الهيدرا الفتّاك، وتظل تَصْلَى عذابا حتى يستردّ الآلهة ما تستمتع به من خلود، فتحلّ الربّات الثلاث خيوط قدرك لتموت»(٧٤).

وعندها طفرت الدموع من عينيها مبلّلة خدّيها فتنهّدت تنهدة عميقة وهى تقول: «إن الأقدار تحظر عليّ المزيد من الإفصاح، فكلماتي محسوبة عليّ، وقد كانت مقدرتي على التنبؤ مبعث غضب الآلهة عليّ حتى تمنّيتُ لو أني جهلتُ المستقبل. إنني أرى وكأنني قد فقدتُ هيئتي البشرية وصار عُشب المراعي غذائي، والرّكض فى السهول الفسيحة مُتعتي، وتحوّلت صورتي إلى صورة فرسٍ بفعْل الوراثة. ولكن لماذا أغدو فرساً خالصة، بينما أبي نصف بشر؟».

وحتى بينما هى تناجي نفسها حملت عباراتها الأخيرة غموضا وإبهاماً، ولم تعد كلماتها كلمات ولا هى صهيل فرس بل كانت أشبه ما تكون به، وما لبثت أن صهلت صهيلاً حقيقياً وغدت ذراعاها سيقانا تدبّ على الأرض، وإذا أصابعها تلتئم ويحيط بها حافرٌ ناعم يُغَشّي أظافرها الخمسة، وتضخّم فمهاوكَبُر رأسها واستطالت رقبتها، وتحوّل طرف ثوبها إلى ذيل طويل، وصار شعرُها المنسدل على كتفيها معرفةً تتدلّى على كتفها اليمنى واكتمل تحوّل صوتها وجسدها، وأخذت مع هذا التحوّل المعجز اسما جديداً هو «المُهْرة».

باتوس

ذهب بكاء ابن فيليرا - و كان من أنصاف الآلهة - وتضرّعه لأپوللو إله دلفي كى يخلّص ابنته من آثار هذا التحوّل أدراج الرياح، فلم يكن أپوللو يملك تغيير إرادة چوپيتر الجبار، ولو قُدِّر له أن يملك شيئاً من ذلك فقد كان عندها يقيم بعيداً فى مدينة إيليس[٧٦] وحقول مسينيا[٧٧]. جرى هذا التحوّل وأنت مرتدياً ثياب الرعاة ممسكاً بيسراك عصاً غليظة من غصن إحدى أشجار الغابة، وبيسراك مصفار پان ذى القصبات السبع المتفاوتة الأطوال.

ويحكي الرواة أنك بينما كنت شاردا فى دنيا غرامك هائما مع أنغام مصفارك غافلا عن بقراتك، انطلقت شاردة فى حقول پيلوس[٧٨] ولمحها الإله ميركوريوس بن مايا، واستطاع بدهائه الفطري أن ينحرف بها ويُخفيها فى الغابات دون أن يلمحه سوى شيخ كان سكان المناطق المجاورة يدعونه باتوس، وكان الثرىّ نيليوس قد عهد إليه بحراسة غاباته وقطعان خيله الأصيلة ومراعيها. وخشى ميركوريوس أن يكشف باتوس أمره فانتحى به جانباً وتودّد إليه

لوحة ٢٤ . پيكار : نيكتيمينيه تُمسَخ بومة،
ومصرع كورونيس على يد أپوللو.

مداهنا وهو يقول: لست أدري مَنْ تكون أيها الشيخ، لكني أنا شدك أن تُخفي أمر هذا القطيع إن سألك عنه سائل، ولست ناسياً لك جميلك، ولك أن تنتقي عجْلاً أملسَ مكافأة لك». وأعطاه العجل على الفور فأخذه باتوس وقال له مشيراً إلى أحد الأحجار: «امض أيها الغريب ولا تخشى شيئاً، غير أن هذا الحجر هو الذى سيسبقني إلى فضح جريمتك».

وتظاهر ابن چوپيتر بالمضى فى طريقه، ثم ما لبث أن عاد متخفّياً فى هيئة رجل آخر وسأل الحارس بصوت مختلف عن صوته: «أيها الرفيق الطيّب، إن كانت سوائمي قد مرّت أمامك فلتُقدّم لى يد العون، ولتكشف لى سر اختفائها الغامض بعد أن مضى بها أحد اللصوص. ولأكافئنّك على ذلك بإعطائك بقرة وثورها». وأغرت المكافأة المزدوجة الفلاح الشيخ فقال: «إنها هناك أسفل هذا الجبل»، ولقد كانت هناك حقاً، فإذا الضحك يُمسك بميركوريوس فقال للشيخ ساخرا: «أهكذا تشي بي إلى نفسي أيها المخادع!»، ثم حوّل هذا الذى نكث عهده إلى صخرة صلدة مازالت تسمّى حتى اليوم «الصخرة الواشية»[٧٩] ارتبطت بها ذكرى هذه الواقعة التى شاعت عن هذه الصخرة سيئة السُّمعة.

أجـــلاوروس

حلّق الإله ميركوريوس بجناحيه فى الآفاق حاملاً صولجانه وأخذ يتأمل حقول مونيتشيوس[٨٠] تلك البقعة التى تعشقها منيرڤا، وغيضات ليسيوم[٨١] موطن العلم، وتصادف أن كان ذلك يوم انعقاد مهرجان پاللاس الذى تقضي تقاليده بأن تحمل فيه العذارى الطاهرات فوق رؤوسهن سلالاً مكلّلة بالزهور زاخرة بهدايا پاللاس الطقسية لإيداعها معبد الربّة. وقد أبصرهن الإله المجنّح أثناء عودتهن إلى دورهن، فتلبّث عن متابعة رحلته وأخذ يدور حولهن محلّقا كالصقر الذي يسبق جميع الطيور حين يلمح أحشاء القربان الذبيح لتوّه، غير أن خشيته من أن يراه الكهنة المحيطين بالقربان يحمله على أن يدور فى الأجواء دون أن يقرّ قراره على الابتعاد، فيظلّ يدور نهماً يخفق بجناحيه حول الفريسة التى يشتهى الظفر بها. كذلك فعل الإله ميركوريوس الرشيق فوق قلعة أكتي الأثينية[٨٢] مهدّئاً من سرعة طيرانه محدّداً دورته فى الأجواء التى تعلو القلعة. وكما يفوق نجم الزهرة «لوسيفر» النجوم الأخرى

لوحة ٢٥ . پيكار : القنطور خيرون، وابنته أوكيروييه تتحوّل مُهرة.

بتألقه، وكما يبزّ القمر الذهبي نجم الزهرة بألقه، كان جمال هيرسي يطغى على عذارى الموكب جميعهن، وقد راقت مفاتنها ابن چوپيتر فتأجّج فؤاده بلوعة حبّها، وصار وهو فى الأجواء شبيهاً بقذيفة متهادية أطلقها مقلاع من مقاليع جُزُر البليار يبثّ انطلاقها الحرارة فيها وسط السّحب. وإذا الإله يغيّر طريقه هاجراً السماء فى سبيله إلى الأرض دون أن يتخذ هيئة أخرى غير هيئته فقد كان واثقاً من وسامته. ورغم ذلك فقد حرص على أن يضيف إلى وسامته لمسة جمال، فصفّف شعره وأصلح عباءته لتنسدل على قوامه فى أناقة تُبْرز الحوافي المطرّزة والزخارف المُقصّبة، مطمئنا إلى وجود صولجانه الأملس بيمناه يُلقي به النوم فى العيون[٨٣] أو يطرده عنها، كما عُنى بصقل نعْليه المجنّحين فوق قدميه الأنيقتين.

وكانت ثمة حجرات ثلاث داخل القصر مزدانة بالعاج والذّبْل[٨٤]؛ اليمنى حجرة
٧٤٠ پاندروسوس واليسرى حجرة أجلاوروس والوسطى حجرة هيرسي. وكانت ساكنة الغرفة
اليسرى هى أول من وقع بصرها على ميركوريوس، فتقدمت إليه فى جرأة وسألته عن اسمه
وعن القصد من زيارته، فأجابها قائلا: «أنا حفيد أطلس وپليونيه. أنا ابن چوپيتر حامل أوامر
أبيه عبر الأجواء. لن أحاول انتحال أعذار وهمية لمجيئي، لكنى أصارحك أنى جئتُ أنشدُ
أختك هيرسي ولأناشدك أن تُذْكي فى فؤادها حبي حتى تصبحي أنت خالة لذُرّيتي». وما
لبثت أجلاوروس أن حملقت فيه بنظرة جشع وفضول، وهي النظرة التى تطلّعت بها يوماً إلى
السلّة الخيزرانية لمنيرڤا الشقراء[٨٥]، ثم طالبته بقنطار من الذهب مقابل أدائها المهمة التى
يبغيها، ودفعته خارج بابها.

وسدّدت الإلهة المحاربة منيرڤا إلى أجلاوروس نظرة غاضبة، وزفرت زفرة انتفخ معها
صدرها فَعَلا بها التُّرس الذى كان يغطّيه، وتذكّرت كيف كشفت أجلاوروس الجاحدة سرّ
السلّة حين نكثت بوعدها وفتحت بيديها المدنّستين السلّة كاشفةً سرّ ابن إله ليمنوس[٨٦] الذى
لم تلده أم مخالفةً وصيّتها، كما ذهب تفكيرها إلى أن أجلاوروس سوف تظفر بعرفان الإله
٧٦٠ ميركوريوس وبعرفان هيرسي أختها الشقيقة، ثم بثروة ضخمة حين تتلقّى الذهب الذى دفعتها
شراهتها إلى المطالبة به. توجّهت الإلهة إلى دار ربّة «الحسد» المتوارية فى واد عميق حيث لا
شمس تتألق ولا ريح تهبّ، تلك الدار الحقيرة المعتمة الرطبة الكريهة الرائحة التى لا تشتعل
فيها نار مؤنسة، وتغشاها برودة يقشعر لها البدن، ويخيّم عليها الظلام الكثيف، حتى إذا

لوحة ٢٦ . پيكار : أپوللو يعزف على مصفاره
غافلا عن بقراته التي سرقها ميركوريوس .

بلغت الإلهة المحاربة الدار وقفت أمامها، إذ لم يكن لها أن تستظلّ بسقفها[٨٧]، وطرقت الباب بطرف رمحها فانفتح على مصراعيه وظهرت ربّة الحسد التى كانت مستغرقة فى التهام وجبة من لحم الأفاعي، وهو طعامها الوحيد الذي كان غذاء لروحها الشريرة. وأشاحت منيرڤا بوجهها عند رؤيتها، ونهضت ربّة الحسد على قدميها متراخية تاركة أشلاء الأفاعي وتقدمت بخطوات متثاقلة، فلم يكد بصرها يقع على الإلهة بسحر جمالها وبريق دروعها حتى زفرت زفرة عميقة وقطّبت جبينها. وكان وجهها شاحباً وجسدها مهزولاً، وثمة حَوَلٌ فى عينها يحرف نظرتها إلى الأشياء، وأسنانها مهشّمة حائلة اللون، تنفثُ من صدرها نُفاثة خضراء، ويقطر لسانُها سمّا زعافاً، لا ترتسم على شفتيها بسمة إلاّ حين تشهد آلام الغير، لم تذق فى حياتها طعم النوم المريح، فقلقها وهمومها تتركها ساهدة، وتزداد هُزالا كلما وقعت عيناها الزائغتان على أحد يزداد ثراء. كانت شقاءً على نفسها كما كانت شقاءً على غيرها، وكان ذلك سرّ عذابها المقيم.

ومع أن تريتونيا[٨٨] كانت تُبغض هذه الربّة المنفّرة فقد اتجهت إليها قائلة فى إيجاز: «إن ما أريده منك أن تنفثي سُمَّكِ فى صدر أجلاوروس إحدى بنات كيكروپس»، وضربت الأرض برمحها دون أن تضيف كلمة واحدة و حلّقت عالياً فى الأجواء تاركة الأرض صوب السماء. ونظرت ربّة الحسد إلى الإلهة شزراً وهى محلّقة حتى غابت عن ناظريها، وهمهمت متبرّمة بما سوف تحققه لمنيرڤا قَصْراً من عوْن ومساندة، وتناولت عصاها المحاطة بالشوك وتسربلت بالغيوم المعتمة وانطلقت، فإذا الحقول التى مرّت بها قد غابت نضرتها، وإذا الأعشاب تصبح هشيماً، وإذا الأشجار قد يبست أوراقها، وإذا البشر تعسٌ بتعاستها، وإذا مدنهم ودورهم خراب، إلى أن انتهى بها المطاف إلى القلعة الأثينية حيث المواهب والثروات والأمن وحيث القلوب فرحة مطمئنة. وكانت تكبح دموع الحقد والحسد بصعوبة إزاء ما رأته من سعادة وعزّ ورخاء فى مدينة ليس بها من المآسي والأحزان ما يكفى لأن يبعث الدموع فى مآقي سكّانها.

وحين دخلت على ابنة كيكروپس حجرتها لتقوم بأداء مهمتها لمست صدر الفتاة بيدها الصدئة[٨٩]، وملأت قلبها بالأشواك الواخزة ونفثت سمّا زعافاً فى أنفاسها ما لبث أن سرَى فى عظامها ورئتيها، وصوّرت لها ـ كى تثير شقاءها ـ أختها سعيدة بزواجها من الإله الذى أضفت عليه شتّى سمات الوسامة والجمال حتى تثير غيرتها. وأحسّت ابنة كيكروپس غيرة

لوحة ٢٧ . پيكار : الإله ميركوريوس يحلّق
بجناحيه فوق العذارى حاملات سلاّت
الزهور أمام معبد الربة پالاس، وإذ يقع
بصره على العذراء هيرسي يهيم بها

خفيّة تنهش قلبها، وإذا هي تعاني العذاب ولا ينقطع زفيرها آناء الليل وأطراف النهار، وما لبثت تعاستها أن أصابتها بالذبول فأخذت تذوب كما تذوب الثلوج تحت وهج الشمس المختفية وراء الغيم، فلقد كانت سعادة هيرسي تفعل بأجلاوروس فعل الجذوة أو النار الدفينة دون أن يظهر لها بريق. وكم تمنّت الموت حتى لا تشهد عيناها سعادة أختها، وخطر لها أن تشي بسرّ أختها لأبيها الصارم وكأنه جريمة تستحق العقاب، ثم ما لبثت أن افترشت عتبة أختها لتحُول بين الإله وبين الدخول. ومضى الإله يتملّقها بعبارات مترعة بالرجاء والإطراء، لكنها لم تُلق بالا لقوله وصاحت به: «كفى، فلن أترك مكاني حتى أفسد عليك خطّتك». وأجابها الإله قائلاً: «ليكن ما تشاءين»، ثم لمس الباب بعصاه السحرية لمسة فانفتح له.

وحاولت أجلاوروس النهوض فإذا هي تجد أطرافها قد خُدّرت وثَقُلت فلم تستطع النهوض من جلستها. وعبثاً جاهدت كي تقف لكن رُكْبتيها كانتا خامدتين، وسرت في جسدها برودة شملت أطراف أناملها وجَمُد الدم في عروقها فشحب لونها. وتسلّلت برودة الموت إلى جسدها شيئاً فشيئاً، فهمدت أنفاسها ولم تعد تستطيع الكلام، وتحوّلت إلى تمثال من حجر فَقَد بياضه الناصع وغشّاه سوادٌ كالح أضفته عليه روحها الخبيثة.

أوروبــــا

وبعد أن أنزل حفيد أطلس العقاب بأجلاوروس على ما كان منها رحل عن البلاد التي اشتقّت اسمها من اسم پاللاس، وحلّق عالياً في السماء يضرب بجناحيه في الهواء. وناداه أبوه إلى جواره دون أن يفصح له عما يكنّه له من محبة، وقال له: «انطلق يا ولدي ورسولي الأمين هابطاً إلى الأرض بما تستطيع من إسراع، واقصد المدينة التي إلى يسارنا التي ترفع أبصارها إلى نجم أمّك[٩٠] والتي يُطلق عليها سكانها اسم «صيدا»، ولسوف تلقى قطيعاً من ماشية الملك يرعَى عُشب الجبل على مرمى البصر، فسُقْ هذا القطيع الملكي حتى تبلغ به شاطئ البحر». وما إن فرغ الإله من حديثه حتى كانت الثيران قد أبعدت عن الجبل وسيقت كما أمر صوب الشاطىء، حيث كانت ابنة الملك المشهور قد اعتادت أن تمرح مع رفيقاتها عذارى مدينة «صور».

المُلْك والحُب لا يجتمعان ويستحيل أن يشارك أحدُهما الآخر. من أجل هذا تخلّى أبو الآلهة وحاكمها عن وقار صولجانه، وهو حامل الصاعقة ذات ألسنة النيران الثلاثة، وهو مَنْ

لوحة ٢٨ پيكار : الربة منيرڤا تتوجّه إلى دار ربّة الحسد.

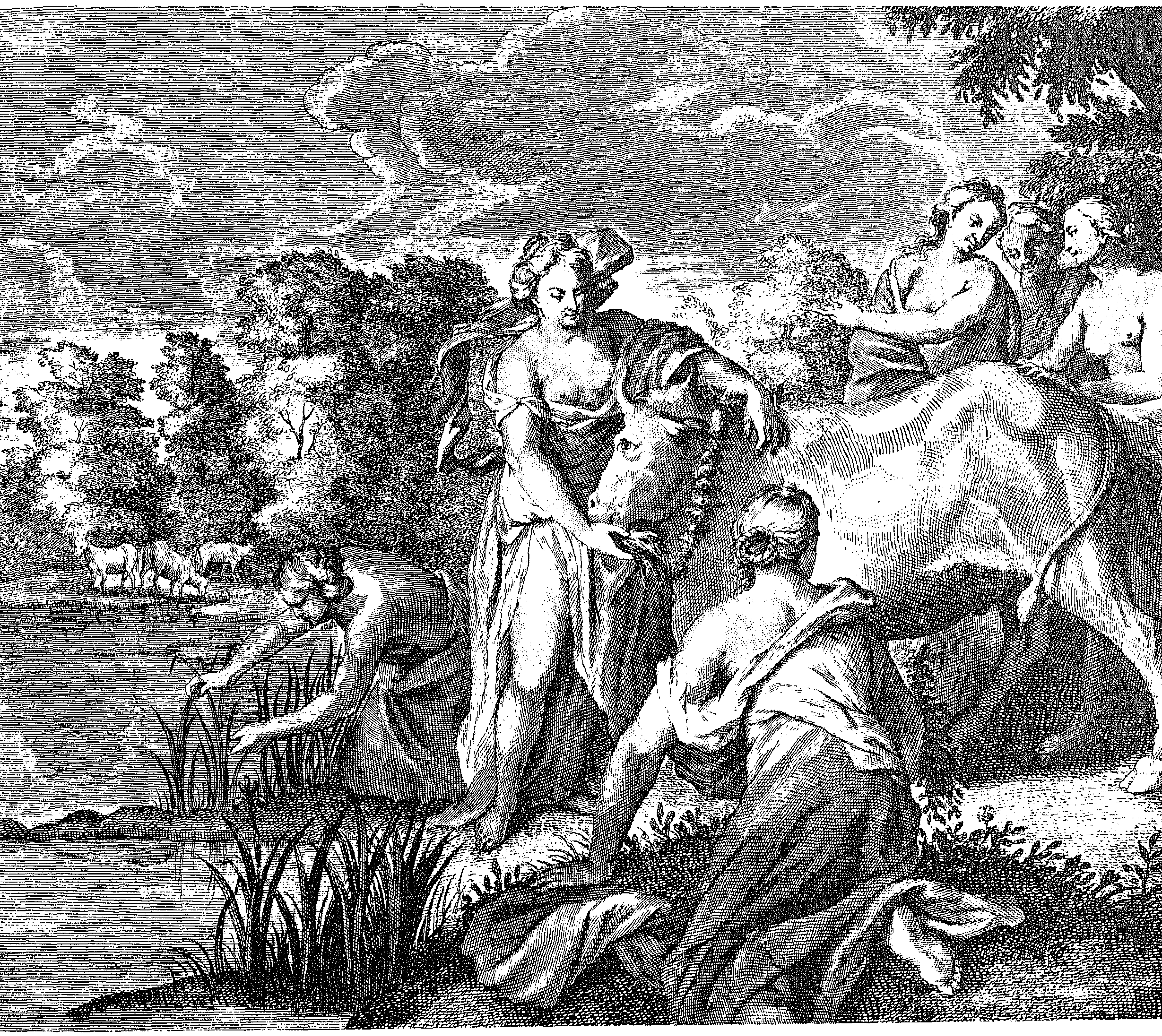

لوحـة ٢٩ . پيكار : أوروپا تحـيط عنق الثـور
«چوپيتر» بإكليل الزهور.

لوحة ٣٠. پيكار : أوروپا تعتلي ظهر الثور «چوپيتر».

يهتزّ الكون كله بإيماءة من رأسه، فتخفّى فى صورة ثور واختلط بالثيران وشاركها خوارها ورعى معها من الكلأ الغضّ. وكان لون جلده أبيض بياض ثلج لم تطأه قدم ولم تمسسه نفثات ريح الجنوب الرطبة، وعنقه منتفخ الأوداج، وقرناه وإن كانا صغيرين إلا أنهما بديعان يتألقان تألق دُرّتين حتى تكاد أن تَجزْمُ بأنهما من صُنع فنان، لا تلوح الرهبة على طلعته، ولا تحرّك نظرات عينيه الخوف، بل تشيع فى وجهه الوداعة. وسرعان ما أعجبت إبنة أجينور بوسامته ووداعته، وكانت قد توجّست خيفة فى مبدأ الأمر من الاقتراب منه ولمسه رغم لُطفه، ثم ما لبثت أن اقتربت منه، وقطفت زهوراً بيضاً قرّبتها من فمه مما بعث السرور فى قلب عاشقها الذى كان يتوق إلى الظفر بالمتعة التى يهفو إليها، فاكتفى بتقبيل أناملها كاتماً فى نفسه ما يطمح إليه من نيل رغبته التى يتطلّع إليها، ومضى يلهو فوق الخضرة تارة، متقلّبا على الرمال الذهبية بجسده الناصع البياض تارة أخرى، فاطمأنت إليه الأميرة شيئاً فشيئاً، وأخذ يقدّم لها صدره مرة لتربتَ عليه بكفّيها البريئتين، وقرنيه مرة أخرى لتكلّلهما بالزهور النضرة، وغامرت الأميرة فاعتلت ظهره دون أن تدري ظهرَ مَنْ تعلو، فإذا الإله يبتعدُ بها عن الشاطىء شيئاً فشيئاً حتى بلغ المياه بحوافره التى كانت بعض مظاهر تنكّره، ثم خاض بمعشوقته البحر مُوغلاً فوق لُجَجه. وهنا تملّك الفتاة الفزعُ، فقبضت بيمناها على أحد القرنين بينما تشبّثت يُسراها بعَجُز الثور، تاركةً ثوبها للريح تعبث به كما تشاء.

الكتاب الثالث

الكتابُ الثّالثُ

كـادمـوس

افترش چوپيتر العُشْب فى أحضان مروج كريت كى يستريح بعد أن خرج إلى صورته الحقّة التى تنكّر بها ليخدع الأميرة أوروپا. ولم يكن الملك أجينور قد عرف شيئاً عمّا وقع لابنته، فعهد إلى ابنه كادموس بالبحث عن أخته المفقودة متوعّداً إياه بالنفى إن عاد دونها. وبهذا كشف عن أنه إلى جانب كونه أبا يفيض قلبه حناناً فهو أيضاً أبٌ صارم لا يرحم. وراح كادموس يضرب فى أرجاء الأرض دون جدوى، فأنّى له الوقوف على أسرار چوپيتر الغرامية؟ رحل بعيداً عن بلاده خوفاً من بطش أبيه، ثم عرج على معبد الهاتف الإلهي لأپوللو ليحجّ متضرّعا إلى الإله كى يرشده إلى مكان يقرُّ فيه، فأوحى إليه فويبوس قائلاً: عليك بالمراعي النائية، ولسوف تقع عيناك على بقرة لم يُشدّ إلى عنقها نير ولم تَضقْ بجرّ محراث معقوف، فأمض إثرها واتبعها حيث تسير، وحيثما تقف شيِّد أسوار مدينتك وسمِّها بويوتيا[1].

وما كاد كادموس يبتعد عن غار كاستاليا[2] حتى رأى بقرة تتهادى بلا حارس وليس على عنقها أثرٌ لنير، فتبعها ومضى إثرها بخُطى متّصلة وهو يتمتم بحَمْد فويبوس الذى هداه إلى السبيل السّوىّ. وبعد أن عبر مخاضة سيفيسوس وحقول پانوپي، توقّفت البقرة ورفعت

جبينها الوضّاء المزدان بقرنين طويلين نحو السماء وأرسلت خواراً تردَّد صداه، وتلفّتت وراءها ترى مَنْ يتبعها ثم خرّت على ركبتيها مستلقيةً على العُشب الناعم، فاتجه كادموس إلى الآلهة شاكراً وانحنى يقبّل أرض الغُرْبة، وحيّا الحقول والجبال التى لم يكن له عهدٌ بها من قبل، وتأهّب لتقديم القربان لجوپيتر، وأمر أتباعه بالذهاب إلى ينبوع دافق ليغترفوا منه ماء يسكبه قرباناً للأرباب.

كانت ثمة غابة قديمة لم تمسسها بلطةٌ يتوسّطها كهفٌ تكسوه صفصافة كثيفة، وتُشكّلُ جدرانه الصخرية قبوا منخفضاً يتدفّق من تحته ينبوع ثرّ. وكان يقيم فى الكهف أفعوان مارس الداكن الزُّرقة، يعلو رأسه عُرْف ذهبىّ، وتتوهّج عيناه لهباً، ويزخر جسده بالسمّ الزعاف، وتتراص فى فمه ثلاثة صفوف من الأسنان ولسان ذو شُعب ثلاث.

دلف رفاق كادموس الوافدون من بلدة صور إلى الكهف المشؤوم وانبروا يغترفون الماء بجرارهم، وهو ما أثار استياء الأفعوان الذى نفض رأسه من غور الكهف، وفحّ فحيحاً مُرعبا جعل الدم يجمد فى أطراف الرجال فسقطت الجرار من أيديهم المرتجفة من هول الهلع، وأخذ الثعبان يزحف نحوهم تتضام فى زحفه حلقات جسده الحرشفىّ ثم تنفرج على هيئة الأقواس وكأنها أطواء الموج، وانتصب قائماً على ذنبه فإذا هو قد أظلّ على الغابة كلها، إذ كان جسده بطول كوكبة الثعبان الممتدة بين كوكبتىْ الدبّين الأكبر والأصغر. وسارع بالانقضاض على الفينيقيين الذين كانوا قد اختلط الأمر عليهم فلم يعرفوا بأيتهما يأخذون، أيسدّدون حرابهم أم يهربون؟ وانطوى الأفعوان على نفسه ثم انقضّ عليهم فصرعهم جميعا وتركهم بين ممزَّق بأنيابه أو مُعتصَر بتلافيفه أو محترقٍ بأنفاسه المسمومة.

وحين توسّطت الشمس كبد السماء وقاربت ظلال الأشياء الزوال أخذ ابن أجينور يتساءل قلقاً عما عوّق رفاقه عن الإياب، وانطلق باحثا عنهم مرتديا جلد أسد حاملاً رمحه وحربته لامعة النصل الحديدي متقدماً فى شجاعة لا يعوزها سلاح. فلما دخل الغابة لمح جثث أتباعه والعدو الرهيب يشمخ مزهواً بانتصاره عليهم تنسكب من شُعب لسانه قطرات الدم وهو يلعق جراحهم، فصاح كادموس: «لأنتقمن لموتكم أيها الأصدقاء الأوفياء أو لألحقنّ بكم». ومال

لوحة ٣١. پيكار: كادموس يقضي على الأفعوان.

٦٠ على حجر هائل طوّح به بيمناه فى قوة لو أنه ضرب به سور حصن شامخ لزعزع أركانه، لكنه لم يُصبْ الأفعوان الصّلد الجسد السميك الجلد، إذ كانت حراشفه دروعاً تَقيه، وارتد الحجر بعيداً بعد أن صدّه جلده الأسود، فسدّد كادموس إليه رمحه فإذا هو يخترق الجلد وينفذ إلى الأحشاء عند منتصف الظهر، واستدار الثعبان وهو يئن تألما، ثم إذا هو بعد جهد جهيد يقوَى على انتزاع حربة الرمح غير أنه لم يقو على استخراج عُوده المستقر فى عظمه، وانتفخت عروق
٨٠ الثعبان بالسم الذى طفح على فكّيه بزَبَده الأبيض، وأخذت الأرضُ تردّد صدى صوت احتكاك حراشفه بها، بينا ينفث من جوف الكهف العطن أنفاسه النّتنة، وتارة يتحوّى فى حلقات حلزونية واسعة، وتارة أخرى ينتصب قائما مثل شجرة سامقة، وحينا ينطلق مندفعا مثل نهر ثائر مُطيحاً بصدره الأشجار التى تعترض طريقه. وتراجع كادموس قليلاً إلى الوراء متلافياً هجمات الثعبان محتميا بجلد الأسد الذى يرتديه طاعناً رأس الثعبان بحربته التى أخذ الثعبان يعضّها عضّات لا تنفذ فيها، وما لبث الدم أن سال من فمه مختلطاً بالسم ملوّثاً العشب الأخضر. وأثخن الجرح الثعبان فتراجع حتى لا تنفذ الحربة إلى أعماق حلقه، غير أن كادموس انطلق يلاحقه يريد أن يلقمه حربته حتى اصطدم الثعبان بجذع شجرة بلوط عاقت فراره، فأنفذ كادموس الحربة فى حلقه مثبّتا رأس الثعبان فى جذع الشجرة التى انحنت تحت ثقله وصدر عنها صوت كالأنين تحت ضربات الثعبان لها بذيله التى كانت تشبه ضربات السياط[٣].

وبينما كان كادموس يرنو إلى خصمه الضخم المهزوم إذا هو يسمع صوتاً لا يعرف مصدره يناديه قائلا: مَالَكَ تُحملق فى الثعبان الذى أرديتَه، لسوف يأتي يوم يتطلّع الناس فيه إليك
١٠٠ أيضاً وقد تحوّلتَ ثعبانا»[٤]. عندها سَرَى الفزع فى جسده وهرب الدم من وجهه وارتعدت أطرافه وإذا هو يفقد وعيه. وما لبثت پالاس راعية البطل كادموس أن ظهرت أمامه، وطلبت إليه أن يحرث الأرض ويدفن بها أنياب الثعبان لتغدو بذور شعبه الجديد. وأطاع كادموس أمرها وشقّ بمحراثه أخاديد عميقة بَذَرَ فيها أنياب الثعبان. ووقع ما لم يكن فى الحسبان إذ أخذ سطح الأرض يضطرب، وبرزت البذور فى شكل أسِنَّة رماح تعلو وسط الأخاديد، وظهرت خوذات يتأرجح من فوقها ريشها المختلف الألوان، وتبعتها الأكتاف والصدور والأذرع حاملة الحراب، وامتلأ الحقل بنَبْت من الجنود المدجّجين بالسلاح المتسربلين بالتروس. وفزع كادموس حين رأى هذا الجمّ المهول من الأعداء الجدد وشهر سلاحه تأهّباً للقتال، فصاح به

أحد المحاربين الذين أنبتتهم الأرض قائلاً: «لا حاجة بك إلى أن تُشهر سلاحك . . ولا تُقحم نفسك فى هذا الصراع القَبَلي» ، وسرعان ما أغمد هذا المتحدّث سيفه في جسد واحد من رفاقه النابتين معه وكان قريباً منه ، وما لبث أن سقط هو الآخر صريع رمح أصماه من بعيد ، ولم يعش قاتله طويلاً إذ أسلمَ بدوره الروح التى لم يكن قد مضى على نبضها فى جسده لحظات ، وظل الجيش يصرع بعضه بعضا حتى أفنى الصراع جميع الرفاق الذين لم يمتد عمرهم أكثر من لحظات قصار ، ولم يبق منهم سوى خمسة أفراد ، بينما ظلت جثث القتلى تنتفض فوق صدر أمهم الأرض التى أدفأتها دماؤهم الساخنة . وكانت پالاس قد طلبت إلى «إخيون»[٥] أحد الخمسة الباقين أن يُلقي سلاحه فاستجاب لها واعداً إياها أن يكفّ عن القتال ، وطلب إلى رفاقه الأربعة أن يحذوا حذوه . وفى صحبة هؤلاء الرفاق الخمسة الباقين بدأ كادموس الوافد من فينيقيا يشيّد مدينته التى أوصاه الوحى بمعبد فويبوس بإقامتها[٦] .

واستوطن كادموس مدينة «طيبه» بعد تشييدها وخُيّل إليه أنه قد ظفر بالسعادة فى منفاه ، فقد بَنى بالنبيلة هارمونيا ابنة الإله مارس والإلهة ڤينوس ، ورُزق منها أبناء وبنات ، أنجبوا له أحفاداً غَوالىَ أرسوا تقاليد الأسرة وعزّزوا روابط التآخي بين أفرادها ، وعاش حتى رأى أحفاده وقد شبّوا عن الطّوق وصاروا رجالاً . لكن على المرء أن يتلبّث حتى آخر يوم من حياة أى إنسان فلا يحكم عليه بسعادة أو شقاء ، إلاّ بعد أن يُوارَى التراب .

أكتايون

كان أحد أحفادك يا كادموس هو مبعثَ أول نكبة عانيتَ منها وسط السعادة التى رفلت فى حُللها ، فلقد نبت له قرنان فى جبهته على غير مألوف الصورة الآدمية . أما أنتم أيها الكلاب فقد كنتم مصدر تعاسته حين ولغتم فى دم مولاكم . ولو أننا أنعمنا النظر فيما حدث لوجدنا أنه قد لقى حتفه ضحية تصاريف القدر ، لا جزاء جريمة اقترفها ، وهل ثمة خطأ اقترفه حين ضلّ طريقه فتكون ثمة جريمة؟ وقع ذلك الحادث المشؤوم فوق جبل تخضّب سفحه بدماء مختلف الحيوانات الضّارية المتنوّعة ، وفى ساعة كانت ظلال الأشياء فيها قد انحسرت وتوسّطت الشمس مدارها بين مشرقها ومغربها ، حين صاح أكتايون ابن شعب هياس[٧] برفاقه الهائمين

على وجوههم فى الأدغال فى رفق ولين: «أيها الأصدقاء، لقد لوّثت دماء الوحوش التى اقتنصناها اليوم شباكنا ولطّخت سيوفنا، وأصبنا من النجاح ما يكفينا، ولسوف نواصل قنصنا غدا حين تعتلي أورورا ربّة الفجر مركبتها الذهبية العجلات وتطالعنا بيوم جديد. فلنكفّ عن الصيد ولنجمع شباكنا الموثّقة العُقَد، فلقد توسّطت الشمس كبد السماء وأخذت حرارتها تشقّق تُربة الحقول»، ورحّب صحابه بقوله فلم يُتابعوا صيدهم المُضْني.

وكان ثمة واد يُدعى جارجافييه تتزاحم فيه أشجار الصنوبر والسرْو المدبّبة تأوي إليه ديانا إلهة الصيد ذات الرداء القصير، إذ كان فى أعماقه كهف لم تتناوله يدُ فنان بشري غير أن الطبيعة قد خلّفت فيه ما يُشبه الأعمال الفنية، إذ نحتت به قبوة طبيعية من حجر الخفاف البركاني وحجر التوفة المسامي. وكان إلى يمين الداخل ينبوع مياه صافية تنساب فى صورة غدير فسيح تحتضنه ضفاف سندسية. وما أكثر ما كانت الإلهة تَفدُ إليه كلما نالها الإرهاق بعد جولة صيد فى الغابات فتستحم فيه أو تبلّل أطرافها العُذرية فى مياهه الصافية.

أوت الإلهة إلى الكهف وأسلمت رمحها وقوسها وكنانة سهامها للحورية المكلّفة بحمل سلاحها. وتناولت حورية ثانية رداء الإلهة وأسدلته على ذراعها، بينما خلعت اثنتان أخريان نعلها، وتقدّمت وصيفة أشدّ مهارة هى كروكالي ابنة نهر إيزمينوس فضمّت ضفيرتىْ الإلهة المتدلّيتين على كتفيها وعقدتهما معاً خلف رأسها على حين تركت شعرها هى ينسدل مُرْسَلاً، وانطلقت الحوريات نيفيلي وهيالي ورانيس وپسيكاس وفيالي يجلبن الماء فى جرار كبيرة فوق جسد مولاتهن(٨).

وبينما كانت ديانا تستحم على عادتها فى الغدير كان حفيد كادموس قد فرغ من الصَّيد وانطلق متجوّلاً بخطوات غير واثقة خلال الغابة التى لم يسبق له رؤيتها حتى بلغ الكهف وقاده القدر إلى مدخله فنفذ منه. ولم يكد يصيبه رذاذ الماء المتطاير ويشهد الأجساد العارية حتى ضربت الحوريات على صدورهن مالئات الكهف بصراخهن، وتحلّقن حول ديانا ليحمينها بأجسادهن، غير أن طولها الفارع جعلها تشرئب فوقهن جميعاً برأسها. وحين تبيّنت ديانا أن عين رجل غريب وقعت عليها وهى عارية اكتست وجنتاها بحُمرة السُّحب التى تنعكس عليها أشعة الشمس الساقطة عليها أو بحُمرة الفجر ساعة يصطبغ بالأرجوان. ومع أن رفيقاتها المحيطات بها كن يسترنها إلاّ أنها انزوت جانباً مُشيحة بوجهها، وتمنّت لحظتها لو كانت ممسكة

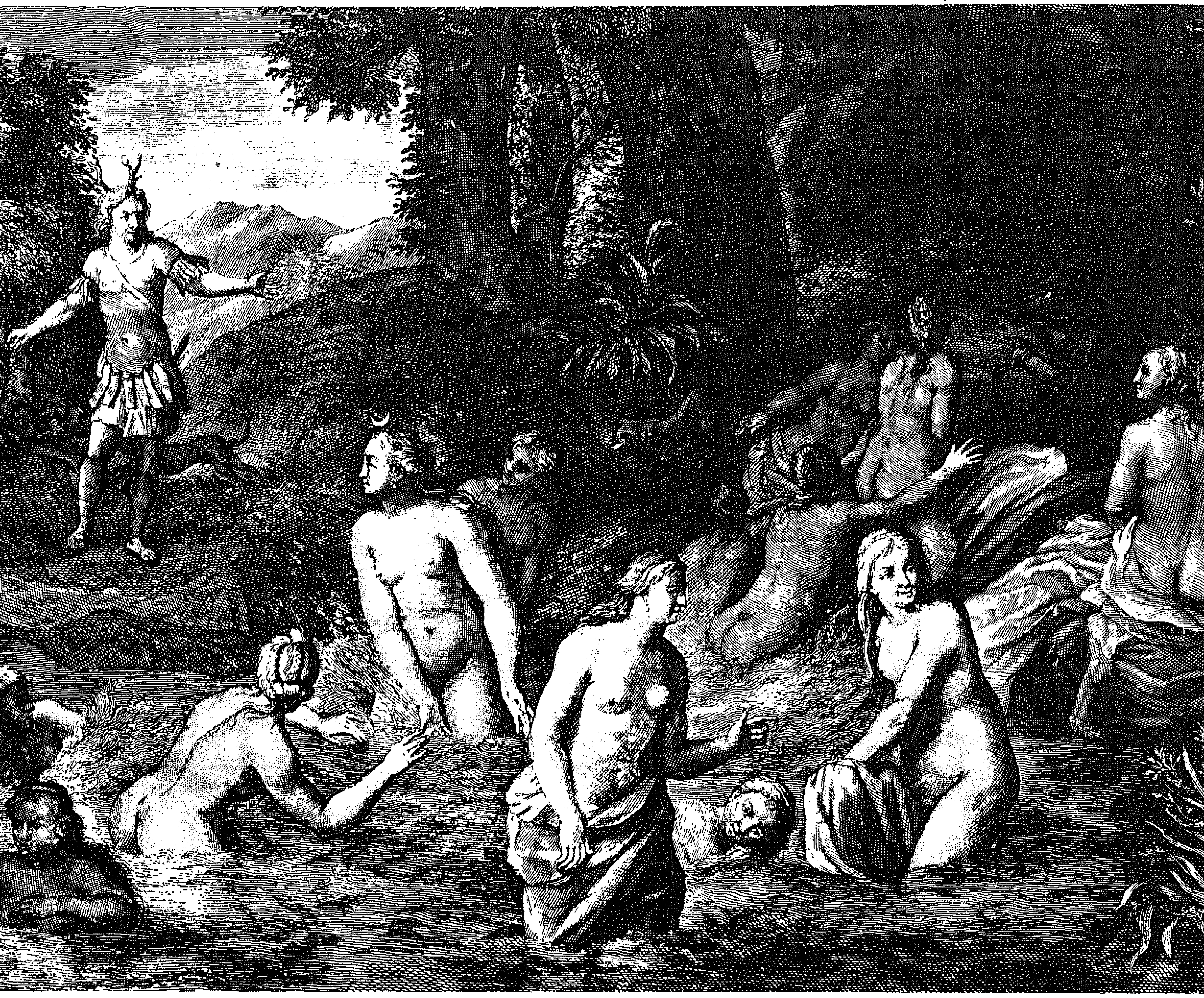

لوحة ٣٢. پيكار: الإلهة ديانا تستحم بصحبة حورياتها.

بسهامها، ثم تناولت قليلاً من الماء الذى تستحم به ونثرته فى وجه الشاب فغمر شعره، ومضت تتمتم منذرة إياه بمصيره المشؤوم قائلة: «امض الآن إن استطعت لتزعم أنك شاهدتني عارية؟» ولم تنبس بعد ذلك بكلمة، فإذا قرنا وَعْل معمَّر ينبتان في جبهته وذراعاه يتحولان إلى ساقين طويلين، وجسده يكتسي بجلد أرقش، وعنقه يطول، وأطراف أذنيه تدقّ، فحلّ الرعب في قلبه. وحين رأى صفحة الماء تعكس صورة وجهه بقرنيه كاد أن يأسَى، غير أن شفتيه لم تتحركا بكلمة فراح يتوجّع، وكان التوجّع هو لغته الوحيدة التي بقيت له. وانهمرت الدموع من عينيه مبلّلة خدّيه الممسوخين، ولم يبق له غير عقله ليُمعن به التفكير فى الخروج من مأزقه. ماذا تراه سيفعل بعدُ؟ أيعود إلى قصره الملكي أم يلجأ إلى الغابات مختبئاً؟ وبينما هو حائر فيما ينبغي أن يأخذ به، يحيط به الخجل من العودة إلى القصر بهيئته تلك الزّريّة وينتابه الخوف من البقاء وحيدا فى الغابات، إذا كلباه ميلامپوس وإخنوباتيس المتميّزيْن بقوة شمّهما يحيطانه بنباحهما، وأولهما من سلالة اسپرطية وثانيهما من سلالة كريتية، وجرت إثرهما فى سرعة الريح العاصفة سلالات مختلفة من الكلاب، منها سلالة پامفاجوس ودوركيوس وأوريباسوس الأركادية، ومنها نيبروفونوس الشديد القوة وثيرون الوحشّى ولا يلاپس الشّرس وپترلاس السريع العدْو، وأجرِى القوىّ الشّم، وهيلايوس الذى أصابه خنزير برّي بجرح، وناپي الذئبيّ السّلالة، وپويمينيس حارسة القطعان وكذا الكلبة هارپيا وجرواها الصغيران، ولادون الهزيل الوافد من سيكيون ودروماس وكاناسيه وستيكتي وتيجريس وألكي، وليوكون الناصع البياض وأسبولوس الحالك السواد، ولاكون الخارق القوة وأييلو الذي لا يكلّ من العَدْو ولا يَملّ، وثويس وليكيسكي السريعة العَدْو وشقيقها القبرصي هارپالوس ذو الغرّة البيضاء، وميلانيوس ولاخني الكثيفة الشعر، ولبروس وأجريودوس وهما كلبان من سلالة مهجّنة من أم كريتية وأب اسپرطي، وهيلاكتور العالي النباح وكلاب أخرى يطول ذكر أسمائها[٩]، واشتعلت الكلاب حماسة لوقوعها على فريسة دسمة، فخاضت الرُّبى والصخور التي يشقّ بلوغها ولم يصلها مخلوق قبلُ. وأسرع أكتايون هارباً من الكلاب التي تطارده مندفعاً فى الأماكن عينها التي كان يتعقّب فيها صيده. ألا ما أتعسه. . . لقد أمسى يَهْرُب من كلابه، وتمنّى لو مَلَك أن يصرخ فيها: «أنا أكتايون، ألا تعرفونني؟» غير أن الكلمات لم تُسعفه. ازدحم الجو نباحاً وأدركت ميلانخيتيس سيّدها وكانت أول من

لوحة ٣٣. پيكار: أكتايون بعد أن مُسخ وعلا
يحاول تعريف كلابه بنفسه.

أعملت أسنانها فى ظهره، ثم تبعتها ثيريداماس، وأنشب أوريزيتروفوس أنيابه فى كتف سيّده. ومع أن الكلاب الثلاثة كانت قد انطلقت متخلّفة عن رفاقها إلا أنها سبقتها لولُوجها طريقاً قصيراً، وطرحت صاحبها أرضا بينما تجمّعت بقية الكلاب حوله وهصرت بأسنانها جسده فلم يتركوه إلاّ منهوشا. وأخذ أكتايون ينتحب بصوت لا هو صوت بشر ولا هو صوت وعل وقد غمر نشيجه أرجاء الجبال، وجثا على ركبتيه كما لو كان يركع متوسّلاً، ومضى يُحني رأسه يمنةً ويَسرة فى صمت ضارع عاجزاً عن بسط ذراعيه، بينما أخذ مَنْ كان فى صحبته من رفاقه يصيحون فى الكلاب يستحثّونها على الفتك بفريستهم جاهلين حقيقتها، يصيحون باسمه باحثين عنه وهم لا يدرون أنه بينهم، وكلٌ منهم يباري رفاقه فى الصّياح. وغمرهم الحزن والأسى لأن قائدهم لم يشهد فريستهم السائغة المستطابة التى أوقعها الحظ بين أيديهم! وكان أكتايون يدير رأسه كلما سمع أحدهم يهتف باسمه ويودّ لو لم يحلّ به ما وقع له فيغدو فريسة أنياب كلابه النهمة، بل وكم تمنّى لو كان كغيره من المستمتعين برؤية ذلك المشهد، وقيل إن الكلاب ظلت محيطة به تنهشه بأنيابها حتى خمدت حياته، وعندها سكن غضب الربّة ديانا حاملة كنانة السهام[١٠].

سِيميلِيه

وحين بلغت القصة أسماع الناس اختلفوا بين ممتدح طهارة ديانا وحفاظها على عفّتها وبين آخذ عليها قسوة عقابها لكاليستو وأكتايون، وكان لكل فريق من المتحاجّين ما يسانده. قرينة چوپيتر وحدها التزمت الصمت ممسكة عن المدح أو القدح، غير أنها كانت فى أعماقها سعيدة بهذه الكارثة التى حلت بآل أجينور، إذ كانت تطوي صدرها على حقد دفين لأسرة أوروپا منافستها الفينيقية من مدينة «صور». ثم ها هى ذى چونو تواجه حدثاً جديداً يضيف مزيداً إلى غُصّتِها السابقة، فقد ثارت ثائرتها حين علمت أن سِيميليه ابنة كادموس قد حملت ببذرة چوپيتر العظيم، فأخذت تحدّث نفسها قائلة: «أيةُ فائدةٍ جنيتُها من تأنيب زوجي المرّة تلو المرّة؟

لقد بات حتما عليّ أن أُنزل عقابي هذه المرة بالفتاة نفسها، أوَلستُ أنا چونو الشديدة البأس كما أُعْرف بحق، أنا حاملة الصولجان المرصّع بالجواهر عن جدارة؟ أوَلستُ ملكة السَموات وأخت چوپيتر وزوجته؟ بلى، إنني فى الحق أخته، لكن، علّ البعض يلتمس العذر لغريمتي لأنها قنعت بلقاءات عشق فى الخفاء، وأنها لم تعتد على حُرمة فراشي إلاّ فى نزوة عابرة. فهل كان ينقصنا هذا العار الجديد؟ إنها تحمل فى أحشائها دليل زلّتها، وتطمع فى أن تصبح أُمّا بفعل چوپيتر نفسه، وهو ما عجزتُ أنا عن الظفر به. ألاَ ما أشدّ ثقتها بجمالها! ولَعَمْري لأُثبتنّ لها ضلال ثقتها، ولن أكون جديرة بأن أُسَمىَ ابنة ساتورن إن لم أجعلها تغوص فى مياه نهر ستيكس مدفوعة بيد چوپيتر نفسه». ثم نهضت عن عرشها وتلفّعت بسحابة ذهبية واقتربت من عتبة دار سيميليه، ولم تكد تُزيح السحابة بعيدا عنها حتى كانت قد تخفّت فى صورة عجوز شمطاء يتجلّى الشعر الأبيض فى فَوْديها وتملأ التجاعيد بَشَرَتها وقد احدودب ظهرها واهتزّت خُطاها وارتعش صوتها بفعل الشيخوخة، وبدت فى صورة شديدة الشَّبه بصورة بيروىْ الإپيداورية مُرضعة سيميليه. وما كادت تلقَى سيميليه حتى انخرطت معها فى حديث طويل عرجت فى نهايته على چوپيتر، ثم زفرت زفرة عميقة بينما تقول: «كم أتمنّى أن يكون چوپيتر حقاً هو الذى منحك هذا الجنين. إن شكّا كبيراً يؤرّقني، فكم من رجل تسلّل إلى فراش فتاة بريئة منتحلاً شخصية الإله، وأيا يكن فإن ادعاءه بأنه چوپيتر لا يكفي ولا مناص من أن يقدّم الدليل على حبه. لهذا أنصحك أن تطلبي إليه أن يبدو لك فى صورته مجلّلا بهالة عظمته ومجده التى يظهر بها لچونو فى السماء، ودعيه يضمّك إلى صدره بعد أن يتلفّع بعباءة الألوهية».

نجحت چونو بحديثها فى استثارة ابنة كادموس التى لم تشكّ فى سلامة ما أشارت به عليها مرضعتها المزعومة. وحين جاءها چوپيتر سألته أن يعدها بتحقيق مطلب لم تكشف عنه، فوعدها الإله قائلاً: «سَلي فلن أردّ لك مطلباً حتى أُثبت لك أن بوسعك الثقة بي، وأُشْهد على ذلك أرباب نهر ستيكس المضطرب الذى تهابه الآلهة أنفسهم». وغمرت الفرحة صدرَ سيميليه لظفرها بوعد لا تدري أن تحقيقه سيقودها إلى حتفها وقالت: «فلْتَبْد لي مثلما تبدو لچونو ساعة تطارحها الغرام»، وحاول الإله إمساك شفتيْها عن الكلام، غير أن عبارتها العَجلة كانت قد طفرت من فمها وانتشرت فى الهواء، فأشفق عليها چوپيتر بعد فوات الأوان الذي كان

يستطيع فيه ردّها عن مطلبها فلا يحقّق لها ما وعدها به، وصعد فى أجواء الفضاء مُثْقَلا بالحزن العميق، وأومأ للضباب فتجمّعت عليه السّحب والبروق والرياح والرعود والصواعق التى لا يفلت منها أحد، على أنه حرص على التّزوّد بأقلّ قدر ممكن من جبروت قواه متخفّفا من حمل النيران التى أهلكت تيفويوس ذا المائة ذراع(١١)، مستبدلاً بها صاعقة أقل ضراوة من تلك الصواعق التى لا تُبقي ولا تذر، فقد كانت فى حوزته صاعقة استطاعت أيدي الكيكلوپيس أن تمنحه قدراً أدنَى من غضب الآلهة وقسوتهم، وصنّفها الآلهة من بين صواعق المرتبة الثانية. ودخل چوپيتر بهذه الصاعقة دار أسرة أجينور، إلا أن جسد سيميليه البشري لم يقو على تحمّل الإشعاعات المنبعثة من صاعقة الإله فاحترق وترمّدَ بفعل هدية عُرسها. وأسرع الإله فانتزع الجنين الذى لم يكن قد اكتمل نموّه من رحم أمه. وإذا كان لنا أن نصدّق ما يتناقله الرواة فإن أباه قد خاطه فى فخذه وهو مايزال مُضْغة حيث ظل ما تبقّى من شهور الحمل، ثم حضنته خالته إينو(١٢) إلى أن عهدت به إلى حوريات نيسا(١٣) اللاتي خبّأنه فى غارهن واضطلعن بتغذيته بالألبان.

تيريزياس

وبينما كانت هذه الأحداث تدور على الأرض وفق نواميس القدر، وبعد أن بات مهد باكخوس [ديونيسوس عند الإغريق] بن سيميليه - المولود مرّتين - فى حراسة أمينة، انتشى
چوپيتر بعد رشفات من نكتاره الإلهي فحاد عن الجدّ وبدأ يمزح مع چونو التى كان ينادمُها فى ٣٢٠
ساعة استرخاء، وقال لها: «إنكن معشر النساء لَتجدْنَ فى لحظة الوصال نشوة تفوق تلك التي يفوز بها الرجال». غير أن چونو لم تشاطره رأيه فاتفقا معاً على أن يحتكما إلى تيريزياس الحكيم على أن يمتثلا لحُكمه، ذلك أنه عرف لذّات الحب تارة وهو ذكر وتارة وهو أنثى. فقد كان يجول يوماً فى غابة مخضرّة ورأى ثعباناً هائلاً يواقعُ أفعى رهيبة ففرّق بينهما بضربة من عصاه. وفجأة ويا للعجب، وجد نفسه قد تحوّل من رجل إلى امرأة، وبقى سبعة أعوام وهو أنثى، حتى كان العام الثامن فإذا هو يشهد الثعبانين ذاتيهما فى الوضعة نفسها التى كانا فيها قبلُ فخاطبهما قائلاً: «لو أن هناك سحراً فعّالاً قوياً يُحيل مَنْ يضربكما من جنسه إلى الجنس الآخر

لوحة ٣٤. پيكار: الإلهة چونو تزور سيميليه
متنكّرة فى هيئة مرضعتها العجوز.

فإننى مبادر بضربكما من جديد»، وقام بضرب الشعبانين مرة أخرى، وما لبث أن استردّ رجولته الأولى وعادت إليه طبيعتُه التى وُلد عليها. وذلك ما دفع چونو وچوپيتر إلى الاحتكام لتيريزياس بعد مجادلتهما المازحة. وقد أيّد تيريزياس رأى چوپيتر، فغضبت ابنة ساتورن غضباً فوق كل خلاف، وقضت على تيريزياس بأن ينسدل جفناه على ليل سرمدي. ولما لم يكن فى استطاعة إله إبطالَ عملِ إله آخر فقد عوّض چوپيتر تيريزياس عن فقده نور عينيه بمنحه قدرة التكهُّن بالمستقبل، مخفّفاً بمنّته تلك عنه ما أصابه من چونو من نقمة، مستبدلا بالبصر البصيرة.

نارسيسوس وإكو

٣٤٠ كانت إجابات تيريزياس على تساؤلات الناس دقيقة مطهَّرة من الأخطاء فأشاع ذلك شهرته فى مدن بويوتيا جميعاً، وكانت ليريوپي حورية النهر اللازوردية الشعر النادرة الجمال أول اختبار لصدق وحيه. وكانت هي الحورية التي احتضنها ربّ النهر كيفيسوس وسط مجراه المتحوّي واغتصبها وهي سجينة بين أمواجه فأنجبت طفلاً دعته نارسيسوس ما لبث أن نال إعجاب الحوريات وحبّهن. وحين قصدت تيريزياس تسأله هل تطول حياة ابنها إلى أن يهرمَ أجابها العرّاف العليم بالغيوب: «سيظل حيّاً طالما لم يفطن إلى كُنْه حقيقته»[١٤].

وقد ظل هذا القول فترة طويلة لا يحمل معنى حتى كشفت عن مغزاه الأحداث والوقائع التى تمثّلت فى الهذيان الغريب الذى استبدّ بنارسيسوس وبطبيعة الميتَة التى انتهى إليها. ذلك أن ابن كيفيسوس لم يكد يبلغ السادسة عشرة من عمره حتى جمع بين الطراوة والرجولة معاً، وأخذ يحرّك الرغبة فى صدور الفتيان والفتيات معاً، غير أن نعومة جسده اللّدن كانت تُخفي صلفا عنيداً لم يُتح لأحد من الفتيان أو الفتيات التودّد إليه. وذات يوم فيما كان يدفع بعض الغزلان المذعورة نحو شباكه شدّ انتباه الحورية الثرثارة «إكُو» التى لا تطيق الصمت حين يتحدّث الآخرون فترجّع دائماً ما تسمع من حديث لكنها لا تبدأ الحديث أبدا، وكانت وقتذاك ماتزال محتفظة بجسدها الآدمي لم تتحوّل بعد إلى مجرد صوت. ومع ذلك فلم يكن ثغرها الثرثار قادراً على غير تكرار نهاية العبارات التى تقال أمامها. حدث هذا بإرادة چونو حين

لوحة ٣٥. پيكار: الإله چوپيتر في فراش سيميليه.

اكتشفت أن إكو كانت تعوق خُطاها حين تظهر فجأة لضبط زوجها چوپيتر متلبّساً وهو يضاجع الحوريات فى الجبال، إذ تنخرط معها فى حديث لا ينتهى يُتيح للحوريات الإفلات. وحين فطنت چونو إلى مسلكها ثارت فيها قائلة: «لسوف أحرمك قدرة هذا اللسان الذى طالما خدعني، فلا تهنئين باستخدام صوتك إلاّ فى أضيق مجال». ونفّذت چونو وعيدها، ومن يومها وإكو لا تستطيع غير تكرار العبارات الأخيرة من الأحاديث التى تسمعها أو ترديد كلماتها.

ولم تكد إكو تلمح نارسيسوس مطوّفا فى الحقول النائية حتى اشتعلت فى صدرها الرغبة وانطلقت تسترق أثر خطاه خفية، تتزايد مع اقترابها منه النار التى تتأجّج فى أعماقها أسرع مما تشتعل النار فى الكبريت الذى يُغشّي رؤوس المشاعل. وكم تاقت أن تتقرّب إليه بكلمات تُطريه بها وتستعطفه غير أن طبيعتها لم تكن تتيح لها أن تبدأ حديثاً، وإذ لم تكن قادرة إلا على تكرار بعض ما تسمع فقد كانت تترقّب الأصوات حتى تستطيع ترديدها بطريقتها.

وتصادف أن انفصل الفتى عن رفاقه الأوفياء وأبعدته خطاه عنهم فصاح قائلاً: «أما منْ أحد هنا؟»، وأجابت إكو مرجّعةً الصدى: «هنا»، فتوقّف نارسيسوس مذهولاً وتلفّت حوله ثم صاح بصوت عال: «هلمّ إذن» فردّدت إكو قوله. وحين تلفّت وراءه لم يجد أحداً، فصاح من جديد: «ما سرّ هذا التخفّي عنّي؟»، لكنه لم يسمع غير كلماته ترتد إليه أيضا، فألحّ فى ندائه حتى ضاق بالصوت الذى خُيّل إليه أنه يتجاذب معه الحديث فقال: «إذن فلنلتق هنا». ولم يكن ثمة ما يُدخل السعادة على الحورية أكثر من ترديد هذه العبارة، فردّدتَ على الفور قوله: «فلنلتق هنا»، ودلّت على فرحتها بالخروج من مخبئها بين الأشجار متقدمةً نحوه معانقة أملها المنتظر، غير أنه أفلت منها صائحاً: «رُدّي ذراعيك اللتين تمدّينهما لعناقي، فإني أفضّل الموت على أن أستسلم إليك». ولم تردّد إكو إلاّ عبارة «أستسلم إليك»، غير أنها أحسَّت بالمهانة فانزَوت فى أعماق الغابة، وأخفت وجهها المخذول بين أوراق الأشجار. ومنذ ذلك الحين وهى تسكن الكهوف الموحشة، وعاش حبها مع ذلك نابضاً فى قلبها، يتزايد لهيبه تزايد إيلام الصدّ، وحرمها قلقها النوم فأصابها الهزال وغطّت بشرتها التجاعيد وذبلت نضارة جمالها، ولم يبق منها إلاّ صوتها وعظامها، غير أن عظامها ما لبثت أن تحوّلت إلى حجر وظل صوتها وحده يتردّد. ومع بقائها مختبئة فى الغابات فإن أحداً لم يعد يراها وإن بقى الجميع يسمع صوتها فى الوديان والجبال.

ولم تكن إكو الحورية الوحيدة التى سخر نارسيسوس من عواطفها فقد أشاح بوجهه عن كثيرات من حوريات المياه والغابات كما فعل مع عشّاقه الذكور، غير أن إحدى الحوريات اللاتي صدّهن رفعت ذراعيها متوسّلة إلى السماء أن يقع هو بدوره فى شراك حب لا يخرج منه فائزاً. وسمعت نيميسيس(١٥) ربّة مدينة رامنوس ذلك الدعاء العادل، ملبّية.

كان ثمة غدير صاف تتألّق مياهه الفضّية لم يعرف الرعاة طريقهم إليه، ولم تَرِدْ ماءه قطعان السوائم التى ترعى الكلأ بالمراعي، ولم يكن يقطع عليه هدوءه لا تغريد طير ولا صياح وحش أو تكسّر فروع الأشجار، إذ أحاطت به مروج سندسية كثيفة العُشب تسقيها المياه المجاورة فتمنحها إيناعاً دائماً متصلاً، وتحميها من أشعة الشمس المحرقة غابات تلفّها بالأشجار الباسقة وتجعل أنسامها عليلة رطبة على الدوام.

ساقت نارسيسوس خطاه إلى هذا الغدير بعد ما أضناه الصّيد المنهك ووقدة الظهيرة ليسترخي فى هذا الموقع الذى استهواه جماله وندى نسماته، ومال على الغدير يُطفئ ظمأه فإذا هو يحسّ ظمأ جديداً. ذلك أن صورته المنعكسة على الماء قد سحرت لبّه فوقع فى غرام طيف حسبه جسداً وهو لا يعدو أن يكون خيالا لا حقيقة له. وقد فتنته صورته فلبث يحملق فى الماء بلا حراك، جامداً كتمثال من رخام جزيرة پاروس. واضطجع على الشاطىء يتأمل عينيه ٤٢٠ الشبيهتين بنجمين وشعره المسترسل الجدير بأن يكون شعر باكخوس أو أپوللو، ووجنتيه الملساوين وعنقه العاجي ووجهه الجميل الذى يتورّد بياضه الناصع. وامتلأت نفسه إعجاباً بتلك القسمات التى تحرّك إعجاب الآخرين به. ودون أن يفطن بات عاشقا لذاته، يمتدح نفسه ويتأجّج صدره بالتّباهي بطلعته، فكان هو نفسه وقود تلك النار التى يُضرمها. وكم من مرّة حاول فيها عبثا تقبيل الوجه المنعكس - عن وجهه - على صفحة الغدير المراوغة، وكم من مرّة غاص بذراعيه إلى أعماق الماء محاولاً ضمّ الطّيْف الذى تراءى له إلى صدره فإذا هو أعجز ما يكون عن أن يحقّق ما يحاول. ما هذا الذي تقع عليه عيناه؟ إنه لا يدري. غير أن هذا الذى يشهده بات مصدر عذابه وضَناه، وهذا الخيال الذى خدع عينيه هو الذى أثار الشّوْق فى نفسه إلى نفسه. أيْ نارسيسوس، أيها الصّبيّ الساذج، فيم محاولتك الإمساك بصورة خادعة؟ إن ما تبحث عنه ليس له وجود مادي، ولو أنك استدرت لغابَ عنك هذا الذي تهيم به، فإن ما

تراه ليس غير خيال نشأ عن انعكاس صورتك على الماء وليس له وجود مستقل. إنه يجيء معك ويبقى ببقائك ثم يرحل برحيلك لو رُزِقْتَ الجُرْأة على الرحيل.

ولم تستطع شواغل الطعام ولا الحاجة للنوم أن تنتزع الفتى من مكانه فمكث ممدّداً على العُشب الكثيف يحملق فى الصورة الكاذبة بعينين لا تشبعان من إطالة النظر، وعراه الشّرود من مداومته التأمل، ثم نهض فى النهاية باسطا ذراعيه نحو الغابات المحيطة وصاح بها: «أيتها الغابات، هل أحسست بحب مشبوب أشدّ لوعة من حبّي هذا؟ إنك تعرفين الخبر اليقين، فالمحبّون يجدون فيك المأوى الأمين للقاءاتهم الخفيّة، وقد طالت حياتك قروناً فهل تذكرين خلال سنوات عمرك الطويل أحداً ذاب مثلي أسىً؟ إننى عاشق أتطلّع إلى مَنْ أعشق، غير أن هذا الكائن الذى أراه وأهواه يُقعدني العجز عن وَصْله وما أزال حتى هذه اللحظة مخدوعاً بحبّه. ومما يضاعف من ألمي أن لا عائق يفصلني عن محبوبي، فليس بيننا بحر ولا طريق ولا جبال ولا أسوار مدينة ذات أبواب موصدة، وليس غير قليل من الماء يحول بيننا. ثم ما أشْوَقَ حبيبي إلى معانقتي، فحين انحنيتُ على صفحة المياه الصافية لأقبّله رفع هو الآخر وجهه إلى وجهي محاولاً الاقتراب مني، وخُيِّل إليّ أن فى مقدوري أن أتلمّسه لولا تلك المياه الرقراقة التى تحول بيني وبينه. ألاَ فلتقتربْ منّي أيها الغلام الفريد فى جمالك كائناً مَنْ تكون! لماذا تراوغني؟ وإلى أين تهرب كلما حاولتُ الوصول إليك؟ إنك لا تتجنّبني دون شك لمظهري أو صبايْ فالحوريات يعشقنني، ثم إن نظراتك التى تفيض حناناً تبعث فيّ أمل التفاؤل بوصالك. كما أنك تمدّ ذراعيك نحوي كلما مددتُ ذراعى نحوك، وتبتسم لى كلما ابتسمت لك، وما أكثر ما تدفّقت دمعاتك مع دمعاتي، وبادلتني إشارة بإشارة، ولقد تتبّعت جاهداً حركات شفتيك الجميلتين وهى تنبس عن كلمات ما بلغت سَمْعِي أبداً. ويلاه.... إن هذا الفتى الذى يتراءى لى ليس غيري! وها أنذا قد فطنتُ للحقيقة. إن صورة وجهي لا تخدعني، إنني أحترق بنار حبّي لنفسي، وإنّي أضرم بنفسي النار التى أشْقَى بها، ماذا تُراني فاعلٌ؟ أأتوسّل إلى نفسي أم أتلبّث حتى تتوسّل إليّ نفسي؟ وأية ضراعة تلك التى تُمكّنني من الفوز بمن أعشق؟ ففى حوزتي كل ما أتشوّق إليه، لكن.... ما أنا عليه من حُسن فاتن وجمال طاغ ووسامة غلاّبة هو سبب بلائي، وكم وددت لو استطعت الانفصال عن جسدي، وتلك أمنية ما أعسرها على العشّاق. كم وددتُ لو كان محبوبي غير قريب مني. إن الحزن يعتصرني

لوحة ٣٦. پيكار: الحورية إكو حزينة على مصير نارسيسوس.

وليس أمامي من العمر إلاّ أيامٌ معدودات . إنني أنطفىء وأنا في جذوة زهرة الشباب ، ولن أصارع الموت لأنه هو الذي سيُريحُني ويخلّصني من وخز العذاب ، وكم أتمنى لمحبوبي أن يحيا طويلاً من بعدي ، غير أن وحدة قلبينا ستجعلنا نَهْلكَ معاً وتنتهي حياتنا في زفرة واحدة» .

وحين فرغ من حديثه عاد يحملق مذهولاً في الوجه نفسه وقد تساقطت دموعه على الماء فاضطربت صفحته وتموّج سطح الغدير وانطمست صورته ، وإذا هي تختفي فصاح بصوت عال : «إلى أين تهجرني يا قاسي الفؤاد . فلتمكث ولا تهربَ ممن يحبّك ، دعني أتطلّع إليك
٤٨٠ مادمت لا أملك لمسك ، دعني أُشبع حبيّ السيئ الطالع بالنظر إليك» . ومزّق من فرط حزنه طوق ردائه وأخذ يضرب صدره العاري بيده ناصعة البياض فتورّد صدره من أثر اللطمات تورّد التفاح تحمرّ بعض أجزائه وتبقى الأخرى ناصعة البياض ، أو تورّد العنب الأحمر لم يكتمل نضج عناقيده بعد .

وحين هدأت مياه الغدير تمثّلت على صفحتها مآسي نارسيسوس كلها فلم يعد يطيق مزيداً . وكما تذوب الشمعة مع الحرارة الهادئة ، وكما تنزلق قطرات النَّدَى مع دفء الشمس أخذ يذوب بحرارته الكامنة الخفيّة بعد ما أنهكه الغرام وأضناه ، وفقدت بشرته بياضها المُشرَّب بحُمرة الورد وزايله عنفوان صباه ، وتوارى جمال قسماته الذى كان يأسر عينيه ، ولم يتبقّ له ملمح مما عشقته إكو التى شاهدت ما حلّ به . ومع أن ذكرَى صدوفه عنها كانت لاتزال ماثلة
٥٠٠ في أعماقها إلاّ أنها أحسّت بالحزن شفقة عليه ، وكلما صاح قائلا «ويلاه» كانت تردّد وراءه هذه الكلمة . وكانت آخر كلماته وهو يحملق في الماء ، «واحسرتاه على الغلام الحبيب الذى ذهب حبي له سُدى» ، فإذا إكو تردّد رجع الصّدى . وحين نادى «وداعاً» ، ردّدت إكو أيضاً «وداعا» . تهالك نارسيسوس بعدها فوق العشب ، ثم ما لبث أن أغمض عينيه اللتين طالما هامتا بجمال صاحبهما ، وسقط هامدا بلا حراك . وحين احتواه عالم الموتى عاد يتطلّع إلى صورته على صفحة مياه نهر ستيكس ، وحزنت عليه شقيقاته حوريات الينابيع وقصصن شعورهن إجلالا ، كما حزنت عليه حوريات الغابة أيضاً ، ورجّعت إكو أصداء نواحهنّ .

وكان حطب المحرقة والمشاعل التى تُهَزّ بالأيدى[١٦] قد أُعدّت لحفل حرق جسده الذى اختفى ولم يعثر عليه أحد ، وإذا زهرة النرجس قد ظهرت مكانه تحمل قلباً زعفراني اللون تنبثق منه وُريقات بيض[١٧] .

لوحة ٣٧. بيكار: نارسيوس يتحول إلى زهرة
النرجس.

پنثيوس وأكويتيس

وعندما تداول الناس أحداث هذه القصة ذاع صيت الحكيم تيريزياس فى كافة مدن اليونان وكان به جديراً، فلقد ظل اسمه بعد ذلك موضع التقدير والإعجاب.

وكان پنثيوس بن إخيون يزدري الآلهة، وكان الوحيد من البشر الذى لم يأبه برسولهم، وسخر من تحذيرات العرّاف العجوز تيريزياس. وحين عيّره بفقدان بصره هزّ العرّاف رأسه الأشْيب وقال له لائماً محذّراً: «لو أنك حُرمت نورَ عينيك كما حُرمتُه أنا لكنتَ أسعدَ حالاً، فعندها لم تكن لتشهد طقوس باكخوس السّرية. ولسوف يأتي ذلك اليوم - ولا إخاله بعيداً - الذى يزور فيه الإله الجديد لِيبَر بن سيميليه[١٨] هذا المكان، فإذا أنت لم تُوفه حقّه من التبجيل فى المعابد المقّدسة، تمزّق جسدك إرْباً إرْباً، وتناثرت أعضاؤك هنا وهناك، ودنّس دمُك أنحاء الغابات ولطّخ أمك وشقيقتيْها. أجل، سوف يأتي هذا اليوم الذى ستُحْجِم فيه عن تكريم الإله، ولسوف تندم لأنني وسط غياهب العَمَى قد استطعتُ أن أرى هذا كله ببصيرة نافذة». وحين سمع ابن إخيون هذه العبارات على لسان العرّاف استشاط غضبا ثم طرده شرّ طردة، ولم تلبث نبؤات تيريزياس أن تحقّقت، وأقبل ليبر، تُردّد الحقول صيحات عابديه المحمومة احتفَاءً به، وخرج الشعب عن بكْرة أبيه رجالاً ونساء وأبكاراً، فتية وأشرافاً ودَهْماء، واندفعوا جميعاً لتأدية طقوس الشعائر الجديدة. غير أن پنثيوس اعترضهم قائلاً: «يا سلالة التنّين، يا أبناء مارس، ما هذا الجنون الذى ذَهَب بعقولكم؟ أوَيُمكن أن يكون لقرع النحاس بالنحاس ولنَفْخ المزمار المحدودب ولحيل السحرة مثل هذا الأثر؟ أوَيمكن أن يطغى ضجيجُ النسوة ونشوة السُكر وجلبة أخدان العربدة والمجون وقرع الطبول الجوفاء على الرجال الذين لا يهابون صليل السيوف فى المعارك ونداء النفير المحرّض على القتال أو الكتائب التى تُشْرَع بين صفوفها الحراب؟ مَنْ منكم الجدير بسخريتي؟ أأنتم أيها الشيوخ الذين عبرتم فسيح البحار وجئتم هنا لتشيّدوا مدينة «صور» الجديدة[١٩] ولتقيموا فيها معابد آلهتكم ثم تتركون غيركم يظفر بها دون قتال، أم أنتم أيها الشباب يا مَنْ تفيضون حيوية وتُقاربونني سنّا؟ إنه لأجدرُ برؤوسكم أن تعتمر بخوذات القتال بدلاً من أكاليل الزهور، وبأيديكم أن تحمل السيوف بدلاً من ثيرسوس باكخوس[٢٠]. إنى أضرع إليكم أن تذكروا أسلافكم وأن تحاكوا ذلك الأفعوان الذى استطاع

لوحة ٣٨. پيكار: موكب الإله باكخوس.

وحده أن يفتك بالعديد من المحاربين الشجعان مضحّياً بحياته دفاعاً عن مياه ينبوعه، وإنكم لتعرفون كيف تثأرون لكرامتكم، فاطردوا إذن هذا العدو الرعديد لتكونوا أمناء على مجد آبائكم. ولو كان مقدّرا لطيبه أن تسقط سريعاً لتمنّيتُ أن يهدم أسوارها أعداءٌ شجعان برَجْمات المجانيق وقعقعة السيوف وسعير اللهب، فَسَنسْلَمُ ساعتها من اللوم مهما كان حظّنا شقيّا، ولن نكون بحاجة إلى إخفاء دموعنا التي لن تُطهّرنا من العار. اليوم يستولي على طيبة صبيّ خامل غير مفتون بالحرب وفرسانها وأسلحتها، ولا تستهويه غير جدائل الشعر التي يفوح منها عطر المُرّ، وأكاليل الزهور والثياب القشيبة صارخة الألوان المطرّزة بخيوط القصب. دعوه لي ولسوف أُرغمه على الاعتراف بأنه هو نفسه الذى اختلق الخرافة القائلة بأنه إله مقدّس، فإن طقوسه الدينية تدعو إلى السخرية، فإذا كان أكريسيوس[٢١] قد وجد الشجاعة ليُنكر عليه ألوهيته ويغلق فى وجهه أبواب مدينة أرجوس، فهل يَعْقل أحدٌ أن يُصيبَ هذا الأجنبي مليككم پنثيوس وسكان طيبة معه بالذعر؟». ثم استدار يأمر رفاقه قائلاً: «أسرعوا، أسرعوا وجيئوني بزعيم هذه العصابة مكبّلاً بالأغلال ونفّذوا أوامري دون تخاذل ولا تهدروا مزيدا من الوقت». على أن جدّه أثاماس وجميع أفراد أسرته انطلقوا يوجّهون إليه اللوم وحاولوا عبثاً صدّه عن اندفاعه فزاده تحذيرهم من ثورته، ودفعته محاولاتهم إلى الشّطط فى تهوّره، وزادت جهودهم فى كبح جماحه الأمر سوءاً، مثله فى ذلك مثل نهر يسري هادئا لا تسمع له إلا وشوشة هامسة، فإذا ما اعترضته السدود المشيدة من الحجر وجذوع الأشجار أرْغَى وأزبد مصطخبا فى قوة وعنفوان كى يجتاز كل ما يعوق تدفّقه وتغلّب عليها.

وعاد مبعوثوه ملطّخين بالدماء، وحين سألهم مليكهم عن باكخوس أجابوا بأنهم لم يروْه وأضافوا قائلين: «ها هو ذا واحد من أتباعه أسرناه حين كان يؤدي الطقوس السِّرية»، وأسلموه الأسير التيريني[٢٢] المتحمّس لعقيدة باكخوس ويداه مقيَّدتان خلف ظهره. ونظر إليه پنثيوس وعيناه تقدحان شرر الغضب، وكان على وشك أن يبطش به إلا أنه آثر أن يسأل الأسير: «إنك موشك على الهلاك يا هذا، ولسوف تكون بعد موتك عبرة وعظة لغيرك، فتكلم إذن وافصح عن اسمك واسم أبويك ومكان مولدك وسرّ احتفالك بطقوس هذه العقيدة الجديدة؟» وأجاب الأسير دون تلعثم: «اسمي أكويتيس، وقد وُلدت فى مايونيا من أبوين من

أصل متواضع، ولم أرثْ عن أبي حقولاً تحرثها الثيران القوية، ولا قطعان ماعز تمدّني بالصوف، ولا بقرة واحدة أرعاها، إذ كان مثلي فقيراً، وكانت مهنته طرح الشِّباك للأسماك واجتذابها بشصّه ثم رفعها من الأنهار منتفضةً على طرف قصبة من غاب. وكانت مهنته هي كل ثروته التي أورثها لي قائلاً: «احرص على هذه الثروة من بعدي وكُن خَلَفي في هذه المهنة». ثم مضى به الموت دون أن يترك لي غير المياه أبحث فيها عن صيد. ذلك كان كل ميراثي، غير أني لم أشأ إفناء عمري قابعاً فوق الصخور، فتعلّمت إدارة دفّة السفينة وقياس المسافات مستهديا بالنجوم: نجمة عنزة أولينوس دليل المطر[٢٣] والثريّا وقلائص كوكبة الثور والدبّين الأكبر والأصغر، وألفت عيناىْ اتجاهات مهابّ الرياح كما عرفت الثغور الصالحة لرسو السفن. ويوماً إذ أنا مُبْحر صوب جزيرة ديلوس اقتربتُ من شواطىء جزيرة خيوس وكان رجالي يجدّفون فى يُسر قرب الشطّ فقفزت بخفّة من السفينة إلى الرمل المبتل وأمضيت مع رجالي الليل هناك. حتى إذا أخذ الفجر يصبغ السماء بحُمرة كحُمرة الورد استيقظتُ وطلبت من رفاقي أن يمضوا بحثاً عن مياه عذبة بعد أن أرشدتهم إلى الدّرب المؤدي إلى الينبوع، ووقفت فوق ربوة لأستشفّ ما تأتي به الرياح، فناديت رفاقي وعُدت إلى سفينتي وكان أوفلتيس أول مَنْ عاد من الرفاق مهلّلا: «ها نحن أولاء» وقد اصطحب معه غلاماً - حَسبه غنيمة - تفوق وسامته جمال الصّبايا، عثر عليه وحيداً فى حقل مهجور وقد أثقلت جفنيه الخمرة والنّعاس، وبدا متعثّرا متثاقلا فى مشيته يكاد يتابع صاحبه بمشقّة. وأنعمت النظر فى قسمات وجهه ومظهره وثيابه فرأيتني بين يدى مخلوق يسمو على البشر، حتى إذا امتلأتُ ثقةً بصحة اكتشافي قلت لرفاقي: «تُرى أى إله يستكنّ فى هذا الجسد؟ ما أعزّني عن أن أتبيّنه. . . . إلا أنه على أية حال إله»، ثم التفتُّ إليه قائلاً: «ها أنذا أضرع إليك كائناً مَنْ تكون أن تَرْفقَ بنا وتمدّ إلينا يد العون، وأن تصفح عن رفاقي». وهنا صاح ديكتيس ساخراً «لا حاجة بنا إلى صلاتك»، وكان أسرع الملاحين فى تسلّق الساري صعوداً وهبوطاً، ووافقه كل من ليبيس وميلانثوس الأشقر مرشد السفينة، وكذلك ألكيميدون وإيبوبيوس الذى كان يضبط بصوته الجهوري إيقاع ضربات المجدّفين. ثم حَذَتْ البقية الباقية حذوهم وقد أعماها عن الحقيقة جشعها ولهفتها على الغنيمة التى ظَفَرَتْ بها، فصحتُ: «لن آذنَ لكم أن تنالوا من نزيلنا المقدّس فتحلّ اللعنة بسفينتي، وأنا صاحب القول الفصل هنا»، واعترضتُ طريقهم إلى

السفينة، فأثار موقفي هذا ليكاباس أشدّهم طيشاً وتهوّراً وكان قد نُفى من مدينة إتروسكية عقاباً لجريمة قتل بشعة ارتكبها. وحين أردتُ مقاومته أطبق على عنقي بقبضته القوية فأوشك أن يلقيني فى البحر لولا أنّي أسندت ظهري إلى أحد الحبال، بينما كان الملاّحون الحَمْقى يصفّقون له على فعْله. وأخيراً تدخّل الصّبىّ الذى لم يكن سوى الإله باكخوس نفسه وكأنما بدّد الصياح غفوته وتيقّظ من سكرة النبيذ، وتساءل: «ما الذي يحدث هنا؟ وفيم كل هذا الصياح والضجيج، أخبروني أيها الملاّحون كيف جىء بي إلى هنا؟ وإلى أين تنوون الذهاب بي؟» فهدّأ پروريوس[٢٤] من روعه قائلاً: لا تخف، وقُل لنا أى ميناء تريد أن تبلغه ولسوف نرسو بك فى المرسَى الذى تختاره». وأجاب ليبر [باكخوس] «إذن فلْتُبحروا بسفينتكم صوب ناكسوس. . . فهناك موطني، ولسوف تجدون فيها كل حفاوة»، فأقسموا له يميناً كاذبة بإله البحر وبجميع الآلهة أن يذهبوا به إلى حيث يريد، وطلبوا إلىّ أن أنشر الشراع لتدفع به الريح فأدرتُ الشراع إلى اليمين حيث تقع ناكسوس[٢٥] فإذا أوفيلتيس يصيح بي قائلاً: «ماذا تفعل أيها الأحمق؟ أى جنون أصابك؟»، وصاح بي بعض الرجال: «انحرف إلى اليسار». وبينما أومأ إلىّ بعضهم برأسه همس فى أذني آخرون بما يضمرون، ففزعت وقلت لهم: «فليتولّ الدفة أحدٌ غيري»، ورفضت مشاركتهم فى مخطّطهم الإجرامي فتعقّبوني باللعنة مُتَمْتمين غضبا، وصاح إيثاليون: «أوَتظن أمان السفينة موكولا إليك وحدك؟»، وأخذ مكاني فى السفينة ومضى مخلّفاً ناكسوس إلى وُجهة أخرى منطلقاً بعيداً. وحينئذ سخر الإله منهم وكأنه لم يكشف خيانتهم إلاّ لحظتها، ووقف فى مؤخرة السفينة متطلّعا إلى مياه البحر متظاهراً بالبكاء، وقال: «ليس هذا هو الشاطىء الذى وعدتم بإرسائي حذوه أيها الملاّحون، وليست هذه بالبلاد التى رجوتكم التوجّه إليها، ما الذى فعلتُه بكم لتجازُوني هذا الجزاء؟ وأى مجد يصيبه نفرٌ من الكبار من التغرير بصبىّ وحيد مثلي؟». وعندها انخرطتُ فى البكاء غير أن الملاّحين الأشرار سخروا من دموعي وضاعفوا من حركة مجاديفهم، وأُقسم لكم الآن بذلك الإله نفسه [لأنه ليس هناك مَنْ هو أثبت منه وجوداً] بأن ما أقصّه حقٌ رغم استحالة تصوّره، إذ ما لبثت السفينة أن توقّفت وسط المياه جامدة وكأنها تقف وسط حوض جاف، وتعجّب الملاّحون وجَدُّوا فى الضرب بمجاديفهم ونشر جميع الأشرعة لعل ذلك يدفع السفينة قُدما إلى الانطلاق، غير أن أعشاباً من البحر أخذت تلتف حول المجاذيف بمحاليقها الحلزونية فعوّقت

حركتها والتفّت عناقيدها الكثيفة على الشّراع فجمدت السفينة مكانها، وظهر الإله نفسه مزدان الجبين بعناقيد كروم شاهراً حربة مغطاة بأوراق العنب، وتضطجع حوله أطياف وحوش من نمور وفهود مفترسة مرقّشة الجلود، فهُرع البحارة يلقون بأنفسهم إلى الماء جنوناً أو رُعباً لست أدري. وكان ميدون هو أولهم فقد اسودّت بشرته وانحنى ظهره كالقوس وأبصره ليكاباس فسأله قائلاً: «على صورة أى مخلوق غريب تتحوّل؟» وبينما هو يتحدث إليه إذا فمه يتّسع وخياشيمه تنفرج وجلده يتصلّب وتكسوه الحراشف. وحين حاول ليبيس جرّ مجدافه تقلّصت يداه وتحوّلتا إلى ما يشبه الزعانف. وحين حاول رجل آخر رفع ذراعيه ليتعلّق بالحبال المجدولة اكتشف أنه بلا أذرع، فقفز بجسده المبتور الأطراف إلى الوراء وسقط فى الماء وإذا هو قد نبت له ذيل على شكل المنجل المقوّس الذي يحاكي قرنيْ الهلال. وأخذت هذه المخلوقات تقفز فى الماء هنا وهناك مثيرة الزَّبَد وهى تغوص فى الماء وتعلو وكأنها جماعة من الراقصين تنفث المياه بخياشيمها الواسعة. ولم يبق من العشرين ملاّحاً غيري فوق السفينة وقد أمسك بي الذعر وعرتني الرِّعدة، فهدّأ الإله روعي قائلاً: «لا تخف» ووجّه السفينة إلى جزيرة ديا[٢٦]، حتى إذا بلغتها بادرتُ بتأدية طقوس باكخوس السرّية، وأصبحت من يومها من المؤمنين بعقيدته».

وعقّب پنثيوس على هذه القصة قائلاً: «إذا كنتُ قد أصخت السَّمع لحكايتك الطويلة المزعومة فذلك كى أُفسح لغضبي أن يهدأ. خذوا هذا الرجل أيها الأتباع وصبّوا على جسده جميع ألوان العذاب، ثم ابعثوا به إلى عالم الموتى فى نهر ستيكس». وما لبثوا أن اقتادوا أكويتيس التيريني بعيداً، وحبسوه فى سجن حصين، غير أن الرواة يحكون أنه حين أُعدّ الحديد والنار لتعذيبه، انفتحت الأبواب على مصاريعها من تلقاء نفسها وتساقطت الأصفاد عن يديه. وبقى پنثيوس ابن إخيون سادراً فى غيّه ولم يشأ إنابة أحد عنه، بل توجّه بنفسه إلى كيثايرون، وهو الجبل الذى اختير لإقامة شعائر الإله الدينية، وعليه تردّدت الأغنيات وصيحات عابدات باكخوس التي غمرت أجواز الفضاء. وكالجواد الجموح فى ساحة الحرب يصهل متهيّئاً للقتال لحظة يسمع صوت النفير يستنهض المحاربين للهجوم، أخذت صيحات كاهنات باكخوس التي ردّد الهواء صداها تُهيج پنثيوس وتزيد غضبه وتُشعل الضوضاء ثورته.

كان ثمة سهل منبسط فى منتصف الطريق الصاعد إلى الجبل قفرٌ من الأشجار على الرغم من أن الغابات تكتنفه ويمكن للعين أن تحيط بجوانبه. ومن هذا المكان استطاع پنثيوس أن يراقب الطقوس السرّية خفْيةً بعينيه اللتين حُرمتا ومض الإيمان. وكانت المرأة الأولى التى رآها تندفع صوبه كالمجنونة، نعم... المرأة الأولى، هى أمه أجاڤيه التي حقّرت شأن ابنها پنثيوس وهوت عليه بالثيرسوس [صولجان باكخوس] صائحة: «إيو. إيو[٢٧] أقْبلا لعوْني يا أختيَّ فأنا حريصة على أن يفتك سهمي بهذا الخنزير البرّي البشع الذى يهيم على وجهه طليقاً فى حقولنا». فأصاب رفيقاتها مسٌّ من جنون وانقضضن على الرجل الواقف بينهن وحيداً، وأخذن كقطيع واحد يطاردن پنثيوس الذى أمسك به الذعر وأُرعدت فرائصه وزايله صلفه،
٧٢٠ فاعترف بإثمه وأنحَى باللائمة على نفسه نادما، وصاح رغم جراحه قائلاً: غوثاه.. خالتي أوتونوى[٢٨]. هلا أثار فيك طيف أكتايون الرحمة بي!». غير أن اسم أكتايون لم يحرّك فيها ساكنا، فبترت ذراعه اليمنى وانتزعت إينو ذراعه اليسرى فغدا بلا ذراعين يرفعهما ضارعاً إلى أمه، وكشف لها عن جسده المبتور الأطراف الشبيه بجذع شجرة وصاح متوسّلاً: «أمّاه... أتَرَيْنَ ما حلّ بي؟» فأطلقت أجاڤيه صرخات جنونية، مطوّحة برأسها يَمنة ويَسرة وشعرها يتشعّث فى الهواء، ثم انتزعت رأس ابنها من بين كتفيه وأمسكت به مخضّبا بالدماء صائحة: «إيو، انظرن أيتها الرفيقات، ألاَ إن هذا النصر من صُنع يدىّ». وأسرعُ من تساقط أوراق الأشجار السامقة حين تمسّها بواكير ريح الخريف الباردة - على الرغم من قطرات النّدى التي تصلها بالأغصان - أخذت أطراف پنثيوس تتناثر فى أيديهن الوحشية. واتخذ نساء طيبه من هذا الحدث عبرة، وغدون يحتفلن بإقامة شعائر عقيدة هذا الإله الجديدة، فيحرقن البخور للإله ويكرّمن محاريبه المقدسة.

لوحة ٣٩. بيكار: مصرع بنثيوس.

الكتاب الرابع

الكتاب الرابع

بنـــات مينـــياس

لم تشأ ألكيثوى أن تلمّ بشيء من أسرار الإله إيماناً منها بأنه لا يجوز لقومها أن يُباشروا تلك الطقوس الطائشة، كما أنكرت في إصرار بنوّة باكخوس لچوپيتر، وشاطرتها شقيقاتها هذا التمرّد الآثم. وكان الكاهن قد قضَى بحتمية إقامة احتفالات باكخوس وإعفاء الفتيات العاملات من مهامّهن، كما فرض عليهن أن يغطين هنّ وسيّدات المدينة صدورهن بجلود الحيوان، وأن يُرْخِين عصابات شعورهن، وأن يُتَوِّجن هاماتهن بأكاليل الزهور، وأن يحملن الثيرسوس المزدان بأوراق الكروم، ثم حذّرهن من عاقبة غضب الإله إن مسَّه ما يشين. واستجابت الفتيات والسيدات إلى نصائح الكاهن، فهجرن أنوالهن وسلالهن وأعمالهن ولم يكنّ قد فرغن منها، وأحرقن البخور للإله، ودعون باكخوس باسم بروميوس وابن النار[1]، ويا مَنْ وُلد مرّتين، ونادينه بأسماء أخرى مثل طفل نيسا، وثيونيوس ذي الضفائر المُرسلة، ولينايوس الاسم الذى لُقِّب به لأنه زارع الكروم مصدر نشوتنا، ونيكيتيليوس، وأبينا إيليلوس، وإياخوس ويوهان، إلى أن دعونه أخيرا بالأسماء جميعها التي تسمّى بها يا «ليبر» بين شعوب اليونان[2]: شبابك لا يذبل ولا تذوي نضارته فأنت الطفل الخالد وأجمل

كـائن تتـجـه إليـه الأنظار فى السـمـوات العـلا . لرأسك جـمـالُ العـذارى حين تطُلّ علينا بلا قـرون(٣). سُدْت الشرق حتى أطراف الهند حيث يفيض نهر الجَنْج على أرض شعبه الأسمر. ما أكثر عبادك أيها الإله، يا من قضيتَ على پنثيوس وليكورجوس المسلّح بالبلطة ذات الحدّين عقاباً لهما على مروقهما(٤) ، وأغرقت الليديّين فى البحار، وأثقلت عُنقىْ النَّمرين اللذين يجرّان مركبتك بنيريْن تزيّنهما أعنّة زاهية الألوان. فى إثرك تمضي كاهنات باكخوس العابدات والساتير وميلينوس(٥)، ذلك الشيخ الهرم الثّمل الذى يعتمد على عصاهُ لاضطراب خطواته ولا يكاد يستقر على ظهر جحشه المحدودب. حيثما تمضي تهدر أصوات الفتيان ترحيباً بك، وتتردد أصوات النساء، ويُسمع قرع الأكفّ للدفوف وصكّات الصنوج المقعّرة، ويرتفع صوت الناى طويل القصبات، ويبتهل إليك نساء طيبة أن تهلّ عليهن بما عهدنه فيك من لطف ورحمة، ثم يؤدّين لك الطقوس الواجبة.

ولم تتخلّف فى بيوتهن غير بنات ميناس اللاتى كدّرن صفو الحفل بركونهن إلى الغزل والنسج فى غير الوقت المخصَّص للغزل والنسج، فمكثن فى دارهن يجدلن خيوط الصوف ويُدرْنَها بأصابعهن ويشددنها إلى أنوالهن وقد استنهضن خادماتهن لمشاركتهن، وانبرت إحداهن قائلة لشقيقتيها وهى تجذب خيطها برفق: «ها قد انصرف غيرنا من الفتيات عن واجباتهن وشُغلن بأداء طقوس من العبادات الزائفة، فلنخفّف إذن عن أنفسنا ـ نحن المؤمنات بالآلهة پالاس الجديرة بالتكريم ـ من عناء ما نبذل من جهد ولنأخذ فى شجون الحديث بينا نغزل بأيدينا، ولنتسامر فتروي كل واحدة منا قصة مسلّية لا نحسّ معها بالملل». وأمام إعجاب الشقيقات بهذه الفكرة اقترحن أن تكون هى البادئة بالحديث، فأخذت تفكر أية قصة تختار من بين ما تعرفه من قَصَص كثير، وتردّدت هل تقصّ حكاية ديركيتيس البابلية التى يعتقد شعب فلسطين أنها تحوّلت إلى سمكة تسبح فى إحدى البحيرات بعدما اكتست أطرافها بالحراشف(٦)، أم تقصّ حكاية إبنة ديركيتيس التى نما لها جناحان فانتقلت إلى برج حمام أبيض تقضي فيه أواخر سني عمرها(٧) ، أم قصّة حورية الماء التى كانت تُحيل الرجال أسماكاً صمّاء بتعويذاتها وبأعشاب قوية الفعْل حتى حاق بها المصير نفسهُ(٨)، أم قصّة الشجرة التى كانت تُنبت توتاً أبيض فصار أرجوانيّ اللون بعد أن اصطبغت بالدماء؟ وكانت هذه الأخيرة هى القصة التى وقع عليها اختيارها، إذ كانت غير شائعة فراحت تروي أحداثها وهى تغزل بيدها خيوط الصوف:

پيــراموس وثــيزبى

كان پيراموس وثيزبي يعيشان فى دارين متجاورتين فى تلك المدينة الشاهقة ذات الأسوار العالية التى قيل إن سميراميس قد شيّدتها من قوالب الآجر. وكما كان پيراموس أبهى الفتيان وسامة كانت ثيزبي أجمل حسان الشرق، وقد نشأت بينهما صداقة لم تلبث مع الأيام أن غدت غراما أوشك أن يُفضي بهما إلى الزواج لولا أن حال أبواهما دون إتمامه. على أن ما لم يستطع أبواهما الحؤول دونه هو تلك النار التى اتّقدت فى قلبيهما وتصهرهما فى لهيب العشق المشبوب. وإذ لم يكن لهما صديق يبثّانه همومهما، فقد كانا يتحاوران بالإيماءات والإشارات، وكلما أخفيا حبهما عن الناس تأجّجت نيرانه فى قلبيهما. وكانت ثمة ثُغْرة دقيقة فى الجدار الفاصل بين داريهما خفيت على الأعين طوال السنوات العديدة التى أعقبت تشييد الدّارين وكانا هما أوّل من تبيّنها، وعيون العشق قلّ أن يَخْفَى عليها شيء. وما لبثا أن جعلا منها وسيلتهما ليتناجيا من خلالها بأعذب أحاديث الهوى والغرام فى طمأنينة وأمان. وما أكثر ما كان كلٌّ منهما يتلمّس أنفاس محبوبه واقفا خلف الجدار، وكم حدّثا الجدار قائلين: «كيف تضيق أيها الجدار الغيور بعاشقين أن يجتمعا فتقف بينهما سدّا منيعاً؟ ما أهون عليك أن تحقّق لنا ما ننشد. هلا أفسحت لجسدينا أن يتعانقا، وإن ضِقْتَ بهذه فهلا انفرجتَ قليلاً فأتحتَ لشفاهنا أن تلثم إحداها الأخرى ولسوف نكون على هذه من الشاكرين. على أننا مع ذلك سوف لا ننسى صنيعك بما مهّدت لكلماتنا أن تبلغ آذاننا الوالهة». على هذا النحو كان يجري حوارهما اليائس عبر شقّ الجدار، حتى إذا سجا الليل ودّع أحدهما الآخر، وكانا لعجزهما عن تبادل القبلات يقبّلان الجدار حيث يقفان.

وذات صباح بعد أن طمست الشمس نجوم الليل بأشعّتها وبعد أن جفّت الأعشاب وما يغشّيها من ندى جاءا إلى مكان لقائهما المألوف. ومضيا يندبان حظّيهما متهامسيْن بشكاة تخنقها الزفرات، ثم اتفقا على محاولة التسلّل من داريْهما تحت جنح الظلام فى مأمن من العيون، وتواعدا حتى لا يضلّ أحدهما عن الآخر وهما يضربان فى أنحاء الريف الفسيح على اللقاء عند ضريح نينوس والاختباء فى ظلال شجرة التوت المزدهرة ذات الأوراق الكثيفة والثمار البيض المجاورة للينبوع العذب. وبعد أن انتهيا إلى هذا القرار ظلاّ نهارهما يستبطئان

انصرامه، حتى إذا ما غاب قرص الشمس فى خضم الظلمات تسلّلت ثيزبي من دارها خلسة قاصدة الضريح دون أن يراها أحد من الحرّاس مُسْدلة على وجهها نقابا، ثم جلست تحت الشجرة المتفق عليها وقد شحنها الحب جرأة، وإذا لبؤة قد ظهرت لها فجأة تقصد إلى الينبوع لترتوي وخطمها يقطر بدم الثيران التي افترستها. لمحتها ثيزبي فى ضوء القمر وهى ماتزال بعيدة فانفلتت هاربة إلى كهف مظلم، وكان نقابها قد انزلق على كتفيها ثم سقط على الأرض وهى تعدو فخلّفته وراءها. وبينما اللبؤة تعود أدراجها إلى الغابة بعد أن ارتوت وأتخمت، رأت النقاب الملقى على الأرض فمزّقته وخلّفت على مَزْقه بقعاً من الدماء التى كانت عالقة بأنيابها.

وأقبل پيراموس بعد قليل فرأى آثار أقدام اللبؤة ظاهرة فى الترّاب الكثيف فامتقع وجهه من فرط الذهول، ثم إذا هو يجد النقاب مخضّباً بالدم فصاح قائلا: «ألا فلتشهد هذه الليلة مصرعي كما شهدت قبلُ مصرع ثيزبي التى كانت أجدر بالحياة مني. أنا الآثم يا فتاتي البائسة، أنا مَنْ أوديْتُ بك وحملتُك على أن تأتي ليلا إلى هذا المكان المحفوف بالأخطار دون أن أسبقك بالمجيء. إليّ أيتها الأسود من عرينك وراء التلال، ولْتمزّقيني إرْبا إرْبا بأنيابك الناهشة. عاقبيني على ما اقترفتُ من إثم. أواه... كم أكون بالغ الجُبن حين أقنع باشتهاء الموت». والتقط نقاب ثيزبي ومضى إلى ظل الشجرة التى كانا سيلتقيان تحتها، وجعل يبكي وهو يقبّل النّقاب المعشوق ويناجيه قائلاً «فلتشربْ أنت الآخر من دمي». وما كاد يلفظ هذا القول حتى انتزع خنجره المشدود إلى خصره وأغمده فى جنبه، ثم انتزعه من جرحه الدامي بعْدَ لأيٍ وهو مُلقى على الأرض يحتضر، فانبثق الدم من جرحه عالياً وكأنه أنبوبة مهترئة انبثق منها الماء(٩)، وتدفّق الدم عبر ثقب ضيّق مرسلاً صفيراً مجلجلا فى الهواء. وغطّى دمه المنثور ثمار الشجرة بلون أحمر قان، وإذ تشرّبت جذورها دمه المتخثّر صبغت الثمارَ المتدلّية على الأغصان باللون الأرجواني نفسه.

ورغم ماتملّك ثيزبي من خوف فقد قفلت راجعة حتى لا يحرّك تأخّرها خيبة أمل حبيبها، ومضت تبحث عنه بعيون ملهوفة وقلب مشوق لأن تروي له ما صادفها من أخطار وما فعلته

لوحة ٤٠ . بيكار: مصرع پيراموس وثيزبي.

للإفلات منها، واهتدت إلى المكان كما اهتدت إلى الشجرة، غير أن لون الثمار أثار الحيرة فى نفسها فتساءلت أتراه هو المكان نفسه أم لا؟ وفيما هى غارقة فى الحيرة وقع بصرها على جسد ينتفض مُسَجىّ على الأرض المخضّبة بالدماء، فتراجعت إلى الخلف شاحبة مذعورة جامدة جمود خشب البقس، مرتجفة كصفحة البحر حين تعبث بها خطرات النسيم العليل. ولم تلبث أن تعرّفت على حبيبها، فانطلقت مُعْوِلة بنحيب عال، تضرب صدرها وتمزّق شعرها وتحتضن حبيبها وتقبّل وجنتيه الباردتين فى لهفة وعيناها لا تفارقان جرحه فيختلط سيل دموعها بدمه، وتناجيه: «أية كارثة وحشية تلك التي اختطفتك مني يا پيراموس؟ أجبني، أنا حبيبتك ثيزبي التى تناديك! أنصت إليّ، وارفع إليّ رأسك المتخاذل». وسمع پيراموس صوت ثيزبي ففتح عينيْن يُثْقلهما الاحتضار، ثم ما لبث أن أغلقهما إلى الأبد. ولمحت ثيزبى نقابها ورأت الغمد العاجي خالياً من خنجره فصاحت: «لقد أوردتَ نفسك مورد الهلاك بيدك، كما أوْدَتْ حبيبتك بحياتك، فلأفعلنّ أنا أيضاً مثلما فعلت، فإن حبي لك جارف كحبك لي، ولسوف يمنحني القوة على أن أغمد الخنجر فى جسدي مثل ما أغمدت، ولأمضِ فى إثرك إلى عالم الموتى، ولسوف يقول الناس إنني كنت سبب بلائك وشريكتك فيه أيضاً. لقد كان الموت وحده هو القادر على انتزاعك مني، أما اليوم فلن يستطيع أن يفصلني عنك. وأنتما أيها الأبوان يا مَنْ كُتب عليكما الشقاء، ناشدتكما أن تدفنانا معاً فى ناووس واحد مادام الموت والحب المشبُوب قد جمعا بيننا. وأنت أيتها الشجرة التى تظلّلين جثة واحدة عما قريب ستظلّلين جثتين، فلتخلّدي إلى الأبد ذكرى موتنا بثمارك القانية اللون كى يتذكّر الناس دوما دمَنا الذى نزفناه معاً».

ولم تكد ثيزبي تفرغ من كلماتها حتى ثبّتت سنّ الخنجر فى صدرها وارتمت فوقه وهو مازال دافئا بدم پيراموس. وبلغت دعواتها سمع الآلهة فحملتها إلى ذويها، وغدت شجرة التوت تُثمر ثمارها أرجوانية قانية عند نضجها. وفى إناء واحد اجتمع ما بقى من رماد العاشقيْن بعد أن خمدت جذوة الحب المتّقدة».

ڤينوس ومارس . ربّ الشمس وليوكوثوىْ وكليتييه

وساد الصمت برهة بعد ما أنهت الراوية قصّتها، ثم انبرت ليوكوثوىْ تتحدث إلى شقيقتيها اللتين أصاختا السَّمع فقالت: «إن ربّ الشمس نفسه الذي يُنَسِّق كوكبه الساطع حياة الكون قد وقع بدوره فى إسار الحب، وسوف أروي لكنّ كيف وقع فى شراكه. فلقد كان ربّ الشمس الذى يرى كل شىء قبل غيره أول من شهد خيانة ڤينوس لزوجها مع مارس. وكان قد حنق على ڤينوس لسلوكها فأنهى إلى زوجها ڤولكانوس [هيفايستوس عند الإغريق] بن چونو نبأ هذا الاعتداء على حُرْمة فراشه كما كشف له عن ملاذ العاشقيْن. فطار صواب ڤولكانوس وسقطت من يديه قضبان الحديد التى كان يشكّلها، غير أنه بدأ للحظته فى صياغة سلاسل برونزية دقيقة وشباك لا تكاد تلمحها العين أدقّ من أرقّ الأسلاك ومن خيوط نسيج العنكبوت العالقة بعوارض السقف، وصاغها رهيفة حسّاسة تهتز لأخفّ لمسة وأبسط حركة ثم نصبها بمهارة حول الفراش. ولم تكد زوجته وعشيقها يدلفان إلى الفراش حتى أطبق عليهما الفخ الذى ابتدعه الزوج ونصبه بحذق وبراعة ثم دعا الآلهة للدخول إلى حيث ترقد ڤينوس بين أحضان مارس، ورآها الآلهة فى تلك الوضعة الشائنة فلم يأسوا لها، غير أن أحدهم تمنّى لو ظفر بهذه المتعة لقاء هذا الثمن. وتضاحكوا جميعاً عالياً وبقيت القصة مثار تندّر بين الآلهة زمناً طويلاً بعد ذلك.

ولم تغفر ڤينوس سيّدة كيثيرا هذه المكيدة لمن أفْشَى سرّ حبّها وهدَّ غرامَها المستور، واعتزمت عقابه بإيقاعه فى فضيحة غرامية مماثلة. فيم يفيدك الآن جمالك وروعتك ونورك المُشعّ يا ربّ الشمس يا ابن هيپيريون؟ ها أنت ذا يا مَنْ تسْطعُ الأرض كلها بنور لهيبك تلتاع اليوم بنار لهيب آخر. ها أنت ذا يا مَنْ ترى كل شىء فى الكون توّاً قد عَلَقَتْ أنظارك بليوكوثوى وحدها، على حين أن نظراتك منْ حق العالم كله؛ فأنت تُشْرِقُ مبكّراً تارة وتتلبَّث أخرى عن الغوص فى خضمّ المغيب، وتُطيل أحياناً ساعات النهار القصيرة شتاء بسبب استغراقك فى التفكير فيها، ويصيب الكسوف نورَكُ فى أحيان أخرى عندما يتسلّل القلق إلى نفسك فتغشاك تلك القتامة التى تثير الفزع فى قلوب البشر، وقد تشحب صفحتك دون أن

يكون مردّ ذلك مرور القمر بينك وبين كوكب الأرض، بل ما أنت مُستغرق فيه من حب وهيام هو سبب امتقاع لونك، فلقد اقتصرت عواطفك كلها على واحدة فلم تَعُدْ تحسّ وجود كليمينيه ولا رودوس ولا أم كيركي فاتنة بلاد آيا ولا كليتييه التى لم تيأس من مشاركتك الفراش رغم نفورك منها وشعورك بما خلّفته فى قلبها من ألم فاجع[١٠] . لقد أنستك ليوكوثوى - إبنة يورونومي أجمل نساء تلك البلاد التي تمدّنا بالبخور والملك أورخاموس سابع الملوك الفرس فى سلسلة أسرة بيلوس المؤسّس الأول للمملكة[١١] - لقد أنستك تلكم الحسناوات جميعاً، هذه الفتاة ليوكوثوي التي ما لبثت حين نضجت أن أزْرَى جمالها بجمال أمها وغيرها من الغادات الفاتنات.

وتحت سماء الغرب تقع مراعي خيل مركبة الشمس التى لم تكن تقتات بالكلأ المألوف وإنما بالأمبروزيا التى تمدّها بالطاقة والحيوية بعد أن تُنهكها واجباتها اليومية لكى تستطيع استئناف نشاطها. وبينما كانت الخيل تلتهم غذاءها السماوي والليل يحلّ محل النهار فى السماء دخل ربّ الشمس دار محبوبته متخفّياً فى صورة أمها يورونومي. وكانت ليوكوثوى جالسة إلى جوار مصباح وسط خادماتها الإثنتيْ عشرة تلفّ خيوطها الناعمة على مغزلها الدوّار، فلما رآها قبّلها كما لو كان أمّا تُقَبِّل ابنتها الغالية، ثم قال لها: «لدى سرّ أريدُ الإفضاء به إليك، فلْتَتْركْنا أيتها الصّبايا ولا تحرمن أمّا من محادثة ابنتها على انفراد». وصَغَرتْ الصّبايا لما أُمِرْن به، ولم يبق فى الحجرة سواهما فاذا الربّ يكشف لليوكوثوى عن نفسه، قائلا: «أنا الإله الذى يقيس مسار السنة، وأنا مَنْ يرى كل شىء ومَنْ ترى الأرض بي كل شىء. أنا عين الكون، صدّقيني يا ليوكوثوى حين أبثُّك لواعج غرامي فلقد خَلَبْت لُبّي». فاضطربت الفتاة وسقط المغزل من يدها التى جَمُدت أصابعها من فرط الفزع الذى أضفى عليها مزيداً من الحُسن الطاغي والجمال الفتّان. ولم يطل انتظار الإله فاستعاد شكله الحقيقي وألقَه المعهود. ومع أن هذا المشهد المفاجىء قد حرّك الخوف فى قلب ليوكوثوى بيد أنها انبهرت بجلال الإله واستسلمت لعناقه دون أن يندّ عنها ضجر.

وإذ كان حب كليتييه لربّ الشمس مايزال يعصف بقلبها ولاتستطيع كبح جماحه، دفعتها الغيرة والحنق على غريمتها إلى إشاعة خبر هذه العلاقة فى كل مكان. ثم إذا هى تَشي بها عند

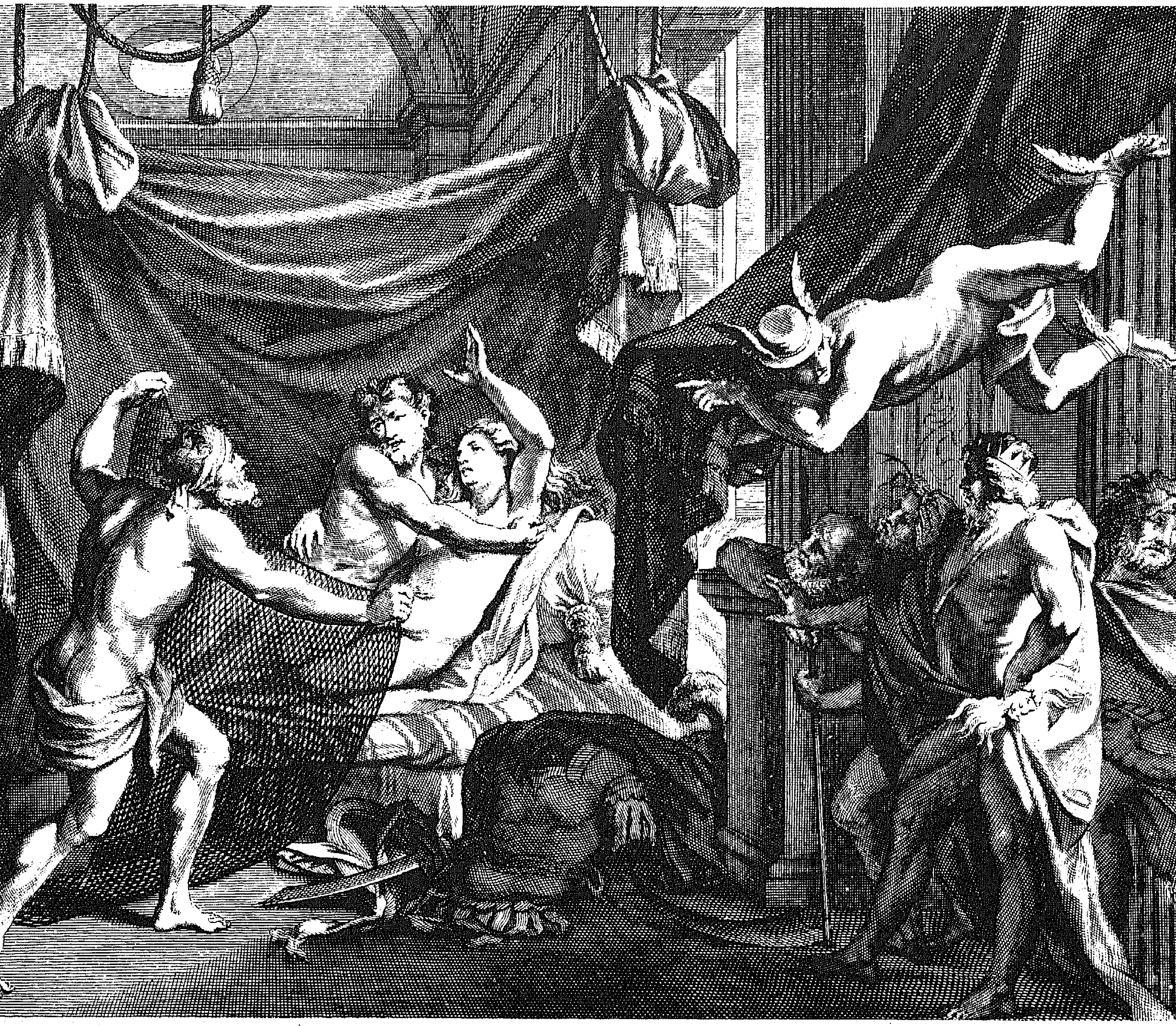

لوحة ٤١ . پيكار : الآلهة يفاجئون مارس وڤينوس فى فراش العشق .

أبيـها أورخامـوس فتُنهي إليـه سرّ تلك العلاقة، وإذا بـه يثـور غـاضبـا ويأبى الاسـتجـابة إلى توسّلات ابنته وهى تقول باكية: «صدّقني يا أبي أنه قد اغتصبني اغتصابا»، وإذا هذا الأب الضّاري المجرّد من الشفقة يئدها فى حفرة عميقة ويهيل عليها كومة ثقيلة من الرمال، لكن ابن هيپيريون سارع إلى تبديد الرمال بأشعّته، حتى فتح لك أيتها الحورية التعسة ثغرة تطلّين منها بوجهك على ضوء النهار، غير أنك لم تستطيعي رفع رأسك الغائصة فى الثّرى، ولم تعودي غير جسد هامد فارقته الحياة.

ألا ما أشبه حزن إله الشمس قائد الجياد المجنّحة على مصير محبوبته بحزنه على احتراق ابنه فايثون بالصاعقة، ولقد حاول أن يُعيد الحياة إلى أطراف ليوكوثوى المجمّدة بأشعّته الدافئة غير أن القدَر حال دون محاولته الخارقة، فاكتفى بأن أراق النكتار [شراب الآلهة] فوق جثتها وقبرها. وبعد أن رثاها طويلاً صاح: «فلْتصعدي نحو السماء على الرغم من كل شيء». وسرعان ما ذاب جسدها المضمّخ «بالنكتار» السماوي غامرا الأرض بأريجه الفوّاح، وشيئاً فشيئاً أخذت شجيرة حصى البان التى امتدت جذورها فى أعماق الثرى تنبثق لتكسو فروعها الأكمة برمّتها.

أما كليتييه التى قد تغفر لها مشاعرُها وشايتها فلم يقع بصرها ثانية على إله الضّياء، إذ كفّ عن مشاركتها مُتع الحب فذَوَى جسدها وأذبلها الغرام الذى سلب عقلها، ولم تعد تطيق رفقة الحوريات، مؤثرةً قضاء الليل والنهار مشعثة الشعر جالسة على الأرض المتربة تحت قبة السماء. عاشت بعد ذلك تسعة أيام بلا طعام ولا شراب سوى قطرات النّدى والدموع، ولم تنهض من جِلْستها قط وقد صوّبت وجهها نحو ربّ الشمس تُديره أنّى اتجه فى مساره المألوف. ولم تلبث أطرافها أن التصقت - كما قيل - بالأرض وتحوّل جزء من جسدها الضامر الهامد إلى جذع لا حياة فيه، واصطبغ مكان وجهها بلون أحمر ثم مالبث أن تحوّل إلى زهرة شديدة الشبه بالبنفسج تستدير فى اتجاه ربّ الشمس رغم أن جذورها كانت تشدّها إلى الأرض شدّاً،، وظلّت على حبّه وفيّة حتى بعد أن تحوّلت إلى زهرة عبّاد الشمس»[١٢].

لوحة ٤٢ . پيكار : الإله أپوللو يقود جياده المجنّحة وقد تحولت محبوبته ليكوثوئ إلى شجيرة حصى البان بعد أن وأدها أبوها الملك أورخاموس.

سالماكيس وهرمافروديتوس

فرغت ليوكوثوى من قصتها الغريبة التى اجتذبت أسماع شقيقتيْها وخادماتهن، يُنكرها بعضهن على حين يصدّقها البعض الآخر إيمانا منهن بأن الآلهة الحقيقيين قادرون على كل شيء، وإن كنّ جميعاً ينكرن على باكخوس أن يكون من بين هؤلاء الآلهة. وحين ساد الصمت من جديد طلبت شقيقتا ألكيثوى منها أن تروي لهن بدورها قصة جديدة، فاستهلّت حديثها وهى تدفع «مُومَها» عبر الخيوط المشدودة على النول قائلة: «لن أروي لكنّ أقاصيص غرام دافنيس راعي إيدا التى يعرفها الجميع والذى مسخته إحدى الحوريات حين غضبت عليه لميله عنها إلى منافسة أخرى فحوّلته إلى صخرة(١٣)، فما أعنف الأحاسيس التى تضطرم فى نفوس العشّاق. كما لن أروي لكنّ ما حدث من خروجٍ على نواميس الطبيعة مع سيثون الذي كان تارة ذكراً وتارة أنثى، ولن أقص حكايتك يا كيليميس أيها الحارس الأمين لچوپيتر حين كان فى سنّ الطفولة وقد مُسختَ الآن كتلة فولاذ صلدة، ولن أتحدث عنكم أيها الكوريتيس يا أبناء الغيْث الفيّاض، ولنَ أذكر قصة كروكوس الذى تحوّل هو وسميلاكس إلى زهرتين دقيقتيْن رقيقتيْن(١٤). سأطرح هذه الحكايا جانباً لأني عازمة على اجتذابكن بسحر قصة جديدة لا يعرفها الكثيرون. سوف أقصّ عليكن ما كان من سمعة سيئة لحقت بينبوع سالماكيس، وسرّ تأثير مياهه الضارة على أعصاب مَنْ يَرِدُونه وإثارة الضعف والخدر فى أطرافهم، فبرغم درايتنا بخصائص هذه المياه إلا أن سرّ ذلك الأثر مازال خفيّا.

أنجب هيرميس [ميركوريوس] من أفروديتي [ڤينوس] إلهة كيثيرا طفلاً ربّته الحوريات فى كهوف جبل إيدا، جمعت قسماته بين ملامح أمه وأبيه كما جمع اسمه «هيرمافروديتوس» بين اسميْهما(١٥). وحين بلغ الخامسة عشرة من عمره خلّف تلك الجبال التى وُلد فيها وترعرع على سفوحها ووديانها راحلاً عنها بعد أن استبدّ به حلم السفر والشوق إلى الترحال، مُيمّما شطر البلاد النائية حيث الأنهار الغريبة لا تُثني الصعاب حماسته، فبلغ فى رحلاته مدن ليسيا وبلاد الكاريّين القريبة منها، وإذا هو يكتشف فى هذه المنطقة عين ماء صفت مياهها وشفّت عن قاعها، لا تحفّ بها أعواد الغاب ولا خَلْفاء الماء ولا النباتات الشائكة التى عادة ما تنتشر حول المستنقعات، بل تُغَشّى ضفافها الأعشاب السندسية المُخْضَلّة وتقيم حولها حورية غير مدرّبة على الصيد، لا تحذق إطلاق السهام ولا العَدْو السريع، وكانت الوحيدة بين حوريات المياه

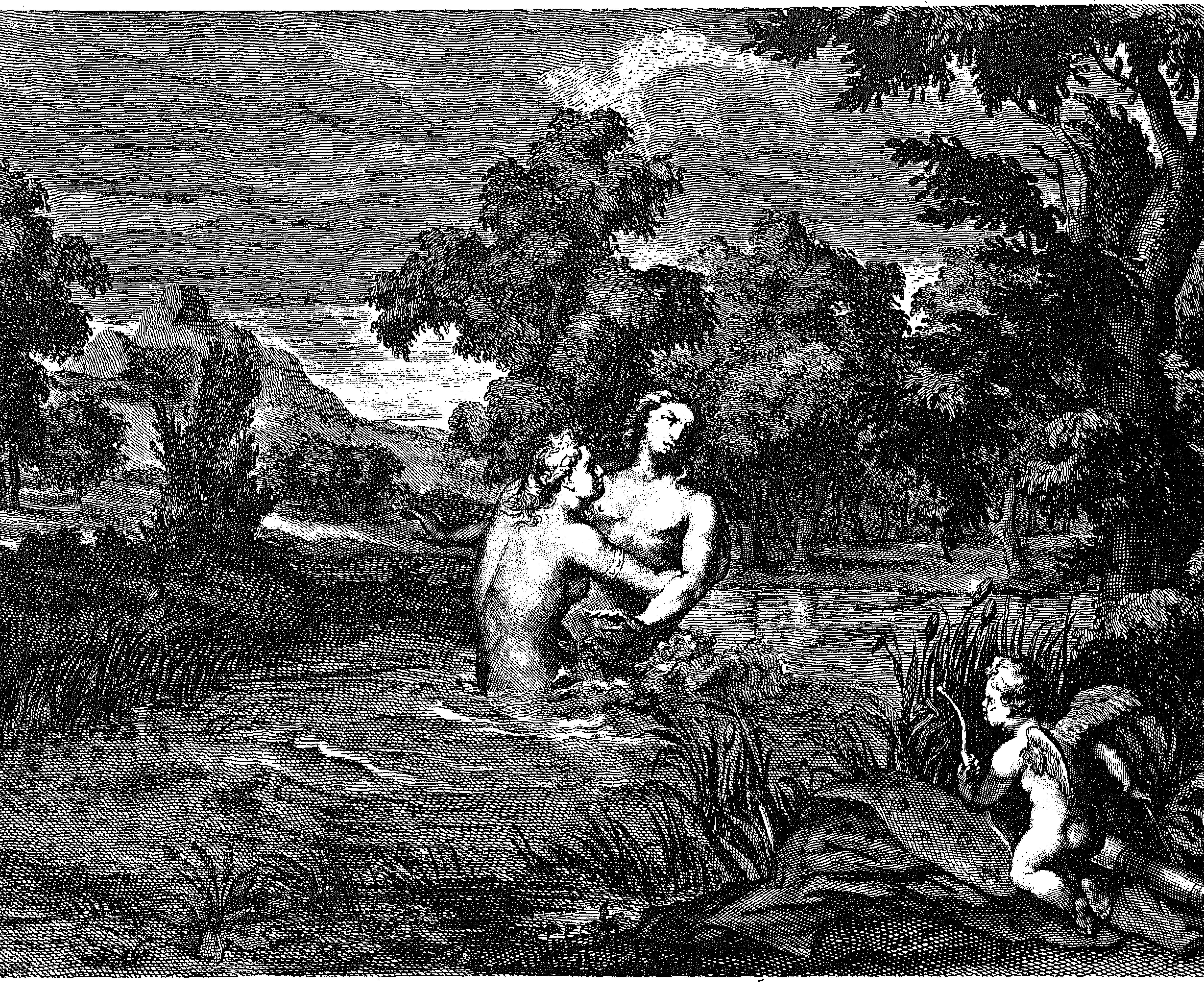

لوحة ٤٣ . پيكار: سالماكيس وهرمافروديتوس.

«النايادیس» التی لـم تَقْفُ أثر دیانا سریعة الخَطْو . ویُروی أن شقیقاتها کثیراً ما کنّ ینصحنها قائلات : «هلاّ اتخذت رمحا قصیراً یا سالما کیس أو کنانة سهام مزدانة بألوان فاقعة لتنخرطي فی صفوف الصائدات ، وتُضیفي إلی هوایاتك جولات الصید الشاقة» ، غیر أنها لم تتخذ لنفسها رمحاً قصیراً ولا کنانة سهام ذات ألوان فاقعة ولا انضمت إلی صفوف الصائدات ، ولا أضافت إلی متع هوایاتها جولات الصید الشاقة . ولم یبق لها سوی الاستحمام فی برکتها وتصفیف شعرها بمشط من کیتوروس[١٦] ، محملقةً فی الماء الصافي تتأمل مفاتنها علی صفحته ، متسربلة بغلالة رقیقة ، مستلقیةً علی فراش من أوراق غضّة وأعشاب طریّة ، وتنهض من حین إلی حین لتـقطف الورود والأزاهیـر . وذات یوم وقع بصـرها علی الصبیّ هیرمافرودیتوس ، فإذا هی تُحسّ لهفة إلی الاستئثار به . وعلی الرغم من تلهّفها وتعجّلها الدّنو منه فقد تباطأت فی أخذ زینتها وإصلاح هندامها لتتجلّی له فی أبهی صورة ، ثم بادرته قائلة : «ما أجدرك بأن تکون إلهاً أیّها الفتی الجمیل . فإن تکن حقا إلهاً فلعلّك تکون کیوپید؟ أما إذا کنت بشراً فلا شك أن أبویْك مبارکان وأن شقیقَك سعیدٌ بك وشقیقتك إن کانت لك شقیقة بك مفتونة ، وسعیدة بك المرضعة التی أرضعتك نسغ حلیبها ، وأسعد من جمیع هؤلاء مَنْ ستتخذها زوجة إن تکن لك خطیبة . فإن کانت لك خطیبة دعني أنعم بحبك سراً ، وإن لم تکن لك خطیبة فأنْعِمْ علیّ بأن أکون عروسك التی تشاطرك الحیاة إلی الأبد» . ولم تکد الحوریة تفرغ من حدیثها حتی تورّد وجه الفتی الذی لم یکن قد تذوّق طعم الحب بعد ، وزاد هذا التورّد من جماله فأضحت وجنتاه بلون التفاح الناضج المتدلّیة أفنانه من شجرة تغمرها أشعة الشمس أو فی لون العاج المصبوغ بالأرجوان ، أو فی لون القمر تکسو الحُمرة سطحه الأبیض ساعة تُصكّ الصنوج البرونزیة لتدفع عنه الخسوف[١٧] . واندفعت الحوریة محاولة تقبیله ولو قبلات أخویة ، وحاولت أن تضمّ عنقه العاجي بذراعیْها فصاح بها : کُفي عن عبثك وإلاّ مضیتُ بعیداً تارکاً هذه الأرض بعین مائها» . فَسرَت فی جسد الحوریة رِعْدة وقالت له : «لأبتعدنّ عنك ولن أتطفّل علیك بعدُ أیها الغریب» ، وأدارت له ظهرها متظاهرة بعزمها علی الرحیل بینما کانت تخطو وعیناها تتلفّتان نحوه حتی إذا ما وارتها أشجار أکمة کثیفة رکعت علی الأرض کی تتلصّص علیه . واطمأن الفتی حین أصبح وحیدا فاقترب من البِرْکة ومدّ قدمیه إلی الماء کاشفاً عن ساقیه ، وأغراه الماء فخلع ملابسه . وما إن فعل حتی ذهب جماله

لوحة ٤٤ . پيكار : تسيفوني ربّة الانتقام تدفع
آثاماس وزوجته إينو إلى الجنون.

العارى بلُبّ سالماكيس، فلمعت عينا الحورية لمعان قرص الشمس وهو ينعكس على المرآة، وعجزت عن التحكّم فى نفسها وتحرّقت عشقاً ورغبة عارمة فى أن تضمّه إلى صدرها، وكادت لا تقوى على إمساك شهوتها المشبوبة. وبصفحة كفّيه ضرب الغلام على خصْريْه وقفز إلى الماء يسبح خابطاً الماء تارة بذراعه اليمنى وتارة بذراعه اليسرى، يُبْرق جسده من تحت الماء الرائق وكأنه تمثال عاج أو زنبقة تحت لوح زجاج شفّاف. وخلعت هى الأخرى ملابسها مُطَوِّحة بها هنا وهناك وقفزت وراءه إلى البركة صائحة: هل أنذا قد ظفرتُ به. وأمْسَكَتْ بالفتى الذي أخذ يصدّها عنه غير أنها أفلحت فى تقبيله عنوة، وتسلّلت يداها تلامس صدره النافر، وشرعت تحتضنه مرّة من جنبه الأيسر ومرّة من جنبه الأيمن كما تلتف الأفعى حول النسر ملك الطير حين يلتقطها بمنقاره ويعلو بها محلّقاً فى السماء فلا يسعها إلاّ أن تلتف حول رأسه ثم حول ساقيه حتى تستطيع ضمّ جناحيه بذيلها كى يهوي، أو كما يلتف اللبلاب على جذع شجرة ضخمة، أو كما يشلّ الأخطبوط حركة فريسته فى أعماق البحار بتطويقها بأذرعته من كل جانب. وقاوم سليلُ أطلس الحورية(١٨) يضنّ عليها بتلبية رغبتها، غير أنها أحكمت احتضانه بذراعيها وطوّقته بجسدها ملتصقة به مردّدة: «قاوم ما شئت لكنك لن تُفْلت مني أيها الفتي المغرور. ألا فلتحقّق الآلهة أمنيتي فلا يأتى يوم ينفصل فيه هذا الفتى عني أو أنفصل عنه». واستجابت الآلهة محقّقة لها أمنيتها، فاتّحد الجسدان المتلاصقان وأصبحا شخصا واحداً بعد أن كانا جسدين. وكما تنمو الشجرتان صنوْين معاً لا يفترقان، كذلك التحمت أطراف الفتى بأطراف الحورية فى عناق متلاصق فصارا شخصاً واحداً وإن بقيا بطبيعة مزدوجة لا ندري أهما ذكر أم أنثى أو أنهما جنس واحد أو أنهما ليسا هذا أو ذاك.

وحين رأى هيرمافروديتوس أن المياه التى نزل إليها ذكراً قد أحالته إلى نصف ذكر وأن أطرافه قد تخاذلت، رفع ذراعيه إلى السماء ضارعاً بصوت لم يَعُدْ صوت ذَكَر: «أبتاه. أماه. ناشدتكما أن تُحقّقا أمنية ولدكما الذى يجتمع اسماكما فى اسمه، وهى أن يخرج كلٌّ من ينزل إلى هذه البركة من الرجال وقد غدا خُنْثَى ما بين رجل وأنثى»، واستجاب الوالدان لضراعة ابنهما الذى ازدوج فصار ذكراً وأنثى، فلوّثا مياه البركة بسحر مروّع يصيب كل من ينزل فيها».

وحين انتهت القصة كانت بنات مينياس ما زلْن منشغلات بغزلهن ونسجهن، مستخفّات بالإله مُزْدَريات أعياده، حتى إذا علت فجأة دقات طبول خفيّة تصاحب أنغام المزامير المقوّسة

وصكّات صنوج نحاسية وفاح أريجُ مُرّ وزعفران، أخذت الأنوال عندها تخضرّ. والعجيب الذى يقارب المستحيل أن النسيج نبتت منه أوراق كأوراق اللبلاب وورقات الكروم، كما تحوّلت الخيوط إلى محاليق، وأطلّت أوراق الكروم من سُداة النسيج، واكتست عناقيد العنب الناضج بحُمرة أرجوان النسجيّة، واقترب النهار من الزوال، وأطلّت عتمةٌ لا تكاد نعرف أمن الليل هى أم من النهار، وذلك حين اختلطت خيوط النهار المُدْبِر بخيوط الليل المُقْبِل. وفجأة اهتزت جدران البيت وتوهّج زيت المصابيح، وانطلق عواء وحوش ضارية فى أنحاء الدار، وسارعت الشقيقات فاختفين فى مواقع مختلفة من دارهن التى ملأها الدخان هاربات من هذا العواء وذاك الضوء المتوهّج الذى أخذ يزحف نحو الأركان الظلماء، وأخذ غشاء رقيق ينمو فوق أجسادهن الضامرة، وانطوت أذرعهن فى غشاء خفيف غدا جناحين. لكن كيف فقدن أشكالهن الأولى؟ لقد غيَّب الظلام عنّا تعرّف كُنْه ذلك. ورغم أنه لم يكن لهن ريش يَطِرْن به فقد حلّقن فى الهواء بأجنحة شفّافة، وحين حاولن الكلام لم تنطلق شفاههن إلاّ بألفاظ واهنة وَهَنَ أجسادهن التى مُسخت خفافيش، ولم يستطعن الإفصاح عن شكواهن إلاّ بنعيق حاد، وبدأن يتردّدن على الأطلال لا الغابات، ولا يحلّقن إلا خلال الليل لكراهيتهن للضوء، واشتُق اسمهن «ڤسپيرتيليونيس» من اسم نجم أعماق الليل «ڤيسپير»[١٩].

أثاماس وإينو

انتشرت عبادة باكخوس فى أنحاء طيبة، وانطلقت خالته إينو تتحدّث عمّا يُرْوَى من غرائب جبروت الإله الجديد ومآثره، وكانت الوحيدة من أسرتها التى لم ينلها سوء ولم يُحْزنها أمرٌ كما أحزنها ما حاق بشقيقاتها. ورأتها چونو مزهوّة بولديها من أثاماس وبالإله الذي رعته فى طفولته، فضاق صدرها وناجت نفسها قائلة: «لقد مسخ ابنِ غريمتي الملاّحين الليديين أسماكا وألقى بهم فى جوف البحر، وأوْغَرَ صدرَ أم ضد ابنها فإذا هى تمزّق جسده إرباً إرباً، ثم غشّى ثلاثاً من بنات ميناياس بأجنحة من نوع لم يُرَ له من قبل مثيل، على حين أجدُني أنا چونو عاجزةً لا أملكُ إلاّ البكاء إزاء إهانات وُجِّهت إليّ دون أن أثأر لها، فهل فى كل هذا ما يَشْفى غليلي؟ وهل هذا قصارى قوّتي وجبروتي حقا؟ ألا إن باكخوس نفسه قد لقنّني درساً

وما أصوب أن يتعلم المرء من خصمه، فقد كشف لي عما يمكن أن يُسفر عنه الغضب حين قضى باغتيال پنثيوس، فلماذا إذن لا تُلْسَع إينو بلدغة الجنون الذي حاق بذويها من قبل؟».

وكان ثمة طريق تُظلّله أشجار الصنوبر ينحدر من التلال مؤدّياً إلى العالم السفلي عبر مناطق ساكنة بكْماء تغطّيها مياه نهر ستيكس الراكدة التى يعلوها الضباب، وكانت أرواح الموتى[٢١] تسلك هذا الطريق بعد أن تفارق أجسادها مخلّفة إياها فى لحودها، وكانت الكآبة والبرودة يخيّمان فى هذه المنطقة المقفرة التى تصل إليها الأرواح حين تأتي للمرة الأولى إلى عالم الموتى، أو تقصد قصر ديس [پلوتو] المدلهم. وكانت هذه المدينة الفسيحة ذات الطرق الألف والأبواب المُشْرعة نحو الجهات الأربع تستقبل أرواح الموتى كما يستقبل البحرُ أنهار الأرض، لا تضيق بشعب من الشعوب ولا تغصّ بزحمة الوافدين. هنا وهناك تمضى الأطياف غادية رائحة بعدما تطهّرت من الدم واللحم والعظام، يجول بعضها فى ساحات الأسواق ويهيم البعض الآخر حول قصر ملك العالم السُّفلي، وتُباشر جماعةٌ الحِرَف التى كانت تمارسها فى حياتها السالفة، ويذوق آخرون علقم العقاب على ما اقترفوه فى حياتهم الأولى من آثام.

غادرت چونو ابنة ساتورن مسكنها العلوي السماوى لتزور ملاذ الموتى مستسلمة لغضبها وحقدها فإذا عتبة العالم السفلي تئن تحت ثقل جسدها المقدّس حين وَطئتها، ورفع كيربيروس رؤوسه الثلاث نابحاً نبحات ثلاثا. عندها نادت چونو «بنات الليل» [ربّات الانتقام] تلكم الشقيقات الرهيبات الجالسات أمام أبواب سجن الجحيم الفولاذية يصفّفن شعورهن الثعبانية. وحين عرفن الإلهة برغم عتمة الضباب وقفن إجلالاً لها فى مقرّ الأشرار المسمّى «الديار الملعونة» حيث يرقد تيتيوس فوق أفدنة تسعة مُسْلما أحشاءه للنسور تمزّقها، وحيث يحسّ تانتالوس الظمأ ولا يستطيع أن يبلغ الماء كما يهفو إلى الشجرة المُطلّة عليه دون أن يستطيع قطف ثمارها، وحيث يحاول سيزيفوس الإمساك بالصخرة أو دفعها وهى موشكة أبداً على السقوط، وحيث يدور إيكسيون على عجلة حول نفسه وكان وهو تطويه العجلة فى دورانها كأن بعضه يَهُمّ بلحاق بعضه الآخر فلا يبلغه[٢٢] ، وحيث تحاول حفيدات بيلوس الاغتراف من ماء لا يستطعن الاحتفاظ به عقاباً لهن على ما دبّرن من اغتيال أزواجهن أبناء عمومتهن.

لوحة ٤٥ . پيكار: كادموس وزوجته هيرميونيه
يتحوّلان إلى ثعبانيْن .

وحدجت چونو الجميع بنظرة صارمة لاسيما إيكسيون، ثم التفتت إلى سيزيفوس متسائلة: «لماذا يَلْقَى هذا الرجل عذاباً متّصلاً ها هنا بينما يعيش أخوه أثاماس المتغطرس وزوجته فى قصر مُنيف على الرغم مما يبدو عليهما من ازدراء لى واستخفاف بربوبيتّي[٢٣]، ثم بدأت تُفصح عمّا تبتغيه وهو تخريب قصر كادموس وتحريض ربّات الانتقام على دفع أثاماس إلى حافة الجنون. وتتابعت من فمها الوعود تلتمس من الربّات العون، حتى إذا أنهت حديثها هزّت تيسيفوني رأسها الشيباء وأزاحت عن وجهها الأفاعى التى كانت تغشاه، وقالت: «لا حاجة بك إلى مزيد من الإيضاح، ولتطمئني إلى تحقيق كل ما أمرت به. فلتغادري هذه المملكة الكئيبة ولتعودي إلى السماء التى إليها تنتمين». وعادت چونو إلى مسكنها مبتهجةً، وحين أوشكت على النفاذ إلى السماء طهّرتها إيريس ابنة ثاوماس بقطرات من رذاذ الماء نثرتها عليها.

وسرعان ما أمسكت تيسيفوني الرهيبة بمشعلها المخضّب بالدم المتخثّر واتّشحت بعباءتها التي صبغها نقعٌ من الدم بلونه القاني، وتمنطقت بثعبان التفّ حول خاصرتها، وغادرت دارها فى صحبة ربّات الحزن والخوف والرعب والجنون الراعش القسمات. وعندما وقفت على باب بيت أيولوس حيث يسكن ابنه أثاماس، اهتزّت أعمدة المدخل وشَحُبَ لون الأبواب المصنوعة من خشب الزان، وأخفى إله الشمس وجهه اشمئزازا. وأفزعت هذه الإشارات المشؤومة زوجة أثاماس الذى لم يكن أقل منها فزعاً، وحاولا الفرار من الدار، غير أن ربة الغضب الرهيبة اعترضت طريقهما عند المدخل ومدّت ذراعيها الملتفّة حولهما الثعابين، وأومأت برأسها فإذا الأفاعي تُطلق فحيحها وانفلت بعضٌ منها على كتفيها وبعضٌ آخر على صدرها تفيء نُفاثتها مُرسلةً فحيحها راشقةً بلسانها الرّاعد مهدّدة. ثم انتزعت من ضفائرها ثعبانين طوّحت بهما فهَوَى أحدهما على صدر إينو والآخر على صدر أثاماس ونفثا فيهما أنفاسهما السامة، ومع أن جسديهما لم يُمسّا بأى جرح فإن الضربة القاضية أصابت عقليْهما. وكانت تيسيفوني قد أحضرت معها فيما أحضرت سائلاً ساماً فتّاكاً أعدّته إحدى الساحرات من رغاء فكّى الكلب كيربيروس ومن سمّ الأفعوان إخيدنا[٢٤] ومن خليط من إكسير الجنون والهذيان وفقدان الذاكرة، ومن الدموع والجريمة والسُّعار وشهوة القتل. وطحنت الساحرة ذلك كله معاً وندّته بدماء حارة ثم طهته فى قدر برونزي بعد تقليبه بعصا خضراء من نبات الشوكران السام. وألقت تيسيفوني هذا السم الذى يسلب العقول على الملك والملكة وهما واقفان

يرتعدان، ثم أشعلت مشعلها وطوّفت به حولهما مرات، حتى إذا أدّت المهمة التى عهدت بها إليها چونو واطمأنت إلى نجاحها عادت إلى مملكة أرواح الموتى التى يحكمها ديس، وأزاحت عنها الثعبان الذى كانت قد تمنطقت به.

عندها مُسَّ أثاماس بن أيولوس بالجنون. ومع أنه كان لايزال داخل أسوار قصره إلا أنه انطلق صارخا: «إلىّ إلىّ يا رفاقي! أنشروا شباككم فى هذي الغابات! فقد لمحتُ لتوّي لبؤة فى صحبة شبليْها». واندفع الأحمق إثر زوجته مطاردا وقد تخيّلها وحشاً كاسرا، ثم اختطف من بين ذراعيها ابنه الطفل ليارخوس الذى كان يبتسم له ويبسط نحوه ذراعيه، واستدار به ثلاث مرات ثم أطلقه كالمقلاع فتهشّمت رأس الطفل على الصخور. واستعر جنون المرأة حزناً على ولدها أو تأثراً بفعل السُّم الذى أفقدها صوابها، وانطلقت تعوي هاربة مشعَّثة الشعر وعلى ذراعها طفلها الرضيع ميليكيرتيه صائحة: «واباكخوساه!». وسمعتها چونو تنطق باسم باكخوس فقهقهت ساخرة قائلة: «عسى أن ينفعك ببركاته ذلك الطفل الذى رَعَيته».

وصعدت إينو ربوة صخرية تشرف على البحر الذى نَحَرت أمواجه المتلاحقة فجوة فى سفحها الأدنى فإذا مياهه بمنأى عن المطر المنهمر، وارتفعت سنام الربوة عالية ممتدة بعيدا فوق الخضمّ. وكان جنون إينو قد أمدّها بالقدرة على تسلّق السفح بلوغاً إلى القمة دون أن يُثنيها الخوف عن هدفها، ومن القمة ألقت بجسدها محتضنة طفلها فى مياه البحر، فأزبدت الأمواج فى المكان الذى غاصا فيه، وإذا ڤينوس تأخذها الشفقة بحفيدتها البريئة فتضرّعت إلى عمّها نپتون قائلة: «أى إله البحر العظيم الذى تلي منزلته مملكة السموات جلالاً، سألتُك أن تُنعم علىّ بمنَّة كبرى فتترفّق بهذين الغاليَيْن اللذين تعبث بهما الأمواج كما ترى فى البحر الأيوني ولِتضمّهما إلى رعيّتك من آلهة البحار. إن أكُنْ حقا من زَبَد البحر خُلقت، ومن أعماقه المقدّسة انبثقت فكم أنا إليه مدينة، فمازالت يونانيّة إسمي «أفروديتي» تذكّرني بهذا الأصل»[٢٥]. واستجاب نپتون لضراعتها فجرّد إينو وولدها من صورتيهما الآدميتين مُضفياً عليهما جلال الربوبية ومنحهما اسمين جديدين يناسبان شكليهما الجديدين، وأسْمَى الإله الجديد پالايمون وضمّه إلى رعيّته هو وأمه التى أسماها ليوكوثوى[٢٦].

وكانت وصيفات إينو الفينيقيات قد اقتفين أثر قدميها إلى أن تبدّد عند حافة صخور تُشرف على البحر، ولم يساورهن شك فى موتها فأشفقن على أسرة كادموس من المصير الذى آلت إليه وانتحبن مُعْوِلات عليها ضاربات صدورهن ممزّقات شعورَهن وثيابَهن، ورمين چونو

بالظلم لقسوتها البالغة على غريمتها، فامتلأت الإلهة سخطاً عليهن لاتهامهن إياها وتوعّدتهن قائلة، «لسوف تَلْقَيْنَ جميعاً ما يذكّركن بجبروتي دوماً»، وما أسرع ما نفّذت وعيدها. وحين همّت أوْفَى وصيفات إينو بإلقاء نفسها من أعلى الصخور فى البحر صائحة: «لسوف أتبع مولاتي إلى أعماق البحر»، إذا هى تجد نفسها عاجزة عن الحركة وقد جَمُدت فى مكانها فإذا هى ملتصقة بالصخور. وأحسّت ثانية وهى تندب ضاربة صدرها تصلّب ذراعيها حين حاولت رفعهما. وجَمُدَت ثالثةٌ كانت تشير بيدها نحو موج البحر، كما تصلّبت أصابع كفّ رابعة بين خصلات شعرها وهى تَشُدُّه. وهكذا تجمّدت كل واحدة منهن على الوضْعة التي كانت تتخذها ساعة صَعَقَتْهن اللعنة التى صبّتها عليهن الإلهة، وتحوّلت الأخريات من نساء طيبه إلى طيور تحوّم فوق البركة خافقة بأجنحتها.

كـادمـوس وهـارمـونيـا

ولم يَدْرِ كادموس بن أجينور أن ابنته وحفيده قد تحوّلا إلهين من آلهة البحر، وكان الحزن قد أضناه بعد سلسلة الكوارث التى نزلت به وتملّكه الفزع مما شهده من نذر الشؤم، فاعتزم الرحيل عن المدينة التى أسّسها متخيّلاً أن الشؤم الذي يعصف به مردّه إلى شؤم المكان لا إلى الشؤم الذى يزامله هو. وبعد أسفار طويلة مع زوجته التي صحبته فى هجرته وصلا فى النهاية إلى بلاد إلليريا[٢٧] وقد أحنت الشيخوخة والأحزان ظهريْهما فاحدودبا. ومضيا يستعيدان فينة بعد أخرى أمجاد سلالتهما، وإذا كادموس يتساءل ذات مرة وهو يستعرض مأساة أسرتهما: أفلم يكن ذلك الثعبان الذى صرعتُه برُمحي مقدّساً حقا، ذلك الذى نثرتُ أسنانه فوق الثّرى بعد أن رحلت عن «صيدا» أول مرة على أنها بذور جنس جديد من البشر؟ فإن يكن موته هو الذى حرّض الآلهة على الانتقام مني، فإنى أضرعُ إليها أن تمسخني أفعواناً على غراره فيمتدّ جسدي ويتحوّى مثل جسد الثعبان». وفيما هو يتكلم بدأ جسده بالتمدّدّ متحلّقاً تحلّق الثعابين، وتقدّد جلده واصطبغ بلون أسود، وظهرت عليه بقع زرقاء مخضرّة تُلقى شيئاً من الضياء على لونه الآخذ فى الاسوداد، ثم انبطح رأسه على صدره فانضمت ساقاه وأصبحتا ساقاً واحدة أخذت تستطيل وتدقّ حتى انتهت إلى ذيل مدبّب، لكن ذراعيه ظلّتا على صورتهما الآدمية، وانهمرت دموعه فوق خدّيه اللتين كانتا ماتزالان آدميتين، فانبرى مناديا:

«هلمّي يا أتعس الزوجات، وتحسّسي ما تبقّى من صورتي البشرية، خُذي بيدي وهى ماتزال يداً قبل أن أتحوّل أفعواناً كاملاً». وما لبث أن عجز عن مواصلة المناداة فقد انشطر لسانه فجأة إلى شطرين، وخانه لسانه رغم رغبته العارمة فى الحديث، وكلما حاول أن يتفوّه بكلمة يندب بها حظّه العاثر مُسخ صوته فحيحا. وكان ذلك هو الصوت الوحيد الذى أتاحته له طبيعته الجديدة.

وضربت زوجته صدرها العاري بكفّيها صائحة: «ناشدتُك ألاّ تهجرني أيها الزوج المنكوب، ولْتتحرّر من هذا الشكل البشع يا كادموس. ما الذي حلّ بك؟ أين قدماك ويداك وكتفاك ولون بشرتك وملامحك؟ لقد اختفت معالمك كلها وأنت تبادلني أطراف الحديث. ألا فلْتمسخيني أيتها السماء بالمثل أفعوانا كهذا الأفعوان».

وجعل كادموس يلعق وجنتيْ زوجته مُنْسلاً نحو حضنها كما كان يفعل من قبل، وانبرى يقبّلها محاولا التعلق بعنقها على غرار ما كان يفعل فى الماضى. وفزع جميع أصدقاء كادموس وكانوا مايزالون إلى جانبه بينما تَرْبتُ زوجته على الرقبة الملساء للثعبان المتوّج بريشة، وما لبثت أن مُسخت هى الأخرى وصارا ثعبانين يزحفان معاً، وطوّق أحدهما الآخر حتى اختفيا فى غيضة مجاورة، وبقيا منذ ذلك الوقت حتى اليوم ثعبانين أليفيْن يأنسان بالبَشَر دون أن يغيب عنهما قط أنهما كانا من البشر.

پيرسيوس وأطلس وأندروميدا

على أن كادموس وزوجته وَجَدَا عزاء كبيراً عن فقدان شكلهما البشرى فى حفيدهما الذى غزا الهند وقدّسه مواطنوها وألّهوه، كما أقبلت حشود الآخيين [اليونانيين] تصلّي له فى المعابد المكرّسة لعبادته. ولم يشذّ إلا أكريسيوس بن آباس المنحدر من السلالة نفسها التى انحدر منها باكخوس إذ بقى يصدّ الإله عن أسوار مدينة أرجوس، ويحمل السلاح ضده رافضاً التسليم بمولد باكخوس الإلهي مثلما رفض التسليم ببنوّة پيرسيوس لچوپيتر الذى حملت به داناى بعد أن أخصبها چوپيتر حين أتاها فى صورة شؤبوب من القطرات الذهبية[٢٨].

غير أن أكريسيوس سرعان ما ندم على تفريطه فى حق الإله باكخوس وإنكاره بنوّة حفيده پيرسيوس لكبير الآلهة، فما أجدر بالحقيقة أن يُكتب لها الفوز. وبينما السماء تستقبل الإله باكخوس كان پيرسيوس عائداً إلى وطنه يشقّ طريقه محلّقاً بجناحيه الخفّاقين فى أجواز الفضاء

حاملاً معه رأس ميدوسا، تلك الغنيمة الثمينة التى ظفر بها فى صراعه مع تلك المخلوقة الغريبة ذات الرأس المكتسي بشعرٍ من الأفاعي. وبينا هو يحلّق فى سماء صحراء ليبيا سقطت بعض قطرات الدم من رأس «الجو رجونة» الذى كان يحمله البطل الظافر فاحتضنتها رمال الأرض وأحالتها إلى أنواع مختلفة من الأفاعي، وهذا سرّ امتلاء هذه البلاد بمختلف أنواع الثعابين الفتّاكة. وأخذت الرياح الهوجاء بعد ذلك تدفع پيرسيوس فى أنحاء القبة السماوية الرحبة وكأنه سحابة حُبلى بالمطر تتلاعب بها الرياح، يطوف فوق الأرض ويتأملها من علٍ، فرأى كوكبيْ الدب الأكبر والدب الأصغر الشديديْ البرودة ثلاث مرات، كما شاهد مخالبَ كوكب السرطان مرات ثلاثا، وكم من مرة طرحته الريح غربا ثم طوّحت به شرقا. وعندما أوشكت الشمس على الغروب لم يأتمن پيرسيوس ظلمة الليل فحطّ على قمم هيسپيريا فى مملكة أطلس[29] الواقعة فى الغرب، محاولا الإخلاد للراحة حتى ينادي لوسيفر نجم الصباح[30] أضواء الفجر، وتُسْرِج أورورا ربّة الفجر جياد النهار. هناك كان يعيش أطلس بن ياپيتوس الذي كان جسده يفوق أجساد البشر ضخامة، وكان يحكم أقصى أطراف الأرض، ويمتد مُلكه إلى تلك المياه التى تستقبل جياد إله الشمس المكدودة لحظة تأوي مركبته المرهقة إثر رحلتها خلال النهار، وتزدحم مراعيه بألوف سوائم الماشية التى يملكها، كما يملك شجرة تتألق عليها أوراق ذهبية تتدلّى من غصونها ثمار من ذهب.

وحينما أوَى پيرسيوس إلى هذا الموقع قال لأطلس: «إن تكن ممن يهتمون بعراقة الأصل يا سيدى العزيز فأنا سليل چوپيتر، وإن تكن ممن تستهويهم مآثر البطولة فإنك لا شك معجب بما أنجزتُه، ولقد جئت ملتمساً استضافتك». وسرعان ما تذكّر أطلس مشيئة الأقدار الغابرة التي كشفت له عنها يوماً ثيميس من فوق جبل پارناسوس حين قالت له: ليسرقنّ ابنٌ من أبناء چوپيتر الثمار الذهبية لشجرتك يا أطلس، وينعم بها»، فأحاط أطلس حدائق فاكهته - خشية تحقق هذه النبوءة - بأسوار منيعة، ووضعها فى حماية أفعوان هائل وحزم أمره على منع الغرباء من دخول مملكته. ولهذا ردّ پيرسيوس قائلاً: أغْرُب عني، وإذا حدّثتك نفسك باللجوء إلى قوتك فلن تجديك نفعاً حتى إن استعنت بچوپيتر نفسه». ولما تلكّأ پيرسيوس فى الرحيل انتقل أطلس من التهديد إلى العنف، محاولا الإلقاء به بعيداً، فقاومه بثبات محاولا كسب ودّه بعبارات لطيفة رقيقة، حتى إذا أدرك ضعفه أمام أطلس [ومَنْ ذا الذي يستطيع أن يداني أطلس

لوحة ٤٦ . پيكار : البطل پيرسيوس يحوّل العملاق أطلس إلى جبل بمواجهته بوجه الجورجونة ميدوسا.

فى قوته وجبروته؟] صاح قائلاً: «إذن، إن تكن غير عابئ بصداقتي وتضنّ عليّ بمثل هذه المنّة البسيطة، فإليك هذه الهدية»، وأدار وجهه قبل أن يكشف بيده اليسرى عن رأس ميدوسا البشع فتحوّل أطلس عندها إلى جبل عملاق كما كان عملاقاً بين العمالقة، وإذا شعرُ رأسه وشعر لحيته أشجار، وإذا يداه وكتفاه سفوح جبال، وإذا رأسه قمة جبل، وإذا عظامه صخور. وما لبث هذا الجبل أن امتدّت أطرافه فى جميع النواحي، كما علا حتى بلغ عنان السماء، وإذا النجوم العديدة فى قبّة السماء ترتكز عليه. وكان هذا كله وفقاً لمشيئة الآلهة.

وبينا هذا يحدث كان أيولوس[31] بن هيپوتيس قد حبس الرياح فى سجنها وراء جبل إتنا، وأشرق لوسيفر نجم الصّباح فى السموات العُلى مستنهضاً البشر للقيام بواجباتهم اليومية. وعاد البطل إلى جناحيه فثبّتهما فى قدميه وتسلّح بسيفه المقوّس وشقّ طريقه فى الهواء الشفيف بحركة من نعليه المجنّحين، وطار فوق عدد لا يُحصى من شعوب الأرض كانت بلادهم تنبسط تحته فى جميع الاتجاهات إلى أن وقع بصره على الشعوب الإثيوبية[32] ومملكة كيفيوس حيث كان «آمون» الجبّار قد أصدر حُكمه الجائر بمعاقبة الحسناء أندروميدا البريئة على تطاول أمّها بأحاديثها المتباهية.

وعندما شاهد پيرسيوس الأميرة مكبّلة الذراعين مصفّدة بالسلاسل مشدودة إلى الصخر الصّلب، خُيّل إليه أنها تمثال من رخام لولا شعرها الذي كان يعبث به النسيم والدموع الساخنة التى كانت تنهمر من عينيها، وشدهه جمالها الأخّاذ فوقع فى هواها على غير وعى منه، وأنسى تحريك جناحيه فى الهواء حتى إذا لامس الأرض بقدميه صاح فيها: «ليس لك أن تُصفَّدي بهذه السلاسل، وأجدر بك القيود التي تُغلّل قلوب العشاق! ناشدتُك أن تذكري لي اسمك واسم موطنك وما اقترفته أمّك من زهو وتباه بجمالها أدّى إلى تصفيدك بهذه الأغلال».

ولزمت الأميرة الصمت فى بادئ الأمر فما كانت لتجرؤ على مخاطبة رجل غريب وهى صبيّة عذراء، ولو لم تكن يداها مقيّدتين لأخفتْ وجهها بكفّيها استحياء، لكنها لم تكن تملك غير أن تَذْرِفَ الدموع. وحين ألحّ عليها پيرسيوس بأسئلته المرة تلو المرة خشيت أن يفسّر صمتها على أنه اعتراف بذنب ارتكبته، فكشفت له عن اسمها واسم موطنها وعن خيلاء أمها الفاتنة بجمالها. وقبل أن تُكْمل قصتها ارتفع صَخَبُ مياه المحيط التى برز من جوفها وحشٌ

يتهدّدها وقد انبسط صدره على مساحة فسيحة من الأمواج فندّت عن الفتاة صرخة مدوّية، وكان والداها على مقربة منها وقد غمرهما حزن عميق غير أن أمّها كانت أشدّهما حزناً. وكانا عاجزين عن تقديم أى عون لها ولا يملكان سوى ذرف الدموع عليها والنحيب والتعلّق بها وهى مكبّلة بالسلاسل. وحين وقع عليهما بصر الوافد الجديد، خاطبهما قائلا: «قد تكون أمامكما فسحة مَنْ الوقت تذرفان فيها الدموع كما تشاءان، غير أنكما لا تملكان غير وقت قصير إذا شئتما مساعدتها. أنا پيرسيوس بن چوپيتر من داناى التي لقّحها بقطرات ذهبه المُخْصب بينما كانت سجينة أحد الأبراج، أنا پيرسيوس الذى قهر الجورجونة ذات الضفائر الثعبانية. أنا مَنْ جَرُؤ على التحليق خلال طبقات الهواء بجناحيْن خفّاقيْن. ولو أننى تقدمتُ لخطبة فتاتكم لآثرتني على غيري، إلا أنني آثرت أن أكون موضع الاختبار مرة أخرى كى أضيف إلى ما ذكرته لكما من أمجاد بطولةً جديدة أحقّقها بعون الآلهة لي. فلْتعاهداني على أن تكون هذه الصبيّة من نصيبي إذا قُدِّر لى إنقاذها، ولسوف أكون عند عهدي». ورَضِىَ أبوها بهذا [ومَنْ ذا الذي لا يرضَى!] وتوسّلا إليه أن ينقذها وعاهداه على أن يمنحاه إضافة إلى ابنتهما مملكتهما هدية عرس له. وكان الوحش مُقبلاً آنذاك يشقّ الأمواج بصدره مسرعاً وكأنه سفينة تمخر عباب الموج بمقدّمها الحاد تدفعها قوة سواعد ملاّحيها المفتولة، واقترب حتى لم يبق بينه وبين الصخرة سوى مسافة لا تتجاوز مرمى المقلاع البلياري، فإذا پيرسيوس يحلّق عالياً فوق السّحاب وانعكس ظلّه على سطح الماء، فشرع الوحش يهاجم هذا الظل بشراسة، بينما انقض پيرسيوس على ظهره مُغمدا سيفه فى كتفه اليمنى حتى مقبضه المنحني وكأنه نسر چوپيتر عندما يهاجم ثعباناً وقع عليه بصره وقد تحوّى حول نفسه وسط حقل مقفر فيقبض عليه من الخلف ناشباً مخالبه الشّرهة فى عنقه ذي الحراشف خشية أن يلتفت فيواجهه بأنيابه السامة. وأخذ الوحش يخور بعد أن أثار الجرح العميق فيه إيلاما شديداً جعله ينتفض عالياً فى الهواء ثم يغوص فى المياه وكأنه خنزير برّي مفترس حاصره رهط من الكلاب الضارية أثارت فزعه بنباحها. وانطلق البطل يحلّق حول الوحش بجناحيه السريعين متوقّياً أنيابه الناهشة، ويلاحقه بضربات سيفه المقوّس فى أى جزء يلوح له منه، فمرّة يطعن ظهره السميك المكسو بمحارات مسنّنة، ومرّة يحطّم أضلاعه، وأخرى يشطر ذيله الذى تقلّص حتى صار كذيل السمكة، مطوّحا المرة بعد المرة بسيفه المقوّس كالمنجل فيبصق الوحش من فمه نزفا أحمر مصطبغاً بدمه الذى خضّب رذاذه جناحيْ پيرسيوس فأثقلهما. وإذ خشى مواصلة الاعتماد على ريشه بعدما

ابتل، لمح صخرة تبرز فوق سطح البحر لحظة هدأ لم يلمحها ساعة كان ثائراً، فتشبّث بها وأمسك بيُسراه نتوءاتها المدبّبة وطعن بسيفه جَنْبىْ الوحش ثلاثا ورباعا حتى أجهز عليه، فردّدت شواطىء البحر ورياض السماء أصوات التهليل والتصفيق، وغمر الفرح كلا من كاسيوپي وكيفيوس واحتفيا بصهْرهما پيرسيوس مُنقذ الأسرة وحاميها. وهكذا كانت أندروميدا مبعث بطولته الأخيرة وجائزتها فى آن معا. وهبطت الفتاة من الصخرة بعدما تحرّرت من أغلالها، وغسل البطل الفائز يديه بالماء الذي جاءوه به من البحر، وإذ خشى أن يجرح الصخرُ رأسَ ميدوسا الثعبانيّ الشعر مدّدها فوق حشيّة ملساء من أوراق الشجر وغطّاها بأعشاب البحر الطليّة. وعلى هذا النحو استقرت هناك رأس ميدوسا ابنة فوركيس التى نفذ أثرها إلى النباتات النضرة فجمدت بملامستها، واكتست أوراقها وفروعها صلابة شديدة. وانبرت حوريات البحر يتفحّصن هذه الظاهرة العجيبة التي طرأت على العديد من الغصون، مبتهجات كلما رأين غصناً جَمُدَ أمام أعينهن من جديد، فمضين ينثرن بذور هذه النباتات فوق الأمواج ليفُزْن بالمزيد من هذه المادة. ومايزال «المرجان» يتميّز حتى اليوم بتصلّبه عند ملامسته الهواء، وهو ليس إلاّ نباتاً رخواً إذا كان تحت سطح الماء، فإذا ما طفا أصبح صلباً كالحجر(٣٣) .

وقام پيرسيوس بتشييد مذابح ثلاثة يكسو العُشب أرضها، يقع أحدها يسارا كرّسه لميركوريوس، والثانى يمينا كرّسه لك أيتها العذراء المقاتلة، والأخير يتوسّطهما كرّسه لچوپيتر، ثم قدّم القرابين فذبح بقرة لمنيرڤا وعِجْلاً لميركوريوس الإله المجنّح القدميْن، وثوراً لچوپيتر أعظم الآلهة وأجلّها. ولم يلبث بعد ذلك أن طلب يد أندروميدا جائزة بطولته الأخيرة، وعقد عليها دون أن يدفع مهراً، ولوّح كل من كيوپيد وإله الزفاف بمشاعل العُرس أمامهما وغذّيا النار بفيض من البخور، وتدلّت من السقوف أكاليل الزهور، وانطلقت الأناشيد، وسُمع عزف الليرات وزمر المزامير فى كل مكان تعبيراً عن الفرح الذى يغمر القلبين المتحابّين، وفُتحت أبواب القصر على مصاريعها، وتبدّت قاعاته المذهّبة جميعا، ودلف أشراف البلاط الإثيوبي إلى الوليمة الفاخرة التى مُدّ سماطها.

وحين فرغوا من تناول الطعام، وطافت الخمر التى جاد بها باكخوس هدية للعروسين فأخذت تلعب بالرؤوس، تساءل پيرسيوس حفيد لينكيوس عن البلاد وعاداتها وأساليب عيشها وتقاليدها وخصال سكانها، فأجابه أحد المدعوين عما سأل عنه، ثم إذا هو يسأل هو

لوحـة ٤٧ . پيكار : البطل پيـرسـيـوس ينقـذ
أندروميدا من بين أنياب الوحش .

الآخر قائلاً: «هلا ذكرت لنا يا پيرسيوس يا أشجع الشجعان كيف قطعت رأس الجورجونة التي نبتت منها الثعابين بدل الشعر، فذلك وربّي شيءٌ يتطلّب جسارة وحذقاً؟». عندئذ حدّثهم سليل أسرة أجينور عن مغامراته قائلا إنه ثمة مكان تحت سفوح جبال أطلس بمعزل خلف كتل الصخور الصُّلبة، تقيم عند مدخله إبنتا فوركيس الشقيقتان اللتان تشتركان فى عين واحدة تريان بها. واستطاع پيرسيوس بمهارته ودهائه أن يسلب هذه العين بحركة من يده أثناء تنقّلها بين الشقيقتين، ثم سلك طرقاً نائية لم يطرقها أحد قبله خلال الأراضى الصخرية والغابات الكثيفة حتى بلغ دار الجورجونات. وشهد عبر الحقول وعلى جوانب الدروب تماثيل الرجال والوحوش التي حوّلتها مشاهدتها للجورجونة بعد أن كانت كائنات حيةً إلى كتل حجرية صمّاء. أما هو فقد تطلّع إلى صورة ميدوسا المرعبة المنعكسة على التُّرس البرونزي الذي كان يحمله على ذراعه اليسرى، وبينما كانت هى وأفاعيها تغطّ فى نوم عميق جزّ عنقها منتزعاً رأسها من بين كتفيها. ومن دماء الجورجونة المتدفّقة وُلد الجواد پيجاسوس ذو الجناحين السريعىْ الخفق، كما وُلد شقيقه خريساوور(٣٤).

ومضى پيرسيوس يروي أحداث أسفاره الطويلة ومخاطره المثيرة، متحدّثا عن البحر والبر كما رآهما من علٍ، وعن النجوم التى صعد إليها بجناحيه الخفّاقين. ولما سكت عن الحديث ازدادت لهفة الحاضرين إلى المزيد، وسأله أحد النبلاء، «وكيف للثعابين قد التفّت برأس ميدوسا دون شقيقتيها؟» فأجابه پيرسيوس قائلاً: «مادمت ترى فى ذلك قصة جديرة بأن أرويها فهاكها وأصغِ سَمْعك إلىّ: لقد اشتهرت ميدوسا فى وقت من الأوقات بجمالها الذي أوقد نار الغيرة بينَ المتقدّمين لخطبتها كلٌ منهم يأمل أن يظفر بها، وكان جمال شعرها أبرز معالم فتنتها، ولقد لقيتُ شخصاً يزعم أنه شاهدها حين كانت تتمتع بهذا الحُسن الآسر. وقيل إن إله البحار قد هتَك عُذريّتها داخل معبد مينرڤا، الأمر الذي أغضب إبنة چوپيتر فأدارت ظهرها وأخفت وجهها الخَفِر خلف تُرسها، وعاقبت الجورجونة على خطيئتها بأن أحالت شعرها إلى حيّات بشعة، ومن يومها ومنيرڤا ترتدي فوق صدرها تُرساً يحمل صورة تلك الأفاعي التي خلّفتها بمشيئتها كى تثير الرعب بين أعدائها»(٣٥).

الكتاب الخامس

الكتاب الخامس

پيرسيوس (تتمة)

وبينما البطل ابن داناى يروي مغامراته لرهط من أسرة كيفيسوس الإثيوپيين كان ثمة جمعٌ صاخب من الجماهير الثائرة قد احتشد داخل القصر، أخذوا يصيحون صيحات لا تتّفق وتهاليل أفراح العُرس وبهجتها بل تَشُوبها ضراوة المحاربين. وسرعان ما ساد الحفل اضطراب يشبه فورة مياه البحر إذ تحرّكها العاصفة الهوجاء، وكان فينيوس[1] هو زعيم هذا الحشد الدخيل ومحرّضهم على القتال. وقف شاهراً رمحه البرونزي السّنان والمنحوت من خشب الدردار وانبرى يتوعّد قائلا: «ها أنذا قد جئتُ للانتقام ممّن اختطف العروس التى وُعدْتُ بها، ولن ينقذك منّى ياپيرسيوس جناحاك ولا چوپيتر الذى تَمثّل لأمّك فى صورة قطرات ذهب خادعة». وتأهّب ليسدّد رمحه فزجره الملك كيفيوس قائلاً: «ما هذا الذي تفعله يا أخاه؟ وأية حماقة تلك التى تدفعك إلى الإقدام على هذا الجُرم؟ أهكذا يكون جزاء مَنْ أسْدَى إلىّ معروفاً جليلاً؟ أبهذا تكافىء مَنْ أنقذ حياة ابنتي؟ وإن كنتَ تروم الحق فعْلاً فلم يكن پيرسيوس هو الذى اختطفها منك، بل خطفها إله حوريات البحار [النيرياديس] الرهيب، خطفها آمون ذو القرنين[2] والوحش الذى انطلق من البحر كى يُتخم جوفه بأحشاء فلذة كبدي. لقد فقدتّها منذ

تلك اللحظة التى شارفتْ فيها على الهلاك فوق الصخرة، هذا إذا لم تكن أنت بقلبك القاسي تُريد لها الهلاك، وتتّخذ أنت من قَلَقنا عليها ما تتلهّى به. فما كان يحقّ لك أن تقف جامدا وهى مصفّدة بالأغلال على مرأى منكَ ولا تمدّ لها يد العون وأنت عمّها وخطيبها معاً، أوَ يليق بك بعد هذا أن تشكو وأن تَحْرِمَ مَنْ أنقذها جائزته. وإذا كنت حقاً تقدّرها حق قدرها أمَا كان الأوْلى بك أن تحملها بعيداً عن الصخور التى شُدّت عليها. ومادُمت لم تفعل فلتدعْ مَنْ أنقذها يظفر بما وُعدَبه ويجني ثمار ما قدّم. لقد خلّصني من أن أرزحَ تحت عبء شيخوخة أحْرَم فيها من حنان ابنتي، ولتعلم أننا لم نُؤثره عليك بل آثرناه على الموت الذى كان يتهدّدُها يقيناً».

وأرتج على فينيوس وراح ينقل نظراته بين الملك وپيرسيوس حائراً لا يدري إلى أيهما يسدّد رمحه، وبعد تردّد لم يطل رمى رمحه فى اتجاه پيرسيوس بكل ما شحنه به الغضب من قوة، غير أن رَمْيته ذهبت هباء إذ نفذ السهم فى أريكة پيرسيوس الذى قفز من بين الوسائد راشقاً رمحه فى صدر خصمه، لكن ما أسرع أن احتمى فينيوس بالمحراب الذي منحه حماية لم يكن جديراً بها. ومع ذلك فإن الرمح لم يطش وإنما نفذ فى جبين رويتوس فسقط صريعاً يقرع الأرض بكعبيه ويُخرج الرمح من جبينه فيتناثر دمه على المائدة المديدة. وعندها خرجت الجماهير الثائرة عن وعيها غاضبة مطوّحة الرماح هنا وهناك منادية بقتل كيفيوس وصهره. لكن كيفيوس كان قد بادر فغادر قصره مقتنعاً بعدالة موقفه، مُشْهداً آلهة الضيافة على أنه لا يد له فيما حدث وأن ما وقع كان ضد مشيئته.

وأقبلت پالاس المحاربة وقدّمت تُرسها لحماية أخيها پيرسيوس فأذكتْ فيه الشجاعة. وكان أول مَنْ تصدّى له هندىّ اسمه أثيس وضعته أمّه «ليمناى» إحدى حوريات نهر الجَنْج على ضفاف مياهه الصافية. وكان الفتى قد أكمل السادسة عشر من عمره بهيّ الطلعة تُزيده ثيابه الأنيقة وسامة ويرتدي معطفاً من معاطف «صُور» وُشّى بأهداب من قصب، ويطوّق عنقه عقدٌ من الحليات الذهبية، ويضمّ شعرُه المعطّر بالمُرّ مشطٌ مقوّس، لا يخطىء رمحه هدفاً مَهْما بَعُد ويجيد استخدام القوس، غير أنه ما كاد يبدأ بشدّ قوسه المرن حتى ألقاه پيرسيوس بجمرة مشتعلة من جمرات المذبح جندلته على الأرض فتهشّمت عظام جمجمته ووجهه.

وحينما رأى ليكاباس الأشوري أعزّ أصدقائه أثيس مُجَنْدَلاً بكاه وهو يشهده يلفظ أنفاسه الأخيرة، تُغَشّي الجراح ذلك الوجه الذي كان به مفتوناً وتغمره بِرْكة من الدماء، فانتزع القوس

التي كان أثيس قد شدّ إليها السهم صائحا : «لأنازلنّك الآن بنفسي ، ولن أتركك تَسْعدَ بالقضاء على فتى لن يُكسبك موته غير العار» . وانطلق السهم قبل أن يُتمّ عبارته ، غير أن پيرسيوس أفلت منه فلم يُصبْ غير طيّات ثيابه ، ثم انطلق پيرسيوس شاهراً سيفه المقوّس - الذى أطاح به عنق ميدوسا - وأغمده فى صدر ليكاباس ، وحملق ليكاباس بعينيه الزائغتين فى جثمان صفيّه أثيس ثم سقط إلى جواره مطمئن النفس لموتهما معاً ورحيلهما سويّا إلى عالم الأطياف .

وحاول كل من فورباس الأسواني وأمفيميدون الليبي المشاركة فى المنازلة غير أنهما انزلقا فى برْكة من الدماء المتخثّرة على الأرض فسقطا ، وصرعهما پيرسيوس حين أغمد سيفه فى ضلوع أمفيميدون ثم فى حلق فورباس . وكان مصير يوريتوس ابن أكتور مختلفاً ، لأن پيرسيوس لم يحاول الوصول إليه بسيفه إذ كان يوريتوس مسلّحاً بشاطور عريض النّصل ، بل حمل بين يديه وعاء ضخماً ثقيلاً بارز النقوش ، وهوى به على رأس يوريتوس فانبثق الدم غزيراً من فمه وسقط إلى الوراء يعاني سكرات الموت بعد أن ارتطم رأسه بالأرض مهشّماً .

وأوْدَى پيرسيوس بحياة كل من پوليديجمون أحد أحفاد سميراميس ، وأباريس القوقازي وليسيتوس الثيسالي ، وهيليكس المُرسل الشعر ، وفليجياس ، وكليتوس ، ثم انطلق يطأ جثث ضحاياه بقدميه . ولم يجسر فينيوس على منازلة خصمه عن قُرب بل رماه برمحه عن بُعْد فأخطأه الرمح وانحرف إلى جسد إيداس الذي كان قد نأى بنفسه عن القتال ولم يشأ الانضمام إلى أحد الفريقين فلم يُغْنه ذلك شيئاً ، لذلك حنق على فينيوس وصاح فيه قائلا : «مادمت قد حملتني حملاً على أن أنحاز إلى أحد الفريقين وجعلت منّى خصماً لك ، فلأصبْك بجرح لقاء ذلك الجرح الذي أصَبْتني به» ، وجعل ينزع الرمح من جسده وهمّ بقذف خصمه به غير أنه سرعان ما سقط مغشيّا عليه والدماء تنزف منه .

ولفظُ هوديتيس - أعظم أبطال إثيوپيا بعد الملك - أنفاسه بسيف كليمينوس ، وصرع هيپسيوس پروثوينور ، فتكفّل پيرسيوس بذبح هيپسيوس . وكان بين الحاضرين رجل مُسنّ يُجلّ العدالة ويوقّر الآلهة هو إيماثيون لم يشترك فى القتال بسيفه لشيخوخته ، لكنه شارك بلسانه فمضى يصبّ لعناته على هذه المعركة الآثمة ، بينما يستند على المحراب بيده المرتعشة حين هوى عليه خروميس بسيفه وأطاح برأسه فسقطت على المحراب وظل لسانه يرتجف وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة وسط ألسنة النار . ثم سقط الشقيقان التوأمان بروتياس وأمُّون ، وكانا لا

يُقهران بفضل قفاز[٣] المصارعة الذى يدسُّون فيه قبضاتهم، غير أنه لا حيلة للقفاز أمام صَوْلة السيوف فقضى عليهما فينيوس بسيفه، كما قضى على أبيكوس كاهن سيريس الذي كان يُطوّق جبينه بعصابة بيضاء. كذلك خرَّ لامپيتيديس صريعاً ولم يكن مؤهّلاً للقتال بل للغناء والعزف على القيثارة، وكان قد دُعى لإحياء الحفل وإنشاد أهازيج العرس، ورآه پيداسوس يتوسّط جمعا من الرجال ممسكاً بريشة قيثارته عديمة الجدوى فى المجالدة فصاح فيه «لتُنشدْ الآن ما بقى من أغنيتك لأطياف العالم السُّفلي» وأغمد سيفه فى صدغ لامپيتيديس الأيسر ليطعنه طعنة فاهقة فسقط وقد انطبقت أصابعه على أوتار قيثارته فإذا هى تنشج بنغمٍ حزين. وثار ليكورماس الشجاع لموت الشاعر واندفع يثأر له فخلع قضيباً ضخماً من الباب دقّ به عنق پيداسوس فخرّ صريعاً كما يخرّ العجل الذبيح قرباناً، وحاول پيلاتس الوافد من شواطىء نهر سينيـيس[٤] أن يخلع قضيباً من الباب الآخر فعاجله رمح كوريثوس الليبي الذي ثبّت كفّه بخشب الباب، وأدركه آباس بطعنة فى جنبه مات على إثرها وظل معلّقا بمصراع الباب، كما أجْهَزَ على ميلانيوس أحد أتباع پيرسيوس، وكذلك دوريلاس أغنى مُلاّك ناسامونيا[٥] وأشهر أصحاب الضياع الفسيحة فيها وأكثرهم امتلاكا لأهراء التوابل، فلقد أصماه هاليكونيوس البختياري برمح نفذ فى فخذه فأصاب خصْيته، وحينما رآه يلفظ أنفاسه الأخيرة زائغ العينين قال له: «حَسْبُك هذه الرقعة الصغيرة التي ترقد عليها بدلا من الأراضي الشاسعات التي تملكها». وسارع پيرسيوس بالانتقام لدوريلاس فانتزع الرمح من جسده الذى كان ما يزال محتفظا بحرارة دمه وقذف به هاليكونيوس فجَدَع أنفه واخترق رقبته نافذا من خلفها. وظل القدر يرعى يدىْ پيرسيوس حتى صرع الشقيقين كليتيوس وكلانيس اللذين وإن وُلدا من أم واحدة إلاّ أنهما تَهافَتا بجُرحيْن مختلفين، فقد نفذ رمح پيرسيوس فى فخذىْ كليتيوس بينما غاص فى حلق كلانيس وكأنه يطحنه بأضراس فكّيه، كما لقى كيلادون من منديس[٦] مصرعه، وكذا أستريوس الفلسطيني الأم المجهول الأب، وهلك أيثيون الذي كان رغم حذقه فى القدرة على التنبؤ جاهلاً بمصرعه، وثواكتيس حامل دروع الملك، وأجيرتيس الموصوم بقتل مولاه.

وكان على پيرسيوس بعد كل ما أبلَى فى هذا العراك أن يبذل جهداً فوق كلٍّ ما بذله، فقد انفرد به المهاجمون للإجهاز عليه، وتقاطر نحوه الخصوم من كل حدب وصَوْب هادفين إلى

لوحة ٤٨ . پيكار: الاقتتال بين پيرسيوس
وفينيوس وأتباعه .

الحيلولة دون ظفره بما وُعدَ به. ولم يُغْن شيئاً وقوف الملك وزوجته والعروس إلى جانبه، فلقد ضاع صراخ الملك وسط صليل السيوف وأنين القتلى، بينما تُغرق بيللونا ربّةُ الحرب دار الملك بالدماء مُذْكية نار القتال.

وحاصر فينيوس وأتباعه الألف پيرسيوس وحده، وتهاوت رماحهم عليه تهاوي البَرَد فى الشتاء أو أشدّ، فأسند كتفيه إلى عمود حجري كبير يحمي به ظهره وواجه الخصوم صامداً لهجومهم. وكان يتربّص له من جهة اليسار مولپيوس الخاروني[٧] ويهاجمه من اليمين إيثيمون النبطي[٨]، وبدا بين خصميه كنمر جائع قد سمع خوار قطيعين من الأبقار فى واديين مختلفين فى آن معـا فلم يدر أيهما يهاجم أولاً، وودّ لو استطاع أن يثب إلى الاتجاهين فى اللحظة نفسها. وأخذ پيرسيوس يسأل نفسه عمّن يبدأ بالقضاء عليه، وإذا هو يُعَاجل مولپيوس بطعنة نجلاء مزّقت لحم ساقه غير أنه لم يستطيع ملاحقته لأن إيثيمون لم يتركه بل أقبل عليه شاهراً سيفه فوق عنقه، إلا أن السيف الطائش اصطدم بحافة عمود فانكسر وارتد نصله فى حَلْق مَنْ أطلقه، ولم يكن الجرح مميتاً بيد أن وقوفه أعزل مرتجفا أتاح لپيرسيوس أن يُرْديه ويجزله بسيف ميركوريوس. وأخيراً تيقّن البطل من أن شجاعته أضحت عاجزة أمام هذا العدد الغفير من الخصوم فصاح: «مادمتم تُكْرهونني على الالتجاء إلى ما لم أكن أودّ اللجوء إليه، فلسوف أطلب العون ممن كانت لى خصماً، وليُشِح بوجهه إذن مَنْ كان صديقاً»، ثم ما لبث أن أخرج رأس الجورجونة وكَشَفها أمامهم. وانبرى له ثيسكيلوس ساخرا منه قائلا: «هل لك أن تخدع غيرنا يا پيرسيوس ممن تجوز عليهم حيَلُك»، وكان قد تحفّز لقذف رمحه فإذا هو يجمد فى وضعه ومكانه إلى الأبد إذ تحوّل تمثالاً من رخام، وتقدّم فى إثره أمپيكس محاولاً إغماد سيفه فى صدر پيرسيوس الشجاع غير أن يده جَمُدت ولم تعد تتحرك للأمام ولا للخلف وتحجّر على هذا الوضع. عندها برز نيليوس الذى كان يَدّعي زُوراً انتسابه إلى النيل ذي المصبّات السبعة، ورفع تُرسه المنقوشة عليه فروع النهر السبعة بعضها بالذهب وبعضها بالفضة، وصاح: «تطلّع يا پيرسيوس إلى أين يمتدّ نسبي، ولسوف يُسرّي عنك أنك ذاهب إلى عالم الموتى على يدىْ بطل مثلي»، وهنا اختنقت كلماته الأخيرة فى حلقه وبقيت شفتاه منفرجتين إلى الأبد وكأنه يتكلم لكن دون صوت. وصاح إيريكس مؤنباً المحاربين بقوله: «إنه الجبن هو

لوحة ٤٩ . پيكار : پيرسيوس يحوّل فينيوس
وأتباعه إلى أحجار .

الذي يجعلكم تجمدون وليس رأس الجورجونة، هلمّوا معي للقضاء على هذا الفتى وسلاحه السحري»، ولكنه لم يكد يندفع خطوة للأمام حتى تحوّل إلى تمثال من حجر.

وإذا كان هؤلاء جميعاً قد استحقوا العقاب الذي نزل بهم، فثمة محارب من أنصار پيرسيوس هو أكونتيوس كان بصره قد وقع على رأس الجورجونة فجَمُد على الفور هو الآخر، وظن أستياجيس من خصوم پيرسيوس أنه مازال حيّا فضربه بسيفه الطويل فإذا هو يسمع رنين ارتطامه بالحجر فوقف لساعته متعجّبا، وإذا هو الآخر يتحوّل تمثالاً حجرياً تعلو قسمات وجهه تعابير الدّهشة والتعجّب.

ويطول سرد أسماء الدهماء من الجنود الذين هُلكوا فى هذه المعركة، فلم يبق حيّا منهم سوى مئتين على حين تحوّل مئتان منهم إلى تماثيل حجرية بمجرد تطلّعهم إلى رأس الجورجونة. وفى النهاية أترع فينيوس أسىً على ذلك القتال الذى بدأه ظالماً، لكن ما عساه يفعل الآن؟ لقد رأى رجاله تماثيلَ فى وضعات مختلفة، وكان يتبيّنهم ويناديهم بأسمائهم طالباً منهم العون غير مصدّق ما تراه عيناه، ومضى يتحسّس أقرب الأجسام إليه فإذا هو رخام فابتعد عنه قانطا مستسلما، ورفع ذراعيه ضارعا إلى پيرسيوس متحاشيا النظر إليه قائلاً: «لأنتَ الفائز يا پيرسيوس فغُض سلاحك البشع عن الأنظار. أخف رأس ميدوسا. أخف تلك الرأس التي تُحوّل الرجال إلى صخور. ناشدتك أن تُخفيها، فلَمْ تَدْفعني إلى القتال كراهيتي لك ونزوعي نحو السيطرة بل هى الرغبة فى العروس التى وُعدت بها. لقد أدّيتَ لها الكثير الذي يجعلك لها أهلاً لكنني عرفتُها قبلَك، ولن يضيرني الآن أن أسْلمها إليك، هَبْ لى إذن شيئاً واحداً أيها البطل العظيم، هَبْ لى حياتي وحدها، وليكن لك بعد ذلك ما تشاء».

ولم يجرؤ فينيوس وهو يتكلم على التطلّع إلى الرجل الذي يتضرّع إليه مُستكينا، فأجابه پيرسيوس قائلاً: «فينيوس يا أجبن الخلق، لسوف أنعمُ عليك بما أستطيعه، وهو منحة عظيمة لو تعلم لرجل فى مثل وضاعتك. لا تخش أن يصيبك سيفي بأذىً، فسوف أجعل منك تمثالاً منتصبا فى قصر حَميّ إلى الأبد حيث لا يغيب عن نظر زوجتي التي كنتَ قد خطبتها يوماً». ثم لوّح برأس بنت فوركيس فى الاتجاه الذي يتطلّع إليه فينيوس وقد ارتسمت على وجهه علامات الهلع. ولقد حاول الجبان أن يزيغ عينيه غير أن عنقه جَمُدت وتحجّرت الدموع فى عينيه

واستحال صخراً جلمودا بقيت قسمات الرعب مطبوعة على وجهه كما ظلّت يداه معبّرتين عن خضوعه وتذلّله .

وعاد «پيرسيوس» حفيد أكريسيوس بعد ذلك إلى موطن أسلافه منتصراً ترافقه عروسه . وبالرغم من أن جدّه لم يكن قد بذل ما يستحق عليه العون ، إلا أن پيرسيوس انبرى يثأر لأكريسيوس آخذاً بحقّه وهو يعدّ الإهانة التي لحقت بجدّه إهانة له ، فشنّ الحرب على «پرويتوس» الذى كان قد أرغم أخاه «أكريسيوس» بقوة سلاحه على الفرار واستولى على قلعته ، فلم تفلح أمضَى أسلحته البتَّارة ولا مقاومة القلعة التى اغتصبها فى حمايته أمام النظرة البشعة الرهيبة للرأس ذات الشعر الثعباني .

أما أنت يا پوليديكتيس(٩) ، يا مَنْ توليّت مُلك جزيرة سيريفوس الصغيرة فلم يُثرْ فيك هذا الإقدام الذي أوتيه ذلك البطل الشاب ، ولا تلك البطولات التي شهدت بها مغامراته العديدة ، ولا الكوارث التي حلّت به أى تعاطف معه ، لكنك كنت تطارده عن كراهية لا تفتر وغضب مجتاح لا حدود له ، فكنت تهوّن من بطولاته كافة وتدّعي أن قتل ميدوسا لم يكن سوى حديث إفك . عندها صاح پيرسيوس برفاق الملك قائلا : «فلْتُشيحوا بوجوهكم جميعا» ، ثم التفت إلي الملك وأخرج له وجه الجورجونة ميدوسا كى يُثبت له صدْقيّه ما ادّعى ، فحوّل وجه الملك إلى حجر دون أن يسفك قطرة من دمه .

ينبوع هيپوكريني . ربّات الفن و بنات پييروس

لم تفارق تريتونيا «منيرڤا» [تريتونيا نسبة إلى بحيرة تريتون بأفريقيا] طيلة الوقت أخاها البطل الذى أنجبه چوپيتر من داناى بعد أن تنكّر فى صورة شؤبوب من القطرات الذهبية . وما لبثت أن التفّت بسحابة ورحلت عن سيريفوس مخلّفة وراءها كلاّ من جزيرتىْ كيثنوس وجياروس ، سالكةً أقصر الطرق عبر البحر إلى طيبه وجبل هليكون موطن ربّات الفنون التسع حتى إذا بلغت الجبل خاطبت الشقيقات النابغات قائلة : «نَميَتْ إلى سَمْعي شائعةٌ تقول بأن ينبوعاً قد تفجّر من الأرض بضربة من حافر الحصان المجنّح «پيجاسوس» وليد «ميدوسا» ، وهاأنذا قد أتيت لمشاهدة هذا الينبوع

العجيب بعد أن شاهدت انبثاق هذا الجواد من دم أمه المنزوف» ، فأجابتها أورانيا : «مرحباً بك أيتها الإلهة ، وأيّاً كان الغرض من زيارتك لديارنا فهى كفيلة بإضفاء السكينة على قلوبنا . أمّا قصة تفجّر الينبوع فهى صحيحة» . ثم قادت باللاس إلى ينبوع هيپوكريني المقدّس ، فوقفت الإلهة برهة طويلة تحملق دَهشَةً فى هذا الينبوع الذي فجّرته ضربةٌ من حافر جواد ، ثم جالت ببصرها حول الينبوع مستعرضةً الكهوف والأجمات الموغلة فى القدم والسفوح الخُضر المرصّعة بمختلف أنواع الزهور . وعبّرت الإلهة لبنات «منيموزيني» عن تمنّياتها لهنّ بالسعادة فى موطنهن وبالتوفيق فيما يضطلعن به من رسالة نبيلة . فردّت عليها إحدى الشقيقات قائلة : «أيَا باللاس تريتونيا ، يا مَنْ كنت ستُصبحين واحدة منّا عن جدارة لولا مزاياك التى أهّلتك لحمل رسالة أجلّ شأناً . إن ما تقولينه هو الحق بعينه فما أصدق امتداحك موطننا وإطرائك رسالتنا . وإن الحظ ليسعدنا لو أتيح لنا أن ننعم بهما فى هدوء ، غير أن ما يلحق بنا من أذى لا حدود له ، فكل ما حولنا يهدّد أرواحنا العذرية فبتنا فى خوف دائم . إن صورة الملك «پيرينيوس» الشّرس ماثلةٌ دائماً أمام عيوننا حتى سيطر علينا الذعر ، فلقد استولى ذلك المحارب العنيف بمعونة جنده الطراقيين على بلاد دوليس وحقول «فوكيس» ونصب نفسه ملكاً على الأراضي التي اغتصبها عنوة . وكنا ذات يوم - نحن الربّات - فى طريقنا إلى معبدنا
٢٨٠ فى جبل «پارناسوس» فلمحنا لحظة مررنا به وتظاهر بإجلاله صفتنا الإلهية ، و دعانا لدخول داره اتقاء المطر قائلاً : «يا بنات منيموزيني ، ناشدتكنّ أن تتلبّثن بُرهة وألاّ تتردّدن فى الاحتماء بداري من المطر والعاصفة ، فما أكثر ما دخلت الآلهة دوراً أشدّ تواضعا من داري» ، فحفزنا ترحيبه وكذا رداءة الطقس على قبول دعوته ، وسرعان ما دفعت ريحُ الشمال ريحَ الجنوب وبدّدت غيومها فبدت السماء صافية من جديد ، وعندما هَمَمْنا باستئناف مسيرتنا إذا پيرينيوس يُغلق علينا باب داره وشرع يحاول اغتصابنا ، إلا أننا تمكّنا من الإفلات منه باستخدام أجنحتنا التي حلّقنا بها عالياً ، فانطلق وراءنا مسرعا يرتقي شرفة عالية صائحاً فينا «لأمضينّ فى إثركن أينما تذهبْن !» لكنه ما لبث أن سقط من قمة البرج فى غمرة جنونه فهوَى مرتطما بالأرض التي شهدت نثار عظام جمجمته المهشّمة مخضّبةً الأرض بدمه» .

وخفقت أجنحةٌ فى الفضاء خلال حديث ربّة الفن ، ودوّت من أعلى الغصون عبارات التّحية ، فتطلّعت إبنة چوپيتر إلى أعلَى لترى مصدر هذا الصوت ، وكانت الكلمات واضحة حتى ظنّت المتحدثَ إنساناً ولم يكن غير طيْر من الطيور . كانت هناك تسعة من طيور العقعق

لوحـة ٥٠ . پيكار: زيارة الإلهـة پالاس لربّات
الفنون.

التي تستطيع محاكاة مختلف الأصوات وقد حطّت على غصون الشجر ناعيةً مصيرها.

وعندما بدت الدهشة على منيرڤا انبرت ربّة الفن تفسّر لها الأمر قائلة: «إن هذه الطيور كانت بَشَراً قبل إخفاقها فى إحدى المباريات وتحوّلها إلى طيور. كان أبوهن «پييروس» أحد كبار أثرياء پيللا وكانت أمّهن أويپي من «پايونيا»[10] قد ناشدت لوكينا ربّة الإنجاب العون تسع مرات، وأعانتها فوضعت تسع مرات. وكانت الشقيقات التسع الحمقاوات قد تملّكهن الغرور لكثرة عددهن ومضيْن يتنقّلن عبر بلاد «هايمونيا» وآخايا. وحين وفدن على جبل هليكون استفززننا بقولهن: «ألا توقّفتنّ عن فرض أنفسكن على الدهماء الجهلة بادعائكن أنكن منشداتٌ رخيمات الأصوات. إن تكنّ واثقات من مواهبكن فتعاليْن معنا يا بنات ثيسپياى»[11] المقدّسات نتبارَى، فلسنا دونكن فى رخامة الصوت ولا فى مهارة الإنشاد، كما أننا نساويكُن عددا، فإذا خسرتُن المباراة تركتُن الينبوع الذي فجّره ابن ميدوسا وينبوع أجانيپي فى بويوتيا. أما إذا خَسِرنا نحن انسحبنا من سهول مقدونيا إلى پايونيا المكسوّة بالثلوج، على أن تقوم الحوريات مقام الحكَم فى المباراة». ولقد كان عاراً علينا أن نباريَهن، كما كان من العار أيضا أن نتراجع مُنسحبات من المباراة، فتمّ اختيار الحوريات اللاتي أقسمن بأنهرهنّ أن يكُنّ فى جانب العدل، واتخذن أماكنهن فوق جلاميد الصخر الصلْد. ولم نحتج إلى الإقتراع فيمن يبدأ المباراة، إذ أنشدت مَنْ استهلّت المباراة نشيداً يروي حروب سكان السماوات ونسبت المجد إلى العمالقة زُوراً مستهينة بأمجاد كبار الآلهة، فروت كيف انطلق تيفويوس من أعماق الأرض ناشراً الذعر بين سكان السماوات، وكيف فرّ منه جميع الآلهة هاربين حتى لاذوا بأرض مصر فى وادي النيل ذى المصبّات السبعة، وكيف طاردهم العملاق تيفويوس وليد الأرض فى مأواهم فتنكّر الآلهة فى أشكال مختلفة كى يخدعوه. تخفّى چوپيتر بصورة كبش يقود قطيعا، وهذا هو السرّ فى تصوير آمون الليبي[12] حتى اليوم بقرون لولبية، كما تخفّى أپوللو فى شكل الغراب، و تحول ابن سيميليه تَيْساً، وشقيقه فويبوس قطّاً، وچونو عجْلة بيضاء، وڤينوس سمكةً، بينما اتخذ ميركوريوس إله كيليني أجنحة الطائر أيبس. أنشدت الكثير من هذه الروايات على أنغام القيثارة، ولم يكن أمامنا ـ نحن ربّات الفنون ـ إزاء هذا التحدّي إلاّ الردّ عليها. وقد لا يتسع وقتك للمزيد أيتها الإلهة، أو قد لا تتيح لك مشاغلك فرصة الاستماع إلى أنشودة الربّات؟» فردّت پالّلاس «حنانيْك، لا تخشيْ ذلك. أخبريني بما أنشدته بتفاصيله على ترتيب وقوعه». ثم جلست پاللاس فى ظلال الشجر الوارفة، وواصلت ربّة الفنون

قصتها قائلة: «لقد اصطفينا من بيننا «كاليوپي»[١٣] لتمثّلنا جميعاً، فنهضت منتصبة وقد شدّت خصلات شعرها المُرْسلة بإكليل من اللبلاب، وغمزت أوتار قيثارتها الحانية بسبّابتها، مُنشدة:

سيريس وپروسيرپينا

كانت سيريس أول من حَرَث طين الأرض بمحراثها المقوّس، وأول من نثر بذور الحنطة وسائرِ الغلال، كما فرضت على العالم نواميسه الأولى. ومن هنا فنحن ندين لسيريس بكل ما نملك، وبات عليّ أن أتغنّى بمآثرها، فليت نشيدى يكون جديرا بها، فالإلهة يقينا جديرة به.

أرسيت جزيرة صقلية الفسيحة فوق جسد «العملاق» تيفويوس الذي بلغت به جُرأة التطاول أن تطلّع إلى الإقامة فى السماء. وما أكثر ما حاول النهوض من تحت الجزيرة، غير أن يده اليمنى لم تقو على الحراك تحت وطأة جبل بيلوروس القريب من أوزونيا[١٤]، كما جَمُدَت يده اليسرى تحت جبل پاخينوس، بينما شُدّ وثاق ساقيه أسفل جبل ليليبا يوم[١٥]. واستقر بركان إتنا بثقله فوق رأسه وهو ينفث اللّهب والحمم من فكّيه المخوفتين بينما يرقد «العملاق» مستلقيا فوق ظهره. وما أكثر ما حاول الخلاص من عبء الأرض فوق ظهره بكل ما فيها من مدن ورُبى وهضاب وتلال تقيّده. وعندها زلزلت الأرض زلزالها حتى خشى ملك الأشباح الصامتة أن تنشقّ الأرضُ عن فجوات واسعة تُفسح لضوء النهار أن يتسلّل إلى مملكته فيُخيف أطياف الموتى القلقة، فإذا التوجّس يدفعه إلى مغادرة مملكة الظلام التي يسودها فى مركبته التي تجرّها الجياد السود ويدور بها حول الدعامات التي ترتكز عليها جزيرة صقلية ليطمئن إلى أنه ليس ثمة مواطن ضعف فيها، فلمحته سيدة إريكس[١٦] [ڤينوس] التي كانت تحتضن ابنها المجنّح [كيوپيد] وتناجيه قائلة له: أىْ كيوپيد يا مَنْ أنت ساعدي وسلاحي وأداة بأسي، إليك يا بُنىّ هذه السّهام تُخضع بها الجميع لسلطانك، سدِّد أسرعها إلى قلب الإله المسيطر على آخر ممالك الكون الثلاث. لقد أخضعتَ آلهة الآفاق العلوية بما فيهم چوپيتر نفسه، وكذلك فعلتَ بآلهة البحار دون أن تستثني كبيرهم، فلمَ تُهمل شأن تارتاروس؟ ولماذا لا يمتد سلطاني الذي

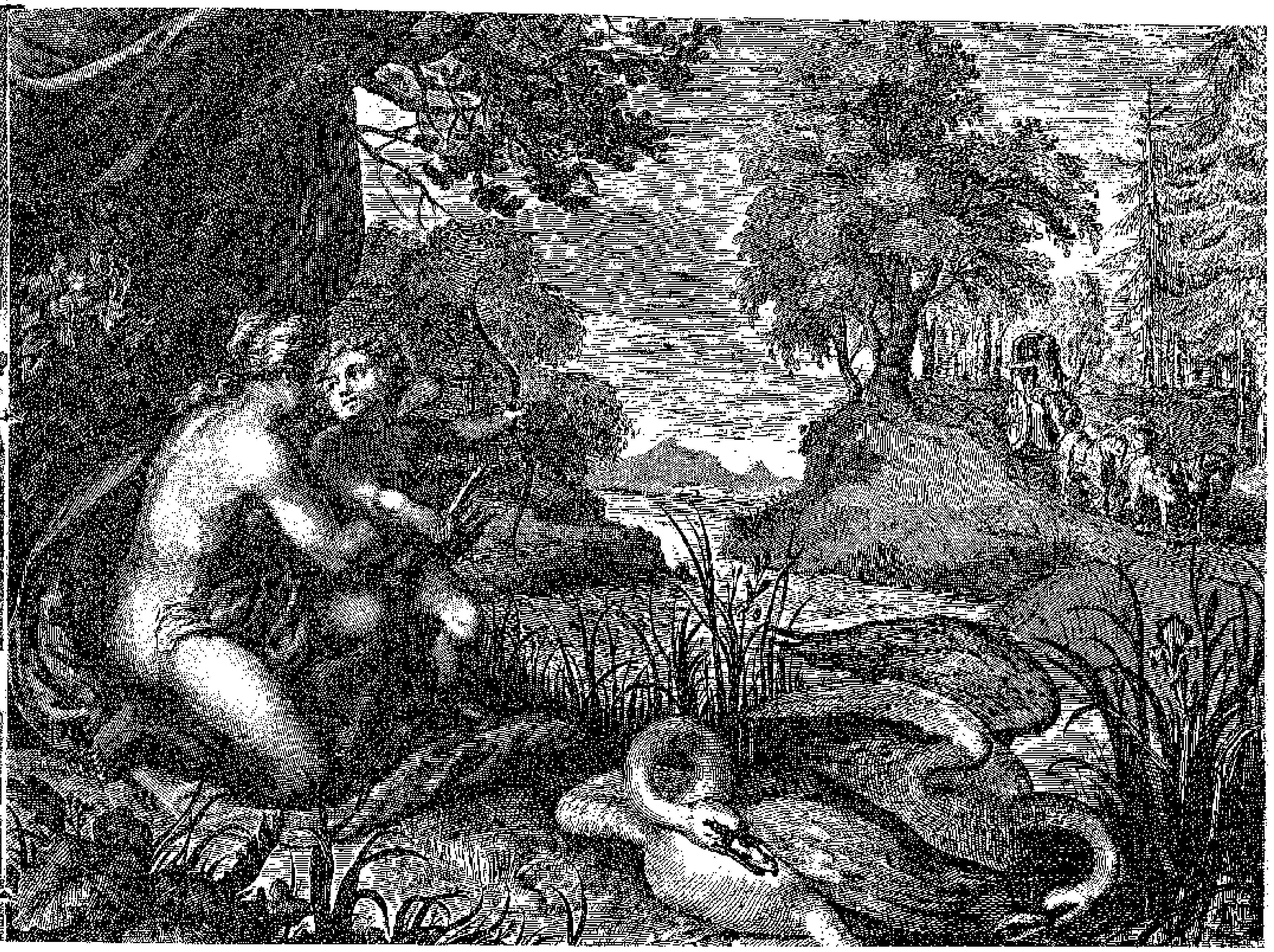

لوحة ٥١ . پيكار : كيوپيد يصيب پلوتو بسهم
الحب بإيعاز من ڤينوس .

لوحة ٥٢ . پيكار : پلوتو يختطف پروسيرپينا .

هو سلطانك يا ولدي إلى العالم السُّفلي وهو ثُلث الكون؟ ولا يغيب عنك أن السماء قد بدأت تَزْدَرينا لتَراخينا، بعد أن أخذ سلطان الحب يَضْمُر ويضمر معه سلطاني. ألَمْ تَرَ إلى پالاس وديانا ربّة الصّيد يُشيحان بوجهيهما عنّي، كما أن إبنة سيريس ستبقى عذراء إن تركنا الأمر لها، فتلك أمنيتها؟ وإذا كنت حريصاً حقا على صَوْن هيبة مملكتنا التي تشاطرني حكمها فقاربْ إذن بين هذه الإلهة وعمّها برباط الحب»[١٧]. وما إن فرغت من حديثها حتى فتح كيوپيد كنانته فتخيّر من بين سهامه الألف أمضاها وأطوعها لقوسه كما شاءت أمّه، وشدّ قوسه مستنداً إلى رُكبته مُطْلقا سهماً أصاب پلوتو وانغرز فيه سنُّه.

وعلى مقربة من أسوار مدينة هنّا[١٨] تمتد بحيرة عميقة الغوْر أطلق عليها اسم «پيرجوس» ينافس هديلُ بجعاتها شدوَ البجعات التي تُطرب سَمْع نهر كايستر[١٩] وهى تطفو فوق صفحة مياهه الجارية. وقد أحاطت الأشجار بالبحيرة تحميها من أشعة فويبوس بأوراق غصونها الكثيفة وتكسوها بظلال رطبة، كما تنشر المراعي الخصبة من حولها متأنّقةً بالأزاهير حتى بات المشهد وكأنه ربيع دائم. كانت پروسيرپينا [پيرسيفوني عند الإغريق] تلهو هناك باقتطاف أزهار البنفسج والسَّوسن ثم تجمعها مرحةً مرح الطفولة البرىء فى سلّتها أو بين طيّات ثوبها محاولة أن تَبَزّ رفيقاتها، وحين وقع عليها بصر پلوتو بعد أن أصابه سهم كيوپيد إذا هو يقع فى غرامها فاختطفها، فما أعْتَى لهفة الحب! وأخذت الإلهة المذعورة تبكي صائحة مستغيثة بأمها وبرفيقاتها وهى تمزّق رداء صدرها حتى سقطت الأزهار التي كانت قد جمعتها فى ثناياه، وتضاعفت حسرتها حين رأت خاطفها يستثير الخيول التي تجرّ مركبته منادياً كل جواد باسمه يستحثّه على مضاعفة سرعته، ويهزّ أعنّتها الصبيغة بألوان داكنة من فوق رقابها وأعرافها وهى تعدو فوق البحيرات العميقة الأغوار والبرك الكبريتية فى بلاد الپاليكي[٢٠] التى تنبثق مياهُها من عمق الأرض ساخنة فوّارة، ثم مرّت المركبة بالبقعة التي شيّدت فيها سلالة باكخاداى الوافدة من كورنثه وبرزخها[٢١] أسوار مدينتها بين مينائين يكبرُ أحدهما الآخر.

الحـورية كيـــاني

وكان ثمة خليج فى المنطقة التي تفصل بين برِكة كياني وجدول آريثوزا النابع من بيزا، تتجمّع فيه مياه البحر محصورة بين شاطئى المجرى الذي يزداد ضيقاً كلما قارب نهايته. وكانت «كياني» أشهر حوريات صقلية التى أطلق اسمها على البركة وتُعرف به، وفيما كانت تطلّ بجذعها فوق صفحة الماء تعرّفت على الإلهة المخطوفة فصاحت بمختطفها: «لا تذهب بابنة سيريس أبعد من هذا يا پلوتو، وحذار أن تَبْنِي بها إن لم تكن هى راغبةً فى ذلك. لقد كان أولى بك أن تُغازلها وتستميلها بدلاً من اختطافها. ولو أُتيحَ لى فرصةُ لحدّثتُك عن واقعة حب مشابهة، فلقد وقع أناپيس[٢٢] هو الآخر في غرامي وصِرْتُ عروسه بعد أن استمالني بتوسّلاته لا خضوعا مني لمثل هذا الذُّعر الذى تحرّكه فى صدر هذه الصبيّة». وما لبثت أن بسطت ذراعيها خلال حديثهما فسدّت الطريق أمام پلوتو بن ساتورن الذى لم يستطع كبح جماح غضبه فاستنفر خيوله المتجهّمة، وقذف بصولجان مُلكه فى قاع البركة فإذا الأرض تنشقّ ممهّدة طريقاً إلى تارتاروس، وانطلقت مركبته غائصة إلى مملكته من خلال هذا الشّقّ. ومضت كياني تندب اختطاف الإلهة حزينةً على استهانة پلوتو بسلطانها على برِكتها، واستقر فى قلبها جُرح لاشفاء منه، فبدأت تذوي من فرط بكائها، فتخاذلت أعضاؤها وأخذت عظامها تلين وتتحوّل أظافرها من الصّلابة إلى الطراوة حتى تحلّلت تماماً فى الماء الذي كانت فى الماضي إلهته الجليلة. وكانت أجزاء جسدها الدقيقة هى أول ما بدأ فى التحلّل؛ شعرها الداكن الزُّرقة وأصابعها وساقاها وقدماها. وما أسرع ما تحوّلت هذه الأعضاء إلى أمواج باردة، ثم اختفى كتفاها وظهرها وردفاها ونهداها فى سيولة الماء حتى تحوّل الدم الذي يجرى فى عروقها إلى ماء سيّال، ولم يبق منها شيء تقبض عليه كفّ إنسان.

وتسلّلت الهموم إلى قلب سيريس أم پروسيرپينا وهى تجوب الأرض والبحار تحاول عبثاً العثور على ابنتها، ولم تقع عليها عين «أورورا» ربّة الفجر لحظة يقظتها بضفائرها النديّة، كما لم يشهدها هيسپيروس نجم الليل وهى تأوي ساعةً إلى الراحة. فقد أشعلت سيريس فرعيْن من خشب الصنوبر بقبس من نيران بركان «إتنا» وطافت بهما باحثةً عن إبنتها بين الظلمات الباردة القارصة، إذ لم تكن تحسّ فارقاً بين شروق الشمس وبين غروبها حتى أضناها جَهدُ السير

وأنهكتها أوْجَاعُ العطش. وقبل أن تعثر على ينبوع تُطفىء بمياهه لهيب ظمئها، وقع بصرُها عَرَضاً على كوخٍ مسقوف بالقش قرعت بابه المتطامن فخرجت إليها امرأةٌ عجوزسرعان ما أدركت أنها أمام إلهة جاءت طلباً للماء فمنحتها شراباً عذباً مغشىّ بطبقة من دقيق الشعير المحمّص. وحين أخذت سيريس تجرع شرابها تَقدَّم منها صبىّ معروق الوجه قميء الملامح انبرى يسخر منها واصماً إياها بالشرَّه، فقذفت الإلهة الغاضبة وجهه بما تبقّى من هذا الشراب فتناثر عليه دقيق الشعير المخلوط بالسائل، وإذا البثور تُغشّي بَشَرَته، كما حلّت قدماه محل ذراعيه ونما له ذيل وتضاءل حجمه وتدهورت قدرته على الإيذاء حتى أضحى أصغر من السحليّة حجماً. أصابت الدهشة المرأة العجوز واغرورقت عيناها بالدموع ثم مدّت يدها تتحسّس هذا المخلوق الجديد الغريب، فإذا هو يفرّ منها باحثاً عن مكان يختبىء فيه، وقد حمل اسم «ستليو»[٢٣] الدال على لون جسده الذي انتثرت به البقع هنا وهناك.

وما أكثر ما جابت الإلهة من بلاد وبحار مما يطول ذكره، حتى إذا لم يَعُدْ هناك مكان لم تبحث فيه عن ابنتها قفلت راجعة إلى صقلية. وكانت قد مرّت خلال جولاتها بالجزيرة بشواطىء بركة كياني، ولو لم تكن الحورية كياني قد تحلّلت إلى مياه لاستطاعت أن تروي لسيريس تفاصيل ما حدث، ولقد كانت راغبة فى الحديث إلاّ أنها لم تكن تملك فما ولا لساناً ولا وسيلة أخرى تُعينها على النطق والكلام، ومع ذلك فقد استطاعت أن تهيّىء لسيريس إشارة تكشف لها عن مصير إبنتها، إذ عرضت على سطح مياهها حزام پروسيرپينا الذي كانت تتمنطق به والذي سقط منها فى البِرْكة المقدسة. وما إن وقع بصر سيريس عليه - وكانت تعرفه حق المعرفة - حتى اندفعت تشدّ شعرَ رأسها وكأنها لم تعلم بفقدان ابنتها إلاّ لحظتئذ فقط، ومضت تضرب صدرها بقبضتها. ومع أنها لم تعرف مكان ابنتها على وجه التحديد فقد أنحت باللائمة على بقاع الأرض كافة ووصمتها بنكران الجميل وأنها غير جديرة بنعمة الحصاد التى وهبتها إياها. واختصّت جزيرة صقلية التى وجدت فيها آثار إبنتها الضائعة بمزيد من اللوم، وانطلقت تحطّم بيديها المحاريث التى كانت تقلّب الأرض، وقضت فى غمرة غضبها على الفلاحين والثيران العاملة فى الحقول بالهلاك، وأمرت الحقول بإفساد ما غُرس فيها من بذور، وصارت التربة التي كانت تُباهي بخصوبتها فى أنحاء العالم جدبة قاحلة فإذا هى تخيّب

لوحة ٥٣ . پيكار: مسخ أسكالافوس بومة،
والسيرينات طيورا.

الآمال التي وضعها فيها الناس، وهلكت المحصولات عند ظهور بشائرها فقد كانت تُتْلفها حرارة الشمس الملتهبة أو تجرفها سيول الأمطار أو تُبيدها موجات الريح العاصفة، على حين كانت الطيور الشّرِهة تتربّص بالبذُور ساعة بذرها، والأعشاب الضارة والأشواك الحرونة الصّلدة تأتي على المَحاصيل.

ومن أعماق البركة برز وجهُ الحورية «آريثوزا» إبنة نهر ألفيوس[٢٤]، فأزاحت خصلات شعرها المبتلّة عن جبينها، وقالت لسيريس: «يا أم المحاصيل والثمار، يا مَنْ طُفت بجميع أرجاء العالم بحثاً عن ابنتك العذراء، هوّني عليك ما بذلت من جهد، وخفّفي من غضبك على الأرض الوفيّة لك، فليست الأرض هى الملومة حين انشقّت لتدع المعتدي ينفذ عبرها. لقد فعلتْ ذلك مكرهةً، ولست بذلك أدافع عن مثواى، لأننى وُلدت فى «پيزا»[٢٥] ونشأت فى «إيليس» فأنا غريبة عن هذه البلاد. على أنني أحبّ صقلية أكثر من أى بلد آخر رغم أني لست من أهلها إذ باتت الآن موطني، أقمتُ فيها تحت اسم آريثوزا[٢٦] فكَفْكفي دَمْعَك وهدِّئي من سورة غضبك عليها وترفّقي بها أيتها الربّة الجليلة، ولسوف أقصّ عليك حين تسنح فرصة وبعد أن تكوني قد أخذت قسطاً من راحة البال ونَعمْت بسكينة النفس سبب هجري لبلادي وركوب هذا البحر حتى صقلية. وحسبي أن أقول لكَ إنَ الأرض قد انشقّت أمامي فنفذتُ عبر كهوفها السُّفلى إلى الأعماق، ثم عُدتُ ثانية إلى سطح الأرض لأرى النجوم التي طالما اشتقتُ إليها. وبينما كنت أنساب فى مستنقعات ستيكس شاهدتُ ابنتك پروسيرپينا بعيني وقد استبدّ بها حزن بالغ وارتسمت على وجهها علامات الجزع، ومع ذلك.... بدت ملكةً حقّة، لها الهيمنة على عالم الأطياف ومشاركة حاكم العالم السُّفلي المطلق».

وقفت الأم عند سماع هذا الحديث جامدة، وبقيت على هذه الحال لحظات طويلة وكأنها قد غابت عن رشدها، ثم ما لبثت مُغَالَبةُ الغضب أن حلّت محل قسوة الوجوم والحزن، وانطلقت بمركبتها عالياً فى عالم الأثير، وأمام چوپيتر وقفت مقطّبة الجبين منفوشة الشعر وقالت شاكية: «جئتُك يا چوپيتر متوسّلة أن تُعينني على حماية ابنتي وابنتك أنت، فإذا لم يكن للأم سلطان عليك فلا أقلّ من أن تحرّك ابنتك عواطف الأبوّة فى قلبك. لا تضنّ إذن برعايتك لإبنتك بدعوى أنها ابنتي. لقد عثرتُ أخيراً على إبنتي التي طالما بحثت عنها، وما أظنني بذلك قد ظفرت بها إلا إذا كان فى معرفة مكانها ظَفَرًا بها. لقد اختُطفت وإنني لغافرة لمختطفها ذنبه

إذا هو ردّها، وليس لابنتك أن تتزوّج من قاطع طريق، حتى لو لم تكن ابنتي». فأجابها چوپيتر «إن إبنتك موضع إعزازي كما هى موضع إعزازك نمنحها معاً حناننا ونهتم معاً بشؤونها. ولو أنك سمّيت الأشياء بأسمائها الحقّة لما وجدت ثمة عاراً فى مصاهرة مُخْتطفها، ويكفيه أنه شقيق چوپيتر حتى لو لم تكن له ألقاب أخَر، فأنا لم أتقدم عليه مرتبةً إلاّ بما قُسِمَ لى وقُدِّر. أما إذا كنت ملهوفةً على التفريق بينهما فمن السهل على پروسيرپينا الصعود إلى عالم السماء إذا لم تكن قد ذاقت بعدُ طعام العالم السُّفلي، فذلك وحده شرط ربّات الأقدار».

أسكالافوس والسيرينات

لم تلق كلمات چوپيتر من سيريس أذنا صاغية بل زادت إصراراً على إنقاذ ابنتها، غير أن الأقدار قضت بأن تقطع الفتاة صيامها عن حُسن نيّة وهى تتجوّل خلال حدائق العالم السُّفلي الجميلة بديعة التنسيق فقطفت رمانة من غصن شجرة دان، التقطت منها بعد نزع قشرتها سبع حبّات امتصت عصارتها، وكان الوحيد الذى رآها تفعلُ ذلك هو أسكالافوس الذي يقال إن ٥٤٠
الحورية «أورفنيه» قد أنجبته من زوجها إله النهر أخيرون منذ زمن بعيد فى غابات أڤيرنوس الكثيفة وارفة الظلال، فأذاع النبأ بعد أن شاهد پروسيرپينا تتناول حبّات الرمان، فحال بوشايته القاسية بينها وبين العودة إلى الأرض. فتملّك الغضب ملكة إريبوس [العالم السفلي] وأطلقت زفرة يائسة ثم مسخت الواشي طائراً مشؤوما، إذ نثرت على رأسه قطرات من ماء نهر فليجيثون الذى يجري فى العالم السُّفلي وأنبتت له منقاراً وريشاً وعينين واسعتين، ففقد آدمية شكله واكتسى بجناحين داكنين، وعَظُم حجم رأسه، وطالت أظافره وتحوّلت إلى مخالب معقوفة، وبدأ يجهد كى يحرّك ذراعيه المتراخيتين اللتين اكتستا بالريش وتحوّلتا جناحين. لقد صار طيراً تُثير رؤيته النفور وتنذر بوقوع الكوارث هو طير البوم الكسول نذير الشؤم عند البشر.

ولقد بدا عقاب أسكالافوس جزاء وفاقاً لوشايته، لكن ما الذي حدث حتى اكتست أجساد بنات أخيلووس بالريش هنّ الأخريات وبرزت لهنّ مخالب كالطيور بينما احتفظن

بوجوههن البشرية؟ أكان ذلك بسبب شدوكنّ الرخيم فى رفقة پروسيرپينا حينما كانت تقطف أزهار الربيع أيتها السيرينات الحكيمات؟ فلما انطلقتنّ باحثات عنها فى ربوع الأرض سُدى توسلتنّ إلى الآلهة لتزويدكنّ بأجنحة تخفقن بها فوق البحار حتى تُشهدنها على لهفتكنّ عليها، فإذا الآلهة تستجيب لتوسلاتكن، وإذا أطرافكُنّ تكتسي فجأة بالريش الذهبي، وإن بقيت أغانيكنّ المرنّمة تُطْرب الأسماع، وظلّت فى أفواهكن الألسنة الآدمية قادرة على الغناء، فاحتفظتنّ بملامح وجوه العذارى وبصوت الأناسىّ معا.

ولم يشأ چوپيتر أن يلتزم الحياد بين أخيه وشقيقته الحزينة، فإذا هو يقضي بتقسيم العام إلى قسمين متساويين، حتى تستطيع الإلهةُ التى بسطت هيمنتها على عالمىْ الحياة والموت أن تقضي مع أمّها عددا من شهور العام مساويا لما تقضيه منها مع زوجها. وما أسرع ما تبدلّت سيماء سيريس ومزاجها، وأشرق جبين الإلهة پروسيرپينا متألّقا بالسعادة والحبور بعد أن كان مُعْتماً متجهّما فى عينىْ پلوتو نفسه، وكأنه الشمس التي حجبتها السّحب الحبلى بمياه الأمطار حين تطلّ ظافرة من بين الغيوم.

آريثُوزا وترِيپْتُولِيمُوس

وبعد أن استعادت سيريس الحنون سعادتها وبهجتها بعودة ابنتها عادت تسأل آريثوزا عن سبب هروبها وتحوّلها إلى ينبوع مقدس. وما كادت الحورية تُطلّ برأسها من تحت سطح الماء حتى سكَن الينبوع، فجففت شعرها الأخضر المُخْضَلّ ومضت تروي قصة الشوق القديم لنهر إقليم إيليس قائلة: كنت إحدى الحوريات المقيمات فى «آخايا»، ولم تكن بينهن مَنْ تفوقُني هياماً بالتجوال فى الغابات ونصب شباك الصيد. ومع التفاتي لواجباتي وقعودي عن البحث وراء الشُّهرة بجمالي إلاّ أنني كنت أنادَى فى كل مكان بآريثوزا الحسناء، ولم أكن أسعد بالمديح الذي كان يُكال لبهاء قسمات وجهي عن طيب خاطر، كما كنت أخجل من ذكر مفاتن الجسد التي كان غيري من الفتيات تزهيْن بها، بل كنت أعتقد أن محاولة إثارة إعجاب الرجال خطيئة آثمة. وكنت ذات يوم عائدة من غابة «ستيمفالوس»[٢٧] مُرهَقةً وسط قيظ ضَاعَفَ من وطأة

الإجهاد الذي نال مني، فأويتُ إلى جدول هادىء كدتُ لصفاء مياهه أن أحصي حبّات الحَصَى الراقدة فى قاعه، فمياهه تزحف بطيئة حتى يُخيّل إليك أنها ساكنة، وتُظلّل ضفافه المنحدرة أشجارُ الصفصاف الفضيّة وأشجار الحَوْر التي ترتوي من مياهه. واقتربتُ من الجدول وغمستُ قدمي فى مجراه ثم ساقي حتى رُكبتي، ولم أقنع بذلك بل خلعتُ ثوبي وعلّقته على غصن شجرة صفصاف متطامنة وألقيتُ بجسدي العاري فى الماء. وبينا كنت أسبح فى دائرة محكمة أضربُ الماء بساعدي حينا وأدورُ حينا آخر أحسستُ بزمجرة وسط البركة ألقت الرعب فى روعي فقفزتُ إلى أقرب مكان على الشاطىء، وعندها صاح إله النهر ألفيوس: «إلى أين تُسرعين بالهرب يا آريثوزا؟» ثم كرّر القول بصوت أجَشّ «إلى أين تهربين مسرعة هكذا؟». وقد اضطررتُ إلى الفرار عارية إذ كانت ثيابي معلّقة على الضفة الأخرى، فزاد لهيب شوقه إليّ خلال مطاردته إياى، وقد ضاعف عُرْيى من إغرائه ومن عزمه على اغتصابي. وكنت أعدو فيُسرع فى العَدْو ورائي وكأني حمامة تنطلق مرتجفة بين مخالب صقر يقترب منها رويداً رويداً. وعَدَوْتُ تحت أسوار «أورخومينوس»[٢٨] وإلى جوار مدينة «پسوفيس»[٢٩] حتى بلغت جبل «سيلليني» ثم مراعي جبل «مينالوس» وجبل «إريمانثوس» النديّ ومدينة «إيليس»[٣٠]، واستمر يطاردني دون أن تقصرَ سرعتي عن سرعته، غير أنني ما لبثت أن أحسستُ بفقدي قدرتي على الاحتفاظ بسرعتي دون أن يفقد هو قدرته، ومع ذلك ظللتُ أعدو فوق سفوح الجبال وفى بسيط الوادي وفوق الصخور والأحجار حيث لا طريق مُعبَّدةً. وكانت الشمس خلفي فرأيت ظلاً طويلاً يمتد أمامي، فتوهّمت أن هلعي يصوّر لي ذلك، غير أنه كان من المؤكد أن وَقْعَ قدميْه كان يُفزعني. كان ألفيوس يلهث بشدّة حتى طالت أنفاسه خصلات شعري فتطايرت معها. وحين حلّ بي التعب من عناء العَدْو ناديتُ صائحة «أدركيني بعونك يا «ديانا» فقد أحيط بي، أنقذي حارسة أسلحتك التى عَهِدت إليها المرة تلو المرة بحَمْل قَوْسك وسهامك داخل كنانتك التى شُدّ وَثاقُها». وبلغت كلماتي قلبَ الربّة فأرسلت غمامة كثيفة غمرتني فأخفتني عن النهر فتوقّف عن ملاحقتي حائراً لا يدري أين اختفيت، وصاح بي مكرّرا نداءه: «أريثوزا أين أنت يا آريثوزا؟»، لكن هيهات! يا للهِزّة التى اعترتني لحظتها. لقد كنت كالحَمَل يسمع عواء الذئاب المحيطة بحظيرته، أو كالأرنب البرّي المختبىء بين الأشواك يرقب أنياب أعدائه من الكلاب دون أن يجسر على التحرّك. ولم ينسحب ألفيوس من مكانه لأنه لم

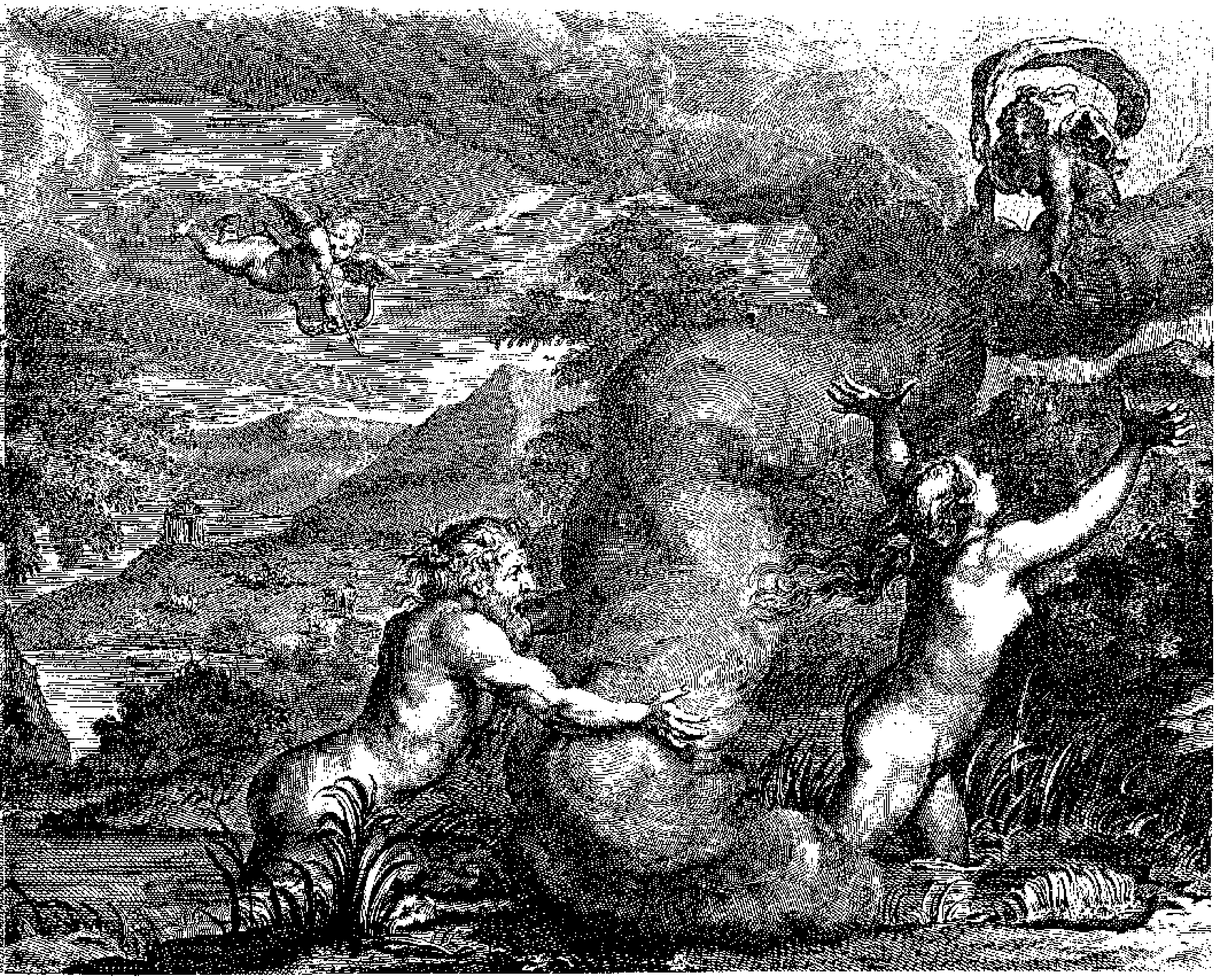

لوحة ٥٤ . پيكار: ألفيوس يطارد آريثوزا.

لوحة ٥٥ . پيكار: سيريس تمسخ الملك لينكوس وشقاً، وتأمر الصبيّ تريپتوليموس باعتلاء المركبة المقدسة ليمضي في رحلته عبر الأجواء.

يَعُدْ يرى آثار قدميْ تتجاوز هذا المكان وظل يرقب البقعة التي تلفّها الغمامة. وانبثق العَرَقُ البارد يغشّي أطرافي ويكسو جسدي بقطرات لازوردية، وحيثما كنت أحرّك قدميّ كانت تنفجر من تحتهما مياه ينبوع، وتقاطر النّدى من شعري، وتحوّلتُ فى أقصر من هذا الوقت الذى أقصّ فيه قصتي إلى ينبوع. غير أن إله النهر تعرّف من هذه المياه على آسرة قلبه فتخلّى عن صورته الآدمية التى انتحلها واستعاد صورته السائلة لكى يخلطَ مياهَه بمياهي، إلاّ أن عذراء ديلوس [ديانا] شقّت الأرضَ من تحتي فألقيتُ بنفسي بين أعماقها الظلماء حتى بلغتُ «أورتيجيا»[٣١]، تلك البلاد الأثيرة عندي لأنها تحمل اسم الربّة التى استطاعت قبل غيرها أن تُخرجني من باطن الأرض إلى سطحها تحت قبة السماء».

وما كادت «أريثوزا» تفرغ من قصتها حتى شدّت سيريس ربّة الخصوبة تنّينين إلى مركبتها وثبّتت شكيمة العنان فى خطميْهما، واندفعت إلى الفضاء بين السماء والأرض قاصدة مدينة «باللاس» حيث عهدت بمركبتها إلى تريپتوليموس وأسلمته بذوراً أمَرَتْه أن ينثرَ بعضها فى الأرض البِكْر التي لم تُفلَحْ من قبل قط، وأن يَذْرُوَ البقية فى الأراضي البور، فحلّق الفتى عالياً فوق أوروپا وبلاد آسيا، قاصداً مملكة سكوثيا حيث كان يرقَى عرشها الملك «لينكوس». وحين دخل القصر الملكي سأله الحرّاس عن اسمه وبلده وعن سبب مجيئه فأجاب قائلاً: «اسمي تريپتوليموس وموطني «أثينا» ولم أجيء عن طريق البحر أو البرّ، فما سرتُ على قدميّ ولا صعدتُ سطح سفينة، وإنما كانت السماء سبيلي. لقد جئتُ حاملاً معي هدايا سيريس التي ما تكاد تُنثر فوق أراضيكم الشاسعة حتى تُثمر حصاداً وفيراً وغذاء شهيّاً». غير أن الغيرة سرعان ما دبّت فى قلب الملك الهمجيّ الذي كان يأمل أن يُنسب إليه منح البشرية هذه الهبة، فاستضاف تريپتوليموس حتى إذا أخذ يغطّ فى النوم انقضّ عليه بسيفه. ولم يكد يُقْدم على تمزيق صدر الصبيّ حتى مسخت سيريس هذا السفّاح وَشَقاً جاحظ العينين[٣٢]، ثم أمرت الفتى الأثيني باعتلاء مركبته المقدسة ومواصلة رحلته عبر الأجواء».

بهذه القصة ختمت كاليوپي أكبر ربّات الفنون من بيننا سنّاً أنشودتها التي فرغتُ الآن من إلقائها عليكن، وأعلنت الحوريات مجتمعات فوز ربّات هليكون، فأخذت غريماتنا المهزومات يُمطرننا بالسّباب، فردّت عليهن كاليوپي قائلة: «إذ كنتن لم تقنعن بهزيمتكنّ التي كانت ثمرة تطاولكنّ، وأخذتن تُضِفن إلى أخطائكُنّ الاعتداء علينا بالسّباب، وإذ كان صبرُنا ذا حدود،

فسوف نُنزلُ بكنّ عقاباً نُطلق فيه العنان لغضبنا عليكن» . فضحكت النسوة المقدونيات ساخرات بهذا الوعيد والتهديد، غير أنهن ما لبثن أن شاهدن الريش يبزغ من أظافرهن ويغطي أذرعتَهُن بينما هُن يثرثرن ساخرات، ونظر بعضهن إلى بعض ولبثن يرقبن وجوههن وهى تتقلّص لتبرز منها مناقير صلبة . وبمسخهن نشأت فصيلة جديدة أضيفت إلى طيور الغابات، وعندما حاولن ضرب صدورهن إذا حركة أيديهن ترفعهن محلّقات فى الفضاء . لقد تحوّلن إلى طيور العقعق ناشري المخازي وأحاديث الإفك فى الغابات، ومازلن بعد تحوّلهن إلى طيور محتفظات بموهبتهن السالفة فى الفصاحة والبيان، فما بَرِحْن يُثَرْثِرن دون أن يُشْبِعن رغبتهُن النهمة بالكلام .

الكتاب السادس

الكتاب السادس

پالاس وأراخني

استمعت منيرڤا إلى هذه القصّة مستحسنةً نشيد ربّات الفنون مُشيدةً بانتقامهن العادل، ثم راحت تناجي نفسها: «لماذا الاسترسال فى إطراء الآخرين، وأنا أجدرُ بالإطراء؟ لقد بات عليّ أن أتصدّى لمن يحاول النيل من ألوهيّتي فأنزل به ما يستحق من عقاب». وتذكّرت ما ستُنزله من عقاب بالفتاة الليدية أراخني التى تدّعي أنها لا تقل مهارة فى الغَزْل عنها. فعلى الرغم من أن أراخني لم تكن عريقة الأصل إلا أن مهارتها أكسبتها شهرة واسعة، وكان أبوها إيدمون مواطناً من كولوفون يحترف صباغة الصوف التي تعتمد على أرجوان الرّخويات البحرية من فوكيا[١]، كما كانت أمها التي نالها الرَّدى من أصل لا يختلف كثيراً عن أصل زوجها ضعةً. ومع ذلك فقد نالت ابنتهما - التى وُلدت فى كوخ بسيط بإحدى قرى هيپايپا الصغيرة - شُهرة طافت أنحاء ليديا بفضل مهارتها فى حرفتها، حتى بلغ الأمر بحوريات الغاب أن يتركن مثواهن الأثير وسط كروم تيمولوس[٢] ليشهدن مهارتها الفائقة معجبات، وكذا حوريات الماء اللاتي تركن نهر پاكتولوس[٣] ليستمتعن بمشاهدة نسجيّاتها، بل كنّ جميعا حريصات على أن يتابعنها وهى تنسج، إذ كانت شديدة البراعة فى إعداد خيوط الغزل بفتلها بأصابعها،

وتخليصها من العهن المنفوش، وتشكيلها خيوطاً تلتف على المغزل الرفيع وهى تديره بإبهامها فى حذق، وفضلا عن ذلك كانت أراخني فائقة المهارة فى تطريز النسجيات.

وكان معروفا أن الفتاة لقنت حرفتها عن الإلهة پاللاس وإن أنكرت ذلك، وكان غضبها يستعر حين يقال إنها لقنت حرفتها عن معلّم مهما كانت مكانته، كما كانت فى غمرة تحدّيها تردّد قولها: «فلْتأت پاللاس ولْتُباريني، فإن هى فازت عليّ كان لها أن تفعل بي ما تشاء». فإذا پاللاس تتنكّر فى صورة امرأة عجوز قد وَخَط الشّيب خصلاتها المستعارة المدلاّة على صدغيها، وتوكّأت على عصا بينا تسير فى خطوات متثاقلة، ثم بادرت أراخني قائلة: «إن للشيخوخة حسنات لا يُستهان بها، فهى خبرة طويلة اكتسبناها على مرّ السنين، وإني أهيبُ بك أن تستمعي إلى نصيحتي: أحرصي ما شئت على أن يقال لك إنك أكثر البشر مهارة فى غزل الصوف، ولكن احذري أن تَعْدَىْ طَوْرك فتقْرني نفسك فى هذا الصّدد بإلهة من الإلهات، بل عليك أن تتوسّلي إليها لتغفر لك تطاوُلك عليها، ولسوف تصفح عنك حين تلتمسين منها ذلك». وطرحت أراخني النسجيّة التى كانت فى يدها، وحدجت المرأة العجوز بنظرة غاضبة وهى مقطّبة الجبين، وأجابت ثائرة دون أن تعرف أنها الإلهة: «أراك قد بلغت من العمر أرذله، وهذا ما يعيبك. لقد أوهنتك الشيخوخة وأضعفت مداركك، فإن كانت لك بناتٌ أو كنائنُ فادّخري لهن نصائحك لأني قادرة وحدي على رعاية مصالحي، ولا تخالي أن يكون لتحذيراتك تأثير فى نفسي فإنني مازلت عند رأيي. لماذا لا تأتيني پاللاس نفسها فتطاولُني، ولماذا تتهرّب من مباراتي؟». وعندها صاحت الإلهة بعد أن خلعت عن نفسها صورة المرأة العجوز وتبدّت فى صورتها الإلهية: «ها هى ذي الإلهة قد أتت»، فركعت الحوريات ونساء ميجدونيا إجلالاً للإلهة وقد تملّكهن الروع إلا أراخني التى ظلّت فى مكانها لا تركع، وإن كانت وجنتاها قد احمرّتا فجأة غير أنهما ما لبثتا أن انقشعت عنهما تلك الحُمرة، شأن الفجر عند بزوغه بالأجواء إذ يكسوها احمراراً لا يلبث أن يُزايلها فتُصبح مع نور الشروق ناصعة البياض. وقد صمدت أراخني متطلّعة إلى الفوز الذي صوّرت لها رعونتها أنها ظافرة به، ولم تُضِفْ إبنة چوپيتر تحذيراً بل قبلت التحدّي غير مُرْجئة البدء فى المباراة، وأخذت كل منهما - هى وأراخني - موقعها فى أحد أركان الغرفة، وبسطت كل منهما السُّدى فى النول بعد أن أسندت إطاره إلى عوارض السقف، ثم فصلت الخيوط المشدودة إلى صفّين بالدرق الخاص بتحريك السُّدى، وانطلقتا تقذفان الوشيجة [المكوك المدبّب] بأنامل سريعة سرعة الطير المحلّق

لوحة ٥٦ . پيكار: الإلهة پالاس تُنزل العقاب بأراخني.

فى الهواء وتنسجان به خيوط اللُّحمة عَبْر خيوط السُّدى، وكلما امتد خيطٌ عرضيٌّ اندفع المشط بأسنانه العديدة ليثبّته فى مكانه. وكانتا قد حزمتا ثيابهما حول خصريْهما، بينما تُخفي حركة أيديهما العَجْلى الإرهاق الذي تشعران به من فرط جهدهما المبذول فى سبيل الفوز، واستخدمتا خيوطاً مصبوغة فى دنان برونزية من مدينة «صُورْ» باللون الأرجواني وبألوان أكثر قتامة يتميّز الواحد عن الآخر بظلال شاحبة، كألوان قوس قزح التى تنعكس فى قبة السماء بعد هطول الأمطار والتي تتقارب ظلالها لتشكّل فى النهاية تلك الألوان الزاهية المتنوّعة، وتنتقل العين من أحدها إلى الآخر دون أن تميّز الفاصل بين كل لونين لتمام تمازجهما عند هذه الفواصل، ومع ذلك فهى مختلفة متمايزة عند أطرافها. وقد أضافتا إلى النسيج خيوط القصب وأخذتا فى تشكيل الأساطير على نسجيّتيْهما.

رسمت پاللاس فى نسجيّتها صخرة مارس تعلو قلعة كيكروپس بأثينا والمباراة التي جرت قديماً لإطلاق اسم أثينه أو نپتون على هذه المدينة[٤]. وأجلستْ الآلهة الإثنىْ عشر فى جلال وشموخ فوق عروشهم العالية يتوسّطهم چوپيتر تحفُّه مهابة الملوك، كما ميّزت كلا منهم بخصائصه ورموزه. وأظهرت ربّ البحار نپتون واقفاً وقد شقّ جلاميد الصخر بحربته الطويلة ثلاثية الشُّعَب، فانبثق الجواد الوحشيّ من بين الصخر آية استحقاقه إطلاق اسمه على المدينة. كذلك صوّرت پاللاس نفسها فى النسجيّة مُمسكة بترسها، حاملة رمحها الحاد السِّن، معتمرةً بخوذتها، وقد ادّرعت بزردها فوق صدرها، ثم ثبّتت شجرة زيتون شاحبة الأوراق حيث ضربت الأرض برمحها أمام الآلهة المأخوذين بتلك المعجزة وهم يحملقون معجبين، كما صوّرت «ربة النَّصر» مكلّلة بها نسجيّتها[٥].

وقد عمدت الإلهة إلى إثارة الجزع فى صدر منافستها على جسارتها الطائشة، والإيحاء إليها بما ينتظرها من عقاب، فأضافت إلى النسجية صور مباريات أربع أخرى، جعلت كل واحدة منها فى ركن من أركان النسجية، وميّزتها بألوان صارخة مع تصغير شخوصها: فصوّرت فى الركن الأول مباراة هايموس ورودوپي من طراقيا، وكانا من البشر وتسمّيا باسميْ كبيري الآلهة فرُسخَا جبليْن[٦]. وفى ركن ثان صوّرت المصير التعس الذي لاقته ملكة الأقزام[٧] حين تحدّت الإلهة چونو فأدّبتها وحوّلتها إلى طائر كركي وحكمت عليها بأن تشنّ الحرب على قومها[٨]. وفى الركن الثالث صوّرت پاللاس أنتيجوني[٩] التي جرؤت على منافسة شريكة عرش چوپيتر العظيم فحوّلتها چونو إلى طائر دون أن يستطيع والدها

لاووميدون ولا مدينتها طروادة ردّ هذا القضاء عنها، وقد أنبتت لها الإلهة جناحين ناصعيْ البياض فى ظهرها فأضحت طائر لقلق تُقعقع بشقّيْ منقارها زُهُواً. وفى الزاوية الأخيرة طرّزت پالّلاس صورة سنيراس[١٠] بعد فقده بناته محتضناً درجات سلّم المعبد التي كانت فى الماضي أعضاء أجساد بناته، وهو يُعْوِلُ جاثماً فوق الأحجار. وزيّنت پاللاس حوافي النسجيّة بأغصان الزيتون المجدولة رمز السلام. وكانت خاتمة عملها تصوير شجرة الزيتون المرتبطة باسمها.

أما أراخني فقد صوّرت فى نسجيتها أوروپا حين خدعها چوپيتر متخفّيا فى هيئة ثور، ونفخت الحياة نابضة فى الثور والأمواج حتى ليحسبها الرائي أمواجاً حقيقية، بينما التفتت أوروپا إلى الوراء نحو الشاطىء الذي خلّفته وهى تُصَايِحُ رفيقاتها وترفع قدميها فى براءة خشية أن يبلّلهما الماء المتدفّق. كذلك صوّرت فى النسجية أستيرييه[١١] وقد قبض عليها النسر بمخالبه و أخمد مقاومتها، كما صوّرت ليدا مضطجعة تحت جناحيْ طائر البجع، وأضافت صورة أخرى لچوپيتر متخفّيا فى هيئة ساتير ليُخْصب الأميرة الجميلة أنتيوپي ابنة نيكتيوس بتوأمٍ، ثم متنكراً فى ملامح أمفيتريون ليحتضنُك يا ملكة تيرينت، ومتشكّلاً فى شؤبوب قطرات الذهب ليُغري داناى، وفى صورة ألسنة لهب لكى يفوز بابنة أسوپوس، وفى شكل راع لكى يحظى بمنيموزينيه، وفى شكل ثعبان أرقط لكى يظفر بپروسيرپينا ابنة سيريس، كما صوّرتكَ أنت كذلك يا نپتون وقد تخفّيت فى هيئة ثور وحشيّ تمتطي إبنة أيولوس العذراء، ثم وأنت فى صورة إينيپيوس تضاجع زوجة ألويوس وتُخصب رحمها توأما، وكذا وأنت فى صورة كبش تخادع إبنة بيزالتيس، ثم وأنت فى صورة جواد تحنو على ربّة الحصاد الخيّرة ذات الشعر الذهبي، وأخيراً وأنت على هيئة درفيل تضاجع ميلانثو، ثم فى هيئة طائر تلهث معتلياً الأميرة ذات الشعر الثعباني أمّ الجواد المجنّح. وكما صوّرتْ أراخني الشخصيات بدقة متناهية صوّرتْ الأماكن بحيث تتفق والأحداث، حيث نرى الإله فويبوس تارة فى ثياب فلاح، وتارة مزوَّدا بريش صقر، وفى جلد أسد تارة أخرى، ثم فى هيئة راع يغازل إيسيه ابنة مكاريوس[١٢]، كما نرى باكخوس يغتصب إريجوني خادعاً إياها فى صورة عنقود من العنب، ثم ساتورنوس [كرونوس عند الإغريق] بعد أن تحوّل إلى جواد ليُنجب خيرون ذا الطبيعة المزدوجة[١٣]. وأخيرا طرّزت أراخني حوافي النسجيّة بزهور متواشجة مع أغصان لّبلاب رَخْوٍ.

وإذ لم تستطع پالاس ولا ربّة الحسد أن تكشفا عن عيب فى نسجيّة أراخني تملّك الإلهة العذراء الشقراء غضب عارم لتفوّق غريمتها، فمزّقت النسجيّة التي تسجّل نزوات الأرباب الآثمة، ثم أمسكت بالوشيجة المصنوعة من خشب أشجار جبل كيتوروس[١٤] وهَوَتْ بها مرات ثلاثا على جبهة أراخني إبنة إيدمون وأتبعتها بضربة رابعة. وضاق صدر أراخني بهذا الإذلال المُهين فلفّت فى سورة غضبها حول عنقها حبلاً شنقت به نفسها. وعندما رأتها پالاس معلّقة من عنقها أشفقت عليها وقالت لها: فلْتَدُومي حيّة، ولكن معلّقة فى الهواء إلى الأبد، ولا تعقدي عَليّ أملاً بعدُ، إذ سيكون هذا مصير أبنائك وأحفادك من بعدك». ثم انصرفت مبتعدة بعد أن نثرت على أراخني عصارة عُشب مقدّس لهيكاتي، وما كادت عصارة هذا العشب السام تلمسها حتى تساقط شعرها وضَمُر أنفها وأذناها ورأسها وبقية أطرافها وبرزت فى جنبيها أصابع دقيقة بدلاً من سيقانها، ولم يبق منها إلاّ بطنها ينساب منها الخيط. وها هى ذي تصل نسيجها كما كانت تفعل من قبل، وإذا هى تصبح عنكبوتاً.

نيــــــوبي

أثارت هذه الواقعة جزع أهل ليديا وفزعهم، ولم تلبث المأساة أن بلغت أسماع الناس فى أنحاء فريجيا، وانتشرت حتى غدت حديث العالم كله. وكانت نيوبي تعرف أراخني منذ زمن بعيد عندما كانت تعيش قبل زواجها فى ميونيا على جبل سيپيلوس[١٥]، غير أنها لم تتّعظ بما حاق بأراخني التى لم تكن تبجّل الإلهة حقّ التبجيل، ومضت هى الأخرى تتطاول على الآلهة. وكانت تملك الكثير من أسباب الغرور، غير أنها لم تكن تفخر بمواهب زوجها أمفيون ولا عراقة مَحْتده ومَحْتدها ولا بهيبة مملكتها وعظمتها بل كان تُباهي الإلهة لاتو بكثرة أبنائها، ولولا جَهْرها بأنها أسعد الأمهات ما شاع عنها ذلك. وذات يوم اندفعت ابنة تيريزياس التي كانت تتنبأ بالمستقبل يحدوها إلهام إلهي إلى الطرقات وهى تصيح: «يا نساء طيبة، يا قاطنات

شط نهر إيزمينوس، توّجْن رءوسكنّ بالأكاليل وتجمّعن حول المحاريب وقدِّمن القرابين واحرقن البخور وتضرّعن للربة لاتو وولديها التوأمين. ذلك أمرٌ إلهي أجْرى على لساني».
وخرجت نساء طيبة متوّجات الرأس إلى المحاريب المقدسة يقدّمن القرابين، ويحرقن البخور، ويتضرّعن للربّة لاتو.

وأقبلت نيوبي في رهط من وصيفاتها، مرتدية ثوبها الفريجي المنسوج من خيوط القصب الذي اجتذبت به الأنظار. وكانت وهي في ثوبها القشيب الفاخر رائعة الفتنة لولا مسحة من الغضب تشوب جمالها، تلقى برأسها إلى الوراء، وتنسدل خصلات شعرها طليقة على كتفيها، ووقفت منتصبة القامة تسدّد نظرةً مترعة كبرياء وغضباً، ثم صاحت: «ما هذا النزق؟ ما لكنّ ولآلهة من السماء - سمعتنّ عنها ولم تَشْهَدْنها - تُكَرِّمْنها بكل هذا التكريم الذي يفوق ما تُقدّمنه لمن ترونها بعيونكن. كيف تَضْرَعْن للربة لاتو أمام المحاريب التي أَقَمْتُنّها تكريماً لها، وأنتن لم تحرقن حتى اليوم بخوراً لتكريم ألوهيتي؟ إن أبي تانتالوس هو وحده من بين البشر الذي أذن له بالجلوس على مائدة الآلهة، وأمّي شقيقة البلياديس، وجدّي هو أطلس الجبّار الذي يحمل قبة السماء على كتفيه، وجدّي الآخر هو چوپيتر الذي هو أيضاً والد زوجي. ثم إن شعوب فريچيا تدين لي بالولاء، وأنا أحكمُ مع زوجي أمفيون المدينةَ التي تجمّعت لَبنات أسوارها بسحر أنغام قيثارة زوجي(١٦)، وأنا كذلك سيدة قصر كادموس الملكي، وأينما خطوتُ في داري وقع طرفي على ثراء بغير حدود. ثم إنني بعد هذا جميلة جمال الإلهات، ولي سبعة أبناء وسبع بنات، وعمّا قريب سيكون لي عددهم زوجات أبناء وأزواج بنات، فهذا هو مجدي الذي أزهو به. أوَتجْرُؤْنَّ بعد ذلك على أن تُؤْثِرْن عليّ إبنة مارد يسمّى كويوس(١٧)، تلك الربّة لاتو التي تعرفن أن الأرض الفسيحة ضنّت عليها بمنحها رقعة ضئيلة تكون لها مأوى حين أوشكت أن تضع جنينها. لقد نبذتْ السموات والأرض والبحار تلك الإلهة التي تعبدونها حتى أشفقتْ عليها [جزيرة] ديلوس وقدّمت إليها المأوى قائلة: «إنك تضربين في الأرض على غير هدى، كما أضربُ أنا في البحار»، ومنحتها الجزيرة مثوى تستقر فيه حيث وضعت لاتو توأماً. ولقد أنجبتُ أنا سبعة أضعاف ما أنجبتْ، فأنا سعيدة الحظ لا يمكن لأحد أن يُنكر عليّ هذه السعادة، وسأبقى سعيدة لا يملك أحدٌ أن يشكّك في ذلك. إن وفرة النِّعم التي أحظى بها تمنحني أماناً وتحميني من غوائل ربة الحظ «فورتونا»، فسيتبقّى لي

دوماً أكثر مما تسلبني، ثم إنني أملكُ الكثير الـذي لا يترك لـي مجـالاً للخوف. ولنفترض أنـه انتُزع منّي بعض أولادي، فـإن أنا فقدتُهم فسيبقى لـي أكثر من مجمـوع أسـرة لاتـو التي لا تتـميّز عـن المرأة العـقيم إلا قليـلاً. ألا فلتكفـفـن عـن تقديم هـذه القـرابين، ولتخلعـن عـن رءوسكنّ هذه الأكاليل». وأطاعتها النساء فخلعن أكاليلهن وانصرفن قبل إتمام الطقوس، وإن لم تستطع نيوبي أن تحُول بينهن وبين أن يجأرن بالشكوى والتضرّع للربة لاتو.

استبدّ الحنق بلاتو فوقفت على قمة جبل سـينثوس تستعدي ولديْها أبوللو وديانا قائلة: «ها أنذا أمّكما المزهـوّة بكما والتالية فى المرتبة لجونو نفسها، يأتي اليوم مَنْ يُثير الشك حـول ألوهيّتي. ها أنذا يا ولـديّ أجـدُ من يُنحّيني عن المحـاريب التى عبـدَتني فيـها الأجيـال إن لم تبـادرا بتقديم العون إليّ. وليس ذلك وحـده ما يثيـرني، فـقد أضافت ابنة تانتالوس إلى كُفرها بالمقدسات إهانتي حين جَرُؤت وادّعت أن أسرتها أرفع من أسرتي شأنا، واتهـامي بأنـني عـقيم [ألا فَلْتـغدُ هـى العـقيم]. لقـد كَشَفَتْ عـن كُفـرها بالمقـدّسـات كأبيهـا». وانطلقت لاتو تُتابع شكواها وتواصل رجاءها لولا مقاطعة أبوللو لها بقوله: «كفَى! فكلما أرخيْتِ لنفسك فى الشكوى عوّقنا هذا عن المُضيّ فى توقيع العقاب بها» وكانت أخته معه على هذا الرأى، فأسرعا محلّقيْن فى الفضاء واختفيا فى السحب حتى بلغا قلعة كادموس.

كان ثمة سهل فسيح خارج الأسوار تخبُّ فيه الخيل فى حركة متصلة، وقد أفسدت حوافر الجياد ومرور المركبات الكلأ الأخضر النامي على سطح السهل، وكان بعض أبناء أمفيون السبعة يمتطون ظهور جيادهم المطهّمة بأكسية من نسيج صور الأرجواني ويقبضون على أعنّة الخيل الذهبية. كان الأمير إسمينوس أكبر أبناء نيوبي يدور بجواده قابضاً على عنانه فى ثقة حين ندّت عنه صرخة مدوّية بينما انغرس سهم فى صدره، فسقط مقْود الفرس من بين يديه وهو يئن قائلاً «يا ويلتاه»، وعاجله الموت فانزلق عن صهوة الجواد وسقط على الأرض. وكان سيبيلوس الابن التالي قد سمع خشخشة جُعبة سهام فأطلقَ العنان لجواده كما يفعل ربّان السفينة حين يلمح نُذُر سُحب العاصفة فينشر أشرعته كلها حتى لا تفوته من الريح هبّة. غير أن

لوحة ٥٧ . بيكار: أپوللو وديانا يقضيـان على أبناء نيوبي.

انطلاق سيپيلوس لم يمنع السهم من أن يَمْرُقَ فى أعلى عنقه وينفذ من حلقه، فيسقط من فوق جواده ويتقلّب بين حوافره الحادة ويخضّب الأرض بدمائه الدافئة. وكان فيديموس التعس وتانتالوس الذي ورث اسم جدّه قد ذهبا إلى رياضتهما اليومية التي يتصارعان فيها وقد تعانقا داهنيْن جسديهما بالزيت حين أصابهما سهم واحد اخترق صدريهما معاً وهما ملتصقان، فأخذا يتوجّعان ألماً وسقطا على الأرض متعانقيْن ولفظا معاً نفَسيْهما الأخيريْن. وحين رآهما أخوهما ألفينور أسرع إليهما، وما كاد يرفع ذراعيهما ليتبّين الأمر حتى أوْجَره سهم انتزع مزقة من رئته فتدفّقت من جسده الدماء. ولم يهلك داماسيختون الذي لا عهد لشَعْرِه بالمقصّ من جُرح واحد شأن أخواته بل أصيب أولاً فى عضلة ساقه، وبينما كان يحاول إخراج السهم باذلاً كل قواه إذا بسهم آخر يصيبه فى حلقه ويغوص فيه فتفجّر الدم وكأنه نافورة. وأخيراً رفع إيليونيوس آخر الأشقاء ذراعيْه إلى السماء متمتما بشفتيه بضراعة ذهبت أدراج الرياح قائلا: «أيتها الآلهة ناشدتكم جميعاً الرحمة بي» [فقد كان يجهل عبث الابتهال إليهم جميعا]. وقد تأثر أبوللو حامل القوس وأخذته الشفقة به بعد ما انفلت السهم الذي أصماه فجعل السهم رفيقاً قليل الإيلام لم ينفذ إلى أعماق قلبه.

وحملت الأحزان المرتسمة على الأوجه والدموع المنسابة من عيون الأقارب أنباء الكارثة المفاجئة إلى نيوبي التي أذهلها أن يكون بين الآلهة مَنْ يملك مثل هذه القوة الجبارة ويجسر على استخدامها على هذا النحو، وانتهت الكارثة بأمفيون وقد شهر سيفه وأغمده فى قلبه ليكون الموت خاتمة لحياته ولحزنه على أبنائه معا.

واحسرتاه. كم تغيّرت نيوبي بعد النكبة! أهذه نيوبي المغرورة التي كانت تفضّ الناس من حول محاريب لاتو، وتمضي مختالة وسط المدينة تُشعل قلوب مواطنيها حقداً وضغينة. لقد غدت موضع الرثاء حتى من خصومها بعدما انحنت فوق جثث أبنائها التي غشيها برد الموت وأخذت تقبّلهم الواحد تلو الآخر، ثم رفعت ذراعيها الشاحبتين إلى السماء وصاحت: «يحقّ لك أن تَشْمَتِي بي يا لاتو القاسية، ولتروِ قلبك من دمعي، ولتفرحي ملء قلبك الوحشي، فهذه الجنازات السبع ستُوردني إلى المحرقة مرات سبعاً. افرحي بنشوة النصر على غريمتك،

لوحة ٥٨ . پيكار: لاتو تمسخ مُزارعي ليسيا ضفادع.

ولكن ما إخالك انتصرت فمازلت رغم كل شقائي أكثر منك ثراء، وحتى مع فقدي مَنْ فقدتُ من أبنائي فمازال عندي المزيد».

ولـم تكد تفرغ من قولهـا حتـى سُمع هزيم وتر قـوس فـزع لـه الجميـع عدا نيوبي التي ضاعفت الكـارثة من جسارتها. وكانت شقيقات الفتيـان الموتى واقفـات أمـام النعـوش فـى ثيـاب الحـداد بشعـورهن المُرسلة على أكتافهن، وإذا سـهمٌ يختـرق أحشـاء إحـداهن، وحين حـاولـت انتزاعه انكفـأت فاقـدة الروح فوق جثة شقيقها. وكانت ثانية تواسي أمها فإذا هى تُصاب بطعنة خفيّة تفـقـد معـها القـدرة على النطق وينحني عـودها وتموت مُطْبقـةً شفتيها. وحاولت ثالثة الفرار فأدركها سهم أهلكها. وبينما احتمت شقيقةٌ بأختها أدركهما الموت معاً، وأخـذت أخرى تحتضر مرتعشـة. ومزّقـت نيـوبي ثوبهـا بعـد مـوت ست من بناتهـا وحـاولـت حـمـايـة ابنتـهـا السـابعـة بجسـدهـا وصـاحـت: «ناشـدتُك أن تُبـقِي على واحدة هى صغرى بناتي اللاتي فقدتهن، دعي لي هذه الصغرى، فهى واحدة فحسب». غير أن ابنتها الباقية لحقها الرّدى قبل أن تفرغ نيوبي من توسّلاتها. وحين أصبحت نيوبي وحيدة تحيـط بها جثث أبنائها وبناتها وزوجها أحالهـا الحزن إلى حجـر، ولـم يعـد النسيم يحرّك شعرها، وغاض الـدم من وجههـا الـذي فقد لونه، ولم تعد ذراعاها ولا ساقاها تتحركان، وجَمُدَت عيناها فى محجريهما، والتصق لسـانها بحلقها، وانغلق فمها صمتاً، وتوقّف النبض فـى عـودهـا، وكذا تقلّصت أمعاؤها، غـير أن دموعها بقيت تجري كما كانت. وهبّ إعصـار عنيف فحملهـا إلى مـوطنها(١٨) حيث حطّت فوق قـمة جبل والماء يتدفّق منها.

ومازال هذه الكتلة من الرخام تسكبُ الدموعَ حتى اليوم.

فــلاّحــو ليــكيا

أصيب الرجال والنساء بالذعر خوفاً من غضب الإلهة وأقبلوا خاشعين على عبادة لاتو أمّ التوأم، وأخذت هذه الحادثة تُدير على ألسنتهم أقاصيص أحداث قديمة مشابهة كانوا قد أُنسوها، وإذا أحدهم يروي حكاية قائلا: « فى قديم الزمان كان مزارعو حقول ليكيا الخصيبة يستهزؤون بالإلهة ولا يقدّمون إليها ما هى جديرة به من تكريم، شأنهم فى ذلك شأن نيوبي فنالوا هم الآخرون جزاءهم. وقد بقيت قصتهم رغم غرابتها مجهولة إلاّ من نفر قليل، ولعل سبب ذلك هو ضعة أصل أبطالها. غير أنّي كنت قد قصدتُ المستنقع الذى حدثت بالقرب منه المعجزة يوم طعن أبي فى السّن ووهنت قواه ولم يعد يتحمل الأسفار فعهد إليّ باجتلاب بعض العجول المنتقاة من تلك البلاد، واختار لي قبل الرحيل دليلاً من أهلها، وقد وقع بصري أثناء مسيرتي خلال المراعي بصحبة هذا الرجل على محراب قديم قائم وسط بحيرة، نبتت حوله أعواد الغاب التي علاها السّواد المنبعث من دخان النيران التي كانت تُشْعَل منذ القدم لطَهْى القرابين الذبيحة، فتوقف الدليل وتمتم هامساً همس المؤمنين بالخرافات: «هلاّ كنت معي شفيقا رؤوفا؟» فانبريتُ أسأله هامساً متعجّبا عمّا إذا كان هذا المحراب قد أقيم تكريماً لحوريات الماء أم لفاونوس [پان] إله الغاب أم لغيره من آلهة المنطقة، فانطلق دليلي يروي القصة التالية: لم يُشيّد هذا المحراب من أجل إله من آلهة الجبال أيها الفتى، وإنما أقيم من أجل الإلهة التي منعتها چونو زوجة كبير الآلهة من الاستقرار على الأرض اليابسة، ثم أشفقت عليها جزيرة ديلوس العائمة وقبلت إيواءها. وحين بلغتها لاتو جاءها المخاض فاستندت إلى جذع نخلة واضطجعت تحت ظل شجرة زيتون الرّبة پالاس حتى وضعت طفليها التوأم رغم كَيْد چونو زوجة أبيهما. ولم يكد الطفلان يخرجان إلى الوجود حتى أكرهت چونو الغاضبة لاتو على ترك مأواها محتضنةً طفليها طفليهما الإلهين. وانتهى الأمر بلاتو أن وجدت نفسها تجول هائمة فى بلاد ليسيا موطن الخيـمـايرا[١٩]، حيث الشمس تحرق الحقول بأشعتها اللافحة وقد أنهكتها حرارتها وطول الرحلة وأحسّت بالظمأ هى وطفلاها المُتشبّثان بثدييها يمتصّانهما بلهفة حتى آخر قطرة فيهما. وما لبثت أن لمحت بركة غير فسيحة بعيداً فى بطن الوادي كان على مقربة منها رهط من أهل الريف يجمعون أعواد الغاب والشجيرات الغزيرة النمو قرب مياهها. وحين اقتربتْ من البركة وانحنت عليها لتروي ظمأها من مائها الصّافي حاول رعاع المزارعين منعها فلم ترض الإلهة

منهم ذلك وقالت لهم محتجةً: «كيف تمنعونني أن أردَ هذا الماء ووُرود الماء حقّ للجميع؟ وما شاءت الطبيعة أن تخصّ واحداً دون الآخر بالشمس والهواء والمياه الجارية. لقد جئتُ لأستمتع بخيرٍ هو للجميع، ومع ذلك فها أنذا أركعُ متوسّلة إليكم أن تمنحوني بضع جرعات من الماء، فلستُ أتطلع إلى الاستحمام أو غسل أطرافي المرهقة فى هذه البركة، وكل ما أرجوه هو إطفاءظمئي، فقد جفّ حلقي حتى لم أعد قادرة على الكلام وما يكاد صوتي يقوَى على الانطلاق من حنجرتي، ولسوف تكون جرعة الماء عندي بمثابة «النكتار» الإلهي، ولسوف أدين لكم بإنقاذكم حياتي، ألا فلتأخذكم الشفقة بهذين الطفلين اللذين يمدّان أيديهما هما الآخرين متوسّلين لكم؟ [وكان الطفلان قد مدّا بالفعل ذراعيهما]». ومَنْ ذا الذي لا تؤثّر فيه توسّلات الإلهة الرقيقة؟ ومع ذلك بقى المزارعون الرعاع رغم توسّلاتها متمسّكين بحرْمانها من الماء بل إنهم هدّدوها بما يروّعها ويرغمها على مغادرة المنطقة، وكالُوا لها السِّباب والشتائم وأقزعوا القول. ولم يقف بهم الأمر عند هذا الحد بل أخذوا يعبثون فى ماء البحيرة بأيديهم وأقدامهم ويعكّرونه بإثارة الطين الراكد فى قاع البركة، مدفوعين إلى ذلك بما فى طبعهم من ميلٍ للأذى. عندها غلبَ غضبُ لاتو عطشَها، ولم تعدْ راغبةً مع احتدام غضبها أن تبدّد وقتها سدى فى استعطاف قوم لا رفْق عندهم أو فى استجدائهم شيئاً ما، ورفعت ذراعيها إلى السماء وهى تصيح بهم قائلة: «إذن فلتعيشوا إلى الأبد فى هذا المستنقع». واستجابت السماء لدعائها، وإذا المزارعون يقعون أسرى رغبة الغوص إلى أعماق الماء ثم الطفو على سطحه، أو يشرئبّون برؤوسهم ثم يتقافزون نحو الشطّ. ومع بقاء ألسنتهم سليطة، اخشوشنت أصواتهم وانتفخت حلوقهم واتسعت أفواههم التي أطلقت السباب واختفت أعناقهم واتصلت رؤوسهم بأكتافهم، واخضرّ لون ظهورهم بينما ابيضّت بطونهم التي صارت أكبر أجزاء أجسادهم، وتحوّلوا إلى ضفادع تقفز حول المستنقع المليء بالأوحال(٢٠).

لوحـة ٥٩ . پيكار: أپوللو يقـضي بسلخ جلد
الساتير مارسياس.

مارسياس وپيلوپس

وإذ انتهى الراوي - الذي أجهلُ اسمه - من سرد أحداث هذه الكارثة التي حاقت بأهل ليكيا، بدأ راوٍ آخر يسرد قصة «الساتير» مارسياس الذي هزمه ابن لاتو فى مباراة العزف على مصفار منيرڤا ذو القصبات[٢١] وعاقبة بسلْخه حيّاً فصاح به الساتير: «لماذا تنتزعني من سِلْخي؟ كم أنا نادمٌ على ما كان، وهل إخفاقي فى مباراة نفخ المصفار يستحق مثل هذا الجزاء!؟». وبينما كان يصرخ جعل القوم ينتزعون جلده حتى تعرّى لحمه وأخذ ينزف دما فى كل اتجاه، وتبدّت أوتار عضلاته عارية كما ظهرت أوردته نابضة ترتجف دون جلد يكسوها وانكشفت أحشاؤه خفّاقة حتى بات غير عسير إحصاؤها، وتجلّت رئتاه للعيان، وحزن عليه جان الغاب وإخوانُهم الساتير والحوريات بل وأوليمپوس نفسه الذي ظل رغم كل شيء يحتفظ له بمكانته من قلبه، وجميع رعاة أغنامه وفيرة الصوف وأبقاره ذوات القرون. وارتوت الأرض الخصبة من الدموع التي سالت عليها فتشرّبتها حتى تفجّر من باطنها نبعٌ تنبثق مياهه عالية فى الهواء، ثم يهوي فيحفر لنفسه مجرى نهر جديد يتدفّق منحدراً بين شاطئيْه حتى يصبّ فى البحر المضطرب الموج. وقد عُرف هذا النهر الجديد باسم مارسياس أصفَى أنهار فريچيا.

ولم يلبث الناس بعد سماع هذه الأقاصيص أن عادت إلى الكارثة المستولية على شعورهم باكين أمفيون الذى مات ومعه أفراد أسرته جميعاً وليس فى نفوسهم غير الغضب على الأم رغم بقائها وحيدة وسط جثث أبنائها وزوجها. ويروي البعض أن واحداً فقط من الرجال هو پيلوپس قد ذرف دون غيره الدمع من أجلها، وأجهش بالبكاء، وشقّ ثوبه عن صدره حتى انكشف كتفه الذي صنعته الآلهة من عاج يوم هشّم أبوه أعضاء جسده ومزّقها إرباً إرباً وطوّح بها، فجمعتها الآلهة بعد أن عثرت عليها جميعاً عدا عَظْمة التُّرْقُوة الممتدة بين العنق وأعلى الذراع، فوضعت محلها قطعة عاج اكتمل بها جسد پيلوپس، وإن أسفر ذلك عن اختلاف لون أحد كتفيه عن بقية أجزاء جسده.

پروكني وفيلوميلا

وكان أن طالب سكان المدن القريبة ملوكهم بالتوجّه إلى طيبة لتقديم واجب العزاء، فتوافد عليها أمراء البلاد المجاورة من أرجوس واسپرطه وموكنايْ موطن أسرة پيلوپس، وكاليدون التي أثارت فيما بعد حقد ديانا القاسية، وأورخومينوس الخصبة وكورنثه الغنيّة بالبرونز، وميسيني المولعة بالقتال وپاتراس وكليوناىْ المقهورة وپيلوس مدينة نيليوس، وترُويزْن التي لم تكن قد خضعت بعد لپيثوس، ثم المدن الأخرى المعزولة وراء البرزخ القائم بين بحريْن، ومُدن الپيلوپونيز وشمال اليونان. وما كان أحد يخال أن أثينا هى وحدها التي يتخلّف أمراؤها عن المجيء للمواساة، فقد حالت الحرب بينها وبين أداء هذا الواجب، إذ كانت جحافل البرابرة القادمة عبر البحر تحاصر أسوارها وتلقي الرعب فى قلوب أهلها، حتى خفّ لنجدتهم تيريوس من طراقيا وتعقّب بجيوشه العدو محققاً شهرة واسعة بالانتصار عليه.

وما إن اطمأن پانديون ملك أثينا إلى ثراء تيريوس وشدّة بأسه وانحداره من سلالة الإله مارْس الجبار حتى زوّجة من ابنته پروكني، غير أن ربّات الحسن وهيمين إله الزواج وچونو الموكول إليها مباركة الزيجات لم يحضرن حفل الزفاف، بينما أضاءت الصّافحات [ربّات الانتقام] طريق العروسين بمشاعل سرقنها من موكب جنائزي، ثم هيّأن مخدع العرس. وأقبلتْ البومة المشؤومة فحوّمت حول الدار وحطّت فوق سطح حجرة العُرس. وهكذا ذرّ الشؤم قرنيه حين زُفّت پروكني إلى تيريوس ورُزقا طفلا.

وابتهجت طراقيا - التي لم تكن تدري بعدُ ما يتهدّدها - ورفع مليكها الشكر للآلهة، وغدا يوم بناء إبنة پانديون بملك طراقيا ويوم ميلاد إبنهما إيتيس عطلة رسمية. ألا ما أكثر ما يغفل الناس عمّا سيحيق بهم! . وبعد انقضاء خمسة أعوام سألت پروكني زوجها متلطّفة: «إن كنت تُحبّني حقاً دَعْنِ أمضي لزيارة شقيقتى، وإلا فَأْتِ بها إلى ها هنا، وعدْ أبي بأن بقاءها لن يطول بعيداً عن بلادها، فلسوف تكون رؤيتي فيلوميلا خيرَ ما تُهديه لي».

وأصدر تيريوس أوامره بإنزال سفينة إلى البحر يحركها الشّراع والمجداف، ومضى بها حتى بلغ ميناء كيكروپس [أثينا] ونزل على شاطىء پيرايوس. وحينما دخل على حَميه الملك وحيّا أحدهما الآخر ذكر تيريوس ما جاء من أجله ونقل إليه حديث زوجه ووَعْدها بأن غيبة شقيقتها لن تطول إن أذن لها بزيارتها. عندها ظهرت فيلوميلا بجمالها الآسر مرتدية ثوباً فاخراً أشبه ما تكون بحوريات الماء وحوريات الغاب، وما إن وقع بصر تيريوس عليها حتى اشتعلت الرغبة فى جسده واضطرمت فى فؤاده نار تحرق الغلال الذابلة أو أوراق الشجر الجافة أو التبن المخزون. والحق إن جمال فيلوميلا كان أخّاذا، وضاعف مَنْ نزوة تيريوس فرط هذا الجمال، فهو من بلاد يتميّز أهلها بالضعف أمام إغراء مُتع ڤينوس. وقد خطر بباله - خلال لهفته - أن يرشو وصيفات الفتاة للحدّ من ولاء خادمتها الخاصة فيستعين بها كى تساعده فى إغوائها بهداياه الفاخرة ووضع كنوز مملكته تحت قدميها، أو مَنْ يدري فلعلها تُيسّر له اختطافها والنّزوح بها بعيداً، وعندها يستطيع أن يدافع عن غنيمته بكل ما يملك من أساليب ضارية، وهو المتأهّب دائماً لسحق كل ما يعترض طريق رغباته الجامحة. وأحسّ أن قلبه أعجز ما يكون عن احتواء ما يتأجّج فيه من لهيب، وأحسّ من فرط لهفته تباطؤ الزمن، وانطلق يكرر خلال حديثه رسالة زوجه مُلحفاً فى الرجاء على أنه رجاؤها هى وقد أكسبه الحب طلاقة لسان. وكان كلما تخطّى فى حديثه الحدود اعتذر بأن تلك هى إرادة زوجه پروكني، وشفع حديثه بالدموع وكأن امرأته قد أوحت إليه بذلك. أيتها الآلهة، ما أشدّ ما يعمىَ البشر، لقد خال القوم فى إلحاحه الذي مكّنه من تحقيق خطّته الشريرة لوناً من الوفاء لزوجه، فامتدحوا فيه سلوكاً لم يكن فى الواقع إلا جُرماً آثماً. على أن فيلوميلا كانت هى الأخرى تشاركه اللهفة، وحين رآها تُعانق أباها مداعبة وتطوّق عنقه بذراعيها وتغمره بقبلاتها وتطلب منه أن يأذن لها بزيارة أختها، مضى يتخيّلها وكأنها تحتضنه هو وتقبّله، فإذا نيران رغبته تزداد اشتعالاً حتى تمنّى لو كان هو الوالد فى هذا الموقف. ولو أنه كان والدها حقا ما كان إثمه يربو على ما اقترفه بعد ذلك[٢٣]. وحين نزل الملك على إرادة ابنته غمر الفرح فيلوميلا فشكرت أباها، وقد ظنت الفتاة البريئة أن قرار أبيها كان استجابة لرغبتها هى وأختها، بينما كان مقدّراً لهذا القرار أن يودي بهما معاً.

ومالت الشمس نحو المغيب حيث كانت جيادُها تجرّ مركبتها على منحدرات الغَسَق، ونُصبت الموائد الملكية، وأترعت الكؤوس الذهبية بالخمر وانصرف المدعوون فى نهاية الحفل

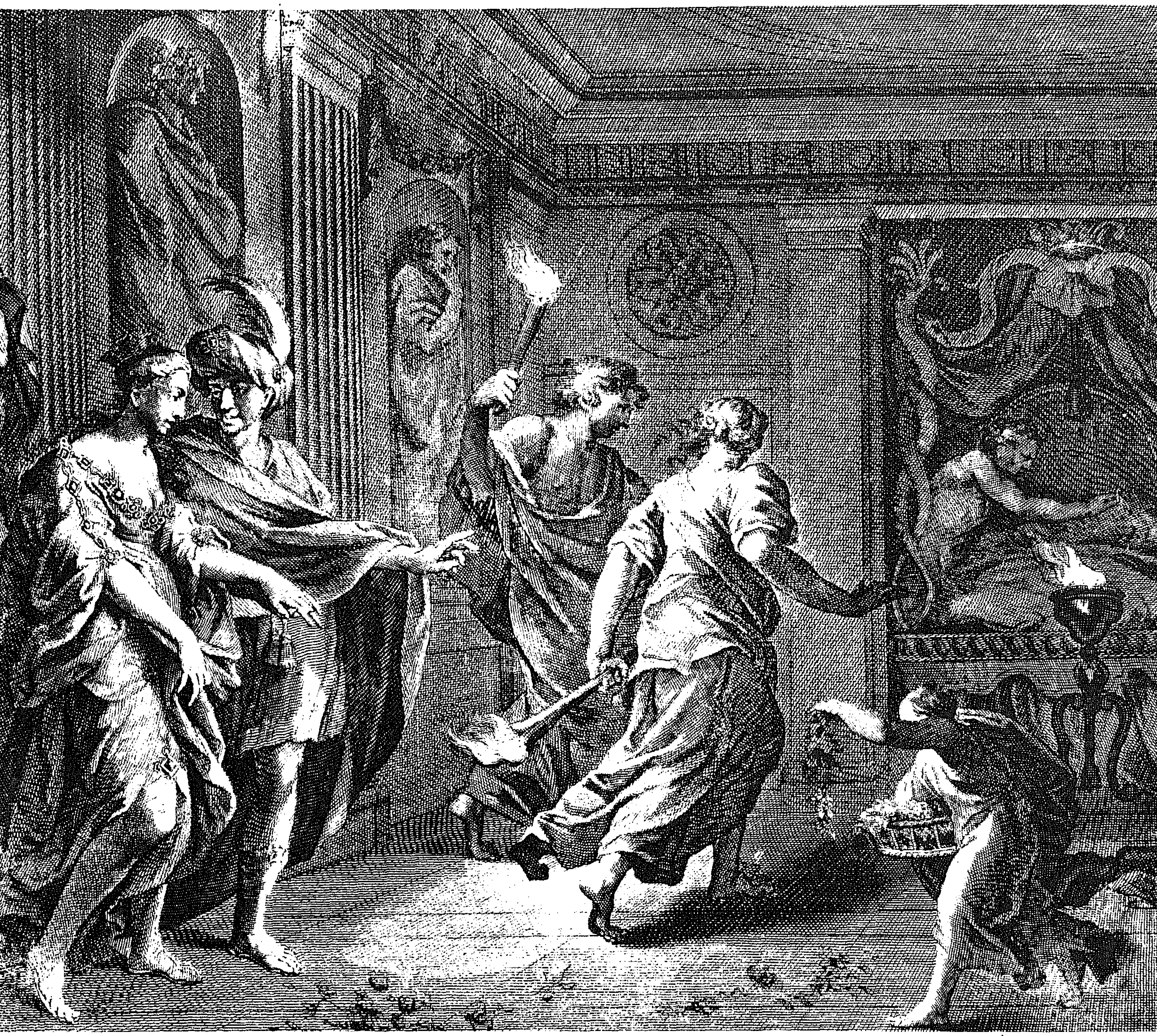

لوحة ٦٠ . پيكار: زفاف تيريوس إلى پروكني.

ليستسلموا لنوم هادىء، عدا ملك طراقيا الذى بقى مؤرق الجفنيْن فى فراشه مصاباً بحُمَّى عشقه للأميرة، مستعرضاً فى ذاكرته طلعتها ولفتاتها وذراعيها، ذاهباً بخياله إلى تصوّر ما خفى من مفاتن جسدها.

وحينما انبلج نور الفجر، وتأهّب تيريوس للرحيل شدّ پانديون على كفّه دامع العينين موصياً إياه برعاية رفيقته فى السفر قائلا: «بنيّ العزيز، لقد كان لرجائك الحارّلي ما لم يدع أمامي فرصة للخيار. وها أنذا أعهد إليك بابنتي استجابة لرغبتها ولرغبتك، وإني مستحلفك بشرفك وبحق الآلهة وبحُرمة ما بيننا من روابط أن ترعاها رعاية الوالد، وأن تُعيدَها إليّ بأسرع وقت ممكن، فهذه الفتاة الغالية هى مبعث بهجتي أيام شيخوختي، ولسوف تطول ساعات غيابها على نفسي. وأنتِ يا فيلو ميلا عجّلي بعودتك إليّ إن كنت تحبينني، وحسبي بُعد شقيقتك عني». ثم ختم وصاياه وقبّل ابنته قبلة الوداع منتحبا فى صمت وضمّ كفَّها بكفَّيه وكأنه يستوثق بوفائها بالعهد، وحمّلها تحياته لابنته وحفيده الصغير، وخنقت العبرات صوته فلم تعد كلمات وداعه تَبِين، واختلطت أفكاره بنذير طالع مشؤوم.

ولم تكد السفينة المزدانة بمختلف الألوان تبتعد عن الشاطىء حاملة فيلوميلا على سطحها حتى صاح الملك تيريوس مهنّئا نفسه: «يا للنصر الذى حققتُه، ها أنا ذا أحمل معي الفتاة التي طمعتُ فيها واشتهيتُها»، وجعله إحساسه بالزهو يضيق بانتظار أفراحه، ولم يستطع هذا الملك الهمجيّ أن يرفع عينيه عن غنيمته، شأن النسر الناشب مخالبه فى أرنب برّي يودعه وكره العالي، ومضى القنّاص يحملق بعينيه فى فريسته التى سَدَّ أمامها منافذ الفرار.

وأنهت السفينة رحلتها، ونزل الملاّحون إلى شاطىء وطنهم مُنْهكين، وأسرع الملك باقتياد ابنة پانديون إلى كوخ تحيط به أسوار عالية تُخفيه عن الأنظار وسط غابة عتيقة حيث حبسها هناك. وأخذت الفتاة تسأله عن مكان أختها وقد غلبها الذعر وشحب وجهها وتولّتها الرِّعدة وهى تتوقع أن تحلّ بها المآسي، لكن تيريوس لم يحدّثها عن شقيقتها وإذا هو يكشف لها عن نواياه الدّنسة. ولم تستطع الفتاة العزلاء أن تقاوم ضراوته فانطلقت تستغيث ولا مغيث، مولولةً باسم أبيها وأختها وكبار الآلهة، وتُرعد خوفاً رعدة حَمَلٍ صغير انتُزع من بين أنياب ذئب أغبر ودمه لايزال ينزف وهو غير مصدّق أنه بات بمأمن، أو كاليمامة رأت على ريشها دماً

فغشيها الخوف وتزايد هلعها من الشَّرَك الذي كان مُحْدقاً بها. وحين عاد إليها رشدها جعلت تشدّ شعرها المنفوش وتضرب بيديها على صدرها كالمُعْولة على فَقْد عزيز، ثم مدّت يديها صائحة فيه: «أيّها الهمجيّ، هل بعد هذا ذنبٌ لم تقترفه أيها الوحش؟ ألم تهزّ مشاعرك وصايا أبي التي بثّك إياها دامعاً وهو يُسْلمني إليك لأرحل معك، ألا تشغلك ذكرى شقيقتي ولا عُذْرتي ولا روابط الزوجية؟ لقد كفرتَ بكل شيء، وها نحن أصبحنا؛ أنا ضُرّة لشقيقتي، وأنت زوجٌ لشقيقتين، وإنني لجديرة بالعقاب بعد أن غدوتُ آثمةً في حق أختي. لماذا لا تسلبني الحياة أيضاً لتُتم بذلك جريمتك؟ كم أتمنى لو أنك قضيتَ عليّ قبل إقدامك على اغتصابي الذي جعل مني محظية لك، إذن لذهبتُ إلى عالم الأرواح بلا خطيئة. وإذا كانت آلهة السماء تشهد كل ما حدث وكانت قادرة حقاً، فلن يضيع شيء عبثاً كما ضاعت عفّتي، فلسوف تدفع ثمن جريمتك يوماً طال الزمن أو قَصُر، ولسوف أخلع عني إزار الحياء وأشَهِّر بفعلتك الدنيئة أمام الملأ، ولو أن الفرصة واتتني يوماً لتقدمتُ إلى شعبك ورويت عليه قصتي معك. أما إذا أبقيتَني سجينة في هذه الغابة فلسوف أملؤها صراخاً حتى أستدرّ عطف صخورها التي شهدت إذلالي، وحتى تسمع السموات صيحاتي وتستجيب الآلهة إن كانوا شهوداً، أو إن كان قد شهد هذا الجُرم واحد منهم».

وأثارت كلماتها غضب الطاغية الفظ وملأته خوفاً لا يقلّ عن غضبه، فأخرج سيفه من غمده المعلّق في خاصرته و أمسك بشعر فريسته ولوى ذراعيها في عنف خلف ظهرها. ورأت فيلوميلا السَّيف فازدادت أملاً في الخلاص بالموت وكشفت له عن نحرها مشمئزّة وهي لا تكفّ عن لعنه دون أن تُسعفها الكلمات، فإذا هو يُمسك لسانها بمقبض ثم يهوي عليه بنصل السيف فيشطره، وإذا الشطر الباقي يرتجف في حلقها على حين كان شطره المبتور يتلوّى فوق الأرض الداكنة كما يتلوّى ذيل ثعبان بُتر من لحظات ثم انتفض انتفاضة قويّة، وكأنه شاء أن يلحق بقدَميْ صاحبته قبلما يعاجله الخمود إلى الأبد. ولقد قيل - وإن كنتُ لا أستطيع تصديق ما قيل - إن الملك ظلّ بعد هذا الحادث البشع يواصل استمتاعه بجسد فيلوميلا المشوّه فواقعه مرات ثلاثا أو أربعا. ثم إذا هو بعد هذا كله لا يبالي بما فعل فيعود إلى بروكني يحكي لها حين سألته عن أختها قصة مُلفّقة يدّعي فيها وفاتها متظاهراً بالحزن والأسى حتى أقنع بدموعه الحاضرين. فمزّقت بروكني ثيابها النفيسة الذهبية الأطراف وخلعتها عن كتفيها وارتدت ثوباً

أسود، وشيّدت لشقيقتها قبراً خاوياً أخذت تقدّم عنده القرابين لروح فقيد لم يَمُتْ بعد، وتبكي مصير أختها التّعِس وما قاسته من عذاب قبل موتها، وإن يكن عذاباً مختلفاً عما قاسته حقاً.

ومرّ عام كان إله الشمس قد مضى فيه بمركبته عبر البروج الإثنى عشر. تُرى ما الذي كان باستطاعة فيلوميلا أن تفعله؟ لقد كانت تخضع لحراسة قوية تحول بينها وبين الفرار، وكانت الأسوار المحيطة بالكوخ عالية ضخمة مشيدة من أحجار صلدة، كما كانت شفتاها الخرساوان تحولان بينها وبين الإفصاح عما ألمّ بها، غير أن الحزن والألم قد شحذا عبقريتها، والحاجة تفتق الحيلة كما يقال، فجلست إلى نول بدائي نسّقت عليه الخيوط بدهاء، ونسجت عليه نسجية بيضاء صوّرت عليها مأساتها بخيوط حُمْر، ثم أسلمتها حين أنْهتها إلى خادمة شرحت لها بالإشارة أن ترفعها إلى الملكة. ونفّذت الخادمة ما أُمِرت به، وسلّمت النسجيّة إلى پروكني دون أن تعلم شيئا عن حقيقة ما تنطوي عليه. وما إن بسطت زوجة الملك الطاغية النسجيّة حتى طالعت فيها قصة شقيقتها ومأساتها المشؤومة، فلم تنبس ببنت شفة وبدت رابطة الجأش إلى حد يصعب على العقل تصديقه، إلاّ أن حزنها العميق أعجزها عن الكلام، وحين حاولت الحديث لم تجد من عبارات الأسى ما يعبّر عن شقائها، وتماسكت حتى لا يضيع الوقت فى ذرف الدموع، لكنها عادت تفكر فى خطة تنتقم بها من زوجها لا تلتزم فيها بنواميس الخير والشر.

وخلال الأعياد الكبرى التي تحتفل فيها صبايا طراقيا كل ثلاثة أعوام تمجيداً للإله باكخوس يؤدّين فيها طقوسه السّرية تحت ستار ظلمة الليل فيضجّ جبل رودوپي بصَكّ الصنوج، خلّفت الملكة قصرها متأهّبة لأداء طقوس تكريم الإله، حاملة معها الصولجان الذي كان يُلوّح به أثناء شعائر العربدة، متوّجةً رأسها بإكليل من أوراق الكروم، مسدلةً على جنبها الأيسر جلد وعل، معلّقةً رمحاً دقيقاً على كتفها. ومضت عبر الغابة متقدمة وصيفاتها، تضطرم جوانحها بما أصابتها به المأساة من جنون، متظاهرة بأن شيئا لم يبعث الاضطراب فى أعماقها غيرك أنت يا باكخوس، إلى أن بلغت الكوخ فحطّمت رفيقاتها بابه وسط ضجيج المحتفلات بباكخوس وصراخهن، واصطحبت پروكني أختها وألبستها ثياب إحدى المحتفلات بباكخوس، وغطّت وجهها بأوراق اللبلاب وعادت بالفتاة المذهولة إلى القصر.

٦٠٠ ولم تكد فيلوميلا تدرك باب الدار الملعونة حتى ارتعدت فزعاً وكسا وجهها شحوب الموتى، غير أن پروكنى بعد أن دخلت دارها خلعت عن أختها المنكوبة ثياب حفل باكخوس وكشفت عن وجهها المصبوغ بحمرة الخجل وطوّقتها بذراعيها، فلم تقو فيلوميلا على رفع رأسها حتى لا تتلاقى عيناها بعينىْ أختها اللتين غارتا حزناً من أجلها، وأطرقت ببصرها نحو الأرض، وعبّرت إيماءاتها عمّا لم يستطع صوتها البوْح به، فقد كانت ملهوفة إلى القَسَم بالآلهة بأن العار الذى لحقها إنما كان نتيجة هتك عرضها قسراً. واحتدم غضب پروكني وأوقفت نحيب أختها بقولها: «ليس ثمة وقت للدموع، بل للسيف أو لما هو أمْضَى إن كان لديك مثل هذا السلاح، فقد بتُّ متهيّئة للثأر على أية صورة كان هذا الثأر يا أختاه. فإما أن أشْعلَ النار العاتية فى القصر حتى يحاصر لهيبها تيريوس المخادع من كل جانب، وإما أن أقطع لسانه أو أفقأ عينه أو أجبّ عضوه الذي سلبك شرفك، أو أجعل روحه الآثمة تخرج من جسده عبر ألف جرح غائر. نعم، يجب أن نعدّ العدّة لانتقام رهيب، بيد أني مازلت عاجزة عن الاهتداء إلى خطة محكمة التدبير».

٦٢٠ وبينما كانت پروكني مسترسلة فى التعبير عما يحتدم فى وجدانها، أقْبَلَ عليها إبنها إيتيس فأوْحت لها رؤيته بالانتقام الذي يمكن أن تُقدم عليه، فتطلّعت إليه بعينين تفتقدان الحنان متمتمة «كم يُشبه أباه!» ولم تزد على ذلك. وغلا الغضب الصامت فى صدرها وقد عقدت العزم على انتقامها الرهيب، غير أن ابنها اقترب منها وطوّق عنقها بذراعيه الدقيقتين وقبّلها وهو يتمتم فى رقة هزّت فيها مشاعر الأمومة، فزايلها غضبها وترقرقت عيناها، واكتشفت أن حبها لولدها يوهن من عزمها على الانتقام، فتركته والتفتت نحو أختها. وعلى حين كانت تنتقل ببصرها بين طفلها وأختها أخذت تعنّف نفسها قائلة: «أنّى لهذا الطفل أن يخاطبني بمثل هذه الكلمات الرقيقة التي تعجز عن مثلها هذه الأخت المبتورة اللسان، وكيف له أن يدعوني يا أمّاه وهى لا تستطيع أن تدعوني يا أختاه؟ تأمّلي يا إبنة پانديون أى صنف من الرجال تزوجت، إنك لا شك تأثمين بحفاظك على عهود الزواج من مثل تيريوس؟».

٦٤٠ ولم تتلبّث پروكني بل أخذت إيتيس من يده وقصدت به مكانا قصيًا من القصر الفسيح كما تجرّ النَّمرة الظّبي الرضيع بشواطىء نهر الجنج خلال الغابة الكثيفة، وأدرك الطفل ما سوف يحلّ به، فمدّ يديه صارخاً «أمّاه!» وحاول أن يلفّ عنقها بذراعيه، لكنها أغمدت السيف فى

جنبه غير بعيد من قلبه دون أن تحوّل بصرها عنه. ومع أن هذه الطعنة كانت كافية لإخماد أنفاسه غير أن فيلوميلا هوت بالسيف على حلقه، ومضت الشقيقتان تقطعان الأطراف التي كانت ماتزال تنبض بالحياة حتى امتلأت الحجرة بالدماء، فأخذتا بعد ذلك لحمه وسَلَقتا بعضه وشَوَتا البعض الآخر على السيّاخ، ثم دعت پروكني زوجها إلى هذه الوليمة وقالت له بعد أن صرفت الخدم إن طقوس بلادها تقضي بأن يجلس الزوج وحده إلى المائدة. فجلس تيريوس والتهم ما بين يديه، وما خال أنه يأكل فلذة كبده. وبعد أن فرغ من طعامه التفت نحو زوجه قائلاً: «أين ولدنا إيتيس؟». عندها لم تستطع پروكني أن تُخفي فعلتها النكراء، ولا أن تردّ لهفتها لأن تكون أول مَنْ يُفْضي إليه بنبأ هذه الضّحية التى ذبحتها، وإذا هى تقول له: «إن مَنْ تطلبه ليلقاك مستقرٌ فى جوفك». وإذا هو يجيل بصره فيما حوله ويسأل: «أين ابني؟»، وبينما هو يصرخ باسم ولده المرّة بعد المرّة إذا فيلوميلا تهرول إلى القاعة بهيئتها الرثّة وشعرها الأشعث الذي خضّبته دماء الطفل، وكانت قد شاركت فى قتله، وإذا هى تلقي برأس إيتيس بين يدىْ أبيه. ولم تكن ثمة لحظة أمتع لها فى التعبير عمّا تُكنّ أمتع من تلك اللحظة. وبصرخة عارمة دفع الملك الطراقي مائدة الطعام مستغيثا بالشقيقات الغافيات فى أعماق نهر ستيكس ذوات الرؤوس الثعبانية، وحاول بحركة لا إرادية أن يشقّ بطنه ليُفرغ ما فيها من طعام غير مُسْتمرأ، وانطلق ينشج منهاراً، تارة واصفاً نفسه بأنه بات مقبرة لابنه التعس، وتارة أخرى يطارد ابنتىْ پانديون شاهراً سيفه العاري عن غمده، غير أنهما كانا فى سرعتهما أشبه بطائرين مجنّحين بعد أن نبتت لهما أجنحة، فحلّقت إحداهما هاربة صوب الغابات، بينما تعلّقت الأخرى بطنف الحجرة وماتزال آثار الذبيحة عالقة بصدرها، إذ كان ريشها أحمر مخضباً بالدماء المُراقة[٢٤]. وتحوّل الملك هو الآخر من فرط حزنه وتعطّشه للانتقام إلى طائر يعلو رأسه عُرفٌ ويمتد من فمه منقار حاد طويل بدلاً من السيف، وهو الطائر الذي سُمّى بالهدهد والذي يبدو وكأنه قد ارتدى عُدّة القتال.

وعندما بلغت القصة أسماع پانديون غاصت به أحزانه فى ظلمات تارتاروس قبل أن يحين أجله، وقبلما تنتهي حياته التي كان مقدّرا له أن يعيشها من قبل.

لوحة ٦١ . پيكار : تيريوس يقلب مائدة الطعام
بعد أن التَهم ابنه ، مطاردا زوجته پروكني
وشقيقتها فيلوميلا .

بــوريــاس وزيتيــس وكالاييــس

وانتقل حكم البلاد إلى إيريخثيوس الذي حمل صولجان پانديون من بعده، وكان بعدالته وبراعته فى استخدام السلاح قويّا مرهوباً، وكان له من البنين أربعة ومن البنات مثلهم عددا، وقد تميّزت من بناته اثنتان بالجمال، سَعد كيفالوس حفيد أيولوس بإحداهما واسمها پروكريس، ووقع بورياس فى حب الثانية التى كانت تسمّى أوريثيا، غير أنه ظل طويلاً يخطب ودّها عبثا وكان يبغى أن ينجح فى إقناعها باللين لا بالقوة، غير أن ذكرى بني وطنه الطراقيين وبخاصة ملكهم تيريوس الشرّير بقيت عقبة فى سبيل زواجه. وحينما لم يُجْده تودّده إليها ولم يحقّق له مأربه تملّكته عاصفة من الغضب الذي كان سريع الوقوع فى أسْره لسبب أو لآخر، فناجى نفسه قائلاً «إن سلوكي جدير بهذا الصَّد. كان الأوْلى بي أن أستخدم أسلحتي وأن أكشف عن الغضب والعنف والوعيد، وما كان لي أن أتشفّع بالرجاء الذي ليس من طبيعتي. العنف شيمتي، به أستطيع أن أبدّد السّحب الكثيفة، وبه أشيع الاضطراب فى البحر، وأطيح بأضخم أشجار البلوط، وأحفظ الثلوج جامدة، وأجلد الأرض بأسْياط البَرَد. وحينما أنازل إخوتي فى الفضاء الكوني - الذي يُمثّل حَلَبتي - يمتلىء الجو بصخب عراكنا ويومض البرق من بين أعماق السّحب. وحين أدخل الكهوف المقدّسة فى أعماق الأرض وأدفع بظهري أدنى قبابها يهتزّ الكون كله ويشيع الاضطراب لا فى أرجاء عالم الأحياء فحسب بل بين أرواح الموتى كذلك. لقد كان عليّ أن أطلب يد الأميرة لا رجاءً واستعطافا بل بقسر إيريخثيوس على أن يغدو لى صهراً».

بهذه الكلمات المتعالية ضرب بورياس بجناحيْه ليشقّ بهما طريقه فى الفضاء، فإذا خفقان جناحيه يدفع الرياح للعصف بالأرض ويبعث الاضطراب فى مياه البحر. ونشر بورياس عباءته محمَّلة بالغبار فوق قمم الجبال، ثم اندفع نحو الأرض مختفياً فى غيْمة، وأطبق ظلال جناحيْه على أوريثيا التي تملّكها الفزع، ولم يكد يطير بها حتى تفجّر لهيب شوقه وثارت نيران لهفته، فأسرع مُطلقاً العنان لنفسه خلال الأجواء حتى بلغ بغنيمته أسوار المدينة التى يقطنها شعب الكيكونيس[٢٥]. وفى هذه المدينة غدت فتاة بلاد أكتيا زوجة لهذا الطاغية متبلّد المشاعر،

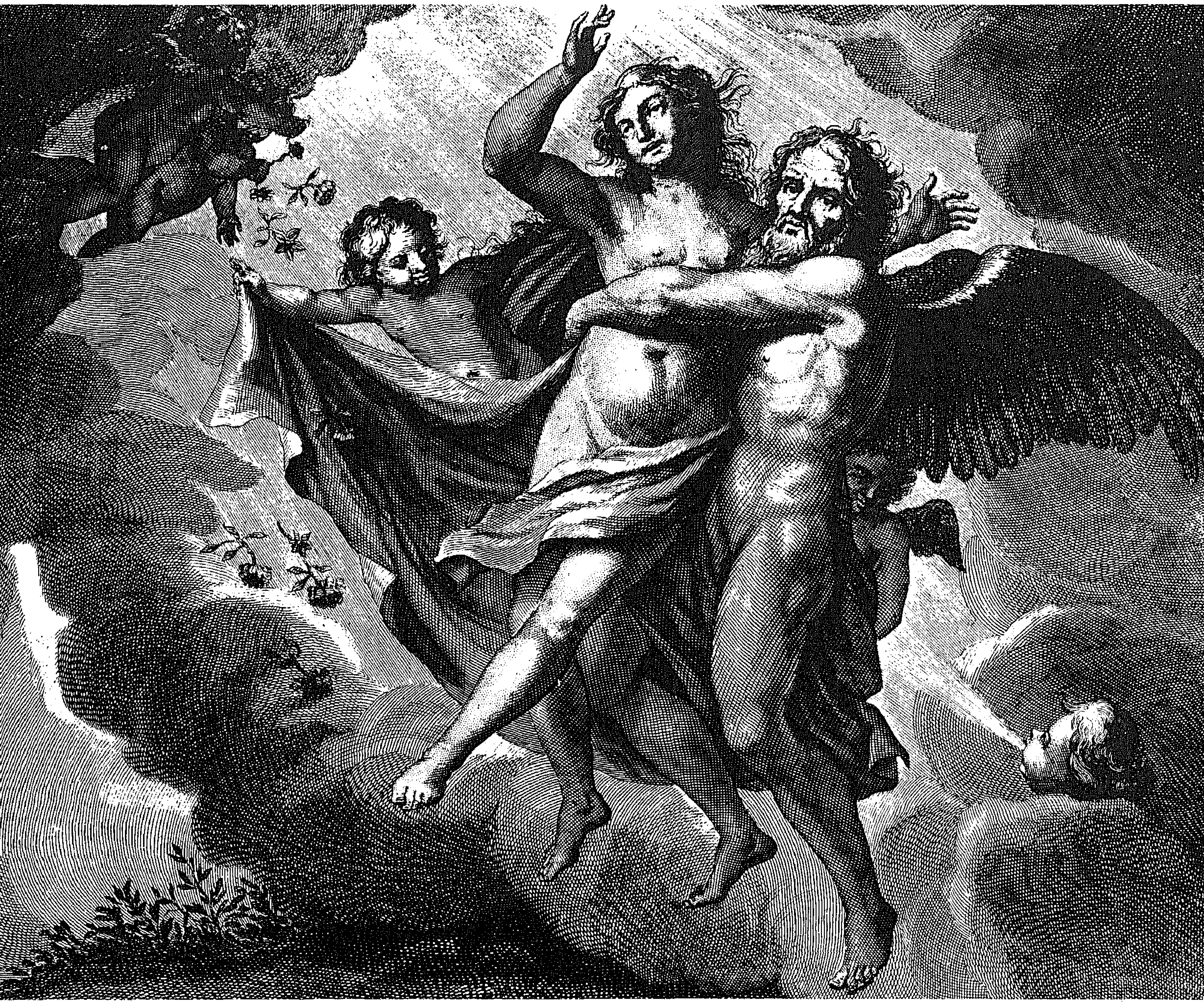

لوحة ٦٢ . پيكار: بورياس يختطف أوريثيا.

وحملت منه فأنجبت له توأما من الذكور هما كالاييس وزيتيس[٢٦] وكانا يشبهان أمهما فى كل شىء عدا أنه كان لكل منهما جناحان مثل أبيهما . على أنهما لم يولدا بالجناحين ، بل لقد بقى كل منهما ولا أجنحة له قبل أن يَشُبَّا عن الطَّوْق عندما كانت وجنتاهما ملساوين لم تخضرّا بعد . وحينما بدأ الزغب الأشقر يغشيّ ذقنيهما بدأ الريش فى الوقت نفسه ينبت فوق كتفيهما وكأنهما طائران ، حتى إذا كبرا وبلغا مبلغ الرجال انضما إلى أهل ميناس[٢٧] فى الطواف بالبحار المجهولة فى أول سفينة شُيِّدت للبحث عن الفروة الذهبية .

الكتاب السابع

الكتاب السابع

چـــاسون وميـــديا

بينما كانت سفينة الميناسيين [سلالة ميناس] التي شُيِّدت في پاجاساى[1] بالقــرب من طراقيا تمخر بهم البحر، لمح الملاّحون فينيوس[2] الذى هَدَّه الكِبَر ونفد نور بصره من مُقْلَتيه وقد التفّ حوله أبناء «ريح الشمال» الصغار يذودون طيور الهارپيس بعيداً عن فمه. وانحرفت بهم السفينة حتى بلغوا نهر فاسيس[3] الصاخب المُزبد وهم يغالبون الصعاب يقودهم البطل چاسون الذائع الصيت، حتى إذا مثلوا بين يدىْ الملك أييتيس مضوا يطالبونه بفروة الكبش الذي حمل فـريكســوس[4]، فانقلب يُملي عليهم شروطاً قاسية تُلزمهم القيام بمهام جسيمة ومغامرات خطيرة. وما إن وقع بصر ميديا إبنة الملك على چاسون حتى شُغفت بحبّه، وكم حاولت أن تدفع ذلك الحب بعيدا عن قلبها فلم تفلح، وإذا هي تذعن لسلطان الهوى فتناجي نفسها: ماذا تُراني فاعلة فيما قضاه عليّ إلهٌ من الآلهة، فما من شك في أنني صرتُ صريعة ما يسمّى الحب. ولعل حبّي لچاسون هو الذي جعلني أرى شطط أبي فيما اشترطه عليه، وهو الذي جعلني أخشى عليه التهلكة وما وقعت عليه عيناىْ من قبل. ثم مالي أحسّ القلق يتسلّل إلى نفسي رويداً رويداً؟ أتُراك تملكين أيتها الفتاة التعسة النجاة بقلبك الغضّ من تلك النيران المضطرمة والعودة إلى ما كنتِ عليه خالية القلب؟ إني لأراني عاجزةً يتنازعني عقلي وعاطفتي، وأنا

لعاطفتي أميْل مع علمي بأن الخيرَ لي فيما يُمليه عقلي . وكيف بي وقد استهواني حب رجل غريب فأصبحتُ أحلم بالزواج منه مع علمي بأن فى موطني مَنْ قد يستهويني . وسواء عاش چاسون أو مات فذلك مردّه إلى الآلهة ، لكني آمل أن يعيش . لقد بات عليّ أن أضرع للآلهة بالصلاة لكيْ يعيش حتى و إن لم أكن أحبه ، فأى ذنب جَنى ، ومَنْ ذا الذي يرى شبابه ونبل أصله وشجاعته دون أن يَقْدُره قدره إلاّ إذا كان وحشاً جامد الحسّ؟ وإذا لم تكن لچاسون كل هذه السجايا فمَنْ هذا الذي لا يُحرّكه حديثه؟ لقد مسّ قلبي وعشّش حبّه فيه ، وإذا لم أهرع لمساعدته فلسوف تحرقه أنفاس الثّوْرين اللذين ينفثان اللهب ، أو يصرعه أعداء البشر الذين ستُنبتهم الأرض حين تُبذَر فيها الحبوب ، أو يذهب فريسة التنّين النّهم . وما كان يمكن أن أكون إلا نَمرة قُدّ قلبُها من صخر أو حديد إن أنا لم أحُلْ دون هذا . وما آتَمَني إن رأيته يموت ، ولكن هل أقْوَى على أن أثير عليه الثّورين أو أمكّن منه المحاربين الذين تُنبتهم الأرض ، أو التنّين الذي لا يغفو أبدا؟ كم أتمنى أن تمنحه السموات حظاً أسعد . فلأصَلِّين من أجله ولسوف أسعى لسلامته . تُرى هل أخون أبي ، وأُعينُ غريباً على النجاة وقد يُبحر بعدها دوني ويتزوج من امرأة أخرى ، ويتركني هنا أواجه العقاب جزاء خيانتي لقومي . وإذا كان من الجائز بعد أن ينجو أن يُؤْثرَ عليّ امرأة أخرى فهل أتركُه يلقى حتفه جزاء نكرانه للجميل؟ لا ، إني أرى فى براءة وجهه ونُبل طباعه ورقّته ووسامته ما لا يدع لى مجالاً للخوف من أنه قد يخدعني أو أن ينسى ما قدّمتُ له من عون . على أن عليه أن يقطع لى عهداً قبل أن أساعدَه ولسوف أشْهدُ عليه الآلهة ، فإذا لم يكن ثَمَّ ما أخشاه فلمَ هذا الخوف إذن؟ فلأتأهّب للعمل دون تراخ ، ولسوف أجعل چاسون مديناً لى بحياته فيتزوّجني فى احتفال مهيب ، وستأتيني نساء اليونان جماعات من كل المدن لتكريمي على أني منقذةُ أبنائهن . ثم هل تُراني أهجر أختي وأخي وأبي وآلهتي بل ووطني نفسه وأذهب بعيداً عبر البحار؟ ولمَ لا أتركهم ووالدي قاس وأهل وطني جُفاة ، وأخي مازال طفلاً ، وأختى تباركني دائماً بدعواتها ، وأعظم الآلهة تسكن صدري ، وليس هناك مما أخلّفه ورائي شيء ذو قيمة بينما أستهدف بفراري شيئاً أعظم هو المجد وعلو الشأن . فإنقاذ هؤلاء الأبطال اليونانيين ، والتعرّف على بلاد أرقى من بلادي ، وزيارة مدن طبّقت شهرتها الآفاق حتى بلغت هذه الشواطىء ، والإلمام بفنون هذه المدن وثقافتها ، كل هذا أحلمُ به وأتوق إليه . ثم إننى سأظفر بچاسون الذي أرى فيه عوَضاً عن كنوز الأرض جميعا . وحين أغدو زوجته فسوف يعدّني الناس محظوظةً باركتها السماء ، وسترتفعُ هامتي عالية حتى تلامس النجوم .

ولستُ أعبأ بحديث الناس عن تلك الجبال القائمة فى عرض البحار التي هى للملاّحين بالمرصاد[٥] ولا عن خاريبديس خصم السفن التي تارة تبتلع المياه المحيطة بها وتارة تقيئها، ولا عن سكيلّلا الشّرهة المتمنطقة بالكلاب الضّارية النابحة فى أعماق بحار صقلية. إنها جميعاً لا تُخيفني، فلسوف أمضي فى رحلتي الطويلة عبر البحار وأنا فى أحضان محبوبي، ولن أحسّ وأنا ملتصقة بصدر زوجي چاسون إلاّ الخوف عليه وحده. ولكن أي زواج ذلك الذي تتحدّثين عنه يا ميديا؟ يحسنُ بك ألا تخوضي فيما لا يليق أن تخوضي فيه لاسيما وأنت آخذة فيه، ومن الخير أن تطرحي هواجسك الفاجرة».

كفّت ميديا عن مناجاتها نفسها بعد أن تبيّن لها أنّ العقل أوْلى بأن يُتّبع، وأن عليها أن تغلّب عواطف البنوّة والشرف على حبها لچاسون. وحين أدرك كيوپيد أن الهزيمة لحقت به بدأ يتأهّب للرحيل، بينما اتجهت ميديا إلى المحراب العريق لهيكاتي ابنة پيرسيس المختفي فى ظلال الأكمات بأعماق الغابة وهى عازمة على أن تطرح الهوى من قلبها. ولكن ما إن وقع بصرها فى الطريق على چاسون بن أيسون حتى عَلَتْ وجنتيها حُمرة ما لبثت أن اختفت وأعقبها شحوب واصفرار، وأحسّت بمشاعر الحب تُعاودها وتستعر فى أعماقها، وكأنما كانت ثمة جمرات متّقدة تحت كومة قش هبّت عليها ريح مفاجئة فإذا هى تتأجّج. هكذا أضرمت رؤية چاسون حب ميديا الذي كان قد أصابه الفتور، واتّقدت فى قلبها من جديد الجذوة التي كانت قد خمدت.

كان من الطبيعي أن يُثيرَ مشهد چاسون الوسيم لواعج الحب فى قلب ميديا، فقد كان عندها أكثر وسامة منْ ذي قبل، فمضت تتأمله وكأنها تراه للمرة الأولى، مأخوذةً بطلعته غير مصدّقة أنه واحدٌ مَن بني البشر، ولم تعد قادرة على تحويل بصرها عنه. وما كاد يأخذ فى الحديث إليها ممسكاً كفّها اليمنى بكفّيه متوسّلاً إليها أن تُعينه، آخذاً على نفسه العهد أن يتزوجها إذا تكلّلت مهمّته بالنجاح حتى انهمرت الدموع من عينيها وهى تُتمتم: «لقد بات الموقف أمامي بيِّنا، ولستُ أجهل حقائق الأشياء، وإنى لعلى يقين بأن الحب لا الجهل بالحقيقة هو الذى يقودني ليوردني موارد الهلاك، ومع ذلك فسوف أعينك على النجاة والفوز، كى تحقق لى أنت ما وعدتني به بعد نجاتك».

وأقسم چاسون على الوفاء لها بأسرار الآلهة المؤلّهة ثلاث مرات[٦]، وبالإله الماثل فى الكهف، وإله حميه المستقبل[٧]، وبعين الشمس التي ترى كل شىء، وبكل ما يملك، وبالمخاطر الرهيبة التي سيتعرض لها. فقنعت ميديا بقسمه وصدّقته، وزوّدته بأعشاب سحرية تلت عليها تعاويذها ولقّنته كيف يستخدمها، فَحَبَا السرور قلبه وعاد إلى سفينته فرحاً جذلاناً.

وما إن بزغ الفجر وتوارت النجوم حتى تجمّع الناس فى حقل مارس المقدّس واتخذوا أماكنهم فوق السفوح المرتفعة المحيطة به، وتوسّطهم الملك مزهوّاً فى ثيابه الأرجوانية مهيباً بصولجانه العاجي رمز سلطته. وفجأة ظهر الثّوْران ذوا الحوافر الذهبية والأنوف الصّلبة ينفثان لهباً أشعل النيران فى الحشائش الخُضْر، واختلط خوارهما بصخب النيران المندلعة من حلقيهما، وإذا هذا الخوار مع شدّة حرارة النار أشبه بفورة الحُرُض [الجير الحيّ] فى قبو غَمَرَه سيلٌ من الماء، غير أن چاسون بن أيسون تقدم نحوهما، فهزّا رأسيهما شارعيْن قرونهما الحديدية المدبّبة الأطراف وأخذت أظلافهما تحفر الأرض، بينما خوارهما يتردّد فى الفضاء المغمور بألسنة الدخان، وجمد ملاّحو الأرجو فى أماكنهم جزَعاً، عدا چاسون الذي تابع خَطْوه دون أن يحسّ حرارة أنفاس الثّوريْن النارية بفضل السحر الذي اعتصم به، وتقدم فى شجاعة فربت على لُغْدُيهما المتدلّييْن، ورفع النّير ووضعه على عنقيهما فمضيا يجرّان المحراث الثقيل والنصل الفولاذي وراءهما يشقّان أخاديد الحرث التي امتدت فى الأرض البِكْر وسط ذهول الكولخسيين وتهليل رفاقه ملاّحي الأرجو. ثم مدّ يده إلى الخوذة النحاسية والتقط أنياب الأفعوان التى كانت قد غُمست من قبل فى السّم الزعاف ونثرها فى أخاديد الأرض المحروثة، فما لبثت أن أخذت تنمو فى باطن التربة، وتشكّلت كما تتشكّل الأجنّة البشرية فى أرحام الأمهات حتى يكتمل نموّها فتخرج إلى النور. وهكذا نَبَتَ حصادٌ من أجساد بشرية لا يُعدّ ولا يُحصى مما فى جوف الأرض الحُبلى. وأعجبُ من هذا أن أطلّت هذه الأجساد شاهرةً أسلحة نَمَتْ هى الأخرى معها فى باطن الأرض، وإذا هى تثير الفزع بين الپيلازجيين(٨) عندما أخذت تسدّد رماحها الحادّة إلى رأس البطل الثيسالي، وإذا ميديا يُصيبها الهلع خوفا على چاسون رغم السحر الذي حصّنته به، فشحب وجهها وغاضت دماء أطرافها، وسرت فى جسدها رجفةٌ مفاجئة وهى ترى تلك الأعداد الغفيرة من المحاربين تحيط بالفتى وحده، وساورها القلق مخافة أن يكون مفعول الأعشاب التي زوّدت بها چاسون أقل تأثيراً مما ينبغي أن يكون عليه، وانبرت تتمتم بتعاويذ أخرى تستعين بها مستخدمة أفانينها لتزيد موقفه قوة، وإذا چاسون يحمل حجراً ثقيلاً ويُلقي به وسط أعدائه، وإذا هم يتحولّون عنه لينشب بينهم قتال مرير، وأخذ بعضهم يصيب البعض الآخر بجراح قاتلة فأفنى بعضهم بعضا. عندها تهلّل وجه الآخيين [اليونانيين] بِشراً واحتضنوا الفائز فرحين، وتحرّكت فى صدر الأميرة رغبةٌ عارمة فى

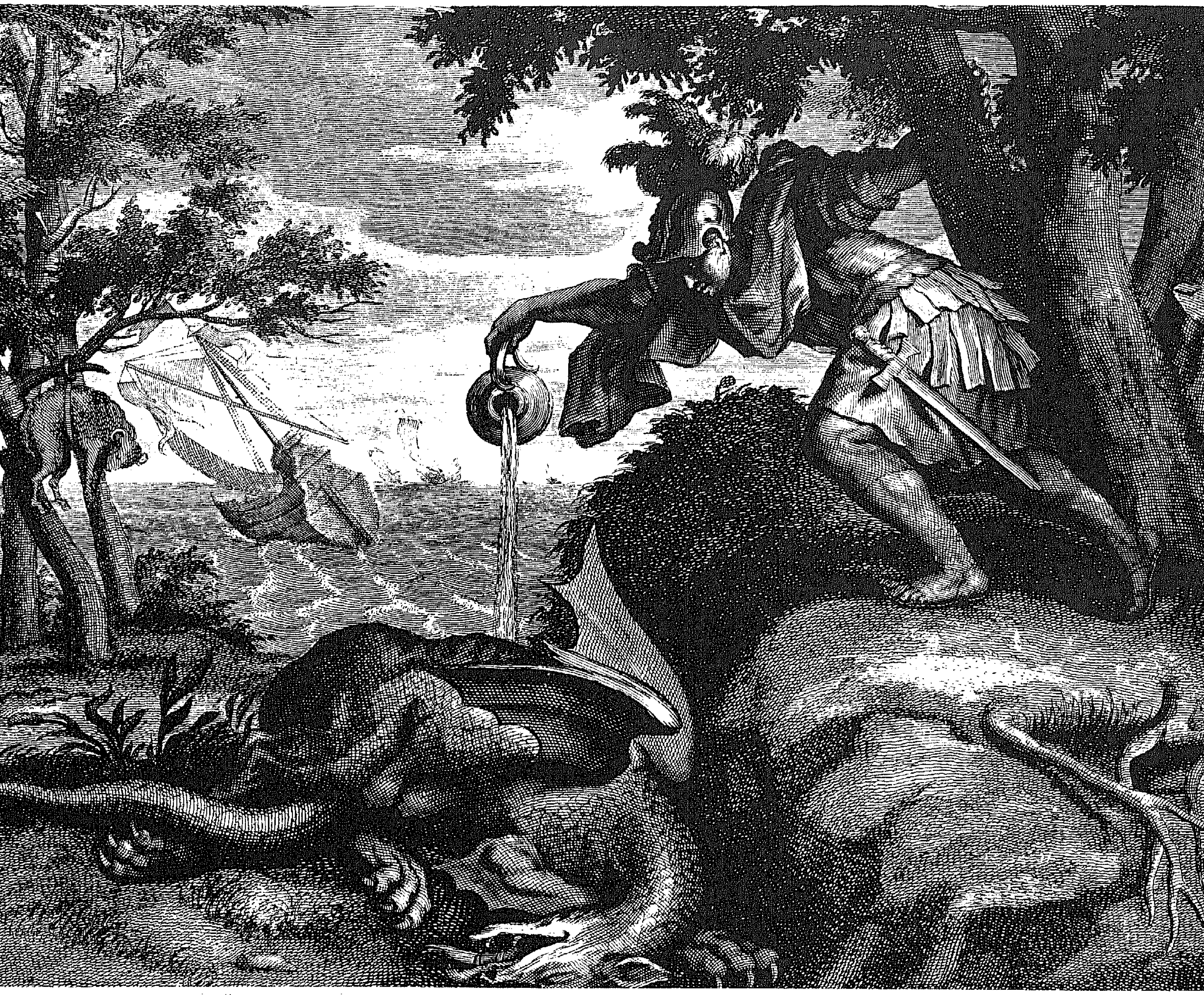

لوحة ٦٣ . پيكار : البطل چاسون يصبّ عصارة
العُشب الباعث على السّبات على رأس
التنين .

عناق البطل لولا خشيتها من إثارة الأقاويل، فكتمت فرحتها فى نفسها وشكرت الآلهة على استجابتها لضراعتها إذ سخّرت تعاويذها السحرية لنجاة چاسون.

ولم يبق أمام البطل إلاّ أن يبعث النّعاس فى عينىْ التنين حارس الشجرة التي عُلّقت عليها الفروة الذهبية، وكان منظر هذا المخلوق مثيراً بعُرفه الغريب ولسانه ذي الفروع الثلاثة وأنيابه المقوّسة، غير أن چاسون لم يكد يصبّ عليه عصارة العُشب الذي يُعين على السّبات العميق، ويتمتم بالتعويذة التي تُهدّىء البحر العاتي والنهر الهائج حتى أسلم التنين للنوم جفنيه اللذين لم يغمضا من قبل أبدا. وانتزع چاسون الفروة الذهبية، ومضى حاملاً معها غنيمة فوزه الأميرة ميديا التي قدّمت إليه العون لتحقيق مهمّته، وأبحر عائداً بها إلى بلاده متخطّياً ما صادفه من عقبات حتى بلغ ميناء إيولكوس(٩).

أيســــون

وقدّمت نساء ثيساليا القرابين شكراً للآلهة على عودة أبنائهن سالمين، وكذا فعل آباء الأبطال فعْلهن، فأوقدوا أكواماً ضخمة من البخور عند المحاريب، ونحروا الضحية المذهّبة ١٦٠
القرون التي كانوا قد نذروها للآلهة. وكان أيسون قد قعد عن شهود هذا الحفل لشيخوخته التى دنت به من حتفه، فتوجّه چاسون إلى زوجته قائلاً: «أى زوجتي التى أدين لها بحياتي والتي يعجزِ العقل عن إدراك ما أسدته إلىّ من معروف، أتُراك قادرة - وأنت التى لا يستحيل على سحرك شيء - أن تأخذي بعضَ سِني عمري وتَضُمّيها إلى عمر أبي؟»، وانسابت دموع عينيه مع كلماته فإذا حبه لأبيه يستنهض عواطف ميديا، واتجهت بفكرها إلى أبيها أييتس الذي هجرته، لكنها كبتت مشاعرها قائلة لزوجها: «ما أقساه من عَرْضٍ هذا الذي تعرضه، أوَ يدور بخلدك أن باستطاعتي الاقتطاع من عمرك أنت لأصل به حياة غيرك. إن إلهة هيكاتي لا تُجيز ذلك، فما منْ حقّك أن تطلبَ إلىّ ما أعجزُ عن تحقيقه، غير أنى سأحاول أن أقدّمَ لك هديةً تفوقُ ما تطلب يا چاسون، ولأستعينَنّ على تجديد شباب أبيك لا بالسنوات التى تريد اقتطاعها من عمرك بل بحذقي أنا حين تتفضل الإلهة المؤلّهة ثلاثاً فتُعينني على قضاء محاولتي الجريئة».

ودار القمر ثلاث دورات حتى اكتملت استدارة قرنيه، ومع تألق ضوئه تسللت ميديا من دارها متسربلةً بثيابها الفضفاضة حاسرة الرأس حافية القدمين مُرسلةً شعرها على كتفيها متعثّرة الخُطى فى هدأة السَّحَر، والطيور والوحوش فى مهاجعها مستسلمةً لنوم عميق، وأوراق الأشجار ساكنة على الغصون لا يصدر عنها حفيف، والهواء المسكون بالضباب قد سكن وتراءت من خلاله النجوم المتوهّجة فى كبد السماء. مدّت ميديا ذراعيها نحو النجوم ودارت حول نفسها مرات ثلاثا، ونثرت مياه النهر على رأسها ثلاث مرات، وصاحت صيحات ثلاثة معها نحيب وعويل، ثم خرّت على ركبتيها فوق الأرض الصّلبة ومضت تُهَمْهِم: «أيها الليل الحارس الأمين على أسراري، أيتها النجوم الذهبية التي تُرسل ضياءها مع القمر بعد غياب نور النهار، أيتها الإلهة هيكاتي يا صاحبة الرؤوس الثلاث ويا مَنْ هَدَتْني دوماً إلى ما أضطلع به وأعانتني على تحقيقه، أيتها العُوذات السحرية، أيتها الأرض التي تُنبت الأعشاب السّحرية، أيتها الأنسام والرياح والجبال والأنهار والبحيرات، وأنتم أيضا يا آلهة الغيضات وجان الليل، هلمّوا جميعاً. فبعَونكم أستطيع حين أريد أن أصدّ جريان الأنهار فترتدّ مياهها إلى منابعها بين دهشة الشّطآن، وأن أهدّيء عاصفة البحار أو أثير صخب مياهها برُقَاىْ، وأن أبدّد السُّحب أو أجمعها، وأن أرسل الرياح أو أخمدها، وأن أفتك بالثعابين بسحر تعاويذي وأن أحرّك الصخور والأشجار، وآمر شجر البلوط بأن يقتلع نفسه، بل آمر غابات بأكملها بأن تفعل ذلك أو أن آمر الجبال فتضطرب وتميد والأرض فتئنّ وتُزمجر، وجثوم الموتى فتخرج من قبورها، والقمر أيضاً أجذبه من السماء رغم صنوج تيميسا البرونزية[10] التى تَدُقّ لتخفّف من عنائه. إن جمالي يُزْري برونق مركبة جَدّي[11] ويفقد الفجر أطيافه بفعْل عقاقيري، أنتم الذين أعنتم على تهدئة وهج أنفاس الثَّوريْن ووضعتم عليهما النّيريْن ليمضيا بالمحراث المعوجّ ولم يكونا قد جرّا شيئاً قبلُ، وأنتم الذين أثرتُم المحاربين الذين نبتوا من زرع أنياب الأفعى ليقتل بعضهم بعضا، وأرسلتم النوم إلى عينىْ التنّين الذي لم ينم من قبل أبدا، ثم أسْلَمْتُم الفروة الذهبية إلى اليونان. ما أحْوَجَني اليوم إلى عقاقير تُعيد نُضرةَ الشباب إلى شيخ فان وتَردُّه إلى مقتبل العمر، تَهبونها إياى بعد أن ومضت النجوم استجابة لندائي، فليس عبثا تلكَ المركبة التى أوقفتها إلى جواري تجرّها التنانين المجنّحة».

واعتلتْ ميديا المركبة التي هبطت إليها من السماء وربتت على أعناق التنانين التي تجرّها، وأرْخَت أعنّتها فانطلقت فى الفضاء، وأطلّت على وادي نهر تمِپي فى ثيساليا ثم قادت تنانينها

صوب الجنوب من البقاع التي ستحلّ بها. وعكفت ميديا على فحص أعشاب جبل أوسّا، ثم اتجهت إلى هضاب جبل پيليون المرتفع وجبل أوثريس وجبل پيندوس وأوليمپوس[١٢] أعلى الجبال قمما، وقطفت منها الأعشاب التي وقع عليها اختيارها بعد أن اقتلعت بعضها من جذوره واقتطعت البعض الآخر بالنصل المقوّس لسكّين من البرونز، ثم جمعت حشائش أخرى من شواطىء بويبي[١٣] التي ينمو الغاب فيها، كما اقتطفت من أنثيدون المقابلة ليوبويا ذلك النبات الذى نال شهرة كبرى لما له من أثر فى إطالة العمر بعد ما فعل فعلَه فى جسد جلاوكوس[١٤].

قضت ميديا تسع ليال وتسعة أيام تطوف البلدان على متن المركبة التي تجرها التّنانين المجنّحة، حتى إذا ما عادت إلى دارها وقفت على عتبتها دون أن تنفذ إليها متجنّبةً مخالطة الذكور، وشيّدت محرابيْن فى العراء أحدهما على يمين الدار والآخر على يسارها وجعلت الأيمن لهيكاتي والأيسر لربّة الشباب[١٥]، وتوّجتهما بأكاليل من عساليج غصون الأشجار التي تنمو فى الغابة، وحفرت خندقين قريبين ملأتهما بدماء شاة سوداء اللون ذبحتها قرباناً ثم ملأت كؤوساً بالنبيذ وأخرى باللبن وسكبتها فوق الدماء فى الخندقين، ثم تمتمت بتعاويذها منادية جان الأرض، متوسّلةً إلى ملك الظلال ومليكته المخطوفة ألا يسلبا العجوز الحياة، وانبرت تكرّر الصلوات حتى أثارت عطفهما. وعندها طلبت من چاسون أن يحمل أباه إلى خارج الدار حيث فرشت بساطاً من الأعشاب المنثورة أضجعت عليه الشيخ الفاني وأخذت تتلو عليه تعاويذها حتى استسلم للنوم العميق، ثم أمرت ابنه وأتباعه بأن ينصرفوا عن المكان محذّرةً إياهم من أن تقع أعينهم غير المهيّأة للسِّحر على مشهد الطقوس السحرية التي سوف تؤدّيها، فأطاعوا وتفرّقوا، بينما أخذت هى تدور وحدها حول المحرابين بشَعْرها المُرسَل كأنها إحدى عابدات باكخوس، وغمست مشاعلها الخشبية المشقوقة أعواداً دقيقة فى الحُفَر المليئة بالدم الأسود حتى تشرّبته، ثم أشعلتها ووضعتها على المحرابين، وطهّرت الشيخ بالنار ثلاث مرات، وبالماء ثلاث مرات، ثم بالكبريت ثلاث مرات، بينما كانت قد وضعت فوق النار قدراً تطهو فيه الجذور التي جمعتها من وديان هايمونيا والبذور والأزهار ذات العصارات الحرّيفة، وإذا هذه جميعا تغدو مقوّمات سائل قوي التأثير يغلي ويفور بزَبَد أبيض فى القدر، ثم أضافت إليه الأحجار التي جلبتها من أقصى الشرق، والرمال التى غسلتها بمياه الأوقيانوس ونُدَفَ

لوحة ٦٤ . پيكار: ميديا تستخدم سحرها فى
إعادة الشباب إلى أيسون الشيخ.

الثلج التي جمعتها فى الليل على ضوء القمر، ولحم بومة مرعبة وجناحيها، وأحشاء غول وهو ذلك المَسْخ العجيب الذي يستبدل بقسماته الحيوانية أحياناً قسمات بشرية، ولم يَفُتْها أن تُضيف الجلد ذا الحرافش لثعبان مائي يسكن مياه كينيبس فى ليبيا وكبد وَعْلٍ معمّر ورأس غراب بمنقاره عاش ما يربو على أكثر من أجيال تسعة، إلى جانب آلاف العناصر الأخرى الغريبة التي لا أسماء لها، والتي كانت تستهدف من مزجها إنجاز مهمّة تفوق طاقة البشر.

وأمسكت ميديا بغصن شجرة زيتون جاف أخذت تحرّك به هذا المزيج الذي تحوّل إلى سائل وهو يغلي على النار، فما لبث الغصن الجاف أن اخضرّ وأوْرَقَ، وسرعان ما أصبح محمّلاً بالكثير من حبّات الزيتون، وكلما غلى السائل وانسكبت قطرات من القدر البرونزي على الأرض اخضرّت البقعة التى تقع عليها ونمت بها الحشائش وتفتّحت فيها الأزهار. وعندما اطمأنت ميديا إلى ذلك أمسكت بسيفها وشقّت به حلق الشيخ الطاعن فى السِّنّ، وتركت دماءه المُعتَّقة تسيل منه حتى جفّت عروقه، وأخذتْ تُغذّي عروقه بالشراب الجديد. وما إن تشرّب جسد أيسون هذا العقار سواء من خلال جرحه أو مما ابتلعه منه حتى زال الشّيب من شعر لحيته ورأسه واصطبغ بالسواد من جديد، وغابت مظاهر الشيخوخة والوهن وزال عنه شحوب وجهه، واكتنز لحمه تحت التجاعيد فبسطها، واكتسبت أطرافه قوة الشباب، وتعجّب الملك الشيخ من هذا التغيير الذي أعاده إلى هيئته التي كان عليها منذ أربعين عاماً مضت.

وحين شاهد باكخوس المعجزة من علياء سمائه، وفطن إلى أن الشباب من اليسير استرجاعه، وأن اليد الطولى فى هذا تعود إلى ميديا أميرة كولخيس، تاق إلى ردّه بالمثل إلى مرضعاته وطالبها بتحقيق أمنيته فرضخت لمشيئته.

پليـــــاس

ولم تتوقف جهود ميديا السحرية عند حدّ، فلقد قصدت ذات يوم دار پلياس شقيق أيسون الذى كان قد اغتصب عرش مُلكه، مدّعية أن خلافاً وقع بينها وبين زوجها وطلبت من الملك أن يأذن لها بالإقامة عنده، فرحّبت بها بناته بدلاً منه، إذ كان مُشرفا على الهلاك واهن القوى أحنت الشيخوخة ظهره. ولم تمض أيام قليلة حتى اكتسبت ميديا الماكرة ثقتهم متظاهرة بصداقتهن، وقصّت عليهن ما بذلته من عون لچاسون ثم عرجت على قصة إعادة الشباب إلى أبيه أيسون فأسهبت فيها وأطالت حتى بعثت فى بنات پلياس الأمل فى إمكان استعادة أبيهن لشبابه بالطريقة نفسها، فتوسّلن إليها أن تستخدم قدراتها لتُعيد الشباب لوالدهن مثلما فعلت لوالد چاسون مقابل ما تشاء.

التزمت ميديا الصمت طويلا متظاهرة بالتردّد فى قبول طلبهن، مدّعية أنها تفكر فى الأمر مليّا. وحين طال انتظار الفتيات القلقات وعدتهن بتقديم عونها قائلة: «لكى أبثّ الطمأنينة فى قلوبكن فسوف أحوّل الكبش المُسنّ الذي يتقدم قطعان غنمكم بعقاري السحري إلى حَمَل صغير». عندها أحضرن لها كبشاً كثيف الفروة ملتوي القرون واهن الخطو قد بلغ أرذل العمر، فوخزت حلقه بسكّينها الذي علقت بنصله قطرة دم، ثم أمسكت بالكبش فغمست قوائمه فى وعاء مليء بأعشاب قوية السّحر، فأخذت قوائمه تنكمش وقرونه تنحسر وتذهب عنه آثار السنين. وإذا الجمع يسمع فجأة ثغاء خافتاً يتردّد وسط الوعاء النحاسي الذي قفز منه حَمَل صغير يتلفّت باحثاً عن ضرع أمّه. فتملكت الدهشة قلوب بنات پلياس، وأقنعهن الدليل الدامغ بصدق وعدها، وعاودن إلحاحهن على أن يكون لأبيهن أيضا حظّه من هذا السّحر.

حطّ فويبوس إله الشمس عن جياده المجنّحة عدّتها بعد هبوطه إلى مياه أيبريا ثلاث مرات. وفى الليلة الرابعة وبينما كانت النجوم تتألق فى السماء وضعت إبنة أيتيس المخادعة قِدْراً كبيراً فوق نار مشتعلة بعد أن ملأته ماء خالصاً أضافت إليه بعض أعشاب لا أثر لها من السِّحر، وتمدّد الملك وأغفى بعد أن أخذته سِنَةٌ من نوم شبيه بالموت، وتلت ميديا تعاويذها التي غاب معها الملك فى سبات عميق، ثم صاحت فى بنات الملك الواقفات حول فراش أبيهن قائلة: «كيف بكُنّ قد وقفتنّ جامدات لا تفعلن شيئاً، ألا فلْتسلّلْن سيوفكنّ ولْتطعنّ أباكنّ حتى

ينسكب دمه كى أشرعُ بعد ذلك فى تزويد شرايينه بدم الشباب ، فحياة أبيكن وتجديد شبابه بين أيديكن ، فإن كنتن تحببنه فعْلاً فلتقمن بواجبكن نحوه . أطْرُدْنَ شيخوخته بضربات سيوفكن لتخرج مع دم جسده الفاتر» . وأثارت هذه العبارات حماستهن فأقدمن على مخطّط لم يُحطن بعاقبته المشؤومة علما ، فأمعنّ فى طعن والدهن تعبيرا عن عمق حُبّهن وإن تحاشيْن النظر إليه وهنّ مُمْعنات فى طعنه ، فنهض الملك مثقلاً بالجراح مشوّهاً مُخَضَّباً بدمائه ، وحاول أن يردّ عنه سيوف بناته التى أشْرعت من حوله فلم يفلح ، وصاح بهن وهو يئن «ماذا دهاكن يا بناتي وما الذي دفعكن إلى استلال السيوف لتقضين على أبيكن؟» ، وإذا عزيمة بنات الملك تخور بعد سماعهن احتجاجه وتساؤله ودهشته وإذا شجاعتهن تخمد وإذا حماسهن يفتر ، فعاجلته ميديا قبل أن يتفوّه بكلمات أخرى بطعنة فى حلقه ، ثم حملته وألقت بجسده فى الماء المغلي ، وأسرعت تطير فى الفضاء تحملها دوابهّا المجنّحة قبل أن يحيق بها مكروه ، محلّقةً فوق جبل پيليون المكسو بالغابات حيث دار فيليرا [أم القنطور خيرون]، وفوق أوثريس والمناطق التي اكتسبت شهرتها منذ طوفان ديوكاليون الذى طغت فيه مياه البحر على الأرض فأغرقتها ، فتجمّعت حوريات البحر حول كيرامبوس[١٦] ومسخنه جُعرانا ثم حملنه وطِرْن به فى الأجواء فأنقذنه من أن يجرفه الطوفان .

حلّقت ميديا فى الأجواء فوق مدينة پيتاني الأيولية[١٧] التي ينتصب فيها تمثال الأفعوان الحجري الضخم[١٨] ، وفوق غابة إيدا[١٩] حيث أخفى باكخوس العجْل الذى سرقه ابنه بعد أن مَسَخَه وعلاً[٢٠] ، وفوق كثيب الرمال الذي يطوي رمس پاريس بن پريام[٢١] وواصلت تحليقها فوق تلك الحقول التي روّعت مايرا[٢٢] فيها الناس بنباحها الغريب وأفزعتهم ، وفوق مدينة يورپيپلوس حيث نبتت القرون فى جباه نساء جزيرة كوس[٢٣] لحظة رحيل هرقل ورفاقه عن موطنهن، كما حلّقت فوق رودس جزيرة فويبوس الأثيرة ، وفوق مدينة ياليسوس مقرّ التلْخينيين[٢٤] الذين كانت أعينهم تنال بالسحر كل ما تقع عليه فأغرقهم چوپيتر - عن كراهية وازدراء - فى لجج مياه شقيقه نپتون ، ثم أطلّت على كارثيا إحدى مدن خيوس القديمة التي أصيب فيها ألسيداماس[٢٥] يوماً بالذهول حين أنجبت ابنته يمامة وديعة . كما مرّت ببحيرة هيرييه ثم تمپي[٢٦] موطن سيجنوس التي ذاع صيتها بعد أن تحوّل الأخير إلى طائر البجع . وفى هذا الموقع قدّم فيليوس إلى سيجنوس طيوراً جارحة كان استأنسها ، وأسدا كان روّضه نزولاً على

إرادة هذا الغلام، فإذا سيجنوس يطالبه أيضاً بترويض ثور وحشيّ إرضاءً له فأبَى بعد أن اتضح له أن الغلام لا يبادله عاطفة بعاطفة، فصاح به سيجنوس غاضباً «عما قريب ستُوَلْوِل نادما وتقول يا ليتني روّضت لك الثور»[٢٧] . وانطلق سيجنوس فألقى بنفسه من فوق صخرة عالية فظن الجميع أنه لقى حتفه على حين أنه تحوّل إلى طائر البجع، ومضى يخفق فى الجو بجناحين فى بياض الجليد، وباتت أمه تبكيه دون أن تدري بنجاته حتى ذابت فى دموعها فتحوّلت إلى بركة تحمل اسمها. وعلى مقربة منها پليورون[٢٨] التي بلغتها كومبي إبنه أوفيس[٢٩] بأجنحتها الخفّاقة فراراً من أبنائها الذين أضمروا إيقاع الضُّر بها وإزهاق روحها. وألقت ميديا بعد ذلك نظرة على حقول كالاوريا[٣٠] المكرّسة لابن ليتو [لاتو][٣١] والتي تحوّل ملكها ومليكتها إلى طائرين، ولمحت يمينَها كيلينيه حيث كَتَبَ القدرُ أن يأتي مينيفرون بها ما تأتيه الوحوش الكاسرة، وذلك حين غَشيَ أمّه، ورأت غير بعيد سيفيسوس ينعي مصير حفيده الذي حوّله أپوللو إلى فقمة، كما رأت دار يوميلوس[٣٢] الحزين على ولده الذي مُسِخَ طائراً. وأخيراً بلغت بأجنحتها المتحوّية كورنثه حيث ينبثق ينبوع «پيريني» المقدس، وحيث تتوالد الأجساد البشرية - وفقاً لأساطير الزمن الغابر - من فطْر عشّ الغراب مع هطول المطر[٣٣] .

ولم تكد عروس چاسون الجديدة تلقى حتفها بعد أن هرّأ جسدها الثوب المسموم الذي بعثت به إليها الأميرة الكولخيسيّة، ويشهد البحران على كلَيْ جانبيْ البرزخ اضطرام النار فى دار الملك، حتى امتشقت ميديا سيفها المخضّب بالدماء بعد أن انتقمت انتقامها المروّع بذبح أبنائها من چاسون وهربت فراراً من نقمة غضبه، فحملتها تنانينها المجنّحة التي انبثقت من دماء التيتان صوب مدينة أثينا قلعة پالّلاس حيث حلّقت فينى أشرف النساء فى صحبة پيريفاس[٣٤] العجوز، وحيث حلّقت أيضا ألكيوني[٣٥] حفيدة پوليپيمون عالياً بجناحيها بعد أن حوّلها الآلهة إلى طير القاوند.

وفى أثينا رحّب الملك أيجيوس بميديا، ولم يكتف بإيوائها بل بَنَىَ بها زوجة[٣٦] .

لوحة ٦٥ . بيكار: ميديا تذبح أطفالها انتقاما من
زوجها چاسون.

ثيســـــيوس

وإلى أثينا انتهى البطل ثيسيوس الذي وطدّ السلام وأشاع النظام فى أنحاء البرزخ المحاط بالبحرين، ولم يكن الملك أيجيوس يدري انه ابنه، فحرصت ميديا على أن تعدّ له شراباً من جذور البيش السامة التى كانت قد حملتها معها من شواطىء سكوثيا والتى يقال إنها نبتت أول ما نبتت من أنياب الكلب الإخيدني كيربيروس الذي عاش داخل كهف مظلم ينسرب منه سرداب إلى العالم السفلي، وهو السرداب الذي اجتازه هرقل بطل تيرينث بعد أن شدّ وثاق كيربيروس بسلسلة من الفولاذ بينما الكلب يقاوم مُشيحاً بوجهه عن ضوء النهار الساطع. وحين استشاط كيربيروس غضبا ملأ الفضاء بنباحه الهادر الصادر عن رؤوس ثلاث، وتناثرت قطرات اللُّعاب الشبيهة بالزَّبَد الأبيض من خطمه هنا وهناك فوق سطح الحقول الخُضر، مستمدّة غذاءها من التربة الخصبة، فإذا هى تُنبتُ نباتاً ضاراً من جنسها، ولمّا كان هذا النبات قد انبثق من جوف الصَّخر لذا أطلق عليه أهل الريف اسم أزهار الصخر «الأقونيطن» [أى نبات ينمو بلا تربة]. وأمسك أيجيوس الكأس المسمومة ليقدّمها لهذا الضيف الطارىء وكأنه يقدّمها إلى خصم من خصومه، وكانت ميديا قد أخفت عنه أن هذا الضيف هو فى الحقيقة ابنه. وما كاد ثيسيوس يرفع الكأس إلى شفتيه دون أن يدري مادُبِّر له حتى وقع بصر الأب على شعار أسرته منقوشا فوق المقبض العاجي لسيف البطل ثيسيوس فإذا هو يفطن لتوّه إلى أن هذا الطاريء ابنه، فأطاح بالكأس المسمومة عن شفتيْ چاسون، وإذا ميديا تولّي فرارا خوفاً من جزاء الموت الذى كان يترصّدها، وإذا هى تطويها السُّحب بين طيّاتها، وكانت قد أهابت بها بتعاويذها لتنجو.

وأحسّ أيجيوس رغم سعادته بنجاة ابنه بالذعر والفزع من هوْل هذه الجريمة النكراء التي كادت أن تقع فأشعل المصابيح فوق المحاريب، وذبح الثيران المزدانة الرؤوس بالأكاليل قرباناً للآلهة، فكان يوماً مشهوداً فى حياة الأثينيين، إذ اجتمع كبار القوم وعامة الشعب فى حفل ترفرف عليه البهجة، أطلقت الخمر فيه الألسن فراحت تتصايح: «شكراً لك يا ثيسيوس العظيم، يا فخر ماراثون، لأنك قويتَ بشجاعتك على ذبح الثور الكريتي[٣٧]، ولأنك مَنَحْتَ فلاّحي الحقول الممتدة حتى كروميون[٣٨] الطمأنينة بعد فتْكك بالخنزير الوحشيّ. لقد شهدت

لوحة ٦٦ . پيكار: هرقل يصرع كيربيروس.
الملك أيجيوس وابنه البطل ثيسيوس.

أرض إپيداوروس مصرع ابن ڤولكانوس المسلّح بالهرواة على يديك[39] ، مثلما شهدت شواطىء سيفيسوس نهاية پروكروستيس القاسي[40] ، ورأت إليوسيس مدينة الإلهة سيريس الأثيرة مصرع سيرسيون[41] ، كما قضيتَ على سينيس الذي كان يتعدّى طوره بقوته الخارقة فَيَثْني جذوع الشجر ويُنيخُ قمم أشجار الصنوبر حتى تلمس الأرض ويربط بها ضحاياه لتتمزّق أعضاؤهم وتتناثر ، وغدا الطريق إلى ألكاثوى[42] مدينة ميجارا بفَضلك متاحاً آمناً للجميع منذ قضيتَ على اللص سكيرون الذى رفضت الأرض والبحار أن تَضمّ رفاته ، فظلت الرياح تتقاذف عظامه حتى صارت مع الأيام صخوراً ارتبط بها اسم سكيرون . ولو أنّا شئنا إحصاء مآثرك المجيدة وقارنّاها بسني عمرك لفاقتها عددا ، وكم نحن لك من الشاكرين أيها البطل المغوار ندعو الآلهة إلى مناصرتك ، ومن أجلك نرفع الكؤوس تكريماً لك» . ودوّى تصفيق الشعب ودعواته فى جنبات القصر الملكى ولم يعد فى المدينة مكان لم يعمّه الفرح .

أيـــاكـوس

إن السعادة الخالصة لا تدوم ، إذ سرعان ما تتسلّل الهموم لتعكّر صفو الأفراح ، وهكذا تغيّرت فرحة أيجيوس بعودة ولده ثيسيوس إلى قلق بإعداد مينوس[43] ملك كريت العُدّة للحرب انتقاماً لمقتل ابنه أندروجيوس . وكان لمينوس جيش قوي وأسطول جبار ، كما كان يطوي ضلوعه على حقد دفين ، فحرّك سفنه السريعة التي تمثّل قوته الضاربة ليكتسح بها البحار ، وانطلق يحشد جيوشاً جرّارة من حلفائه كي يحاربوا إلى جانبه ، فاستمال إليه جزيرة «أنافي» بوعود قطعها على نفسه ، وضم إليه جزيرة أستيباليا السيكلادية قسراً ، وانضمت إليه جزيرة ميكونوس المنبسطة ، وجزيرة كيمولوس ذات التربة الطباشيرية ، وجزيرة سيروس التي ينمو بها الزعتر البرّي ، وجزيرة سيريفوس ذات السهول الممتدة ، وجزيرة پاروس المترعة بالرخام الجميل ، وجزيرة سيفنوس التي باعتها الخائنة آرنيه الطراقية[44] للأعداء لقاء الذهب الذي دفعها جشعُها إلى مطالبتهم به فتحوّلت بعد حصولها عليه إلى طائر يُسمّى غُراب الزَّرع [غراب الزيتون] الأسود القدميْن والجناحيْن ، وظلت تهيم بعبادة الذهب بعد تحولها طائراً . غير أن أولياروس وديديماى وتنُوس وأندروس وجياروس وپيپاريثوس التي تتكاثر فيها حبّات الزيتون المتألقة أبت أن تدعّم أسطول ملك كريت .

واتجه مينوس إلى أوينوپيا مملكة أياكوس التي أطلق عليها اسم أمه إيجينا [إيينا باليونانية] فخرج لاستقبال مينوس حشدٌ كبير من المواطنين مرحّبين فى حماس، وأسرع تيلامون للقائه يصحبه شقيقاه پيليوس وفوكوس اللذان يصغرانه سناً. كذلك خرج أياكوس يمشي واهناً تحت ثقل شيخوخته مرحّباً بمينوس متسائلا عن سبب زيارته لبلاده، فقال له عاهل المدن المئة الحزين على فقد ولده: «جئت أنشد مساعدتك فى الحرب التي أخوضها لأثأر لابني، وكم أودّ أن تمدّني ببعض رجالك ليكونوا أجناداً بجيشي فى تلك الحرب العادلة. وإنى أناشدك أن تمدّ لي يد العون حتى أستطيع أن أهوّن عن نفسى حُرقة قلبي وما أستشعره من كَمَد وغمّ ووحشة لابني فى قبره». فأجابه أياكوس حفيد أزوپوس قائلاً: «أن أجيبُك إلى ما تطلّب من المحال بمكان، فليست ثمة بلاد أوثق تحالفاً مع آل كيكروپس [الأثينيين] منّا، إذ تربطنا معا معاهدات وثيقة». ووجم مينوس وانصرف وهو يقول: «لَتَجنُوَنّ شرّ العواقب وأوخمها من جراء تلك المعاهدات». قال هذا إيثاراً منه بأن يلوّح بالحرب دون أن يتورّط فى إشعالها فيبدّد طاقاته سريعاً.

ولم يكن الأسطول الكريتي قد ابتعد كثيراً عن شواطىء أوينوپيا حين أقبلت على مينائها سفينة مسرعة من أثينا تحمل كيفالوس برسالة من بلاده. وتعرّف أبناء أياكوس على كيفالوس رغم مرور زمن طويل على آخر لقاء لهم به، فصافحوه فى حرارة ومضوا به إلى قصر أبيهم. وكان كيفالوس يسترعي أنظار المارة بوسامته التي ظل محتفظاً بها، وبغصن الزيتون الذي يحمله رمزاً لبلاده، ويسير بين سفيرين من أبناء أثينا أصغر منه سناً هما كليتوس وپوتيس ابنا پاللاس.

وبعد تبادل مراسم التحية المتداولة تلا كيفالوس نص رسالة شعب أثينا الذي ينتظر العون من حلفائه وفقاً للمعاهدة التى وقّعها الأسلاف، والوقوف فى وجه مينوس الذي يعتزم بسط سيطرته على اليونان بأسرها. وحينما انتهى السفير من تلاوة رسالته ذات المنطق الدّال والعبارة البليغة، أجابه أياكوس وهو قابض بيده اليسرى على صولجانه قائلاً: «لكم ما شئتم من عون يا أهل أثينا دون أن تسألوني إياه، وليكن كل ما نملك من قوة عسكرية أو ثروة مادية ملكاً لكم دون تردّد، فلا تعوزني هنا الموارد، كما أن لي من الجند فوق ما أحتاج للدفاع عن بلادي ضد الأعداء، وشكراً للآلهة على ما وهبتني. وهكذا ترى أنه ليس لي ثمة عذر للتخلّف عن

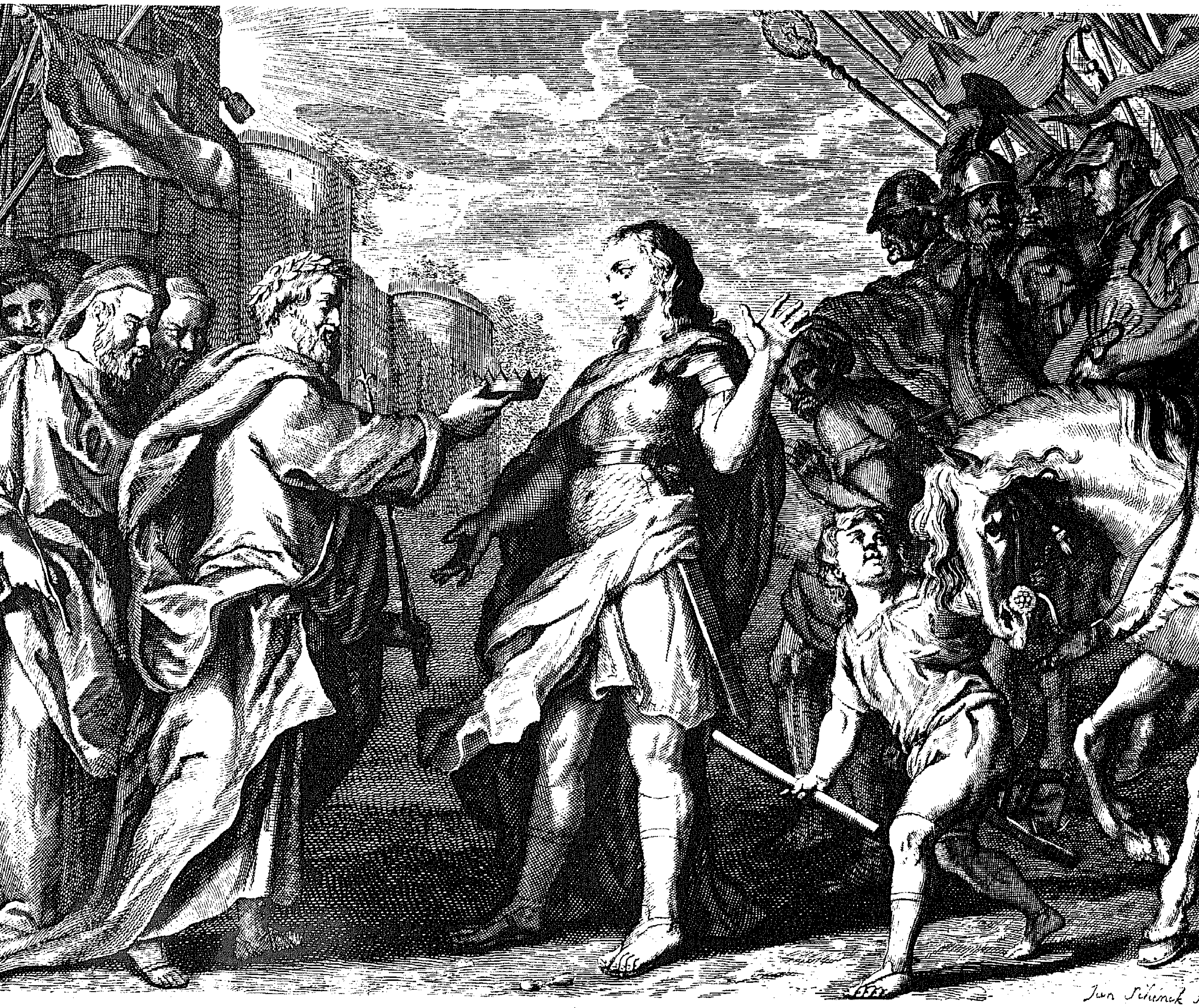

لوحة ٦٧ . پيكار: كيفالوس سفيرا إلى الملك أياكوس.

عونكم». فرد عليه كيفالوس: «ليَدُم لكم رخاؤكم ولينْمُ مع الزمن ويزدهر، وكم سعدتُ منذ أن وطئت قدمي بلادكم السعادة كلها بلقاء هذا الجم الغفير من شبابكم المترع فتوّة ووسامة، غير أني أفتقدُ الكثير ممن سعدتُ بلقائهم فى زيارتي الأولى لكم».

وتنهّد أياكوس وبدت فى صوته رنّة أسى وهو يجيب قائلاً: «لقد مررنا بمحنة قاسية قبل أن ننعم بهذا الرخاء الذي تشهده الآن، وسوف أروي لك الأحداث المتلاحقة لهذه المحنة دون أن أضيّع وقتك سدى برواية أخبار الأحداث العارضة. فقد ذهبت المحنة بأولئك الفتيان الذين تحاول عبثاً أن تلقاهم، وهم على هذا لا يمثّلون غير جزء ضئيل ممن فقدناهم.

الطاعون فى إيجينا

فلقد عمّ البلاد طاعون مُهْلك سلّطته علينا الإلهة چونو غضباً وحقداً على بلادنا التي تحمل اسم غريمتها(٤٥)، ولقد حسبناه بادىء ذي بدء وباء عاماً لم تُنزله بنا قوى إلهية، فتصدّينا له بوسائلنا الطبّية التي عجزت أمام ضراوة المحنة القاسية.

كانت السماء قد أعتمت فى الأيام الأولى وأرسلت ضباباً كثيفاً جثَمَ على الأرض حابساً فيها هواء وَمداً ما لبث أن أتى على نشاط الناس وحيويتهم، واكتمل البدر مرات أربعاً وعاد هلالا مرات أربعاً، وريح الجنوب تهبّ حارة مُحرقة، ومياه الينابيع والبحيرات قد تلوّثت بالجراثيم التى نشرتها آلاف الثعابين الزاحفة عبر الحقول الجرداء فى الجداول والأنهار، وأخذ الوباء بضراوته يعاجل الكلاب والطيور والأغنام والثيران والوحوش فبدأت تتساقط هالكة، وعمّ الأسى المزارعين التعساء وهم يشهدون ثيرانهم القوية تَخرّ صرعى وهى تحرث، وكباشهم كثيفة الصوف تئن تحت ثقل المرض ويتساقط صوفها وتضمر أَجسادها ثم تنفق، ولم تعد الجياد تعرف حلقات السباق فقبعت فى حظائرها تئن أنين المُشَارف على الهلاك. كذلك لم تعد للخنزير البرّي شراسته، وفقد الغزال سرعته التي كانت تُعينه على الفرار من ضاري الوحش، وجَمُدت الدببة عن التصدّي لقطعان الماشية إذ غدت أشدّ منها ضعفاً، وتعفّنت الجثث فى الغابات والحقول والطرقات وزخمت رائحتها الكريهة الهواء. والغريب أن الكلاب والذئاب والطيور الجارحة قد عافت هذه الجثث فتركتها تتحلّل وتفنَى مدنّسةً الأجواء بنتنها، ناشرة الوباء فى الآفاق الفسيحة.

واستفحل خطر الطاعون حين انتشر بين الفلاحين البؤساء وسقطت مدينتنا الكبرى فريسة له. وكان المرض يبدأ دائماً بأمعاء ضحاياه فتضطرم حرارة تحمرّ معها جلودهم وتلهث أنفاسهم، ثم تنتفخ ألسنتهم وتخشوشن، وتجفّ شفاههم وتظل منفرجة تحاول التقاط الأنفاس من الهواء الحار الملوّث. ولم يعد المرضى يطيقون البقاء فى الفراش أو يحتملون غطاء فكانوا يؤثرون الانبطاح على الأرض طلباً لسطح رطب نديّ، غير أن الأرض كانت ترتدّ ساخنة عندما تلامسها أجسادهم. وعجز الأطباء عن الكشف على المرضى لتفشّي الداء بينهم هم أنفسهم حتى غدت مهنة الطب أقصر الطرق إلى التقاط العدوى، فكلما كان الطبيب أكثر مخالطة للمريض وتفانياً فى رعايته عجّل ذلك بإصابته ثم بموته. ودفع اليأس بالمرضى إلى الاستسلام لنزواتهم وإهمال ما كان يمكن أن يكون فيه خيرهم، فنأوا عن العفّة والوقار، ورابطوا عند الينابيع والأنهار والآبار يحاولون إرواء ظمئهم الذى لا يُطفئه إلا الموت، فكانت الكثرة منهم ينحنون على المياه الجارية ليشربوا منها، وإذا هم أعجز ما يكونون عن النهوض فيموتون غرقا فى نفس المياه التى قصدوها لإطفاء حرارة أجسامهم، وبالرغم من هذا المصير كان غيرهم يتوافدون بلا انقطاع على المياه ذاتها يشربون، وضاق العديد من هؤلاء البؤساء برقادهم على الفُرُش فإذا هم يزحفون بعيداً عنها، وكان بين مَنْ تخونهم قواهم مَنْ يتدحرجون إلى الأرض فراراً من دورهم التي كانوا يخالون أن الموت جاثم فيها، فلقد حسبوا جهلاً أن دورهم الخانقة هى علّة مرضهم. وكان ثمة مرضى تغشاهم حالة بين اليقظة والغيبوبة يهيمون على وجوههم فى الطرقات ما وجدوا القدرة على السَّير، بينما كان غيرهم ممن لا يقوون على الحركة يستلقون على الأرض ينوحون بمرارة محدّقين بنظراتهم الزائغة فى الأفق، رافعين أيديهم إلى السماء إلى أن يفاجئهم الموت فيلفظون أنفاسهم وهم على هذه الحال.

فإذا كنت سائلي عمّا كنت أشعر به حينذاك، فلقد تملّكني إحساس بالنفور من الحياة، وكم تمنّيت أن يكون مصيري مصير شعبي، إذ كنت حيثما أجلتُ البصر رأيت أجساداً متناثرة فوق الأرض هنا وهناك وكأنها تفّاحات يانعة اكتمل نضجها فتساقطت من أشجارها التي هزّتها الريح، أو كثمار البلّوط المتناثرة تحت شجرتها التى عركتها العاصفة. أرأيتَ هذا المعبد المواجه لنا فوق التلّ والذي نَرْقَى إليه بدَرَج؟ إن چوپيتر هو مَنْ يسكنه. أو تظنّ أنه لم يعثر على من

يُقدِّم إليه القرابين ويُطلق البخور فى مذابحه؟ لقد عثر يقيناً على الكثيرين منهم، غير أن شيئاً
من ذلك لم يُجْد نفعاً فى كشف الغُمَّة عنا. وكم من أزواج صلّوا من أجل زوجاتهم، وكم من
آباء صلّوا من أجل أبنائهم، فسقطت زوجاتهم وأبناؤهم موتى عند المحاريب قبل أن تُسمع
دعواتهم، وقد أطبقوا أكفّهم على أعواد البخور التى كانوا يتطلّعون إلى إحراقها. كما كانت
الثيران التى ساقوها إلى المعابد تنفق قبل أن تُنحر بينما الكاهن يتلو عليها صلواته ويصبّ النبيذ
بين قرونها. وقد حدث حين كنت أقوم بتقديم قربان لجوپيتر عني وعن بلادي وعن أبنائي
الثلاثة أن خار ثور القربان فزعاً وسقط على الأرض، فلما أعملتُ السكّين فى رقبته لم
تنسكب منه سوى قطرات قليلة من الدم، إذ عاجلة الموت قبل الذبح. ٦٠٠

ولقد خلت أحشاء الحيوانات التي نفقت بفعل هذا الطاعون مما قد يكشف عن كُنْه الوباء
أو ما يحمل نذيراً من نُذُر الآلهة، فقد كان هذا المرض المروّع يسري فى الجسم حتى يبلغ
الأحشاء فيقضي على صاحبها عَجلاً. وكم رأيت من جثث على عتبات المعبد وأخرى فى
المحراب وكأنما أراد ذوُوها بميْتتهم هذه فى تلك الأماكن المقدسة عتاب الآلهة أو استرحامها،
فخلصوا من الحياة بشنق أنفسهم بالحبال للإفلات من هوْل الوباء، متعجّلين مصيرهم المحتوم
بمحض إرادتهم. ولم تكن ثمة طقوس جنائزية لأولئك الموتى الذين أتى عليهم الطاعون، كما
لم تُشيَّع جثثهم لتُدفن خارج المدينة كما هى العادة، إذ لم تكن بوابات المدينة تتّسع لمرور تلك
الجنازات التي لا تُحصى، فتُركت كثرة من الجثث على وجه الأرض دون أن تُوارَى فى مقابر
تسترها، بينما تراكمت جثث أخرى فوق المحرقة دون أن تظفر بطقوس الحرق بعد أن فقدت
مناسك الحرق قُدسيّتها وهيبتها، وإذا الأحياء يتدافعون على المحارق بالمزيد من الرّمّ يزاحم
بعضهم بعضا. ولم يترك هذا الوباء لباك أن يبكي فقيده، وكم من أطفال وآباء وشباب وشيوخ
ولّوْا دون أن تُذْرَف عليهم دمعة، وضاقت الأرض بموتاها فلم يعد ثمة مكان لقبر، كما لم يبق
من الأشجار ما يكفي لإيقاد نيران المحارق.

الميـــرميـــدون

وأصابني هول الكارثة بالأسى والشّجن فرفعتُ وجهى نحو السماء أصيح متضرعاً: «أى ٦٢٠
جوپيتر، إنْ حقاً ما يقال إنك ضاجعت أمّي إيجينا ابنة أزوپوس، وإنك تُقرّ أيها الإله القدير
بأبوّتك لى من غير حياء، فأعدْ إلىّ رعاياىْ أو فلْتُمتْني معهم». فإذا ربِّي يلبّي دعائي، وإذا أنا

أرى وميض برق وأسمع قصف رعد، فأيقنتُ أن چوپيتر قد استجاب لرجائي، فانطلق لساني يقول: «إلهي، لقد وعيتُ معنى إشارتك التى أرجو أن تكون بشارة خيرٍ لى، ومَرْحباً بهذا الوعد الذي وعدتني».

وتصادف أن كانت ثمة شجرة بلوط قريبة ذات فروع منتشرة على غير المعتاد، مكرَّسة لچوپيتر كانت فى أصلها نبتةٌ من أجمة دُودُونَا المقدّسة[٤٦]، فإذا أنا أرى رتلاً طويلاً من النَّمل يحمل فى أفواهه الدقيقة حبوبا يمضي بها فى شقٍّ من لحاء جذع الشجرة المغضّن، فتأمّلت مُعْجَباً أعداده الغفيرة واتجهتُ إلى الإله داعياً: «يا أجلَّ إله، هَبْ لي عدد هذا النمل أناساً يعمّرون بلادي الخاوية»، فإذا شجرة البلّوط تُرْعد وإذا فروعها تتمايل ولا وجود لريح عابرة. ومع أنني كنت أرعدُ خوفاً انتصب معه شعر رأسي، هُرِعْتُ لألثّم الأرض وشجرة البلوط وقد امتلأت نفسي آمالاً كتمتُها في أعماقي دون أن أبوح بها لغيري.

وأرخى الليلُ سدوله واستسلمنا للنوم تحت وطأة ما نرزح من هموم، ورأيتُ فى منامي شجرة البلوط نفسها بفروعها العديدة تهتز الهزّة ذاتها وأسراب النمل الغفيرة حاملة الحبوب فوقها، ثم وهى تنتشر فوق الأرض وسط الحقول. وعلى حين بغتة بدأت تنبثق من الأرض مخلوقات صغيرة بدلا منها أخذت تكبرُ ثم تكبرُ حتى انتصبت وقد ولّت ضآلتها وتخلّصت من سيقانها العديدة وألوانها الداكنة، فإذا هى على صورة البشر. وعندها زايل النوم جفوني حتى إذا عاودتني اليقظة لم أشْغَلْ كثيرا بتلك الرؤيا. غير أن جلبةً مُدويِّة فى أنحاء قصري لفتت سمعي، وخُيِّل إلىّ أنني أستمع إلى أصوات بشرية ما أطول حرماني من الاستماع إليها، فظننتها بقيّة من آثار النوم، وإذا ابني تيلامون يقتحم باب حجرتي ويخطو نحوي قائلاً: «هلمّ يا أبي لتشهد ما يجاوز آمالك ويفوق خيالك». وخرجت فإذا أنا أرى فى يقظتي الرجال أنفسهم الذين رأيتهم فى منامي فى صفوفهم نفسها التى كانوا عليها، وتعرّفتُ عليهم وهم يُقبلون علىّ ويُحيّونني تحيّة المليك. عندئذ وفّيتُ نذري لچوپيتر، ووزّعتُ دور المدينة وحقول الريف التي هلك أصحابها بين أفراد هذا الشعب الجديد الذين أطلقت عليهم اسم الميرميدون[٤٧] حتى يبقى ذكرُ الأصل الذي منه نبتوا مرتبطاً بالاسم الذي غَدَوْا يحملونه، ولقد رأيتهم أنت رؤية العين؛ غير أنهم ظلّوا يحتفظون بطباعهم وعاداتهم فهم لا يزالون يُحْسنون الاقتصاد والتدبير، ولا يُقْعدهم الجهد، ويحرصون على ما يقتنون، ويختزنون ما يجمعون،

لوحة ٦٨ . پيكار: صفوف النمل تتساقط من شجرة البلوط إلى سطح الأرض، ثم تنبثق منها على صورة البشر أمام الملك أياكوس تحقيقا لضراعته للإله چوبيتر.

ولسوف يكون لك منهم فى الحرب جند يتماثلون سناً وشجاعة حالما تسكن ريح الشرق التي جاءت بك هنا لخيرنا [وكانت ريح الشرق هى التي جاءت به فعلاً] فينفسح المجال لريح الجنوب».

كيفالوس وپروكريس

مضى النهار الطويل فى رواية القصص، وشهدت ساعاته الأخيرة الاستمتاع بتناول أطيب الطعام، وأتى الليل فحمل النوم إليهم. وحينما أشرقت الشمس بأشعّتها الذهبية، كانت الرياح الشرقية ماتزال تهبّ حاجزة السفن التي ماتزال راسية فى الميناء عن رحلة العودة، مضى ابنا پاللاس فى رفقة كيفالوس للقاء الملك الذي كان قد سيطر عليه سلطان النوم بينما كان الأميران تيلامون وپيليوس منشغلين فى تعبئة الجند للحرب، فقام فوكوس الإبن الثالث للملك أياكوس باستقبال سفراء أثينا عند مدخل القصر ومضى بهم إلى أحد أبهائه الجميلة، وإذا هو يلمح فى يد كيفالوس حفيد أيولوس رمحاً من خشب مجهولٌ نوعه صيغت له سنّ من الذهب فباغته بقوله متسائلاً: «إن اهتمامي بالغابات وبالصيد كبير، ولذلك فقد أثار عَجَبي ذلك الخشب الذى نُحت منه رُمحك، لأنه ليس من خشب البلوط وإلاّ كان أصفر، كما أنه ليس من خشب القرانيا وإلاّ كان متعدّد العُقَد. إننى لا أدري من أيّة شجرة شُكِّل هذا الرمح، ومع هذا فإن عيني لم تقع على أجمل منه»، فأجابه أحد السفراء قائلاً: «لسوف يثير إعجابك أداؤه أكثر مما يثير إعجابك شكله، فهو لا يخطىء هدفه ولا تحرف به المصادفات عن وُجهته متى انطلق، كما أنه يرتد من تلقاء نفسه إلى مُرْسله ملوثاً بدم ضحّيته دون أن يعيده أحد». وتتابعت أسئلة فوكوس سليل نيريوس عن الرمح ومَصدره ومن أعطاه لكيفالوس. وأجاب كيفالوس على أسئلة الأمير، غير أنه لم يفصح بشيء عن الثمن الباهظ الذى دفعه لحيازة هذا الرمح خَجَلاً من نفسه وندماً. وبينما الكلمات تنساب من شفتيه اعتصرت قلبه ذكرى زوجته التي فقدها واغرورقت عيناه بالدموع وقال: «من يصدِّق يا فوكوس يا ابن الإلهة أن هذا الرمح هو الذي يُدرُّ اليوم عينيّ دمعاً كما سوف يُدرُّهما بالدمع على مدى الأيام ما طال بي العمر، وكم تمنّيت لوَ لم أملك هذا الرمح أبداً لأنه هو الذي قضى على زوجتي وقضى عليّ أن أعيش مهموما شَجناً بعد أن لحقها المنون. كانت زوجتي تدعى پروكريس، ولعلك سمعت عن أوريثيا الأميرة التيِ اختُطفت من أثينا، إنها أختها(٤٨)، ولو أنك قارنت إحداهما بالأخرى جمالاً لأيقنت أن

پروكريس كانت أولى من أختها بأن تُختطف. وقد زوّجني منها أبوها إيريخثيوس، وكانت عطاء الحب لي حتى تعتّني الناس بالسعيد. وقد كنت سعيداً حقاً، ولولا إرادة الآلهة لبقيت سعيداً طول العمر[٤٩]. ومع نهاية الشهر الثاني على حفل قراننا، كنت أنصب شباكي صباح يوم لأصيد الوعول ذوات القرون فلمحتني أورورا ربّة الفجر التي كان نورها الزعفراني قد قشع الظّلمة فاستلبت لُبّي على الرغم مني. وكم أتمنى أن يؤذن لي فأقول الحقيقة دون أن أغضبَ هذه الإلهة. ورغم أنها كانت يقينا ربّة الحدّ الفاصل بين الليل والنهار تختال صفحتها بحُمرة الورود الخجلة، شرابها عصير النكتار، غير أني كنت أعشق پروكريس التي كانت تحيا فى قلبي ولا تردّد شفتاىْ غير اسمها، فذكّرتُ أورورا بمواثيق الزوجية وبزفافنا الحديث العهد وضمّات عناقنا ولقاءاتنا فى عُشّ الزوجية الذى غادرته منذ لحظات، فإذا الإلهة تستشيط غيظا وتقول: «كُفّ عن هذا التولُّه أيها الناكر للجميل، واحفظ عليك زوجك. وإذا قُدّر لي أن أرى المستقبل جليّاً فإنك سوف تكون من النادمين إن أبقيتَ عليها»، وصرفتني غاضبة لأرجع إلى زوجي. وأخذت خلال عودتي أستعيد حديث الإلهة، وبدأت الخشية تراود نفسي ألاّ تكون قرينتي أمينة على رباط الزوجية، وكان جمالها وشبابها يدفعانني إلى الشك فى إخلاصها لي بينما كانت فضائلها تصدّني عن هذا الشّك. ثم إنى كنت عائداً من عند إلهة زيّنت لي لوناً من ألوان الخيانة، كما أننا نحن العشّاق نرتاب فى كل شيء عندما نعشق. وهكذا عزمتُ على أن أختبر تلك التى كانت سبب همّي، وأن أحاول الوقوف على مدى إخلاصها وعفّتها بامتحانها بمُغْريات هدايا العشّاق. وضاعفت «أورورا» شكوكي فغيّرتْ ملامح وجهي فشعرتُ أني تحولت من حال إلى حال.

دخلتُ أثينا مدينة پالاس فى ملامح صورة لا يعرفني معها أحد، ودلفت إلى بيتي فوجدت كل ما فيه ينطق بالطهارة والعفّة وحُزن صاحبة الدار على غيبة زوجها. وبعد محاولات عدّة ظفرتُ بمقابلة پروكريس، فلما رأيتها اهتزّت نفسي وكدتُ أعرض عن اختبار إخلاصها، ولم أستطع إلاّ بصعوبة كبح شوقي إلى احتضانها وتقبيلها كما اعتدت أن أفعل. كان الهمّ يشجوها، غير أنها رغم حزنها كانت أجمل من أية امرأة سواها فقد كان أساها المكتوم على بُعد زوجها عنها يُثقل على قلبها. ولك أن تتخيّل يا فوكوس كيف كان سحرها والحزن يُضفي عليها فتنة طاغية. هل أقصّ عليك كم من المرات صمد طُهرها أمام محاولاتي؟ وكم من المرات قالت لي: «إنني أصون نفسي لرجل واحد حيثما كان، وإنني لا أُشركُ سواه فى

لوحة ٦٩ . پيكار: كيفالوس وأورورا.

المتعة بي؟»، فأى رجل عاقل لا يقنع بهذا السلوك دليلاً على إخلاصها؟ لكني لم أقنع، وجاهدت كى أطعن نفسي بنفسي. وانتهى الأمر بأن هَوّنتْ من شدّة صمودها بعد أن ضاعفتُ
٧٤٠ عطاياىْ لها وأغريتُها بمنحي إياها ثروة طائلة لقاء أن أقضي معها ليلة، فإذا هى تلين. وعندها صرختُ فى وجهها: «ما أسوأ حظّك، فليس هذا الذي يدّعي العشق بين يديك غير زوجك، ولدىّ الآن البرهان على خيانتك». وإذ طوّقها العار لم تنبس ببنت شفة وولّت فارّة من زوجها المداهن وقد استبدّ بها الخجل، تاركة الدار التي نصب زوجها لها فيها هذا الشَّرك. ومن أجل صنيعي نَبَذَتْ الرجال جميعاً، وانبرت هائمة على وجهها فى الجبال مكرّسة نفسها لخدمة ديانا إلهة الصيد.

واشتعل حبّي لها بعد أن تركتني أكتوي بنار أشدّ ضراوة مما كنت أحسّها قبلُ، ورُحت أتوسّل إليها أن تغفر لي، واعترفتُ لها بخطئي وبأن تلك الهدايا لو قُدّمت إلىّ لترديّتُ في الخطأ نفسه. وبعد هذا الاعتراف مني وبعد أن انتقمتْ للإهانة التى طعنتُ بها شرفها ارتضت العودة إلىّ فأمضينا معاً سنوات هانئة كنا فيها على خير وفاق. وكأنما لم تكتف بالهدية التي منحتني إياها بعودتها إلىّ، فقدّمت إليّ كلباً كانت قد تلقّته من الإلهة ديانا التي وضعت نفسها فى خدمتها قائلة لها: «إنه يسبق جميع الكلاب الأخرى»، كما أعطتني فى الوقت نفسه هذا
٧٦٠ الرُّمح الذى تراه الآن بين يدىْ. وإنك لا شك راغب فى أن تعرف مآل هذه الهدية الثانية، ولسوف يغلبك العجب حين تستمع إلى قصته الغريبة:

عندما وفّق أوديپ بن لايوس بذكائه إلى تفسير لغز «السفنكس» [أبو الهول] الذي لم تدرك سرّه العقول من قبل، «سقطت السفنكس» على الفور من شاهق. ولاشك أن الإلهة ثيميس المُنصفة لم تكن لتقبل أن تترك هذه الخطايا دون عقاب[٥٠]، فإذا بلاء جديد يجثم على مدينة طيبة الأيونية فى صورة وحش أثار الرعب بين سكان الريف خوفاً على حياتهم وعلى قطعان ماشيتهم. فذهبتُ مع شباب البلاد المجاورة لمحاصرة السهل الفسيح بشباك الصيد، غير أن الوحش تخطّاها بقفزة سريعة خفيفة، و أفلت من حبال الشراك التي كنا قد شددناها. فأطلقنا وراءه كلاب الصيد ـ بعد أن فككناها من معاقلها ـ التي أفلت الوحش منها فى سرعة الطير، فصاح بي الجميع أن أُطلقَ كلبي «لا يلاپس» [وهو الكلب الذي أهدته إلىّ زوجتي] بينما كان يجاهد محاولاً الإفلات من السلسلة المشدودة حول عنقه، ولم أكد أُطلق سراحه

حتى اختفى عن عيوننا فلم نعد ندري مكانه . كان الغبار المُثار يدلّ على آثار خطاه لكنه اختفى عن عيوننا، ولم يكن الرمح بأسرع منه، ولا القذيفة المنطلقة من المقلاع المتأرجح المدوّم فى الهواء، ولا السهم النحيل المقذوف من قوس كريتي.

وكان ثمة تلٌّ يُشرف على الحقول المحيطة فتسلّقتُه وتطلّعتُ من فوق قمته إلى مشهد سباق فريد، فكان يُخيَّل لى أحياناً أن الوحش قد سقط بين فكّيْ الكلب وأحياناً أنه أفلت من بين فكّيه. وكان الوحش بدهائه لا يمضي عبر السهل على طريق مستقيم بل يميل مرّة يمنة ومرة يسرة حتى يخدع خَطْمَ الكلب الذى كان يتشمّم خطاه ثم ينثني راجعاً، يدور دورةً ودورة ليُضلّ مَنْ يطاردُه وتضطرب معه سرعة هذا المطارد. ومع هذا اقترب منه الكلب مجارياً إياه فى سرعة العَدْو حتى بدا وكأنه قد أمسك به، غير أن فكّيه لا ينطبقان على غير الهواء. وبادرتُ إلى رمحي وحين أحكمتُ قبضتي عليه لأحسن تسديده حانت مني التفاتة ما كدتُ بعدها أرنو بعيني إلى حيث يتعقّب الكلب طريدته حتى عرتني الدهشة. ذلك أني لم أعد أرى فى السهل غير تمثالين من الرخام يبدو أحدهما وكأنه يحاول الهرب من الآخر بينما يبدو ثانيهما وكأنه على وشك افتراس خصمه، ويقيناً لو أن إلهاً كان يرقبهما، ما ودّ أن يُكتَبَ لأحدهما الخروج من هذا الصراع مهزوماً.

وأمسك كيفالوس عن الكلام، فسأله فوكوس قائلاً: «ولكن بم تعيبَ هذا الرُّمح؟» فأجْمل كيفالوس جريمة هذا الرُّمح بقوله: «كانت سعادتي يا فوكوس هى مصدر أساي، ولأحدّثنَّك عنها أولاً. وكم يطيب لى يا ابن أياكوس أن أذكرَ أيام سعادتي، ففي السنوات الأولى لزواجي كنت سعيداً بزوجي سعادتها بي. كان كلانا يحب الآخر حتى ما كانت تُؤْثر الزواج من چوپيتر على الزواج مني، وما كنت لأقع فى غرام امرأة أخرى ولو كانت ڤينوس نفسها. لقد كنا قلبين يضطرمان بنار واحدة، وكنت أخرج كل صباح إلى الغابة للصيد فى حماسة الشباب مع الخيوط الأولى للشمس المتسلّلة إلى قم التلال، ولم أكن أحب أن أصطحب معي خدماً ولا خيلاً ولا كلاباً قويّة الشمّ ولا شباكاً مُحكمة الوثاق. كان رُمحي هو كل عُدّتي، حتى إذا كلّت كفّي من سفك دم الحيوان الوحشي رُحت أتلمّس الظلال الرّخيّة والأنسام النّديّة التى تتصاعد من أعماق الوادي قارص البرودة. كنت أسعى وراء هذه الأنسام الرّخية وسط حرّ النهار متلهّفاً إلى أن تُخلّصني من الإرهاق. وكان من عادتي الاسترسال فى الغناء، وأذكر أنني

كنت أترنّم قائلا: «أقبلي يا آورا [أيتها النَّسمة] وامنحيني السعادة، انفُذي إلى صدري أيتها
الساحرة، واطفئي كما عوَّدتني تلك النار التي تلتهمني». ولعلّي كنت أضيفُ كلمات حانيات
٨٢٠ أخريات ساقني إليها قدَري وأردّد قائلاً: «أنت نشوتي الكبرى، تملأينني حياة بلمساتك
وتحرّكين فيّ حب العزلة والغابات، إن فمي أظمأ ما يكون للارتواء من أنفاسك». غير أن هذه
الكلمات الغامضة وقعتْ فى أذن مَنْ أساء فهم معناها المزدوج، ظاناً أن كلمة «آورا» التي
أردّدها هى اسم إحدى الحوريات التي أهيم بها غراماً. وقد تعجّل هذا الواشي الأحمق فانطلق
للقاء پروكريس وأسرَّ إليها بما سمعه وأفضى بأمر هذه الخيانة الموهومة. ولمّا كان المحبّ يُبلبله
أدنى شك، فقد سقطت زوجي التعسة مغشياً عليها صريعة هذا الخبر المفاجىء المزعوم حتى إذا
أفاقت أخذت تندب حظها التعس وظلم القدر وخيانتي إياها. وأثارها هذا الاتهام الكاذب
وبدأت تخشى شيئاً لا وجود له، وتخاف اسماً لا تحمله أنثى، وأكمدها الحزن كما لو كانت لها
غريمة حقيقية، ومع ذلك فقد كانت تشكّ فى صحة هذه الوشاية، متمنّيةً بطلانها، وترفض أن
تصدّق الواشي إلاّ إذا رأت خطيئة زوجها بعينها، وإلاّ فلن تُدينه.

وفى صباح اليوم التالي بعد ما بدّد الفجر ظلمة الليل خرجتُ متوجّهاً إلى الغابة، حتى إذا
فرغتُ من الصيد اضطجعتُ على العُشب وأخذت أشدو: «تعاليْ أيتها الأنسام، أقبلي
وخلّصيني من الإرهاق»، وخُيِّل إليّ فجأة أننى أستمع إلى أنّات تتردّد كالصّدى إثر كلماتي،
٨٤٠ فواصلت غنائي: «تعاليْ يا مُهجة قلبي». وسمعتُ حفيف أوراق تسقط فظننتُ أن وحشاً
يُقبل، وأطلقت رمحي السريع فإذا هى پروكريس وقد أصابها الرمح فى صدرها تصيح
«وامصيبتاه!». وتبيّنتُ فى عُسْر صوت زوجي الوفيّة فهرولت إلى المكان الذي انطلق منه
صوتها، ووجدت پروكريس بين الحياة والموت وقد تلطّخت ثيابها الممزّقة بدمها، وهى تنتزع
من جرحها الرُّمح الذي كانت قد أهدته إليّ، وحملتُ بين ذراعي فى رفق الجسد الذي أُعزُّه
أكثر مما أعزُّ جسدي، وضمّدتُ جُرحَها العميق بمُزقة انتزعتها من ثوبي، وجهدتُ فى حبس
الدم حتى لا يتدفّق، واستحلفتُها ألا تموت وتتركني أُعاني بعدها من فجيعة فراقها، غير أن
قواها ما لبثت أن خانتها. ورغم ما كانت تكابده أثناء احتضارها، فقد شقّت على نفسها
لتفصح لي عما يجول في خاطرها قائلة: «أستحلفك بحق رباط الزوجية الذي جمع بيننا،
بحق آلهة السماء وآلهة الأرض الذين أصبحتُ الآن بين أيديهم، أستحلفك بحق ما أسبغت

لوحة ٧٠. پيكار: مصرع پروكريس بسهم كيفالوس.

عليّ من حنانك، وبحق حبي لك الذي لم يَهِنْ حتى فى اللحظة التى أُسلمُ فيها الروح والذي كان سبب موتي، ألاّ تدع آورا هذه تحتل مكاني وتغدو لك زوجة بَعْدي». عندها أدركتُ أن هذا الخطأ في الأسماء هو الذي جرّها إلى تلك النتيجة الخاطئة، فكشفتُ لها عن الحقيقة غير أن ذلك لم يُجْدِ نفعاً، فإذا هى تغيب عن رشدها وأخذ ما بقى من قواها يضمحلّ مع بقايا دمها، وظلت محملقة فى وجهي، ثم ضمّت صدري إلى صدرها وأسلمت على شفتيّ روحَها البائسة، إلا أن قسماتها كانت تتّشح بسكينة تشي بانفلات روحها واثقة من إخلاصي لها».

وانحدرت دموع الشبّان مدرارةً حين استمعوا إلى قصة هذا البطل الذي كان دمعه يسيل هو الآخر، ولحظتها رأوا أياكوس مُقبلاً فى صحبة ولديه الآخرين فى مجموعة من الجند الجُدَد المدجّجين بأمضَى الأسلحة والذين استقبلهم كيفالوس ليمضيَ بهم.

الكتاب الثامن

الكتاب الثامن

ميـــنوس وســكيلّلا

عندما أرسلت نجمة الصُّبح نور النهار مبدّدة ظلمات الليل، خمدت ريح الشرق وتجمّعت الغيوم فى السماء، وكفلت ريح الجنوب الحانية لكيفالوس وجُنْد أياكوس المصاحبين له رحلة آمنة، وأخذت تدفعهم صوب المرفأ المنشود فبلغوه أسرع مما كانوا يأملون. عندها كان مينوس يغزو شواطىء ميجارا ويختبر قوة جيوشه المحاربة ضد مدينة ألكاثوس التي كان يحكمها الملك نيسوس الوقور ذو الشعر الشائب الذى تتخلّله على جانبىْ مفرِق الرأس خصلة من شعرات أرجوانيّة اللّون متألقة يستمدّ منها قوّته العاتية.

وتراءى الهلال الوليد بقرنيْه ست مرات متتاليات دون أن يُحسم مصير الحرب، وكان الطّرَفان يتنازعان النصر منذ أمد طال، وكان الملك نيسوس قد شيّد بُرْجاً فوق أسوار المدينة الشّادية، إذيُقال إن أپوللو بن لاتو قد أوْدَع قيثارته الذهبية فيه، فإذا أحجار هذه الأسوار تأخذ عنها أنغامها وتردّدها. وما أكثر ما كانت سكيلّلا ابنة الملك نيسوس تصعد إلى البرج الملكي خلال عصر السلام فتلهو بقذف الأسوار بحصى صغير فإذا الأسوار تنطلق شادية بالأنغام، كما لم تتخلّف فى أوقات الحرب عن الصعود إلى البرج لتُشْرف على معارك القتال الرهيبة.

وقد أتاحت لها تلك الحقبة الطويلة التي امتدت خلالها الحرب التعرّف على أسماء قادة الجيوش المتحاربة وما لهم من شكَّة وسلاح، وما يمتطون من جياد، وما يحملون من كنانات لسهامهم كريتية الصُّنع، كما تبيَّنت قسمات وجوه الجنود، وكان أكثر ما تبيّنت قسمات وجه مينوس بن أوروبا قائدهم الأعلَى، بل لقد استشفّت ما وراء تلك القسمات. فكان مينوس فى نظرها وسيما حين يعتمر خوذته البرونزية المُزْدانة بالريش، ومهيباً حين يرتدي تُرسه الذهبيّ المتألّق. وكان إذا رمى رمحه الّلدْن بذراعه مفتولة العضلات أعجبت بمهارة البطل وبأسه، وحين كان يَثني قوسه الممتدة وهو يُهَيِّءُ السَّهم على الوتر إذا هى تُقْسم أنه أشبه بأپوللو عندما يتهيّأ لتسديد سهامه. وحين كان يخلع خوذته البرونزية كاشفا عن وجهه وهو فى ردائه الأرجواني ممتطياً جواده الأبيض المزدان بسرجه الزاهي الألوان وقد أحكم لجام مطيّته، تخرج إبنة نيسوس عن رزانتها. وكم كانت تغبط الرُّمح المحظوظ الذى يُمْسك به، وكذا جدائل اللّجام التي حظيت بلمس قبضتيه، وكم هاجت رغبةً فى النزول إلى حومة الوغى بين صفوف الأعداء على الرغم من أنها لاتزال فتاة غضّة العود، وكم تمنّت لو وثبت من برجها العالي حيث معسكر مينوس، كما تمنّت لو قُدّر لها أن تفتح أبواب المدينة البرونزية على مصاريعها لتُتيح لجيوش الأعداء اقتحامها، أو لو كان فى قدرتها أن تحقّق لمينوس أية رغبة تُسْعده.

وفيما هى فى مجلسها بالبرج تتطلّع نحو خيام الملك الكريتي ناصعة البياض أخذت تناجي نفسها قائلة: لستُ أدري أفَرِحة أنا أم حزينة لهذه الحرب المشؤومة التى تدور رحاها. ثم كم أنا حزينة إذ جَعَلَتْ هذه الحربَ من مينوس عدوا لمن تعشقه، ولكني مع هذا فَرِحَة، إذ لولا هذه الحرب ما قُدِّر لي أن أحظى برؤياه. أوَ يُمكن لمينوس أن يأخذني رهينة بين يديه على أن يضع السلاح فأكون له رفيقة وضمانا للسلام؟ فلا عجب يا أوْسَم الملوك أن تكون أمّك التي أشعلت لهيب الحب فى صدر إله فى مثل جمالك. وما أنْعَمَني ثلاثاً لو استطعت أن أحلّق فى الأجواء بجناحين فأملكُ أن أهبطَ فى معسكر مينوس وأكشفَ له عن وجودي وعن ولَهي به، وأنا عندها على أهبة بأن أجْزيَه ثمن حبّه إيّاى إلا أن يكون هذا الجزاء التفريط فى أمن وطني. ألا فليحترق عُشّ الزوجية الذي أحلمُ به، فلن يكون ثمن سعادتي خيانتي لقومي. وكم ممَّن كُتب لهم النصر فى ساحة القتال مَنْ رُزقوا الخير فأحسّ المهزومون بتسامحهم أنهم الغانمون. لقد كانت الحرب التي بدأها مينوس عادلة فما شنّها إلا ليثأر لابنه الذى قُتل غيلة، وقد زاده الهدف الذي يسعى إليه قوة إلى جانب قوة عدّته. وما أشدّ إيماني بأن الهزيمة بنا لاحقة، وما

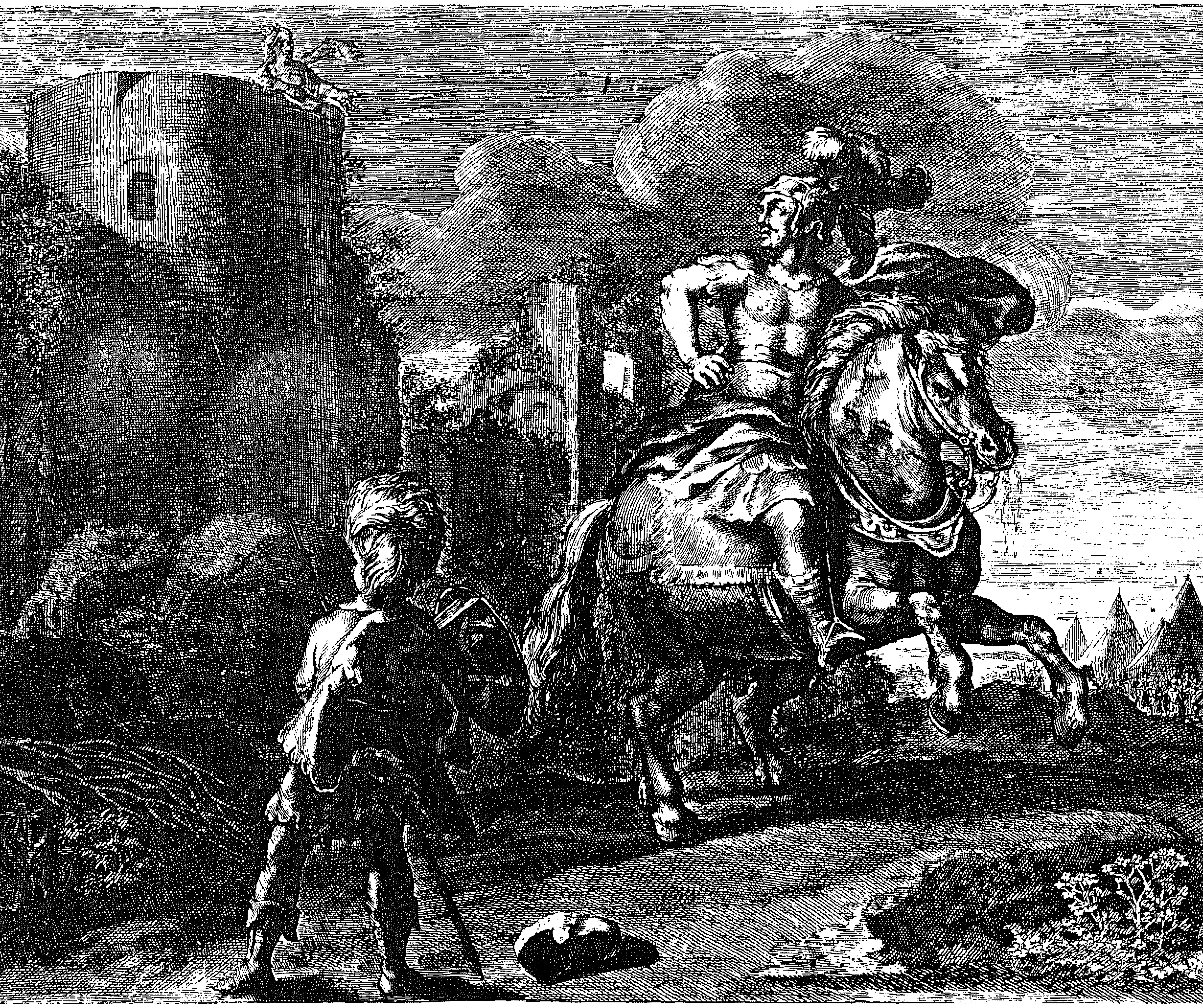

لوحـــة ٧١. پيكار: سكيللا تطلّ على الملك
مينوس من برج فى سور مدينة ألكاثوس.

أدري أيّ مصير ينتظر هذه المدينة؟ إذن فما ليْ لا ألبّي نداء حبّي وأفتح له أبواب مدينتنا بديلا عن الانتظار الذي سيؤول إلى اقتحام الأسوار، فمن الخير أن يتحقق له نصر عاجل لا تُراق فيه دماء ولا يُعرّض حياته للخطر. وفى هذا ما يُطمئنني بأنه لن يناله أحدٌ بسوء قاصدا أو غير قاصد. وأقول غير قاصد، إذ ليس ثمة إنسان يقسو أو يجرؤ فيسدّد رمحه إلى صدرِك وهو يعرف مَنْ تكون أيْ مينوس الغالي».

هكذا تسلّط على فكر إبنة نيسوس تسليم نفسها إلى مينوس وتقديم مملكة أبيها مهراً له، ورأت فى ذلك نهاية للحرب، غير أن عزمها وحده لم يكن يُغني، فقالت تحدّث نفسها: «ثمة حامية تحرس مدخل المدينة، ومفاتيح الأبواب مع أبي. ألا ما أشْقاني أن يكون أبي هو الوحيد الذي أخشاه، وأن يكون هُوَ العقبة فى طريق مسعايْ. ليت الآلهة خلقتني بلا أب. على أن كل إنسان هو فى النهاية إله نفسه، ثم إن فورتونا «ربّة الحظ» تصمّ آذانها لنداء الجبناء. ولو أن فتاة أخرى مُنيت بمثل ما مُنيتُ به من هذا الغرام المُبرّح لاقتحمتْ مُنذ أمد بعيد أيّة عقبة تقف فى سبيلها وهى قانعة راضية بما تفعل، فما بالي أكون أقلّ شجاعة؟ وها أنذا أحسّ الشجاعة تملأ جوانحي وتدفعني إلى أن أشقّ طريقي بين المشاعل والسيوف، وأراني فى غير حاجة فيما أنا مُقْدمة عليه إلى أن أخوض أيّاً منهما، فما أبغي غير خُصلة من شَعْر رأس أبي، تلك الخُصلة الأرجوانيّة التى هى عندي أنفس من الذهب، فَبِهَا وحدها سوف أحقّق ما أطمح فيه من أملٍ ٨٠
وسعادة.

وفيما هى تقلّب وجوه الرأى سجا الليل الذي تنزاح معه هموم الناس، وإذا هى مع إنسدال الظلام أكثر جُرأة. ومع الساعات الأولى التى يغشى فيها النوم الأحياء ويخفّف عن قلوبهم قلق النهار وإرهاقه تسلّلت فى هدوء إلى حجرة أبيها لتنفيذ خطّتها الشنعاء، وانتزعت من رأس أبيها تلك الخصلة التي بها حياته ومصيره، فما أبشعه من جُرم!.

قبضت إبنة نيسوس على غنيمتها الثمينة متسلّلة عبر أبواب المدينة، شاقةً طريقها وسط جنود الأعداء مفعمةً بالثقة فى أنها تقدّم إليهم خدمة كبرى، حتى إذا بلغت مليكهم الذي تملّكته الدهشة من وقوفها بين يديه قالت له: أنا سكيللا ابنة نيسوس دفع الحب بي إلى طريق الجريمة، وجئتُ أسْلمك مفاتيح بلادي وداري ولا أريد سواك مقابلها. خُذْ هذه الخصلة الأرجوانية دليلاً على حبي، وبهذا فإني لا أسلِمك خصلة أبي وحدها بل رأسه أيضاً»، وبيدها

قدّمت له الهدية النكراء. غير أن مينوس ازْوَرّ عنها واضطربت مشاعره من هَوْل فعْلتها وصاح فيها: «ما أنت إلاّ عارُ دَهْرنا، وإنى لأدعو الآلهة أن تُطهّر الأرض منك، وأن يأبَى البر والبحر أن يكونا مأوىً لك، فأنا أرفض أن يلوّث مخلوق دَنسٌ مثلك عالمي أو أن يلوّث جزيرة كريت مهد چوپيتر».

وحينما تم لمينوس النصر وأمْلَى شروطه العادلة على أعدائه المقهورين، أمر بفكّ حبال السفن من مرابطها وبأن يتّخذ الملاّحون أماكنهم من مجاديف السفن ذات الحيازيم البرونزية. وحين تيقّنت سكيللا أن السفن تمخر عباب البحر مبتعدة عن الشاطىء دون أن يكافئها قائد الأعداء على خيانتها رغم توسّلاتها استحوذ عليها غضب جنوني وانخرطت فى الصراخ وقد تطاير شعرها، وراحت تلوّح إلى مينوس: «إلى أين تمضي يا مَنْ آثرتك على أبي وبلادي؟ إلى أين تمضي مخلّفا مَنْ هيّأت لك الفوز والانتصار، وإلى أين تنأى يا قاسي القلب بعد أن ظفرتَ بنصر أنا التي أستحقُ عليه كل إجلال وكل لوم؟ ألا يثير مشاعرك ما قدّمتُ إليك؟ ألا يعنيك حبي لك وأنا التي وضعتُ فيك وحدك آمالي كلها؟ وإلى أين أروح أنا لو تخلّيت عني؟ لقد حاقت الهزيمة ببلادي، ولو أنها عادت لها حياتها يوماً ما استطعتُ دخولها، فقد أغلقت أبوابها فى وجهي إلى الأبد لخيانتي إياها. وهل أستطيع أن أرجعَ إلى أبي بعد أن أسلمتُه لك؟ إن مواطنّى ليمقتونني وهم على حق فى ذلك، كما أن شعوب البلاد المجاورة تستنكر المثَلَ السّيىء الذى اقترفته. لقد أوصد العالم كله فى وجهي ولم يبق لى ملاذ غير كريت، ولو أنك حرمتني الاحتماء بها وهجرتني غير معترف بالجميل الذى قدّمته إليك لما كنت ابن أوروپا بل ابن سيرتيس[1] غير المأمونة، أو ابن نَمرات أرمينية أو ابن مياه خاريبديس التى تُهيجها ريح الجنوب، فلستَ إذن إبن چوپيتر، ومنْ ثم ليست قصة ميلادك إلاّ أكذوبة، وليس إذن إلهاً متقمّصاً ثوراً ذلك الذى ضاجع أمّك، بل هو ثور متوحش حقيقي لم يستشعر حباً قط لإحدى البقرات. أبتاه! فلْتنزل بي عقابك، وأنت يا أسوار البلاد التى خُنتها، فلْتَشْمتي بي فأنا جديرة بحقدك عليّ ولا أستحق سوى الموت، وليُزهق روحي واحد من بين الذين آذتهم خيانتي. لماذا يا مينوس تريد أن أعاقَبَ على جريمة قادتك إلى النصر، على حين أن هذا العمل الذي يعدّه أبي وقومي جريمة ليس غير منّة تطوّق عنقك؟ حقاً إن زوجتك الخائنة التي تخفّت فى تمثال بقرة من خشب واستدرجت ثوراً وحشياً وحملت منه مخلوقاً نصفه بشر ونصفه الآخر حيوان هى وحدها الخليقة بأن تتّخذك زوجاً لها[2]. أجبْني يا مينوس، هلْ تبلغ كلماتي أذنيك، أم أن

الرياح التي تدفع سُفنك تبدّد شكوايْ أيها الناكر للجميل؟ لا يدهشني الآن أن پاسيفاى قد آثرت الثور عليك، فَلأنت أشدّ وحشيّة منه. ما أشقاني! ها هو ذا يأمر ملاّحيه بالإسراع، والأمواج تعصف، وضربات المجاديف تشقّ المياه، بينما أغيب أنا وبلادي عن عينيه، غير أنه
١٤٠ لا جدوى، فعبثاً تحاول نسيان جميلي، ولسوف أتْبَعُك على الرغم منك، وسأتعلّق بسفينتك سابحة فى مياه البحر».

ولم تكد تفرغ من مناشدته حتى قفزت إلى المياه وأخذت تسبح بسرعة خلف السفن، تُكْسبها رغبتها الثائرة قوة وأيةَ قوة، فما لبثت أن تعلّقت بسفينة ملك كريت زائرة متطفّلة، ولمحها أبوها [بعد أن تحوّل إلى نسر بحري وحشيّ الجناحين أخذ يحلّق فى الأجواء] فانقضّ عليها وهى متعلّقة بالسفينة، وجعل ينهش لحمها بمنقاره الأقنَى، فألمَّ بها فزعٌ أرخَى قبضتها عن السفينة، وبدأت تهوي فتلقّفتها نسمة خفيفة حالت بينها وبين أن تلمس الأمواج، وسرعان ما نبت لها ريش وتحوّلت إلى طائر بحري أطلق عليه اسم كيريس [أى مَنْ يجزّ الشَّعْر] وهو الاسم الذي يُذكّر الناس بخصلة الشعر التي غنمتها من رأس أبيها(٣).

المتاهة وتاج أريادني

١٦٠ وحين عاد مينوس سالماً إلى كريت ذبح مئة ثور قرباناً ووفاء بنذره لچوپيتر، وعلّق غنائمه على جدران القصر ليزدان بها. وكانت الملكة قد وضعت طفلاً مهجّناً خلال غيابه ليصم الأسرة الملكية بالعار. وما لبث هذا المولود الهجين الغريب أن شبّ ليفضح الملكة أمام الجميع، ويكشف قصة حبها المشينة مع الثور. فأصرّ مينوس على تحرير قصره من هذا المخلوق الغريب مقيت الصورة وقرّر حبسه فى بناء مغلق معتم ملتبس المداخل، يستحيل أن يصل أحد إليه أو يراه. ووفّق دايدالوس أشهر صناع المعادن بفنه وبراعته إلى إقامة هذا البناء(٤) بحشده بممرات ومنعطفات شتّى مضلّلة تُصيب الرائي بالحيرة وسط هذه المتاهة فيشقّ على العين بتلك التعرّجات المتّجهة إلى أنحاء مختلفة الاهتداء إلى سبيلها. وكما تتحوّى مياه نهر الميانذر لاهية فى حقول فريچيا، وكما يشقّ مجراه الحائر سبيلاً خفياً ثم يعود إلى حيث بدأ فيكاد يُداني مأتاه، وكما يرتدّ النهر إلى منبعه حيناً ونحو البحر الخضمّ حيناً آخر فيفتر تياره بعد أن يضلّ مقصده، كذلك ضاعف دايدالوس من سُبل التضليل بشقّه سُبلاً ودروباً لا حصر لها(٥).

لوحة ٧٢. پيكار: البطل ثيسيوس يتخلّى عن
الأميرة أريادني.

حَبَسَ مينوس ذلك المخلوق الغريب الذى نصفه ثور ونصفه إنسان فى تلك المتاهة، وكان قد قدّم إليه الضحايا من شباب أثينا[٦] مرتين. وحين قدّم إليه هذا القربان الذي يتجدّد كل تسع سنوات للمرة الثالثة قضى عليه واحد من هؤلاء الذين سيقُوا إليه كى يلتهمهم فوضع نهاية لوحشية هذا المخلوق المهجّن، ذلك أن ثيسيوس الذي دُفع به إلى المتاهة لكى يلتهمه الثور قد نجح بعون الأميرة أريادني فى الاهتداء إلى طريق العودة، إذ أخذ يعيد لفّ الخيط الذي كان قد ترك أوّله عند الباب ويحلّه كلما ولج إلى الداخل، وبهذا استطاع أن يعود ثانية إلى الباب الذي كان قد دخل منه والذي لم يخرج منه أحدٌ قبله. وأبحر بعدها إلى جزيرة ديا بعد أن اصطحب معه أريادني ابنة مينوس، غير أنه تخلّى عنها وهجرها على شاطىء تلك الجزيرة حيث بقيت وحدها تعاقر المرارة والحزن إلى أن جاءها باكخوس فطوّقها بذراعيه وقدّم لها العون، وتناول التاج من فوق رأسها ليفرط جواهره فتتحول إلى كوكبة من نجوم السماء تُضفي عليها مجداً أبدياً؛ فإذا جواهر التاج تتحوّل وهى محلّقة فى الفضاء إلى نجوم متلألئة ما لبثت أن انتظمت فى السماء محتفظة بشكل التاج مستقرةً فى منتصف المسافة بين نجوم الجاثي على رُكبته وكوكبة حامل الثعبان[٧].

ديدالوس و إيكاروس

وبعد أن سئم دايدالوس الإقامة فى كريت حَنَّ إلى بلاده [أثينا] التي طال غيابه عنها والتي كان يفصله عنها البحر، فأخذ يناجي نفسه قائلاً: «قد يملك مينوس أن يحُول دوني والعودة عبر الأرض أو البحر، وأنسىَ أن السماء مفتوحة أمامي يمكنني العودة عبرها، فلو استطاع مينوس أن يستحوذ على كل شىء ما استطاع أن يستحوذ على السماء». وأخذ بعد ذلك يُعْمل فكره فى فن لم يعرفه منْ قبله أحد، ويُخْضِع الطبيعة لقوانين جديدة، وانبرى يثبِّت صفّا من الريش فى خيط مبتدئاً بأقصره متدرِّجاً به نحو أطوله حتى يكون طرفه منحدراً إلى أعلى، على النحو الذى يصنع به الرعاة مصافيرهم من الغاب فيُزيد فى طول كل أنبوبة عن سابقتها، ثم شدّ الريش عند منتصفه بخيط من الكتّان ولصق أطرافه السفلى بالشمع وشكّله على هيئة جناحىْ الطائر الحقيقي بانحناءاتهما الخفيفة، وقد وقف إبنه إيكاروس إلى جانبه مستخفّا لاهياً دون أن يذهب خياله إلى أن أباه يشكّل الأداة التى ستُورده حتفه، وكان يقبض على الريش الذي

لوحة ٧٣ . پيكار: دايدالوس يعلّم ابنه إيكاروس الطيران، وسقوط إيكاروس.

ينتفش مع هبّات الريح أو يُلين جمود الشّمع ويطوّعه بإبهامه، فيُعوّق بعبثه ما أنفقه أباه فى إبداع هذا العمل العجيب.

وعندما فرغ دايدالوس من اختراعه ارتفع فى الهواء محاولا حفظ توازنه بهذين الجناحين وهو يخفق بهما إلى أعلى وأسفل، ومضى يوصي ابنه قائلاً: «أنصحك يا إيكاروس أن تحلّق بجناحيك على ارتفاع وَسَط بين البحر والشمس، إذ لو دانيتَ سطح البحر بلّلَتْ مياهه جناحيك فثَقُلا، ولو حلّقت عالياً لألهب وهج الشمس جناحيك، فتوسّط فى طيرانك بَيْنَ بَيْنْ. وإني لأحذّرك من أن تصوّب بصرك إلى النجوم خاصة كوكبة راعي الشاء أو كوكبة الجوزاء فى الدبّ الأكبر أو نجوم سيف الجبار[8]، ولتتّخذني لك مرشداً». وبينما دايدالوس يدلي بإرشاداته جعل يثبّت الجناحيْن على كتفيْ إبنه إيكاروس وقد احمرّت وجنتاه وبلّلتهما الدموع وارتعدت يداه حناناً، وقبّل وجنتيْ ولده قبلاته الأخيرة. فقد حلّق بجناحيه فى الجو موزّع النفس على رفيقه، هذا القلق الذي يساور الطائر وهو يُخرج صغاره من العشّ فى أعالي شجرة سامقة مُطْلقا إياها فى الفضاء للمرة الأولى. وبدأ يستحثّ إيكاروس على أن يتبعه عن قرب، ويعلّمه فنَ الطيران الذي كان سبب هلاكه، ويخفق بجناحيه متطلّعاً إلى الخلف يرقب ولده. وبينا هما يحلّقان رآهما صيّاد كان يلقي شباكه، وراعٍ كان متكئاً على عصاه، وفلاح كان منكفئاً على محراثه، وأخذ العجب منهم فظنّوا هذين الرجليْن القادريْن على الطيران عبر الأجواء إلهيْن!

وكانت جزيرة ساموس التي وُهبت لجونو تقع عن يسارهما وپاروس وديلوس من خلفهما ولبنثوس عن يمينهما وكذلك جزيرة كاليمني الشهيرة بعسلها[9]، حين انتشى الصّبىّ بالطيران السريع عبر أجواز الفضاء واستهواه الارتفاع فَعَلا فى السماء مخلّفا أباه وقائده حتى اقترب من الشمس المُحْرِقة فذاب الشمع العطر الذي يُلصِق الريش بعضه ببعض، وإذا ذراعاه قد تعرّتا من الريش وهو يرفرف بهما، فهوى وهو يصرخ مستغيثا بأبيه. وسرعان ما سقط فى مياه البحر الذي ابتلعه فى أعماقه وحمل اسمه. وأخذ الأب التعس ثاكل ولده يصرخ «إيكاروس أين تُراك الآن يا ولدي، وأىّ أجواز الفضاء غيّبتك؟». وظل ينادي على إيكاروس حتى لمح نثار الريش على سطح الماء، وعندها نقم على فنّه، ثم وارى ابنه التراب، وما تزال البقعة التي دُفن بها إيكاروس تحمل اسمه إلى اليوم.

پـــيرديــكس

وبينما كان دايدالوس يدفن ابنه التعس، لمحه طائر الحجل المائى الثرثار فجعل يغرّد طرباً خافقا بجناحيه وقد خرج من حفرة موحلة، وكان وقتذاك طائراً غريبا لم يُر مثله من قبل، إذ كان إنساناً تحوّل منذ فترة وجيزة إلى طائر ليتمثّل عقاباً أبدياً لدايدالوس، ذلك أن أخته ـ ولم تكن تعلم ما خبّأه لها القدر ـ قد أرسلت ابنها إلى دايدالوس، وكان فتى ذكياً فى الثانية عشرة من عمره، ليُعَلِّمه ويُنشِّئه. وقد أعجب الصبيّ بالعمود الفقري للسمك واتخذه نموذجاً يصنع على غراره أسناناً على حافة شريط من الحديد، فإذا هو يخترع المنشار، كما كان أول من استطاع وصْل ذراعين متساويتيْ الطول من الحديد بحيث إذا ركّز أحدهما وأدار الآخر حوله رسم دائرة كاملة، ومن هنا اخترع الفرجار، الأمر الذي أثار الغيرة فى قلب دايدالوس فألقى بابن أخته من فوق قلعة منيرڤا، ثم افتعل جلبة توحي بأن الصبيّ قد سقط قضاء وقدراً، غير أن الإلهة پاللاس حامية العباقرة سرعان ما لحقت بالفتى وهو يهوي وحوّلته إلى طائر، وكسته ريشاً وهو مايزال معلّقاً فى الفضاء، ومنحته سرعة فى الجناحين وأخرى فى القدمين يستغني بهما عن إعمال بديهته، وبقى اسمه عالقاً به يُميِّزه، فهو لا يطير عالياً فى الأجواء بل يحجل قريباً من الأرض، كما أنه لا يتخذ عشّه فى قمم الأشجار أو المرتفعات بل يبيض بين قصبات البوص التي يُتّخذ منها السّياج، فقد كان يخشى المرتفعات لأنها تذكّره بسقوطه منها يوما.

الخنزير الكاليدوني . ملياجر

استقر دايدالوس ببلاد إتنا بعد كل ما كابده من عناء أثناء هروبه فاستقبله الملك كوكالوس وحمل السلاح دفاعاً عنه وأظهر له من ضروب العطف الكثير(١٠)، وكانت مدينة أثينا قد تخلّصت بفضل انتصار ثيسيوس من دفع الجزية الرهيبة التي كانت تُثقلها بالأحزان، فزيّنت المعابد بأكاليل الزهور، وأخذ الناس ينشدون الأهازيج للربّة المحاربة منيرڤا ولچوپيتر والآلهة الآخرين ويقدّمون إليهم ما نذروا من قرابين. وذاعت شهرة ثيسيوس بسرعة البرق فى مختلف

مدن أرجوس حتى بات مواطنو آخايا يفزعون إليه كلما أحدق بهم خطر، كما لجأ إليه أهل كاليدون[١١] على الرغم من أن بطلهم ملياجر كان مايزال بينهم ليحميهم من الوحش الكاسر خادم الربّة ديانا القائم بتنفيذ عقوباتها.

وقيل إن أوينيوس ملك كاليدون قد نعم بحصاد وفير فى إحدى سنوات الرخاء فقدّم القرابين للآلهة وجعل الحصاد الأول لسيريس[١٢] والنبيذ لباكخوس وزيت الزيتون لمنيرڤا الشقراء، ومع أنه بدأ بآلهة الريف وثنّى ببقية الآلهة فقدّم إليهم ما كانوا يترقّبونه منه باستثناء ديانا ابنة لاتو فقد كانت الوحيدة التي أهملت محاريبها ولم تُقدَّم لها قرابين أو يُحْرق لها بخور، فاحتدم الغضب فى صدرها وصاحت قائلة: «لن أترك هذا الأمر يمرّ دون عقاب يخفّف عن نفسي، ولن أسمح بأن أتّهَم بأنني قد تردّدتّ فى الثأر لنفسي، فما منْ أحد يعيب عليّ أن أنتقم لإهانة لحقت بي»، ثم أطلقت خنزيراً برّياً فى ضخامة ثيران مراعي إپيروس الكثيفة الكلأ وأعظم جثة من ثيران صقلية. كان قُبّاعُه [صوت الخنزير] مجلجلاً، وعيناه الدمويّتان ترسلان شرراً، وعنقه الضخم الصّلب يشمخ عالياً، يغطّي جلده شعر خشن نافر كالرماح، ويلطّخ كتفيه العريضين زبَد يغلي، وأنيابه كأنياب الفيل الهندي، ينبعث اللهب من بين فكّيه وتحرق أنفاسه أوراق الأشجار.

انطلق هذا الوحش الغريب يهرس القمح الذي مايزال غضّا فى سنابله أحياناً ويقضمه إذا استوى على أعواده أحياناً أخرى، فحطّم بذلك آمال الفلاحين وأبكاهم، وعبثاً بات الناس ينتظرون أن تمتلىء الصوامع أو تعمر ساحات الدَّرس بالحصاد، وتناثرت حبّات عناقيد العنب وأوراق الكروم على الأرض مع حبّات التوت وأغصان الزيتون التي لا تذوي. وأخذ الخنزير البرّي يشنّ هجمات ضارية على قطعان الماشية أيضا، فلم يعد الرعاة ولا كلابهم يستطيعون حمايتها، ولم تفلح الثيران المتوحشة فى الدفاع عن القطعان التي تحرسها. كان الناس يفرّون منه فى كل اتجاه، ولا يحسّون الطمأنينة إلاّ حين يحتمون خلف أسوار المدينة. وظلّ الحال على هذا المنوال حتى اجتمع ملياجر مع نفر من رفاقه الأبطال المختارين الذين وحّدت بينهم الرغبة فى نيل المجد والشهرة بالقضاء على هذا الوحش الرهيب.

وهكذا تلاقى ولدا تينداريوس[١٣] وليدا التوأم اللذان اشتُهر أحدهما بالملاكمة والآخر بالفروسية، وچاسون مُشيِّد سفينة الأرجو أول السفن وثيسيوس وپيريثوس الرفيقان

لوحة ٧٤. پيكار: اجتماع ملياجر والأبطال
وأتالانتا بطلة تيجيا لصيد الخنزير البرّي.

المتلازمان، وابنا ثيستيوس ثم لينسيوس وإيداس السريع العدْو ولدا أفاريوس، وكاينيوس أيضاً الذي كان امرأة فى سالف الزمان[١٤]، وليوكيپوس الصائب الرُّمح، وأكاستوس قاذف الرمح المشهور، وهيپوثوس ودرياس، وفينيكس بن أمينتور، ويوريتوس وكلياتوس ولدا أكتور وكذا فيليوس من إيليس. وانضم إليهم تيلامون وپيليوس والد أخيل العظيم، وكذلك أدميتوس ابن فيريس ويولاوس من بويوتيا ثم يوريتيون المقدام وإخيون العدّاء الذي لا يبارى، وليلكس اللوكريسي وپانوپيوس وهيليوس وهيپاسوس الدائم البحث عن فريسة ونسطور الذي كان مايزال فى مقتبل العمر، وانضم إليهم رهط من الأبطال بعث بهم هيپوكوون من أميكلاى القديمة، وكذلك لا يرتيس حُمو پنيلوپي الذي اصطحب معه أنكايوس الأركادي العرّاف الحكيم ابن أمپيكس، وأمفياراووس الذي لم يكن بعد قد ناله الرَّدى من جراء دفع
٣٢٠ امرأته له لخوض الحرب[١٥]. ثم أتالانتا الفتاة الصيّادة بطلة تيجيا وفخر الغابات الليكاوية[١٦] وقد ضمّت طوق ثوبها بمشبك صقيل وضمّت شعرها من الخلف فى عقدة واحدة، وتنكّبت كنانة سهامها العاجية فوق كتفها اليسرى بينما قبضت على القوس بيدها اليسرى، وكلما سارت اهتزت الكنانة بسهامها مُجلجلة [ولو أن قسماتها على وجه فتى لقيل إنها قسمات فتاة، وإذ كانت فتاة قيل إن قسماتها مثل قسمات الفتى الوسيم]، ولم يكد البطل الكاليدوني يراها حتى هام بها رغم تحريم الآلهة لمثل هذا العشق الذي لا جدوى منه، واحتدمت رغباته الكامنة فى الأعماق فندّت عنه زفرات حارة وهو يتمتم: «طوبَى لمن يَظْفَرُ بها زوجة»، ولم يُتح له الموقف ولا حياؤه أن يضيف كلمة أخرى، فقد كان هناك أمرٌ أجلّ خطرا يناديه وهو المعركة العاجلة الحاسمة مع الخنزير البرّي.

انطلق الأبطال حتى بلغوا غابة لم ينل الزمن من أشجارها الضخمة أو تمسَسْها فأس حطّاب، ترقَى عند نهاية السهل مطلّة على الحقول المنحدرة، فنصب بعضٌ شباك الصيد، وأطلق بعضٌ آخر الكلاب، بيما اقتفى الآخرون أقدام الخنزير البري متعجّلين اكتشاف موقع هذا الوحش الذي جاءوا لاصطياده مغامرين بحياتهم. وكان الخنزير البرّي قد كَمَنَ فى أدنى مجرى من أعماق واد تنمو فيه نباتات المستنقعات والطحالب وتتجمّع فيه مياه الأمطار، ثم برز مندفعاً بين مطارديه كما يندفع برق العاصفة من بين السحب المتراطمة، وانطلق بين الأشجار التي أخذت تهتزّ مُرسلة أصداء مختلفة، فتصايح الأبطال وقبضت أيديهم فى قوة على رماحهم المُشْهَرة لامعة النّصال الحديدية المصوبّة للأمام فاندفع الخنزير إلى حيث الكلاب

لوحة ٧٥. پيكار: أتالانتا ترمي الخنزير البرّي بسهمها.

النابحة التي تجمّعت لتصدّ اندفاعه الأخرق محاولاً تشتيتها بضربات جانبية قوية. ورمى إخيون أول رمح فطاش خادشاً جذع شجرة اسفندان، ثم بدت القذيفة الثانية التي أطلقها چاسون وكأنها ستُصيب ظهر الخنزير البرّي غير أنها لشدّتها تجاوزت الهدف ومضت إلى أبعد منه، وعندها صاح موپسوس بن أمپيكس قائلاً «لكم أخلصتُ فى عبادتك يا فويبوس وسوف أظل مخلصاً، فلتُسدّد إذن رمحي كى يُصيب هدفه» واستجاب الإله لرجائه، غير أن الإلهة ديانا سلبت الرمح وهو فى مسراه نصله الحديدي فلم تُصبْ الخنزير البرّي غير يد الرمح الخشبية، فاستشاط الوحش غيظا، وأخذت سورة غضبه تقصف فى عنف البرق، وانطلق الشرر من عينيه واحتدم اللهب فى صدره، واندفع الوحش المنهوم للدم فى عنف عصيّ على التصدّي مثل صخرة مقذوفة من منجنيق نحو الأسوار أو نحو أبراج غصّت بالجنود، صوب الأبطال الشبان، فطرح هيپالاموس وپيلاجون أرضاً وكانا يحميان الجناح الأيمن فأسرع أصدقاؤهما بنقلهما بعيداً. ولم يكن إينايسيموس بن هيپوكوون سعيد الحظ فإذا هو يقع بين أنياب الخنزير القاتلة، وكاد نسطور يهلك قبل حرب طروادة لولا أنه غرز سنَّ رمحه فى الأرض واتّكأ عليه ليثب إلى قمّة شجرة بلوط قريبة وأخذ يرقب خصمه وهو يَسُنُّ أنيابه فى جذعها، ثم انثنى الوحش فمزّق بأنيابه فخذ هيپاسوس الجبّار، واعتلى الشقيقان التوأم [كاستور وپوللوكس] - قبل أن يتحوّلا نجمين فى السماء - صَهْوتىْ جواديهما الأنصع بياضاً من الجليد، وأطلقا رمحيْهما صوب الخنزير، وكادا يصيبانه لولا إفلاته داخل الأدغال المعتمة التي لا ينفذ خلالها جواد أو رمح. وأسرع وراءه تيلامون، لكن حماسته الرعناء جعلته يسقط فوق رأسه مصطدماً بجذع شجرة ناتيء، وبينما كان پيليوس يعاونه على النهوض كانت أتالانتا [بطلة تيجيا] قد أطلقت من قوسها سهماً خاطفاً خدش ظهر الخنزير ونفذ أدنى أذنه وصبغ بعض شعراته الخشنة بقطرات الدم. وأثار نجاح الفتاة فرحتها وفرحة ملياجر الذي كان أول من رأى دم الخنزير يسيل، فلفت إليه نظر أصدقائه وقال لأتالانتا «ما أحقّك بأن تتقلّدي وسام الجدارة».

غلب الرجالَ الخجلُ وأخذ بعضهم يستنهض همَم البعض الآخر، وبدأوا يُسدّدون رماحهم دون أن تكون ثمة خطة للهجوم، فذهبت قذائفهم عبثاً رغم كثرتهم، ولم يصب أحدهم الهدف، فاندفع أنكايوس الأركادي حاملاً بلطته ذات الحدّين متّجها صوب مصيره المحتوم وهو يصيح فى جنون: «انظروا كيف أن ذراع الرجل أقوى من ذراع المرأة! أفسحوا لي

الطريق ولسوف أقضي على هذا الخنزير البرّي بيدي مَهْما حَمَتـه ابنة لاتو ودافعت عنه بأسلحتها، وبالرغم منها». ورفع بلطته بكلْتَيْ يديه لكي يضرب الخنزير مغروراً غرور كلماته، غير أن الخنزير البري تنبّه لهذه الهجمة الجَرِيئة وأعمل أنيابه فى أعلى حقو أنكايوس سالكا بذلك أقرب طريق يصل به إلى هلاكه، فتهاوى أنكايوس وقد تدلّت أحشاؤه وسط بركة من الدماء المتخثّرة، فغرقت الأرض بذلك الجدول الأحمر. وإذا پيريثوس بن إيكسيون ينطلق صوب الوحش شاهراً رمحه بيده القوية، فناداه ثيسيوس الإيجي قائلاً: «يا مَنْ هو أعزّ عليّ من نفسي افزع إلى مكان أمين، فنحن على البُعد أقدر منا على القُرب، فقد ذهب أنكايوس ضحية اندفاعه وتهوّره»، وأطلق مع كلماته رمحه المصنوع من خشب القرانيا ذا السنّ البرونزي الثقيل، فلم يصب الهدف إذ اعترضه غصن شجرة بلوط. وسدّد چاسون إثره رمحاً أصْمَى ضحية بريئة إذ أصاب كلباً فى فخذيه فخرّ على الأرض، غير أن ملياجر بن أوينيوس سدّد رمحين غاص أحدهما فى الأرض بينما استقر ثانيهما فى منتصف ظهر الخنزير. عندها لم يُضِعْ الوقت سدى، فاقترب من الوحش الذي أخذ يتلوّى ثائراً يسيل من شدقيه زَبَد مختلط بالدم المتدفّق، وها هو ذا مَنْ أدماه يقف بجواره مثيراً غضب الوحش الجنوني، ثم غرز رمحه اللامع فى كتفه، فصاح رفاقه مهلّلين مشجّعين وأخذوا يشدّون بأيديهم على يد البطل الذي حقّق النصر، وتطلّعوا مذهولين إلى ضخامة الوحش الذي شغل مساحة كبيرة من الأرض وهو ملقى فوقها، غير أنهم ظلوا يخشون الاقتراب منه ظانين أنه مايزال قادراً على التصدّي لهم. ثم تقدم ملياجر ووضع قدمه فوق رأس الوحش والتفت إلى أتالانتا قائلاً: «تقبّلي هذه الغنيمة التي ظفرتُ بها يا عذراء نوناكريس[17]، ولْتُشاركيني مَجْدي»، ثم أعطاها رأس الوحش بأنيابه الضخمة وجلده الخشن الشعر. وقد أعْجبت أتالانتا بالهديّة ومُهْديها، غير أن صنيعه أثار غيرة الآخرين فَسَرتْ بينهم همهمة هزّ بعدها ابنا ثيستيوس قبضتيهما وصاحا بغضب: «اتركي هذه الغنيمة أيتها الفتاة، ولا تنتزعي منّا شرفاً هو حقّنا نحن، ولا تسترسلي فى الغرور بجمالك فقد يصبح هذا المفتون المتيّم به عاجزاً عن أن يحمي فتْنتك». وانتزعا الغنيمة من أتالانتا وسلبا ملياجر حق إهدائها لها، فأحنق سلوكهما ابن مارس وانفجر غاضباً وهو يكزُّ على أسنانه صائحا: «أيها اللّصان إنكما بهذا تسلبان رجلاً آخر مجده، ولسوف تعلمان أيّنا يتوعّد وأيّنا ينفّذ»، وأسرع فأغمد نصله الفاتك فى قلب پليكسيپوس الذي كان أبعدَ ما يكون عن أن يتخيّل

لوحة ٧٦. پيكار: ملياجر يقدم رأس الخنزير البرّي إلى أتالانتا.

ما كان. وقد تردّد توكسيوس بين الرغبة فى الانتقام لأخيه المضرج بدمه وبين الخشية من أن يلاقي مصير أخيه، لكن ملياجر لم يدع له وقتاً لكى يتردّد، فقد عاجله برمحه الذي كان مايزال يحمل أثر سخونة الضّحية الأولى.

ثــــأر ألثــايــا

قصدت ألثايا المعبد حاملة القرابين إلى الآلهة شكراً على انتصار ابنها ملياجر فإذا هى تشهد جثمانىْ شقيقيْها محمولين إلى دارهما، فملأت المدينة عويلاً وصراخاً وهى تضرب صدرها، واستبدلت بثيابها المطرزة بالقصب ثياباً سُوداً، غير أنها ما كادت تعرف اسم قاتل شقيقيْها حتى أنسيت أحزانها وجفّفت دموعها ولم تعد لها إلاّ رغبة واحدة هى الانتقام. وكانت الشقيقات الثلاث ربّات الأقدار[١٨] قد وضعن كتلة من الخشب فى المدفأة بدار ألثايا ابنة ثيستيوس ساعة كانت ترقد فى فراشها بعد أن وضعت مولودها، وبينما كُنّ يغزلن خيوط القدر بمَسّ إبهامهن قلن: «ليَبقينّ هذا الطفل ما بقيت هذه الكتلة الخشبية»، وما كدْن يُنهين كلماتهن ويغادرن الدار حتى أسرعت الأم واختطفت كتلة الخشب من النار وأطفأتها بالماء وخبّأتها فى حنايا الدار، وعاش الطفل فى أمان بفضل حفظ هذه الكتلة الخشبية. وما كادت ألثايا تعلم ٤٦٠
بمصرع شقيقيْها حتى أخرجت كتلة الخشب من مخبئها وجمعت أعواداً من خشب الصنوبر وكوّمتها جميعاً ثم أشعلت فيها النار التي هى إيذانٌ بموت ابنها. وحاولت مرات أربعاً أن تُلقي بالكتلة الخشبية وسط النيران إلاّ أن شجاعتها كانت تخونها فى كل مرة، إذ كان حبها لابنها يعادل حبها لأخويها، كما كان قلبها يتمزّق بين الوفاء لابنها والوفاء لشقيقيْها. وكان التفكير فى الجريمة التي سوف تقترفها يزيد وجهها شحوباً، ثم تعاودها الرغبة فى الانتقام فيحتقن وجهها غضباً. وكانت مشاعر القسوة تسيطر عليها أحياناً ثم تتغلب عليها عواطف الحنان والشفقة، أو ما تكاد حرارة غضبها الوحشيّ تجفّف دموعها حتى تَغْرَوْرِق عيناها بالدّمع الهتون من جديد. وصارت كالسفينة تتناوبها الأمواج وتتقاذفها الرياح فى اتجاهات مختلفة فتضطرب فى سيرها، إذ كانت متردّدة بين عواطفها المتنافرة، فما يكاد غضبها يهدأ حتى يعود ثانية ويثور.

لوحة ٧٧ . پيكار : مليـاجـر يقـضي على خـالـيْه
پليكسيپوس وتوكسيوس .

ومع ذلك فقد طغت عاطفة الأخوّة على عاطفة الأمومة لديها، وآثرت أن تُرضي طَيْفي شقيقيْها اللذيْن يسري دمهما فى عروقها فإذا هى تقترف جريمة آثمة. وحين شاهدت الموقد المشؤوم يتوهّج بالنيران صاحت: «ألا فَلْتَحرق هذه المحرقة فلذة كبدي» وأمسكت بيديها الآثمتين الكتلة التي عليها يتوقّف مصير ابنها، ووقفت أمام المذبح الجنائزي وقالت: «يا ربّات العقاب الثلاث، انظرن إلى هذه التضحية الباهظة التي قدتُطْفيءُ من غضبكن[19]، فإنني فى آن معاً أثأر وأقترف جريمة نكراء، فلا مناص من أن يكفّر الموت عن الموت والجُرم عن الجرم، وأن تتبع الجنازةُ الجنازةَ حتى تهلك أسرتنا الملعونة تحت وطأة المصائب المتتالية، فكيف يمضي أوينيوس سعيداً فرحاً برؤية ابنه المنتصر بينما يبكي ثيستيوس ولديْه؟ من الخير يا شقيقيّ ويا بُنيّ أن تسكبوا جميعاً الدموع. ولكن هل فى مقدوركما يا طَيْفَيْ شقيقيّ يا مَنْ فارقتما جسديكما أن تقدّرا هذا التكريم الذي أخصكُما به، وأن تتقبّلا هذا القربان الكريه الذي يكلّفني التضحية بطفل النطفة التعسة التي نمت فى أحشائي. يالي من شقيّة، تُرى إلى أين يمضي بي غضبي؟ يا شقيقيّ، اغفرا لأم تحجم يداها عن هذا الفعل الشائن. إننى أعترف أن ابني يستحق الموت ولكن ما يعتصرني هو أن أكون أنا أداة موته. ومع ذلك هل يمكن أن يظل بلا عقاب، وأن يعيش وهو المنتصر فخوراً بجريمته ويحكم كاليدون ملكاً، بينما أنتما حفنة رماد وشَبَحان لا حراك بهما قد غيّبكما الثّري؟ ولكن هل فى مقدوري أن أُقدم على ذلك؟ ألا تباً للمُذْنب وليحمل معه إلى قبره آمال أبيه، ولتسقط بموته مملكته ووطنه.. ولكن أين حبّ الأم لأولادها؟ وأين حنان الآباء والأمهات على أبنائهم؟ وأين ذلك الضّنى الذي حملتُه أشهرا خمسة ثم أشهرا خمسة؟ ولداه! لكَمْ أتمنى لو كانت النار قد التهمتك بينما كنت طفلاً صغيراً. لقد عشتَ بفضلي والآن تموتَ بسبب خطيئتك أنت، فلتنل إذن جزاء جريمتك. لقد منحتُك الحياة مرتين، المرة الأولى يوم ولدتُك، والثانية يوم أخرجت من النار تلك الكتلة الخشبية المتّقدة، ألا فلتردّ إليّ الحياة التي منحتها إليك مرتين، أو فلتجمعني ثانية بشقيقيّ. كم وددتُ لو أنزلتُ بالجاني العقاب لكني غير قادرة. ماذا تُراني فاعلة؟ أحياناً أرى جراح أخويّ ماثلة أمام عيني، ومشهد مصرعهما الرهيب، وأحياناً أخرى تنهار شجاعتي أمام مشاعر أمومتي وحقّ ابني عليّ. ما أشقاني، لسوف يكون نصرُكما فادحَ الثمن يا شقيقيّ، ولكني سوف أنصرُكُما مادمتُ سأتبعكما وهذا الذي سأُسْلمه إليكما لكي يسرّي عن روحيكما». ومع هذه

لوحة ٧٨ . بيكار : ربّات الأقدار الثلاث يحملن الطفل ملياجر بعد ولادته ، بينما ترقد أمه ألثايا فى فراشها ، التى ما لبثت أن نهضت من فراشها لتختطف كتلة الخشب التى وضعتها الربّات الثلاث فى المدفأة وأطفأتها بالماء ، ثم خبأتها فى حنايا الدار حتى يعيش ابنها فى أمان .

لوحة ٧٩. پكار: ما كادت ألثايا تعلم بمصرع
شقيقيها على يد ابنها ملياجر حتى
أخرجت كتلة الخشب من مخبئها وأشعلت
فيها النار إيذاناً بموت إبنها.

الكلمات ألقت بالكتلة الخشبية المُميتة وسط النيران بيد مرتجفة وقد أدارت وجهها بعيداً، على حين أخذت كتلة الخشب والنار تلتهمها تُرسلُ أنّات مكبوتة.

ولم يكن ملياجر يعلم شيئاً مما يدور بل كان عندها غائباً حين أحسّ نيراناً تشتعل فى أحشائه، فبذل جهداً كبيراً لكى يَقْوَى على تحمّل آلامه القاتلة، حتى إذا أدرك أن موتاً دون طعن ومجالدة قد أصبح يتهدّده بلغ منه الأسى مبلغه، وعدّ أنكايوس أسعد منه حظا لأنه لقىَ حتفه أثناء صراعه مع الخنزير البرّي، ومضى ينادي أباه الشيخ الفاني بصوت مختنق بالأنين، ونادى أشقاءه وشقيقاته الحانيات وزوجته، ومن يدري لعلّه كذلك نادى أمّه! وكان كلما استعرَ أوار النار استعرَت آلامه، وحين أخذت ألسنة اللهب تخبو تباعاً ثم تخمد فى النهاية أخذت أنفاس البطل تذهب هباء فى الهواء وقد غشّى جمرات النار رمادٌ أبيض.

عمّ الحزن سكان هضبة كاليدون ومزّق نفوس الشباب والشيوخ والقادة والعامة، وأخذت النسوة الجالسات قرب ينبوع إيفينوس يشددن شعورهن ويضربن صدورهن. وانبطح أوينيوس والد ملياجر على الأرض فاختلط شعره الأبيض ووجهه المغضّن بالغبار بَرَماً بطُول عمره. أما أمه التي كان ضميرها يعذّبها على هول جريمتها فقد اقتصّت من نفسها فاستلّت خنجراً أغمدته فى صدرها.

ولو أن الآلهة منحتني مئات الأفواه والألسنة ومَلَكات ربّات الفنون فى جبل هليكون، لما استطعت الإفصاح عن مدى حزن شقيقاته البائسات أو ما تُردّده شكاتهن الحزينة، فكُن يضربن صدورهن وقد غاض دمهنّ وما اكترثن لجمالهن، وبَقَيْن ما بقيت جثة أخيهن يُعدْن إليها الحرارة ويدلّكنها بأيديهن ويغمرنها بقبلاتهن ويعانقن المحفّة المنصوبة فوق المحرقة، حتى إذا تحوّل جسده رماداً أخذن حفنات منه ذَرَرْنها على صدورهن، ثم ركعن جاثمات على قبره يقبّلن اسمه المنقوش على الحجر ويبلّلنه بدموعهن. وحين شفت تلك النكبات التي حلّت ببيت پارثاوون غُلّة الإلهة ديانا، مسخت الفتيات جميعاً عدا جورجيه وديانيرا زوجة هرقل، وأنبتت ريشا يغطّى أجسادهن وحوّرت أذرعهن إلى أجنحة طويلة ورفعتهن فى الأجواء، وأحالت أفواههن مناقير محدّبة، وأطلقتهن إلى الفضاء بعد تحوّلهن إلى طيور أطلق عليهن اسم «الملياجريديس».

أخيـــــلؤوس

وفيما كان ثيسيوس عائداً من المعركة التي اشترك فيها للقضاء على الخنزير البرّي متّجهاً إلى قلعة إريختيوس التي تحرسها أثينه التريتونية [نسبة إلى بحيرة تريتون بأفريقيا] ربّة الصولجان ثلاثيّ الشُّعَب صدّه نهر أخيلؤوس[٢٠] المُترع بمياه الأمطار وعاقه عن العودة، وقال له ربّ النهر: «هلمّ فادخل بيتي يا سليل كيكروبس العظيم ولا تعرّض نفسك لقسوة أمطاري فما أكثر ما تقتلع الأشجار برُمّتها وتدفع أمامها فى صخب الصخور التي تعترض طريقها، فكم رأيتُ من حظائر مرتفعة فوق الشطآن تنجرف بمواشيها دون أن تُغْني عن الثيران قوتها ولا عن الجياد سرعتها، وكم يحتدم السيل حين تذوب الثلوج وتفيض من فوق الجبال، وما أكثر ما ابتلع من شباب فى دوّاماته الطاغية. إنه لآمن لك أن تنتظر حتى تنحسر المياه بين شطآن النهر فيهدأ انسيابه فى مجراه».

واستجاب ابن إيجيوس لنداء إله النهر وردّ قائلاً: «لسوف أعمل بنصيحتك يا أخيلؤوس وأنعم بضيافتك»، ودلف إلى داخل كهف قوامه أحجار النسفة المسامية السود والصخور البركانية، اكتست أرضه النّدية بطحالب رخوة وازدان سقفه بأصداف ومحارات متعددة الألوان. وكانت الشمس قد قطعت ثلثيْ مسارها فى السماء حين اضطجع ثيسيوس ورفاقه على الأرائك، وإلى جانبيه ابن إيكسيون[٢١] وليليكس[٢١] بطل ترويزين الذي وخط الشيب فوْديه، وكذا رفاق ثيسيوس الذين رأى إله النهر الأكارناني أنهم جديرون بالتكريم أيضاً، فلقد كان أخيلؤوس فخوراً بضيفه الجليل، وفى التو أقبلت حوريات حافيات الأقدام قدّمن إليهم الطعام على الموائد، ثم أردفن بكؤوس الخمر المرصّعة بالجواهر الكريمة. وتطلّع ثيسيوس أشجع الأبطال إلى المياه الجارية أمامه وأشار بأصبعه متسائلاً: «ما هذا المكان وما اسم هذه الجزيرة، وإن كانت تبدو لي أكثر من جزيرة واحدة؟ فأجابه إله النهر: «حقاً ليس ما تراه جزيرة واحدة بل هو جزر خمس، غير أن بُعْد المسافة يجعلها تبدو لك متصلة. لشدّ ما أنا راغب فى أن أخفّف عنك عجبك مما فعلته ديانا بكاليدون انتقاماً من إهمالهم شأنها حين أقصُّ عليك قصة هذه الجزر الخمس. فذات يوم قامت خمس حوريات مياه بنَحْر خمسة ثيران ثم خمسة ثيران وَدَعَوْنَ جميع آلهة الريف إلى موائدهن ونَسَيْنَني، وأدّين رقصاتهن المرحة دون دعوتهن إيايْ، فتولاّني غضب عاصف جعل مياهي تتدفّق فيضاناً جارفاً أتى على الغابات فجرفها غابةً

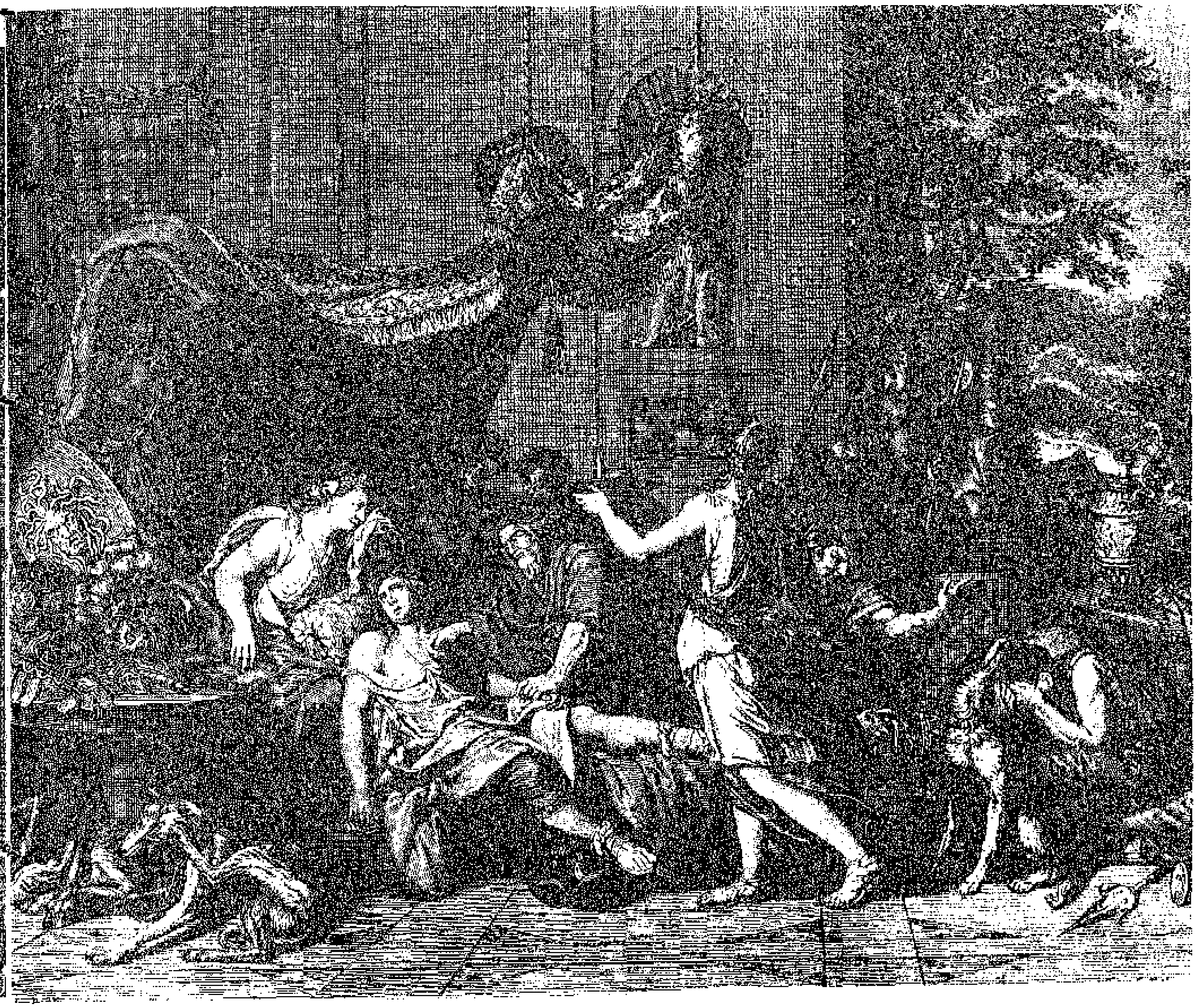

لوحة ٨٠. پيكار: ملياجر يعاني سكرات الموت، باذلا جهدا كبيرا لكي يقوى على تحمل آلامه القاتلة والنار تشتعل في أحشائه.

لوحة ٨١. پيكار: أخيلؤوس يكرم وفادة البطل ثيسيوس ورفاقه في داره.

فغابة، ودمّر الحقول واحداً إثر آخر، وغشيّ الأرض بالمياه واكتسح الحوريات اللاتي لم يعرفن قَدْري إلاّ حينذاك، ودفعت المياه بالأرض وبهن إلى البحر فاقتطعتْ المياه من الأرض لساناً ما لبث أن انشطر عن باقي الأرض وتناثر جزراً فى المحيط هى هذه «الإخيناديس»[٢٣] الخمس التي تراها أمامك. غير أن هناك كما ترى جزيرة بعيدة معزولة عن غيرها يسمّيها الملاّحون پيريميلي، وكانت فى الماضي فتاة دفعني هيامي بها إلى أن أسلبها عُذْرتها، فثار أبوها هيپوداماس وألقى بها من فوق صخرة عالية لتبتلعها الأمواج، غير أنى تلقّفتها بذراعيْ وعاونتها على السباحة، وانطلقتُ أصيح ضارعاً: «يا نپتون يا مَنْ تسود ثانية ممالك الكون، يا إله المياه السيّارة، أيها الإله المسلّح بالحربة ثلاثية الشُّعَب، يا مَنْ نحمل إليه أنا والأنهار الأخرى أمواجنا المقدسة فى نهاية مطافنا. فلْتنصتْ إليّ ولتستجبْ إلى دعائي، فأنت تعلم أني صاحب مأساة هذه الفتاة التي أحملها، ولو كان أبوها هيپوداماس عادلاً أو رحيماً، أو لو أنه كان أقل وحشية مع ابنته لترفّق بها وعفا عنّي. فلتُدرك هذه الفتاة البائسة التي ألقت بها وحشية أبيها إلى الأمواج. ناشدتُك أيها الإله نپتون أن تهيّيء لها ملجأ أو تجعل منها هى ملجأ فأستطيع أن أضمّها إلى صدري من جديد»، فطأطأ ملك البحار رأسه، ومع لفتة رضاه هذه اضطربت رقعة المياه الفسيحة فارتعدت الحورية فزعاً لكنها واصلت سباحتها، وأخذتُ أتحسّس صدرها الخفّاق فى خوف، وبينما كنت أطوف بيدي بجسدها أحسستُ به يجمد ويغطّي التراب نهديْها. وفيما كنت أحدّثها إذا أطرافها الطافية فوق الماء تتحول هى الأخرى يَبَساً وتمتد شيئاً فشيئاً فإذا هى جزيرة راسية».

فيليمون وبَوْكِيس

لاذ إله النهر بالصمت بعد سرد قصته، وساد الجميع تأثُّر عميق بالمغامرة التي رواها، غير أن پيريثوس ابن إيكسيون الذي كان بطبعه مغروراً يحتقر الآلهة ويسخر منْ سذاجتهم تحدّى مضيفه قائلاً: «ليست قصتك يا أخيلؤوس إلاّ محض اختلاق، وما أنت إلاّ مبالغاً فى إعطائك الآلهة أكثر مما لها من قدرة على سلب الكائنات أشكالها ومنحهم أشكالاً أخرى»[٢٤]. وقد أذهل تحدّيه الجميع، وخالفوه رأيه خاصة ليليكس الذي أكسبته السنون خبرة فانبرى قائلاً: «إن للسماء قدرات لا حدود لها. وإذا ما رغبت الآلهة فى شيء وقع، وإليك قصة تُذْهِبُ عنك كل شكوكك:

كانت فى تلال فريچيا شجرة بلوط يحوطها سياج خفيض قرب شجرة زيزفون، وقد رأيت هذه البقعة حين بعث بي پيثيوس إلى حقول پيلوپس التي كان يحكمها أبوه فى الماضي[٢٥] . وبالقُرب من هذه التلال بركة راكدة كانت قبلُ بلاداً عامرة بالسكان ثم أصبحت اليوم مَجْثَما لطيور المستنقعات. وكان چوپيتر قد زار هذه المنطقة مرة متخفّياً فى هيئة إنسان، يصحبه الإله ميركوريوس حامل الصولجان السّحري بعد أن اطّرح جناحيه، وقد طرقا معاً أبواب ألوف المنازل مُلتمسَيْن مكاناً يأويان إليه لكنها أغلقت جميعاً فى وجهيهما، إلى أن لقيا فى النهاية ترحيباً بهما فى كوخ مُغطّى بالأغصان وأعواد الغاب تسكنه سيدة عجوز هى بَوْكِيس برفقة فيليمون الذي كان فى مثل عمرها، وكان قد تزوّجها أيام شبابيْهما وعاشا فى الكوخ معاً حتى أدركتهما الشيخوخة، وقد هوّنا على نفسيهما ما كانا فيه من عوَز بتسليمهما به وتحمّلهما إياه دون مرارة، ولم يكن فى رفقتهما خدم بل كانا يخدمان نفسيهما، فكانا الآمرين والمأمورين معاً.

ولم يكد الضيفان السماويان يتخطّيان عتبة الدار المتواضعة مطأطئَيْن رأسيهما كى يتمكّنا من النفاذ عبر الباب حتى قدّم العجوز إليهما أريكة أسرعت بَوْكِيس ببسط نسيج رخيص عليها، ثم حرّكت الرماد الذي كان مايزال ساخناً فى الموقد، وأجّجت نار الليلة السابقة وغذّتها بألحية الأشجار الجافة وأوراقها وأخذت أنفاسها التي نهنهت منها الشيخوخة تُطلق ألسنة اللهب، ثم أتت من السقيفة بحزمة من الأعواد الخشبية والغصون الجافة وأخذت تشطرها قطعاً صغيرة وتدفع بها إلى النار ثم وضعت فوقها قدْراً من البرونز. وكان زوجها قد جمع من حديقة البيت بعض الخضر ونزع عنها أوراقها، ثم تناول من أحد عروق السقف فخذَ خنزير مقدّداً أخذ منه شريحة أنضجها فى القدْر البرونزي. وفى الوقت نفسه مضى المضيفان يشغلان ضيفيْهما بحديث مسلّ حتى لا يضيقا بانتظار الطعام، وقد ملآ لهما إناء من خشب الزان كان معلّقاً بمسمار فى الجدار بماء دافيء حتى يغتسل الضّيفان وينتعشا. وكانت هناك حشيّة منتفخة بحشائش النهر وأعشابه الجافة الرخوة موضوعة فوق أريكة خشبية تتوسط الغرفة، فقاما وغطّياها ببساط لم يكن يُستخدم إلاّ فى الأعياد، وكان مع ذلك باليا لا يصلح إلاّ لتلك الأريكة الخشبية المتواضعة. وتمدّد الإلهان على الفراش، وقامت بَوْكِيس العجوز وقد

شمّرت عن ساعديْها، ومَشَتْ مضطربة، ونصبت أمامهما منضدة ذات قوائم ثلاث إحداها دون الأخْريَيْن طولاً، فوضعت بلاطة تحتها لتتزن، ودلكت سطح المنضدة بورق النعناع، ثم بسطت فوقها التّوت المُرَقَّش الذي تعشقه الربّة مينرڤا الحكيمة، والكرز البرّي المحفوظ منذ الخريف فى ثفل النبيذ، وكذا الهندباء والفجل الأحمر والجبن والبيض المنضج بفعل الرماد الساخن بعد أن وضعت كل ذلك فى أطباق من الفخار، وأحضرت قنينة فضية وأقداحاً من خشب الزان المبطّن بالشمع الذهبي اللون. وبعد قليل قدّمت اللحم الساخن، ثم وضعت النبيذ غير المُعتَّق على المائدة ناحية لتُفسح لأطباق أخرى كانت تحتوي على البندق والتين والبلح المجفّفَين والبرقوق والتفاح العَطِر فى سلاله المكشوفة، والعنب الأرجواني الناضج المقطوف لتوّه من الكرمة، وقد توسّط هذه الفواكه قرص من العسل الأبيض، وأبهى من هذه الوجبة كان وجها المضيفين الكريمين وترحابهما السّخيّ.

وقد لاحظ المضيفان خلال تناول العشاء أن إناء النبيذ كان يُتْرع ذاتيا كلما فرغ، فأصابهما الذّعر والدهشة ورفعا أيديهما ضارعيْن إلى الآلهة وأخذا يعتذران عما قدّما من وجبة متواضعة، وعرضا على الضّيفيْن المقدّسين أن يذبحا لهما إوزة فريدة كانت تحرس عليهما بيتهما المتواضع. وشرعا يمسكان بالإوزة التي أجهدت خطواتهما المكدودة بفعل الشيخوخة سعيا وراءها وهى تخفق بجناحيها إلى أن لاذت بالإلهين فحمياها من أن تُذبح مُعْلنيْن أنهما إلهان وقالا: «لسوف ينزل بجيرانكما العقاب الذي هم به جديرون لجحودهم. أما أنتما فستكونان بمأمن مما ينزل بهم، ولكن عليكما أن تهجرا داركما وأن تصعدا معنا إلى قمة الجبل»، واستجاب الزوجان العجوزان وتَبعَا الإلهين وأخذا يتسلّقان المَرْقَى الطويل فى عُسر وجهد متكئين على عَصَوَيْهما مُثقليْن بشيخوختيْهما.

كان بين الزوجين وقمة الجبل مرمى سهم حين أدارا ناظريهما فرأيا المياه تغمر الأرض كلها عدا دارهما التي بقيت قائمة وحدها، وخلال دهشتيْهما لما يقع أمامهما وأساهما لمصير جيرانهما، لمحا كوخهما الذي كان يضيق بساكنيْه يتحول إلى معبد، فتقوم أعمدة رخامية مقام قوائمه الخشبية ويتحول الغماء [القش] المصفّر إلى سقف ذهبي، وازدان بابه بنقش زخرفيّ جميل وتغطّت أرضه بألواح رخامية. وقال ابن ساتورن بصوت مُتْرع بالعطف والرحمة: «حدّثني أيها الشيخ الصالح وأنت أيتها الزوجة الجديرة بهذا الزوج الصالح، أى شيء

لوحة ٨٢. پيكار: فيليمون وبَوْكيس يكرمان
وفادة الإلهين چوپيتر وميركوريوس.

تتمنّيان؟». وبعد أن تشاور فيليمون مع بَوْكيس برهة رفع إلى الإلهين رغبتهما المشتركة قائلاً «أن نكون لكما كاهنيْن ولمعبدكما حارسيْن. هذا ما نبغي أن نظفر به، وإذا كنا قد أمضينا حياتنا معاً فى وفاق تام فهل لنا أن تحين ساعة موتنا معاً فلا أرى محرقة زوجتي ولا تُودِعُني هى فى قبري؟»..

وقد تحققت أمنيتهما، فظلاّ حارسيْ المعبد طوال الحياة التي قُدِّر لهما أن يعيشاها. وجاء يوم ناءا فيه بطول العمر وكانا يقفان أمام الدَّرَج المقدس يرويان قصة هذا المكان، ورأت بَوْكيس فيليمون يتغطّى بورق شجر، كما رأى فيليمون أوراق شجر تغطّى بَوْكيس. وارتفعت قمة شجرة فوق وجه كل منهما، فتبادلا الحديث ما رُزِقا القدرة على ذلك، ثم صاحا معاً «وداعاً يا زوجي... وداعاً يا زوجتي» وما لبث فماهما أن اختفيا فى لحظة واحدة تحت لحاء ساق الشجرة التي تحوّل كل منهما إليها. ومايزال فلاّحو فريجيا يشيرون إلى الشجرتين المتجاورتين اللتين نمتا من جسديهما.

ذلك ما قصّه عليّ شيوخ جديرون بالتصديق لم يكونوا مدفوعين بالخداع أو التضليل. ولقد شاهدت بنفسي أكاليل زهور معلّقة بأغصان الشجرتيْن نذوراً، كما قدّمتُ أكاليل زهور أخرى نضرة بديلة عنها بينما كنت أتمتم: «ما أقرب الأتقياء لقلوب الآلهة، ومَنْ يُكرِّم الآلهة يُكرَّم».

إيـــريـــزيخثـــون

فرغ ليليكس من قصته التي تركت أثراً عميقاً فى نفوس مُسْتمعيه لاسيما نفس ثيسيوس. وإذ كان ليليكس بدوره يودّ الاستزادة من معرفة المعجـزات التي حققّها الآلهـة، لهذا حدّثه إلـه النهر وقد اعتمد على مرفقه قائلاً: «هناك يا أشجع الأبطال أجساد تحوّلت إلى صورة واحدة بقيت عليها أبداً، وهناك أجساد أخرى تحوّلت إلى صُوَر شتّى متباينة. أنت مثلاً يا بروتيوس الإله ساكن البحر الذي يحتضن الأرض بذراعيه قد شوهدت أحياناً فى صورة شاب، وأحياناً أخرى فى صورة أسد، وقد كنت يوماً خنزيراً بريّاً هائجاً، ومرة أخرى ثعباناً يتهيّب الجميع الاقتراب منه، أو ثوراً مهيب القرون، وما أكثر ما كنت حجراً أو شجرة، وأحياناً ماء جارياً. كنت أحياناً نهراً وأحياناً لهباً على عداءٍ مع المياه. كذلك حظيت زوجة

٧٤٠ أوتوليكوس ابنة إيريزيختون[٢٦] بهذه القدرة نفسها، غير أن أباها كان يسخر من قدرات الآلهة ولا يُطلق البخور فى محاريبهم، ويقال إنه انتهك حُرمة غابة مقدسة لسيريس ودنّس أدغالها القديمة ببلطته، فقد كانت بين أشجارها شجرة بلوط ضخمة تحيط بجذعها الشرائط واللوحات التذكارية وأكاليل الزهور شواهد على الوفاء بنذور تحقّقت. وما أكثر ما كانت الحوريات يؤدّين رقصاتهن المرحة فى ظلالها، كما كُنّ يعقدن أذرعتهن مسوّرات بدوائر جذع هذه الشجرة التي يبلغ محيطها خمس عشرة ذراعاً، ويفوق ارتفاعها ارتفاع الأشجار الأخرى بمقدار ما كان ارتفاع هذه الأشجار يفوق ارتفاع العشب المحيط بها، ولم يُثْن هذا إيريزيختون عن أن يأمر أتباعه بقطع هذه الشجرة. وإذ رآهم يتلكأون لم يتورّع عن انتزاع البلطة من يد أحدهم قائلاً: «لسوف تسقط هذه الشجرة وتلامس قمتها الخضراء الأرض سواء أكانت شجرة عزيزة على
٧٦٠ الإلهة أمْ كانت هى نفسها الإلهة»، وهوى بالبلطة على جذع الشجرة بضربة آثمة فإذا شجرة سيريس تهتز وتئن، وإذا أوراقها وثمارها وأغصانها الطويلة تشحب. ولم يكد يشقّ جذع الشجرة حتى تدفّق دم غزير من عنقه الذبيح أشبه ما يكون بتدفق دم ثور ضخم نُحِرَ قرباناً فى المذبح.

استبدّ الذهول بالجَمْع وعرتهم الدهشة، وحاول أحدهم - وكان أجرأ من رفاقه - إيقاف هذا الاعتداء المنكر وردّ البلطة الغاشمة، فحدجه إيريزيختون بنظرة ثاقبة قائلاً: «خُذْ هذه كفاء نواياك الورعة» وضربه بالبلطة ضربة أطاحت برأسه ثم استدار إلى شجرة البلوط يلاحقها بضرباته. عندها انبعث من جوف الشجرة صوت يردّد: «أنا حورية من حوريات الإلهة سيريس أثيرة لديها أغيبُ فى طيّات هذه الشجرة، أنذرك وأنا ألفظ أنفاسي الأخيرة بأن عقابك على جُرمك آت عما قريب، وفى ذلك ما يخفّف عني فراقي للحياة». غير أنه مضى فى جريمته
٧٨٠ إلى النهاية حتى أوهنت الضربات المتتالية الشجرة وشُدّت بالحبال فسقطت هاتكة بثقلها مساحة شاسعة من الغابات المجاورة.

شُدهت حوريات الغاب «الدرياديس» جميعا أمام البلاء الذي أصبْن به كما أصيبت به الغابة، وانطلقن يندبن شقيقتهن مرتديات ثياب الحداد، ودَنَوْن من سيريس حزينات يسألنها أن تُنزل عقابها بإيريزيختون، فهزّت الإلهة رأسها قبولاً منها بما سألن، ثم أتت على الحقول

بحصادها الوفير، واشتطّت فى عقابها بما كان يثير فى الناس أحياناً الشفقة على المُذنب، إلا أن ما فُطر عليه من غريزة الإجرام نزع الشفقة عليه من قلوب الناس، فقضتْ بأن يَعُضَّ الجوع القاتل جسده. وإذ لم يجر العُرف بتردّد الإلهة سيريس على «ربّة الجوع» المُهْلكة [فربّات الأقدار لا يُبِحْن اجتماع سيريس ربة الخصوبة بربّة الجوع][٢٧] استدعت سيريس إحدى حوريات الجِبال «الأورياديس» وأمرتها قائلة: «فى أقاصي أراضي سكوثيا بقعة ثلجية معتمة قاحلة لا ينمو فيه شجر ولا نبات، يسكنها أرباب الصقيع السميك الغليظ ورعشة المرض والجوع الذي لا يتحول إلى شبع قط. مُرِي ربّة الجوع أن تنفذ إلى جوف ذلك المعتدي الأثيم على المقدّسات، وألاّ تجعل إحساسه بالاكتفاء يدنومنه أبدا، وأن تحرمه من نِعَم عطائي الوفير، ولا يفزعنّك طول الرحلة. خُذي مركبتي وتنانينها المجنّحة وقُوديها عاليا»[٢٨]. وأسْلَمَتْها سيريس المركبة فانطلقت بها «الأورياداة[٢٩]» فى أجواز الفضاء حتى بلغت سكوثيا، ففكّت قيود الدّواب فوق قمة جبل القوقاز الأجرد، وأخذت تبحث عن «ربّة الجوع» حتى وقعت عليها فى منطقة صخرية تنتزع بأظافرها وأسنانها أعشاباً هزيلة، فوجدتها شعثاء الشعر غائرة العينين شاحبة الوجه يكسو شفتيها زَبَدٌ أبيض كريه، ويتحشرج حلقها بصوت أجشّ، وقد جفّ جلدها وتشقّق ليكشف عن أحشائها للرائي ونتأت عظام خاصرتيْها وخوت بطنها فبدا صدرها معلّقاً لا يكاد يُمسكه غير عمودها الفقري، وبدت عظام مفاصلها من فرط هزالها، وظهرت غضاريف رُكْبتيْها متضخّمة منتفخة، كما برز عَظْمُ كاحلها وكأنه الورم. وحين لمحتها الحورية خاطبتها على البُعد [لأنها لم تجرؤ على الاقتراب منها] وأبلغتها رسالة الإلهة ولم تنتظر إلاّ برهة وجيزة، وكانت قد وقفت بعيداً لأنها ما كادت تبلغ المكان حتى أحسّت بالجوع ينهشها، فأدارت مركبتها وعادت بدوابّها إلى هايمونيا.

ومع أن نشاط ربّة الجوع يتعارض ونشاط سيريس إلاّ أنها نفّذت أوامر الإلهة بدقة، فحلّقت فى الأجواء تحملها أجنحة الريح حتى بلغت الدار المعيَّنة لها، وتسلّلت مباشرة إلى غرفة نوم الملك العاق المُسْتخفّ بالمقدّسات فوجدته مستغرقا فى سبات عميق إذ كان الوقت ليلاً فطوّقته بذراعيها النحيلتين ونفذت إليه عبر أنفاسه، وأخذت تملأ بنفثاتها فمه وحلقه وصدره، وأشاعت الجوع في كيانه، ولم تكد تفرغ من مهمّتها حتى غادرت عالم الخصوبة عائدة إلى مأواها القفر وسط كهوف الجدب التي اعتادت الإقامة فيها.

لوحـة ٨٣. پيكار: الربة سـيـريس تقـضي بأن
ينهش الجوع القاتل جسد إيريز يختون.

رأى إيريزيختون فيما يرى النائم وهو مايزال ينعم بلمسات أجنحة النوم الحانية تهدهده أنه يستمتع بأطيب أنواع الطعام، ومضى يلوك شيئاً لا وجود له حتى أجهد أسنانه من كثرة ما اصطكّت، وأضنَى حلقه المخدوع بابتلاع غذاء موهوم إذ كان يزدرد بدلاً من الطعام هواء لا نفع فيه، حتى إذا استيقظ أحسّ بالجوع ينهش حلقه النهم ومعدته الخاوية. وأسرع يطلب كل ما تجود به الأرض والبحر والفضاء ليُنثر أمامه على سماطه، ومع ذلك مضى يشكو من أنه يتضوّر جوعاً وبين يديه المائدة المُتخمة بأنواع الطعام فيطالب بالمزيد. ولم يعد يكفيه وهو رجل واحد ما يكفي مدناً عديدة وشعباً كاملاً، وأصبحت معدته أشدّ ما تكون تلهّفاً إلى الطعام كلما امتلأت به، كالبحر يتلقّى بين شطآنه مياه أنهار الأرض كلها دون أن يرتوي ظمؤه أو يكفّ عن ابتلاع مياه قنوات الأقطار البعيدة، أو كالنار العاتية التي لا ترفض وقودا وتلتهم كتل الأخشاب التي لا تُحصى، ويزداد نهمها كلما ازداد ما يُقدَّم إليها من وقود وتزداد حدّة كلما توفّر لها ما تلتهم. كذلك كان إيريزيختون يزدرد الأطعمة كلها مطالباً بالمزيد، كل طعام يحرّك فيه الرغبة إلى غيره، فكانت كثرة الأكل تزيد أحشاءه فراغاً وخواء.

وتضاءلت ثروة آبائه وأجداده لإشباع جوعه وملء معدته حتى استُنزفت! ومع هذا لم يخمد جوعه الشرس وبقى نهمه العارم يذكو حدّة، ولم يبق بين يديه غير إبنته التي كانت جديرة بأب أفضل، فإذا هو يبيعها لسدّ مسغبته. غير أنها كان لها كبرياؤها الذي لا تخضع معه لسيّد، فمدّت ذراعيها صوب أمواج البحر القريب ضارعة: «لك وحدك يا إله البحر أن تُحرّرني من عبوديّتي، يا مَنْ سلبتني عُذْرتي». فاستجاب الإله نپتون إلى ضراعاتها إذ كان قد استمتع بها من قبل. وكان مولاها الذي آلت إليه يقفو أثرها ويتتبّع خطاها حين حوّلها الإله إلى صورة أخرى، فإذا هي على قسمات رجل يرتدي ثياب صيّاد سمك، وإذا مولاها يخاطبه قائلا: «أنت يا مَنْ تقبض على قصبة الصيد مُخْفيا شصّك المتدلّي تحت الطُّعم الخادع، كم أرجو أن تهدأ مياه البحر لك دوماً، وأن ينخدع لك السمك تحت المياه فلا يحسّ بشصّ إلاّ بعد أن يعلق به. منذ برهة وعلى هذا الشاطيء كانت ثمة فتاةّ شعثاء الشعر ترتدي ثوبا رثّاً، وبعينيّ هاتين رأيتها منذ قليل. هل لك أن تدلّني أين هي، فإن آثار أقدامها تشي بأنها لم تذهب بعيداً عن هذا المكان»، وأدركت الفتاة أن الإله كان موفّقاً فيما احتال به لخلاصها، وما كانت أشدّ غبطتها حين سألها مولاها عن مكانها، فأجابت: «معذرة أيها السيّد كائناً مَنْ كنت، فإنني لم

أصرف نظري عن مياه البحر ، إذ كنت أشدّ ما أكون انتباهاً إلى صَيْدي . ولكي أمحو شكوكك فإنني أشْهدُ إله البحر الذي أناشده أن يُعينني في مهمّتي على أن شخصاً غيري لم يظهر على هذا الشاطِيء منذ وقت طويل» ، فصدّقها سيّدها واستدار يدوس الرمل بقدميه مبتعدا بعد أن خدعته الحيلة . وبعدها استردّت الفتاة صورتها الأولى .

وحين عرف أبوها أن ابنته حفيدة تريوپاس تملك القدرة على التحوّل من صورة إلى أخرى ، باعها مرة بعد مرة إلى سادة مختلفين ، فكانت تهرب منهم متّخذة صورة مُهْرة تارة وصورة طائر تارة أخرى وصورة ثور يوماً وصورة وعل يوماً آخر ، وكانت تحمل إلى أبيها النّهم أطعمة مختلَسة . وعندما نَفَدَ كل ما كان يمكن أن يملأ جوفه - حيث لم يعد ثمة طعام بعد تفشّي الوباء بين الناس - دفعه الجوع القارص إلى البحث عن غذاء آخر لسدّ مسغبته ، فأخذ الشّقيّ يقتطع أعضاء جسده بأسنانه ليغذّي بها نفسه .

ولكن لماذا أبدّد وقتكم أيها السادة الفتيان في سرد قصص الغير بينما كنت أنا نفسي أتحوّل من وقت لآخر ، فأبدو في صور عدّة وإن كانت محدودة . فأظهرُ أحياناً كما ترونني الآن ، وحينا أتحوّل إلى ثعبان ، وحيناً أبدو ثورا يتصدّر القطيع تكمن قوّته في قرنيه . وأقول قرنيْن لأنه كان لي هذان القرنان ، وأنتم الآن ترونني ونصف جبهتي أعزل» . . . . وأنهى حديثه بالتوجّع والأنين .

الكتاب التاسع

الكتاب التاسع

أخيلؤوس وهرقل

سأل البطل ثيسيوس ابن نبتون الإله أخيلؤوس عن سر أنينه وعما أصاب جبينه من سوء، فأجابه إله نهر كاليدون، وهو يلمُّ خصلات شعر رأسه المُشعثة بعصابة من قصبات الغاب: «أنت تُطالبني بأمرٍ كريه فوق مقدوري، فهل لمهزومٍ أن يزهو بانكساره؟ لكني سألتزم الأمانة فيما سأرويه لك. إن الخجل من الهزيمة يهون أمام شرف خوْض المعارك، وعزائي أن خصمي كان بطلاً جبارا شديد البأس. ولعلك قد سمعت عن ديانيرا التي كانت فى الماضي عذراء نادرة الجمال يتنافس عليها خاطبون عديدون، فمضيتُ مثلهم إلى دار أبيها الذي كان كلٌّ منا يتمنّى مصاهرته، وسألته قائلا: «هلا قبلتني زوجاً لابنتك يا ابن پارثاوون؟». كذلك قصده هرقل، وإذا المطالبون بالخطبة ينسحبون حين تباهَى منافسي الوحيد ببنوّته لچوپيتر الذي سيغدو حماً للفتاة، ثم مضى يستعرض مآثره وجلائل أعماله بتغلّبه على الأخطار التي عرّضته لها چونو زوجة أبيه. ولقد احتججتُ على ما ساقه من أسباب تُزكّيه بقولي: عارٌ على إله أن يتدنّى فيُبيح لواحد من البشر أن يُصْهرَ إليه، [فلم يكن هرقل قد أصبح إلهاً بعد]. ها أنتذا ترى أننى سيّد النهر الذى تتعرّج مياهه فى مملكتك، وأننى لن أكون ذلك الصّهر الغريب النازح إليك من بلدٍ

ناء، بل صهراً من موطنك وواحداً من بين رعاياك. وحسبي أن چونو ملكة السموات لم تطاردني عن كراهية، وأنها لم تفرض عليّ مهامَ خارقة عقاباً لي. أوَ تفخر يا ابن ألكمينا بأنك ابن چوپيتر مع أنه ليس أباك؟ وإن صحّ هذا فلم يكن إلاّ عن خطيئة. إنك حين تزعم أن چوپيتر أبوك ترمي أمّك بالزنا، فاختر أحد أمرين: ألاّ يكون چوپيتر لك أباً أو أن تعترف بأن أمك قد أهدرت شرفها».

ولم يَنِ هرقل عن أن يتوعّدني بنظراته خلال حديثي، وإذ عجز عن كتمان غضبه المضطرم صاح بي: «إن ذراعي تفوق لساني، ولسوف أترك لك ميدان الكلام، وحسبي أنا حلبة المجالدة»، واندفع نحوي بخطى جريئة، وخجلت أن أتراجع بعد كل ما صدر عن لساني من خيلاء وتباه، فخلعت عباءتي الخضراء، ورفعت ذراعي متأهّبا، ولوّحت بقبْضَتَي أمام صدري وشمّرت للعِراك، فاقتبضَ خصمي قبضةً من تراب ذرّها عليّ، فأمطرته بدوري بالرمال حتى بدا أصفر اللون. وكان يحاول أن يقبض تارة على عنقي وتارة على ساقي فكنت دائب الحركة بهما كي أفلت منه، إذ كان يلاحقني ويسدّ عليّ كل منفذ، وكان ثقل وزني يحميني من ضرباته. كنت أشْبه بصخرة شاهقة تقف صامدة فى وجه الأمواج الصاخبة المحيطة بها، غير أن هرقل لم يأبه وكان له من ضخامة جسده ما يكفل حمايته. وتباعد كلٌّ منّا عن خصمه لحظات ثم ما لبثنا أن تقاربنا لنستأنف العراك، وتشبّث كلٌّ منا بمكانه فى حزم لا نقبل معه استسلاماً، ولامست قدماي قدميْه، وانحنيتُ بصدري إلى الأمام، وأخذتُ أعتصر أصابعه بأصابعي، وأدفعُ جبهته بجبهتي، وكنت قد شهدتُ قبل ذلك ثيراناً تتصارع على هذا النحو وهى تتنافس على أجمل بقرات القطيع الذي يرقب المتصارعين دون أن يعرف إلى مَنْ سوف تكون الغلبة فيظفر بالزعامة. وحاول هرقل مرات ثلاثا أن يدفع صدري بعيداً عنه لكنه لم ينجح إلاّ فى الجولة الرابعة، فقد استطاع فكّ قبضتي وإرخاء ذراعيّ المشدوديْن ثم سدّد إليّ ضربة أدارتني حول نفسي [فلا مفرّ من الاعتراف بالحقيقة كاملة] ثم ألقَى بكل ثقله على ظهري. ولتصدّقني، فلن أجْنى فخرا من المكابرة، ولست أبالغ حين أقول إننى أحسستُ كأن جبلاً يدكّني. وقد نجحتُ فى أن أدسّ بين جسدينا ذراعيّ اللتين كانتا تتفصّدان عَرقاً، وأن أخلّص جسدي من ذراعيْه اللتين كانتا تطوّقان عنقي، بينا كنت ألهث وهو يضيّق عليّ الخناق ولا يَدَعُني أستردّ أنفاسي، إلى أن أمسك بعنقي فتهاوت رُكبتاىْ على الأرض فأخذتُ أعضّ التراب.

لوحة ٨٤. پيكار: هرقل يقهر أخيلؤوس وينزع
أحد قرنيه، ثم يقدمه إلى النايادِيس
ليحوّلنه إلى قرن الرخاء.

وحين أدركتُ أنني لست نداً لهذا البطل احتلتُ بقدراتي للإفلات من قبضته فاستحلتُ ثعباناً طويلاً، ومضيتُ أتحوّى مُرسلاً لساني المشقوق مُصَوِّتاً بفحيحي، فانطلق هرقل التيرنثي مستهزئاً بحِيَلي قائلا: «لقد كانت هوايتي فى المهد الفتك بالثعابين، وإذا كنت تفوقني قوة فلست غير ثعبان واحد فحسب لا يصل العديد من أمثالك إلى قوة الهيدرا الليرناوية التي كانت جراحها تمدّها بالمزيد من القوة والبأس، فكانت كلما قُطعت رأسٌ من رؤوسها نبتت مكانها رأسان ويزداد عنقها صلابة وقوة. وعلى الرغم من رؤوس الأفاعي العديدة التي كانت تتشعّب منها، وعلى الرغم من تعاظم قواها مع كل محاولة للنيل منها، فقد سيطرتُ عليها وقهرتُها وأحرقتُ جسدها. تخيَّل إذن ما سوف يحيق بك بعد أن تخفّيتَ فى شكل ثعبان زائف تقاتل بأسلحة مستعارة تجهل صحة استخدامها!». ثم أطبق بقبضته الشبيهة بالمنجلة على حلقي حتى
٨٠ كدت أختنق وحاولت جهدي الإفلات من قبضته. وحين قهرني ثعباناً استحلتُ ثوراً مفترساً، وهى الصورة الثالثة التي بَقِيَتْ لي، ونشب القتال بيني وبينه، فانقضّ عليّ من الناحية اليسرى ولفّ ذراعيه حول عنقي، ومع تراجعي أخذ يلتصق بي ويضغط بكل ثقله على رأسي حتى غرس قرنيّ فى الأرض ومرّغني بالتراب، ثم أمسك أحد قرنيّ بقبضته اليمنى القوية التي لا ترحم وأداره حتى انتزعه من جبهتي التي تشوّهت، وطوّح به، فإذا الحوريات يتناولن القرن ويملأنه بالفاكهة والزهور العطرة لتقديمه قرباناً مقدّساً إلى الآلهة، وهكذا ازدادت ربّة الوفرة والرخاء الخيّرة ثراء بقرني».

وحين فرغ إله النهر أخيلؤوس من حديثه تقدمت إحدى الحوريات مرتدية ثوباً على غرار ثوب ديانا، مرسلةً شعرها على كتفيها، حاملةً قرن الرخاء مترعاً بمختلف ثمار الخريف الشّهية، ثم دارت عليهم دورة أخرى بالتفاح الناضج. ولم يكد ضوء النهار يوشّي قمم الجبال مع أشعة الشمس الوليدة حتى بادر الأبطال بالرحيل دون انتظار لعودة النهر إلى جريانه الطبيعى وارتداد فيض مياهه عن الضفّتين، وعندها أخفَى أخيلؤوس بين الأمواج وجهه ريفيَّ القسمات وجبهته المنتزَع أحد قرنيْها.

نيسُّوس وموت هرقل

١٠٠ لم يحطّ من شأن إله النهر فى معركته هذه سوى فقدانه هذه الحلية التي سلبه إياها خصمه الفائز بينما بقى جسده كله سليماً لم يمسسه سوء، وقد اعتاد أن يُخفي هذه السَّوءة تحت إكليل

من أغصان الصَّفصاف وقصبات الغاب يُحيط برأسه. أما أنت يانيسُّوس الهمجيّ فقد حُقَّ عليك الهلاك الذي صبّه عليك هيامك بالعذراء ديانيرا بعد أن اخترق ظهرك سهم خاطف. ففيما كان هرقل بن چوپيتر عائداً إلى وطنه مصطحباً عروسه الجديدة، بلغ نهر إيڤينوس Evenus سريع التدفّق فوجده فائضاً على غير عادته بمياه الأمطار الشتوية التي كانت تثير فيه دوّامات خطيرة يصعب معها عبوره. ولم يكن هرقل هيّاباً أمام هذا الموقف بل كان قلقاً على زوجه، وعندما اقترب منه القنطور نيسّوس المفتول العضلات والخبير بمواقع العبور الضحلة قال له: «دعني أحملها عنك إلى الشاطىء الآخر، فأوفّر عليك جهدك لتَقْوَى أنت على عبور النهر سابحاً»، فعهد البطل البويوتي إلى القنطور نيسّوس بعذراء كاليدون التي عراها الشحوب وحلّت بها الرِّعدة هلعاً وخوفاً من النهر، ومن نيسّوس. وإذ كان هرقل مُثْقلا بكنانة سهامه وبجلد الأسد الذي يرتديه، طوّح بقوسه وهراوته إلى الضفة الأخرى مناجيا نفسه بقوله: «أما وقد شرعتُ فى خوض النهر فَلأمض إلى أن أبلغ الغاية». وألقى بنفسه فى الماء دون تردّد ودون أن يعبأ باختيار موقع تهدأ فيه قوة اندفاع المياه أو بالمواقع الأخرى سهلة العبور. وحين انتهى إلى الضِفّة الأخرى التقط القوس الذي كان قد طوَّح به، وإذا هو يسمع صراخ زوجته تناديه، فتبينّ أن نيسّوس كان يتأهّب لخيانة الأمانة التي يحملها. فصاح به: «إلى أين تندفع أيها الوغد مستخدماً سرعة ساقيك خادعاً إيّاى بأباطيلك؟ إنني أخاطبك يا نيسّوس ياذا الخلقتيْن، أصغِ إليّ وحذار أن تعتدي على زوجتي، وإذا لم تَخْش بأسي فلتتّعظ على الأقل بالعجلة التي شُدّ إليها أبوك من قبل بسبب عشق محرّم[1] فلن تفلت مني قط، ولن يُجديك ما رُزقتَه من سرعة الخيل فستُلاحقك سهامي القاتلة قبل أن أدْرِكَكَ». وسرعان ما وضع عبارته الأخيرة موضع التنفيذ فَرَمَى سهماً نفذ فى ظهر القنطور الهارب فأطلّ سنّه المعقوف من صدره. ولم يكد نيسّوس ينزع السهم من صدره حتى تدفّق الدم من جرحيه مختلطا بسُمّ الهيدرا الرهيب[2]، فكتم الدم الدافيء المتدفّق بقميصه ليجعل منه وسيلته للثأر، مناجياً نفسه: «لا. لن أقضي نحبي دون قصاص»، وقدّم قميصه للعذراء التي اختطفها زاعماً أنه عوذة تحرّك دفين الحب الخابي.

مرّوقت طويل، كانت أمجاد هرقل الجبّار خلاله قد عمّت الكون وأجّجت حقد چونو زوجة أبيه عليه، وحين عاد منتصراً من أويخاليا[3] أخذ يتأهّب لتقديم القرابين تمجيداً لچوپيتر ووفاء بنذره فى كينايوم[4]. وانتهى إلى سمع ديانيرا ثرثرة ربّة الشائعات التي يمتزج الزّيف فيها

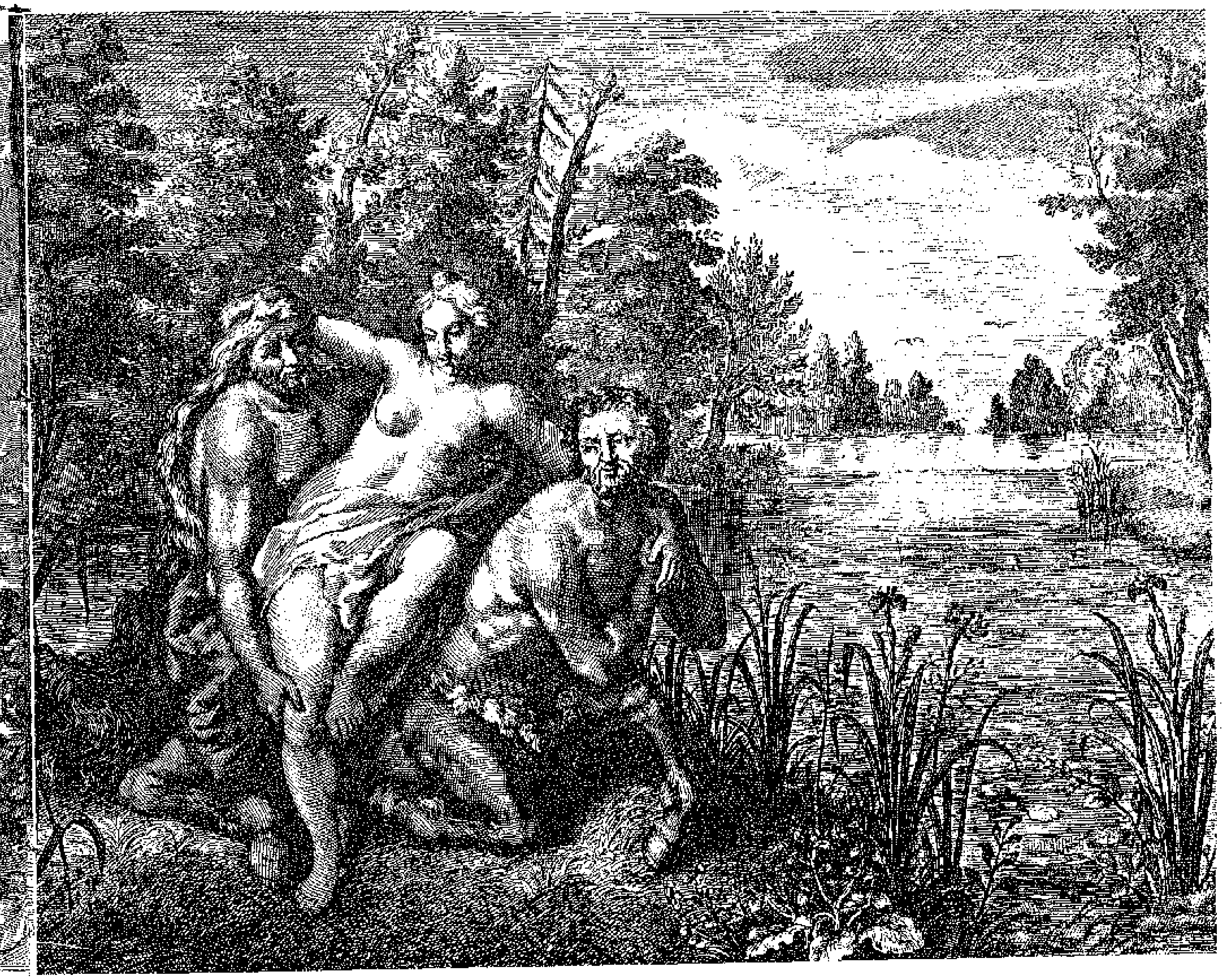

لوحة ٨٦. بيكار: هرقل يُصمي القنطور نيسوس بسهمه بعد اختطاف القنطور لزوجته ديانيرا.

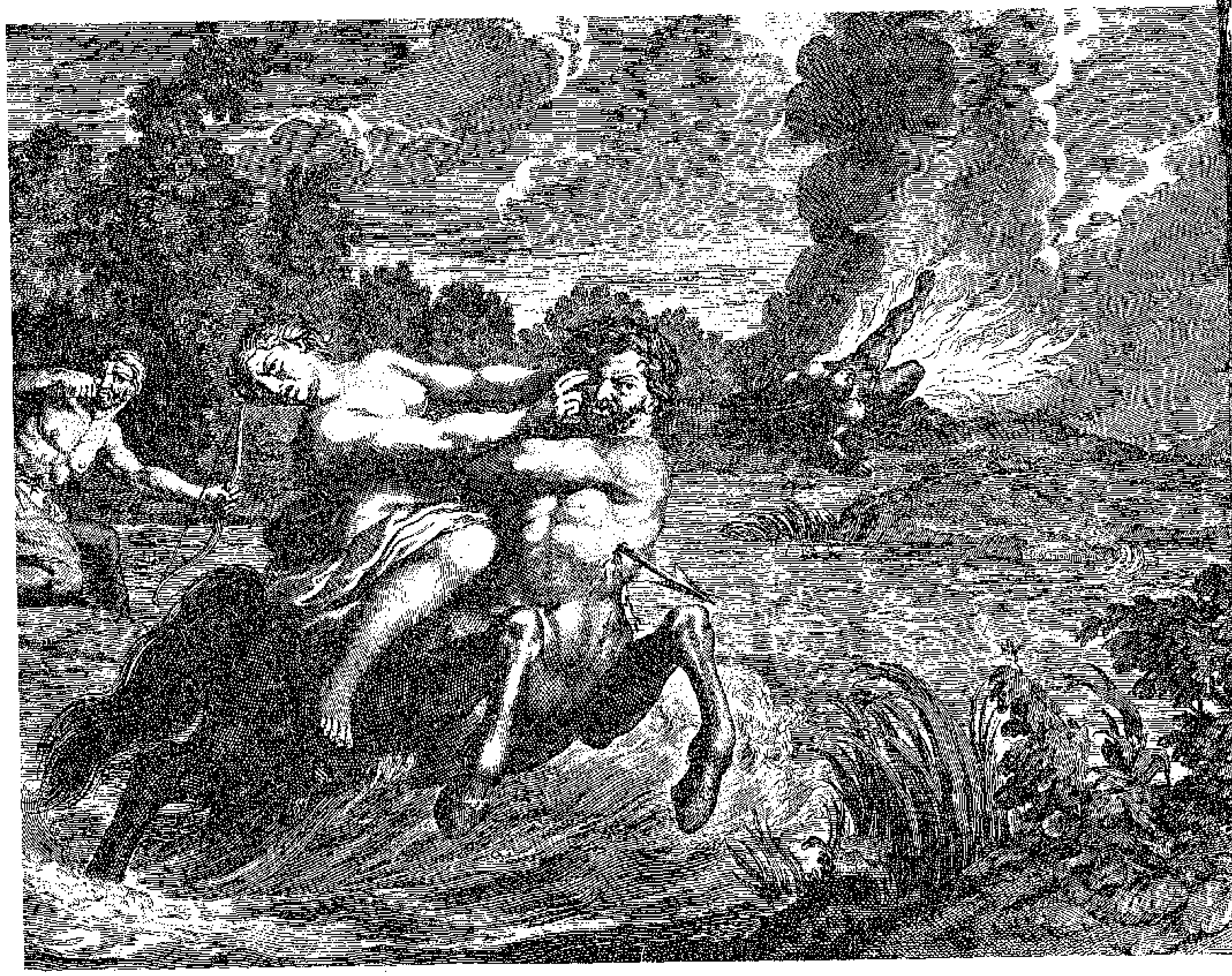

لوحة ٨٥. بيكار: هرقل ينقذ ديانيرا بعد محاولة القنطور نيسوس الاعتداء عليها.

بالحقيقة وتُزكّيها بأباطيلها، والتي بدأت تافهة ثم أخذت تنمو شيئاً فشيئاً فإذا هي أخيراً قصة عشق تربط بين زوجها ابن أمفيتريون وبين إيوليه إبنة ملك أو يخاليا. وصدّقت الزوجة النبأ، ولم تكد تسمع قصة هذا الغرام الجديد حتى أرسلت البائسة الدّمع يفيض من عينيها ترويحاً عن همِّها، لكنها عادت تناجي نفسها قائلة: «فيم البكاء، فما أسعد غريمتي أن تراني باكية، وإذ كانت في طريقها إلينا فلعلّي أبادر قبل فوات الفرصة فأهتدي إلى وسيلة أحُول بها بينها وبين أن تسلبني فراشي. أيحقّ لي أن أجأر شاكيةً أم ألزم الصمت؟ أأعود إلى كاليدون أم أبقى هنا؟ أأهجر داري أم أبقى فيها لأعكّر عليهما صفوهما، إذ لا حيلة لي أن أفعل غير هذا؟ ماذا لو كلْتُ لها مثلك يا أخي ملياجر(٥) ضربةً قاصمة تقضي عليها لتدرك كيف يفعل الحزن بامرأة امتُهن حقّها واعتُدي على كرامتها». غير أن فكرها ضلّ بين اتجاهات عدّة، وقرّ رأيها على أن تبعث بقميص نيسّوس الملطّخ بدمه إلى زوجها لكي يُشعل فيه الحب الذي خبا دون أن يساورها شك في خطر قد يحدق به، فلم تكن ديانيرا تخال أن هذا القميص سيُلبسها ثوب الحداد، فعهدت به إلى ليخاس الذي لم يخالج ذهنه هو الآخر شك في أمره، وأسرّت إليه بكلمات رقيقة طالبة إليه أن يقدّمه هدية إلى زوجها البطل الذي تقبّله دون أن يدري ما يخبئه له القدر، فإذا هو يُلقي على كتفيه ذلك القميص الملطّخ بسُم الهيدرا الليرناوية.

وفيما هو يحرق البخور بين ألسنة النيران المضطرمة متمتماً بصلواته للآلهة، ويصبّ الخمر من دورق القربان فوق المذبح الرخامي، كان السّم الزعاف ينطلق بفعل حرارة النار الموقدة فيسري أثره المدمّر حتى بلغ أطراف جسده. وقاوم البطل بشجاعته المعهودة آلامه ما استطاع دون أن يئن أنّةً واحدة، حتى إذا نفد صبره حطّم المذبح وملأ غابات أويتا بصرخاته وانطلق مهرولاً وهو يمزّق القميص المُهلك المشؤوم، غير أنه مع كل مزْقة منه كان ينزع سلخة من جلده. ألا ما أبشعها من ذكرى! لقد كان القميص أشدّ ما يكونَ التصاقاً بجسده فكانَ عسيراً عليه أن ينتزعه من فوق جسده إلاّ وقد انتزع معه ما يترك عظامه وعضلاته عارية. وكما كانت دماؤه تئزّ أزيز الحديد المُحمَى في النار حين يُغمس في الماء كذلك كان فعل السُّم الحارق في جسده وهو يفتك به. ولم يكن هذا ما يعانيه فحسب، بل كانت ثمة نارٌ نهمة تلتهم أحشاءه، وعَرَقٌ أسود يتصبّب من جسده كله، على حين تتداعى عضلاته المحترقة. وبينما نخاع عظامه يذوب بفعل اللهيب المميت رفع ذراعيه إلى السماء صائحا: «فلتنْعَمي بمأساتي يا ابنة ساتورن. نعم، إشْمتي بي في علياء سمائك أيتها الإلهة قاسية القلب، وأشْبِعي نظراتك بعذابي،

ولْتُنْخمي فؤادك الفظ بالعداء. أما إذا كنت أستحق الرحمة حتى من خصمٍ مثلك، فخلّصيني من الحياة الكريهة التي أحياها فريسة آلام رهيبة. خلّصيني من الحياة التعسة التي لا أذوق فيها إلاّ المكابدة فلسوف يكون الموت خيراً لي. سيكون هدية جديرة بزوجة أب! أوَلستُ أنا الذي هزمتُ بوزيريس[٦] الذي كان يلوّث المعابد بدماء الغرباء؟ أوَلست أنا الذي سلبتُ أنطايوس الرهيب قدرته التي كانت تدعّمها أمّه الأرض؟ أنا الذي لم يُفزعني الراعي جريون الإسپاني ذو الأجساد الثلاثة ولا أنتَ أيها الكلب كيربيروس ذو الرؤوس الثلاث! أوَلستما أنتما يا يديّ اللتين مرّغتما قرنيْ الثور المرعب فى التُّراب؟ أوَلم تشهد بقدرتكما إيليس ومياه ستيمفالوس وغابات پارثينيوس؟ أوَلَمْ تَعُدْ بفضل براعتكما حمائلُ غمد سيف ملكة الأمازونات المطرّزة بالقصب، وكذا الثمار التي كانت فى حراسة تنّين لا يُسْدَل له جفن؟ أوَليس حقاً أننى حطّمتُ مقاومة القنطور والخنزير الوحشي الذي كان يخرّب أركاديا، وأن الهيدرا لم يُغْنِ عنها شيئاً تزايد قوتها مع فَقْدِ بعض أعضائها واستبدالها بأعضائها المفقودة أعضاء أخرى؟ هل أذكّرك أنني حين رأيت جياد ملك طراقيا تعيش على الدماء البشرية وتمتليء حظائرها بمِزَق الجثوم الآدمية هدمتُ الحظائر وفتكتُ بالجياد وصاحبها ديوميديس؟ ها هُما تان اليدان اللتان خنقتُ بهما أسد نيميا الوحشيّ، وها هو ذا الكتف الذي حملتُ عليه السماء. كم أحسّت زوجة چوپيتر قاسية القلب بالإرهاق من كثرة ما فرضت عليّ من المهام الشاقة دون أن أشكو إرهاقا، وها هى ذي كارثة غريبة مهلكة تعجز أمامها الشجاعة وأسلحة الهجوم والدفاع معاً، ففى أعماق رئتي تضطرم نار تلتهم كل ما تجده فى جسدي من أعضاء، بينما يعيش الملك يوريسثيوس[٧] قوياً مُعَافَى، فهل ثمة مَنْ يؤمن بعد ذلك بوجود الآلهة؟».

وما إن فرغ من قوله حتى هام على وجهه ساخطاً مكروبا فوق جبل أويتا الشاهق بخطوات ثور قد أثخنه رُمح صيّاد رماه وانفلت هارباً، فكان أحياناً يئن أنينا يمزّق القلب وأحياناً أخرى يرعد غضباً محاولاً أن ينزع عنه ثيابه أو يقتلع جذوع الأشجار أو يرفع ذراعيه ضارعاً نحو السماء مقرّ أبيه چوپيتر.

ها هو ذا هرقل يلمح الفتى ليخاس الذي انكمش مرتعداً فى جوف صخرة فصاح به وقد ضاعف الألم من غضبه قائلاً: «أأنت ياليخاس مَنْ يحمل إليّ هذه الهدية المهلكة؟ أنت إذن مَنْ دبّر موتي؟»، فأخذ ليخاس يرتجف وقد علا وجهه شحوب الذعر، ونبس بكلمات معجونة

بالهلع يعتذر بها وهو يحاول أن يقبّل رُكبتىْ هرقل الذي أمسكه وطوّح به ثلاثا ثم قذف به فى مياه بحر يوبويا باندفاعة تفوق شدةً اندفاعة مقذوفات المنجنيق، فإذا جسد ليخاس يجمد فى الهواء. وكما يقال إن أنفاس الرياح الباردة تكثّف مياه الأمطار فتغدو ثلجاً، ثم لا تلبث كتلة الثلج الهشّة أن تتجمّد وهى تدور حول نفسها ثم تستدير متّخذة شكل حبّات بَرَد سميك، كذلك لم يكد هرقل يقذف ليخاس نحو الفضاء حتى جمّد الفزعُ دمَه وتحوّل جسدُه إلى صخرة صلبة على نحو ما تقول أسطورة قديمة. ومازال إلى اليوم هذه الصخرة الخفيضة تبدو بين الأمواج منبطحة على صورة آدمية وكأن الحياة تدبّ فيها، ومايزال الملاّحون يهابون وطأها، ويطلقون عليها اسم ليخاس.

أما أنت أيها الإبن المشهور لچوپيتر، فإنك بعد أن اقتلعتَ الأشجار من قمة أويْتا وسوّيت منها محرقة، أخذت قوسَك وكنانتك الضخمة وسهامها المُقدّر لها أن تُستخدم فى غزو مملكة طروادة، وقدّمت ثلاثتها هدية لفيلوكتيتيس بن پوياس(٨) الذي عهدتَ إليه بإشعال النار فى محرقتك. وفيما كانت ألسنة اللهب النّهمة تندلع من كومة الخشب بسطتَ فوقها جلد أسد نيميا، ثم تمدّدت فوقها مُسْندا رأسك إلى هراوتك، وقد اتّسم وجهك بالسكينة كما لو كنت مضطجعاً على أريكة فى وليمة، مزدان الجبهة بإكليل الزهور وسط أقداح مترعة بالنبيذ.

وتأجّج اللهب وانتشر فى جوانب المحرقة كلها حتى بلغ أطراف البطل الذي كان يرقبه هادئاً مستخفّا، وخشى الآلهة ما سيحلّ بالبطل حامي الأرض، فتطلّع إليهم چوپيتر بن ساتورن وهو يقول مازحاً: «إن ما يبدو عليكم من إشفاق هو متعة لى يا سكّان السماء، كم أغبطُ نفسي على أنني كبيرُ أرباب يدينون بالعرفان، وكم أنا سعيد أن أراكم تبسطون حمايتكم على ابني الجديد بها لما حقّق من مآثر عظيمة خارقة، إلاّ أن هذا لا يُهوّن من تقديري لموقفكم النبيل. فلتحرّروا قلوبكم الوفيّة إذن من هذا الفزع الذي لا داعي له ولا تقلقوا من هذه النيران المشتعلة فى أويتا، فإن هذا الذي قهر الكثير فى قدرته أن يقهر هذه النيران. إنه لن يحسّ سطوة ڤولكانوس إلاّ فى ذلك الجزء من جسده الذي أخذه عن أمه، أما ما أخذه عني فهو خالد فى مأمن من الموت ومن عصف النيران. والآن وقد أصبح هذا الجزء لا مكان له على الأرض فسأرفعه إليّ فى السماء، وكم أكون سعيداً أن يرضى الآلهة جميعاً عما سوف أنهض به، وإن كان بينكم مَنْ يضيق بأن يغدو هرقل إلها، فهذا لأنه يضنّ على ابني بهذه الجائزة الثمينة، لكنه

لوحة ٨٧. پيكار: ألكمينا بعد ولادة الطفل
هرقل العسيرة.

مع ذلك سيقرّ بأنه بها جدير، وسوف يؤمن بصواب ما فعلتُ رغم ضيقه به». وصفّق الآلهة
٢٦٠ تأييداً لقوله، بل إن ملكة السماوات زوجة چوپيتر نفسها استمعت إلى الشطر الأكبر من الحديث دون بَرَم به، فلم يرتسم الضيق على وجهها إلاّ مع عبارته الأخيرة، فقد شوهدت ضَجرةً بالّلمز الذي غمزها به زوجها. على أن ڤولكانوس إله النار ذهب بجميع ما يمكن أن تأكله النار، فلم يعد من اليسير التعرّف على هرقل بما تبقّى منه لأن شيئاً مما يذكّر بأمه لم يبق، ولم يعد يحتفظ إلاّ بما يحمل من بصمات چوپيتر. وكما يحدث للثعبان حين يتجدّد شبابه بانسلاخه من جلده فيتحرّر من شيخوخته ويتفجّر قوة وتتألق برّاقةً حراشفُه الجديدة، كذا حدث للبطل التيرينثي إذ تحرّر من غلافه الأرضي الفاني وعادت الحياة إلى أفضل جزء من كيانه وبدا أعظم شأناً مما كان، وعَلَتْه هيبة إلهية جليلة. وعندئذ رفعه أبوه القدير مخترقاً السّحب معتلياً عربة تجرّها جياد أربعة، ليقيم بين النجوم المتلألئة(٩).

ألكمينا وجالانثيس

عندها أحسّ أطلس أن وزن السماء قد ثَقُل عمّا هو معهود، ومع هذا لم يخمد غضب يوريستيوس بن ستينيليوس، فواصل مطاردة هيلوس ابن البطل التيرنثي بالحقد الرهيب نفسه الذي كان يطارد به أباه(١٠) في الماضي وأحسّت ألكمينا الأرجوسية في غمرة همومها بأنه لم يبق لها إلاّ إيوليه التي اختارتها نجيّة لها في شيخوختها، ومضت تروي لها مآثر ابنها التي كان العالم كله يعرفها، والمآسي التي كابدتها. وكان هيلوس نزولاً على ما أمره به أبوه هرقل قد
٢٨٠ أعطى لهذه الفتاة اليافعة مكاناً في فراشه وقلبه، وأودع رحمها ثمرة سلالة رفيعة، ولهذا حدّثتها ألكمينا لتبثّ الطمأنينة في نفسها قائلة: «إنني أدعو الآلهة أن تكون بك رحيمة، وأن تخفّف عنك آلامك يوم تبلغ مدة الحمل نهايتها، يوم تَدْعين لوكينا ربّة الحوامل حين يحين موعد الوضع وقد ساورك الخوف، فلا تغيب عن ذاكرتي قسوتها عليّ تودّداً منها لچونو حين دنت لحظة مولد هرقل الذي كانت الأقدار تعدّ له مهام خارقة سوف يضطلع بها. كانت الشمس قد جاوزت البرج العاشر، وكان حَمْلي يُثْقلُ جنبي، فلقد كان من الضخامة بحيث يستطيع المرء أن يتعرّف على ما كان لچوپيتر من أثر في هذا الحمل المكنون، ولم يعد في وسعي احتمال آلامي، حتى أني حين أذكرُ اليوم ذلك الحِمل أحسُّ الفزعَ يهتصر جسدي، كما غدت

ذكرى الولادة حتى اليوم مُوجعة. وبعد أن طال عذابي سبع ليال وسبعة أيام رفعتُ ذراعيّ إلى السماء وأنا خائرة القوى من فرط الألم، وصرخت منادية لوكينا ورفيقاتها الثلاث المعاونات فأقبلتْ لوكينا بالفعل، غير أن غريمتي چونو كانت قد رَشَتْها وطلبت إليها أن تتقرّب إليها بحياتي، فلم تكد تسمع أنّاتي حتى جلست على هذا المذبح القائم على بابي تستمع إلى توجّعي وأنيني واضعة ساقاً فوق ساق، وشبكت أصابعها المتباعدة كأسنان المشط وهى عاقدة العزم على العبث بمصيري، وصاتت بصوت خفيض رُقىً سحرية عوّقت حركة الجنين الذي كان قد بدأ يهلّ. وأخذتُ أصرخ سدى رامية چوپيتر بالجحود، وكم تمنيتُ الموت بينا أرسل شكاة تُلينُ قساوة الصخر، وانبرت الأمهات فى مدينة كادموس يتوسّلن إلى الآلهة ويشجّعنني بين آلامي المضنية. ولقد وقفت إلى جانبي جالانثيس الحُمَيْراء إحدى وصيفاتي من بنات العامة والتي غدت أثيرة عندي لما قدّمته إليّ من عون ولسرعة تلبيتها رغباتي، وقد أدركتْ أن فى الأمر بصيصاً من شرور چونو، ولمحَتْ أثناء دخولها وخروجها من الباب غير وانية أن الإلهة جالسة على المذبح ضامّة ذراعيها عاقدة أصابعها على رُكبتيها، فإذا جالانثيس تخاطبها قائلة: «أنت كائنةٌ مَنْ كُنت، قُومي فهنّئي سيّدتي ألكمينا الأرجوسية، فلقد خَلُصتْ من آلامها وصارت أمّاً وتحقّقت أمانيها». قفزت الإلهة التي عليها يتوقف وضع كل جنين فَزِعةً، فأرسلت خلال اضطرابها يديها المعقودتين فانتثرت مع حركة يديها قيود رحمي وانحدر الطفل فخَلُصْتُ من آلامي. ويقال إن جالانثيس انخرطت فى الضحك ساخرة حين اكتشفت أنها خدعت الإلهة وظلت تضحك حتى أمسكت بها الإلهة القاسية واجتذبتها من شعرها الجميل. وإذ حاولت النهوض من الأرض أفسدت الإلهة محاولتها بتحويل ذراعيْها إلى ساقىْ حيوان، غير أن الفتاة احتفظت بخفّة حركتها وتغيّر شكلها دون أن يتغيّر لون شعرها، وغدت تلد من فمها، إذ كان هذا الفم هو الذي انطلق بالكذب على الإلهة مضلّلاً لتُعين سيّدتها على الوضع، وهى ماتزال تتردّد على دورنا كما كانت تفعل فى الماضي بعد أن تحوّلت إلى عِرْسة.

دريوپي . يولاووس

وبعد أن فرغت ألكمينا من حديثها وأثارت أشجانها ذكرى وصيفتها السابقة ندّت عنها زفرة، فقالت لها إيوليه زوجة ابنها التي أدركت عُمق حزنها: «لقد كانت تلك الفتاة التي تبكينها يا أمّاه غريبة عنا لا تسري فى عروقها دماء أسرتنا، فكيف بك لو قصصتُ عليك المصير

الغريب لأختي؟ وإن كنت أعجز ما أكون عن أن أتحدث إليك وأنا فى غمرة الحزن ودموعي تسيل مدرارا. كانت دريوبي وحيدة أمها فقد أنجبني أبي من زوجة أخرى، وكانت أجمل عذارى أويخاليا، وكان إله دلفي وديلوس قد اغتصبها عنوة قبل أن يتزوج بها أندريمون الذي عُدّ سعيدا السعادة كلها بهذه الرابطة. وكانت ثمة بحيرة تنحدر ضفافها فى لطف انحدار شطآن البحر، وعلى آكام ذلك الساحل تتألق زهور الريحان، فقصدت دريوبي هذه البحيرة دون أن يخالجها شك فيما سيكون من أمرها أو فيما دبّره القدر. على أن ما سوف تستمعين إليه سيكون أشدّ هولا وإثارة، فقد راحت تجمع الأكاليل كى تُهديها إلى الحوريات وبين يديها طفل رقيق لم يُكْملْ عامه الأول كانت تحتضنه وتُرضعه من ثديها. وعلى مقربة من البحيرة كانت شجرة لوتس[١١] صنْوة المياه تحمل زهوراً ألوانها أشبه بأرجوان مدينة صور وقد آذنت بالثّمر. قطفت دريوبي بعض الزهور لطفلها كى يلهو بها، وأخذتُ أتبادل معها أطراف الحديث - إذ كنت فى صحبتها - وكنت على وشك قطف بعض الزهور كما فعلت هى فإذا بي أرى قطرات من دم تتساقط من الزهور، وأشاهد أغصانها ترتجف رعبا. وأنت لاشك تعلمين ما لايزال أهل الناحية يروونه من أن الحورية لُوتسْ قد اضطرت إلى تحويل شكلها إلى شجرة لوتس هرباً من نزوات بريابوس الفاحشة، لكنها مع ذلك لم تغيّر اسمها. غير أن أختي لم تكن تعرف شيئاً عن ذلك الخطر الذي يهدّد السابلة فى تلك الأماكن. وقد رأت أمام ما اعتراها من قلق أن تعود ولا تعرج على الحوريات اللاتي جاءت للابتهال إليهن، إلاّ أن قدميها كانتا قد انغرستا كالجذور فى الثّرى وعلقتا به، وحاولت اقتلاعهما فلم يطاوعها غير جذعها، وأخذ لحاء خشبي يكسو جسدها ببطء من أسفل قدميْها إلى الرُكبتين، وما إن رأت ذلك حتى رفعت يديها إلى شعرها تريد انتزاعه، فإذا يداها تمتلئان بأوراق شجر كان قد عمّ رأسها كله. وأحسّ أمفيسوس الصغير - وهو الاسم الذي خلعه عليه جدّه يوريتوس - تصلّب ثدي أمّه وأن اللبن لم يعد يدرك فمه. شاهدتُ هذا المصير المُوجع ينزل بأختي تحت بصري وما كان بيدي أن أدفع عنها. أختاه، لقد حاولتُ ما استطعت أن أؤخر بقبلاتي زحف الجذع والفروع وكم تمنّيت أن يكسوني هذا اللحاء نفسه. وعندها جاء أندريمون زوج دريوبي وأبوها التعس يبحثان عنها فلوّحت لهما كى يلتفتا إلى الشجرة التي حلّت محل مَنْ جاءا يبحثان عنها، فغمرا بقبلاتهما الخشب الذي كان لايزال ينبض بالحياة، وركعا أمام جذع الشجرة العالية وضمّاها بأذرعهما. أختاه الحبيبة! لم يبقَ فيك شيء لم يتحوّل إلى جزء من شجرة عدا وجهك وتلك الدموع التي

تروي الأوراق المنبثقة من جسدك، ولم يبق منك غير فم ينطلق منه صوتك فى أجواز الفضاء شاكية: «إذا كان ثمة مَنْ يُصدّق البؤساء فأقسم بالآلهة أني لم آت ما أستحقُ عليه هذا المصير الرهيب، فقد حاق بي هذا العقاب دون جُرم اقترفته. فكم كنتُ نقية طاهرة فى حياتي، وإن كنتُ كاذبة فليذبلنّ عودي ولتسقطنّ عني تلك الأوراق التي تُظلُّني، ولأهوينّ تحت وقع ضربات البلطة حطباً تلتهمه النار. هل لكم أن تأخذوا هذا الطفل المعلّق فى أغصان الأمومة على أن تعهدوا به إلى إحدى المرضعات، ولتُتيحوا لي أن أراه دوماً مضطجعاً فى حضني يرضع لبني، وليختلف إليّ كثيراً ليلهو فى ظلالي. وإذا ما بلغ النُّطق فعلّموه أن يُحيّيني على أنني أمّه، وليردّد فى أسىً أن أمَّه يطويها جذع هذه الشجرة. ولكن فليحذر المستنقعات وليتجنّب قطف زهور الأشجار وليحترس من لمس سيقان أزهار قد تكون أجساد إلهات. وداعاً أيها الزوج العزيز، وأنتما أختي وأبي، وإذا كنتم تحبّونني حقاً فاحْمُوني من النّصل القاطع وأنياب قطعان الماشية. وإذ كان من المتعذّر علّى أن أنحني لكم، فلْتشبُّوا أنتم إليّ كى ألثّم شفاهكم مادام فى قدرتكم أن تبلغوا شفتيّ، ولعلكم ترفعون إليّ طفلي كى ألثّمه هو الآخر. وما أنا مستطيعة بعد ذلك أن أضيفَ شيئاً، فها هو ذا لحاءٌ رقيق قد بدأ يمتد إلى عنقي العاجي، وأخذت قمة الشجرة تطوي رأسي. لا حاجة بكم إلى إسدال جفوني بأيديكم فمن العبث أن تمدّوا إليّ يد العون، وخلّوا اللحاء يزحف صاعداً ليُغشّي عينيّ المحتضرتين». وعجز لسانها بعد ذلك عن الحديث واختفي من الوجود، وبقيت غصونها الجديدة تنبض بالحياة طويلاً فى الجسد الذي رُسِخَ شجرة».

بينما كانت إيولي تحكي هذه القصة العجيبة، وبينما كانت ألكمينا تبكي وهى تُكفكف دموع إبنة يوريتوس بأناملها، إذا بأعجوبة جديدة تقع، فتُنحّي ذكرياتهما الحزينة، إذ رأتا يولاووس واقفاً بالبوابة الواسعة وقد عاد صبيّا اعشَوْشَبَتْ على وجنتيه شعرات كالزغب، فلقد استجابت هيبي [ابنة چونو][١٢] لتوسّلات هرقل - الذي اقترنت به بعد صعوده إلى السماء - فخلعت على يولاووس [أخ هرقل غير الشقيق] قسمات شبابه الباكر. وعندما كانت هيبي على وشك أن تُقسم بألاّ تجود بمثل هذه المكرمة لأحد بعدُ، عارضتها ثيميس قائلة: «إن طيبة متورطة الآن فى حرب أهلية، ولن يستطيع سوى چوپيتر قهر كاپانيوس. وسيموت الأخوان إيتوكليس وپولنيسيز فيقتلُ كلٌّ منهما الآخر، وسيشهد الملك الكاهن أمفياراووس وهو مايزال على قيد الحياة طيفَه بعد الموت عندما تنشقّ الأرض أمامه، وسيثأر ابنه لقتل أبيه بسفك دم أمه

لوحة ٨٨. پيكار: دريوبي تتحول إلى شجرة.

فيُصبح إبناً باراً وآثماً فى آن معاً، ثم يهوله جُرمه فيفقد عقله ويُنفَى خارج وطنه، وتطارده ربّات الانتقام، ويلاحقه شبح أمّه، إلى أن تطالبه يوما زوجته كاليرهوىْ إبنة إله النهر أخيلؤوس بالقلادة الذهبية المشؤومة التي سيكون معها حتفه. وكذا سيغوص سيف فيجيوس والد زوجته الأولى فى جنبه إلى أن ينفد الدم من جسده. وبعد ذلك كله ستجثو كاليرهوى ضارعة إلى چوپيتر العظيم أن يهب الشباب لولديْها وهما مازالا فى المهد صغيريْن، وتسأله ألاّ يطول بهما الزمن حتى يأخذا بثأر زوجها الظافر. وها هى ذي دعواتها تهزّ قلب چوپيتر، فيَمُنّ على زوجة ابنه ويجعل من ولديها شابيْن قبل بلوغهما الحُلُم، ويهبهما تلك الهبات التي عادة ما تهبها هيبي [إلهة الشباب] زوجة ابنه هرقل السماوية وابنته من چونو فى آن معاً»[١٣] .

بيـــبليـــس

لم تكد تلك النبؤة تجري على لسان ثيميس كاشفةً النقاب عن المستقبل، حتى ثارت بين الأرباب همهمات معترضةً محتجّة متسائلين لماذا لا تكون لهم أيضا مثل هذه القدرة على إعادة ٤٢٠
الشباب لمن يشاؤون؟ فإذا إبنة المارد پالاس[١٤] تنعي الشيخوخة التي كانت لزوجها بالمرصاد، وإذا سيريس إلهة الخصب والحصاد تشكو الشعر الأبيض فى رأس يازيون[١٥] ، وطالب مولكيبير [ڤولكانوس] لإريختوينوس أن يكون له الحق فى استرجاع شبابه، وحاولت ڤينوس أيضاً أن يستعيد أنخيسيس ميعة الصِّبا، وامتلأ كل إله حماسة لأتباعه، وتزايد صخبهم وحَمِىَ جدلهم، لكن ذلك اللّجب ما لبث أن سكن حين تحدث چوپيتر قائلاً: «أيها الآلهة، إذا كنتم تُكنّون لى شيئاً من التوقير فأفصحوا لي عن رغباتكم. هل من بينكم مَنْ يظن نفسه قادراً على تغيير مشيئة القدر؟ إن القدر هو الذي أعاد يولاووس إلى السنّ التي كان تخطّاها، والقدر هو الذي سوف يهب الشباب لطفلىْ كاليرهوى لا القوة ولا الخداع. ولكى ترضوا بهذا الناموس بنفوس مطمئنة فاعلموا أننا جميعاً ـ أنتم وأنا ـ رهن القدر، ولو ملكتُ تغيير الأقدار لما انحنى ظهر ابنى أياكوس تحت وطأة الأعوام، ولبقى رادامانثوس يرفل فى ريعان الشباب أبداً، ولعاش قبله كذلك مينوس العزيز[١٦] الذي باتت شيخوخته العاتية تُهوّن من شأنه والذي لم يعد يحكم مملكته بالحكمة التي أثرت عنه فى الماضي». فهدّأت كلمات چوپيتر من ثورة الآلهة وشكاتهم ولم يعودوا يجأرون بالشكوى بعد أن رأوا الشيخوخة تدبّ فى رادامانثوس وأياكوس

ومينوس. وكان اسم مينوس وحده حين كان فى ريعان الشباب يُلقي الرعب فى قلوب الأمم الكبرى، أما الآن فقد غدا عاجزاً يخاف شرّ ميليتوس بن ديوني المزهو بشبابه وبأبوّة فويبوس له، ومع اقتناعه بأن ميليتوس كان يهدّد عرشه، إلا أنه لم يجرؤ على نفيه بعيداً عن وطن آبائه.

على أنك قد هاجرتَ من تلقاء نفسك يا ميليتوس، وحملتك سفينةٌ سريعة عبر أمواج بحر إيجه لتقيم على أرض آسيا أسوار مدينة تحمل اسم مؤسّسها[١٧]، وهناك التقيْتَ الحورية سياني إبنة مياندر ذات الجمال الفريد فيما كانت تجول على ضفاف أبيها الذي كان يتعرّج مرّة تلو مرّة. وفى هذا الموقع وضعت لميليتوس توأماً هما بيبليس وكاونوس. وفى قصة بيبليس عبرة للفتيات حتى يبعدن عن الحب غير المشروع، وكان قلبها قد شغف حباً بأخيها حفيد أپوللو الذي يماثله جمالاً فأحبّته لا كحبّ الأخت لأخيها بل فوق هذا، ولم تكن تدرك أوّلاً كنه عاطفتها، ولا تعدّ نفسها آثمة حين تغمر أخاها بقبلات محمومة أو تطوّق عنقه بذراعيها، فلقد عاشت طويلاً فى أسْرِ خداع كاذب لعاطفة أخوية، وشيئاً فشيئاً أخذ حبّها يُجانب الطريق السّويّ، فكانت تأتي - حين تفد لزيارة أخيها - فى أحسن زينتها حريصةً على أن تبدو فاتنة فى عينيه، وتحسّ الغيرة حين تجد إلى جانبه امرأة تفوقها حُسنا. ومع هذا لم تتبينّ حقيقة مشاعرها، كما أنها لم تحسّ نحوه برغبة جسدية على الرغم مما كان يتأجّج فى فؤادها من لوعة تنهشها. كان الوله يغلي فى أعماق قلبها فانبرت تنادي كاونوس بـ «سيّدها»، وتنفر من الأوصاف الدّالة على الأخوّة والقرابة، فتؤثِرْ أن يناديها بيبليس لا أن يناديها بأخته، ومع ذلك لم تكن تُفسح فى نفسها مكاناً لرغبات دنسة ما كانت يَقْظَى، أما حين كانت تستسلم لاسترخاءة حانية فما أكثر ما كانت ترى محبوبها فى أحلامها، بل ما أكثر ما خُيّل لها أنها ترقد فى أحضان أخيها، فتتخضّب وجنتاها بحُمرة الخجل مع أنها كانت غافية فى فراشها، فإذا ولّى من عينيها النعاس التزمتْ الصمت طويلاً تحاول أن تجمع من جديد شتات حلمها، ثم تناجي نفسها مضطربة الفكر قائلة: «يا لشقائي! ما معنى هذه الخيالات التي تتراءى لي فى هدأة الليل؟ لكم خشيت أن تتحقّق. ولماذا تراودني هذه الأحلام؟ ما أجمل كاونوس حتى فى أعين حاقديه وكم أنا به معجبة، ولو لم يكن أخي لكان بوسعي أن أعشقه ولكان لي خير الأزواج، فنكَدُ طالعي هو أنني أخته. لكن مادمتُ لا أحاول أن أرتكب فى يقظتي ما يخالجني فى سُباتي فكم أتمنّى أن تتراءى لى تلك الرؤى تباعا لأراك كثيراً فليس ثمة على الأحلام من رقيب، ثم إن متعتها لا

لوحـــة ٨٩. پيكار : بيـبليس تخط رســالة إلى
شقيقها تعترف فيها بحبها له .

تعود بضرر. أي ڤينوس، وأنت يا كيوپيد المرافق المجنّح للأم الحانية، يا لها من متعة تلك التي تذوّقتُها. ما أروع هذا الشعور وأنا مستلقية على فراشي، شعور الاستسلام الذي يغمرني حتى نخاع عظامي، ما أروع ذكرى هذا الحلم حتى وإن كانت مُتْعتي فيه قصيرة عابرة، إذ سرعان ما أتى عليها الليل الحسود حين ألمّت به الغيرة من عطيّتي. كم أتمنّى لو أتيح لى أن أغيّر اسمي واقترن بك. كم كنت سأصبح كَنةً مُثْلى لأبيك، وكم كنتَ ستُصبح صهراً كُفْءاً لأبي! وكم تمنيتُ لو أن الآلهة جمعت بيننا فى كل شىء غير أن نكون من صُلْب واحد! ساعتها كنت أتمنى أن لو كنتَ سليل أسرة أنبل من أسرتي. لست أعرف أية امرأة ستجعل منها أمّاً لأبنائك يا أوْسَم الرجال، يا مَنْ اختارت الأقدار التعيسة لنا الأبوين نفسيهما. لن تكون لي إلاّ الأخ الشقيق فحسب، فإن ما يربط بيننا هو ما يفصم هذا الرّباط، فما بالي أحلمُ بهذه الأحلام، وهل لحلمٍ كهذا مهما بلغ قيمة؟ ألا فلتغفر لي الآلهة قوْلي؛ فقديما بَنَى الآلهة بشقيقاتهم؛ فلقد بنى ساتورن بأوپس مع أنها من الصّلب الذي انْحَدَرَ منه، كما بنى أوقيانوس بثيتيس، وبنى سيّد الأوليمپوس بأخته چونو. حقاً لقد فاتني أن للآلهة سُنَنَهم، وهل لي أن أسوّي بين البشر والآلهة فى نواميسهم التي تخالف نواميسنا فتُبيح للأخ أن يبني بأخته؟ لسوف أقتلعُ من قلبي هذا الحبّ المحرَّم، وإن لم أقدر فما أوْلاني أن ألقَى حتفي قبل أن أزلّ فى الخطيئة، ثم ما أوْلاني أن أتمدّد على فراش الموت وأتلقّى وأنا جسدٌ هامد قبلات شقيقي.

وعلى أية حال فإن ما أتوق إليه يتطلّب رضانا نحن الاثنين، وإذا افترضنا أنني حزمت أمري فقد يعدّه هو جريمة، على حين لم يخش أبناء أيولوس أن يتزوجوا من شقيقاتهم[١٨]، ولكن كيف انتهيتُ إلى هذا؟ ولماذا تتراءى أمامي هذه النماذج؟ أيّ منزلق أنحدرُ إليه؟ فلْتغْرُبي عنّي أيتها الرغبات الدّنسة، فكم أنا حريصة على ألاّ يكون بيني وبين أخي إلاّ كل ما هو مشروع. ولو أنه هو الذي شُغف بي أولاً فلعلّي كنت أستطيع أن أستسلم لطيشه، وما كنت أقدر أن أرفض توسّلاته لو كان قد فعل. هيّا أفصحي يا بيبليس، هل تستطيعين الاعتراف بالحقيقة؟ بلىَ، فسيدفعني الحب إلى ذلك. وإذا لم أستطع وأخرسَ الخجلُ لساني فسأبعثُ إليه برسالة فى الخفاء تكشف له مستور حبي».

وتولاّها الصمت عند هذا، وإذا ما جال بخاطرها يخرج بها عن تردّدها. نهضت على جنبها قليلاً واتّكأت على مرفقها الأيسر قائلة: «لأكشفنّ له عن هذا الحب الطائش، وعليه هو

أن يتّخذ قراره. وا أسفاه، إلى أين يمضي بي هذا البلاء، وأية نار هذه التي تحرق قلبي؟» وبعد أن استقرّت على ما ستكتب، أخذت تخطّه بيدها المرتجفة. أمسكت القلم الحديدي بيُمناها ولوح الشمع بيُسراها، وإذا هي تتردّد بعد أن بدأت، ثم إذا هي تكتب، لكنها لم ترض بما كتبت، فَمَحتْ وغيّرت وتراجعت ثم أقبلت. وكانت تتناول ألواحها ثم تضعها، وتُنحّيها ثم تتناولها من جديد دون أن تعرف ماذا تريد، وساءها كل ما كانت مُقْدمة عليه، وامتزجت على وجهها الجرأة المشوبة بالحياء. وبعد أن خطّت كلمة «أختك» قررت أن تطمسها وسوّت لوح الشمع ثم كتبت: «إليك تبعث السلام امرأة تحبك وهي لا ترقب منك إلاّ السلام[١٩]. وإن الحياء، نعم الحياء، يحول بينها وبين ذكر اسمها. وإذا سألتَني عمّا أطلب فهو رغبتي في عرض حالي من غير أن يُذكر اسمي حتى لا تتعرّف أنت على بيبليس في شخصي قبل أن أطمئن إلى أن دعواتي باتت مستجابة. من الممكن أن تقع على دليل قلبي الجريح في شحوب وجنتيّ ونحول جسدي وتعبيرات وجهي وعينيّ الدامعتين، وفي الزفرات التي أطلقها دون سبب ظاهر، وفي ضمّاتي المتكررة لك، ثم في قبلاتي التي لابد أنك أحسست أنها لا تشبه قبلات الأخت لأخيها. ومع ما أحمله في قلبي من جرح عميق، وبرغم الجنون المشبوب المحتدم في صدري، فعلتُ كل ما بوسعي [وأُشهدُ الآلهة على ذلك] لكي أبرأ. وقد جاهدت طويلاً وأنا في مأساتي من أجل أن أفلت من سهام كيوپيد التي لا ترحم، واحتملت قسوة المعاناة بشجاعة لا يتوقعها أحد من فتاة، واليوم أجدني مرغمة على أن أعترف بهزيمتي وأطلب عونك على استحياء. أنت وحدك تستطيع إنقاذي أو القضاء على الفتاة التي تحبك فاختر هذا أو ذاك. إن التي تضرع إليك اليوم ليست خصماً لك، بل هي أقرب ما تكون إليك، تتلهّف شوقاً لتزيد اقتراباً منك ولتتّحد معك برباط أوثق. فلنترك للعجائز علْم القانون، فعليهم أن يبحثوا هم عمّا هو مباح وعمّا هو جريمة وعمّا هو ليس بجريمة، ولنُخْلِ الجو بينهم وبين القانون يفعلون به ما يعنّ لهم، فإذا قانون ڤينوس الجسورة هو الجدير بسنوات عمرنا. ما هو المُباح الحلال؟ إننا مازلنا نجهله، لكنا نؤمن أن كل شيء حلال ولنا في كبار الآلهة أسوة، ولن يعترض طريقنا شيء، فلا قوة تعوقنا، ولا الخوف من الفضيحة ولا الرهبة يُثنيننا، ولنفرض جدلاً أن ثمة ما يدعو للخوف فأي شيء نخشاه؟ إذ بقدرتنا أن نُخْفي متعتنا المختلسة باسم محبة الأخ لأخته، وإذا كنتُ حرّة في أن أبثّك سرّي خفْية، فما أوْلاني أن أعانقك وأقبّلك علَنا. فهل يضجّ العالم إذا حققنا اليوم ما أصبو إليه؟ فلتأخذك الشفقة بهذه التي تقرّ لك بحبها والتي لم تكن

لتجرؤ على التصريح به لو لم تغلبها على أمرها هذه العاطفة المشبوبة. ناشدتُك ألاّ يُذكر اسمك على شاهد قبري على أنك المسؤول عن موتي». تلك كانت العبارات المرسلة هباء وبلا جدوى، والتي حفرتْها يدها على لوح الشمع الذي ضاق بكلماتها، فكتبت آخر سطر فى هامشه ثم ختمت الرسالة الآثمة التي مَهَرتْها بخاتمها المرصّع بالجواهر والذي بلّلته بدمعها [لأن لسانها كان جافاً]، ونادت خادماً لها والخجل يغمرها قائلة له بصوت يشيع فيه القلق والتلطّف: احمل هذه الرسالة إلى..»، ثم أضافت بعد لحظة صمت طويلة «أخي». وفى اللحظة التي قدّمت إليه الألواح أفلتت من بين يديها وسقطت على الأرض، فتطيَّرتْ لهذا النذير، وعلى الرغم من هذا أرسلتها، حتى إذا ما وجد الخادم فرصة مناسبة اقترب من كاونوس وسلّمه الرسالة السرية.

لم يكد كاونوس حفيد مياندر يقرأ بعض الرسالة حتى تولاّه غضب مفاجيء وقذف بالألواح التي تسلّمها بعيداً، وكبح يديه اللتين كانتا موشكتين على خنق الرسول المرتعد صائحاً فيه: «أغرب عن وجهي بأسرع ما تملك أيها الشرّير، يا رسول العلاقة المحرّمة، فلو أن موتك لن يذيع عارنا لكان موتك قتلاً الآن ثمناً لجريمتك». لاذ حامل الرسالة بالفرار مذعوراً ليبلغ مولاته بما كان من كاونوس، فَعَلا الشحوب وجه بيبليس حين علمت أنها كانت موضع الازدراء، وسرى فى جسدها كله صقيع وغشيه الاضطراب، حتى إذا استردّت وعيها عاد هذيان العشق المبرّح إليها معه، وبصوت خافت كأنه الهمس قالت: «لقد نلتُ جزائي، فما كان أشدّ حمقي حين اندفعت فكشفتُ له عن قلبي الدامي؟ لماذا تعجّلتُ هكذا وسجّلت على الألواح اعترافاً كان حَرِيّاً بي أن أخفيه؟ لقد كان جديراً بي أن أبدأ باختبار عواطفه بعبارات مبهمة لا تورّطني. كانَ ينبغي عليّ كي تدفع الريح سفينتي ألا أسْلمها إلاّ طرفاً من الشراع، وأراقب شدّتها فأبْحرُ فوق مياه لا تتهدّدها الأخطار. أما الآن فقد تركتُ الرياح التي لم أختبر شدّتها تدفع بكل أشرعتي، فألقتْ بي فوق الصخور أنا وقاربي المحطوم وابتلعتنا أمواج المحيط بعد أن استحالت عودتنا إلى الشاطيء. بل لقد حذّرني فأل لا يخيب من الاستسلام لهوايْ حين أمرت الخادم أن يحمل ألواح الشمع فأفلتت من بين يديّ وهوت بأمنياتي إلى الأرض. أوَ لم يكن أجدى أن أستبدل باليوم يوماً آخر، أو أن أنصرفَ عن هذا الأمر كله؟ بل لقد كان عليّ أن أستبدل باليوم غيره، فلقد حذّرني الإله حين وجّه إليّ علامة تُنبئ بما سيقع لو لم أكن سقيمة العقل. وقد كان عليّ أن أخاطبه بنفسي بدلاً من أن أهمس للألواح بسرّي. كان عليّ أن

أواجهه فأطلق العنان لعاطفتي المحمومة حتى يلمح دموعي ويشهد ملامح وجهي الذي يحبه. وإذن كنت أستطيع أن أبوح له بأكثر مما بُحتُ به فى رسالتي، ولاستطعتُ بالرغم منه أن أحيط عنقه بذراعي حتى لو صدّني. وعندها كنت أستطيع وأنا أتظاهر بالمشارفة على الموت أن أقبّل قدميه وأجثو على الأرض متوسّلة إليه أن يمنحني الحياة. كان فى مقدوري أن أستخدم وسائل شتّى، ولو كانت كل وسيلة وحدها لا تكفي لكانت كلها مجتمعة قادرة على أن تُلين قسوة قلبه. مَنْ يدري لعل الخادم الذي أرسلته إليه قد ارتكب خطأ ما، أو لعله لم يحدّثه الحديث اللائق. إنني واثقة من أنه لم يختر الفرصة المناسبة ولم ينتظر اللحظة التي لا تساور فكره فيها الهموم. تلك هى الأسباب التي عاقت تحقيق رغبتي، فيقينا إن أخي ليس ابن نَمرة، كما أن قلبه لم يُقدّ من صخر ولا من فولاذ، ثم هو لم يرضع فى طفولته لبن لبؤة. ولسوف أفوز به، فلأتصدّ له من جديد دون أن يدفعني نفوره إلى التخلّي عن مقصدي طالما بقيتْ تتردّد فى صدري أنفاس الحياة. وإذا كانت بغيتي فى البداية - لو أتيح لي أن أعود إلى ما أقدمتُ عليه - هى أن أخوض هذه المغامرة، فقد أصبحتْ بُغيتي الآن - وقد آن الأوان مادمت قد أقدمت - أن أنتزع النجاح الكامل قسراً. ولو صحّ أنني اطّرحت رغباتي جانباً فما أظنه ينسى أبداً جُرأتي، وإذا أنا وقفت عند هذا الحال حبي له ليس إلا نزوة طائشة فحسب أو محاولة مني للتعرّف على ما يكنّه لي من أحاسيس لأوقعه فى شراكي، أو على الأقل سيتصوّر أنني لم أكن مستسلمة لسطوة إله يعتصر قلبي ويشعل فيه نيرانه بل أسيرة شهواتي. على أنني غير مستطيعة آخر الأمر أن أبدو مبرّأة لم أقترف جرماً إذًا. لقد تدنّست نيّاتي وما أستطيع ادّعاء البراءة. وما بقى عليّ أن أقوم به لتحقيق آمالي قد يكون أفدح مما أردت تحقيقه ولكنه لا يضيف مزيدا إلى جريمتي». كانت مناجاتها لنفسها تعبّر عن اضطراب فكرها واضطرام الصراع فيه، ومع ندمها على محاولتها غواية أخيها فلقد كانت سعيدة بتجديد سعيها إليه متخطّية كل ما هو خُلُقيّ فى محنتها، معرّضة نفسها لامتهان لا ينقطع.

وحين يئس كاونوس من رجوع أخته عن محاولاتها معه آثر الهجرة من وطنه هروباً من زنا المحارم، وعكف على تشييد مدينة جديدة لنفسه فوق أرض غريبة[٢٠]. وقيل وقتها إن إبنة ميليتوس فقدت صوابها فمزّقت ثيابها عند نحرها وكشفت عن صدرها وأخذت تلطم خدّيها غائبة عن وعيها، ثم كشفت عَلَنَاً عن هَوَسها وصارحت الناس برغبتها الجنونية وحبها الأثيم، وهجرت هى الأخرى وطنها ومرتع نزواتها الفاجرة، وتتبّعت آثار أخيها فى المنفى، متشبّهة

بعابدات باكخوس على جبل إيسماروس حين يُهيجُهنّ ثيرسوسُك[٢١] يا ابن سيميليه، فيُحْيين أعيادك التي يُحتفل بها مع كل أعوام ثلاثة. وعبرت بيبليس الحقول الفسيحة وهى تولول على مشهد من نساء مدينة بوباسوس[٢٢]، ومن هناك ساقتها خطاها التائهة إلى بلاد الكاريّين والى الشعب الليليجي[٢٣] المدجّج بالسلاح، ومرّت بليكيا تاركة وراءها كراجوس وليميريه ونهر زانثوس والهضاب التي يسكنها الخيميرا، ذلك الكائن الوحشي الذي ينفث جسده ألسنة اللهب والذي كان له جذع أسد وذيل ثعبان[٢٤].

وأخذ مشهد الغابات الفسيحة التي اخترقتها بيبليس يتضاءل فى عينيها كلما بَعُدت عنه حتى أضناها السير سعياً وراء أخيها، فسقطت منهكة فوق الأرض وعاجلها النعاس وقد انتفش شعرها فوق الأرض الصّلبة والتصق وجهها بأوراق الشجر المتساقطة. وأقبلت الحوريات الليليجيّات فحاولن إيقاظها والتّخفيف من آلامها وصرفها عن غيِّها، لكنها صمّت أذنيها وأطبقت شفتيها وظلّت راقدة تمزّق بأظافرها العشب الأخضر وتروي المراعي بأنهار الدمع، ويقال إن حوريات الماء قد احتفرن مجرى لدموعها لم ينضب أبداً. وأية هبة خيرٌ من هذه كان يمكنهن أن يقدّمنها إليها؟ وكما ينبثق الصمغ من لحاء شجر الصنوبر والقار اللّزج من التربة الحُبْلى به، وكما يتجمّد الماء حين تهبّ رياح الشتاء الثلجية ثم يذوب ثانية مع أنفاس الشمس، تحوّلت حفيدة فويبوس التي أنهكها البكاء إلى ينبوع مازال يتفجّر حتى الآن فى الوديان تحت ظلال أغصان شجرة البلوط الخضراء الداكنة وقد احتفظ مع الزمن باسم صاحبته بيبليس.

إيـفيـــس

كان من الممكن أن يشغل حديث هذه المعجزة بال سكان المدن المئة التي تنتظمها كريت لولا معاصرتها لمعجزة أخرى وقعت على حدود كنوسوس بأرض فيستُوس حيث كان يعيش رجل اسمه ليجدوس من أسرة متواضعة غير مرموق المكانة، لكنه وُلد حرّاً تتكافأ ثروته ومكانته، وعاش حياته بعيداً عن الشّبهات. وكانت زوجته تليثوزا قد حملت منه فلما اقتربت أيام الوضع نصحها قائلاً: «إنني أصلّي رجاء أمرين: أن تخفّ عنك آلام وَضْعك، وأن نُرزق بمولود ذَكَر، فإنجاب البنات حِملٌ يثقُلُ على مَنْ ضاقت موارده مِثْلي، على أني إذا فشلتْ

ضراعاتنا ورُزقنا بنت فسوف أقضي بقتلها [على الرغم مما أكنّه من مشاعر الأبوّة . . ولتغفري لي ذلك] . وبينا هو يُخطرها بما عقد عليه عزمه كانت دموعه تسيل سيل دموعها غزارة، وقد حاولت زوجته بتوسّلاتها المتتالية ألا يضيّق الخناق على أحلامها، لكنه كان صلباً فى تمسّكه بنواياه .

وحين بدأت تيليثوزا تنوء بحملها، زارتها إيو ابنة إيناخوس ليلاً فى منامها، ووقفت أمام فراشها وسط حاشيتها المقدّسة وقد تُوّج جبينها بالتاج الهلالي المرصّع بالسنابل الذهبية تحيط بالصّل الملكي، كما تزوّدت بصُلْصلاتها، فبدت جليلة مهيبة[٢٥] ، وقد صحبها كلبها أنوبيس العاوي، والقطة المقدسة بوباستيس، وآپس ذو الرداء متعدّد الألوان، والإله الذي يحبس صوته ويضع أصبعه على شفتيه داعياً إلى الصمت[٢٦] ، وكذلك أوزيريس الذي لم تنقطع إيزيس عن البحث عنه، والثعبان الغريب المنتفخ بالسّم المنوّم. وتحدثت الإلهة إلى تيليثوزا التي خُيّل إليها أنها استيقظت من نومها وأنها تسمع وترى فى اليقظة لا فى المنام، وقالت الإلهة : «أنت واحدة من أفراد حاشيتي يا تيليثوزا فخفّفي عنك قلقك، ولا تُطيعي زوجك بما أشار به عليك، ولا تبخلي بالرعاية على طفلك ذكراً كان أم أنثى حين تفرغ لوكينا من مساعدتك بوضعه. أنا إلهة الغوث أقدّم العون لمن يتوجّه إليّ بالرجاء، ولن يجأر لسانُك بالشكوى من أنك لجأت إلى إلهة لا تقرّ بالجميل» . ثم غادرت الإلهة الغرفة بعد أن أسدت نصيحتها، ونهضت تيليثوزا الكريتية من فراشها مشرقة الروح ورفعت يديها الطاهرتين إلى النجوم وتوسّلت إلى الآلهة أن تحقق لها ما رأت فى منامها .

حتى إذا جاءها المخاض وخرج الجنين إلى النور ورأت أنه أنثى، أخفت الأمر عن زوجها وادّعت أنه ذكر. ولم تتجه إليها الشكوك ولم تهمس بسرّها إلاّ لمرضعة الطفل، وأنفذ الأب قسمه وأعطى ابنه اسم جدّه إيفيس. وسعدت الأم بهذا الاسم الذي يُطلق على الذكور والإناث دون تمييز. وبهذا لم تخدع أحدا بهذا الاسم، وبقى سرّها خفياً بسبب هذا الاسم، وألبست طفلتها ثياب الذكور، وأخفت سرّها بمختلف الحيل وإن لم تُخْفه عن الإلهة التي باركت خطواتها. وكانت للطفلة قسمات تتميز بالجمال الذي يشارك فيه الذكورُ الإناثَ. وحين بلغت إيفيس الثالثة عشرة من عمرها أخذ والدها يعدّ لزواجها من إيانثي ابنة تيليستيس الكريتي أجمل بنات فيْستُوس وأكثرهن فتنة و كانت فى سن إيفيس، تلقّيا معاً تعليمهما على

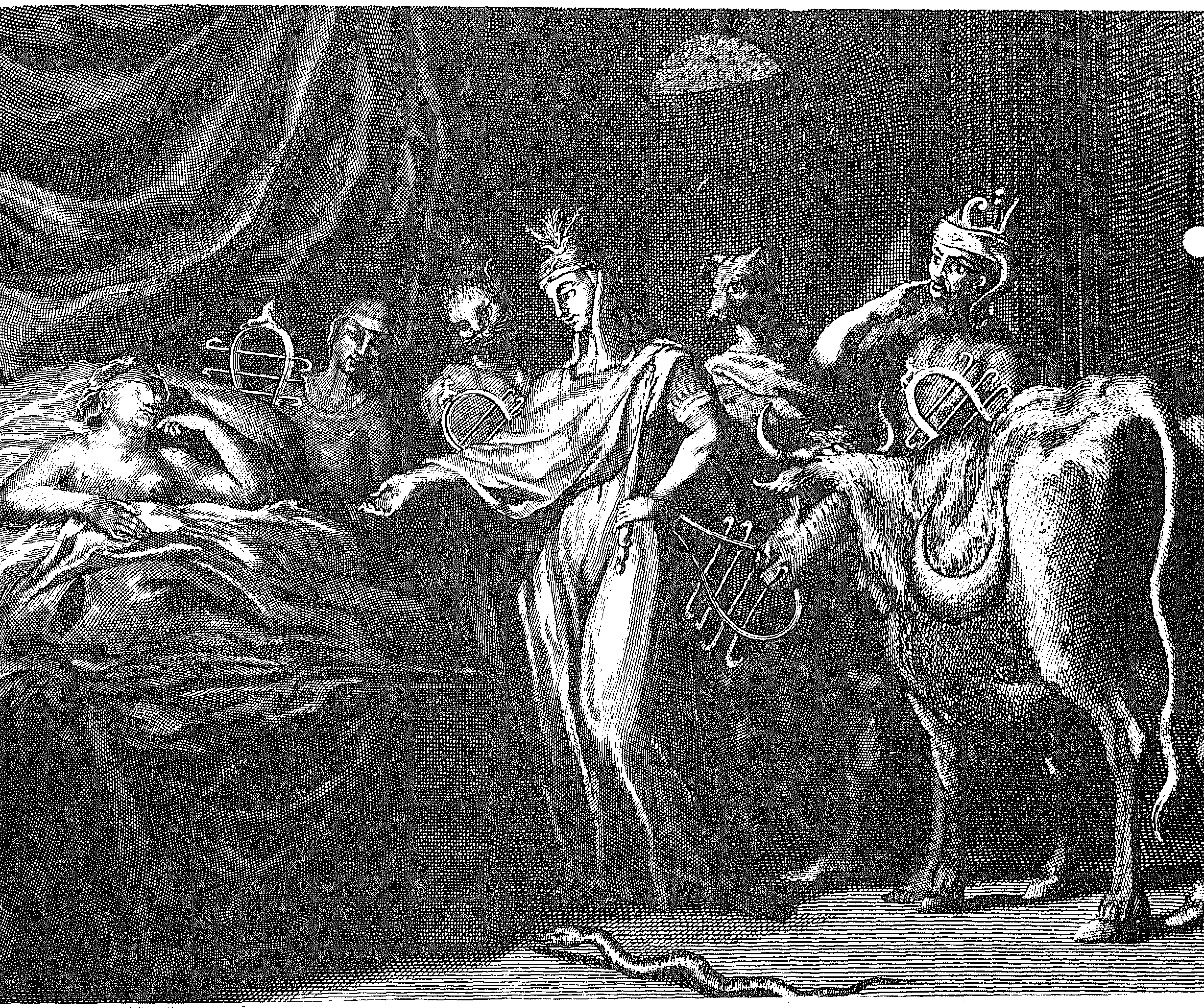

لوحة ٩٠ . پيكار : ظهور الإلهة إيزيس لتيليثوزا أثناء نومها، يصحبها الكلب أنوبيس والقطة بوباستيس وآپس وأوزيريس .

أيدي الأساتذة أنفسهم فمسّ الحب قلبيهما البريئين، غير أنهما كانتا تنظران إلى المستقبل نظرتين مختلفتين. فبينما كانت إيانثي شديدة اللهفة للزواج من إيفيس التي تحسبها فتىً وتنتظر فى شوق يوم زفافها إليه، كانت إيفيس تعلم أنها مغرمة بفتاة مثلها لن تستطيع أن تجد إلى جوارها السعادة، وكان إحساسها بالضياع يزيدها التصاقاً بالفتاة، وكانت دموعها تنهمر دون انقطاع، وتردّد فيما بينها وبين نفسها: «أى مصير ينتظرني؟ لقد وقعت فى حبائل حب غريب شاذ لم يعرفه أحد من قبل، ولو شاءت الآلهة الإبقاء على حياتي لحرّرتني من قبضة هذا الحب، أما إن شاءت هلاكي فلمَ لمْ تُصبني ببلاء مما اعتاد البشر التعرّض له. إن البقرة لا تهيم بحب بقرة، والفرس لا تعشق فرساً، والنعاج تتجه دوما للكباش، وذكور الوعل تطارد إناثه، وعلى هذا النحو تتزاوج الطيور، ولا ينطوي عالم الحيوان على هيام أنثى بمثلها. ليتني لم أولد، غير أنه مقضيّ أن تنبثق على أرض كريت هذه الأحداث النكراء. لقد أحبّت ابنة الشمس[٢٧] ثوراً حقاً، لكنها كانت أنثى تعشق ذكراً. أما حبي أنا فهو - لو كشفتُ عنه - أكثر شذوذاً من حبها، فقد كانت لذة الجسد التي ترقبها هى التي أغوتها، وقد استطاعت بالحيلة حين تخفّت فى تمثال على صورة بقرة أن تسعد بالثور الذي كان يقوم مقام عاشق طبيعي. غير أنه على الرغم من ومضة العبقرية التي تمثّلت بتمثال صنعه دايدالوس الذي حلّق فى السماء بجناحين ثبّتهما بالشمع، فإنه لو عاد ما استطاع أن يفعل لى شيئاً، ولما استطاعت فنونه السحرية أن تحيلني من فتاة إلى شاب، ولما استطاع أن يُحيلك أنت يا إيانثي إلى صبيّ. إذن فلتحزمي أمرك يا إيفيس ولتنفُضي عنك هذه العاطفة الجنونية الخرقاء، وواجهي حقيقة الأمر إلا إذا كنت تخدعين نفسك فضلاً عن غيرك، واستمتعي بما هو متاح للمرأة أن تستمتع به. إن الأمل هو الذي يولّد الحب ويغذّيه، وقد حرمتك الطبيعة كل أمل. إنك تستطعين معانقة تلك التي تعشقينها دون أن يعترض طريقك زوج أو أب قاس ودون أن تتمنّع محبوبتك، ومع ذلك فلن تكون محبوبتك ملْكاً لك ولن تجدي معها ما يمنحك السعادة مهما عاونك فى ذلك الآلهة والبشر. إن شيئاً واحداً فقط لم تحققه لي الآلهة الرحيمة التي استجابت لكل ما رجوت، وهذا الذي أريده ويريده أبي وخطيبتي نفسها ووالدها تقف الطبيعة حائلاً دون تحقيقه وهى أقوى منهم جميعاً. إن الطبيعة هى سبب بلائي. لقد جاء اليوم الذي كانت دعواتي كلها فيه من

أجله، واقترب موعد زفافي، وستصبح إيانثي لي دون أن أقْوَى على تملّكها، وسأحسّ الظمأ وأنا وسط المياه. لماذا يا چونو يا راعية الزواج وأنتَ يا هيميناليوس[٢٨] تشاركان فى طقوس زفاف ليس فيه عريس يقترن بعروس، بل نحن فيه عروسان؟». ثم ما لبثت إيفيس أن لاذت بالصمت.

وكانت الفتاة الأخرى تشتعل حباً لا يقل اضطراما عن حب إيفيس لها، فراحت تتضرّع قائلة: «مدّ إلىّ يد العون على عجل يا هيمينايوس». غير أن تيليثوزا كانت تخشى ما تدعو إليه إيانثي وتؤجّل الموعد متصنّعة المرض تارة أو متعلّلة برؤى أثارت قلقها أو بفأل سيء صادفته تارة أخرى حتى استنفدت جميع حيلها واقترب يوم إشعال شموع الزفاف الذي تأجل مرّة ومرّة ولم يبق أمامها إلاّ يوم واحد. وعندها فكّت تيليثوزا العصابات الملتفة حول رأسها وحول رأس ابنتها فتناثر شعرها، وطوّقت بذراعيها محراب إيزيس وصاحت ضارعة: «يا إيزيس، أنت يا مَنْ تقطنين الپاريتونيوم[٩] وحقول مريوط وفاروس[٣٠] والنيل المتشعّب إلى سبعة فروع، أسرعي إلى نجدتنا. أتوسّل إليك أن تمنحينا دواء لآلامنا، أنت أيتها الإلهة التي شاهدتك ورأيت مظاهر قدراتك وتعرّفت على حاشيتك ومشاعلك وأصوات مصلصلاتك، وحفرتُ بإخلاص وصاياك فى ذاكرتي. إذا كانت ابنتي ماتزال على قيد الحياة، وإذا كنت أنا نفسي أحيا فى مأمن من العقاب، فذلك بفضل نصائحك وحمايتك التي أدين لك بها اليوم، فلتترفّقي بنا
٧٨٠ نحن الاثنتين، وامنحينا عونك الكريم». وانسابت الدموع من عينيها مع انتهاء دعائها، وخُيّل لها أن المحراب يهتزّ. وفى الحق إن المحراب اهتزّ كما اهتزّت أبواب المعبد، وأشرق هلال الإلهة الشبيه بهلال القمر، ودوّت جلبة عاصفة، ولم تعرف الأم ما حدث على وجه الدقة، لكنها عدّته فألا حسنا فغمرت البهجة قلبها، وخلّفت المعبد ومضت مع إيفيس التي اتسعت خطواتها عمّا كانت عليه من قبل، وفقدت بَشَرتها نعومتها، وغدا شعر رأسها قصيراً مصفّفاً ببساطة، وأصبحت قسمات وجهها أكثر صرامة، وبدت أقوَى مما كانت عليه قبلُ، وامتلأت نشاطاً قلّ أن يمتلىء به جسد أنثى، وتحوّلت هذه الفتاة الرائعة الجمال إلى فتى بغمضة عين! هيّا إذن أيها الزوجان السعيدان، احملا هداياكما إلى المعبد وانعما بالفرحة مطمئنّين.

ومضى العروسان بهداياهما إلى المعبد، ونقشا فوق جداره بيتاً قصيراً من الشعر يقول: «ها هو ذا إيفيس يقدّم قرباناً نَذَرَ بأن يحمله لإلهته يوم أن كان فتاة، رمزاً للوفاء بالعهد بعدما أصبح - كما اشتاق - فتىً».

ومع طلوع صباح اليوم التالي أشرقت الشمس غامرةً بأشعتها أركان الكون الفسيح، واجتمع كل من ڤينوس وچونو وهيمينايوس مع حاشيتهم فى حفل زفاف الفتى إيفيس يوم اقترانه بعروسه الحبيبة إيانثي(٣١).

الكتاب العاشر

الكتاب العاشر

أورفيـــوس

استجاب هيمينايوس ربّ الزواج لدعوة أورفيوس لكى يشهد حفل زفافه، فشقّ أجواز الفضاء متلفّعاً بردائه الزعفراني[1] إلى أن بلغ شواطيء الكيكونيين[2]، إلا أن دعوة أورفيوس للإله كانت بلا جدوى، لأنه على الرغم من حضوره ساد الحفلَ سوءُ الطالع. وقد بدا أورفيوس مقطّب الجبين لا يعلو وجهه سيما البِشْر، وانصرف عن الشّدو بأناشيده القدسيّة، كما فهقت الشُّعلة التي يحملها وانبعث منها دخان كثيف يُهيج دموع الحاضرين، وذهبت كل محاولة لإشعالها سدى. ووقع ما هو أعتى شراً مما أنبأ به الفأل، فقد اعترضت أفعَى طريقَ العروس وهى تتجوّل وسط المروج السندسية برفقة صاحباتها من حوريات الأنهار «النايادیس»، ولدغت كاحلها فهوت أرضاً جثة هامدة، فهالَ ذلك حبيبها الشاعر مُنْشد جبال رودپي وهوَى هابطاً إلى عالم الموتى فى جُرأة لا حدود لها شاقاً طريقه إلى شاطيء نهر ستيكس عَبْر بوّابة تيناريوس[3] كى يستثير شفقة أرواح الموتى، وانطلق يجوس بين أشباح الأرواح الذاوية إلى أن انتهى إلى حيث پيرسيفونى وزوجها المهيمن على هذه الأنحاء المعتمة، وجعل ينشد على أنغام القيثارة قائلا: «أى إلهيْ العالم السفلي الذي سنمضي إليه نحن البشر الفانين،

لوحة ٩١ . پيكار : الحية تلدغ كاحل يوريديكي.

لوحة ٩٢ . پيكار : أورفيوس يعزف على قيثارته
في العالم السفلي أمام پلوتو وپروسيرپينا.

هل لي أن أصارحكما بالحقيقة من غير زيف ولا مداراة؟ ما أتيتُ إلى هنا لأتجوّل فى دروب تارتاروس المُعْتمة، ولا لأكبِّل بالأصفاد كلب ميدوسا المفترس ذا الرؤوس الثلاث والشعر الكثيف المتلبّد الذي تنساب بين تلافيفه الثعابين[٤]، وإنما أتيتُ سعياً وراء عروسي التي خبت جذوة حياتها وهى فى ربيع العمر صريعة لدغة أفعى أفرغت فى عروقها سمّها الزّعاف. كم وددتُ لو استطعت أن أحتمل مرارة أحزاني باذلاً جهدي لأتذرّع بالصبر، غير أن الحنين إلى عروسي غلبني، والحب كما تعلمان إلهٌ له شهرته بين البشر، وما أدري هل يحْظَى بشُهرته هذه بينكم، وما إخال أمره خافيا عنكما. وعلى أية صورة كانت الصلة بينكما قبل أن تتزوجا، فما من شك فى أن الحب هو الذي جمع بين قلبيكما، فبحق هذه الدروب الرهيبة، وبحق هذا الصمت المخيّم على مملكتكما الشاسعة، أضرع إليكما أن تُعيدا إلى يوريديكي الحياة التي فقدتها يانعة، وإني لأعلم أننا نحن البشر إن عاجلاً أو آجلاً إلى المَنُون ماضون، وأن سلطانكما على البشر أبديّ لا انقطاع له، وأن زوجتي سوف تُردّ رُوحها إليكما شأنها فى ذلك شأن غيرها، وذلك بعد أن تقضي حياتها المقدورة على الأرض. ما أرجوه منكما هو أن تَهَباني الفرحة بصُحبتها، وإذا أبت مشيئة ربّات الأقدار أن تعيدها ثانية إلى الأرض فما فى نيّتي أن أعود إلى عالم الأحياء، ولكما يومئذ أن تتشفّيا بموتي كما تشفّيتما بموتها».

وفيما كان أورفيوس يُنشد ضراعته على أنغام قيثارته أجهشت الأشباح الشاحبة بالبكاء، وغفل تانتالوس عن متابعة المياه وهى تفلت منه[٥]، وتوقّفت عجلة إيكسيون عن الدوران، وأمسكت الصقور عن نهش كبد تيتيوس، وأغفلت بنات داناوس ملء جرارهن، واستولى الذهول على سيزيفوس وهو يستريح على صخرته[٦]، وغلب الأسى ربّات الانتقام عند سماعهن هذا الشّدو الحزين فابتلّت وجناتهن بالدموع، ولم يملك حاكم العالم السُّفلي وزوجته إلاّ الاستجابة لتوسّلاته. ودعيا يوريديكي، فأقبلتْ من بين الأشباح تتهادى مُثْقلةً بجرحها، ومضى أورفيوس الطراقي مُنْشد جبال رودوپى بزوجته شريطَة ألاّ يتطلّع إليها إلاّ بعد أن يغادرا وديان أڤيرنوس[٧] حتى لا يفقدها ويعود إلى الدنيا وحده.

وانطلقا معاً فى السكون والعتمة يرقبان السفوح وقد خيّم عليها ظلام لا تُشقّ غياهبه، وحين اقتربا من سطح الأرض أخذ القلق يساور أورفيوس مخافة أن يكون الإعياء قد بلغ من زوجته مبلغه وأحسّ بلهفة لرؤيتها، فمال ببصره إلى الوراء فإذا يوريديكي التعسة تعود تواً إلى

الأعماق وهى تمدّ ذراعيها إليه، وعبثا حاولت أن تحمله على الإمساك بها أو أن تتعلّق به، وإذا ملء كفّيها قبض الريح. وعاجل الموت يوريديكي ثانية دون أن تلفظ بشكاة، وممّ تشكو وكل ما حدث كان مبعثه هيام زوجها بها! ولما همّت بوداعه تبدّدت كلماتها قبل أن تبلغ سمعه، وإذا هى تجد نفسها ثانية فى المكان الذي كانت قد خلّفته منذ لحظات.

مزّق الحزن فؤاد أورفيوس لانتقال زوجته مرة أخرى إلى عالم الموتى، وصار أشبه بذلك الرجل الذي أصابه الهلع حين رأى كيربيروس ذا الرؤوس الثلاث ممدّدا على الأرض مغلول الرأس الأوسط، ولم يخلص من هلعه إلاّ حين فَقَدَ صورته الأولى وتحوّل حجراً[٨]، أو بأولينوس وليثيا العاشقين التّعسيْن اللذين تحوّلا فى مراعي إيدا[٩] حجرين لشدّة غرور ليثيا بجمالها، فإذا أولينوس يرتضي أن يحمل على عاتقه جريرة زُهوّها ويشاركها ما حلّ بها من عقاب. وقد حاول أورفيوس عبور نهر ستيكس ثانية غير أن محاولته ذهبت هباء، ولم تُغْن توسّلاته للحارس كى يأذن له بالعبور، فبقى مطروحاً على شاطيء النهر سبعة أيام لا يذوق طعاماً أو شراباً، يقتات من الحزن والقلق والدموع، ثم عاد بعدئذ إلى جبل رودوبي الشاهق وجبل هايموس الذي يقع فى مهبّ الرياح الشمالية يشكو ظلم آلهة عالم الموتى.

وغمرت أشعة الشمس كوكبة الحوت النّديّة التي تتم دورات ثلاثا فى العام، وكان أورفيوس قد صدف عن حب النساء خلال تلك الفترة، إما بسبب تلك المأساة أو لعَهْد قطعه على نفسه. وكم من فتيات كُنّ يتشوفّن للزواج منه استشطن غضباً لتجاهله إياهن، غير أن أورفيوس آثر أن يَقْصُرَ علاقاته على صحبة الفتيان ذوي الشباب الغضّ، وأن يستمتع بربيع اليافعين وبشبابهم قصير المدى، فكان أول من جَنَحَ بشعب طراقيا إلى هذا السبيل[١٠].

كِيـــپَاريسُّوس

وجلس الشاعر سليل الآلهة فوق ربوة يكسوها العُشب وليس ما يُسْتظلّ به من أشعة الشمس، وما إن أخذ يغمز أوتار قيثارته وتنبعث منها أنغامها الشاجية حتى أقبلت نحوه الأشجار بظلالها، فجاءته أشجار بلوط خاؤوليا[١١] وأشجار الحَوْر شقيقات فايثون ملتفّة حوله، وسنديانة زيوس العملاقة السامقة غزيرة الأفنان، وشجر الزيزفون والزان وشجرة الغار العذراء وشجر البندق القصيف وشجرة الدردار التي نصنع منها عيدان الرماح وشجر التَّنُّوب الأملس وشجر السنديان المُثقل بجَوْزاته وشجر الجميز مكمن الفرح، وشجرة الاسفندان ذات

لوحة ٩٣ . پيكار : الطير والحيوان يخفّ إلى
الاستماع لغناء أورفيوس مبهورا بأنغامه
الشجيّة الساحرة .

الأوراق متعدّدة الألوان، والصَّفصاف الذي تحنو غصونه على شواطئ الأنهار، واللوتس عاشق الماء، وشجيرة البقس دائمة الخضرة، وشجرة الطرفاء النحيلة، والريحان ثنائي اللون، وشجرة اللّورة التي تحمل التوت داكن الزرقة، واللبلاب أيضاً جاء يجرّ ذيوله، والكروم المُورقة والدردار بين ثناياها، وشجرة الغبيراء وشجرة الصنوبر الراتنجي، والفرصاد البرّي المثقل بالثمار الحُمْر، والنخيل اللّدْن الذي يُمْنَحُ سعفه جائزة الفوز فى المباريات، وشجرة الصنوبر ذات القمة المورقة المدبّبة أعزّ الأشجار إلى سيبيلي [كوبيلي] أم الآلهة، وذلك أن كاهنها الأثير آتيس كان قد تحوّل من هيئته البشرية إلى هذه الشجرة[١٢]. وإلى الجمع الحاشد انضمّت شجرة السَّرْو بهيئتها المخروطية التي تذكّرنا بحدود زوايا المنعطفات فى حلبة السباق، وهى إن كانت اليوم شجرة، فلقد كانت من قبل فتىً عشقه ذلك الإله الذي يُجيد غمز أوتار القيثارة إجادةَ شدّ وتر القوس. وإليكم القصة: فى سالف الأيام كان ثمة وعلٌ بديع التكوين تشمله حوريات حقول كارثيا[١٣] برعايتهن، كان قرناه المتباعدان يُضْفيان الظل على رأسه ويتألّقان بوميض ذهبي، وتُطوّق عنقه الأملس قلادة من الأحجار الكريمة تنسدل على صدره، وتبرق على جبينه تعويذة فضيّة مثبّتة بأشرطة جلدية رفيعة، وتتدلّى من أذنيه لآلئ وضّاءة على صدغيْه الغائرين. وكان لا يخالط قلبَه خوف، يدخلُ على الناس بيوتهم ويداعبُ الغرباء بمدّ عنقه نحوهم. وكان كيپاريسوس أوْسَم شباب كُوسْ هو أقرب الناس إليه وأشدّهم التصاقاً به، وكان يقتاده إلى المراعي الخُضْر والينابيع الثّرة ويكلّل قرونه بأجمل الزهور، ويمتطي ظهره فى بعض الأحيان وكأنه فارس على ظهر جواد، ويوجّه خطم هذا الحيوان الرقيق يمنةً ويسرة بأعنّة أرجوانية.

وفى ظُهر أحد أيام الصيف وكانت أشعة الشمس الحارقة تلهب أذرع برج السرطان ضيف شواطيء البحر، أحسّ الوعل بالإرهاق، فاستلقى على العُشب ينشد الراحة مع الأنسام النَّديّة فى ظلال الأشجار، وتراءى لكيپاريسوس مداعبته فوخزه بحربته المسنونة دون أن يقصد إيذاءه، فإذا الوعل قد جُرح وانكفأ يحتضر، وهمّ كيپاريسوس بقتل نفسه ليلحق بصديقه فى رحلة الموت، فأسرع أپوللو إليه يواسيه بأرَقّ كلمات المواساة محاولاً إقناعه بالقصد فى حزنه، غير أن الصبي مضى يئن منتحباً واتجه إلى الآلهة يسألها أن تحقّق له رجاءه الأخير وهو أن يظل باكياً نائحاً إلى الأبد. ولم ينقطع الصّبي عن البكاء حتى جفّت فى عروقه الدماء ومال لون أطرافه إلى الخُضرة، وجَمُد شعره وتشعّث بعد ما كان مُرسْلا يتموّج على جبينه ناصع

لوحة ٩٤ . پيكار: كيپاريسوس يتحوّل إلى شجرة.

البياض. وغمر الحزن العميق الإله أپوللو فأخذ يناجي نفسه أسْياناً مردّدا قوله: «لسوف أظل أبكيك أبداً، ولسوف تظل أنت تذرف الدمع من أجل الآخرين، ولسوف تبقَى دائماً رفيقاً للمحزونين[١٤].

جَانِيميـــدِيس

وشرع أورفيوس يختبر أوتار قيثارته مداعبا إياها بإبهامه متوسّطاً جمعاً من قطعان الوحوش وأسراب الطيور، حتى إذا اطمأنت أذنه إلى اتّساق النغمات المختلفة راح يشدو: «أيْ ربّة الفن مُلهمة الشعراء، فليكن چوپيتر الذي تنحني لجبروته جميع الكائنات أول مَنْ أستهلُّ به أغنيتي، وما أكثر ما رويتُ من قبل عن جبروت چوپيتر، وما أكثر ما تغنّيتُ بالعمالقة وبالصواعق المدمّرة التي هوت على سهول فليجرا[١٥] بنغمات أروع جلالاً. أما اليوم فما أحْوَجَني إلى ألحان حانية تناسب قصص الغلمان الذين عشقهم الآلهة، والفتيات اللاتي استبدّت بأفئدتهن عواطف غير مشروعة ذهبت بعقولهن فدفعن ثمنها غالياً.

فقديماً اشتعل قلب چوپيتر بحب جانيميديس الفريچي. ولكى يبلغ كبير الآلهة ما يريد آثر أن يتّخذ صورة كائن آخر بدلاً من صورته، فاختار صورة ذلك الطائر الذي يطيق حمل صواعقه على جناحيه [النسر]، وحين تحوّل إلى صورة ذلك الطائر بدأ يضرب الهواء بجناحيه إلى أن تمكن من اختطاف ابن إيلوس[١٦]، الذي ما يزال إلى اليوم يعدّ كؤوس النكتار ليحتسيها ١٦٠
چوپيتر على الرغم من ضيق زوجته چونو به.

هِيـاكِينْـثُوس

وكان فويبوس على وشك أن يمنح هياكينثوس بن أميكلاس منزلة رفيعة فى السماء لو أن الأقدار القاسية قد أرْخَتْ له عنان الزمن ليُحقّق هذه الأمنية. ومع ذلك فقد خُلِّد على النحو الذي كان مُقدّراً له يومئذ؛ فإذا ما جاء الربيع فى أعقاب الشتاء، وإذا ما خلّف برج الحمل برج الحوت النّديّ، يعود هياكينثوس إلى الحياة من جديد وينمو زهرةً فى المروج الخضراء. فلقد

منح فويبوس الصّبيَّ حبًّا لم يمنحه غيره من البشر، فهجر مدينة دلفي سُرَّة العالم، وأخذ يختلف إلى يوروتاس ومدينة أسپرطة التي لا أسوار لها، مُغْفلاً قيثارته وسهامه متناسياً عاداته القديمة، ولم يتردّد فى حمل شباك الصيد واصطحاب كلابه مرافقاً هياكينثوس إلى حواف الجبال الوعرة، فزادت هذه الصحبة المستديمة نيران حبّه تأجّجا.

وفى يوم من الأيام، وفى اللحظة التي تتوسّط فيها الشمس الطريق بين ليل زائل وليل آت خلع إله الشمس والصّبيّ عنهما ثيابهما، ودلّكا جسديهما بزيت الزيتون الدَّسم فاكتسبا بريقا، وأخذا يتباريان فى قذف القرص العريض. وبدأ فويبوس فأمسك بالقرص ثم طوّح به فى الهواء، فمزّق القُرصُ بثقله خلال مسيرته السُّحبَ الكثيفة ثم هوَى على الأرض شاهداً على ما للإله من قوة وبراعة. وشُغفَ هياكينثوس الفتى الأسپرطى بهذه اللُّعبة دون أن يُعمل فكره والتقط القرص ثم قذف به، غير أن القرص ما كاد يرتطم بالأرض الصّلبة حتى ارتد إلى الوراء منطلقا فى الفضاء مرتطماً بوجهه فى عنف. فعلا الشحوب وجه ملك الشمس ووجه الصّبيّ، وأمسك الإله بجسد هياكينثوس المتداعي وحاول وقف نزيف جُرح الصّبيّ الدّامي، كما أخذ يدلّك أطرافه لكى يبعث فيها دفء الحياة، وحاول إمساك روحه الموشكة على فراق جسده بعقاقير الأعشاب، غير أن محاولات أپوللو راحت كلها سُدى فقد كان الجرح مميتاً لا يُجدي معه دواء، وتدلّى رأس هياكينثوس المحتضر تدلّي زهرة البنفسج فى البستان أو زهرة الخشخاش الجامدة أو زهرة السوسن مُصْفرّة البتلات حين تنكسر ساقها وتفقد صلابتها وتنثني قمّتها متهدّلة محملقة فى الأرض فى انكسار. وخارت قوى الصّبي فاندكّ عنقه بين كتفيه خائراً عاجزاً عن أن ينهض، فقال له فويبوس: «ها أنت ذا يا هياكينثوس تَقْضي نحبك بين يديّ وتفقد عُمرك على مرأى منّي. إن الجرح الذي قضَى عليك يؤنّبني معاتباً، لكن أية خطيئة ارتكبتُها سوى أنني أشركتُك معى فى لُعبة؟ وهل أُلامُ على كَلَفي بك؟ ما أجدرني أن أقضي نحبي معك، لكنني لا أملك أن أفلتَ من قوانين القدر، ولسوف تظلُّ عالقاً بذاكرتي، وسيبقي اسمُك على لساني إلى الأبد ولن يغيب عن فكري أبداً، وستُردّد اسمُك أغنياتي كلما شدوتُ مداعباً أوتار قيثارتي، وستتحوّل أنت إلى نوع جديد من الزهور تُعيد إلى الأذهان نحيبي عليك بما تحمله من اسم. وليأتينّ يوم يرتبط فيه اسم البطل أياكس [أچاكس] أيضا بهذه الزهرة فيُقْرَن اسمه باسمها».

لوحة ٩٥ . پيكار : اختطاف جانيميديس .

وفيما كانت الكلمات تنساب من فم أپوللو الذي هدّه الإرهاق، كان الدم الذي انساب على الأرض ملطّخاً الأعشاب قد تحوّل إلى زهرة، وهو وإن كان قد أخذ شكل زهرة السوسن البيضاء، إلاّ أنه لم يأخذ لونها بل أشرق بلون أحمر أشدّ بريقاً من الأرجوان؛ وهكذا كرّم فويبوس هياكينثوس إذ حوّله إلى زهرة. وإذ لم يقنع بهذا فقد سجّل أساه على بتّلاتها، فحملت زهرة الهياكينثوس حروفاً تنمُّ عن الحزن والرثاء كأنها الآهات «آى. آى». وكم زهت اسبرطه بمولد هياكينثوس على أرضها ومازالت تكرّمه إلى اليوم، ومازال تحتفل بأعياد الهياكينثيا كل عام، وتقدّم عروضها طِبْقا للطقوس القديمة فى احتفالات مهيبة(١٧).

الكيراستيس والپروپيتيديس

وإذا عنّ لنا أن نسأل مقاطعة أماثوس الشهيرة بمناجمها(١٨) عمّا إذا كانت قد أنجبت مختارةً بنات الپروپيتيديس(١٩) الفاجرات لبَرِئت من هذا الوِزْر البراءة كلها، ولبرئت كذلك من أن تكون قد تطلّعت إلى أن تُنجب أولئك الرجال المسمّين بالكيراستيس(٢٠) [نسبة إلى القرون التي تبرز من جباهم] والذين كان يتصدّر بوّابتهم مذبحٌ للإله چوپيتر ربّ الضيافة. ولو شاهد أحد الغرباء هذا المذبح الملطّخ بالدماء لظن أنه قد ذُبحت عليه عجول رضيعة أو حمْلانٌ صغيرة، وما خطر بباله أن رقاب ضيوفهم كانت تُجْزَرُ فوقه قرباناً بشرياً. وفزعت ڤينوس لنحرهم البشر على هذه الصورة البشعة، وأخذت الإلهة الرقيقة أُهبتها لهجر مدنها ومغادرة سهول أوفيوسا(٢١) غير أنها تردّدت، وحدّثت نفسها قائلة: «أى جُرمٍ اقترفَتْه مُدُني والبقاع التي تعلقتُ بها؟ وأية جريرة تلك التي آخذُها عليها؟ من الخير أن ينزل العقاب بهؤلاء الأشرار أنفسهم، فإما أن يُعذَّبوا نفياً أو موتاً أو بعذاب بيْن بيْن، ولمَ لا يكون جزاؤهم أن يتحوّلوا إلى صور تختلف عمّا هُم عليها؟». وفيما كانت آخذة فى التفكير فى تلك الهيئات التي تختارها لهم وقعت عيناها على قرونهم، فحوّلتهم إلى فحول قوية كى يحتفظوا بهذه القرون. وعندما تجاسرت بنات الپروپيتيديس الفاجرات على إنكار ألوهية ڤينوس غضبتْ عليهن، وأصبحن لهذا أولى النساء اللاتى تدنّست سيرتهن باحتراف الدعارة. وإذ فقدن كل إحساس بالحياء وبالقدرة على احمرار الوجه خجلا بدأت الدماء تَجْمُدُ فى وجناتهن فأصبح من اليسير تحوّلهن إلى صخور صُلْبة من حجر الصّوان(٢٢).

لوحـة ٩٦ . پيكار: أپوللو يحـتـضن جـسـد
هياكينثوس بعد موته.

پيجماليون

حين رأى پيجماليون حياة هؤلاء النساء الفاجرات، امتعض مما أودعته الطبيعة فيهن من نقائص مرذولة، وارتضى لنفسه حياة العُزوبة بعيداً عن النساء، غير أنه فى الوقت نفسه سخّر موهبته الفنية الرائعة لنحت تمثال عاجي ببياض الثلج وصاغه على نحو يكون معه أبهَى جمالاً من نساء الأرض قاطبة، فإذا هو يقع فى غرام ما صنعته يداه. كان التمثال يفيض حيوية حتى ليخيّل للمرء أنه يوشك أن يتحرك لولا أن الحياء يُمسك به. ما أروع أن تُضفي البراعة على الفن أسراراً! لقد انبهر پيجماليون بما صنعت يداه، وأخذ قلبه يولع شيئاً فشيئا بهذه المحاكاة لجسد المرأة، فهام بالتمثال ومضى يتحسّسه لا يفتر، ليستوثق مما إذا كان من العاج أم أنه من لحم ودم، وبات بعدُ لا يكاد يصدّق أن التمثال قطعةٌ من عاج فحسب، فكان حين يقبّله يخال أن التمثال هو الآخر يقبّله، ويخال حين يعانقه أن أصابعه تغوص فى لحم يخشى عليه من
٢٦٠ قسوة أصابعه. وكان يخاطبه مستعطفاً ويحمل إليه الهدايا التى تهنأ بها الفتيات، كالأصداف وحصَى الشُّطآن الصقيل، وصغار الطير، والزهور المختلفة والكرات الملونة، وقطرات العنبر [الكهرمان] المتساقطة من الأشجار التى كانت فى الماضي شقيقات فايثون، ثم كسا تمثاله ثياب النساء ودسّ الخواتم حول أصابعه، ولفّ العقود الطويلة حول عنقه، ودلّى اللآلئ من أذنيه، ورصّع بالقلائد صدره. وكان التمثال جميلاً فى حاليْه عارياً وكاسياً، فأضجعه فوق فراش مغطّى بنسيج له لون أرجوان صُور، ووضع تحت رأسه وسائد من زغب البجع وكأنه يوشك أن يتوسّدها. . . وسمّاه ضجيعة الفراش.

ثم بدأت أعياد ڤينوس تقام فى أنحاء قبرص محاطة بالأبهة والجلال، وأخذت العجول متحويّة القرون الموشّاة بالذهب تُنحَر على المذابح وتعمل المدَى فى رقابها البيض، وبدأ البخور يتصاعد فى كل مكان، وجاء پيجماليون يقدّم قربانه ويصلّي خاشعاً إلى جوار المذبح وهو يتمتم: «إذا كان فى قدرتك أيتها الإلهة أن تَهَبي كل شيء، فَهَبي لى القُدرة على الضرّاعة إليك [ولم يجرؤ على التصريح برغبته فى الزّواج من الفتاة المنحوتة فى العاج بل اجتزأ قائلاً]: «امنحيني أيتها الإلهة زوجة على مثال العذراء العاجية». وما أسرع ما فطنت ڤينوس المُثقلة بالحليّ الذهبية والمُحتفَى بها فى هذا الحفل الخاص بها إلى ما يرمي إليه من الضراعة، فطوّحت

لوحة ٩٧ . پيكار : مسخ الكيراستيس ثيرانا
والپروپيتيديس صخورا.

فى الهواء ألسنة من لهب اشتعلت مرات ثلاثاً علامة رضاها وتعاطفها معه. وما كاد پيجماليون يعود إلى داره ويخطو نحو الفتاة المنحوتة تمثالاً ويميل عليها يقبّلها حتى أحسّ بدفء الحياة يدبّ فيها، ومدّ يده يتحسّس صدرها فإذا العاج طريّاً وإذا بَشَرتها تلين للَمْس أصابعه كما يلين شمع هيميتوس[٢٣] من حرارة الشمس وينصاع للأصابع تصوغه فى أشكال مختلفة لأغراض شتّى. وذهل العاشق وكان بين فرحة المصدِّق وشك المرتاب، وأخذ يتحسّس ما كان تمثالاً والذي طالما ضرع من أجله المرّة بعد المرّة ويتلمّس نبضات عروقه. وما إن استوثق پيجماليون فنان پافوس[٢٤] أن التمثال عاد جسماً حيّاً حتى لهج بالشكر لڤينوس. وانكفأ يهصر بشفتيه تلكما الشفتيْن اللتين أخذتا تنبضان بالحياة، وأحسّت الفتاة بحرارة قبلاته فاحمرّت وجنتاها خجلاً واختلست النظر إلى حبيبها، فإذا هى ترى أول ما ترى صفحة وجهه مع بياض النهار فى آن معاً. وأعدّت لهما ڤينوس عُرْساً برعايتها، وبعد أن اكتمل القمر تسع مرات وضعت عروس پيجماليون طفلةً أسْمَتها پافوس، وبهذا الاسم سُمِّيت الجزيرة بعدُ.

مُورْهـا

وأنجبت پافوس ولدها سينيراس الذي ترك من ورائه أسرة ولَيْتَهُ لم يفعل، إذن لكان من السعداء المخلّدين. وإليكم قصةً مروعةً تعزف عنها بناتكم وينأى عنها الآباء حتى لا تبلغ كلماتها مسامعهم، فإن بلغَتْها فلا تصدّقوا ما تحمل من إثم وافترضوا أن هذا الإثم لم يقع، وإذا تراءى لكم أن تصدّقوا فلتصدّقوا أيضاً ما أعقبه من جزاء.

وإذا كان قد كُتب على بيئة أن تَشْقَى ويَشْقَى معها شعبها، فما أسعد إسماروس وأسعد بلادنا ببُعدها بُعداً شاسعاً عن تلك البيئة التي وُلدت فيها تلك الإبنة الكافرة بالمقدّسات. وقد تكون أرض پانشايا[٢٥] زاخرة بالبلسم والقرفة وعُشب الجدوار وبأنواع كثيرة من الزهور يفوح منها عبق الصمغ العربي والبخور. لكن ما جدوى هذا كله إذا كانت هذه الأرض تُنتج المُرّ كذلك، تلك الشجرة الجديدة التي لم تكن جديرة بما بُذل فيها من ثمن آثم باهظ. ثم إن كيوپيد يؤكد أن سهامه لم تُصبْ «مُورْها» بجُرح، ويقول إن مَنْ أصابتها بهذا الداء المعيب هى إحدى

الشقيقات الثلاث[٢٦]، تلك المسلّحة بجمرات من نهر ستيكس وبالثعابين منتفخة الأوداج. وإذا عددنا كراهية الفتاة لأبيها جريمة، فإن عشقها إياه هذا العشق هو جريمة تربُو على جريمة الكراهية.

لقد توافد الخاطبون لطلب يدك من مختلف الأنحاء، وتنافس من أجل الظفر بيدك كلُّ شباب الشرق. ولك يا مُورْها أن تختاري مَنْ شئت مِنْ بين كل الرجال الذين تقدّموا لخطبتك، غير رجل واحد. وأحسّت الفتاة بما يخالجها وجاهدت أن تَخْلُصَ من تلك النزوة التي كانت تتملكها، وناجت نفسها قائلة: ما هذا الذي يُبلبلُ فكري؟ إنني أضرعُ إلى آلهة السماء التي تربط بين الأبناء والآباء بروابط الحب والواجب أن تطرد عن خاطري ما يخامره، وأن تحُول بيني وبين أن أقترفَ ما يُعدّ جُرما حقاً. لكن، أهو حقاً جُرم؟ وهل ثمة فرق بين هذا اللون من الحب وبين ما نُكنّه من حب للآباء؟ إن الحيوان كله ينزو بعضه على بعض ولا تفرقة عنده فى ذلك، وليس ثمة من عار على البقرة حين يعلوها أبوها، ولا من عار على الجواد حين يجعل من ابنته أنثاه، ولا على الجدْي حين يصطفي من سلالته عنزته، وإن ذكور الطير لتسافد فرخاتها. ألاَ ما أسعدَ الحيوان بما يهنأ به، ثم ما أقسَى ذلك الضمير الإنساني بما يفرض من قيود جائرة حرّمت ما أحلّته الطبيعة. ثم.... مازالت ثمة شعوب يقترن أبناؤها بأمّهاتهم، والآباء بناتهم، توثيقاً لروابط الحب بينهم[٢٧]، ولعل حظّي العاثر أننى لم أولد فى بلد من هذه البلاد، وعليّ الآن أن أدفع ثمن مولدي هنا. ولكن، مالي أسترسل فى هذه الخواطر دون إعمال فكري؟ فلأطرح جاهدةً تلك الشهوات المحرّمة. إن سينيراس جديرٌ بحبّي حب البنت لأبيها ولو لم أكن ابنته لتزوّجته، لكنى لا أملك أن أتزوّجه لأنه أبي، وهكذا تُصبح صلة القُربى بيننا هى مبعث بلائي. ولو أنني كنت غريبةً عنه لتحقّقت أحلامي فى يُسْر. ولقد كان من الممكن أن أجد السلوى فى رحيلي من بلدي كى أَخْلُصَ من الشعور بالذنب، ولكن حبّي لسينيراس ورغبتي فيه يقضيان عليّ بأن أبقى إلى جانبه لأملأ عيني منه، ولأتحدّث إليه، ولأسعد بتقبيله إن لم أستطع ما هو أكثر. أيتها الفتاة المارقة، أتتطلّعين إلى إتيان ما هو أبعد من ذلك؟ أتحاولين أن تخلطي الأنساب وتخرقي القوانين؟ أوَ تريدين أن تنافسي أمّك وتضاجعي أباك فتُصبحي أختاً لإبنك وأماً لأخيك؟ أوَ لا ترهبين ربّات الانتقام الشقيقات الثلاث اللاتي تنبت مكان شعورهن ثعابين سُود تتحوّى، واللاتي يخشَى المذنبون ألسنة اللهب التي يُطلقنها من شعلاتهن

لوحة ٩٨ . پيكار : پيجماليون يقع فى غرام تمثاله .

وهن يلوّحن بها فى مواجهة عيونهم ووجوههم؟ فلتأخذي حذرك، ولا تدعي الأفكار الآثمة تُعشّش فى وجدانك مادمت لم تسقطي بعد فى وَهْدة الخطيئة، ولا تحاولي انتهاك قوانين الطبيعة الصارمة بتلك المواطأة المروّعة. وهَبِي أنك عزمت على أن تُقْدمي، فستُجبَهين بالحقيقة لأن أباك يرعى روابط الأسرة حقّ رعايتها ولا يفرّط بما يقضي به العُرفْ. وكم كنت أتمنى لو أن ما أصابني، كان منْ مَسٍّ».

حين رأى سينيراس ذلك الجمع الحاشد من خاطبي ابنته حار فيما يفعل، فأخذ يُعدِّد أسماءهم لها ويسألها عمّن تختاره منهم فلزمت الأميرة الصمت باديء الأمر، ثم حملقت فى وجه أبيها حائرة اللبّ وفاضت عيناها بدمع غزير. وخال أبوها أن ما اعتراها هو من حياء العذارى، فأخذ يجفّف دموعها ويربت على كتفيها لتكفّ عن البكاء، وانحنى عليها يقبّلها فإذا الفتاة تحسّ بمتعة أية متعة، وسألها أبوها: «أى زوج تختارين؟» فزفزت الفتاة وهى تجيب: «زوجاً على مثالك». وحسب الرجل ذلك منها لوناً من ألوان البرّ ولم يفطن إلى ما تُخفي، فقال لها: «كم أتمنّى أن تظلّي بي بارّة»، وأحسّت الفتاة بضميرها يؤنّبها حين سماعها عبارة أبيها فأطرقت برأسها.

وأوى الناس إلى فُرشهم مع منتصف الليل نافضين عنهم همومهم ومتاعبهم لكن إبنة سينيراس لم يغمض لها جفن، وثارت فى قلبها لواعج لا تخمد، واستبدّت بها نزواتها الطائشة ثانية. وكانت تستسلم حيناً لليأس فتستكين خجلة، وتتنازعها الجرأة حيناً فتتحرّق شهوة. ولم تكن تملك أن تختار ولم تعرف ماذا هى فاعلة، فلقد أصبحت أعجز من أن تبتّ بأمر طالما أرّقها وعاشت تحت ثقله تترنّح، مَثَلُها فى ذلك مثل ساق شجرة ضخمة توالت عليها ضربات البلطة وهى تهتز يمنة ويسرة لا تدري على أى جنب ستسقط مع الضربة القاصمة، والحطّابون حولها يرقبون وقوعها. ولم تر «مُورْها» خلاصاً لها من حبها إلاّ بالموت فهو الطريق الوحيد للراحة التى تنشدها، فلفّت حول عنقها الذي قَصُر الدم عن بلوغ شرايينه أنشوطة ثبّتت طرفها بعتبة الباب وقالت وقد أوشكت على التدليّ: «وداعاً سينيراس يا مَنْ هو أعزّ الناس عندي، وما أظنك سيغيب عنك سرّ موتي».

وبلغت كلماتُها سمعَ مربّيتها وكانت ترقد على باب حجرة نومها، فنهضت وفتحت الباب ورأت ما أعدّته مُورْها للانتحار فأطلقت صرخة مدوّية ولطمت صدرها ممزّقة ثيابها، وسارعت إلى حلّ الأنشوطة الملتفّة حول عنق الفتاة مولولة، ثم طوّقتها بذراعيها وأخذت تسألها عن سرّ ما همّت به، لكن مُورْها ظلت صامتة تحملق فى الأرض حزينة لما فاتها من التخلّص من الحياة ولانكشاف محاولتها الانتحار.

وألحّت المربّية العجوز على الفتاة لتكشف لها عن سرّ رغبتها فى الانتحار، وأزاحت وشاحها عن رأسها الأشيب وكشفت ثدييْها الضامريْن الذابليْن وهى تتوسّل إليها وتستحلفها بأيام رعايتها إياها فى مهدها، وباللبن الذى أرضعتها إياه قبل الفطام، أن تُسرّ لها بهمومها، لكن مُورْها لم تفصح عن سرّها وأشاحت بوجهها عنها وهى تئن وتزفر زفرات حارة. وازدادت المربّية إصراراً على أن تعرف الحقيقة، ووعدت الفتاة بأنها ستكون إلى جانبها كما سوف تصون سرّها، وقالت لها: «أسرّي لي بدخيلتك أُقَدِّم لك عوني، فلازلتُ غير متبلّدة
٤٠٠ رغم شيخوختي، وإذا كانت ثمة لوثة قد ألمّت بك، فإني أعرف مَنْ يَشفيك بالتعاويذ والأعشاب، وإذا كان هناك من مَسَّك سحرُه بشَرّ، ففي الطقوس السحرية ما يُخلّصك من هذا الشرّ، وإن كان ما بك من همٍّ مرجعه إلى غضب الآلهة عليك ففى القرابين ضمانٌ لرضَى الآلهة عنك. وليس ثمة شيء بعد هذا، فإنك تعيشين عيشاً رغداً، ناعمة بجوار أمك وأبيك».

وزفرت مُورْها زفرة عميقة حين سمعت كلمة «أبيك» وما خالت المربّية أن فى هذه الزفرة ما يَشين، لكنها أحسّت أن ثمة غراما عارما هو سرّ شقائها، وازدادت عزماً على أن تعرف خبيئة نفسها مهما كلّفها الأمر، فأخذت تتوسّل إلى سيدتها أن تصارحها بأمرها، وضمّت الفتاة الباكية إلى صدرها الذابل بيدين ترتعشان قائلة: ما أعْرفني بسرّك! إن الحب يخفق به قلبك، ولكن لا عليك، فستجدينني إلى جانبك دوماً كلما أعوزك العون ولن أمكّن أباك من أن يعلم شيئاً عنك.

فانتزعت مُورْها نفسها من بين أحضان مربّيتها شاردة الفكر، واستلقت على فراشها وقد غمّت وجهها بالوسائد وهى تصيح: «اغرُبي عني.... وإنى أضرع إليك أن تُخَلّيني وحدي رفْقاً بي، ولا تحاولي أن تكشفي خبيئة عاري». فلمّا عادت المربية تلحّ، ثارت مورْها قائلة:

«إن ما تحاولين أن تعرفيه جُرْم فاضح، فكُفّي عما تحاولين». وهلعت العجوز مما سمعت فارتمت على قدميْ مُورْها ضارعة حيناً بما لها من دالة عليها، ومنذرة حيناً بأنها ستُنهي إلى أبيها خبر ما اعتزمت عليه، وكانت وهي في حديثها إليها تلوّح بيدين مضطربتين بفعل سنّها وجزعها، إلى أن استكانت إليها الفتاة ورفعت رأسها وإذا دموعها تسّاقط على صدر مربّيتها. وكم جهدت في أن تُفصح غير أن شفتيْها لم تنفرجا إلاّ عن كلمات تمتمت بها وهي تستر وجهها بثوبها: «ما أسعدَ أمّي حين ظفرت بأبي زوجاً». . . . ثم تنهّدت، فإذا المربّية يبرد الدم في عروقها، وإذا شعر رأسها الأبيض ينتصب هَوْلاً. لقد أدركت العجوز ما تُخفيه الفتاة فانطلقت تحذّرها من عاقبة رغبتها الشنعاء. وما كان عند الفتاة ما تنقُضُ به رأي مربّيتها، لكن حبها كان عارماً لا يستجيب لنصح، لذا ظلت عاقدة العزم على أن تنتحر إن لم تظفر بأبيها زوجاً. ورثَتْ المربّية للفتاة وأخذت تهوّن عليها ما هي فيه، ووعدتها بأنها ستحقق لها الظفر بما تبغي كي تخلّصها من الموت، لكنها لم تعرض لذِكْر الأب، ولم تعدها بالظفر به، غير أنه على هذا كان وعداً منها للفتاة أشهدت عليه الآلهة.

وحلّ عيد سيريس إلهة الخصوبة الذي تشارك فيه الزوجات جميعاً وترتدين لذلك ثياباً بيضاً ويحملن حُزَماً من بواكير سنابل القمح يقدّمنها للإلهة ويقضين ليالي تسْعا يُجَانبْن فيها الرجال ولا يضاجعن أزواجهن. . وحين خرجت سنخريس زوجة سينيراس تُشارك الزوجات في هذا العيد وخلا الملك إلى نفسه لا زوجة إلى جواره، انتهزتها المربّية فرصة مُتاحة واقتحمت عليه وحدته بعد أن أثقلت الخمر رأسه وحدّثته عن فتاة هائمة به في عُمْر مُورْها، فطلب الملك من المربّية أن تأتيه بها. وما أسرع ما خفّت المربّية الى مُورْها تحمل إليها البُشرى، لكن الفتاة ما كادت تستمع إليها حتى تولاّها شعور مزيج بين فرحة الظفر ومرارة الخطيئة، وظلت متردّدة بينهما لا تدري بأيهما تأخذ، غير أن شعورها بالفرح كان غلاّبا. وحين خيّم السكون على الكون وأخذت كوكبة العواء طريقها بين كوكبتيْ الدب الأكبر والدب الأصغر، خطت مُورْها إلى الإثم، فإذا القمر اللألاء ينحدر إلى مغيبه، وإذا النجوم تُغشّيها سُحُب كثيفة معتمة، وإذا الليل تخمد جذوة جمراته، وكان أول نجم ولّى هو نجم إيكاروس، وولّت إثره ابنته النجمة إريجُونيه التي لم تبلغ منزلتها في السماء إلاّ لحبها الطاهر لأبيها. ولقد تعثّرت مُورْها التعسة في طريقها مرات ثلاثا، وكانت البومة في كلّ عثرة تعثرها تحذّرها بنعيقها

الكئيب، غير أن مُورْها لم تُلْقِ إلى ذلك بالاً، ولم تُبالِ بوخز ضميرها، ومضت تُمسك بيسراها يد مربّيتها متلمّسة بيمناها طريقها وسط الظلام الدامس، إلى أن بلغت مخدع سينيراس وجازت الباب إلى حيث يرقد بخُطى ثقيلة شاحبة الوجه قلقة هلعة، وإذا شعورٌ بالندم يكاد يردّها عما أقدمت عليه، ولقد همّت أن تفعل وهى لم تستبن أمرها بعد.

وأحسّت العجوز منها ذلك فاجتذبتها من يدها، واقتادتها إلى مخدع الملك المهيب، وأسلمته الفتاة قائلة: «ها هى ذي لك يا سينيراس»، ثم تركت الآثمين وحدهما. وضم الرجل إليه فلذة كبده على فراشه الدّنس، وأخذ يُهدّىء من روعها ويطمئنها وآثر أن يناديها «يا ابنتي» لعلوّ سنّه، وإذا هى الأخرى تناديه «أبتاه»، وهكذا اجتمع الاسمان على أمر محرّم.

وغادرت مُورْها مخدع أبيها وفى رَحِمها الدّنسة استقر الجنين الذي كان ثمرة الخطيئة. وفى الليلة التالية عاود الاثنان إثمهما، وتشوّف سينيراس إلى أن يعرف عشيقته التي ضاجعها مرات عدة، فأشعل مصباحاً وإذا هو يتبيّن فى ضوئه وجه ابنته، وإذا هو تتراءى له بشاعة جريمته، وتولاّه جنون فنهض إلى سيفه يستلّه من غمده المعلّق، فهرولت مُورْها هاربة فى جنح الظلام لتنجو من موت محقّق، هائمة فى أنحاء مملكة أبيها الفسيحة حتى خلّفت وراءها نخيل بلاد العرب وحقول پانشايا.

ولقد شهدت مورْها القمر يكتمل مرات تسعاً خلال رحلة هامت فيها على غير هدى، وأدركت بلاد سبأ بعد أن أصابها الإرهاق ولم تعد تقوَى على احتمال ثقل حملها، وأحسّت نفسها موزّعة بين رهبة الموت والنفور من الحياة. ولم تعرف ماذا تلتمس من الآلهة أن يحقّقوه لها فأخذت تدعو: «أيتها الآلهة إذا كنتم تصغون لضراعة المذنبين فإني أعترف بأنني جديرة بهذا المصير، وما أرْضاني بما يلحقني من عقاب صارم، لكني غير راغبة فى أن أدنّس الأحياء ببقائي بينهم، ولا الموتَى بذهابي إليهم، وإنني لأتوسّل إليكم أن تذهبوا بي بعيداً عن مملكتَىْ الموتى والأحياء، وأن تمسخوني كائناً آخر تمتنع عليه الحياةُ والموت معاً». ولم تذهب ضراعاتها عبثاً إذ كان ثمة إله يتولّى المذنبين، فإذا الأرض تتجمّع حول ساقيْها وتنشقّ أظافر أصابع قدميها عن جذور رفيعة تنغرس فى الأرض، وإذا هى ساق شجرة شامخة، وإذا عظامها تَخْشَوْشِب وإن احتفظت بنخاعها، وتحوّل دمها إلى عصارة نباتية، وأصبحت ذراعاها غصوناً ممتدة

لوحـة ٩٩ . پيكار : مـورها وقـد تحـولت إلى
شجرة، وما تلبث أن تلد أدونيس.

وأصابع يديها فروعاً صغيرة، وجفّ جلدها وغدا لحاءً طَوَى رحم الفتاة بما فيها كما لفّ صدرها، وحين أوشك على بلوغ عنقها سارعت مُورْها فغمست وجهها فى طيّات اللحاء، ولم يبق لها من آدميتها غير أدمعٍ مُرّة ظلت تذرفها وظلت حديث الناس بعدُ، وحملت اسم المُرّ.

وبلغ الجنين مبلغه وهو مكنون فى جوف الشجرة، وكم حاول أن ينفذ إلى الحياة، وكم عانت مُورْها من آلام حين ضاق بها جذع الشجرة لكنها لم تملك الإفصاح عما تحسّ، كما لم تملك أن تفزع إلى الإلهة لوكينا لتأخذ بيدها فى وضعها. وأحسّت الإلهة لوكينا بشجرة تتلوّى وتنبعث منها زفرات متّصلة وتندّى بفيض تلك الدموع المنهمرة، فخفّت تُعين الشجرة فى محنتها ومسحت بيدها عليها وهى تتمتم بتعويذة الوَضْع، فانشقّ الجذع وخرجت من خلل اللحاء ثمرة تنبض بالحياة وتصرخ صراخ وليد قد أهلّ، وأسرعت الحوريات يتلقّين الطفل ووضعنه فوق العشب الغضّ بعد أن غسلنه بدموع أمه. ولقد كان الوليد فى جمال كيوپيد الذي يبدو عارياً فى لوحات المصوّرين، ليس ثمة من فارق بينهما غير جعبة السهام التي يحملها كيوپيد، حتى أن ربّة الحسد نفسها انصاعت لإطرائه.

أدونيس وڤينوس. أتالانتا وهِيپّومِينيس

ومرّت الأيام فى تعاقبها وما باليَ بها أحد فما أسرع ما تمضي السّنون، وما لبث أن كبر الطفل الجميل الذي يقال إن أخته أنجبته من جدّه، والذى كان خبيئاً فى جذع الشجرة إلى عهد قريب. وها هو ذا يغدو شاباً غضّ الإهاب، ثم ها هو ذا قد صار رجلاً يفتن بجماله ڤينوس وإذا هو يعقد العزم على الانتقام منها لما أشعلته فى أمّه من شبق. فلقد تصادف أن اقترب كيوپيد وهو يحمل جعبة سهام الحب من أمه ڤينوس ليقبّلها فإذا هو يخدش عن غير قصد أعلى صدرها بطرف سهم كان يبرز من كنانته، فدفعت ڤينوس بابنها بعيداً حين أحسّت ألم الجرح الذي لم تُدرك لأول وهلة مدى عمقه. غير أن افتتانها بجمال شاب من البشر الفاني هو أدونيس أنساها رعاية شطآن جزيرة كيثيرا[٢٨]، كما لم تعد تتردّد كثيراً على جزيرة پافوس، تلك الجزيرة التي كانت قد أحاطتها بنطاق من المياه العميقة، ولا شبه جزيرة كينيدوس[٢٩]

لوحة ١٠٠ . پيكار: كيوپيد يصيب أمه ڤينوس بسهم الحب عن غير قصد فتقع فى غرام أدونيس.

الغنية بالأسماك، ولا على أماثوس الحُبلَى بالمعادن، كما لم تعد تظهر فى السماء إذ فضّلت صُحبة أدونيس على السماء.

والتزمت ڤينوس برفقة أدونيس تصحبه أنّى ذهب، وهجرت ما تعوّدَتْه من الاسترخاء فى ظلال الأشجار والعناية بجمالها وزينتها، وانطلقت تجول فى الغابات والجبال مشمّرة ثيابها إلى رُكبتيها على غرار ديانا إلهة الصيد. وأخذت ڤينوس تستحثّ كلاب الصيد وتطارد الحيوانات سهلة القنص كالأرانب البرّية السريعة العدو والغزلان والوعول شامخة القرون، لكنها تجنّبت الخنازير البرّية الوحشية، ولم تخاطر بالتعرّض للذئاب المتلصّصة والدببة حادّة المخالب والأسود التي تحيا على لعق دماء البهائم، وحرصت على نُصح أدونيس باتّباع نهجها محذّرة إياه من الوحوش، مؤمّلةً فى أن يُصْغي إلى نُصحها، قائلة له: «كن جسوراً حين تَلْقَى الفريسة التي تفرّ منك، ولا تأمن الحيوانات التي تتصدّى لك. ولا تكن طائشاً حتى لا أغدو تعسة بعدك يا فتاي الحبيب. لا تعرض للكواسر التي زوّدَتْها الطبيعة بأسلحة تتجاوز قدرتك حتى لا أدفع أنا غالياً ثمن ما تتشوّف إليه من مجد وفخار، فليس لشبابك وجمالك وسحرك الذي يفتن ڤينوس تأثير على الأسود والخنازير البرّية مشعّثة الشّعْر، فهذه السّمات لا تُرْهِب الوحوش ولا تُصيبها بالذعر، ثم إن الخنزير البرّي كالبرق فى انقضاضه بمخالبه، كما أن الأسد إذا أثير يتحفّز دوماً للهجوم. لشدّ ما أمقت كل هذه الفصائل من الحيوانات».

عندها تساءل الفتى عن سرّ كراهيتها لهذه الحيوانات فأجابته قائلة: سأقصّ عليك ما يثير دهشتك إذا ما استمعت إلى قصة تلك الجريمة التي وقعت أحداثها منذ أمد بعيد. هاهى ذي شجرة حَوْر يدعونا ظلّها الوارف إلى أن نتفيّأه، فلأضطجع تحتها إلى جانبك، فإن ما أبذله من جهد لم أعتد القيام به قد أصابني بالإرهاق». وتمدّدا على العُشب ووضعت ڤينوس رأسها على صدر أدونيس وأخذت تقصّ قصّتها وهى تبادله القبلات: «لعلك سمعت بنبأ الفتاة التي كانت تنافس الرجال فى العَدْو وتبزّ أكثرهم مهارة. وليست هذه بقصة خرافية فقد كانت أتالانتا[٣٠] تسبق الرجال جميعاً، ولم يكن من السهل معرفة سرّ الإعجاب بها، أكان لخفّة قدميها فى العَدْو أم لسحر جمالها الفريد. وقد استشارت يوماً أبوللو فى أمر زواجها، فقال لها: «لست بحاجة إلى زوج يا أتالانتا ومع ذلك فلن تُفْلتي من الزواج، ولسوف تتحوّلين إلى كائن آخر دون أن يدركك الموت». وإذا الخوف من هذه النبوءة يتولاّها، فلجأت إلى الغابات تحيا فى

لوحة ١٠١ . پيكار : ڤينوس وأدونيس يتجوّلان
في الغابة .

ظلالها بعيدة عن إلحاح الخاطبين الذين فرضت عليهم شروطاً قاسية قائلة لهم : «لن أتزوج إلاّ بمن يسبقني فى العَدْو، فلتباروني وسوف يظفر بيدي وبفراش عُرْسي مَنْ يتقدّمني، على أن يدفع المهزومون حياتهم ثمناً للمغامرة. تلك هى شريعة السّباق».

ولم يُحْجم الخاطبون على الرغم من قسوة شروطها عن هذا السباق، فقد كان سلطان جمال أتالانتا طاغياً يجتذب الكثيرين، وجلس هيپومينيس وسط المشاهدين يرقب هذا السّباق غير المتكافيء وينُحي باللائمة على هؤلاء الشبان الذين استسلموا لعواطفهم متسائلاً فى سخرية: «كيف يرضَى رجلٌ بأن يعرّض حياته لمثل هذا الخطر من أجل الظفر بزوجة»! وما كادت عيناه تقعان على وجه أتالانتا وجسدها بعد أن أزاحت عنه غلائله - ورأى قوامها مثل قوامي أنا ڤينوس أو مثل قوامك أنت يا أدونيس لو غدوتَ أنثى - حتى ذهل وصاح رافعاً ذراعيه: «فليغفر لي أولئك الذين أنحيتُ عليهم باللائمة منذ حين، فلم أكن أعرف قدر الجائزة التي من أجْلها يتبارون». واتصل إطراؤه للفتاه حتى تحوّل إلى افتتان بها، وتمنّى ألا يسبق أتالانتا أحدٌ من الشّبان فقد أثارت فيه غيرته الخوف من أن يفوز بها غيره، وقال لنفسه «لمَ لا أجرّب أنا الآخر حظّي فى السباق؟ فالآلهة لا تناصر إلا الجسور غير الهيّاب». وانطلقت الفتاة بخُطُوَات مجنّحة تطوي المسافات أمام الشاب البُويوتي كأمضَى سهم من سهام سكوثيا فزاد إعجابه بها. ولقد زادها السّباق فتنة إذ تطايرت فى الريح أربطة حذائها خلف قدميها، وتموّج شعرها فوق كتفيها العاجيّين، وخفقت الشرائط المطرّزة التي تزيّن ساقيها، واكتسى بياض بَشَرتها العُذري بحُمرة قانية كجدران المرمر المغطاة بغلالات قرمزية فى فناء دار رومانية. وانتهى الشوط الأخير وظفرت أتالانتا بقصب السَّبق، وأرسل المهزومون الزفرات والعقاب يَنْزِلُ بهم. وعلى الرغم من أن هيپومينيس شهد مصرع المتسابقين الحاسم فإنه تقدّم إلى الأمام وتوسّط الجَمْع محملقاً فى الفتاة وهو يقول: «لماذا تسعين وراء الفوز وأنت تستطيعين بلوغه فى يُسْر؟ ولماذا تحاولين التغلّب على منافسين ثقيلي الخُطَى وهم على غير دُرْبة كاملة؟ فلنتبار معاً فإن كَتَب لى الحظُّ النصرَ فلن تَشْعُري بالخجل من هزيمتك أمام رجل فى مثل منزلتي، فأنا ابن أونخيستيوس من ميجارا سليل نپتون وآخر أحفاد ملك البحار، وليس إقدامي أقلّ شأناً من شأن مَحْتدي، أما إذا كان الظفر على هيپومينيس من نصيبك أنت فسوف تنالين مجداً وتعمّ شهرتك الآفاق..». والتفتت إليه إبنة إسخوينيوس فى حنان، ولم تعد تدري أتتمنّى فوزها أم

لوحـــة ١٠٢ . پيكار: مـــباراة السّبـــاق بين
هيپومينوس وأتالانتا.

هزيمتها أمامه، وحدّثت نفسها قائلة: «هل من إله يتنكّر لصاحب هذا الوجه الجميل فيُغريه بطلب يدي حتى ولو كان فى ذلك حتفه؟ ما إخالني أهلاً لهذا، وإنني لأحسّ برجفة تخالج قلبي من أجله ليس مبعثها وسامته رغم ما له من سحر يهزّ القلب بل لأنه ما يزال فتيّا، فشبابه الغضّ لا جماله هو الذي يُثير شفقتي، ثم إنه شجاع لا يرهب الموت، كما أنه من الجيل الرابع من سلالة حاكم البحار، وإلى هذا كله فهو يحبّني ولا يبخل عليّ بثمن ليظفر بالزواج مني ولو كان ذلك الثمن حياته إذا لم يُسْعفه القدر بالفوز. ألا فلتبتعد أيها الغريب قبل فوات الأوان، ولتنأ عن سرير زفافي الملطّخ بالدم، فما أقساها من شروط تلك التي فرضتُها لزواجي. ولسوف تجد غيري من الفتيات راغبات فيك وأنت الجدير بإعجابهن، لكن مالي أقلق عليك دون غيرك ممن سبقوك إلى الموت، والخَطْب يعنيك ولا يعنيني؟ لتلق جزاءك إذا لم يكن لك فيمن سبقوك عظة، وقد يكون موتك من أجل رغبتك فى الحياة معي، لكن هل يكون هذا جزاء حبّك لي؟ لسوف يثير موتك بُغض الآخرين لي، ولكن ما جريرتي أنا؟ هلاّ عَدَلْت عن السّباق للظفر بي، فما أشدَّ نزقك، فكم هى جميلة قسماتك النضرة التي تشبه قسمات الغيد الحسان. ليتك لم ترني يا هيپومينيس المسكين فما أحقّك بأن تحيا، ولو أني كنت من المحظوظات ولم يقف القدر حجر عثرة فى سبيل زواجي، لكنت أنت الرجل الوحيد الذي أسعد به شريكاً لحياتي». ولم تدر أتالانتا الغرِّة التي لا تجربة لها بما حدث لها بعد أن مسّتها سهام إله الحب للمرة الأولى، فلقد وقعت دون أن تدري فى شراك الغرام.

احتشد الشعب والقادة مطالبين ببدء السباق المعتاد، فإذا هيپومينيس سليل نپتون يقصدني طالباً العون وهو يقول: «أضرعُ إليك يا ربّة كيثيرا أن تُعينيني فى مغامرتي الجسورة، وأن تؤجّجي فى قلبي نيران الحب التي أشعلتها أنت فيه». وحملت الأنسام الرقيقة ابتهالاته إليّ ومسّت قلبي فلم أتردّد فى مدّ يد العون إليه، وكنت لَحْظتئذ آتية من أجمل بقاع جزيرة قبرص، من حقل تاماسوس الذي أهداه إليّ شيوخ الجزيرة لينضمّ إلى معبدي، وإن فى وسطه لشجرة ذهبية لفروعها رنين المعادن. وكنت أحمل فى يدى ثلاث تفاحات ذهبية من تفاح هذه الشجرة، فأسرعتُ إلى هيپومينيس مختفيةً عن الجميع إلاّ عنه وحده، وأعطيته التفاحات الثلاث، وهمستُ إليه بأمرٍ طلبتُ منه تنفيذه.

وآذن البوق ببدء السباق، وانطلق المتسابقان من نقطة البداية وطارا مُسْرعيْن لا تكاد تمسّ أقدامهما سطح الرمال، فَبَدَوَا وكأنهما يستطيعان الجَرْي فوق سطح الماء دون أن تبتل أقدامهما، أو فوق أعواد القمح الدقيقة المنتصبة دون أن تنثني، واشتدّت جرأة الفتى وسط هتافات النظارة الذين كانت قلوبهم معه، فانبروا يشدّون من أزره صارخين: «فلتُسْرع يا هيپومينيس ولتبذل أقصى جهدك، ولأنتَ الفائز». ولعل ابنة إسخوينيوس كانت أكثر سعادة بهذه الهتافات من ابن ميجارا البطل. وكم من مرة تَبَاطَأَتْ أتالانتا عنه وهى قادرة على سبقه، تُطيل النظر إليه قبل أن تخلّفه وراءها على مضض.

وأخذت شفتا هيپومينيس تجفّان من الإرهاق وأنفاسه تتلاحق والهدف ما يزال بعيداً، فقذف بإحدى التفاحات الذهبية الثلاث فأُخذت الفتاة ببريقها وتوقّفت ذَهِلَةَ، ثم انحرفت عن مسار السباق لتلتقط تلك التفاحة الذهبية اللامعة مشغوفةً بها. فانفسح المَجال أمام هيپومينيس لكى يتقدّم الفتاة فدوّت أكُفّ النظارة بالتصفيق، واضطرت أتالانتا إلى مضاعفة جهدها لتعوّض ما فاتها، وقد نجحت فى أن تسبق الفتى وتخلّفه وراءها. ومرة ثانية تمكّن هيپومينيس من صرفها عن الطريق بإلقاء التفاحة الثانية، غير أنها وُفّقت هى الأخرى فى اللحاق به ثم سبقته بعد الظفر بالتفاحة الثانية. وبقى الشوط الأخير، وانبرى الشاب يتضرّع صائحاً: «أيتها الإلهة، يا مَنْ وَهَبْتني هذه الهديّة، كوني الآن فى عَوْني»، ثم استجمع قواه وألقى بالتفاحة الذهبية الثالثة إلى طرف حلبة السباق لتبذل الفتاة وقتاً طويلاً فى الظفر بها قبل أن تعود إلى مسار السباق، واضطربت الفتاة وحارت فى أمر هذه التفاحة، أتجري وراءها أم تتركها؟ غير أن ڤينوس دفعتها وراءها. وحين التقطت الفتاة التفاحة زادت الإلهة من ثقلها كى تعوق خطواتها، وهكذا حاقت الهزيمة بأتالانتا فتزوّجها هيپومينيس بعد أن كُتب له التفوُّق عليها».

غير أن الشاب النّزق أُنسى صنيع الإلهة ڤينوس ولم يتّجه إليها شاكراً ولم يحرق لها البخور، فإذا هى عليه غاضبة لتفريطه، وأقسمت لتجعلنّ منه عظة للآخرين حتى لا يسلكوا مسلكه، ولتنزلنّ بهما العقاب معاً.

وبينما هيپومينيس وأتالانتا يمرّان بجوار المعبد المتواري فى أعماق الغابة والذي كان إخيون[٣١] الشهير قد نذر تشييده لأم الإلهة، كان الجهد قد بلغ منهما بعد أن اجتازا مسافة

طويلة على الأقدام، فـأحـسّا برغبـة أن يأويا إليـ فـيـستـريحـا قليـلاً، فإذا ڤينوس تُحـرّك فى هيپومينيس الرغبة لمضاجعة زوجته، وإذا هو ينزوي بها فى محراب معتم مسقوف من الأحجار الطبيعية وحجر الخفاف له قدسيّته منذ عهد بعيد ويضمّ العديد من تماثيل الآلهة الخشبية. واستسلم هيپومينيس لرغبته، وإذا هو قد دنّس المحراب، وإذا التماثيل تَزْوَرُّ عنه بوجوهها. وكادت أم الآلهة كوبيلي ذات التاج متعدّد الطّبقات أن تُغرق الآثمين فى مياه ستيكس لكنها رأته جزاء دون ما يستحقان، وآثرت أن تُغشيّ رقبتيهما بشعر أسود وأن تُبْدلهما عن أصابعهما بمخالب، وأن تحوّلهما إلى حيوانين يعتمدان على صدريْهما، ومدّت لهما ذيليْن ينسحبان على وجه الرمال، ورسمت وجهيْهما بالعبوس والقطوب، وجعلت حديثهما عواء، وأسكنتهما الغابات التي غدت مأواهما الوحيد إذ قد أصبحا أسديْن يثيران الرعب فى قلوب الناس. غير أن كوبيلي ما لبثت أن روّضتهما فشدّتهما إلى مركبتها يقضمان شكيمتيهما. فحذار يا حبيبي الغالي أدونيس من أن تقرب منهما، بل عليك أن تفرّ منهما كما تفرّ من جميع فصائل الوحوش الضّارية التى لا تولّي هاربة بل تهاجم مَنْ يعترض طريقها، وحذار من أن تكون شجاعتك سببا فى هلاكنا نحن الاثنين معاً».

وحلّقت ڤينوس فى الأجواء منطلقة بمركبتها يقودها البجع بعد أن حذّرت أدونيس، غير أن الشجاعة قد لا تُجدي معها التحذيرات، فلقد لمح أدونيس خنزيراً برّياً كانت كلاب الصيد قد اقتفت أثره وأثارته فخرج من جُحْره وكاد أن يخرج من الغابة، فأنفذَ فى جنبه رُمْحَه بطعنه قاتلة، وأسرع الحيوان فنزع الرمح الدامي بخطمه المتدلّي، فدبّ الذعر فى قلب أدونيس وانطلق يبحث عن مأوى، غير أن الخنزير الوحشي تعقّبه وعضّ فخذه قريباً من خصيْته فسقط يتلوّى محتضراً فوق الرمال وحيداً.

وبلغ أنين أدونيس سمع ڤينوس التى لم تكن مركبتها الخفيفة ببجعاتها المجنّحة قد بلغت بها قبرص بعد، فأدرات طيورها البيض واتجهت إليه، ولمحته عن بُعد منقوعاً فى دمائه فاقد الوعى. وقفزت من مركبتها إليه وشقّت ثوبها عند صدرها وشدّت شعر رأسها، وجعلت تضرب صدرها بيديها اللتين لم تُخْلَقا لمثل هذا العنف، وانبرت تلوم الأقدار وصاحت فيها قائلة: «لا، لن يخضع لكُنّ كل شيء. ولسوف يبقى أدونيس ذكرى حزن خالد إلى الأبد.

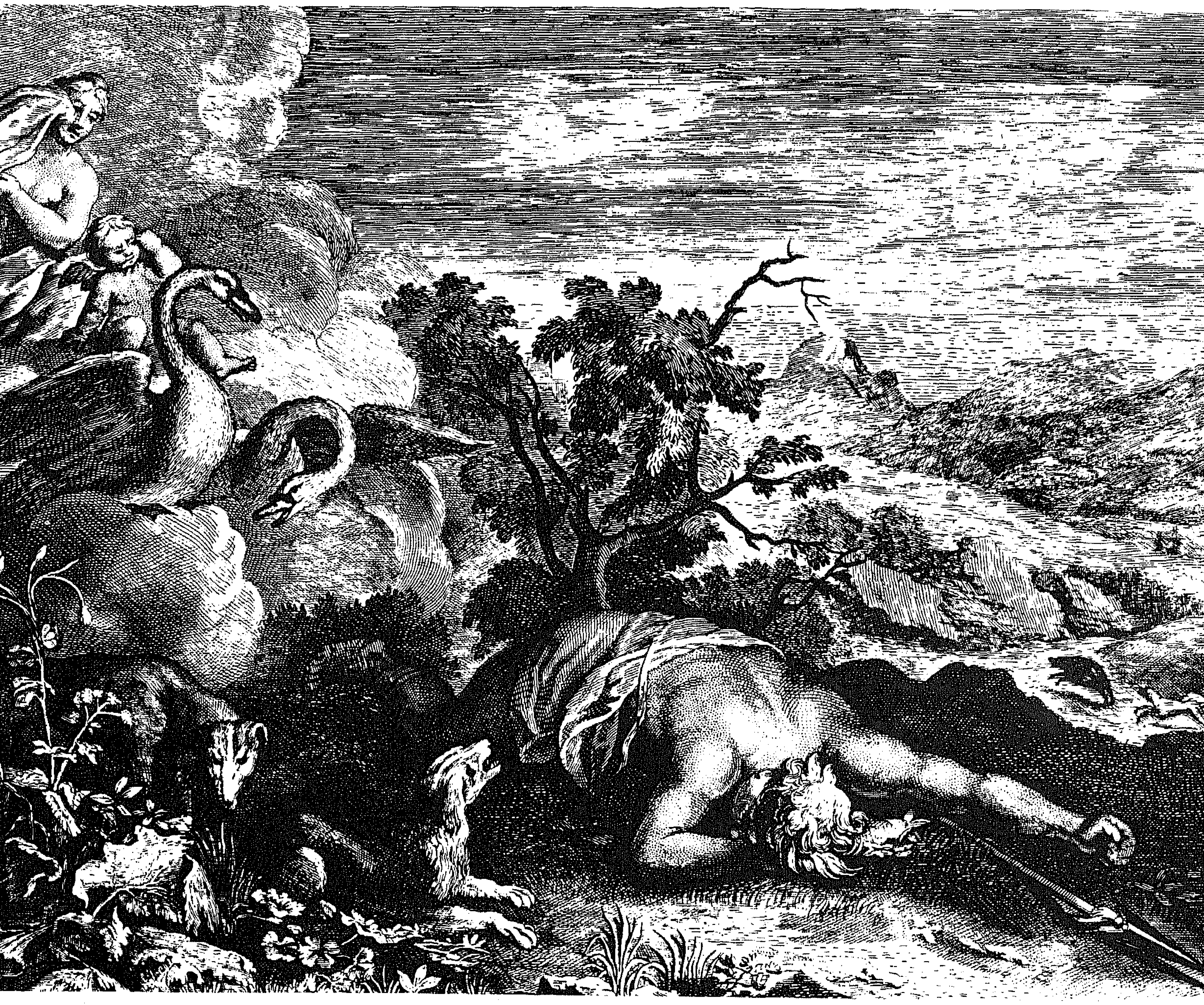

لوحــة ١٠٣ . پيكار: الخنزير البــرّى يصــرع
أدونيس، وعودة ڤينوس بمركبتها الطائرة
التى تجرّها البجعات المجنّحة عند سماعها
النبأ المشؤوم.

وسوف يُمثَّل كل عام مشهد موتك يُذكِّر بما كان فيه من نُواحي(٣٢) عليك . ولتنبثقنّ زهرةٌ من دمائك . لقد استطعت يا پيرسيفوني أن تحوّلي امرأة إلى نبتة نعناع عطرة ، فهل أُلام إن أنا أسبغتُ على حفيد البطلِ العظيم سينيراس هيئة جديدة؟» .

ثم صبّت ڤينوس على دم أدونيس بعد هذه المناجاة نكتارا عطراً لم يكد يمّسه حتى غلى الدم وتصاعدت منه فقّاعات صافية كالفقّاعات الشّفافة فوق المياه المُصْفرَّة فى الأماكن الضحلة الموحلة . ولم تكد تمضي ساعة من زمان حتى انبثقت من الدماء زهرةٌ بلون الدّم شبيهة بزهرة الرمّان التى تُخفي بذورها تحت لحائها ، غير أن المتعة التي تهبها هذه الزهرة قصيرة العمر لأنها زهرة رقيقة واهنة الساق تعصف بها الريح التي خلعت عليها اسمها ، وهى زهرة شقائق النُّعمان(٣٣) .

الكتاب الحادي عشر

الكتاب الحادي عشر

مـوت أورفيـوس

عندما انطلق الشاعر الطّراقي يتغنيّ مُوقِّعاً على قيثارته بأنا شيده التي سحرت الصخور والغابات وروّضت الحيوانات الآبدة أطلّت عليه نساء كيكونيا[١] عابدات باكخوس المجذوبات من فوق قمة التل، وصاحت إحداهن وشعرها يتطاير في الهواء: «ها هو ذا من يستخفّ بنا» وسدّدت حربتها[٢] إلى الفم الرخيم لشاعر أپوللو، غير أن الحربة لم تُصبه بأذى لما علق بطرفها من أوراق الأشجار. وقذفته أخرى بحجر كبير، فسقط عند موضع قدميه مأخوذاً بروعة غنائه وشدو قيثارته، دون أن ينال منه وكأن لسان حاله يعتذر عن حُمق من ألْقَى به. وتوالت قذائف النسوة وقد تولّتهن ثورة غضب محموم، فإذا ما قذفن به يطيش بسحر أغنيات أورفيوس، وإذا صياحهن الصاخب وأنغام النايات الفريچية المختلطة بأصوات الأبواق الناشزة والطبول ولطم الصدور تحجب صوت أورفيوس وقيثارته، وإذا قذائف نساء كيكونيا تصيب الطيور العديدة والأفاعي الزاحفة التي كانت تدور بالشاعر مبهورة بصوته الشّجيّ، مثلما تصيب الحيوانات الأخرى التي خفّت إلى الاستماع لغنائه فولّت هاربة، وإذا دم الشاعر الأعزل ينزف صابغاً الحجارة بلونه القرمزي. وتدافعت النساء نحو الشاعر وكأنهن طيور النهار حينما يلمحن طيرَ

لوحة ١٠٤ . پيكار: عـابدات باكـخـوس يُسَدِّدن الحربة إلى فم الشاعر أورفيوس وهو ينشد أغانيه على أنغام قيثارته.

اللّيل يحلّق بينهن، أو كمجموعة من الكلاب المسعورة تنقضّ فجراً فى ساحة المسرح المدرّج على فرائسها من الأيايل البريئة تنهشها نهشا، يُلقي بعضهنّ بالحجارة وبعضهنّ بأغصان الأشجار التي انتزعنها. وأثار تجمّعهن الخوف فى نفوس المزارعين الذين كانوا يسوقون ثيرانهم ليحرثوا أرضهم ويفلحوها بفؤوسهم ومعاولهم ومَدَمّاتهم[٣]. وأسرع النسوة المجذوبات نحو الفؤوس فمزّقن بها الثيران التي تهدّدهم بقرونها، ثم اتّجهن نحو الشاعر أورفيوس الذي مضى يتوسّل إليهن أن يتركنه وشأنه، لكنه فشل فى استدرار عطفهن، وسدّدن إليه ضربة قاضية فانطلقت روحه هائمة من بين شفتيه اللتين اجتذبتا بغنائهما الحيوان والشجر والحجر، ومضت تحملها الرياح.

انسابت دموع الحزن من مآقي الطير والوحش والصخر والغابات الكثيفة التي كانت تتبعه حيث يغنّي، وتساقطت أوراق الأشجار التي راحت تبكي الشاعر فإذا الأغصان جرداء عارية، بل لقد قيل إن الأنهار بدورها ذرفت الدمع وفاضت به، كما مزّقت حوريات الأنهار والجبال شعورهن وارتدين ثياب الحداد ذوات الحواف السود.

وتناثرت أعضاء الشاعر فى أماكن مختلفة، غير أن نهر هبروس احتضن رأسه وقيثارته اللتين طَفَوَا فوق الماء. عَجَبًا! لقد ظلّت الألحان الشّجيّة تصدر عن القيثارة، ولسان الشاعر ما يزال يتمتم بالغناء والنهر يُرجّعُ صدَى أنغامهما. وما لبثت الرأس والقيثارة أن اندفعتا إلى البحر الفسيح حتى بلغتا شاطيء جزيرة ليسبوس قرب ميثيمنا. فاقتربت أفعى رهيبة من الرأس الغريبة المطروحة على الشاطيء والمغطّاة بشعر خالطه زبد الموج الأبيض، وأوشكت الأفعى أن تلتهمها لولا أن ظهر أپوللو وحوّلها إلى صخرة جامدة ما تزال تحتفظ بفم الأفعى الفاغر. ومضى طيف أورفيوس إلى العالم السفلي فإذا هو يتعرّف على الأماكن التي سبق له رؤيتها، وانطلق باحثاً عن زوجته يوريديكي حتى وجدها فعانقها فى شوق الملهوف، ومضيا يتجوّلان معاً، يسبقها تارة ويتبعها أخرى، ويطيل إليها النظر بين الفينة والفينة دون أن يخشى شيئاً هذه المرة.

وحزن باكخوس أعمق الحزن على موت الشاعر عذب الألحان، وقضى ألاّ تمرّ جريمة قتله دون عقاب، فثبّت نساء طراقيا فى الأرض إذ غرس سيقانهن فى أعماق الثّرى بعد أن أحالها جذوراً صلبة، فأصبحن كالطيْر شُدّت قوائمه فى الشّراك فأخذ يضرب بأجنحته للخلاص من القيْد فإذا هو يزيد إحكامه كلما زاد خفقها. انتاب نساء كيكونيا الذّعر وأصابهن الجنون وهن

يحاولن الخلاص دون جدوى، وكان رسوخ أقدامهن فى الثّرى يَجْمُدُ بهنّ عن أن يتحرّكن، وأخذت كلٌّ منهن تمدّ يدها لتتحسّس قدميها وأصابعها وأظافرها فإذا هى لا تجد غير لحاء الشجر يلتف حول ساقيها الرشيقتين، وجعلن يضربن أفخادهن فإذا هى قد صارت خشب بلوط، فتولاّهن أسىً عميق. ولم تلبث أثداؤهن وأكتافهن أن تحوّلت أيضاً إلى بلوط، وأصبحت أذرعتهن أغصاناً طويلة، ولم يكن ذلك وَهْماً طاف بخيالهن، بل حقيقة مفزّعة.

ميـــــداس

لم يكتف باكخوس بما فعل، وإذ لم تهدأ نفسه هَجَر طراقيا مصطحباً معه ثلّة من أتباعه المعربدين، ليزور كروم [جبل] تمولوس التى يُؤْثرها، ونهر پاكتولوس الذي لم يكن قد سال ذهباً بعدُ ولم تكن رمال قاعه النفيسة قد أصبحت مثار حسد الحاسدين. وسهر على خدمته حشدٌ من كاهناته ورهط من الساتير غاب عنه سيلينوس. ذلك أن فلاّحي فريچيا كانوا قد ألقوا القبض عليه حين شاهدوه يسير بينهم مترنّحاً بفعل الخمر والشيخوخة، فقيّدوه بسلاسل من زهور، واقتادوه إلى ملكهم ميداس الذى كان أورفيوس الطّراقي وإيومولپوس الأثيني من بعده قد لقّناه أسرار عقيدة باكخوس، حتى إذا عرف ميداس أن سيلينوس صفيٌّ للإله وشريك له فى الأسرار احتفى به عشرة أيام وعشر ليال على التوالي. وفى اليوم الحادي عشر عندما كان «لوسيفر» نجم الصباح يُهْدي قطيع النجوم إلى ما وراء السماء مضى الملك إلى ليديا مُشْرِقَ النفس، وردّ سيلينوس إلى ابنه الأثير المُتبنَّى.

١٠٠ وغمرت الإله باكخوس الفرحة لعودة مُرشده وراعيه سيلينوس ورأى أن يكافيء ميداس تاركاً له حريّة اختيار ما يشاء، غير أن اختيار ميداس لسوء حظه كان ينطوي على ما يكمن فيه شقاؤه، إذ قد ولّي وجهه نحو الإله قائلاً: «هَبْني قدرة على أن أحوّل ما ألمسه إلى ذهب أصفر». وإذا الإله يأسَى لسوء اختيار ميداس لكنه استجاب لدعائه محققاً له مشيئته، فانصرف الملك الفريچي سعيد النفس مشرق الروح وأخذ يُطَمْئنُ نفسه بما وعده به باكخوس من تحويل ما يلمسه إلى ذهب. وما لبث ميداس أن ذُهل حين انتزع غصن شجرة سنديان غضّ فإذا هو يتحوّل إلى قضيب من الذهب، ثم حمل حجراً من الأرض فإذا هو يتوهّج بلون ذهب باهت، ثم لمس حفنة تراب فتحوّلت إلى كتلة من تبِر، كما تحوّلت سنابل القمح الجافة فى يده إلى

لوحة ١٠٥ . پيكار : مزارعو فريچيا يقتادون
سيلينوس الثّمل إلى الملك ميداس .

حَصَّاد من ذهب، كذلك تحوّلت التفاحة التي اقتطفها من غصنها إلى تفاحة من ذهب تحسبها هدية مِن الهيسپريديس. ولم يكد يلمس أعمدة قَصْره حتى تحوّلت أيضاً ذهباً برّاقاً. وحين همَّ بغسل يديه تحوّلت قطرات الماء في كفّه شؤبوبا من ذَهب كفيلاً بإثارة شهوة داناى. وتجاوز الخيال ماكان يحلم به من تحويل كل ما يلمسه ذهباً، وامتلأت نفسه فرحاً بقدراته الجديدة وجلس إلى المائدة التي حمّلها الخدم بأطيب ما تشتهيه النفس من طعام، لكنه لم يكد يلمس كسرة خبز حتى وجدها قد تحوّلت إلى المعدن النفيس الصُّلب، ولم يكد يُطبق أسنانه على هبرة لحم حتى أحسَّ بها تنطبق على قضيب ذهبي، ومع رشفات النبيذ كان السائل ما يكاد يلمس شفتيه حتى يتحوّل بين فكّيه إلى قطرات الذهب المُذاب واهتصره الاحساس بالشقاء في غمرة هذا الثراء الطاريء وأحسّ بثقل وطأة المأساة؛ ولم تعد له أمنية غير أن يُحرم تلك القدرة، ولم يعد يكره شيئاً أكثر من كراهيته لما كان تمنّاه، إذ غدا عاجزاً عن إشباع جوعه من الطعام وإرواء ظمئه من الشراب. وطحنه العذاب وكره الذهب أكثر مما كره الموت، فتضرّع إلى الإله رافعاً ذراعيه قائلاً: «أسألك المغفرة يا أبانا باكخوس يا إله المعصرة. لقد أخطأتُ، وها أنذا أضرع إليك أن ترحمني وأن تحرّرني من هذا البلاء الذي كان بدءاً بشيرَ خير». وتحرك الخير الكامن في أعماق الإله - كما هي طبيعة الآلهة القادرين - حين اعترف ميداس بخطئه فردّ إليه طبيعته الأولى، وقال له: «امض الآن فحرّر نفسك من آثار الذهب الذى تمنّيته بحماقتك، وسِرْ على شاطيء نهر پاكتولوس المتدفّق بجانب مدينة سارديس العظمى[٤] ثم اصعدْ في اتجاه مضيقه عبر مرتفعات الشطآن حتى تصل إلى المكان الذى ينبثق فيه ماؤه في دفقات كبرى يغطّيها الزَّبد، فاغمس فيه رأسك واغسل مع جسدك خطيئتك». ومضى الملك فاغتسل عند منبع النهر، وانتقلت القدرة على تحويل الأشياء إلى ذهب من يد ميداس إلى مياه النهر فاكتست بلون جديد، وما تزال أرض الحقول المجاورة ذات لون ذهبي صلبة الثّرَى لارتوائها من مياه النهر.

هكذا زَهد ميداس في الثراء، واتجه إلى الغابات يتّخذ منها سكنه متعبّدا للإله پان إله الغابات والرعاة المقيم في كهوف الجبال، غير أن حماقته ظلت تُلازمه فورّطته في بلاء جديد. وبينما كان پان واقفاً بين الحوريات اليافعات عند جبل تمولوس الشاهق الذى تُشرف قمته على البحر الفسيح وينحدر سفحه من ناحية إلى سارديس العظمى وإلى هيپاپاي[٥] المتطامنة من ناحية أخرى، يشدو بأغانيه ويعزف على مصفاره المصنوع من قصبات الغاب المتلاصقة بالشمع، بلغت الجرأة بميداس أن يزهو بمواهب پان الموسيقية، مفاخرا بقدراته التي تفوق قدرات

لوحة ١٠٦ . بيكار : تمولوس فى جلسة القاضي
يحكم فى المباراة الموسيقية بين أبوللو
عازف القيثارة وپان عازف المصفار .

أپوللو متحدّيا إياه فى مباراة غير متكافئة، محتكماً إلى جبل تمولوس[6]، فجلس الجبلُ العجوز فوق سفحه جلْسة القاضي ليقضى بين المتباريَيْن، وأزاح غصون الشجيرات المورقة بعيدا عن رأسه باستثناء وريقات من شجر البلوط تكلّل شعره الأسود وعناقيد جوز البلوط تتدلّى فوق صدغيه الغائرين، والتفت إلى إله القطعان قائلاً: «إن قاضيكم لينتظر». وعزف پان على مزماره الرعويّ لحناً أثار إعجاب ميداس الذي صادف أن كان قريباً من المكان. بعدها التفت تمولوس إلى فويبوس إله الشمس فتلفّتت الغابة كلها معه، وكان أپوللو قد كلّل شعره الذهبي بإكليل أشجار غار جبل پارناسوس، وصبغ عباءته بأرجوان مدينة صُور، وحمل فى يده قيثارته المطعّمة بالعاج الهندي وبالأحجار الكريمة، وأمسك بيمناه ريشة العزف وانطلق يحرّك أوتار قيثارته بأناملَ حَذِقَة، فانتشى تمولوس ودعا پان إلى الإقرار بهزيمة مصفاره أمام قيثارة أپوللو[7].

وقد سلّم الجميع بحُكم إله الجبل عدا ميداس الذى لم يسلّم به لمجانبته العدالة، مما أغضب أپوللو فأصرّ على ألا تبقَى أذنا ميداس الحمقاوين على حالتهما البشرية، فأطالهما وكساهما بشعر رمادي خشن، ومنحهما القدرة على الحركة حيث هما من رأس الملك. وبقى جسد ميداس كله بشرياً عدا أذنيه اللتين تحوّلتا إلى أذنى جحش ثقيل الخطو.

وخجل ميداس لهيئته الزّريّة تلك فحرص على إخفاء أذنيه بعمامة أرجوانية تلتف حول رأسه، غير أن الحلاّق كشف عن هذا السرّ المُخْجِل وهو يقصّ شعره الطويل ولم يجسر على إفشائه رغم تحرّقه شوقاً لذلك. وحين ضاق بكتمان الأمر حفر حفرة فى الأرض وهمس فيها بسرّ الأذنين اللتين رآهما فى رأس مولاه، ثم أهال التراب على الحفرة وسوّاها من جديد بعد أن دفن فيها سرّه، وخلاّها ومضى هادىء البال، وسرعان ما نبتت أكَمةٌ من أشجار الغاب مكان الحفرة. ولم ينقض عام حتى كان الغاب قد نما واستطال شَجَرُه، وأخذ يُذيع السرّ الذي خبّأه الحلاّق، ويُنبيء بتحوّل أذنىْ ميداس كلما هزّته ريح الجنوب الوادعة، مكرّراً الكلمات نفسها التى أسرّها إليه الحلاّق.

لاؤوميدون وهِزْيونيه

انطلق أپوللو بعد إنزاله العقاب بميداس مغادراً جبل الإله تمولوس مرتحلاً عبر الأجواء، وبعد أن تلبّث عند مضايق هيلّليه «هيلليسپونت»[8] بنت نيفيلي هبط فوق سهول طروادة حيث شاهد معبداً عتيقاً لجوپيتر ربّ الرعود فى پانومفايوس[9] إلى اليمين من شبه جزيرة سيجيا وإلى

اليسار من شبه جزيرة رويتيا المحاطة بالمياه العميقة، وأبصر الملكَ لاؤوميدون إلى جوار المعبد يحاول بناء أسوار مدينته الجديدة طروادة، وهو ما كان يتطلّب ثمناً باهظاً ويحمّل الملك مشاق عصيّة ومصاعب جمّة. فتنكّر أپوللو فى زي آدمي وأخذ بمساعدة ملك فريچيا مستعيناً بإله البحر المضطرم حامل الصولجان ذى الشُّعَب الثلاث وربّ الهُوّات التي تثير العواصف، ووعده الملك الفريچي بقدر من الذهب لقاء معونته. ولمّا اكتمل بناء الأسوار حنث الملك بوعده، فقال له ربّ البحار: «لن تمضي جريمتك بغير عقاب»، وأغرق شواطيء طروادة بالمياه حتى أصبحت كالبحار، فغطّت المياه الأرض وما فيها مكتسحة بأمواجها العاتية حقول الفلاحين وبيوتهم. ولم يكتف الإله بهذه العقوبة وإنما أصرّ على انتزاع هزيونيه إبنة الملك لتقديمها قرباناً إلى وحش من وحوش البحر، غير أن هرقل هُرع إلى الأميرة هزيونيه حين شُدّت بالأغلال إلى الصخور وأنقذها، وطالب بالجياد التي وعده بها لاؤوميدون مكافأة على صنيعه[١٠]، ولمّا لم يظفر بها اعتزم قهر طروادة واختراق حصون المدينة التي نكصت عن وعودها مرتين. وقد رفض تيلامون الذي اشترك مع هرقل فى إنقاذ هزيونيه الرحيل دون أن يظفر بما هو أهل له من جزاء وتكريم، فتنازل له هرقل عن هزيونيه ليتزوج بها، أما پيليوس[١١] الذي كان قد مدّ يد العون بدوره إلى هرقل فقد وُفّى حقّه بالزواج من إلهة فأصبح چوپيتر بذلك حماً وجداً فى آن معاً، وبذلك لم ٢٢٠
يغد الإنسان الأوحد الذي ظفر بأن يكون حفيد چوپيتر فحسب بل كان أيضاً الإنسان الأوحد الذي اتخذ من إحدى الإلهات زوجة، وإليكم ما حدث:

پيليوس وثيتيس

أفضَى پروتيوس العجوز إلى ثيتيس بنبؤة قائلا: «قَضَى القدرُ عليك بأن تكوني أمّاً يا إلهة البحار، ولسوف تلدين بطلاً عظيماً ما إن يبلغ مبلغ الرجال حتى ينافسَ أباه بطولةً ويبزّه، ويصبحَ فى أعين البشر أعظم منه قدراً». ولذلك حرص چوپيتر على ألا يتزوج من إلهة البحار خشية أن يأتي من صُلبه مَنْ يصبح أعظم منه رغم ما كان يثور فى أعماقه من لهفة جامحة، آذناً لحفيدة پيليوس بن أياكوس بأن يَبْني بها ويسعد بضمّ عذراء البحار.

وكانت هايمونيا تضمّ خليجاً تمتد ذراعاه المنحنيتان مثل ذراعيْ منجل، ولولا ضحالة مياهه - إذ ليس الماء فيه غير طبقة رقيقة فوق سطح الرمال - لأصبح مرفأ آمنا، وكانت سواحله

لوحة ١٠٧ . پيكار: پيليوس يحاول اغتصاب
الحورية ثيتيس.

جامدة لا تتعثّر الأقدام عليها فتُبطيء فى خطوها ولا تترك فيها آثاراً ولا تنبت فيها طحالب. وكانت ثمة غيضة من شجيرات الآس ذوات ثمار مختلفة الألوان يتوسّطها كهف لا يُعرف إن كان مَنْ صُنع الطبيعة أم من صُنع الإنسان، وإن كان الراجح أنه من صُنع الإنسان. وكانت ثيتيس دائمة التردّد على هذا الشاطيء فتتجرّد من ثيابها وتمتطي ظهر درفيل، وذات مرة رآها پيليوس وهى مستغرقة فى سبات عميق، فدنا منها محاولاً فى رفق إكتساب ودّها، لكنها صدّته عنها، فأحاطها بذراعيه محاولاً أن ينال منها اغتصاباً، وكان على وشك أن يحقّق ما جرؤ عليه لولا ما احتالت به الإلهة إذ غيّرت صورتها إلى طائر ثم إلى شجرة ضخمة، فأمسك بجذع الشجرة دون أن يخفّف من قبضته عليها، حتى إذا حولّت نفسها إلى نَمرة مُخطّطة أمسك به الفزع ورفع يديه عنها، وراح يصبّ قربان النبيذ فوق مياه البحر تكريماً لآلهة البحار مُتقرّباً إليهم بأحشاء الخراف وإطلاق البخور كى يُتيحوا له الزواج من ثيتيس، فصعد إليه عرّاف كارپاثوس[١٢] من أعماق البحر قائلاً: «لسوف تظفر بالعروس التي تتمنّاها يا ابن إياكوس إذا أمكنك أن تُغافلها وهى فى الكهف الصخري وتشدّ وثاقها وهى غارقة فى النوم خالية البال مما يُدبّر لها، وحذار أن تنخدع بعشرات الصُّور التي تتمثّل فيها الإلهة ولْتشْدُدْ قبضتك عليها حتى تعود إلى صورتها الأولى». وغاص پروتيوس فى الماء وغطّت الأمواج آخر كلماته. وكانت الشمس تمضي بمركبتها فى منحدر الأفق مقتربة من بحر هسپريا [بحر الغرب] حين اتجهت الحورية كعادتها إلى الكهف الصخري تضطجع على حشيّتها المألوفة، وما كاد پيليوس ينقضّ على الحورية مطوّقا جسدها العُذري حتى شرعت فى تحويل شكلها، غير أنها تبيّنت أن جسدها غدا أسيراً وأن ذراعيها مقيّدتان، وعندما أدركت أنه قهرها قالت له «ما من شك أنك لم تكن لتستطيع قهري لولا عون أحد الآلهة»، ثم أطلقت زفرة عميقة وعادت إلى شكلها الحقيقي، فاحتضنها پيليوس وظفر بما تمنّاه وأنجب منها ولده أخيل العظيم.

پيليوس لدى كيّكْس

وعاش پيليوس سعيداً بزوجته وولده ينعم معهما بحياة مترعة بالنعيم والرخاء، ولم يذق الشقاء إلا بعد مصرع أخيه فوكوس على يديه عَرَضاً ودون قصد، فطُرد على أثر ذلك من دار أبيه[١٣]، والتجأ إلى بلاد تراخيس[١٤] التي كانت تحيا فى سلام تحت حكم كيكْس بن لوسيفر نجم النهار الذي ورث عن أبيه ألَقه المُبْهِج، والذي كان وقتذاك يجتاز فترة الحداد على أخيه.

وقد وصل ابن أياكوس إلى تراخيس منهك القوى بعد طول السفر، ودلف إلى المدينة فى صحبة بعض رفاقه بعد أن ترك قطعانه فى واد ظليل عند أسوار المدينة. وحين أذن له الملك بلقائه قدّم إليه غصن زيتون وكشف له عن نفسه، غير أنه لم يكشف له عما ارتكبه من جُرم وعمّا كان سبباً لنفيه، وطلب إلى الملك أن يقبله لاجئاً فى عاصمته أو فى مملكته، فأجابه الملك قائلاً بوداعة ورقّة:

«إن بلادي تفتح ذراعيها لجميع الوافدين عليها يا پيليوس، وتتيح لهم العيش فى رغد وهناء ولا تضمر عداء للغرباء فتلك شيمتنا. ما عليك إلا أن تذكر لنا سبب لجوئك إلينا حتى نرحّب بك بما يليق بجلال الاسم الذي تحمله لا سيما وأنت حفيد چوپيتر، فلا تجهد نفسك توسُّلاً ورجاءً، فلسوف تحظَى بما تطلب، ولتعدّ كل ماتراه هنا ملْك يديك، وإني لأرجو أن تنعم بيننا بأفضل مما نعمت به فى حياتك السابقة»، ثم أجهش المَلك بالبكاء فسأله پيليوس ورفاقه عن سرّ حزنه العميق، فأجابهم قائلاً:

«قد تظنّون أن ذلك الصقر الذي يحيا على افتراس ضحاياه ويثير الرعب فى قلوب الطير كان يخفق بجناحيه المريّشين منذ وُجد، وليس هذا الظن صحيحا، فلقد كان فى البدء رجلاً غليظ القلب يُدْعى دايداليون توّاقا إلى الحرب مندفعاً إلى العنف، وكنت وإياه ابنين للنجم الذي يوقظ الفجر ويغادر السماء بعد آخر نجم فيها. وبينما كنت أنا أحبّ السلام وأرعاه مُحبّاً لزوجتي، كان أخي يجد متعته فى إثارة الحروب وقهر الدول والملوك بشجاعته التي أصبحت تبعث الرعب فى أسراب اليمام بمدينة ثيزبي(١٥). وقد وُلِدتْ لدايداليون ابنة أسْماها خيوني، وكانت فريدة فى جمالها مما جعل العشّاق يتزاحمون حَولها منذ كانت فى الرابعة عشرة من عمرها. وذات يوم رآها مصادفة كلٌّ من أپوللو وميركوريوس، وكان أولهما عائداً من دلفي وثانيهما راجعاً من قمة جبل سيلين فوقعا فى غرامها معاً لحظة رأياها. وبينما أرجأ أپوللو الظفر بها حتى يجنّ الليل أسرع ميركوريوس ولمس وجه الفتاة بعصاه التي تصيب مَنْ تمسّه بالنعاس فراحت الفتاة فى سبات عميق مستسلمةً بين ذراعيْ الإله القويتين، ثم أقبل أپوللو متخفّيا فى زيّ امرأة عجوز أثناء الليل الذي انتشرت فى سمائه النجوم، واستمتع بالفتاة التي سبقه ميركوريوس إلى الاستمتاع بها. ولما انقضت مدة الحمل وضعت خيوني توأماً أحدهما من الإله المجنّح القدميْن هو أوتوليكوس، ذلك الطفل الماكر المفطور على ضروب الخداع والمدرّب على إحالة الأسودَ أبيضَ والأبيضَ أسودَ مما جعله شبيهاً بأبيه فى سعة الحيلة، وثانيهما من

لوحة ١٠٨ . بيكار: إيريس تُفضي برسالة الإلهة
جونو إلى ربّ النوم.

أبوللو وهو فيلامون، ذلك الطفل الذي ذاعت شهرته لإجادته الغناء وبراعته فى العزف على القيثارة.

تُرى ماذا أفاد خيوني أن تضع توأما أو تكون موضع إعجاب إلهين، أو تكون إبنة أب شجاع وحفيدة لكبير الآلهة ربّ الرّعود؟ أوَلاَ يجرُّ المجدُ الكوارث أحياناً؟ فكم جرّ المجد من ويلات على كثير من البشر وكانت خيوني التعسة من بينهم، فقد دفعها الغرور يوماً إلى الزُّهُو بجمالها وازدراء جمال ديانا، فغضبت الربّة أشدّ الغضب وصاحت فيها: «ليأتينّ اليومُ الذي تحصدين فيه عاقبة زُهُوّك». وأمسكت بقوسها وسدّدت سهماً إلى هذا اللسان المتطاول عليها فأصابه العيّ بعد أن شطرته، ولم يعد يستجيب للفتاة صوتها ولا كلماتها، وانطلقت تحاول الحديث غير أن روحها فاضت مع دمائها، وأحسستُ أنا بالشقاء بينا أضمّها بين ذراعيّ، وأخذت أواسيها بقلب محزون، وأبثّ أخي الحبيب الذي كان يغمر ابنته بحنانه كلمات عزائي، غير أن الوالد المكلوم الذي انسابت دموعه لفقد ابنته لم يكن يسمع كلماتي إلا بقدر ما تسمع صخور الشاطيء هدير الأمواج، وقد حاول مرات أربعاً أن يلقي بجسده فى لهيب المحرقة حين رأى النار تندلع فى جسد ابنته لولا إمساكنا به، غير أنه ما لبث أن انفلت من أيدينا انفلاتة الثور الهائج وأخذ يعدو عَدْواً لا يقوىَ عليه البشر وكأنما رُزقت قدماه جناحين، واندفع بعيداً عن جميع الطرقات المألوفة لا يدركه أحد حتى استقرت به رغبته فى الموت على قمة جبل بارناسوس وألقى بنفسه من فوق الصخر الشاهق، فأسرع إليه فويبوس وقلبه يفيض شفقة عليه وأحاله إلى طائر يحلّق فى الأفق بجناحيه اللذين نبتا فى لحظات، ومنحه فويبوس منقاراً معقوفاً ومخالب مقوّسة وأسبغ عليه قوة هائلة تاركاً له شجاعته التي حققّت له الشهرة فى الماضي. وهكذا أصبح صقراً لا ينطوى اليوم صدره على قطرة من الشفقة، يسوم صنوف الطير جميعاً سوء العذاب ويملأ نفوس الآخرين شقاء».

وبينما كان ابن لوسيفر يروي هذه القصة الغريبة، كان آنيتور ابن بلدة فوكيس راعي قطعان پيليوس يحثّ الخُطى لاهثاً حتى إذا أقبل على مولاه صاح: «أيا پيليوس، إنني أحمل إليك أنباء كارثة فادحة»، فطلب منه پيليوس أن يقصّ عليه خبرها وقد امتلأت نفس ملك تراخيس ترقّباً وارتسمت على وجهه سيماء الخوف بينما أخذ الراعي يسرد القصة قائلاً:

«عندما توسّطت الشمس كبد السماء فى منتصف طريقها المرسوم وقد بقى منها مثل ما اجتَزْتُ، سُقتُ قطيعَك المنهك صوب الشاطيء المنحدر حيث خرّت بعض الثيران مستلقية على جنوبها تعباً وإعياء فوق الرمال الصفراء وعيونها شاخصة إلى صفحة مياه المحيط، وأخذ البعض الآخر يتجوّل هنا وهناك أو يسبح فى الماء طافياً فوقه أحياناً وغائصاً فيه لا يظهر منه غير العنق أحياناً أخرى. وقريبا من الشاطيء يطلّ معبدٌ من الخشب الغُفْل، غير مُزَوَّق بزخارف ذهبية ولا مُكفَّت بألواح رخامية منقوشة، وتُظلّه أغصان أشجار عتيقة، ويسكنه نيريوس وبناته النيرياديس، وقد أخبرني ملاّح كان يجفّف شباكه عند الشاطيء أنهم أرباب هذا البحر. وعلى مقربة من المعبد مستنقع راكد تخلّفت مياهه من مياه البحر، وكانت هذه الأرض الرِّخوة تغصّ بأشجار الصّفصاف وينبعث منها أصداءٌ لصخب عنيف يثير الهلع فى أرجاء المنطقة. وإذا وحش هائل يبرز فجأة من المستنقع فى صورة ذئب ملوّث الجسد بالوحل القذر، قواطع فكّيه مغطاة بالدم والرغاء، متوهّج العينين بوهج أحمر، وكان جوعه ومع ما فى الجوع من شراسة قد أثارا فيه غضبة عارمة، وكما لم تهدأ شراسته كذا لم يهدأ جوعه، ولما كان ما يفترسه من ثيران لا يُشبع نهمه فقد انطلق يعقر القطيع كله مجندلاً الرؤوس جميعها مفترساً بعض الرعاة ومصيباً البعض الآخر بجراح حين حاول إبعاده، واصطبغت مياه الشاطئ بلون الدم القاني، ثم لم تلبث مياه المستنقع كلها أن اصطبغت به، كما أخذت أصداء خوار الوحش تتردّد بين جنبات المستنقع. وكان إحجامنا عن الدفاع عن أنفسنا يكلّفنا الكثير، وأصبحت المحنة لا تحتمل التردّد فى تكريس كل ما فى طاقتنا فعله، وأحسستُ بواجبنا فى أن نمتشق سيوفنا وأن نمضي إلى الوحش نحاصره ونضربه ضربة رجل واحد».

وتوقّف الراعي عن الكلام، ولم يعبأ پيليوس بخسائره من القطعان، وقد تذكّر الجريمة التي اقترفها حين قتل أخاه ابن الحورية، وأدرك لحظتئذ أن أمه حورية البحر هى التي تُنزل به هذه الكوارث لتجعل من ضحاياه قرباناً جنائزياً لابنها القتيل فوكوس(١٦).

ومالبث كيِّكس ملك أويتا أن أمر رجاله بحمل السلاح والتأهّب للانقضاض على الوحش، كما تهيّأ هو نفسه ليمضي معهم، غير أن زوجته ألكيونيه أسرعت بالدخول عليه وقد أثارتها الأحداث فأخذت تشدّ شعرها المشوّش وألقت بنفسها على صدر زوجها متوسّلة إليه أن يقنع

بإرسال الرجال دون أن يصحبهم، وذرفت الدمع علّه ينقذ حياتها ولا يمضي إلى ما عقد عليه العزم، فانبرى پيليوس ابن أياكوس يطمئنها قائلاً: «ليست مخاوفك أيتها الملكة إلاّ دليلاً على ما تكنّين من عواطف رقيقة ومحبّة لزوجك. ألا فلتطرحي هذه المخاوف جانباً، ومع عرفاني لك بجميل مساندتك إيایْ فى هذه المحنة، فما أريد أن يخرج أحدٌ نيابة عني لمنازلة وحش لم يَرَ البشرُ مثيلاً له من قبل، وليس لى من مفزعٍ أفزعُ إليه غير آلهة البحار ألتمس عونهم».

وكان يعلو قمة القلعة برج شامخ تستهدي به السفن الضالّة، فصعدوا البرج وصوّبوا نظراتهم المفعمة بالأنّات إلى قطعان الثيران المجندلة على الشاطيء، وأبصروا الوحش الذي افترسها والدماء تقطر من فمه وتلوّث فراءه. عندئذ بسط پيليوس يديه تجاه شطآن البحر ٤٠٠ الفسيح متوسلاً إلى پساماثيه ذات الشعر اللا زوردي أن تضع حداً لغضبها وأن تمدّه بعونها، ولم تلق ضراعاته صدىً فى نفس الربّة، إلا أن ثيتيس استطاعت بصلواتها المتصلة أن تحصل لزوجها على العفو الذي كان ينشده. ولم يكن من اليسير الحيلولة بين الذئب وبين شهوته فى الافتراس بعد أن جُنّ بلعْق الدماء وظل والغاً فيها حتى حوّلته الربّة إلى تمثال من رخام وهو يغرس أنيابه فى عنق بقرة، وبقى محتفظاً بشكله الأول عدا لونه إذ أصبح فى بياض الحجر الذي بات شاهداً على أنه لم يعد ذئباً كما كان، ولم يعد يثير الرعب الذي كان يثيره من قبل. على أن ربّات القدر لم يأذنّ لپيليوس الهارب بأن يستقر فى هذه البلاد إلى مالا نهاية فبقى منفيّاً يصل تجواله كما كان حتى بلغ بلاد الماجنيتيين(١٧) حيث تطهّر من جريمة القتل على يدىْ أكاستوس من ثيساليا(١٨).

كيّكس وألكيونيه

كان الملك كيّكس وقتذاك نهباً للقلق الذي يؤرّقه على مصير شقيقه وتَقُضّ عليه مضجعه نُذُر الشرّ التي بدت له، فتأهّب للحجّ إلى كلاروس كى يستشير الهاتفة الإلهية التي تُضفى الطمأنينة على النفوس، غير أنه أحيط علما باستحالة الوصول إلى معبد دلفي بعد أن سدّ طريقه إليها فورباس الشرّير وأتباعه الفليجيّون. وما كاد كيّكس يكشف لزوجته عن عزمه على الرحيل حتى داخلها خوف بعث الرِّعدة فى أوصالها، وشحب وجهها فصار فى بياض خشب البقس، وترقرق فى مآقيها الدمع، وحاولت أن تتحدّث مرات ثلاثاً فكانت الدموع المنسابة

على خدّيها والزفرات التي تطلقها تخنق صوتها، وأخذت تعتب عليه فى ولَه وتتوسل إليه قائلة: «أى خطأ اقترفتُه أنا فجعلك تتنكّر لى يا أغْلَى أعزّائي؟ أين هى رعايتك التي كنت تُضْفيها عليّ وحْدي دون أى انسان آخر؟ كيف تسوّغ لك نفسك أن تتخلّى عني الآن وترحل لأعيش وحيدة؟ أهَكذا حزمتَ أمرك على الذهاب بعيداً عني؟ وهل يمكن أن أبقَى عزيزة عليك أثيرة لديك مع غيْبتي عنك؟ أتُراك ستهوّن من قلقي بقولك أنك راحلٌ بطريق البرّ حتى لا تثير فكري المضطرب فيشغلني الحزن على فراقك عن الخوف عليك؟ حقاً إنه ليس ثمة شيء يُخيفني مثل البحر الموحش الغدّار، فلقد تطيّرتُ منذ أمد قريب حين رأيتُ ألواحاً خشبية ركاماً على الشاطيء، وكم من موتَى قرأتُ أسماءهم على شَواهد قبور خاوية[١٩]، فلا تغرّنك تلك الثقة الزائفة تبعث الطمأنينة فى قلبك اعتماداً منك على أن حماك هو الإله أيولوس بن هيپوتيس الذي يُمْسك الرياح العاصفة ويهدّيء ثورة البحر بإرادته، فلو أنه أطلق العنان للريح فأتيح لها السيطرة على المحيط لما استعصَى عليها شيء، ولأصبحت الأرض والمياه تحت رحمتها، ولتصارعت السّحب أمامها على صفحة السماء مُرْسلة فى تصادمها برقاً من الشّرر الملتهب، وكلما تزايدت معرفتي بالرياح [فمعرفتي بها معرفةَ وثيقة لكثرة ما رأيتها وأنا فى بيت أبي صبيّة] ازددت يقيناً بوجوب تحاشيها. على أنه إذا لم تنجح توسّلاتي فى إثنائك عن عزمك على الرحيل يا زوجي الحبيب، وإذا كنتَ ما تزال مُصراً عليه فخُذني إذن معك حتى نكون سوياً من ضحايا العاصفة، ولن أخشى حينئذ من الأخطار إلاّ ما قد يكون من نصيبي أنا، ولسوف نحتمل معاً كل ما يقع، ونُبْحر سوياً على صفحة البحار الواسعة».

وأسيَ زوجها ابن النجم المتألق لما ناشدته به زوجته إبنة أيولوس وبما ذرفته من دموع، فقد كان لهيبُ الحب يُشْعل قلبه بمقدار ما يُشعل قلبها، غير أنه لم يتراجع عن عزمه على الرحيل، كما أنه لم يشأ أن يُقحم ألكيونيه فى مغامرة محفوفة بالأخطار، فحاول فى النهاية تهدئة مخاوفها لكنه لم ينجح فى كسب رضاها، فأضاف يقول معزّياً: «قد يكون الفراق بيننا طويل الأمد، لكنى أقسم لك بالضوء المشعّ من أبي بأننى عائد إليك - بمشيئة ربّات القدر - قبل أن يُكْمل القمر دورتين».

ومع هذا العهد - الذي قطعه على نفسه والذي بعث فى نفس زوجته الأمل فى عودته سريعاً - أمر بإعداد سفينته التي لم تكد زوجته تراها حتى ارتجفت أطرافها من جديد واغرورقت عيناها بالدموع كأنها تعرف سلفاً ما سوف تأتي به الأيام، وعانقت زوجها مودّعة

يائسة حزينة ثم تهاوت مقاومتها وانهارت، فأخذ كيكس يتلمّس الأعذار لتأخّر إقلاعه غير أن ملاّحيه الشبّان كانوا قد جلسوا فى صفّين وقد أمسكوا مجاذيفهم العريضة وأخذوا يشقّون الموج بضربات رتيبة الإيقاع. ونظرت ألكيونيه بعينيها المبلّلتين بالدمع إلى زوجها الواقف فوق مؤخرة السفينة يردّ على تحيّتها ملوّحاً بيده مودّعاً، ومازالت تحدّق بعينيها حتى مغيب السفينة واختفائها بزوجها عن ناظريها، وظلت تتابع الأشرعة وهى ترفرف فوق الصاري الكبير حتى اختفت الأشرعة بدورها، فعادت واستلقت على فراشها الوثير مثقلة القلب بالهموم. وحينما خلت إلى نفسها أحسّت بغياب أعزّ شطر من ذاتها فانخرطت فى البكاء من جديد.

غادرت السفينة الميناء بركّبها وهزّت الريح حبال الأشرعة التي نُشرت على الصّواري تملؤها الرياح، ونظّم الربّان إيقاع ضربات المجاذيف. ولم تكد السفينة تقطع نصف رحلتها وتنأى عن جميع الشطآن حتى بدأ البحر يشتعل بياضاً فى ظلمة الليل الساجي بقفزات أمواجه العالية الزابدة، وتزايدت قوة رياح الشرق، فصاح الربّان بملاّحيه: «فلتُسرعوا بخفض الأشرعة من قمة الصّاري وضمّها جميعاً»، غير أن رياح العاصفة التي كانت تهبّ تجاهه حالت دون وصول صوته إلى البحّارة كما غطّى هدير الماء على كل صوت، ومع ذلك سارع بعض الملاّحين من تلقاء نفسه إلى اجتذاب المجاذيف داخل السفينة، وأخذ بعضٌ آخر يدرأ عن السفينة ثورة العاصفة، وقام آخرون بضمّ الأشرعة، وأخذ أحدهم ينزح الماء المتسرّب إلى السفينة بقذفه فى البحر. وبينما كان هذا يجري على غير نظام أو تدبير تَزَايَدَ عُنف العاصفة وتصارعت الرياح المهاجمة من جميع الاتجاهات فبعثت الاضطراب فى البحر الغاضب، وامتلأت نفس الربّان هلعاً واختلطت عليه الأمور وصار عاجزاً عن البتّ فى أمر لا يُبدي ولا يعيد فقد كانت الأخطار فوق حذقه ومهارته، وكان الرجال يتصايحون، وحبال الأشرعة تتقطّع، والبحر كتلة ثائرة من الأمواج المتلاطمة، والرعود تقصف فى الآفاق، والأمواج تعلو كالجبال متعاظمة كأنما تريد بلوغ السماء وتنثر رذاذها على الغيم المتكاثف، أحياناً يضطرب الموج حاملاً الرمال التي يثيرها من قاع المحيط، وأحياناً يصير أشدّ سواداً من مياه نهر ستيكس، وأحياناً أخرى ينشر فى الأجواء طبقات من الزَّبد الأصفر تُرسل صفيراً عالياً. وكانت السفينة التراخيسية تميل يمنة ويسرة، تعلو تارة وكأنها تطلّ من قمة جبل على أودية نهر أخيرون بالجحيم، وتغوص تارة أخرى فى بطون الأمواج متطلّعة إلى أعلى وكأنما هى ترقد فى إحدى بحيرات العالم السفلي. وكلما ارتطم أحد

جنبيها بموجة عاتية ارتفعت قعقعة شديدة وانطلقت أنّات موجعة وكأنها قلعة تتحطّم وتميد تحت ضربات المنجنيق و«مدك» أبواب القلاع المحاصَرة. وكانت الأمواج المندفعة أمام غضبة الرياح الثائرة تتدفّق على دروع السفينة وتعلوها كما تفعل السّباع الجريئة حين تستجمع شجاعتها لتندفع نحو الأسلحة المصوَّبة إليها من كل جانب. وبدأت قوائم السفينة تتزحزح عن أماكنها والعوارض الخشبية تتفكّك والقطران[٢٠] الذي يغطّيها يذوب وينمحي، فانفتحت ثغرات نَفَذَ من خلالها ماء البحر الرهيب، وانفرجت كوّات السّحب فجأة لتنهمر منها الأمطار، وبدت السموات وكأنها تنقضّ جميعاً على البحر، بينما بدا المحيط الثائر وكأنه يشرئب إلى السماء، وابتلّت الأشرعة بالفيض الغامر، واختلطت مياه البحر بمياه السماء، وغابت النجوم من القبة الزرقاء، وضاعفت العاصفة من ظلمة الليل، وإن كانت ومضات البرق تطرد الظلمة لحظات تضيء فيها المشهد كله فتتوهّج المياه باحمرار لهيبها.

تدفّق الماء إلى قاع السفينة المجوّف شأنه شأن جندى يبرز وحده من بين صفوف الجيش محاولاً المرّة بعد المرّة أن يتسلّق استحكامات مدينة محاصَرة حتى يحقّق فى النهاية هدفه، ويتمكن وحده من بين ألف محارب من الجدار الحصين مدفوعاً برغبته المضطرمة فى النصر. فقد استطاع الموج بعد أن ألقى بثقله مرات تسعاً على جوانب السفينة أن يرقّى فى المرة العاشرة إلى ارتفاع شاهق، وأن يندفع فى هجمة عاتية لم يرتد عنها إلاّ بعد أن استقر الماء على سطح السفينة كأنه ينقضّ على أسوار حصن متداعية، وهكذا استقر جزء من البحر داخل السفينة بينما ما تزال بقيته تحاول غزوها. وكان الملاّحون أسْرى رُعب ممزِّق شبيه بذلك الذعر الذي يستشري فى مدينة يحاول العدو تقويض جدرانها من الخارج بينما يجهد أهلها فى دعمها خشية تداعيها. ونسى الملاّحون خبرتهم بأمور البحر وتهاوت شجاعتهم، وبدا الموت مقبلاً عليهم مع هجمة كل موجة تفتح ثغرة فى استحكاماتهم، وعجز البعض عن حبس دموعه، واستبد الذهول بأحدهم، وأخذ ثان يحسد أولئك الذين تنتظرهم قبور مُهيّأة، والتمس ثالث عون السماء التي أخذ يمدّ يديه إليها دون تشهدها عيناه، وشرد عديدون منهم بفكرهم إلى آبائهم وذويهم، وآخرون إلى بيوتهم وأولادهم وكل ما خلّفوه وراءهم، ووقع كيكس أسير الأسى وقد أصبح فكره كله مشغولاً بألكيونيه لا تتحرك شفتاه بغير ذكر اسمها ولا تتجه رغباته إلاّ إليها، لكنه كان راضياً لأنه حال بينها وبين أن تصحبه، وودّ لو قُدِّر له أن يتطلع ثانية إلى

شطآن بلاده وأن ينطلق إلى داره عائداً، ولم يكن يدري موقعه وسط الخضم المضطرب وعبر ستار السُّحب الداكنة التي أخفت صفحة السماء فضاعفت من ظلمة الليل المدلهم. وكسرت الريح العاصفة الصّاري وتحطّمت معه الدّفة، وعلت موجة على سائر الأمواج كقائد مظفّر يتوسّط أسلابه، ثم هوت الموجة فى عنف وكأنها تقتلع به جبليْ آثوس وپندوس من أوتادهما وتُلقي بهما فى البحر الفسيح، فغاصت السفينة إلى أعماق المحيط تحت جبروت الموج، وغاص مع السفينة كثيرون من الملاّحين الذين ابتلعهم البحر فلقوا حتفهم قبل أن يطفوا على السطح من جديد، وتعلّقت قلّة بأخشاب السفينة المحطّمة. وتشبّثت يدُ كيكس - التي طالما قبضت على صولجان الحُكم - بقطعة من الحطام الطافي، وأخذ يردّد عبثاً إسْمَيْ أبيه وحميه، وكان اسم ألكيونيه قد تردّد على شفتيه أكثر من أى اسم آخر إذ كان حديثه كله عنها وفكره مشغولاً بها. وأخذ يصلّي من أجل أن تحمل الأمواج جسده إلى حيث تستطيع زوجته رؤيته، وأن يُدْفن فى نهاية الأمر بيديها الرقيقتين. وانطلق يردّد اسم ألكيونيه بصوت عال وهو طاف على سطح الماء كلما أتاحت له الأمواج القدرة على فتح فمه، فإذا أطبق البحر عليه من كلّ جانب قنع بأن يتمتم فى سرّه باسمها، وفجأة تدافعت على صفحة الخضم المُزبد موجة سوداءُ عاتية غاص تحتها كيكس فغرق. وفى تلك الليلة غشّت الظلمة وجه لوسيفر نجم النهار فلم يظهر للعيون، ودفن وجهه فى الغيم الكثيف لأنه لم يكن قد أذن له بترك السماء.

لم تعرف ألكيونيه بالكارثة، وظلت كما كانت تحصي الليالى وهى تؤمّل عبثاً عودة زوجها إليها، وتُعجِّل فى نسج بعض الأردية له كما كانت تُعَجِّل فى نسج أردية أخرى لها لتزدان بها عند عودته، وأخذت تحرق البخور قرباناً لجميع الأرباب وخاصة فى معبد چونو، وأكثرت من الاختلاف إلى هياكلها من أجل عودة رجل طواه الغيب، وردّدت دعواتها كي يعود زوجها إليها سالماً وألاّ يميلَ عنها إلى امرأة أخرى يؤثرها عليها، فكانت هذه الضراعة الأخيرة هى الوحيدة التى استجابت لها الآلهة من بين ضراعاتها العديدة.

على أن الربة چونو عزّ عليها ألا تستطيع إسعافها بالاستجابة إلى ضراعاتها إذ كان زوجها قد فارق الحياة حقاً، وودّت أن تُبعد عن هياكلها المقدسة تلكما اليدين اللتين لم تؤدّيا شعائر الدفن الواجبة(٢١) فالتفتت إلى إيريس قائلة: «يا أخلص من حَمَلَ رسائلي إلى البشر، أسرعي إلى دار ربّ النوم(٢٢) الغافي، وسَليه أن يُغرقَ ألكيونيه فى حُلم يتبدّى لها معه زوجها الراحل

كيكس لتدرك حقيقة الأمر». وصدعت إيريس لأمر الربة وارتدت رداءها ذا الألوان الألف، وانطلقت فى مسار قوس قُزح المقوّس عبر السموات الفسيحة حتى بلغت قصر الربّ الملتف بالغيم الذي أمرتها الربّة بزيارته.

وعلى مقربة من بلاد السيمريين[٢٣] كان ثمة كهف عميق منحوت فى جانب الجبل يسكنه ربّ النوم الغافي، ولم تكن أشعة الشمس تبلغ ذلك المكان لا لحظة شروقها ولا عند توسّطها كبد السماء ولا لحظة غروبها. وكان الضباب الداكن يتصاعد من جوف الأرض مشيعاً فى الجو ظلالاً خافتة من عتمة الغسق. ولم يكن فى هذا المكان ديكٌ يختال بعُرفه ويؤذّن للفجر بصياحه، ولا كلاب لَهِفة تقطع الصمت، ولا إوزّ يعلو تصويته على نباح الكلاب، كما لم تكن هناك وحوش ضارية ولا قطعان سوائم، ولم يكن يُسمع به حفيف أغصان شجر ولا صوت شجار بين بشر. كان الصمت الأبكم يخيّم على المكان، وكان نهر «ليتي» الذي يُغْري بالنعاس خلال انسيابه يهمس بخريره الخافت فوق الحصىَ الراقد فى أعماق الكهف الصخري، وكانت أزهار الخشخاش تنمو بوفرة على عتبات الكهف، كما يتكاثر العديد من الأعشاب التى يستقطر الليل النّدي من عصاراتها عطر النعاس الرّخيّ وينثره رذاذاً على الأرض الغبراء. ولم يكن للدار باب واحد خشية أن يئزّ فيه مفْصل دوّار، كما لم يكن هناك حارس يقف على عتبته، وكان يتوسّط الكهف فراش كبير من خَشب الأبنوس داكن اللون تغطّيه أستار سود فى نعومة الريش، وكان الإله نفسه يرقد فى هذا الفراش وقد استرخت أعضاؤه فى كلل، ترقد حوله ربّات الأحلام الخيالية وقد تقمّصن أشكالاً متباينة، كسنابل القمح فى موسم الحصاد أو الأوراق فوق أشجار الغابة أو رمال الشاطيء المترامي الأطراف.

دخلت إيريس الرسول العذراء الدار، وجعلت تُزيح بيديها أطياف الأحلام التي اعترضت طريقها، فإذا أرديتها المتألقة تُشيع وميضَ ألقٍ فى مسكن الإله، وبذل ربّ النوم جهداً فائقاً كي يفتح عينيه الكليلتين المُثقلتيْن بالنعاس، وحاول النهوض فمالت رأسه حتى لامست ذقنُه صدرَه ثم استلقى على ظهره المرة تلو المرة، إلى أن نهض متّكئاً على مرفقه وتعرّف على إيريس فسألها عن الغرض من زيارتها، فأجابته قائلة: «يا ربّ النوم، يا مَنْ يجد فيك كل كائن راحته بعد العناء، يا أكثر الآلهة نشدانا للسلام، يا مَنْ إليك تهدئة الخواطر وإزاحة الهموم وشفاء أعضاء الجسد المرهقة بالأعمال الشقيلة فتنتعش بك بعد طول الجهد والكلل، مُرْ أحلامك

القديرة بمحاكاة مظاهر الأشياء الحقيقية وبَعْثها ثانية كما كانت فى الواقع، مُرْها أن تتقمّص مظهر الملك كيكس وأن تشدّ الرحال إلى ألكيونيه بمدينة تراخيس التي أذاع شهرتها هرقل، وأن تُريها صورة الملك غريقاً. ذلك ما أمَرَتْ به چونو». ورحلت إيريس بعد هذا كى تُفلت من تأثير ربّ النوم القهّار، فلقد أحسّت بالنعاس يتسلّل إلى عينيها، وعادت أدراجها سالكة المسار المقوّس نفسه الذي عبرته منذ لحظات.

وأيقظ ربّ النوم ولده مورفيوس أكثر أبنائه الألف الأقوياء قدرة على محاكاة الآدميين، ولم يكن أحد يفوقه براعة فى تقليد طريقة المشىْ وتعابير الصوت ورنينه، وكان إلى هذا يستخدم الكلمات نفسها ويرتدي الثياب ذاتها التي تميّز كل شخص عن غيره. وعلى حين تخصّص مورفيوس فى محاكاة البشر، دَرَجَ ابن ثان تدعوه الآلهة إيكيلوس ويسمّيه البشر فوبيتور على تقمّص صورة حيوان أو طير أو أفعى طويلة، كما تميّز ابن ثالث هو فانتازوس بلون آخر من المهارة يبدو فيه فى مظهر مُخَادع فيمثّل الأرض أو الصخر أو الماء أو الشجر أو أى شيء من الأشياء الجامدة التي لا روح لها. وكان ثلاثتهم يقومون بتمثيل الأحلام التي تظهر ليلاً للملوك والقادة، فى حين كان يهيم غيرهم على وجوههم يمثّلون الأحلام للعامة من الناس. وقد بَزّ الإله العجوز أبناءه كلهم فى مواهبهم فى تمثيل الأحلام باستثناء مورفيوس الذي اصطفاه من بين أشقائه جميعاً رسولاً لينفّذ ما طلبته إيريس إبنة ثاوماس. ولم يكد يعهد إليه بهذه المهمّة حتى غاصت رأسه المائلة على صدره فى ثنايا فراشه واستغرق ثانية فى نومه العميق.

وطار مورفيوس مخترقاً الظلمة الحالكة دون أن يُسْمَعَ لجناحيه حفيف، وسرعان ما بلغ مدينة هايمونيا حيث ألقى جناحيه جانباً، وغيرّ من هيئته ليبدو فى صورة كيكس. وعندما اتخذ صورة الملك وأصبح شبيهاً بجثة زرقاء عارية اقترب من فراش زوجه ألكيونيه المتوجّسة خيفةً، بلحية مندّاة وشعر رأس مبتل تتساقط منه قطرات ماء ثقيلة، ومال على الفراش دامع العينين قائلاً: «أى زوجتي التعسة البائسة، أتستطيعين التعرّفَ على زوجك كيكس، أم أن الموت قد غيرّ هيئتي؟ تطلّعي إليّ ولسوف تعرفينني حقاً، وإن رأيت شبحاً لزوجك لا صورته الحقيقية. أى ألكيونيه، لقد ذهبت صلواتك أدراج الرياح لأنني قد فارقتُ الحياة، فلا تَدَّعِي الأحلامَ الزائفة تداعب فكرك بعودتي. لقد هبّت ريح جنوبية مثقلة بالغيوم لحقت بسفينتنا فى بحر

إيجه، وأنزلت بها ضربات قاصمة حتى هشّمتها، وأخمدَ الموتُ شفتيّ اللتين كانتا تردّدان اسمك. وليس مَنْ يحمل إليك هذا النبأ رسولٌ لا يوثق به ولا شائعات غامضة تتناقلها الألسن، وإنما أنا الذي جئت بنفسي أحمله إليك بعد أن ذقت الموت غرقاً كي أحيطك علماً بقَدَري ومصيري. فلتنهضي الآن من فراشك ولتذرفي الدمع من أجلي، ولْتَتّشحي بثياب الحداد، ولا تدعيني أذهب الى غياهب تارتاروس غير مأسوف عليّ، ولا مشيَّعٍ بالبكاء».

وبدا مورفيوس خلال حديثه مع ألكيونيه وكأنما هو يبكي حقاً، وقد تعرّفت على صوت زوجها فى صوته ورأت إيماءاته فى إيماءاته، وغالبها الأنين والبكاء فى نومها، ورفعت ذراعيها محاولة تحسّس جسده فلم تقبض كفّاها على غير خواء، فصاحت به قائلة: «انتظر! لِمَ تتعجّل الرحيل ورحلتنا واحدة؟».

ونهضت الملكة من سباتها وقد أيقظتها رؤيا زوجها وصرخاتها هى، وتلفّتت حواليها باديء ذي بدء لتستوثق مما إذا كان الرجل الذي ظهر لها منذ لحظات مازال ماثلاً أمامها، فقد جاء خدمها الذين استيقظوا على صراخها بمصباح، فلما لم تقع عيناها على زوجها أخذت تلطم خدّيها وتشقّ ثوبها وتضرب صدرها، وصاحت قائلة لوصيفتها التي هرولت إليها تستطلع سبب حزنها: «لقد قُضِيَ على ألكيونيه ولم تعد شيئاً مذكوراً فقد أسلمت الروح مع زوجها كيكس، فلا تحاولي التسرية عنى بكلمات عزاء. لقد مات زوجي إثر تحطّم سفينته، وقد رأيته وعرفته ومددتُ إليه يدي حين أوشك على فراقي وحاولت استبقاءه. لكنْ، لم يكن مَنْ وقع عليه بصري غير شبح، ومع هذا فقد كان هو زوجي، ولئن شئت أن تعرفي المزيد فإن قسمات وجهه لم تكن هى التي عهدتُها فيما مضى، إذ لم تكن تشعّ بألقها السابق. لقد رأيته واقفاً فى هذا المكان عرياناً شاحب الوجه مبتل الشعر بالماء. يا للبائس المسكين! وياله من مشهد مثير للرثاء»، ثم عادت فتطلعتْ حولها لترى إن كان قد خلّف وراءه أثراً، ثم استطردت تناجي زوجها قائلة: «كان هذا هو سبب فزعي وخوفي حين رجوتُكَ ألاّ تتركني وألاّ تمضي إلى حيث تعصف بك الرياح، فلئن كنتَ ماضياً إلى حتفك فما كان أجدرك بأن تصطحبني، وكم كان أوْلَى بي أن أمضي معك، ولو مضيتُ معك ما قضيتُ شطراً من حياتي بعيدة عنك، وما كنا لنموت مفترقيْن، فها أنذا الآن أموت رغم أنى لم أصحبك، وعلى الرغم من أنك خلّفتني هنا وحيدة، وعلى الرغم من أني لم أشاركك العاصفة التي عصفت بك، ها أنذا تأتي عليّ العاصفة، ومع أن البحر لم يَطوِني فى جوفه فقد غدوتُ وكأن البحر طواني فى أعماقه، ولو

أنني حاولت أن أعيش بعد اليوم أو جهدت فى التغلب على أحزاني لأصبح قلبي أشدّ ضراوة من البحر. لا، لن أحاول مقاومة أحزاني، كما لن أفارقك يا زوجي التّعس، فلسوف ألحق بك. ومع أن رماد جسدينا لن يجتمع فى وعاء واحد فإن نقشاً واحداً سوف يضم اسمينا على شاهد قبر مشترك. وهكذا إذا كان قد قُدِّر لعظامنا ألا تتلامس فلسوف يتعانق اسمانا إلى الأبد». ثم حال الحزن بينها وبين أن تزيد، فقد أصبحت الزفرات تحبس كلماتها كما احتجزت الأنّات عبارتها الصادرة من أعماق فؤادها المكلوم.

وأقبل الصباح فغادرت ألكيونيه دارها وقصدت شاطىء البحر حيث الموقع الذي ودّعت فيه كيكس وهو يُقْلع بسفينته، وأخذت تغدو وتروح عنده وهى تهمهم قائلة: «هنا كان يشدّ الحبال، وعلى حافة هذا الشاطىء قبّلني قبلة الوداع». وبينما كانت تستعيد أقواله وتتذكّر أفعاله حيث وقعت، صوّبت طرفها نحو البحر فرأت شيئاً بعيداً وسط الماء أشبه بالجثة لم تستطع أن تتبين كنهه أولاً، غير أن الأمواج كانت تدنو به منها شيئاً فشيئاً حتى استبان لها على الرغم مِنْ بُعده أنه جثة إنسان. وتحرّكت مشاعر ألكيونيه لمرأى هذا الرجل الغريق، ومع أنها لم تكن تعرف مَنْ يكون إلاّ أنها أخذت تخاطبه وتندب إنساناً تجهل حقيقته قائلة: «وا آسفاه على مصيرك أيها البائس كائناً مَنْ تكون، وعلى زوجتك إن كنت قد اتخذت لك زوجة». ولم تلبث الأمواج أن دنت بالجسد مِنْ الشاطىء وأخذت ألكيونيه تحدّق به ونفسها تتهاوى شيئاً فشيئاً فإذا هى فى النهاية تتبيّنه وتعرف أنه زوجها! فصرخت ملتاعة: «إنه هو»، وسرعان ما شقّت ثيابها ولطمت خدّيها وشدّت شعرها ومضت تعول قائلة وهى باسطة ذراعيها المرتجفتين ناحية جسد كيكس: «أى زوجي العزيز، أعَلَيَ هذه الصورة تعود إليّ أيها البائس!».

وكان على الشاطىء حاجز صنعته يد الإنسان عند حافة الماء ليقاوم ضربات الأمواج الثائرة فيكسر حدّتها ويهوّن من شدّة لطماتها فقفزت إليه ألكيونيه، ثم ما لبثت أن وجدت نفسها تطير نحوه، فقد نَبَتَ لها جناحان فى ظهرها أخذت تضرب بهما الهواء فى رقّة وكادت تلمس الماء وهى محلّقة على شكل يدعو للرثاء، وأخذ فمها الذي اتخذ شكل منقار ضامر يطلق أثناء طيرانها صرخات يغلب عليها الشّجن وأنّات شكاة وتوجّع.

وحينما بلغت أليكونيه الجثة الساكنة الخرساء التي لم تعد تسري فى عروقها قطرة دم ضمّت بجناحيها الوليدين أطرافها العزيزة عليها، وحاولت عبثاً لثم الشفتين الباردتين بمنقارها

الصّلب. وقد تساءل الناس عمّا إذا كان كيكس قد أحسّ بها أم أن اضطراب البحر هو الذي رفع رأسه، ولكن الذي لا شك فيه أنه أحسّ بوجودها، فقد رحمتهما الآلهة فأحالتهما طائرين[٢٤] ظل الحب يربطهما معاً حتى بعد أن آل بهما الحال إلى هذا المصير. وهكذا بقيا وفيّين على عهد زواجهما حتى بعد أن نبتت لهما أجنحة الطيور، وظلا يتطارحان الغرام وينجبان الأبناء. ومنذ ذلك الوقت لا تزال ألكيونيه فى عشّها تحتضن بيضها ناشرة عليه جناحيها طوال سبعة أيام فى فصل الشتاء. وفى هذه الفترة تسكن الأمواج وتهدأ، ويُحكم أيولوس سيطرته على الرياح فيمنعها من الانطلاق، مُتيحاً لأحفاده الاستمتاع ببحر هادىء ساكن.

أيساكوس

وفيما كان هذان الطائران منطلقين جنباً إلى جنب فوق صفحة المحيط الفسيح إذا شيخٌ كان يرقبهما يُشيد بالحب الباقي الخالد الذي يجمعهما، وإذا آخر كان يقف على مقربة منه يشير إلى طائر غطّاس ذى عنق طويل ويقول: «أترَى إلى هذا الطائر الذي يرفّ على سطح الماء بساقين دقيقتين امتدّتا خلفه، إنه هو أيضاً من نسل الملوك، فإذا استطعت تتبّع نسبه خطوة فخطوة فستجد أنه ينتهي إلى أيلوس الذي أنجب أساراكوس، ثم جانيميديس الذي اختطفه چوپيتر إلى السماء، ثم لا ؤوميدون وپريام الشيخ الذي قُدِّر له أن يشهد الأيام الأخيرة لطروادة. لقد كان ذلك الطائر شقيقاً لهكتور، ولو لم يكن قد لقى مصيراً غريباً فى شبابه الباكر لذاعت لاسمه شهرة لا تقلّ عن شهرة اسم هكتور ابن هيكوبا إبنة ديماس، وإن قيل إن أيساكوس - وهو اسم هذا الطائر - كان ابنا لألكسيروىْ إبنة جرانيكوس ذى القرنين، وضعته أمه سراً فى غابات إيدا. وكان يكره حياة المدن ويقنع بحياة الريف البسيطة معتكفاً فى حمَى التلال بعيداً عن أبّهة البلاط، ولم يكن يتردّد على مجتمعات إلْيُوم [طروادة] إلاّ لماما، ومع ذلك لم يكن فؤاده فظّا عصيّا على الهوى، بل إنه كثيراً ما طارد الحورية هيسيرييه إبنة كبرينيه[٢٥] خلال الغابات محاولاً الإمساك بها، حتى رآها يوماً جالسة على ضفاف نهر أبيها كبرينيه تجفّف شعرها المنسدل على كتفيها تحت أشعة الشمس. وما إن لمحته الحورية حتى فرّت كما تفرّ ظبية مذعورة أمام ذئب أغبر، أو كما تطير بطة أمام صقر يطاردها بعيداً عن بركتها. وقد أسرع الأمير الطروادي عَدْواً بقدميْن زادهما الهوى المشبوب خفّة محاولاً اللحاق بفتاة ضاعف الخوف من

لوحـة ١٠٩. پيكار: أيسـاكـوس يكفّ عن مطاردة الحورية هسپرييه بعد أن لدغتها أفعى قضت عليها، فآثر أن يلقى بنفسه من فوق صخرة إلى البحر.

سرعة عقبيْها، وإذا حيّة كانت مستكنّة فى العشب تبرز فجأة فتلدغ قدم الحورية وهى تعدو، ونضحت أنيابها سّماً سرَى فى جسدها فانقطعت عن العَدْو لتّوها وانقطعت معه حياتها أيضاً، وضم العاشق جسدها الذاوي فى جنون وأخذ يصيح: «ما أشدّ تعاستي، إنني أنا من طَارَدكِ، وما كنت أتوقع هذا الذي وقع يا فتاتي التعسة. لقد شاركتُ الحيَّة القضاء على حياتك، وإن كانت الحيّة قد لدغتك فإني أنا الذي أتحتُ لها هذه الفرصة، على أني أكثر منها جُرْماً. فليكن موتي عزاء لك عن فراقك الحياة». وما لبث أن ألقى بنفسه من فوق صخرة قوّضت الأمواج المزمجرة قاعدتها، غير أن ثيتيس أخذتها به الشّفقة فهوّنت عليه الصدمة وتلقّته على صدرها فى رفق وغطّته وهو يسبح فى مياه البحر بدثار من الريش فحرمته نعمة الموت الذي تمنّاه لنفسه. وتملّك العاشقَ غضبٌ من إرغامه على حياة يأباها، ولحرمان روحه من التحرّر من محبسها التعس كما تاقت. وما إن اكتسب جناحيه الجديدين حتى حلّق بهما فى الأجواء على ارتفاع خفيض، ثم ألقى بنفسه ثانية على صفحة البحر، غير أن ريشه خفّف من حدّة سقطته، فاندفع إلى أعماق اليم وقد تملّكه غضب جامح محاولاً دون كلل أن يجد وسيلة يقضي بها نحبه. ولقد أصاب العشق جسده بالنحول فظل محتفظاً بساقيه الطويلتين وعنقه الممتد الذي يباعد ما بين رأسه وجسده، وولع بمياه البحر حتى عُرف باسم «الغطّاس» إشارة إلى وُغُوله فى أعماقها(٢٦).

الكتاب الثاني عشر

الكتاب الثاني عشر

الإغريق فى أوليس . ربة الشهرة

لم ينته إلى علم پريام أن ابنه أيساكوس مايزال على قيد الحياة ، وأنه قد تحوّل إلى طائر يحلّق بجناحين فى الأجواء فراح يبكي فراقَه ، بينما أقام هكتور وأخوته لشقيقهم الفقيد ضريحاً خاوياً يحمل اسمه دون أن يضمّ رفاته وقدّموا عنه القرابين . ولم يشهد الحفل الجنائزي أخوهم پاريس الذي عاد إلى الوطن بعد غيبة مصطحباً زوجته التي كان قد اختطفها فأثار اختطافها حرباً طويلة الأمد ، إذ أبحرت ألف سفينة إثرهما حاملة أشجع أبطال اليونان يتعجّلون الانتقام لولا أن العواصف العاتية غشيت البحار فحالت بين السفن وبين الإبحار فى بويوتيا عند أوليس حيث تعجّ المياه بالأسماك . وأخذ اليونانيون يعدّون قرباناً لكبير الآلهة وفقاً للعُرف المتّبع ، وحين توهّجت النيران فى المذبح العتيق زحفت أفعى داكنة الحراشف على شجرة دُلْب قريبة من المكان الذى يُعدّ فيه القربان ودَنَتْ من عُشّ يضم ثمانية من فراخ الطير فى قمة الشجرة التهمتها جميعاً مع أمّها التي جهدت أن تَذُودَ عن صغارها المنكوبة . وبُهتَ الجميع حين وقف العرّاف كالخاس بن ثيستور ليطالعهم بنبؤته قائلاً : «أبْشِرْ يا شعب اليونان فلسوف يكون النصر حليفنا ، ٢٠
ولسوف تسقط طروادة ، لكن بعد عناء طويل» ، فلقد فسّر العرّاف الطيور التسعة بأنها تعني

تسع سنين من الحرب المتصلة . وما لبثت الأفعى أن تحوّلت وهى تلتفّ حول أغصان الشجرة الخضراء إلى تمثال حجري على صورة الأفعى المتسلّقة .

ولم يَنِ الإله نيريوس عن إثارة الزوابع فى بحار أيونيا ليعوق مسيرة الحملة ، وذهب البعض فى تفسير ذلك إلى حرص نبتون على سلامة طروادة بعد أن شارك فى تشييد أسوارها . غير أن العرّاف ابن ثيستور لم ير هذه الرأى فطالع الجميع بما يرى ، وقضى بأنه لا مَعْدَى عن إباحة دم عذراء ليَسْكُنَ غضبُ الإلهة العذراء ، فما لبث القوم أن آثروا مصلحة الجماعة على مشاعر الأفراد وتراجعت عاطفة أجاممنون أباً أمام واجبه ملكاً ، فخلّى بين ابنته إيفيجينيا وبين أولئك المطالبين بإراقة دمائها .

وما إن تأهّبت إيفيجينيا للتضحية بدمها البرئ قربانا تجاه المذبح أمام المشاهدين الذين رفعوا أصواتهم بالبكاء ، حتى استُثيرت عاطفة الإلهة الغَضْبَى مُشفقةً على الفتاة . وفيما كانت شعائر القربان تجري والاضطراب يسود وسط صيحات الضارعين أرسلت ديانا سحابة غشّت عيون الجمع المحتشد هبطت منها ـ كما يقال ـ ظبيةٌ حلّت مكان عذراء موكناىْ عند المذبح . وسكن غضب فويبي[١] بهذا القربان الذي ارتضته ، كما هدأ غضب البحار فدفعت الريحُ السفن الألف حتى بلغت سواحل فريچيا بعد مخاطر جمّة[٢] .

٤٠ واتخذت ربّة «الشائعات» مكاناً فى قلب الكون بين الأرض والسماء والبحر ، فمنْ هذا الموقع الذي تلتقي فيه ممالك العالم الثلاث تستطيع أن ترقب كل ما يجري فى العالم مهما نأىَ موقعه وتسمع كل صوت يخفق فيه . وشيّدت دارها فوق ربوة عالية وخلّته مفتوحاً ليل نهار بعد أن زوّدته بألف منفذ ، وبمداخل لا حصر لها دون أبواب تعترض عتباتها . وكانت جدران البيت من النحاس الرنّان يعكس الأصوات فيُرجِّعُ صداها ثانية معيداً الكلمات نفسها على الأسماع . واحتشد بهو الدار بجموع غفيرة ، وتوافد عليه الناس غادين رائحين ، فلم ينعم بالهدوء لحظة ولم يَسُدْ الصمت ركنا من أركانه ، ومع ذلك لم يَعْلُ فيه صراخ بل همسٌ كوَسْوَسة الأمواج المسموعة من بعيد ، أو كأصداء رعود چوپيتر بعد تصادم السّحب الداكنة الملبّدة ببعضها البعض . وملأ البيت حشدٌ من «الأراجيف» اختلط فيها الصدق بالزيف و«الشائعات» المُبلبِلَة تجول بين الأروقة والردهات ، يصبّ بعضُهَا الأقاصيص فى الآذان اللاهية ، ويحمل بعضها الآخر قصصه بعيدا ، بينما تنمو «الأقاويل» وتتكاثر بما يُضيفُه كلُّ راوٍ

لوحة ١١٠ . پيكار : تقديم إيفيجينيا قربانا للإلهة ديانا، وافتداء الإلهة لها بإرسال سحابة هبطت منها ظبية حلّت محل عذراء موكناي.

من عنده. فى ذلك البيت كانت تعيش «السذاجة» سريعة التصديق لكل ما يُقال، و«الخطأ» الجامح اللامبالي، و«الفرحة» الزائفة، و«المخاوف» الجزعة، و«العصيان» المباغت، و«الهمس» غير الموثوق بصدقه، بينما ترقب «ربة الشُّهرة» بنفسها كل ما يقع فى أرجاء السماء والأرض والبحار وتتعقَّب كل ما يحدث فى أنحاء الكون.

سيجنوس

وأذاعت ربّة «الشائعات» اقتراب أسطول السفن اليونانية المتأهّبة للحرب بجندها البواسل من طروادة التي لم تكن تتوقّع هذه المفاجأة، غير أن الطرواديين كانوا على أهبة الاستعداد للدفاع عن سواحلهم والحيلولة دون اقتحام اليونانيين لها، وقضت الأقدار أن يكون پروتيسيلاوس أول مَنْ يسقط فى المعركة بسهم هكتور[٣]، وتدافع اليونانيون إلى المعركة التي جشّمتهم الكثير، وقد تبيّنوا مدى شجاعة هكتور من فداحة خسائرهم، كما تحقق الطرواديون من بطولة اليونانيين أمام بحار الدم التي سالت من أجساد ضحاياهم. وغطّى لون الدم المراق شاطىء سيجيون بعد مصرع آلاف الرجال على يد سيجنوس بن نپتون[٤]، وفتك سهام أخيل المنحوتة من أشجار سفح جبل پيليون بأجساد كتائب كاملة من الجنود. وكان أخيل قد أخذ يشقّ الصفوف معتليا مركبته الحربية بحثاً عن سيجنوس وهكتور غير أنه لم يلتق هكتور إلاّ فى السنة العاشرة من الحرب، ثم إذا هو ينطلق بأقصى سرعة نحو سيجنوس، حاثاً جياده ذات الأعناق البيض بياض الثلج وهى تَعْلُكُ أعنّتها، ملوّحاً برمحه بذراعه المفتولة صائحاً: «ليكن عزاؤك فى موتك أيها الفتى أن يكون حتفك على يدىْ أخيل الوافد من ثيساليا»، ثم أطلق رمحه فأصاب هدفه. ومع أن رمحه المارن [ما لان وصَلُب] الدقيق التسديد لم ينحرف عن مساره، إلا أنه لم يخلّف غير أثر هيّن بصدر خصمه لكأنه كان مثلوم السِّنان. وفيما أمسكت الدهشة بأخيل سخر منه خصمه قائلا: «لقد سبقتك إلىّ شُهرتك، ولكن لِمَ تعجبْ يا ابن ثيتيس إذ لم يُصبني رمحك بسوء؟ فلتعلمْ أن خوذتي الصفراء هذه التي يتدلّى من قمتها ذيل حصان، وكذلك ترسي المجوّف هذا الذي يُثْقل منكبي الأيسر ليسا لحمايتي وستر جسدي بل هما للزينة فحسب، شأني فى ذلك شأن الإله مارس. ولو شئتُ لنزعتُ عن جسدي هذه الشُكَة الواقية دون أن أصاب فى حلبة القتال بأذى، فليس عبثاً أن يكون المرء إبنا لنپتون عاهل البحار جميعا وملك نيريوس وبناته، لا مجرد ابن لإحدى حوريات النيريادیس!».

وفيما هو يتحدث صوّب حربة اصطدمت بسنام ترس أخيل المقوّس نفذت من خلال طبقة نحاسية ثم طبقات تسع من جلد الثور المدبوغ إلى أن استقرت عند الطبقة العاشرة[٥] ، فنزعها أخيل وألقاها جانباً، ثم قبض على حربته وسدّدها بذراعه المفتولة نحو خصمه لكنها مع ذلك لم تمسّ سيجنوس بأذى؛ كما لم تؤثر فيه حربة ثالثة سدّدها أخيل نحو سيجنوس الذي كشف له صدره. واشتعل غضب أخيل مثلما يشتعل غضب الثور الهائج فى الحلبة الفسيحة عندما يندفع متهوّرا بقرنيه المُهلكيْن نحو العباءة القرمزية التي تثير جنونه إلى أن يدرك أن طعناته باتت غير مُجْدية، وتفحّص أخيل حربته وبعد أن اطمأن إلى أن سنانها الصّلب مايزال مُثبّتاً فى عودها الخَشبي صاح قائلاً: «تُرى هل فَقَدَتْ ذراعي قوتها التي ذاعت شهرتها منذ قديم الزمان فغدت خائرة؟ أوَلم تكن قوية يوم قُدْتُ الهجوم الذي زعزع جدران ليرنيسوس، وحين أغرقتُ مدينتيْ تنيدوس وطيبة موطن إيتيون فى دماء سكانها، وحين صبغتْ نهر كايكوس بلون دماء الشعوب التي تحيا على ضفتّيه[٦] ، وحين ذاق تيليفوس مرّتين طَعْمَ حربتي. أوَلم أصرع هنا جمّاً غفيرا من الأعداء تكدّست أجسادهم على شاطىء البحر؟ ألا إن مصارعهم تلك دليل اكتمال قوة ذراعيّ التي مازلت أنعمُ بها حتى الآن».

وسدّد أخيل حربته إلى صدر مينويتيس ـ أحد العامة من اللّيكيين ـ فانغرست فى صدره بعد أن اخترقت ترسه، وسقط مينويتيس ممدّداً فوق الأرض الصّلبة، فنزع أخيل حربته من الجرح الدافىء وقال: «ها هى ذى إذن يميني، وها هى ذي حَرْبتي التي حقّقتُ بها الآن نصراً. فلأسدّدها إلى خصمي اللدود آملاً أن أحقق النصر نفسه».

وانقضّ أخيل مرة أخرى على سيجنوس الذي لم يحاول تفادي الضربة التي لم تَحِدْ عن مرماها فارتطمت الحربة المصنوعة من خشب الدردار بكتفه اليسرى مخلّفة صوتاً مسموعاً، ثم ما لبثت أن ارتدت كما ترتد عن جدار أو عن صخرة صلدة، غير أن أخيل لمح دماً يطفح من مكان ارتطام الحربة فتملّكته النشوة التي لم يكن لها ما يبرّرها، إذ لم يكن ثمة جرح بل كان الدم الذي رآه دم مينويتيس. ودفع الغضب أخيل إلى القفز من مركبته الحربية الشاهقة لمبارزة خصمه بسيفه الصقيل القشيب الذي استطاع أن يشقّ به ترس سيجنوس وخوذته، غير أن سيفه انثلم على جسد سيجنوس الذي لا يُقهر، ولم يستطع أخيل احتمال هذا الهوان، فلطم وجه خصمه بسيفه مرات ثلاثاً أو أربعاً، وبمقبض سيفه هوى على صدغيْ خصمه العاريتين، فتراجع سيجنوس إلى الوراء وأخيل يتعقّبه دون أن يترك له فرصة يستردّ فيها أنفاسه، حتى

استولى الخوف على سيجنوس وطافت غمامات داكنة أمام عينيه. وفيما هو يتابع خطوه إلى الوراء ارتطم بصخرة عاقت تقهقره، فأمسك به أخيل ثم رفعه وطوّح به بقوة عاتية وألقاه على الأرض ضاغطا على صدره بدرعه وركُبتيْه الصلدتين فهشّم ضلوعه وكتم أنفاسه بوضع خوذته على وجهه بعد ما جذب شرائطها إلى أسفل بشدّة فمات سيجنوس مخنوقاً. وحين تهيّأ لخلع الشكّة الحربية عن جسد سيجنوس وجدها خاوية، إذ كان إله البحر قد حوّل سيجنوس إلى ذلك الطائر الأبيض الذى سُمِّى منذ يومها بطائر البجع [سيجنوس].

كاينيس وكـاينيــوس

نعم الجيشان بهدنة لبضعة أيام بعد هذه المناجزة، وأقبل يوم العيد ولا يزال ديدبانات طروادة يحرسـون أسوارها بعيـون متطلّعة وديدبانات الإغـريق فى خنادقهم على أهبة الاستعداد، وانطلق أخيل بعد فوزه على سيجنوس ينحر بقرة ليقرّبها قرباناً للإلهة أثينه وألقى بأحشائها فوق نار المذبح فتصاعدت فى الأجواء رائحة الشواء التي ترتاح لها الآلهة وتسعد. واقتطع أخيل قدراً من اللحم خصّصه للطقوس المقدسة، ثم وزّع ما تبقّى على الموائد يملأ بها رؤساء الجند بطونهم وهم يحتسون النبيذ مضطجعين لينسوا همومهم، لا تستميلهم أنغام القيثارة ولا نشيد المنشدين ولا تستهويهم ألحان المصفار المتعدّد الثقوب المصنوع من خشب البقس بقدر ما شدّهم الحديث الممتع طوال الليل عن البسالة والمعارك والأخطار وعن النصر الذي حقّقوه، فهل بعد هذا حديث يؤثر أخيل أن يخوض فيه؟ وهل ثمة موضوع آخر يمكن أن يناقشه الآخرون فى حضرة أخيل؟ لذا كان أهم ما دار بينهم من حديث هو الضربة القاضية التي أنزلها أخيل بسيجنوس وكانت إحدى المعجزات، فالمعروف أن الجراح لا تجد سبيلا إلى جسده الحصين كما أن نصل السيف ينثلم إذا مسّه. وبينا كان حفيد إياكوس وغيره من أبطال الإغريق يبدون دهشتهم أمام هذه الظاهرة العجيبة إذا نسطور يُذْهلهم بقوله: «لقد كان سيجنوس فى جيلكم خير مثال لمن تلقّى الحراب بصدره ساخراً دون أن تنفذ فيه نصالها، أما أنا فقد رأيت قبلُ رجلاً سُدِّدت إلى جسده آلاف الطعنات فلم تنل منه، وهو كاينيوس الثيسالي ساكن جبال أوثريس وصاحب المغامرات الذائعة الصيت. أما ما يذهل له المرء حقاً فهو أن هذا الجسد الصّلب الصامد للرماح قد وُلد جسدَ أنثى». فأثار قوله دهشة الجميع والتمسوا من نسطور أن يروي لهم قصة هذه المعجزة العجيبة، وقال له أخيل: «تحدّث يا وريث حكمة العصور الماضية ومالك ناصية البلاغة والبيان، واسرد علينا قصتك التي نتحرّق شوقاً

لوحة ١١١ . پيكار : الإله نپتون يغازل كاينيس .

لسماعها. ولتكشف لنا عن شخصية كاينيوس وسرّ تغيرّه من امرأة إلى رجل، وما هى تلك المعركة التي تعرّفت فيها إليه وضد مَنْ؟ وهل حاقت به هزيمة يوماً، وعلى يد مَنْ؟». وتحدث نسطور العجوز قائلاً: «حقاً كم أوْهَنَتْ السنون العديدة من ذاكرتي ومَحَتْ من ذهني كثرةً من أحداث شبابي، ومع ذلك فمازلتُ أتذكّر الكثير. على أن من بين جميع المخاطر التي وقعت لي سَلْماً أم حرباً هى تلك القصة التي سأرويها لكم لأنها ألصق القصص بفكْري. وإذا كانت السنون الطوال تتيح للمرء أن يقع على الكثير فلا يغيب عنكم أني عشت قرنين من الزمان، وها أنذا أشارفُ على الثالث[٧]».

وُهبت كاينيس إبنة إلاتوس جمالاً طاغياً فاقت به جميع بنات ثيساليا، مما حرّك قلوب الكثير من شباب المدن المجاورة بالأمل فى الظفر بها، فلقد كانت كاينيس من مواطنيك يا أخيل. ولعل پيليوس بدوره قد حاول الزواج بها، لكنه إما كان قد بنى بأمّك يا أخيل بالفعل أو وُعدَ بالزواج منها. غير أن كاينيس كانت تأبَى الزواج منْ كل مَنْ تقدّم إليها، وإذا شائعة تسري وتقول إن إله البحار انتهز فرصة انفرادها على الشاطىء يوماً واحتواها بين ذراعيه، وما إن ذاق المتعة بين أحضانها حتى قال لها: «لك أن تتمنّى عليّ، ولسوف أحقّق لك ما تطلبين». فأجابته قائلة: «ما أكْرَهَني أن أذوقَ يوماً ما ذُقته الآن من مهانة، وكم وددتُ لو صيّرتني رجلاً، فإن فعلتَها حقّقتَ لي أعظم رغباتي»، وإذا جَرْسُ كلماتها الأخيرة أشدّ عمقاً حتى ليُخال أنه جَرْس صوت رَجُل، وكان فى الحق جرس صوت رجل، فلقد حقّق إله البحر للتوّ رغبتها، فإذا الفتاة كاينيس تصبح رجلاً سُمِّي من يومها كاينيوس، ومُنح جسداً حصيناً لا تصيبه طعنات الرماح بجروح ولا تنال منه ضربات السيوف. ومنذ ذلك اليوم وكاينيوس يحيا سعيداً بهذا العطاء الإلهي مستمتعاً بما يستمتع به الرجال، ويهيم على وجهه على ضفاف نهر پينيوس يطوي حقول ثيساليا».

القَنْطوري

وذات يوم ذهبتُ أشهد زفاف هيپوداميا إلى پيريثوس بن إيكسيون الشّجاع بين مَنْ دعاهم پيريثوس من جماعات «القنطوري» المتوحّشين أبناء السّحاب ومن أمراء ثيساليا إلى قصره الظليل حيث جلس الضيوف إلى الموائد المصفوفة فى نظام بديع، يضجّون بالمرح الصاخب.

وفيما القوم ينشدون أغاني الزفاف وقد ماجت قاعة العُرس بدخان النيران المشتعلة أقبلتْ العروس تتهادى وسط رهط من الحسناوات الوقورات الفاتنات كانت تبزّهن جمالاً. وانتشَى پيريثوس بحظّه السعيد إذ ظفر بتلك الزوجة، غير أنه ما لبث أن حيل بينه وبين تلك السعادة التي كنا نرتقبها، فقد أشعل وجه هيپوداميا النّديّ نار الغرام فى فؤاد يوريتوس زعيم جماعة القنطوري الذي لعبت الخمر برأسه فاستسلم إلى شهواته المحتدمة، ونهض فقَلَبَ الموائد وأثار الفوضى فى الحفل وقبض فى شراسة على هيپوداميا. وأمسك كل قنطور بمن تروق له من الفتيات فتعالَى صراخ النسوة، وصاح ثيسيوس قائلاً: «لَعَمْري لقد مَسَّك الجنون يا يوريتوس، فإذا أنت تعتدي على پيريثوس وأنا حيٌّ بعد، فأثَرْتَ غضب اثنين باعتدائك على أحدهما»، وتقدّم فأنقذ العروس من بين يدىْ يوريتوس الذي سلبته المفاجأة القدرة على الحديث ولكنه تصدّى للبطل وسدّد له لكمات بقبضتيه القويتين أخذت تنهال على وجهه وصدره النبيل. فاستدار البطل إلى دنٍّ خمر عتيقة كانت قائمة فوق المنضدة نتأت زخارفها البارزة فتناولها وطوّح بها فى وجه القنطور فشجّ رأسه التي طفحت بالدماء وأسال دمه من جرحه ومن فمه معاً، فسقط على ظهره وقوائمه تترنّح فى الهواء وتلافيف مخّه تمتزج بالنبيذ المتدفّق على الأرض. عندها احتدم غضب جماعة القنطوري وقد منحتهم الخمر جرأة وهرعوا صائحين «إلى السلاح. إلى السلاح»، واحتدم القتال فإذا كؤوس النبيذ وقواريرها الهشّة والأحواض المستديرة العميقة والأدوات التي هُيِّئت وسيلة للمتعة تتحوّل إلى أدوات تراشق تتطاير عبر البهو.

وتقدم أميكوس بن أوفيون إلى المذبح متحرّجا أول الأمر من الاعتداء على مقدّساته، لكنه برغم ذلك اقتحمه وانتزع شمعداناً متعدّد الأذرعة مكتظّاً بالشّمعات المتّقدة، وشَهَرَه كما يُشْهِرُ الكاهن السكّين التي ينحر بها عنق ثور القربان الأبيض، ثم هَوَى به على رأس اللاپيث كيلادون فحطّم عظامها وشوّه وجهه، فإذا عيناه تبرزان خارج محجريهما، وإذا أنفه يغور داخل حلقه. غير أن پيلاتيس تصدّى لأميكوس وبيده قائم من قوائم منضدة من خشب القيقب فصرعه بضربة دفعت بذقنه داخل صدره، وانبثق الدم من جسده وفمه، وبضربة تالية بعث بخصمه إلى عالم الأطياف فى تارتاروس.

ثم رفع جرينيوس مائدة المذبح بما عليها من نيران متّقدة وهو يقول: «ولمَ لا أتخذ من هذا عُدَّة أستعين بها؟» ثم ألقى بها وسط جماعة اللاپيث فأوْدَت بحياة اثنين هما بروتياس وأوريون الذي أجمع الناس على أن أمه ميكالي كثيراً ما جعلت بعُوذاتها ورُقَاها قرنيْ الهلال يهويان من السماء على الرغم من استعصائهما، وعندئذ صاح به إيكزاديوس: «لو أن سلاحي فى يدي لما أفلتَّ من العقاب» وانتزع قرن وعل كان معلّقاً بشجرة صنوبر سامقة وجعل منه رمحاً دفع به فى عينيْ جرينيوس فاقتلعهما، والتصق شيء من لحمهما بالقرن بينما سال سائره على لحيته وتدلّى منها ممتزجاً بالدم المتخثّر فوقها. والتفت رويتوس إلى جذوة مشتعلة من خشب البرقوق فوق الهيكل فانتزعها وهشّم بها رأس خاراكسوس ذي الشعر الأشقر، واحترقت رأسه بعد أن امتدت إليها النيران النّهمة وكأنها العشب الجاف. وأخذ الدم فى جراحه يفهق كما يفهق قضيب من الحديد المَحْمي عندما يتناوله الحدّاد بكماشته المقوّسة ويغمسه فى حوض ماء فاتر فتصدر عنه طشطشة وفحيح. لكن سرعان ما هزّ خاراكسوس رأسه مُزيحاً النار الشّرهة عن خصلات شعره، وانتزع عتبة الباب الحجرية التي ينوء بحملها فوج من الثيران حاملاً إياها فوق منكبيه، غير أن ثقل وزنها حال دون وصولها إلى خصمه فَهَوَتْ على صديقه كوميتيس الواقف إلى جواره فحطّمته. وتملّكت الفرحة رويتوس فصاح: «ليت الباقون ينتفعون بقواهم كما انتفعتَ بها أنت»، وأمسك بالجذوة شبه المتّقدة مستأنفا هجمته محطّماً جمجمة خصمه بضربات عنيفة مثنى وثلاث ورباع حتى امتزجت عظام رأسه بمخه اللّزج.

واستدار نحو إيڤاجروس ودراياس وكوريثوس، ذلك الفتى الغض الذي بزغت شُعيرات عِذَاره من وجنتيه فألقاه صريعاً، فصاح إيڤاجروس فى القنطور: «أى مجد تحققه بالقضاء على هذا الصبيّ؟» فأسكته رويتوس بدسّ جذوته الملتهبة بقوة فى فمه الذي كان مايزال فاغرا، ومضى يحاصر دراياس وما استطاع قهره على الرغم من تفوّقه على من سبقوه، فقد استطاع دراياس أن يغرس وتداً متفحّما فى موضع التقاء عنقه بكتفه فأطلق رويتوس أنيناً عالياً باذلاً غاية الجهد فى انتزاع الوتد من عنقه، وأسرع بالفرار والدم يتدفّق غزيراً من جرحه. ولحق به أورنيوس وليكاباس وميدون الجريح فى كتفه اليمنى، ونحا نحوهم ثاوماس وپيسينور وميرميروس تُثْقل الجراحُ خطاه رغم أنه كان دوما يبزّ منافسيه فى سرعة العَدْو قبلُ، ثم انفلت

إثرهم فولوس وميلانيوس وآباس صيّاد الخنازير البرّية وأستيلوس العرّاف الذي حاول عبثاً أن يَثْني رفاقه عن القتال غير أنه لم يفلح، وصاح في نيسوس مُهيباً به بعد أن رآه يُحْجم خوف أن يُصاب «ليس بمُنْجيك أن تولّيَ الأدبار، فسيَمُدُّ القدرُ في عمرك إلى أن يودي بك سهم هرقل». غير أن يورينوموس وليسيداس وآريوس وإمبريوس لم يفلتوا من الموت إذ أوْدَتْ بحياتهم لكمات دراياس على وجوههم، كما تلقّى كرينايوس طعنة حربة بين عينيه رغم محاولته الهرب.

ووسط هذا الصخب كان النعاس قد غلب أفيداس وهو مضطجع على فراء دبّ مُشعث كان اقتنصه فوق جبل أوسّا ممسكاً كأس نبيذ في يده المتخاذلة. فما كاد يلمحه فورباس من بُعد حتى انقضّ عليه برمحه الذي أنفذه في رقبته صائحاً به «فلتتجرَّع هذا النبيذ ممزوجاً بمياه نهر ستيكس»، ولم يمهله فرماه بسلاح سنانه من حديد وقناته من خشب الزان وأنفذه في عنقه. وكان الفتى مضطجعاً حين بغته فورباس بسلاحه فمات دون أن يدري أنه مات، وتدفّق دمه داكناً فملأ كأسه وغمر فراشه.

ورأيتُ بعيني پيترايوس يحاول أن يقتلع من التربة شجرة بلوط ضخمة، وقد أحاط جذعها بذراعيه وأخذ يميل بها يمنة ويسرة لينتزعها من جذورها، فانقضّ عليه پيريثوس من الخلف وأنفذ في ظهره حربته فمزّقت ضلوعه وألصقت صدره بجذع الشجرةالصّلبة. ويقال إن پيريثوس قد صرع كلاً من ليكوس وكروميس، ثم حقّق بعد ذلك انتصاراً مجيداً حين أنفذ حربةً في رأس هيلوپس مخترقاً صدغيه من الأذن اليمنى إلى اليسرى، ومضى يطارد ديكتيس الذي فرّ مذعوراً حتى سقط بكل ثقله في هوّة سحيقة مصطدماً بشجرة دردار ضخمة خَوْزَقَتْ فروعها الناتئة جسده.

وقد حاول أفاريوس - وكان على قُرب - الانتقام لديكتيس فانتزع من سفح الجبل صخرة ضخمة رفعها ليهوي بها على خصمه، غير أن ثيسيوس عاجله بضربة من هراوته حطّمت ذراعيه، ولم يُشْغل نفسه بعدُ بالقضاء على خصمه الذي غدا عاجزاً، وانقضّ على ظهر القنطور بيينور فغرس ركبتيْه في ضلوعه وجذب شعر معرفته المرسلة إلى الخلف بيده اليسرى، بينما هشّم باليمنى عظام وجهه بهَرَاوته ذات الأُبَنْ [العُقَد]. ثم استدار يضرب بالهراوة نفسها

نيديمنوس وليكوتاس الماهر فى تسديد الرماح، وهيپاسوس الشهير بلحيته المسترسلة على صدره، وريفيوس الذي يفوق الأشجار طولاً، وثريوس صائد الدّببة على سفوح جبال ثيساليا الذي كان يعود إلى بيته مصطحباً فرائسه أحياء وهى هائجة.

وضاق ديموليون بانتصارات ثيسيوس التي لا سبيل إلى الإفلات منها، فحاول انتزاع
شجرة صنوبر عتيقة لم تستسلم له فقطعها ورمى بها ثيسيوس الذي ألهمته الربّة پالاس أن
٣٦٠ يتفاداها - أو لعل هذا ما يريدنا ثيسيوس أن نصدّقه - فانطلق الجذع نحو كرانتور فاره الطول
ففصل عنقه عن صدره وكتفه اليسرى، وكان كرانتور هو حامل عُدّة أبيك الحربية يا أخيل يوم
قدّمها أمنتور كبير شعب الدولوپيس ضماناً للسلم بعد هزيمته على يد أبيك. وإذْ شاهد أبوك
پيليوس عن بعد مشهد كرانتور وقد تقطّعت أوصاله صاح: «لسوف أثأر لك يا كرانتور، يا أعزّ
جنودي عليّ»، وسدّد بيده التي زادها الغضب قوة حربة ذات قناة من خشب الدردار إلى
القنطور ديموليون اخترقت جسده وغاصت بين ضلوعه واستقرت فى عظامه وهو يضطرب من
قوة اندفاعها. ونجح القنطور فى انتزاع قناة الحربة الخشبية دون نصلها الحديدي المستقر فى
رئتيه، ومع ذلك تحرك غضب القنطور وقد عاودته شجاعة جارفة وأخذ يطأ پيليوس بحوافره،
وپيليوس يتلقّى الطعنات بخوذته وترسه يحمي بهما جسده، إلى أن استطاع أن يُنْفِذَ خنجره
فى صدر القنطور حيث ملتقى نصف الإنسان بنصف الحيوان. وكان پيليوس قد صوّب عن
بعد قذيفتين أودتا بحياة فلجرايوس وهيليس وإيفينووس وكلانيس، ثم ألحق بهما دوريلاس
٣٨٠ الذي كان يعتمر بقلنسوة من فراء الذئب فوق رأسه، ويمسك بقرنيْ ثور مقوّسين جعل منهما
حربته القاتلة التي كم تلطخت قبلُ بالدماء، وصحْتُ فيه عندها وقد ملأني الغضب قوة:
«انظر يا دوريلاس كيف لا يثبت قرناك لحَرْبتي». ولم ألبث أن سدّدتُ ضربةً إلى جبهته لم
يستطع تفاديها فرفع يده يحمي بها جبينه، فنفذت الحربة مخترقة يده إلى جبهته فصرخ صرخة
مدوّية، وخلّفه جرحه القاسي عاجزاً عن الحركة. وكان پيليوس قد اقترب منه فطعنه بسيفه
طعنة مزّقت بطنه، فقفز القنطور وقد تدلّت أحشاؤه على الأرض فوطئها بحوافره وأخذ
يدوسها حتى تمزّقت فتهاوى خامد الجسد.

ووسط المذبحة الدائرة لم تشفع للقنطور كيلاروس وسامته بلحيته الشقراء التي كادت أن تبزغ وشعره الذهبيّ المنسدل على الكتفين حتى خصريه. ولم يكن نصفه الأسفل الذي على

شكل الفرس والخالي من العيوب أقل جمالاً من نصفه العلوي، ولو كان فرساً كامل التكوين لكان جديراً بأن يمتطيه كاستور فخر الفرسان، إذ كان ظهره خليقاً بأن يعلوه أمهر الفرسان كما كان صدره مفتول العضلات. وكان عنفوان الحياة المثير للإعجاب يبدو في قسمات وجهه وفى عنقه وكتفيه ويديه وصدره إذ كان نصفه الإنسيّ جميل التكوين كالتماثيل المنحوتة التي يُبْهَر بها الناس ويعجبون. وكان جسده أشدّ سواداً من حلكة الليل، بينما كانت قوائمه وذيله فى بياض الثلج. ومع تزاحم الكثيرات من بنات جنسه عليه فإنه لم يمل إلاّ لأجملهن وهى هيلونوميه التي مَلَكَتْ أن تسلبه لبّه بحنانها ورقّتها وبحبّها والعناية بمظهرها بقدر ما تسعفها أطرافها، فكانت تُصفّف غدائرها المسترسلة بالمشط، وتزيّنه بالورود وزهور البنفسج تارة وحَصَى البان تارة أخرى، وأحياناً بأكاليل الزنبق الأبيض. وكان تغسل وجهها مرتين كل يوم بمياه النبع المتدفّقة من غابات پاجاساى ومرّتين تغطس بجسدها فى مياهه، وتغطي كتفيْها بأفخر فراء الحيوانات التي تنتقيها. وقد هام بها كيلاروس كما هامت به، وكانا يتجوّلان معاً فى الجبال، ومعاً يأويان إلى كهف كان ملجأهما. وكانا قد توجّها سوياً إلى قصر ملك اللاپيث، وإذا هما يشاركان فى تلك المعركة الوحشية من حيث لا يدريان، وفجأة انطلقت حربة من يد مجهولة آتية من الجهة اليسرى نفذت فى ملتقى صدر كيلاروس بعنقه، ومع أن الجرح الذي أصاب القلب كان هيّناً إلا أن جسد القنطور كان قد فقد الإحساس وغشيته برودة الموت بعدما انتُزِع السهم منه. وأسرعت هيلونوميه باحتضان حبيبها المحتضر، ووضعت يدها على الجرح محاولةً إيقاف نزيفه، ثم أدنت فمها من فم كيلاروس كى تحول دون مفارقة روحه جسده، لكنها ما إن رأته يُسلم الروح حتى صرخت صرخة مدوّية وندّت عنها كلمات حالت صرخات المحاربين بينها وبين سماعي لها، ثم ألقت بنفسها فوق النصل الذي أزهق روح محبوبها فلقيت حتفها وهى تضمّه بذراعيها.

ومازال تتمثل أمام عيني حتى اليوم صورة فايوكوميس الذي كان قد دثّر جسده الحصاني وأعضاءه البشرية بستة من جلود السباع عقد بعضها إلى بعض، وقد رفع كتلة خشب ضخمة يَشُقّ على زوجين من الثيران المشدودة معاً جرّها، وألقى بها على تيكتافوس بن أولينوس فشجّت رأسه من أعلاها إلى أسفلها، وتهشّمت جمجمته العريضة وانسابت عصارة مخّه خيوطاً سائلة من فمه ومنخريه وعينيه وأذنيه كما تنساب قطرات اللبن الخثير من سلّة من فروع السنديان المضفورة، أو كما يقطر العصير من ثقوب معصرة ثقيلٌ ضاغطها، غير أني تقدمت

لحظة حاول القنطور نزع الأسلحة من ضحيته المتهالكة وغرستُ سيفي فى ملتقى فخذيْ ذلك الخصم الظافر - وأبوك شاهدٌ على صحة ما أقول - وكذلك هَوَى خثونيوس وتيليبواس تحت ضربات سيفي، رغم أن أولهما كان مسلّحاً بغصن شجرة مزدوج الطرفين المسنّنين، وثانيهما بحربة استطاع أن يُصيبني بها، وها أنت ذا ترى موضع الإصابة هنا متمثّلاً فى هذه الندبة القديمة التي ما تزال واضحة للعيان. ولقد كان الأجدر فى تلك الأيام الخوالي أن يوفدوني فى حملة لغزو برجامون[٨] [طروادة]، ولو كانوا قد فعلوا لربما أفلحتُ بأسلحتي فى وقف تقدم البطل هكتور العظيم إن لم أكن قد قضيت عليه، غير أن هكتور لم يكن وقتذاك قد وُلد بعد، أو لعله كان مايزال طفلاً. أما الآن فقد أوهنت الشيخوخة قواي.

بماذا أحدّثك؟ أأقصّ عليك كيف تغلّب پيريفاس على القنطور پيرايثوس؟ أو كيف دفع أميپيكس حربته المنحوتة من خشب القرانيا رغم فقدها لطرفها المسنون فى وجه إيكيتلوس المنتصب على أربع قوائم؟ وكيف قضى مكاريوس على إريجدوپوس من پيليثرون بغرس وتد فى صدره؟ ومازلت أذكر كيف رَمَى نيسوس حربة صَيْد استقرت فى ملتقى فخذيْ سيميلوس، ولا تحسب أن موپسوس بن أميپيكس لم يكن سوى عرّاف للغيْب فحسب، فإن حربته هى التي أردت القنطور هوديتيس الذي حاول عبثاً النُّطق وهو ملقى على ظهره، غير أن لسانه كان لاصقاً بلهاته الغائرة فى فمه.

وخلال تلك المعركة المحتدمة كان كاينيوس قد قضى على خمسة من الأعداء هم: ستيفيلوس وبروموس وأنتيماخوس وإليموس وپيراكتيس المسلّح بالبلطة، ولست أذكر كيف أصيبوا غير أني أتذكّر أسماءهم وعددهم. ثم انطلق لا تريوس فارع الجسد القوي الأطراف مسلّحاً بما غنمه من هاليسوس المقدوني إثر قتله، وكان يعيش فى زهرة العمر بين الشباب والشيخوخة، وقد اكتمل فيه عنفوان صباه وإن وَخَط الشّيْبُ فوْديه، وكان يجتذب الأنظار بترسه وسيفه وحربته المقدونية، ويستدير بوجهه ناحية الفريقين راكضاً مرات عدّة فى دائرة محددة، ثم تحدّث قائلاً فى خيلاء وعجرفة ووقاحة: «حتى أنت يا كاينيس، كيف لى أن أصبر على صفاقتك؟ أنت كما عهدتك لاتزال امرأة وستظل كذلك فى نظري، فهل أنسيتَ الهيئة التي وُلدت عليها، أم أنسيتَ الفعْلة التي أتيتَها والثمن الذي دفعته كى تتحوّل إلى رجل مُزيَّف؟ تذكّر الهيئة التي وُلدتَ عليها ثم ابحث عن سلّة من خيوط الصوف واجدلها

بإبهامك، واترك شؤون الحرب للرجال». وحين سمع كاينيوس هذه الإهانة شَهَر حربته وهَوَى بها على القنطور حيث مَوْصل نصفه البشري مع نصفه الحصاني، فشقّ جذعه وهو يشرئب عالياً متأهّباً للانقضاض عليه. وجُنّ لا تريوس تحت وطأة الألم وسدّد حربته إلى الوجه العاري لذلك المحارب الشاب الوافد من فيلوس، غير أن الحربة ارتدت ثانية كما ترتدّ حبّات البَرَد المتساقطة على سطح قبّة، أو كما ترتد الحصاة عن سطح طبل أجوف. ثم دنا من كاينيوس محاولاً غرس سيفه فى جنبه فوجد جسده أصلب من أن ينفذ سيفه فى أى موضع منه. وإذا لا تريوس يصيح: «على الرغم من هذا فلن تُفْلت مني وسأقتلك بنصل سيفي وإن تَلَمَتْ سنّه»، وشرع سيفه ليهوي به على فخذيْ كاينيوس قابضاً عليه بذراعه اليمنى الطويلة، وإذا السيف يُرسلُ رنيناً وكأنه ارتطم بقطعة من رخام فيتحطّم وتتناثر أجزاؤه على الجلد الصّلد. وبعد أن تعرّض كاينيوس لضربات خصمه مرات عدة دون أن يُصاب بأذى صاح فيه: «فلنر الآن ماذا سيكون أثر سيفي فى جسدك؟» وما لبث أن غرس سيفه الفتّاك فى فخذيْ القنطوري حتى مقبضه وأخذ يُديره ويحركه فى أحشائه مُحْدثاً فيها جرحاً إثر جرح، فاستشاط أفراد جماعة القنطوري غضباً وصرخوا صرخة عالية واندفعوا ناحية كاينيوس يطعنونه بأسلحتهم، غير أنها كانت تسقط من أيديهم مثلومة الأطراف. وبقى كاينيوس بن إيلاتوس سليماً لم يُصَبْ بخدش، فَبُهتَ مهاجموه لهذه الظاهرة العجيبة، وصاح مونيكوس قائلاً: «يا للعار، أينهزم شعبُ القنطوري بأسْره أمام رجل وحده، وليْته كان رجلاً، غير أنه على الرغم من هذا فهو رجلٌ حقاً. ولقد غدونا نحن بجُبْننا دوابَ على نحو ما كان هو قبل أن يصبح رجلاً. فما نفع أطرافنا القوية وقوتنا المزدوجة؟ ولِمَ إذن جمعت الطبيعة فينا بين كائنين من أقوى الكائنات؟ ليس صحيحاً إذن أننا من نسل آلهة أو أننا أبناء إيكسيون الذي ملأته بطولته أملاً بأن يظفر برضَى چونو المتعالية مادمنا نسقط هكذا ضحايا خصم لا يعدو أن يكون نصف رجل. هلمُّوا نكدّس فوق جسده الصخور والأشجار والجبال معا، ولْنخمد روحه المتشبّثة بالحياة باستخدام أشجار الغابات قذائف تقضي عليه بثقلها وتدقّ عنقه». وأمسك وهو يتحدث بشجرة كانت قد اقتلعتها ريحٌ جنوبية عاتية وطوّح بها نحو خصمه الجَلد القويّ الاحتمال، وتبعه آخرون فى اقتلاع الأشجار، وما هى إلا لحظات حتى كان جبل أوثريس قد تعرّى من أشجاره وغابت عن جبل بيليون ظلال غاباته، ودُفن كاينيوس تحت ثقل كومة هائلة

من الأشجار حاول أن ينفذ من بينها بكتفيه القويتين، غير أن تراكم الأشجار حين بلغ فمه وغطّى رأسه أخمد أنفاسه فإذا قواه تخور، وعبثاً حاول النهوض وإزاحة الأشجار عن جسده بدفعها هنا وهناك، وكأنما زلزال رهيب أخذ يهزّ جبل إيدا العظيم. ولا نعرف بالتأكيد ماذا حدث بعد ذلك، وإن ذهب البعض إلى أن جسده قد غاص تحت ثقل الأشجار إلى عالم تارتاروس. غير أن موپسوس بن أمپيكس نفى هذه القصة، قائلا إنه رأى طائراً بجناحيْن ذهبيّين يُفْلت من بين كومة الأشجار ويحلّق فى الفضاء الشفيف، وقد رأيتُ أنا أيضاً ذلك الطائر الفريد الذي لم أر له مثيلاً من قبل ولا من بعد، وحين رآه موپسوس محلّقا برشاقة فوق معسكره وسمع صليل خَفْق جناحيْه جعل يُلاحقه بروحه وعينيه أثناء تحليقه، وصاح به: «سلاماً لك يا كاينيوس يا فخر جنس اللاپيث، يا مَنْ كنت يوماً بطلاً صنديدا، وصرتَ الآن طائراً فريداً». ولما نعرفه من هيبة موپسوس صدّقنا ما قال، وضاعف الأسى غضبنا المحتدم لأن كثرة كثيرة منَ الأعداء قد احتشدت على رجل واحد وظفرت به، ولوّحنا بسيوفنا إفصاحاً عن غضبنا، ولم نتلبّث عن القتال حتى أتينا على نصف أعدائنا، وأفلت الباقون فراراً مختفين فى ظلمة الليل.

پيريكليمينوس بن نپتون

واستشاط تليپوليموس بن هرقل غضباً لأن ملك پيلوس قد روَى معارك اللاپيث مع القنطوري أنصاف البشر دون ذكر لهرقل فصاح قائلاً: «عجباً سيّدي، أفضتَ وأنسيتَ ما أبداه هرقل من ضروب البسالة، مع ثقتي فى أن أبي قد قال أكثر من مرة أنه هو الذي هزم تلك المخلوقات وليدة السّحب السماوية». فأجابه نسطور بنبرة حزينة قائلاً: «لمَ تضطرُّني إلى استعادة أحداث تثير الأسى؟ ولمَ تدفعني لأنكأ جراحاً التأمت مع الزمن، وأتحدثَ عن أبيك مع كراهيتي إياه بعد كل ما لحق بي من أضرار جمّة بسببه. حقاً إنه أتى من الأمور - كما تعرف الآلهة - ما يفوق التصوّر، وملأ الدنيا بمغامراته [وليس من شأني أن أنكر هذا] لكننا لا نمتدح ديفوبوس ولا پوليداماس بل ولا هكتور نفسه(٩)، فمَنْ ذا الذي يمتدح أعداءه؟ نعم لقد هَدَم أبوك مرّة جدران ميسينيه ومرة أخرى دمّر مدينتيْ إليس وپيلوس بلا جريرة، كذلك أحرق بيتي بالنار وتركه خاوياً بعد أن قضى على مَنْ فيه بحدّ سيفه، ولن أشير بكلمة إلى ضحاياه العديدين، وحسبي أبناء نيليوس الإثنى عشر، وقد كنا آنذاك فى أوج الشباب نحن أبناء

نيليوس، لكنه بطش بهم جميعاً سوايْ. ولو أننا سلّمنا بهزيمة الجميع فقد كان مصرع پيريكليمينوس شيئاً عجيباً، ذلك أن نپتون مؤسس سبط نيليوس قد زوّد ذلك الصّبيّ بقدرة يقوَى بها على أن يبدو فى أية هيئة يشاؤها وأن يتخلّص منها حين يريد. ولقد بدّل پيريكليمينوس هيئته إلى جميع الأشكال تحاشيا لهرقل، غير أن ذلك كله لم يُجْده نفعاً. فقد أحال نفسه إلى الطائر الأثير عند كبير الآلهة والذي يحمل بمخالبه المحدّبة صواعقه، وأخذ ينهش وجه هرقل بمنقاره المعقوف ويخبطه بجناحيه ومخالبه، فتصدّى البطل التيرنثي له بأن شدّ قوسه إلى صدره وأطلق سهمه الذي لا يخطىء أبداً، فنفذ فيه وهو بين طبقات السّحب عند مَنْبت جناحه. ومع أن الجرح لم يكن عميقاً إلا أن العضلات الممزّقة عجزت عن أداء وظائفها وأفقدت النسر قدرته على الحركة والطيران، ولم يقو جناحاه المتهاويان على التحكّم فى الهواء فسقط على الأرض وهوى جسده فوق السهم الذي كان عالقاً بجناحه، فاندفع خلال صدره حتى نفذ من جنبه الآخر. أوَتظن أن من واجبي بعد ذلك أن أثني على هرقل أيها الرّبان الوسيم لأسطول رودس؟ ومع ذلك فكل ما أستطيع أن أثأر به لإخوتي هو أن أتجاهل ما كان لهرقل من بسالة، لأن الصداقة التي تربط بينك وبيني وثيقة».

بهذه العبارات التي جرت على لسان الشيخ بليغة رقيقة، اختتم قصته، ودارت كؤوس النبيذ ثانية، ونهض الجالسون عن المائدة ليأووا إلى مضاجعهم ما تبقّى من الليل.

مـــوت أخيـــل

استبدّ الحزن بالإله نپتون الذي يبسط سلطانه على أمواج المحيط بصولجانه ثلاثيّ الشُّعَب لمصرع ابنه سيجنوس الذي مُسخ بجعة من بجعات فايثون، فأخذ يستنزل اللعنات على أخيل السّفّاك معبّرا بإفراط عن غضبه المحتدم. وأخيراً، وعندما طالت الحرب حتى أوشكت أن تبلغ سنوات عشرا أخذ فى الحديث مع أپوللو المسترسل الشعر قائلاً: «يا أعزّ أبناء أخي عندي، يا مَنْ شاركتني فى بناء أسوار طروادة دون أن تجني من ورائها نفعاً؟ ألاَ يؤسفك أن ترى هذه القلعة المشيّدة تُشرف على الزوال؟ ألاَ يحزنك مصرع الألوف العديدة من الطرواديين دفاعاً عن أسوارها؟ ألاَ يتراءى لعينك طيف هكتور ـ من بين القتلى ـ وجثته تُجَرّ على الثّرى مرّة بعد مرّة

حول پرجامون موطنه الغالي، ومع ذلك لا يزال أخيل يستمتع بالحياة، هذا البطل الهمجي الوحشيّ الذي هدم ما شيّدناه، وسفك من الدماء أكثر مما تسفكه أية حرب، فليأت إليّ ولسوف يرى ما ستُنزله به حربتي ذات الشُّعب الثلاثة! لكن طالما أني لست مخوّلاً لمجابهة خصومي، فلتبطش أنت به بسهم من سهامك الخفيّة، لا يدري من أين أتى ولا يتوقّعه».

وأومأ أپوللو موافقاً إله جزيرة ديلوس، مُستَمْلياً من كراهته لأخيل التي لم تكن تقلّ عن كراهية عمّه له، وإذا بسحابة تطويه لم يلبث أن هبط منها في صفوف الطرواديين. ولمح پاريس وسط المعمعة وهو يصوّب سهامه إلى مُحاربيْن يونانيين غير ذوي شأن فكشف له عن نفسه وقال له: «لمَ تبدّد سهامك في سفك دماء العامة؟ إذا كنت تحمل إعزازاً لذويك فلْتَسْتدر ناحية حفيد إياكوس ولتنتقم منه لأشقّائك الصَّرْعَى!» وأشار أپوللو إلى أخيل وهو يُحدّث پاريس، وكان أخيل ساعتها يحصد بسهامه أعناق محاربي طروادة، ثم أدار أپوللو قوس پاريس ناحية البطل اليوناني، ووجّه بيده الباطشة سهماً أصاب في التوّ هدفه، فكانت هذه أول فرحة أحسّ بها پريام منذ مصرع ولده هكتور. وهكذا لقي أخيل قاهر الأبطال ذائعي الصيت هزيمته على يدىْ جبان كان قد اختطف زوجة يونانية خانت زوجها. لعَمْري لو كنت عرفت يا أخيل يوماً أنك ستسقط صريعاً في حومة الوغى على يد أنثى[10] لآثرتَ الموت بضربة بلطة من يد إحدى ساكنات ضفاف نهر الثيرمودون[11]. ها هو ذا البطل الذي كان يُثير الفزع بين الطرواديين يغدو طُعمةً للنيران وهو مَنْ كان فخرَ اليونانيين وزعيمهم المظفّر في ساحات القتال. وأشرف على حرق جثّته فوق المحرقة الإله الذي زوّده بسلاحه ليخوض به الحرب[12] فتحوّل أخيل العظيم إلى رماد، ولم يتبق منه غير تلك الحَفْنة التي لا تكاد تملأ وعاءً صغيراً، غير أن أمجاده عاشت من بعده حيّة في ذاكرة العالم، فكانت شهرة ابن پيليوس ليست دون عظمته وكان بهما جديراً، كما لم يعبأ بوَحْشة تارتاروس وخُوائها بعد أن مضى راحلا. وكم تسبّب تُرسه في إثارة المعارك بعد موته، وكم احتدم الصراع من أجل الظفر به، وكم تسبّبت أسلحته بإثارة التطاحن والتسابق على الفوز بها. على أنه لم يجرؤ على المطالبة بتُرسه ابن تيديوس ولا أچاكس بن أويليوس، ولا أجاممنون أصغر أبناء أتريوس، ولا أخوه منيلاوس المحارب الأكبر سنّاً والأشدّ بطشاً. ولم يثق أحدٌ بجدارته للمطالبة بهذا المجد سوى أچاكس بن تيلامون وأوديسيوس بن لايرتيس. وعرف الملك أجاممنون سليل تانتالوس كيف يَخْلُصَ من مُهمّة قد تجُرُّ عليه الأحقاد، فدعا قادة أرجوس إلى الاجتماع وسط المعسكر ونصبهم قضاة ليفصلوا بين المتنافسيْن.

الكتاب الثالث عشر

الكتاب الثالث عشر

أچاكس وأوديسيوس يطالبان بأسلحة أخيل

اصطفّت جماهير الجند وقوفا حول القادة الذين اتخذوا مجالسهم، ونهض أچاكس صاحب الدَّرق [التُّرس] المجدول من جلود ثيران سبعة، وانبرى يخطب فيهم غاضباً ثائراً وعيناه عالقتان بشواطىء سيجيا وبالسفن الراسية عندها، ملوّحا بقبضة يده وهو يصيح: ها أنذا أمام سفن الأسطول يا چوپيتر أدافع عن قضيّتي أمام مَنْ جَرُؤوا على أن يسوّوا بيني وبين أوديسيوس! هذا الذي فرّ هارباً من نيران هكتور(1) بينما اقتحمتُها أنا لأدفعها بعيداً عن سفننا، والذي يُؤْثِرُ المقارعة بالحُجّة على المجاهدة بالسيف، ففصاحته فى الخطابة تعدل بأسي فى القتال، وإنى لراغبٌ عن منازلته بالكلام على قدر ما هو راغب فى تجنّب منازلتي بالذراع. على أن ما اضطلعتُ به من مآثر ليس فى حاجة إلى أن تُفصح عنه كلمات فقد عايشتموها أيها اليونانيون، وما أعْوَزَ أوديسيوس إلى الحديث عن مآثره ومنجزاته التي لم تشهدها سوى ظُلمة الليل. إن الجائزة التي أطمعُ فيها لَعظيمة، غير أن مطالبة أوديسيوس بها يُفْقدها كل قيمة، ولن يُباهى أچاكس بجائزة مهما عَظُم شأنها إذا ما تطلّع إليها أوديسيوس. وها هو ذا الآن على وشك أن يظفر بمجد تليد، فمع هزيمته أمامي سيغدو مشهورا، إذ حَسْبُه أنه جعل نفسه ندّاً لي.

لوحة ١١٢ . بيكار: أجاكس وأوديسيوس يطالبان بشكّة أخيل الحربية أمام قادة الإغريق.

وإذا كان ثمة شك فى شجاعتي فإن لى إلى جانب ذلك سَنَداً قوياً هو نُبل مَحْتدي ، فأنا ابن تيلامون الذي اقتحم أسوار طروادة بأسلحة هرقل الشجاع ، كما أقلع فى سفينة الأرجو التي شُيِّدت فى پاجاساى حتى بلغ شواطىء كولخيس . ثم إنَّ جَدِّى هو أياكوس الذي يفصل بعدله بين الموتى الهامدين فى غياهب المملكة التي يلقَى فيها سيزيفوس بن أيولوس عذابَه مشدوداً إلى صخرة . وكذا يعترف چوپيتر كبير الآلهة بأبوّته لأياكوس وهو ما يجعلني من الرعيل الثالث لأحفاد چوپيتر . وما كان لى أن أزجَّ بهذا النّسب فى قضيّتي هذه لولا أنه نسبُ أخيل العظيم، فلقد كان أخي وابن عمّي ، ولهذا فإنني أطالبُ عن حق بإرثي منه . وأما أنت يا أوديسيوس يا مَنْ تُشبه جدّك سيزيفوس فى الغشّ والخداع ، فكيف تستبيح إقحام اسمك فى نسب أسرة أياكوس وأنت غريب عنها؟ . أوَ ترفضون أنتم مَنْحي هذه الأسلحة وقد سبقتُه إلى ميدان الوغى دون أن يستحثّنى أحد؟ أوَ تُفضّلون آخرَ مَنْ حَمَلَ السلاح بعد تقاعسه عن الحرب مدّعياً الجنون حتى كشف عن خدعته التي فضحت جُبْنه داهيةٌ أشدّ منه دهاءً؟ لقد كان پالاميديس بن ناوپيليوس هو الذي حَمَلَ أوديسيوس على الانضمام إلى صفوف المقاتلين بعد أن كان يروغ عن الحرب . أيحقّ له أن يحمل تلك الأسلحة الثمينة بعد عزوفه عن حَمْل السلاح؟[٢] وهل أحْرَمُ أنا من إرث قريبي لإقدامي على المخاطرة منذ البداية؟ ليته كان مجنوناً حقاً أو ليْته بقي كذلك بين الناس! وليتنا لم نَنْسَقْ إلى نصائح هذا الوغد الإجرامية ولم نندفع صوب القلاع الفريچية! فلولا ذلك ما لحق بنا عار ترك فيلوكتيتيس بن پوياس فى ليمنوس ، حيث يقال إنه يأوي إلى أحد كهوف الغابات محركاً أشجان الصخور ببكائه وضراعته للآلهة أن تُنزل بأوديسيوس بن لايرتيس ما يستحق من جزاء[٣] ، وإن كانت الآلهة موجودة حقاً فلابد أن يُستجاب لهذا الدعاء . إن هذا البائس منكود الحظ الذي خرج معنا مُقسماً يمين الولاء لقضيّتنا وكان من قادة اليونان ووريث سهام هرقل قد هدّه المرض والجوع ، وليس له من كساء غير ريش الطيور ، وليس له من غذاء غير لحومها بعد أن ينالها بسهامه ، تلك السهام التي كان عليه أن يقضي بها على طروادة . وبرغم ذلك فهو ما يزال حيّاً لأنه لم يُصاحبْ أوديسيوس فى سفينته . كذلك كان پالاميديس السيِّئ الطالع يفضّل لو خلّفناه هو الآخر فى ليمنوس ، ولو حدث ذلك لبقى حياً أو مات دون أن يُرمى بتهُمة ظالمة ، ذلك أن خصمي يذكر جيداً أن پالاميديس قد مرّغ اسمه بالوحل حين كشف عن ادّعائه الجنون ، ولم يغفرْها له أوديسيوس فاتّهمه زوراً بخيانة الإغريق مدلّلا على هذه التهمة بتقديم سبائك ذهب كان قد خبّأها فى مكان أمين من قبل . وهكذا استطاع

أوديسـيوس أن يُوهن من قـوة الآخـيين بنفى ْالبـعض وقـتل البـعض الآخـر . كـان هـذا أسلوب أوديسيوس فى الحربَ ، وبهذا الأسلوب نفسه كان يُروِّع مَنْ حوله ويُرهبهم .

ومع أنه يملك من البلاغـة ما يبزّ به نسطـور الوفيّ فإنه لـن يستطيع إقناعي بأنه لـم يرتكب جُرما حين هجر نسطور العجوز الذي أنهكه الإعياء ، وكان جواده جريحاً فتوسّل إليه أن يُغيثه فلم يستجب لرجاء مَنْ كان له رفيقاً . وإن ديوميديس بن تيديوس ليشهد أنني لا أختلق هذه الاتهامات ، فقد نادَى على أوديسيوس باسمه مرات عدّة ونعَى عليه ذعره وهروبه ، غير أن الآلهة ترعَى أمورَ البشر من عليائها بالعدل ، فها هو ذا مَنْ رفض مساعدة نسطور يحتاج هو نفسه إلى مساعدة ، وكما تخلّى عن غيره كان طبيعياً أن يتخلّى عنه الآخرون ، فحين أخذ يصيح منادياً زملاءه بأعلى صوته أسرعتُ إليه فرأيته شاحب الوجه يرتعد فزعاً وذعراً من الموت الذي يتهدّده ، فحميتُه بتُرْسي المنيع وهو جاث على الأرض وأنقذت حياته عديمة القيمة ، وإن كان هذا فى نظري أمراً لا يستدعي أن أثاب عليه ! ولئن كنت مُصراً على منافستي على الفوز بهذه الأسلحة فلْتَعُدْ معي إلى حيث أنقذتُك من أيدي الأعداء . لتَعُدْ بجُرحك وذُعرك المعهود إلى حيث العدو ، وهَاك تُرسي لتختبيء وراءه وحاولْ وأنتَ فى حمايته أن تبارزني . إنني لم أكد أيّها السادة أنتزع هذا المحارب مما يحوق به من خطر ـ وكان جرحه قد أوْهَنَ قواه فلم يَعُدْ يقوَى على الوقوف ـ حتى انفلت هارباً كما لو لم يكن به جرح يعوقه عن العَدْو . وتقدم هكتور إلى المعركة فى صحبة آلهته ، وكان يبثّ الرعب حيث مضى لا فى قلبك وحدك يا أوديسيوس بل فى قلوب جميع الشجعان ، فما كان أشدّ الهَوْل الذي يصاحبه فى خَطْوِه ، وقد استطعت أنا فى اللحظة التي كان يسعد فيها بطعناته الدامية أن ألقيه على ظهره حين قذفته من بُعد بصخرة ثقيلة ، حتى إذا تقدم يطلب النّزال انبريتُ له وكنت الوحيد الذي جَرُؤ على ذلك . ولقد تضرّعتم للآلهة أيها الآخيون أن يقضي الاقتراع باختياري لمنازلته ، واستجابت الآلهة لضراعتكم ، أوَتُريدون أن تعرفوا ما انتهت إليه المبارزة؟ إنّ هكتور دون ريب لم يتغلّب عليّ . ثم أين كان أوديسيوس البليغ حين تقاطر الطرواديون على سفن الإغريق بالسيوف والنيران فى حماية چوپيتر؟ لقد وقفتُ أحْمي بصدري سفنكم الألف التي كانت محطّ آمالكم فى العودة إلى الوطن . هَبُوني إذن هذه الأسلحة نظير تلك السفن العديدة .

وإذا أذنتم لى أن أقول الحق فإن أسلحة أخيل تترقّب النصر على يديّ أكثر مما أترقّبه أنا منها ، فمَجْدُها رهنُ مجدي أنا . إن السلاح هو الذي يُهيب بأچاكس ، وليس أچاكس هو الذي

يُهيب بالسلاح. فليُقْبلْ أوديسيوس أمير إيثاكا الذي لا يزن شيئاً، وليقارن بين ما أنجزتُ وما أنجزَ هو، وليُحدّثْنا عن سفكه دماء ريسوس ودولون الجاهل بفن القتال، وعن أسْره الكاهن هيلينوس بن پريام، وعن سرقته تمثال «الپالاديوم» المقدّس من معبد پاللاس. إنه لم ينجز شيئاً قط فى وَضَح النهار، ولم يُقْدم على عمل دون عون ديوميديس، فإذا ارتأتيم منح هذه الأسلحة إلى مثل هذيْن الحقيريْن الفاريّن من واجب القتال فليتقاسماها وليكن لديوميديس أكبر النّصيبيْن. لكن ما جدوى منح هذه الأسلحة إلى ابن إقليم إيثاكا الذي لا يتحرك إلا فى الظلام، ولا يستطيع أن ينال من عدو إلا بالخديعة شريطة أن يكون هذا العدو قليل الحيطة؟ إن بريق خوذته الذهبية هو الذي سيكشف عنه وهو مختبيء فى الظلام، ولو أنه ارتدى خوذة أخيل لما استطاع تحمّل ثقلها الثقيل، كما لن تستطيع ساعداه الهزيلتان حَمْل رمح أخيل المقدود من دردار غابات جبل پيليون، وسيُثقل التّرس المنقوش عليه صورة الكَوْن بأسره على يسراه المتخاذلة التي لا تحذق إلاّ الخطف والسرقة. كيف تطمعَ أيها الصّفيق فى هبة لن تَزيدك إلاّ وَهَنا؟ وما أشدّ فرحة العدو إن أخطأ الإغريق ومنحوك هذه الجائزة، فما أيسر عليه أن يستردّها منك لا أن يهابها وهى فى حَوْزَتك! قد تكون القدرة على الإدبار والفرار هى ميزتك الوحيدة يا أجْبن الجبناء، لكن سرعتك سوف تتباطأ إذا حملت مثلَ هذه الأسلحة الثقيلة. ولتنظر إلى تُرسك الذي لم يُختبر فى القتال إلاّ لماما ويبدو وكأنه لم يُمَسّ، بينما يحمل تُرْسي ألف أثر من ضربات السيوف التي تعرّض لها وما أحْوَجه إلى أن يُستبدل به غيره. ثم ما أجْدَرنا أن ندع الكلام جانباً ونحتكم إلى القتال، فلتُلْقُوا بأسلحة البطل أخيل بين صفوف الأعداء، ثم لتأمرونا بأن يهبّ كلانا لاستردادها لتكون من حق مَن يعود بها».

ولاذ ابن تيلامون بالصمت وسرت تمتمات التقريظ بين الجميع إلى أن نهض ابن لا يرتيس واقفاً، فأطْرَقَ قليلاً ثم رفع رأسه وجال بناظريه بين قادة الجيوش، وانفرجت شفتاه استعداداً للكلام وبدأ يتحدث بأسلوب بليغ مثير قائلا: «أيها الإغريق. لو كانت الأقدار قد رعت آمالنا جميعاً لكُنّا الآن فى غنىً عن الخوض فى أمر هذا الإرث، ولبقيتَ يا أخيل بيننا حيّاً حاملاً أسلحتك ولكُنّا أكثر سعادة بوجودك بيننا. لكن الأقدار القاسية قد أبت أيها الأصدقاء أن يَبْقى بطلنا بيننا [وهنا تظاهر بمسح أدمع ترقرقت فى عينيه] فَمَنْ أحقّ بخلافة أخيل سوى من نصَّبه قائداً لجيوش الإغريق؟ إن كل ما أطلبه منكم هو ألاّ يستميلكم إليه خصمي البطيء الفهم العاري من الفطنة و الذكاء، وتلك حقيقة لا مراء فيها. كما أرجو ألا يستثيركم أحد ضدّي لما

أتمتّع به من ذكاء لم أستخدمه قط إلاّ لنفعكم أنتم. فلا تدعوا بلاغتي - إذا صحّ وصف حديثي بالبلاغة - تنقلب سبباً لبُغْضكم إيّايْ، فلساني الفصيح يدافع الآن عن صاحبه الذي طالما دافع عنكم، أوَليس من حق كل امرىء أن يستثمر المَلَكة التي وُهبَها؟.

إن نُبْل أنسابنا ومآثر أجدادنا - وهى ليست من صُنع أيدينا - لا تنهض مسوّغاً لتمييزنا عن غيرنا، لكن، مادام أچاكس قد أثار اتصال نسبه بچوپيتر فإنني أستطيع أيضاً الزُّهُوْ بأن چوپيتر كان مؤسّس أسرتي، فأنا أنتسبُ إليه فى الدرجة التي ينتسبُ بها أچاكس إليه. وإن أبي لا يرتيس هو ابن أركسيوس بن چوپيتر، هذا إلى أنه ليس بين أسرتي من أدينَ ونُفِيَ خارج وطنه[٤]، كما أن نُبل نسبي يتجلّى أيضاً فى قرابتي لميركوريوس عن طريق أمي. وهكذا ينتمي كلٌ منْ والدىّ بجدّ من أجدادهما إلى إله. ومع ذلك فلستُ أطالب بهذه الأسلحة المطروحة أمامكم لأنني من سلالة أنبل من سلالة أچاكس لو قدّرنا فى الحُسبان نسب أسرة والدتي، هذا إذا أضفنا أن أبي لم يسبق له أن سَفَكَ دمَ أخ له[٥]. إنى أطالب بأن تَزِنُوا هذه القضية بميزان العدل والإنصاف على ألاّ تُضْفُوا على أچاكس ميزة ما لا لشىء سوى أن تيلامون هو شقيق پيليوس. ولا تقضوا بإعطاء هذه الأسلحة إلاّ لمن كان ذا شجاعة وجرأة دون التفات إلى مجد الأسلاف. ولئن كنتم تبحثون عن أقرب أقارب أخيل وأقرب ورثته فأمامكم پيليوس والد أخيل أو ابنه پيروس. فما هو إذن حق أچاكس فى الإرث؟ أوْلى بكم أن تحملوا هذه الأسلحة إلى حيث وُلد أخيل فى فْثِيَا أو إلى حيث لجأ قبل حرب طروادة فى سكيروس! ثم إن تيوكروس ليس أقل قرابة لأخيل من أچاكس[٦]، ومع ذلك فهل رأيتموه يطالب بنصيبه؟ وحتى لو طالب به فهل كان له أن يأخذه؟

وإذا كان الأمرُ منافسةً بالمآثر وحدها، فليس فى استطاعتي أن أحصرَ لكم الكم الهائل من إنجازاتي، ولو حاولتُ أن أسردها عليكم وفق تتابعها الزمني لرأيتم أن كلاً منها كانت نتيجة لما قبلها وسبباً لما بعدها. فلقد كانت أم أخيل - وهى إحدى حوريات النيرياديس - قد تنبّأت بالميْتة التي تنتظر ابنها فألبسته ثياب النساء تخدع بها الجميع ومن بينهم أچاكس الماثل أمامكم، ورحتُ أنا أعرضُ على أخيل سلعاً من تلك التي تستهوي النساء بعد أن دسستُ بينها بعض الأسلحة التي تثير فضول الرجال الشّجعان، فما كاد يراها البطل حتى اطّرح عن نفسه ملابس النساء وتناول الرُّمح فى يد والتُّرس بالأخرى، فقلت له «إن طروادة المنيعة التي كُتب عليها الفناء ترقب ظهورك يا ابن الإلهة فلِمَ تُعوِّق سقوطها؟»، وأخذت بِيَدِ هذا البَطل المغوار لأدفع

لوحة ١١٣ . پيكار: أوديسيوس يعرض على
أخيل الذى ألبسته أمه ثياب النساء أسلحة
القتال بين ما يعرضه من سلع النساء.

به نحو مستقبل زاخر بالمخاطر، وأنا لهذا أعُدُّ مآثره مآثري أنا. ومن ثم أكون أنا من أصْميتُ برمحي تليفوس المحارب الشديد البأس، وأنا الذي عالجت جروحه استجابة لضراعته. إن فتح طيبه ليعود إلىّ وحدي. ولا يفوتنكم أن تذكروا لى فتح ليسبوس وتينيدوس وخريسيس وسيللا مُدُن أپوللو، وسكيروس أيضاً، واذكروا أيضا أن يُمناي هى التي دكّت أسوار ليرنيسوس. ففى الحق إني أنا الذي قدّمت إليكم مقاتلاً استطاع أن يصرع هكتور الجبار - ولا داعي لذكر أسماء غيره ممّن قدّمتهم -، فالفضل يعود لي لا لسوايْ فى أن جثة البطل هكتور الجليل ملقاة أمام عيونكم، ولست أريد ثمناً لهذا كله إلاّ تلك الأسلحة التي كَشَفَتْ عن بطولته. إنني أنا الذي أعطيتُه إياها يوم كان حيّاً، وقد آن لي أن أستردّها بعد أن قضى نحبه.

لم يعد الكَرْبُ الذي أخذ بنَفْس منيلاوس هو كَرْبَ رجل واحد بل كرب الداناويين[٧] [الآخيين أو الإغريق] جميعاً، فإذا ألفُ سفينة تحتشد فى ميناء أوليس المواجهة لجزيرة يوبويا، انتظاراً للرياح التي ستدفعها إلى الأمام بعد أن ظلّت معرّضة للرياح التي تردّها إلى المرفأ، وإذا الهاتف الإلهي الذي لا تعرف الرحمة إلى قلبه سبيلا يدعو منيلاوس إلى التضحية بابنته العذراء البريئة قرباناً للإلهة ديانا العَطْشَى، فأَبَى الأب الاستجابة لما قضت به الآلهة جميعاً بعد أن تمكّنت مشاعر الأبّوة من قلبه، وكنت أنا الذي أقنعتُ ذلك الأب الحاني بإيثار مصلحة الأمة على عواطفه[٨]، ولقد كانت لعَمْري محنة شاقة. وليغفر لى ابن أتريوس أنني نجحت فى إقناعه وهو الوالد المكلوم، فغلَبتْ مصلحة الشعب وشرف أخيه والمسؤولية الخطيرة التي يحملها على مشاعره قبل أن يرتضي دفع دم ابنته ثمناً لمجد وطنه. ولقد أوفدوني أيضا إلى أم الفتاة كى أقنعها، وكان إقناعها أمراً عصيّا، فلجأتُ إلى الحيلة حتى أدفعها إلى تسليم ابنتها إلىّ، ولو أنهم كانوا قد عهدوا بهذه المهمة إلى أجاكس لكانت شراعُنا ماتزال مُستكنّة فى المرفأ تنتظر هبوب الرياح المواتية.

كذلك بعثوا بى رسولاً جسورا إلى القلعة الطروادية المنيعة، فمثلتُ بين يدىْ مجلس شيوخ طروادة المهيبة، وكان قادة جيشهم الأبطال شهوداً، وما اعتراني خوفٌ بل دافعت عن القضية التي عَهَدتْ بها إلىّ ممالك الإغريق المتحالفة، فألقيتُ التبعة على پاريس وطالبت بإعادة هيلينا وبما نستحق من ديّة. وكانت لحجّتي أثرها على پريام نفسه كما استملتُ لجانبي أنتنور، وقد أفلتُّ من الوقوع فى قبضة پاريس وإخوته ورفاقه الذين شاركوا فى اختطاف هيلينا

بقيادته. وإنك لتعلم ذلك كله يا منيلاوس، فقد كنا فى ذلك اليوم نجابه معا خطراً واحداً لأول مرة فى حياتينا.

كم يطول حديثي لو شئت أن أقصّ عليكم كل ما اضطلعت به من مهام عادت عليكم بالنفع العميم سواء بحنكتي أو بذراعي خلال هذه الحرب الطويلة، فلقد تحصّن العدو إثر المعارك الأولى وراء استحكامات المدينة ولم تكن ثمة فرصة للاقتتال المباشر، كما لم نلتحم فى قتال صريح إلاّ بعد أعوام عشرة، فماذا فعلتَ أنت يا أچاكس خلال هذه المدة التى لم تنشب فيها معارك وأنت الذي لا تجيد إلاّ المجالدة والنّزال، ؟ وماذا قدّمتَ أيامَها؟ لو سألتني ماذا فعلت أنا لأجبتك بأنني كنت أعدّ الكمائن للعدو، وأقيم التحصينات حول خنادقنا، وأسرِّي عن حلفائنا، وأستحثّهم على احتمال صعاب الحرب بصدور رَحْبة، وأبذل المشورة فى شؤون التسليح والتزوّد بالمؤن، وكم من مهام أسْندَتْ إلىّ كلما دعا الداعي. غير أن مليكنا أجاممنون ما لبث أن هُيِّئ له فى رؤياه أن چوپيتر يأمره بفضّ أيدينا من هذه الحرب. وقد كان من حق الملك أن يتعلّل بما قرّره ناسباً قراره إلى كبير الآلهة، ولقد كان من حق أچاكس أيضا أن يرفض تنفيذ هذا الأمر وأن يطالب بمواصلة القتال حتى تبيد طروادة مادام يملك ذلك. فلماذا لم يعترض طريق الجنود الذين حزموا أمرهم على الرحيل؟ ولماذا لم يقف دون هؤلاء المتلكّئين يردّهم بسلاحه؟ أوَكان هذا كثيراً على محارب لا ينطق إلاّ عن زُهوٍّ وتفاخر؟ إننى أسألكم كيف تفسّرون تخاذله هذا؟ لقد احمرّ وجهي خجلاً يا أچاكس عندما شاهدتُك تدير ظهرك للعدو وتستعد للإبحار بسفنك! لحظتئذ فكّ الإحباط عقدة لساني فصحتُ قائلاً: «ما هذا الذي تفعلونه أيها الرفاق؟ أى جنون هذا الذي يردّكم عن طروادة بعدما باتت فى متناول أيديكم؟ وماذا تراكم ستحملون معكم إلى دوركم بعد قتال دام عشر سنين سوى العار؟»، وأفضتُ فى الحديث حتى نجحتُ بقوة حجّتي وبياني فى دفع المحاربين للعودة إلى صفوف القتال. وحينئذ أمر أجاممنون جيوشه المتحالفة التي كان الفزع مايزال مسيطرا عليها بالعودة إلى الاحتشاد، وعندها لم يجرؤْ إبن تيلامون أن يفوه بكلمة، بينما أطلق ثيرسيتيس العاصي المتمرّد(٩) لسانه يسبُّ ملوكنا فلم أدعه يُفلت بلا عقاب، ورُحْتُ أشُدُّ من عزيمة رفاقي الخائري العزم وأستنفرهم للقاء العدو إلى أن ردّ حديثي إليهم إقدامهم الذي كادوا يفقدوه. لهذا أزْعُمُ أن كل مأثرة جريئة قام بها منافسي منذ تلك اللحظة ينبغي أن تُحسب لي، لأنني أنا الذي رددته عن النكوص إلى مواجهة العدو. ٢٢٠

ثم إننا لو بحثنا بين الإغريق عمّن يمتدحك أو يتوق لرفقتك يا آچاكس ما وجدنا بينهم
أحداً، فى حين كان ديوميديس شريكاً لي فى كل ما أقدمتُ عليه، وهو دائب التقدير لي والثناء
٢٤٠ عليّ، وهو أول من يعترف بأن أوديسيوس رفيقه الجدير بثقته. وما جاء اختيار ديوميديس
لرفقتي أنا من بين آلاف الإغريق اعتباطا، وما خرجتُ للقاء العدو بحكم الاقتراع بل أنا الذي
أقدمتُ بمحض إرادتي مستهيناً بأخطار القتال غير عابىء بالظلام، وأزهقتُ روح دولون
الجاسوس الفريچي الذي كان على غرارنا لا يهاب المخاطر. وما قضيتُ عليه إلا بعد أن
أرغمته على الكشف عما أعدّه العدو فى طروادة الغادرة. وكان بوسعي أن أقنع بما حصلت
عليه وأعود أدراجي، لكنني قصدت خيام ريزوس فى معسكره وقتلته ورفاقه، حتى إذا ظفرتُ
بالنصر الذي تُقْتُ إليه اعتليتُ مركبة خصمي التي استوليتُ عليها ودخلت بها معسكري مظفَّراً
يخفق قلبي بفرحة الفوز. لكم أن ترفضوا إذا شئتم منحي أسلحة أخيل الذي طلب دولون
عدوّنا الطروادي جياده ثمناً لتجسّسه علينا ليلاً[١٠] ولكن فى هذه الحالة يكون أچاكس أكثر
كرماً معي منكم[١١]. هل أذكّركم بمعاركي مع كتائب سارپيدون اللّيسي وكيف أبدْتُها بسيفي
حين أجريتُ نهراً من الدماء غرق فيها كويرانوس بن إيفيتوس وألاسطور وخروميوس وألْكَنْدَر
وهاليوس ونويمون وپريتانيس، وحين قضيتُ على ثوون وخرسيداماس وخاروپس
وإينوموس وآخرين أقل من هؤلاء شأناً[١٢]. وكم نالني من جراح لو كشفتُ لكم عن
مواضعها لعرفتم كم تكون مصدر زهُوّ وفخار لي، وإن كنتم لا تصدّقونني فيما أقول فها هى
٢٦٠ ذى جراحي، فلتنظروا إليها [وعندها أزاح ثوبه بيده وقال]: هاكم صدراً لم يتعرّض إلى خطر
إلاّ من أجل قضاياكم، على حين أن ابن تيلامون لم ينزف قطرة واحدة من دمه خلال هذه
السنين الطوال التي أمضيناها هنا، ويخلو جسده من الندوب وآثار الجراح. ومع ذلك لماذا
تُلْقون بالاً إلى ما يقول بأنه قاتَلَ الطرواديين دفاعاً عن أسطول الإغريق خارجاً بذلك على
مشيئة چوپيتر؟ قد أسلّم له بما يقول، فلقد رفع بالفعل السلاح ضد العدو ولستُ ممن يقلّلون
من شأن أحد حقداً عليه، لكني لا أملك أن أنسب إليه وحده مجداً شاركه فيه غيره. ألا ليته
يعترف لكم بنصيبكم أنتم فى المجد، فپاتروكلوس هو وحده الذي ردّ هجوم الطرواديين
ولاحَقَ بطلهم حين حاول حرق الأسطول، وقد فعل ذلك فى عُدّة خلعت عليه مظهر أخيل،
وها هو ذا أچاكس يدّعي أنه هو وحده الذي تجاسر على مواجهة هكتور متناسياً أنه لَقِيَهُ بعد أن
لَقِيَهُ مليكُنا وقادتنا وبعد أن لقيتُه أنا، والحق إنه كان تاسع مَنْ تصدّوا لهذا الواجب المقدس،

كما أن الإقتراع هو الذي هيّأ لي هذه المهمة، ثم لتخبرني أيها البطل الشجاع بما انتهت إليه مبارزتكما، فمبلغ علمي أن هكتور قد خلّف ميدان القتال دون أن يناله جرح واحد.

ألا ما أعمق حزني وأشدّ أساي وأنا أستعيد الآن ذكرى اليوم الذي سقط فيه أخيل بطل الإغريق وحاميهم الذي لم تُقْعدني الهموم ولا الدموع عن رفع جسده الممدّد فوق التراب وحمله إليكم على كتفيّ هذين بأسلحته وعُدَّته التي أتطلّع اليوم إلى أن أرتديها، وأرجو أن تُعينني قوّتي على تحمّل ثقلها جزاءً للشرف الذى تمنحونني إياه. هل يُرضي أمّ أخيل حورية البحر أن تؤول أسلحة ابنها التى هبطت إليه من السماء والتى تعدّ تحفة فنية بالغة الروعةً إلى جندي جلف أحمق يفتقر إلى الإدراك السليم؟ إن أجاكس هذا يقصر عن فَهْم معنى النقوش التي تغطي التّرس والتي تصوّر البحر واليابسة بمدنها العديدة وآفاق السماوات المرصّعة بالنجوم وكوكبات الثّريا والقلائص والدبّ الأكبر وسيف الجوزاء المتألق. إن أجاكس هذا ليجهل قيمة الأسلحة التي يطالب بها. إنه يتّهمني بالتملّص من واجبات الحرب الشاقة وبالتباطؤ عن المشاركة فى القتال حين بدأ، دون أن يدرك أن فى هذا حطّاً من شأن أخيل العظيم. فإذا كنتم تعدّون تظاهر المرء بغير ما يُبطن جُرماً أكون أنا وأخيل مُدانيْن، وإن كنتم تعدّون التّواني عن المشاركة فى الحرب خطيئة فاذكروا أن كلينا - أخيل وأنا - قد توانى عن المشاركة، ومع ذلك فقد سبقتُ أخيل إلى المعركة، وما عوّقني إلاّ زوج مُحبّة، وما أخرّه هو غير عطف أم رؤوم. فعلى حين أعطيناهما أيامنا الأولى وقفنا عليكم بقية أيامنا، ولست أخشى تهمة يشاركني فيها مثل هذا البطل الجبار، ومع هذا فإن التعرّف على مواهب أخيل القتالية يعود إلى فطنة أوديسيوس لا إلى فطنة أجاكس.

ولا تدهشوا حين يطفح لسانُه الأحمق بسبابه إياي فهو يصبّ عليكم أنتم أيضا وابلاً من السباب المهين، فإذا كان يَشينني أنني قذفتُ پالاميديس بتهمة باطلة، فهل كان مما يشرّفكم أنكم أنتم مَنْ قضيتم بإدانته؟ لا. . لقد عجز ابن ناوپليوس عن تبرئة نفسه من جُرم ثابت مُشين. ثم إنكم لم تستمعوا إلى التهمة التي وُجِّهت إليه فحسب بل شاهدتم كذلك دليل جريمته بأعينكم وهى الرشوة ذهبا. وليس عدلاً أن ألام الآن من أجل بقاء فيلوكتيتيس بن پوياس حيّاً حتى اليوم فى جزيرة ليمنوس الأثيرة عند الإله ڤولكانوس، فأنا لم أنفرد بأمر كنتم معي فى الإجماع عليه، ولست أنكر أنني نصحته باعتزال الحرب والأسفار والتزام الراحة رِفْقا بجسده الذى

أعيته الآلام فاستجاب إلى نُصحي ومن ثم . . . . . . بقى حيّاً حتى الآن ، وهو ما يثبت أنني لم أصدر رأيي عن حسن نيّة فحسب ـ وقد كان هذا وحده كافياً ـ بل لقد كان له فائدته المؤكدة أيضاً . وإذا كان عرّافونا يريدون دعوته اليوم ليُسْهم فى الإجهاز على برجامون فأناشدكم إعفائي من إبلاغه بهذه الرسالة ، ولعل ابن تيلامون بما يملك من بلاغة يكون خير سفير لهذه المهمة لقدرته على تهدئة سورة غضب بطل يفترسه الألم ، ولعله يجد حيلة سديدة يُخرجه بها من عزلته . ولسوف يجري نهر سيمويس على الضّد من اتجاهه المعتاد ، ولسوف يُجرَّد جبل إيدا من الشجر ، ولسوف تنقلب الأوضاع بأن تُسْرِع «اليونان» إلى إغاثة «طروادة» قبل أن يستطيع أچاكس الأحمق أن يفيد «الإغريق» بفكره البليد ، وقبل أن يَفْتُر حماسي لما فيه نفعكم أو قبل أن يَفْتُر إخلاصي لكم . وبالرغم من أنك تستطيع يا فيلوكتيتيس بما أوتيت من غِلْظة وفظاظة أن تحقد على جيوش الحلفاء وعلى مليكك وعليّ ، وأن تكيل لي السباب ، وأن تطالب برأسي قرباناً للآلهة ، وتودّ أن لو يُلقيني الحظ بين يديك حتى تستطيع سفك دمي وأخضع لإرادتك كما خضعت أنت لإرادتي ، ومع ذلك كله فإننى مُقبل عليك محاولاً العودة بك ، ولو أسعفني الحظ فلسوف أظفر بسهامك لأضمّها إلى صفوفنا كما ظفرت بسهام هيلينوس الكاهن الدرداني ، وإنني لقادر على ذلك ، مثلما فسّرتُ نبوءة الهاتف الإلهي وكشفتُ مصير طروادة[١٣] ، ومثلما اختلست تمثال منيرڤا الطروادية من محرابها مخترقا صفوف الحراس ، فلم تكن الأقدار لتأذن أن نظفر بهذا التمثال المقدس . أفَيجُوز بعد ذلك مقارنة أچاكس الباسلِ بي؟ وأين كان أچاكس العظيم مما كان يفاخر به من عبارات مثيرة ملتهبة؟ ولماذا استبدّ به الخوف خلال تلك المحنة فتوارَى؟ ولماذا جَرُؤ أوديسيوس على اختراق صفوف العدو الحصينة محتمياً بالظلام ، والنفاذ عبر أنصال سيوفه المسلولة متخطّيا لا أسوار طروادة فحسب بل وبلوغ قمم قلاعها لسلب تمثال الإلهة من محرابها والعودة به إليكم عبر دفاعات العدو أيضا؟ لو لم أنجح فى هذه المهمّة لما كان لتُرس ابن تيلامون ذى طبقات جلود الثيران السبعة فى يسراه نفعٌ! لقد كان الاستيلاء على طروادة ليلتئذ ثمرة جهدي أنا ، فقد مهّدت الطريق نحو فتح حصون طروادة . ولتكفّ يا صديقي عن الغمز واللّمز لتذكّرنا بأن تيديوس كان يرافقني ، فإنني مُقِرٌّ بأن له بعض الفضل فيما تم إنجازه ، لكنك أنت أيضا لم تكن وحيداً حين انبريت بترسك مُدافعا عن أسطول الحلفاء ، فقد كنت مصحوبا بالعديد من الرفاق بينما لم يكن معي غير رفيق واحد ،

لوحة ١١٤. پيكار: قادة الإغريق يقدمون پوليكسينا إبنة الملك پريام قربانا للآلهة بعد هزيمة الطرواديين.

ولو لم يعرف ديوميديس أن الحكمة ينبغي أن تسبق الشجاعة وأن القوة لا تستأثر وحدها بحق الظفر بالأسلحة هذه لطالب بها هو كذلك، ولطالب بها أجاكس الآخر[١٤] الذي يفوقك تواضعاً، وكذلك يوريپيلوس المقاتل الرهيب ثم ابن أندرايمون ذائع الصيت، وإيدومينيوس ومواطنه ميريونيس، ومنيلاوس أصغر أبناء أتريوس. ومع ذلك فإنهم جميعاً رغم قوتهم البدنية الفائقة وجسارتهم فى الحرب التي أتكافأ معهم فيها حتما قد سلّموا بتفوّق حكمتي على حكمتهم. وإذا سلّمنا بأن يمينك بطّاشة فى المعارك، فما أحوجك إلى تلمّس مشورتي حين تحين لحظة الحسم، فإذا كنتَ تملك القوة فما أعْوزك إلى ذكائي المقتدر على تحديد ملامح المصير. حقاً إنك تُجيد القتال، غير أن منيلاوس بن أتريوس لا يحدّد لحظة الهجوم إلاّ بمشاورتي، فأنت تخدم الإغريق بجسدك بينما أخدمهم أنا بعقلي، وكما أن ربّان السفينة أعلى شأناً من ملاّحيها الضاربين بالمجاديف، وكما أن القائد المحنّك أعظمُ شأناً من الجندي العادي، فأنا أفوقُك أهمية كما يفوقُ القلبُ اليدَ أهمية فى جسد الإنسان، لأن القلب هو منبع القوة كلها.

عليكم الآن يا قادة الإغريق أن تقلّدوا الأسلحة أقدرَ جُنْدكم، فامنحوني هذه الجائزة لقاء السنوات الطوال التي بذلت فيها الكثيرَ من الجَهْد وعانيتُ الكثير من القلق، امنحوني هذا الشرف جائزة لخدماتي. لقد قاربتْ مهمتي الانتهاء، وكم من عراقيلَ وضعها القدر فى طريقنا أزحتُها عنكم، كما نجحتُ فى أن أهيّئ لاجتياح پرجامون، بل لقد استوليتُ عليها بنفسي. إنني أناشدكم بالآمال التي نتطلع إليها معاً، وبأسوار طروادة الموشكة على السقوط فى أيدينا، وبالآلهة التي انتزعتُ تماثيلها من أيدي الأعداء، وبكل مايزال أمامنا ممكنا إن استخدمنا الحكمة، أن تذكروني إن كان ثَمَّ مايزال علينا إنجازه من مهام عسيرة محفوفة بالمخاطر للقضاء على طرواده. . . أما إذا ما رأيتم ألاّ تمنحوني هذه الأسلحة فلتعطوها إلى هذه الإلهة [وأشار إلى تمثال منيرڤا] التي ترسم الأقدار وإليها تكون كل المصائر.

وبهذا نجح أوديسيوس فى استمالة زملائه القادة ببيانه، وتجلّى سحر البلاغة وسطوتها بفوزه بعد خطبته الرصينة بأسلحة البطل أخيل، بينما وقف أجاكس الذي كثيراً ما تصدّى لهكتور وواجه أخطار السيوف والنيران وصواعق چوپيتر عاجزاً عن مغالبة الغضب المضطرم

لوحـة ١١٥ . پيكار : فـرار البطل أينيـاس من
أطلال طرواده، حاملا تمثال الإلهة پالاس
وأباه أنخيسـيس مـصطحبـاً ابنه الصبىّ
أسكانيوس.

في أعماقه. وإذ قهر الأسى والحنق أچاكس العصيّ على القهر، لوّح بسيفه صائحاً: «هذا السيف سيفي، أوَلا يريد أوديسيوس أن ينازعني فيه أيضاً؟ لسوف أحتفظ به حتى أزهق به روحي، ولسوف يشرب اليوم هذا النصل من دم صاحبه وهو الذي طالما شرب من دماء الفريچيين، وهكذا لا يقهر أچاكس أحدٌ سوى أچاكس نفسه».

ولم يكد ينتهي أچاكس من كلماته هذه حتى أغمد سيفه الماضي في موضع قاتل من صدره الذي لم يمسّه جرحٌ من قبل، ولم تَسْتَطِعْ كفّه انتزاع النّصل من فتحة الجرح الغائر فيه فبقي حتى دفعه الدم الجارف المنبثق إلى خارج جسده[١٥]، وانتشر الدم ثم تخثّر فخضّب الأرض وصبغها بلونه القرمزي. ولم تلبث أن انبثقت من بين العُشب الأخضر تلك الزهرة القرمزية التي نبتت يوم جُرح الصّبيّ هياكينثوس بن إيبالوس، وقد خُطَّت على أجواف بتلات الزهرة حروف تشير إلى اسميْ الغلام والبطل معا، فهي تسجّل اسم البطل وصيحة أسى الصّبيّ في آن معا[١٦].

هيــــكوبـا

ما كاد أوديسيوس يَظْفَرُ بالجائزة حتى أبحر صوب ليمنوس وطن هيپسيپيليه وأبيها الملك ثواس المشهور - وهي الجزيرة التي تدنّست قديما بجريمة قتل النساء لأزواجهن[١٧] - بغية الحصول على سهام هرقل التي كانت فيها. وما كاد يبلغها حتى أخذ السهام ومضى بها إلى الإغريق مصطحباً معه فيلوكتيتيس صاحبها، وبذلك أنهى حرباً طال أمدها، إذ ما لبثت مدينة طروادة أن هوت وسقط بسقوطها پريام. وبعد أن فقدت زوجة پريام التعسة كل ما كانت تملكه إذا هي تفقد كذلك هيئتها الإنسيّة، وانطلقت تملأ بنباحها المُعْوِل أجواء منفاها المُشرف على مضيق الهيلسپونت المختنق بضفّتيه.

كانت ألسنة اللهب تحرق طروادة بنارها، ومحراب چوپيتر يرشف القطرات القليلة المتبقية من دم پريام الكهل، والمنتصرون يشدُّون كاهنة فويبوس من شعرها وهي تستصرخ الآلهة رافعة ذراعيْها ضارعةً دون جدوى، وأمّهات الأسر الطروادية يحتضنّ تماثيل آلهتهنّ ويُقَبِّلنها قبل أن يأتي على معابدها الحريق، والإغريق الظافرون يسوقونهنّ أمامهم وكأنهن فرائس يتسابقون

على الفوز بها، ويلقون بأستياناكس بن هكتور[١٨] من فوق أحد الأبراج التي كانت أمّه تدفعه إلى أن يتطلّع منه إلى أبيه وهو يقاتل دفاعاً عن وطنهم وعن مملكة آبائهم.

وحثّت ريح الشمال الإغريق على الإبحار، وكانت هبّاتها المواتية تهزّ الأشرعة التي أخذت فى الخفقان، وأشار الملاّحون على الجند بالإسراع للإفادة من هبوب الريح، وصاحت نساء طروادة الأسيرات بعد أن قبّلن ثَرى بلادهن وخلّفن وراءهن ديارهن التي كانت تنفث دخان الحريق: «واه طرواده . . . وداعا. إننا ننسلخُ عنك رغم أنوفنا سبايا». وكانت هيكوبا [هيكابي باليونانية] التي يُثير منظرُها الرثاء آخرَ مَنْ غادر أرض الوطن، وقد عثر الجنود عليها بين لحود أبنائها وهى تحاول تقبيل عظامهم، فجرّها أوديسيوس عَنْوةً بعد أن أفلحت فى القبض بكفّيها على حفنتين من تراب أحد القبور ممتزجاً برماد جثة ابنها هكتور وضمّته إلى صدرها بعد أن تركت على رمس هكتور خصلة من شعرها الأشهب ممتزجاً بدموعها قرباناً لمن فقدتهم.

وكانت طراقيا التي يحكمها پوليمسطور المُترف تواجه عبر البحر فريچيا التي تلألأ فيها نجم طروادة ذات يوم، وكان پريام قد بعث بابنه پوليدوروس خفْيةً إلى الملك الطراقي لينشأ بعيداً عن أخطار الحرب الطروادية. وكان هذا منه تدبيراً حكيماً لولا أنه زوَّد ابنه بثروة طائلة كانت كفيلة بإثارة الطامعين للظفر بها. فلم تكد الدائرة تدور على مواطني طروادة حتى نَضَا الملك الطراقي الجاحد سيفه وأغمده فى حلق الصّبيّ الذي كان عليه وصيّا، ثم ألقى بجثته الهامدة فى البحر الصاخب من فوق صخرة عالية ظاناً أن جريمته ستختفي باختفاء جثة ضحيته[١٩].

وكان أجاممنون بن أتريوس قد أرسَى سفينته حذْوَ الشاطىء الطراقي انتظاراً لسكون البحر وهبوب ريح مواتية، وإذا الأرضُ تنشقّ فجأة فى ذات الموقع ويظهر شبح أخيل مهولا كما كان إبان حياته مهدّدا وقد ارتسمت على وجهه سيماء الغضب والوعيد مثلما حدث يوم أن تحدّى أجاممنون شاهرا سيفه فى غضبة عاتية[٢٠]: «أهكذا أيها الإغريق، تُبحرون وتَنسَوْنني؟ هل واريتم مع جثّتى ذكريات جَوْلاتي البطولية؟ لن يكون هذا! ما أحراكم أن تقدّموا پوليكسينا قرباناً تتقرَّبون به لقبري حتى تهدأ روحي».

ومع أن پوليكسينا كانت العزاء الأخير الباقي لأمها هيكوبا، فقد انتزعها رفاق أخيل القُدامَى من بين ذراعي أمها استجابة لنداء الشبح المهيب، واقتادوا العذراء التعسة التي أبدت شجاعة تفوق شجاعة بنات جنسها كي يذبحوها قرباناً فوق القبر الموحش. ولم تتخل پوليكسينا عن نُبل محتدها حين وقفت أمام المذبح الذي لا يرحم وافداً، وأدركت أنها لن تلبث أن تغدو ضحية هذه الطقوس الوحشية التي يجري إعدادها. وما إن رأت نيوپتوليموس أمامها شاهراً سيفه محدّقاً فى وجهها حتى قالت: «أسْرِع بسفك دمي العريق، فلن يَحُول بينك وبين سفكه شيء. هيّا، أغمِد سيفَك فى حلقي أو فى صدري»، وكشفت له مع كلماتها هذه عن صدرها وعنقها معاً، ثم استطردت قائلة: فلن تقبلَ پوليكسينا أن تكون أمَةً لإنسان. أتُراك تظن مثل هذه التضحية ستنالون بها رِضَى الآلهة عليكم؟ كل ما أرجوه أن يبقى خبر مصرعي خافياً على أمّي، فإن انشغال بالي بها هو الذي يهزّني ويهوّن من فرحة لقائي للموت، فلن يكون موتي وحده هو مصدر عذابها، بل أن أحيا وأكون أمَةً لأحدكم. ولست أبغي غير أن أهوي إلى ظلال العالم السّفلي حرّة طليقة. تَنَحَّوْا عني قليلاً إذا اقتنعتم بعدالة مطلبي، ولا تَدَعُوا يدَ رجلٍ تَمَسّ جسدَ عذراء. وأياً يكن ذلك الذي ستسترضونه بذبحي فإن دم حُرّة لا شك أكثر إرضاءً له من دمِ أمَة. ولو كانت كلماتي ستستدرّ عطف أحدكم فليذكرْ أن مَنْ ترجوكم ليست من أرقّائكم بل هى إبنة الملك پريام. ولست أرجو غير أن تَظْفَرَ أمّي بجثّتي بعد موتي دون أن تدفع عنها فدية، فلا تكلّفوها أن تدفع لكم مكان الدموع ذهباً جزاءَ حظّها المنكود فى إقامة قبر لي، وما كان هذا أيْسرَ عليها حين كان ذلك فى مقدورها». ولم تلبث الدموع التي احتبستها فى عينيها أن انهمرت غزيرة من عيون الحشد المجتمع، حتى الكاهن نفسه لم يستطع هو الآخر أن يحبس عبراته وهو يغرس نصل الخنجر مُثْقلاً بالندم فى صدرها الناهد. وعلى الرغم من ارتجاف ساقيْها وسقوطها على الأرض فقد ظلّت قسمات وجهها تنبىء عن شجاعتها، كما كانت أحرص ما تكون على أن تستر جسدها عن عيون الناظرين فى خفرٍ وحياء.

وهُرعت نساء طروادة إلى جسدها يحملْنه مُعْوِلات مردّدات أسماء أبناء پريام وبناته الذين كم بكَتْ لمأساتهم العيون بعد أن سالت دماؤهم واحداً إثر الآخر، وسِرْن يَنْدُبْن مصير الفتاة

وما أصبحت عليه أمها التي كانت إلى عهد قريب ملكةً وقرينةَ ملك عاشت رمزاً لآسيا المزدهرة، ثم أمست بين الأسيرات أمَةً تعسة لأوديسيوس، وما كان ليأسِّرها لولا أنها أنجبت هكتور الذي كانت بطولته الخارقة سبباً فى أسْرِ أمّه واسترقاقها.

ضمّت هيكوبا جثة ابنتها إلي صدرها تتأملها وقد همدت بعد أن فارقتها روحها المضمّخة بالشجاعة، وانهمرت دموعها من جديد بعد أن انهمرت مرّات ومرّات حزناً على زوجها وأبنائها ووطنها فانسكبت على جرح ابنتها، وغطّت قبلاتها شفتيها وضربت صدرها وما أكثر ما ضربته حسرةً على أعزّائها السالفين المصروعين، ومرّغت شعرها الأشْيب بدم ابنتها المتخثّر، وخمشت جسدها بأظافرها بينا تولول وتصيح: «ابنتاه.... يا ذروة شقاء أمّك، ماذا بقى لي بعدك يا فلذة كبدي؟ ها هو ذا جسدك مُسجّى أمامي هامداً بينا أتأمل جرحك الذي هو جُرحي. يا وَيْحي هل كان قَدرًا محتوماً علىّ ألاّ أودّع أعزّائي إلاّ قتْلَى؟ لقد كنتُ أحسب أدْنَى ما أحسب أنك لن تموتي بنصل خنجر إذ كنت أنثى، غير أنك وقعت ضحية أخيل مدمّر طروادة، ذلك الوغد الذي صرع إخوتك جميعاً فخلّفني ثكْلَى. لقد قدّرتُ حين مزّقْته سهام باريس وفويبوس ألاّ خوف منه بعد، إلا أن رماده حتى وهو فى قبره ما يزال يفرض علىّ أن أخشاه، فهو يثور فى وجهي ووجه أسرتي ممزوجاً بالعداء لنا. أترُاني قد أنجبتُ أولادي كى أقدّمهم فريسة لحفيد أياكوس [أخيل]؟ ها هى ذى طروادة العظيمة قد صارت دمَناً وأطلالاً، وحلّت بدولتنا كارثة مروّعة وانتهت إلى أبشع نهاية. ثم إن الكوارث ما لبثت تُلاحقني وكأنما يرى فىّ الأعداء ما تخلّف من طروادة، أنا التي كنتُ إلى عهد قريب عُظْمى نساء وطني، بزوجي وأبنائي وبناتي وأزواج بناتي وزوجات أبنائي. ها أنا ذا اليوم أساق إلى المنفى تعسة مُنتزَعةً من بين أجداث أسرتي، هديةً إلى پنيلوپي التي ستناولني الصُّوف لأغزله وهى تشير إلىّ أمام نساء طروادة قائلة: ها هى ذي أم هكتور المشهورة زوجة الملك پريام! ابنتاه..... يا مَنْ احتسبتُها بعد أن فقدتُ الكثيرين قبلها، ويا مَنْ كنت سلواى الوحيدة، لقد ذبحوك فوق قبر خصمنا اللدود. أتُراني قد حملتُ بك كى أقدّمك قرباناً لعدوّنا؟ ما أتعسني! وكيف أستبيح لنفسي العيش من بعدك والتواني عن اللحاق بك، ولِمَ أعيش وقد أثقلتني السّنون على امتدادها؟ أيتها الآلهة قساة القلوب لماذا تبطئون بقبض روح امرأة عجوز عاشت طويلاً إلا إذا كان مقدّراً لى أن أحيا لأشهد مزيداً من الموت والشقاء؟ مَنْ كان يظن أن پريام سوف يُعدّ

محظوظاً بعد دمار طروادة؟ إنه لا شك محظوظٌ لأنه قضى نحبه ولن يشهدك قتيلة يا بُنيّتي، فلقد فارق المُلْكَ والحياةَ معاً، فياليتهم يُشيّعونك بمراسم جنائزية تليق بابنة ملك عظيم! يا ليتهم يوارون جثمانك ضريح أجدادك الشامخ! لا، لن تَسْعَدي بهذا التكريم يا بنيّتي فليس لسبطنا أن يحظَى بهذا الشرف. لن تظفري بقربان سوى دموع أمك وحَفْنةً من ثَرى غير ثَرى مَنْشَئك. لقد فقدتُ كل شيء، ولم يبق لي ما يجعلني أرضَى بالحياة أمداً أطول سوى طفل قريب إلى قلبي هو پوليدوروس الذي كان أصغر أبنائي وأصبح الآن وحيدي، وكنا قد بعثنا به إلى شواطئ طراقيا[21] البعيدة ليكون في حمَى مليكها. ولكن، لمَ أضيّع الوقت سُدًى؟ إنه لأجدر بي أن أغسل جرحك الذي قضى عليك ووجهك الملطّخ بدم سفكته يدٌ لا تعرف الرحمة».

نهضت هيكوبا التعسة بعد مرثيتها هذه تسير بخُطى أثقلتها الشيخوخة قاصدة شاطئ البحر وهي تشدّ شعرها الأبيض وتردّد: «إليّ بإناء يا نساء طروادة». وبينا تنحني للاغتراف من المياه الصافية إذا بصرها يقع على جثة طفلها پوليدوروس وقد طرحتها الأمواج على الشاطئ بعد أن أثخنتها الخناجر الطراقية. وفيما انخرطت نساء طروادة في النواح والعويل أصيبت هيكوبا بالخرَس من فرط كربها، فلقد احتبس صوتها وجفّت الدموع في مآقيها وجَمُدَتْ في مكانها وكأنما تحولت إلى كتلة من حجر الصّوان، وأطرقت محملقة بالأرض وأخذت تقلّب وجهها المتغضّن القسمات بين السماء تارة ووجه ابنها وجراح جسده تارة أخرى، فإذا رغبةُ الثأر تحتدم في أعماقها والغضب يغلي في صدرها حتى إذا بلغ عنفوانه عقدت عزمها على الانتقام وكأنها ماتزال ملكة، وشُغل بالها بالوسيلة التي سوف تثأر بها، وبدت كاللبؤة التي انتُزع منها شبلها الرضيع، تهيم على وجهها تتبع آثار أقدام مَنْ انتزعوه وتطارد عدواً تجهله. وهكذا كانت هيكوبا أسيرة مزيج من الحزن والحَنَق، أنْسيَت شيخوختها ولم تنس شجاعتها، فقصدت پوليمسطور السّفاح مرتكب تلك الجريمة النكراء، وطلبت لقاء الملك بحجّة أنها تريد مكاشفته بأمر كنز من الذهب أخفيَ من أجل ابنها فصدّقها الملك الطراقي الذي أعماه جشعه الغريزي، واستقبلها فجاءها وحيدا متلطّفا وهو يقول ماكراً: لا تُضيّعي الوقت يا هيكوبا، وأعْطني كنز ابنك، وأقسمُ بالآلهة أني سأحتفظ به له مع كل ما أوْدَعْته عندي من قبل.».

ومضت تحدجه بنظرة ساخرة بينا يتكلم ويُقْسم حانثا إلى أن فار غضبها المكتوم، فاستدعت حاشيتها من الأمّهات الأسيرات الموتورات فانقضضن على الملك فيما هي تغرز

أصابعها فى عينيه الغادرتين وسَمَلَتْهما ، وإذا غضبها يضاعف بأسها فدسّت أصابعها الملوثة بدمه الآثم مرة أخرى فى محْجِرىْ عينيه المُفرغتيْن اللذين لم يبق فيهما شىء وانطلقت تعبث بهما فى غِلٍّ.

وحين سمع أهل طراقيا بما حلّ بمليكهم تدافعوا يرجمون الملكة الطروادية بالأحجار ويهوُون عليها بالعُصي ، فكانت كلما أصابها حجر فغرت فاها الذي خُلق للكلام دون أن يصدر عنه غير زمجرة أجشّة أشبه بنباح الكلاب . وما يزال المكان الذي شهد هذه الأحداث المفجعة يستمد اسمه من هذه الواقعة إذ يُدعَى مقبرة الكلبة[٢٢] ، بعد أن انطلقت هيكوبا هائمة على وجهها فى حقول طراقيا تُعْولُ عويلا حزيناً يستدرّ الرثاء كلما ألحّت عليها ذكريات شقائها ، إلى أن أثار مصير هذه الملكة التعسة عطف شعبها الطروادي وأعدائها الإغريق بل والآلهة أنفسهم ، فإذا چونو زوجة چوپيتر وأخته تعترف بأن هيكوبا لم تكن تستحق مثل هذا المصير .

ممنـــــون

لم تجد أورورا ربّة الفجر فُسحة من الوقت تُشْغَل فيه بمآسي طروادة وهيكوبا على الرغم مما كانت تتمنّاه من انتصار لجيش طروادة[٢٣] ، فقد استحوذ عليها شجن دفين عندما شاهدت وهى تتسربل بردائها العسجدي ابنها ممنون صريعا بطعنة رمح أخيل فوق سهول فريچيا . وعندها شحب اللون الوردي الذي يكسو ساعات الصباح وَخَبا ضَوْء النهار وراء ستار من السّحب . وحين وُسِّد ابنها فوق المحرقة لم تقو على إلقاء نظرة عليه ، ولم تمنعها كبرياؤها من الارتماء بين ساقىْ چوپيتر مشوّشة الشعر تبكي وتُعْول متوسّلة قائلة : «أدركْ يا ربّ الأرباب أنني أقلّ الآلهة شأناً فى سماواتك الذهبية ، وما شُيِّد لي فى الكون غير معابد قليلة ، ولكني مع هذا لازلتُ إلهة ، وما جئتُ طَمَعاً فى تكريس محراب يُقام لي أو هيكل تتوهّج فيه النار ، ولا رغبة فى الظفر بيوم تُقدّم إليّ فيه القرابين . لم أجيء لهذا وإن كنت أهلاً له على الرغم من ضعفي وأنوثتي ، فأنا مع كل فجر جديد أؤدي لك خدمة جليلةً فأفصلُ الليلَ عن النهار . وما جئتُك أطلبُ حقاً فى تبجيلي أو تكريمي فإن ما أنا فيه من أسىً لا يُبيح لى هذا ، و إنما جئتك لأنني احتسبتُ إبني الفتى ممنون الذي امتشق الحسام ذَوْداً عن عمّه [پريام] فى شجاعة لم تُجْد شيئاً ، فلقد أصماه سهم أخيل وهو ما يزال غضّ الإهاب فى زهرة العمر . إنني أضرعُ إليك أيها

الإله الأجلّ أن تمنحه نصيبا من التكريم كي تخفّف من فجيعتي فيه، وكي تُهدّئ من روع أم ثكلى»، فأوْمأ چوپيتر برأسه استجابة لمطلبها، وسرعان ما تداعت محرقة ممنون الشاهقة وأتت عليها ألسنة اللهب المندلعة وهي تقذف بحَمَم من الدخان الأسود إلى أعلى حتى أظلمت السماء، فكان مَثَلُ هذا الحَمَم المُتصاعد مَثَل الضباب المتصاعد من الأنهار فيحجب أشعة الشمس عن النفاذ، وما لبث ممنون بعد أن غدا رماداً أسود في الأفق أن تحوّل إلى جسد له من النار الدفء والحياة، وخلعت عليه خفّته أجنحة يطير بها، وأصبح بادىء ذي بدء شبيهاً بالطير، ثم إذا هو يصير طيراً حقيقياً يهزّ ريشه فيثير صخباً مدوّياً. وسرعان ما انضم إليه عدد لا حصر له من طيور مثيلة وُلدت مثله مما وُلد منه ملأت أجواز الفضاء بخَفْق أجنحتها، وقد حلّقت حول المحرقة مرات ثلاثاً وهي تولول نائحة كُلَّ مرة. وحين حلّقت للمرة الرابعة انقسمت إلى سربَيْن انطلقا في اتجاهين متضادين، ثم أقبلا يهاجمُ أحدهما الآخر في غضب وشراسة تجلّت في تمزيق أجنحة بعضها البعض وصدورها بمناقيرها ومخالبها المعقوفة، ثم تساقطت أجساد هذه الطيور التي تنتمي إلى أسرة واحدة وكأنها قرابينُ تُقدَّم إلى الرّماد المتبقّي من جثة البطل الذي إليه خلقها، والتي أطلق عليها اسمه إذ سُمِّيت بالممْنونيديس [أي آل ممنون]. ومازالت كلما أكملت الشمس دورة في أبراجها الإثني عشرة تنهض فتستأنف قتالها ثم تموت من جديد تكريماً لمُنْجبها. وعلى حين كانت مأساة هيكوبا بنت ديماس النابحة نباح الكلاب تثيرُ شفقة بعض الآلهة، بقيت مأساة أورورا حبيسة في صدرها. ومازال أورورا تذرف دموع الأم الآسية فتتناثر على الأرض قطرات نَدَى.

أينياس عند الملك أنيوس

وشاءت الأقدار ألاّ تنهار كل آمال طروادة مع انهيار أسوارها، فقد حمل البطل الورع أينياس بن ڤينوس إلهة كيثيرا فوق كتفيه تماثيل آلهة المدينة المقدّسة وهو يغادرها، كما حمل معها أباه الذي يشاركها قدسيّتها، واصطحب معه ابنه أسكانيوس، مخلّفا وراءه كافة مقتنياته الثمينة. ثم أبحر من ميناء أنتندروس فارّا بسفنه المكدّسة بالمهاجرين من قومه عبر البحار مخلّفاً وراءه ديار طراقيا الآثمة الملطّخة بدماء پوليدوروس، وظلّت الرياح المواتية تدفع به حتى بلغ

مع رفاقه جزيرة ديلوس حيث وُلد أپوللو. وكان أنيوس ملكها وكاهنها معاً يرعَى شعبه وإلهه أپوللو بهمّة وورَعْ، ففتح أبواب داره ومعبده لأينياس وطاف به المدينة يدلّه على معالمها ومعبدها الشهير وجذعيْ الشجرتين المقدّستيْن اللتين لاذت بهما لاتو وهي تضع توأم جنينيْها في ظلالهما[٢٤]. وبعد أن نثر الطرواديون البخور على النار وصبُّوا النبيذ على البخور حَسْب العُرف المتبع وحرقوا أحشاء العجول الصغيرة الذبيحة عادوا إلى القصر الملكي حيث أعدّت لهم الفُرُش ثمينة الطنافس، فأكلوا من خيرات الإلهة سيريس وشربوا من نبيذ الإله باكخوس. وعندها قال أنخيسيس الورع: «سيّدي كاهن فويبوس وصفيّه. أتُراني مخطئاً إذا قلت إنه كان لك ولد وبنات أربع حين زرتُ مدينتك للمرة الأولى؟»، فهزّ أنيوس رأسه المعصوبة بشريط أبيض يحفّ بصدغيه، وأجاب في حزن واكتئاب: «لا، لستَ مخطئاً أيها البطل النبيل، فقد كنتُ يوم رأيتني أبا لخمسة أولاد وأكاد اليوم أعيش محروماً منهم، فتلك مشيئة الأقدار التي تتلاعب بحياة البشر، وما يُجديني أن يعيش ابني بعيداً عني في بلاد أندروس التي سُمِّيت باسمه ويحكمها نائباً عني. وإذا كان أپوللو إله ديلوس قد وَهَبَ ابني مَلَكة التنبؤ فقد منح الإله باكخوس بناتي مَلَكات أعلَى شأناً مما توقّعن، فما تكاد أيديهن تلمسُ شيئاً إلاّ تحوّل غلالا أو جداول نبيذ أو زيت زيتون، فكُنَّ بذلك مورد رزقي وأيّ رزق! غير أن أجاممنون الذي نهب مدينتكم انتهت إليه عجائب بناتي فبادر ينتزعهنّ من حضني. وهكذا ترون أن الأعاصير التي أتت عليكم قد أصابتنا ببعض شرورها. وقد قضى أجاممنون بأن تمدّ بناتي أسطول الإغريق بالطعام والشراب، غير أنهن جميعاً أبيْن في إصرار ولُذْن بالفرار، واستطاعت اثنتان منهن بلوغ جزيرة يوبويا، بينما لحقت اثنتان بشقيقهما في أندروس، فاندفع وراءهما جيش العدو متوعّداً بالحرب شقيقهما إن لم يُسْلمهما إليه. وغلبت رهبة العدو في نفس الملك حبه لشقيقتيْه فأسلمهما لمصيريْهما. ألا فلتغفر له خوَره فلم يكن إلى جانبه هكتور أو أينياس يدافعان عن أندروس كما دافعا عن طروادة التي قاومت سنين عشر. وأخذ الإغريق يُعدّون الأغلال لكي يقيّدوا بها أيدي الأسيرتيْن فإذا هما ترفعان أذرعهما صوب السماء صائحتين في ضراعة: «امدُدْ لنا يد العون يا أبانا باكخوس». واستجاب الإله الذي منحهما موهبتهما فأمدّهما بعونه، هذا إذا سمَّينا التحوّل من هيئة إلى أخرى عوناً، وما أدري كيف فقدتا شكليْهما، ولستُ إلى اليوم قادراً على وصف ما وقع لهما، وما أعي غير تلك الكارثة التي حلّت بي منذ

أن نبتت لهما أجنحة ورأى الناس مكانيْهما يمامتيْن بيضاوين بياض الثلج، هذا الطير الأثير لدى زوجتك ڤينوس»[٢٥] .

وأمضى الرّفاق الوقت خلال الوليمة يُسَرُّون عن أنفسهم بهذه القصة وبقصص أخَرْ مماثلة إلى أن انتهوا من طعامهم وأوُوا إلى النوم، واستيقظوا مع الفجر يستشيرون عرّاف فويبوس الذي أشار عليهم بالبحث عن أمّهم العريقة، وعن الشواطىء التي عليها نشأت أسرتهم.

وودّعهم الملك مقدِّماً إليهم ما غلا وعزّ من الهدايا، ووهب أنخيسيس صولجانا، ومنح حفيده عباءة وجعبة سهام، وسلّم أينياس كأساً ثمينة كانت آلت إليه من ضيفه ثرسيس الذي كان يسكن طيبة، وكان صائغها ألكون من هيلاى قد نقش عليها نقوشاً فصّل فيها قصة طويلة تصوّر مدينة ذات أبواب سبعة تدل أوصافها على أنها مدينة طيبة[٢٦] ، وصوّر أمام سور المدينة مشهدا جنائزياً بمواكبه وأضرحته ومحارقه المشتعلة، وكذا الأمهات عاريات الصدور والريح يعبث بشعورهنّ، وحوريات البرّ والبحر باكيات شاكيات جفاف ينابيعهن، وشجرة جرداء عارية، ورهطا من الماعز يقرضُ التربة القاحلة الجرداء التي أيْبَسَتْها حرارة الشمس اللافحة. وصوّر الفنان وسط مدينة طيبة ابنتيْ أوريون[٢٧] اللتين قدّمتا حياتيْهما قرباناً فداءً لسكان مدينة طيبه التي حلّ بها الوباء، فَوَجَرَتْ إحداهما عنقها العاري فى شجاعة لم تُهيّأ للعذارى، بينما أغمدت الثانية طرف مغزلها فى قلبها، وهكذا لقيتا حتفيْهما شهيدتيْ موطنهما بسلاح ليس فى الحقيقة سلاحاً. ثم صوّر جسديهما محموليْن فى موكب جنائزي مهيب اخترق المدينة صوب المحرقة التي التهمت نيرانها جَدَثَيْهما على مشهد من جماهير المشيّعين الحزينة، وفجأة ينهض من رماد العذراويْن شابان اشتهرا فيما بعد باسم «الإكليليْن»[٢٨]، تقدّما يقودان الموكب الجنائزي الذي يحمل رماد جثتيْ أمّيهما، وكان سرّ ميلادهما الحرص على ألا تنقطع سلالة ابنتيْ أوريون[٢٩] بوفاتهما. وتنتهى نقوش هذه الوجوه المتألّقة فوق البرونز العتيق لنشهد على حافة الكأس شريطاً من زخارف أوراق الأكانثا البارزة المذهّبة. وقد تقبّل الطرواديون هذه الهدايا وقدّموا لقاءها هدايا لا تقلّ عنها قيمة، منها صندوق بخور للكاهن، وصحن للقربان، وتاج مرصّع بالذهب والجواهر.

وحين تذكّر الطرواديون أنهم ينحدرون من سلالة تيوكر أبحروا بسفنهم إلى جزيرة
كريت ، إلا أنهم لم يَقْوَوْا على تحمّل قسوة مناخها أمداً طويلاً فغادروا هذه الجزيرة ذات المدن
المئة أملاً فى بلوغ شواطىء أوزونيا[٣٠] [إيطاليا] ، غير أن أعاصير قوية عرضت لسفن الأبطال
فالتجأوا إلى ثغور جزر الستروفاديس[٣١] التي لم يصادفوا فيها المأوى الآمن ، إذا اعترضهم
ذلك الوحش المجنّح أيبلو وطيور الهاربي الوحشيّة المجنّحة التي لها رأس امرأة وذيل عقاب
وزُوِّدت أقدامها وأصابعها بمخالب حادة ، مما أثار الذعر فى قُلوبهم ، فولّوا يُرْسُون سفنهم فى
موانىء دوليخيون وإيثاكا وصاموس وديار نيريتوس حيث مملكة أوديسيوس الوهمية ،
وشاهدوا عن بُعد أمبراكيا التي تَنَازعَ الآلهة وهرقل السيادة عليها[٣٢] ، كما رأوا عند ساحل
أكتيوم الصخرة التي رُسِخَ إليها الراعي الذي حَكَمَ لصالح هرقل ضد أپوللو وأرتميس بتبعية
المدينة لهرقل ، وما تزال هذه الصخرة كائنة إلى اليوم بمعبد أپوللو[٣٣] ، كما مرّوا بدُودونا ذات
أشجار البلوط الناطقة[٣٤] ، وخلجان خاوونيا التي أفلت من حريقها الذي أشعله اللصوص
الآثمون أبناءُ ملك مولوس بعد أن زوّدتهم الآلهة بأجنحة ظلوا محلّقين بها طويلاً فى ٧٢٠
الفضاء[٣٥] . ثم أبحروا إلى أرض الفاياكيين[٣٦] ذات بساتين الفاكهة الزاخرة بالثمار ، وأرسوْا
بمدينة بوثروتوم بمقاطعة إپيروس التي شُيِّدت على غرار طروادة ، وكان يحكمها هيلينوس بن
پريام كاهن فريچيا الذي كان عرّافاً لا تخيب له نبوءة . وحين وقفوا على ما يخبّئه لهم القدر
وينتظرهم فى المستقبل أبحروا منْ ثَم إلى صقلية ، وهى جزيرة تمتد منها ثلاثة ألسنة نحو البحر ،
يواجه أولها الجنوب المطير ويُسمّى پاخينوس ، ويهبّ نسيم الغرب العليل على ثانيها المسمّى
ليليبايوم[٣٧] ، ويتطلع ثالثها وهو پيلوروس إلى الشمال نحو كوكبتىْ الدّبين الأصغر والأكبر
اللتين هما بمنأى عن مياه البحر . واقترب الطرواديون من هذا اللسان واستطاعوا بقوة
مجاديفهم وبما أمدّهم البحر من عَوْن أن يبلغوا مع حلول المساء شاطىء زانكليه الذي كانت
تهدّده من الجانب الأيمن صخرة سكيللا ومن الجانب الأيسر صخرة خاريبديس النّهمة التي لا
تنفك تلتهم السفن ثم تتقيّؤها . أما سكيللا التي تلتفّ حول خصرها الكلاب المفترسة فمازال
لها وجه فتاة عذراء ، وكانت قبلُ عذراء رائعة الجمال إذا صدق ما يزعمه الشعراء فى رواياتهم ،
وأغلب الظن أنها روايات صادقة[٣٨] . وكم من خاطبين - كما قيل - طلبوا يدها لكنها رفضتهم

جميعاً، وكم كانت تختلف إلى حوريات البحر المولعات بها لتروي لهن محاولات عشّاقها استمالتها دون جدوى. وفيما كانت الحورية جالاطيا جالسة ذات يوم تمشّط لها شعرها إذ تنهّدت جالاطيا قائلة: «حَسْبُك أن يتغزل فيك كل شاب وسيم ويتودّد إليك، وأنك تستطيعين صدّهم دون خشية من جزاء. أما أنا ابنة نيريوس فعلى الرغم من رعاية شقيقاتي لي فلم أستطع الإفلات من مطاردة الكيكلوپيس إلاّ بعد أن دفعت ثمنا غالياً». وخنقت الدموع كلمات جالاطيا، فأخذت سكيللا تمسحها بأناملها البيضاء بياض البَرَد وتُسرّي عن الحورية قائلة: «فلْتحفّفي عن نفسك يا أحبَّ الناس إليّ ولترو لي مأساة غرامك المحزنة دون أن تُخفي عني شيئا، فما أوْلاني بثقتك»، فبدأت الحورية تقصّ قصتها على ابنة كراتاييس:

أكيس وجالاطيا والعملاق پوليفيموس

«على الرغم من أن أكيس بن فاونوس من حورية البحر سيمايثوس كان قرّة عين أبويه، إلاّ أن حبي له كان يربو على حبّهما إياه، فقد كان وحده محطّ عواطفي. كان وسيماً بلحيته النابتة التي كانت أشبه بالزَّغب على وجنتيه إذ لم يكن قد تجاوز السادسة عشرة من عمره. ولو سألتني أيهما كان أشدّ، حبّي لأكيس أم كراهيتي لپوليفيموس ما ملكتُ أن أجيب، فلقد كانت العاطفتان متناظرتين. ما أقوَى سلطانك يا ڤينوس الحانية إذ جعلتِ من پوليفيموس كائناً يعرفُ عاطفة الحب، وهو ذلك المخلوق الوحشي الذي يُثير الرعب حتى في الغابات الموحشة، ويودي بحياة أي طارىء غريب يقع عليه نظره، ويزدري جبل أوليمپوس المبجَّل وقاطنيه من الآلهة، فإذا هو يصبح أسير شهوة عارمة، ويشتعل حبه فيذهل عن قطعانه وكهوفه التي يأوي إليها. كم حاولت يا پوليفيموس الاعتناء بمظهرك كي تنال إعجابي، وكم مشّطت بالمذراة شعرك الأشعث، وحلقت بالمنجل لحيتَك الخشنة، متخذا من صفحة الماء مرآة تتأمل فيها وجهك القبيح تحاول أن تسوّيَ من ملامحه، وأنسيتَ وحشيّتك وظمأك إلى الفتك بالناس وسفك دمائهم، تاركا السفن تروح وتغدو لا تمسّها بضُرّ. وكان تيليموس بن يورموس الذي لا تخيب له نبؤة قد بلغ وقتذاك صقلية وصعد جبل إتنا لزيارة پوليفيموس ثم أنذره قائلاً: «كُنْ على حذر فلسوف يقتلع أوديسيوس عينك الوحيدة التي تتوسّط جبينك». عندها ضحك العملاق قائلا: «فلتكفّ عن تخريفك أيها العرّاف الأحمقّ، فثمة فتاة سبقت أوديسيوس إلى

اقتلاعها». وهكذا ذهبت نصيحة تيليموس سدى، وانطلق بوليفيموس بخُطى واسعة فوق كثبان الساحل حتى أنهكه التعب فعاد إلى ظلمات كهفه.

وتسلّق الكيكلوبيس تلاً يمتد مسافة طويلة داخل البحر على شكل لسان ترتطم به الأمواج من كل جانب، وجلس على قمته وبين يديه قطيع أغنامه الوفيرة الصوف، ووضع حذو قدميه جذع شجرة صنوبر فارعة فى طول صاري السفينة كان له بمثابة عصا يتوكأ عليها، وأمسك بالمصفار الرعوي المكوّن من مئة قصبة ضُمّ بعضها إلي بعض وراح ينفخ فيها نغماته الرّعدية فردّدت الجبال والبحار صداها. وتستطرد جالاطيا قائلة: وكنتُ عندها مسترخية فى أحضان أكيس وراء صخرة متوارية وتسمّعت إلى كلمات الكيكلوبيس التي يتغنّى فيها بي ويُشبّب، وما أزال أتذكّرها فيقول: «لأنتِ يا جالاطيا أنصع بياضا من وريقات التمر حناء الثلجية البياض، وأينع ازدهارا من زهور المروج اليانعة، تفوقين شجر الحوْر رشاقة وتبُزّين البلّور تألّقا وإشراقا. لأنت أشدّ مرحاً من الحَمَل اليافع، وأنعم ملمساً من الأصداف التي تغسلها أمواج البحر المرتطمة بالشاطئ. أرحّبُ بك أكثر من ترحيبي بشمس الشتاء وظلال الصيف. أنت أحْلَى مذاقاً من فاكهة البساتين، وأكثر بهاء من شجَر الدُّلب الشامخ، وأشدّ ألَقاً من الثلج، وأشهَى من عنب الكَرْم الناضج، وأملس من زَغَب البجعة، وأطْلَى من اللبن الخاثر. لو لم تَتَجنَّبيني لَصِرْتِ أروع جمالا من الحديقة الغنّاء بجداولها، لكنك يا جالاطيا أشدّ نفوراً من الثور الجامح وأكثر إباءً من البلّوط العجوز، وأثْرَى مخادعةً من مياه البحر، وأشدّ مراوغة لليد من غُصينات الصّفصاف ومحاليق الكروم البيض، وأشدّ صلوداً من هذه الصخور، وأعْتَى عَصْفاً من النهر الثائر، وأكثر صَلَفاً من الطاووس يتيه زُهواً، وأقسَى من النار، وأخشن من نبات الشّوك، وأكثر توحّشاً من أم الدبّ، وأصمّ من الخضَمّ، وأخطر من الأفعى حين تدهسُها قدمٌ عن غير قصد. وأخيراً فإن عيبك الأكبر الذي أود أن أخلّصك منه هو أنك أسرع فى العَدْو من الوعل الذي تطارده كلاب الصيد بنباحها، بل أسرع من الريح العاصفة ومن النسيم العابر. آه لو كنت تعرفينني حق المعرفة، إذن لأسفت على تهرّبك منّى ولندمت على تمنّعك عليّ، ولحاولت الإستمساك بي، فلي فى سفح الجبل الصّخري غارٌ على شكل قَبْوٍ لا تنفذ عبره حرارة الشمس ولا برودة الشتاء، وعندي من الأشجار ما تدنو غصونها من ثقَل ثمارها، ومن الكروم ما يتمدّد حاملاً عناقيد العنب الذهبيّ اللون. لقد ادّخرت ذلك كله لَكِ، وبيديْكِ تستطيعين جَنْي ثمار الفراولة حلوة المذاق التي تنمو فى ظلال الأشجار، وثمار الكرز والبرقوق فى

لوحـة ١١٦ . پيكار : العـمـلاق السـيكلوپيس پوليـفيـمـوس يرقب جالاطيا وأكيس فى خلوتهما.

الخريف، ولستُ أقصد البرقوق الداكن وحده، فهناك أيضاً نوع أخضر ضارب إلى الصُّفرة يشبه الشمع الغضّ. ولو اتخذتني زوجاً لذُقت الكستناء كما تشاءين، ولنعمت بثمر المشمش ولَتَسْتَجْيبَنّ كل شجرة لرغباتك، وستحوزين كل هذه القطعان التي ترين، ولى كثير غيرها يرعَى فى الوديان أو يهيم فى الغابات أو مشدود فى حظائري. ولو سألتني ما استطعتُ إحصاء قطعاني، فالفقير وحده هو مَنْ يُحْصي أغنامه، وإذا لم تصدّقي وصفي لها فلا تَرْكَني إلى حديثي عنها بل تعالىْ هنا لتشهدي بعينيك كيف تعجز قوائمها عن حملها لامتلاء ضروعها. وقد جمعتُ النتاج الجديد فى حظائر دافئة، وجعلت لكل من الماعز والحملان حظائره المستقلة، وما أغزر اللبن الأبيض بياض الثلج عندي، أحفظ بعضه للشرب وأخمّر الباقي ليختثر. ولتسألي إن شئت عن أليف الحيوان فالجميع رهن إشارتك، ولن أقدّم لك ما يسهل الإمساك به من الحيوانات الأليفة كالوعول والأرانب أو الماعز واليمام، أو صغار الطير فوق غصون الشجر، بل سأقدّم إليك توأماً من صغار الدّب الوحشى متشابهيْن يستحيل عليك تمييز أحدهما عن الآخر اقتنصتُهما فوق الجبل، وسأقدّمهما إليك كى تأنَسي بهما، وقد قلت لنفسي حين عثرت عليهما فَلأحفظهما من أجل محبوبتي. ناشدتُك يا جالاطيا أن تَشُقِّي صفحة البحر وتَطْلّي بوجهك المشرق فوق المياه اللازوردية. هلمّي ولا تبخسي هداياىْ حقَّها. وليس يَخْفَى علىّ شكْلي، ومع هذا فلقد رأيتُ صورتي منعكسة على صفحة المياه الصافية وأعجبتني. انظري إلى طول قامتي، وما أظن چوپيتر يفوقُني طولاً، [هذا الذي لم أسمع إلاّ منكم أنه أو غيره يسوس الكون]، وخصلات الشعر الغزير تتدلّى على وجهي الصارم القسَمات، وتُلقي على كتفي ظلالها وكأنها دغل كثيف. لا تَعُدّينني دميماً لغزارة الشعر الخشن الذي يكسو جسدي، فكم تبدو الشجرة قبيحة إن كانت جرداء، والجواد لا يحظى بالإعجاب ما لم يُغَشّ عنقه عُرْفٌ غزير، ولا تَجْمُلُ الطيور إلاّ بريشها ولا الأغنام إلاّ بصوفها، وليس أنسب للرجل من لحية تملأ وجهه، وشعر غزير يغشيّ جسده. حقاً ليست لى إلاّ عين واحدة وسط جبيني لكنها عين واسعة مثل درع سابغة مُحْكَمة، وماذا في ذلك؟ أوَلا تعانق الشمسُ بنظرتها الكونَ كله من عليائها الفسيحة وما لها غير عين واحدة، هذا إلى أن أبي هو ملك البحار التي تَحْيَيْن فيها[٣٩]، ولسوف يغدو لك حماً إذا تزوّجتني. ليس فى العالم كله مَنْ أنحني أمامه سواك، أنا مَنْ ازدرى چوپيتر وسماواته وصواعقه النافذة، لا أخشى إلا إياك يا أجمل بنات نيريوس، فغضبك أشدّ هوْلاً من البرق الصاعق. وقد أحتملُ ازدراءك إيايْ لو كنت تزدرين كل مَنْ

شُغفُوا بك حبا، لكن، لماذا تصدّين الكيكلوپيس وتمنحين حبّك لأكيس؟ ولماذا تؤثرين عناقه علَى عناقي؟ فَلْيَزْهُ أكيس ما شاء له الزُهُوّ وما شئت أنت أيضا يا جالاطيا. ليكن، غير أنه لأول وهلة سيدرك أن قوّتي كفاء ضخامتي. ولسوف أنتزعُ أحشاءه حيّاً وأمزّق أطرافه إربا إربا ثم أنثرها بين أمواجك. أتُراه يستطيع بعد ذلك الاقتران بك؟ إنني أحترق عشقاً ولهيب الهوى يلسعني ويضحَى أشدّ لسعاً حين أكون موضع ازدرائك وكأني أحمل فوق صدري بركان إتنا. ومع هذا فأنت لا تبالين بي يا جالاطيا».

وبعد أن فرغ پوليفيموس من هذه المناجاة التي أغضيتُ عنها وتركتها تذهب أدراج الرياح، وقف كالثور الهائج حين تؤخذ منه بقرته عنوة، وأخذت عيناىْ تتبعانه وهو لا يطيق الوقوف ساكناً بل يهيم على وجهه فى الغابات والمراعي التى يألفها. وإذا بصرُ العملاق يقع علينا فجأة ونحن لا ندري أى خطر يحدق بنا، وإذا هو يصيح فى وحشية: «ها أنذا قد رأيتكما ولسوف أجعل عناقكما هذا آخر عناق لكما». وكان صوته صاخباً راعداً ارتجف معه بركان إتنا نفسه، وأسرعتُ بالغوْص فى المياه فزعةً بينما استدار أكيس بن سيمايثوس هارباً وهو يصيح بي مستنجداً: «عَوْنك يا جالاطيا، عونكما يا والديَّ، ولتأذنا لى أن أدلفَ إلى مملكتكما، فإن لم تأذنا أدركني الهلاك». وانطلق الكيكلوپيس يطارد أكيس بعد أن انتزع صخرة ضخمة من سفح الجبل قذفه بها، ومع أن طرفاً منها فقط هو الذي مسّ أكيس إلا أنه كان كافياً لسحقه سحقا، وما نملكُ غير ما تُتيحه الأقدار فلقد منحته الأقدار طبيعة جدّه[40]. كان الدم يسيل أرجوانياً أسفل كتلة الصخر الضخمة التي سقط تحتها، وما هى إلاّ لحظات حتى بدأت حُمرة الدم تشحب، وشيئاً فشيئاً ظهر مكانها نبع ماء صاف، وإذا الصخرة تنشق شطرين انبثقت من بينهما ساق غاب طويلة ميّاسة، وتفجّرت المياه فوّارةً من جوف الصخرة. وفجأة، ويا لها من معجزة، برز شابٌ من النبع إلى خصره وفى جبهته تاج من سيقان نبات السِّمار المجدول حول قرنين حديثَىْ الإنبات، ولو لم يكن أطْول قامةً، ولو لم يكن لازوردي لون الوجه لقُلتُ أنه أكيس نفسه، ومع ذلك ومع هذا الشكل الجديد فقد بقى أكيس كما هُوَ رغم تحوّله إلى ربّ نهر، ومايزال هذا النهر يحمل اسم أكيس.

جــــلاوكـــوس

فرغت جالاطيا من حديثها وتفرّقت حوريات البحر سابحاتٍ وسط الأمواج الناعمة إلاّ سكيللا التي عادت مسرعة إلى الشاطئ غير مجازفةٍ بتعريض نفسها لغدر أعماق البحار، وانطلقت تخطر عارية على رمال الشاطئ العطشَى تارة، أو تبحث عن نبع منعزل عميق لتُنعش أطرافها في مياه آمنة تارة أخرى. وإذا بصرها يقع على جلاوكوس ـ الذي لم يسكن البحر إلاّ منذ قليل ـ بعد أن مُسخ صورة أخرى في أنثيدون القريبة من بحر يوبويا ـ يشقّ الموج نحوها[٤١] وهو يُبوِّق في محارته من فوق الماء، حتى إذا ما رآها اشتعل حبا، فناداها بما عنّ له من كلمات ليصدّها عن المُضيّ هاربة منه لكنها أصمَّتْ سَمْعها، وكأنما أمدّها الخوف بأجنحة طارت بها حتى أدركت قمة الجبل المكسوّة بالغابات إلى جوار الشاطئ، وكان جبلا شامخا مواجهاً للشاطئ تنهض فوقه قمة ضخمة ظليلة يمتد منها لسان فوق سطح البحر وجدت فيها سكيللا مأوى آمناً قرّت فيه، ولم تتبيَّنْ ما إذا كانت ترى أمامها وحشاً أم إلهاً، وأخذت تتأمل في دهشة لون بَشَرته وشعره الذى يغطي منكبيه وينسدل على ظهره وذيل السمك المنثني تحت خصره. ولمحها جلاوكوس وهي تتأمّله، فاعتمد على صخرة قريبة وقال لها: «لست غُولاً يا صبيّة ولا وحشاً مفترساً، إنما أنا أحد آلهة البحر، وليس سلطاني على البحر بأقل من سلطان تريتون أو پروتيوس أو پالايمون بن آثاماس، غير أني كنت في الماضي إنساناً أعشقُ البحر عشقاً شديداً وكان عملي موصولاً به، وكنت أجتذب الشِّباك زاخرة بالأسماك تارة، أو أجلس على صخر الشط أتصيّد السمك بالشّص. وكان على مقربة من المكان الذي أصيد فيه مرج أخضر يكتنفه البحر مَنْ جانب وتنفسح عند جانبه الآخر مراع بِكْر لم تَطُفْ بها قطعان الأبقار طويلة القرون ولا الأغنام المسالمة ولا الماعز شعثاء الوبر، ولم يحلّق فيها نحل يمتصّ زهورها ليُحيلها شهْداً، ولم تُجْدَل من أغصانها الأكاليل لتُجَلَّل بها هامات الضيوف خلال الولائم، ولم تتناولها يدٌ بقَضْب عُشْبها بالمنجل الطويل. وكنتُ أوّل مَنْ افترشَ هذا العُشب، إذ جلستُ يوماً أجفّف الشِّباكَ المُخْضَلّة وأصفُّ فوق العُشب السمك الذي جمعته لأحْصي منه ما قذفت به الصُّدفة في شباكي أو ما أوقعته السذاجة في شصّي المعقوف. ولك أن تظنِّي أني أختلق، لكن فيم يُفيدني الاختلاق؟ فما كادت الأسماك تفترش العُشب حتى أخذتْ تتلوّى وتضطرب وتسبح فوق اليابسة وكأنها في خضم البحر، وبينما كنت أشهدُ ما يقع مذهولا إذا الأسماكُ تنزلق نحو

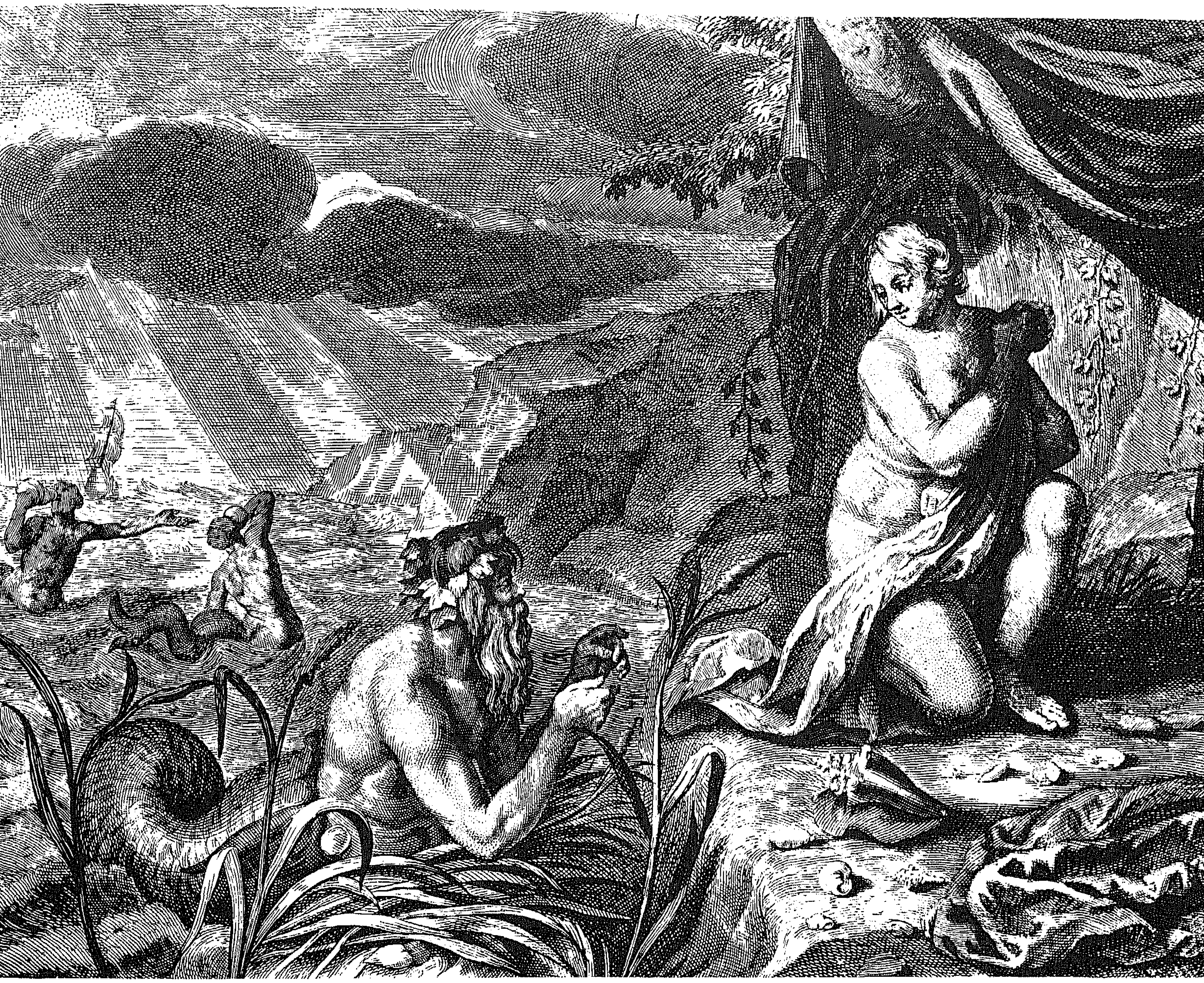

لوحـــة ١١٧ . پيكار : سكيللا تتطلع إلى
جلاوكوس الذي ظهر لها من بين الأمواج
بعد أن تحول إلى إله بحر .

البحر وتغوص ثانية بين الأمواج التي كانت تحيا بها من قبل تاركة الشاطىء والصائد. وقد جَمُدْتُ فى مكاني دَهشاً ألتمس تفسيراً لما حدث، وأتساءل عن سرّ هذه الظاهرة، أهى إرادة إله أم فعْل عُصارة العُشب، وقلت لنفسي «تُرى أى عُشب هذا الذي يملك تلك القدرة؟». واقتلعتُ بعض أعواده وعضضتُها بأسناني، ولم تكد عصارتها الغريبة تنساب فى حلقي حتى أحسستُ بقلبي ينتفض داخل صدري وإذا طبيعتي تأخذ فى التحوّل، ولم أقاوم طويلاً فصحتُ قائلاً: «وداعا أيتها الأرض التي لن أعود إليها مرة أخرى». واندفعتُ إلى المياه حيث رحّب بى آلهة البحر وتلطّفوا بي وأوْلوني مكانة رفيعة بينهم، ثم طلبوا إلى أوقيانوس وتيثيس أن يُزيلا عنّي ما بي من عناصر فانية، فأخذا يطهّراني مُردّديْن مرات تسعاً تعويذة مقدّسة خلّصتني منْ أدْراني، وطلبا إلىّ أن أغمسَ جسدي فى أنهار مئة، وسرعان ما أخذتْ أنهار العالم جميعا تُصوِّبُ مياهها نحوي وتصبّها فوق رأسي. هذا كلُّ ما أستطيع أن أسرده عليك من مغامرتي العجيبة، فقد جَمُدَتْ عند ذلك ذاكرتي وفقدتُ القدرة على استخدام حواسّي، وحين رُدّ إلىّ وعيي فوجئت بجسدي وقد اختلف عمّا كان عليه من قبل، كما أن تغيّراً قد طرأ على ذهني، وألفيتُنى بلحية يذكّرني لونها المخضرّ بالزنجار، تسترسُل خصلاتها مستسلمة مع حركة الأمواج، وبهذين المنكبين العريضين، وبهاتين الذراعين اللازورديتين، وبهاتين الفخذين اللتين تنتهيان بذيل ملتو كذيول الأسماك ذوات الحراشف. ولكن بمَ يفيدني هذا الشكل الجديد؟ وبمَ تفيدني تلك المكرمة التى اختصّني بها آلهة البحار؟ بل بمِ يفيدني أن أكون أنا نفسي إلهاً إذا لم تُعيريني أنت انتباهاً؟

على هذا النحو استرسل الإله فى الحديث، وكان على وشك مواصلته لو لا أن سكيللا انفلتت منه هاربة، فعاد إلى الماء مغضباً حانقاً من نفورها منه، واتجه إلى القصر المسحور الذي تُمارس فيه كيركي(٤٢) إبنة التيتان معجزاتها العديدة.

الكتاب الرابع عشر

الكتاب الرابع عشر

سـكيـلّلا وكيـركى

خلّف الإله جلاوكوس الذي اتخذ أمواج بحر يُوبُويا الصاخبة سكناً له وراءه جبل إتنا الشامخ الذي طوّح به الآلهة فى قديم الزمان لدقّ عنق أحد العمالقة(1) ، كما خلّف حقول الكيكلوپيس الجاهلين باستخدام النّوْرج والمحراث، والذين لا يدينون بفضلٍ للثيران المشدودة إلى النّير. كذلك خلّف وراءه مدينة زانكليه(2) وأسوار مدينة ريجيوم المقابلة لها، وكذا المضيق الذي أتى على سفن كثيرة بين ساحليْ أوزونيا [إيطاليا] وجزيرة صقلية المتقابلين [ميسّينا]. وبذراعه المفتولة استطاع إله البحر عبور البحر الإتروسكي [التيراني] إلى أن بلغ التلال السُّندسية الذي يشمخ فوقها قصر كيركي بنت إله الشمس، ذلك القصر العامر بِمَنْ مَسَختهم حيوانات مفترسة مختلفة الأشكال. وما كاد يلقى كيركي ويبادلها السلام حتى بادرها قائلا: ناشدتُك أيتها الإلهة أن تترفّقي بالإله الذي يَمْثُلُ أمامك، فأنت وحدك القادرة على تخفيف لواعج حبّي إذا كنت تَرَيْنَ أنيّ جديرٌ بهذه المنّة، فما أعظم قُدرةَ النباتات يا إبنة التيتان، ولا أحدَ يعرفُ هذا معرفتي به بعد أن عانيتُ المسخ بفعل سحرها. ولكى تقفي على مقدار هوايْ المشبوب، إليك ما حدث: لقد رأيت سكيللا على الساحل الإيطالي المواجه لأسوار ميسّينا، ويمنعُني حيائي من أن أقصّ عليك كَم من الوعود وَعَدْتُ وكم من ضراعات ضرعتُ وكم من

عبارات غرام بعثتُ بها إليها، لكنها قابلت هذا كله بالسخرية. وما أبتغي إلاّ أن تنفرج شفتاك المقدّستان عن عُوذة، ففي عُوذاتك تكمن قدرة تعلو كل قدرة. وإذا كان ثمة عُشْب فى ملكوتك له ما ليس لعُوذاتك من تطويع العَصِىّ، فلتُسعفيني به فَلأنْت به خبيرة. وما أطلبُ منك ترياقاً ولا بلسماً لجُرحي، فما أنا فى حاجة إلى التخلّص من الحب بل إلى أن تُكْوَى سكيللا بنصيبها من النار التي تضطرمُ فى نفسي.

وإذ كانت كيركي أكثر النساء إحساساً بلوعة الحب، سواء لما فُطِرَتْ عليه أو لما زوّدتها به الإلهة ڤينوس الناقمة على إله الشمس[٣] [لوشايته بعلاقتها بالإله مارس] فقد أجابت جلاوكوس قائلة: «كان أوْلَى بك اختيار محبوبة تبادلُك إرادة بإرادة ورغبة برغبة وتُحسّ بلوعة الحب كما تُحسّ، فما أجدرك بأن تكون النساء هُنّ الساعيات إليك. ولتطمئن بالاً إلى أن سعي النساء إليك حقٌّ عليهن لوسامتك، بَلْ صدّقني أنك لو تذرّعت ببعض الأمل لأصبحت أنت مَنْ تَسْعَى هى إليك بدلاً من أن تَسْعَى أنت إليها. فلا يخالجنّك الشك فى نفسك ولا تفقدنّ الثقة بوسامتك. انظر إلىّ، فمع أني إلهة ومع أني ابنة إله الشمس المتألّق، ومع أني أملكُ العُوذات والأعشاب السّحرية ذات القدرات الرهيبة، إلاّ أنني أتمنّاك وأتوق إلى عشقك. فلتزدرِ إذن مَنْ يَزْدريك ولتُقبِلْ على من تسعَى إليك، وبذلك يكون انتقامك من واحدة فيه إرضاء لأخرى».

وردّ جلاوكوس على محاولة كيركي إغرائه قائلا: «ما أنا بمُتحوِّل عن حبّي لسكيللا مادمتُ حيّا، حتى لو انقلب الوجود رأساً على عقب، فانشقّت أعماق البحار عن نباتات الجبال وأعشبت قمم الجبال بأعشاب البحار».

امتلأ صدر الإلهة غضباً عندما لم تجد صدى لعواطفها المشبوبة، وإذ كان حبّها لجلاوكوس يَحُول بينها وبين التنكيل به فقد صبّت نيران حنقها على غريمتها. فهُرعت لتوّها إلى عجن أعشاب مروّعة بعصارات فتّاكة بينا تشدو بالغناء، وقرنت المزيج بعُوذات لقّنتها إياها الربّة هيكاتي، ثم التفّت بغلالتها اللازوردية وانطلقت وسط قطعان الحيوانات المحتشدة حولها ـ وقد اشرأبّت أعناقها طلباً للمداعبة ـ مخلّفةً قصْرَها حتى بلغت مدينة ريجيوم المواجهة لصخور مدينة زانكليه، ثم اندفعت فوق الأمواج الصاخبة تسير فوقها وكأنها تخطو فوق اليابسة، تدوسُ بقدميها سطح الماء فلا تبتلاّن به.

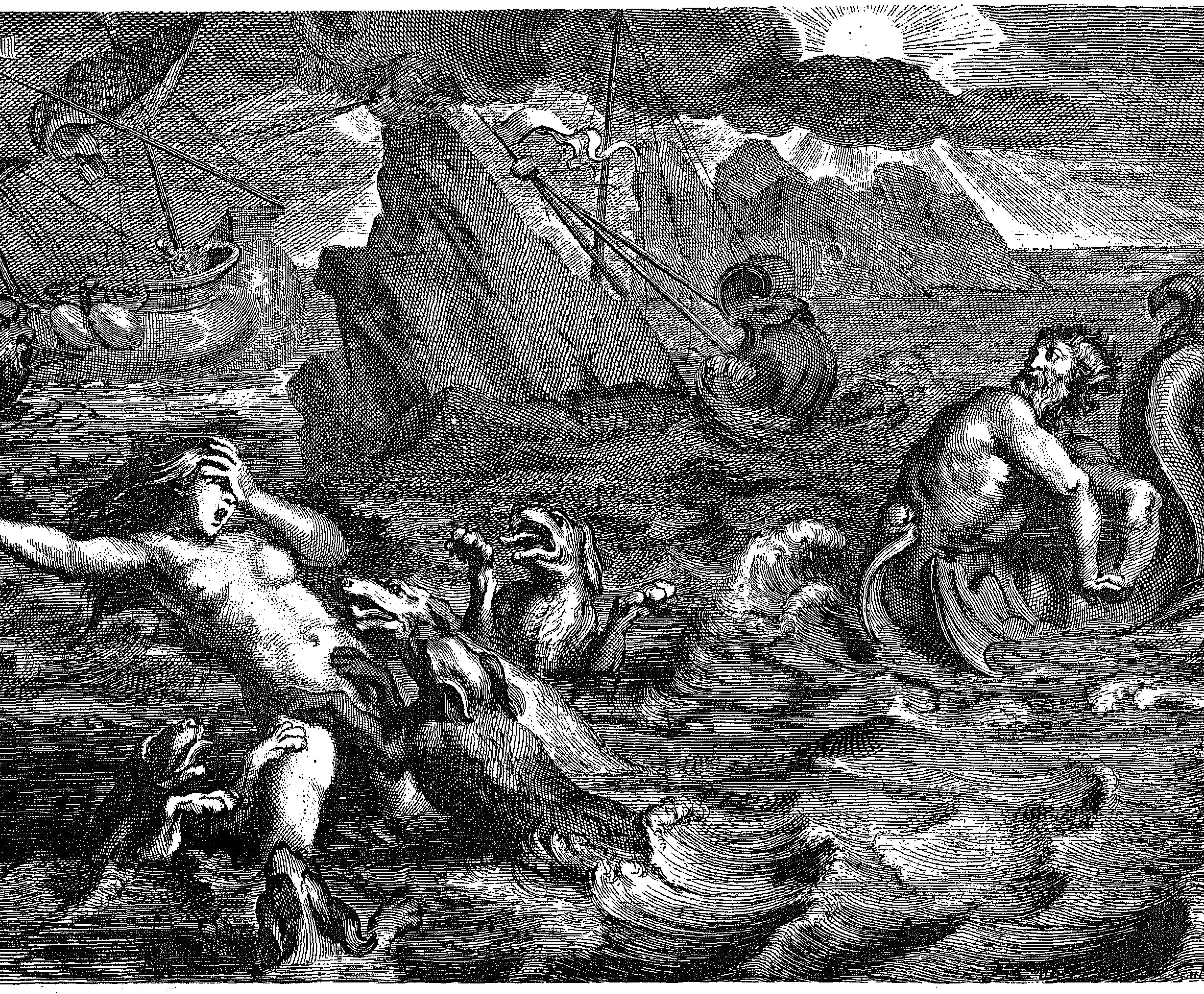

لوحة ١١٨ . پيكار : سكيللا بعد أن مسختها كيركي، فأحاطت فخذيها بالوحوش المفترسة .

وكان ثمة بحيرة صغيرة تَنْسَلُّ مياه البحر إلى جوفها، وتستدير ضفّتها على شكل قوس اتخذتها سكيللا مأوى لها تُهرع إليه هرباً من عنف الأمواج المضطربة ومن حرارة الشمس الحارقة حين تتوسّط قبة السماء فتنكمش ظلال الأشياء. وإذا كيركي تلوّث مياه البحيرة قبل وصول سكيللا وتنشر به سمومها الضارّة، وتنثر سائلاً من عُصارات جذور سامة، ثم تمتمت مرات تسعاً ثلاث مرات بتعاويذ سحرية مترعة بكلمات غامضة مُلْغزة. ولم تكد سكيللا تَخوضُ الماء إلى خصرها حتى وجدت حولها وحوشاً ضارية تعوي محيطةً بفخذيْها. ولم يَجُلْ بخاطرها في بادىء الأمر أن هذه الوحوش باتت جزءاً لا يتجزّأ من جسمها، فحاولت التخلّص منها وطردها وقد امتلأ قلبها فزعاً من أنيابها الناهشة، لكنها كلما حاولت التخلّص منها شَدَّتها معها، وكلما تحسّست فخذيْها وساقيْها وقدميْها وجدت مكانها كلابا فاغرة الأفواه شبيهة بكلاب كيربيروس ذات الرؤوس المتعدّدة، وكلما حاولت النهوض وجدت نفسها مشدودة إلى هذا الرهط من الوحوش المسعورة، وأن نصفها الأسفل ليس إلاّ كلاباً لصيقةً بالجذع الذي يعلوها. وما لبث عاشقها جلاوكوس أن ولّى فراراً والدموع تنساب مدراراً فوق وجنتيه، رافضاً أن يتخذ من كيركي زوجة له بعد أن استغلّت قدرات أعشابها على هذه الصورة القاسية. وبقيت سكيللا ثابتة في مكانها، ولم تكد تحين أمامها الفرصة للإفصاح عن نقمتها على كيركي حتى ذاق رفاق أوديسيوس الهوْل على يديها، وكادت أن تُغْرِق سفن الطرواديين أيضاً لولا أنها رُسخت قبل ذلك صخرة تنتصب حتى اليوم فوق الأمواج منذرةً بخطر مايزال الملاّحون يتحاشونه.

الكيركوپيس

وما كادت السفن الطروادية تُفلح بقوة مجاذيفها في الإفلات من سكيللا وخاريبديس النّهمة حتى شارفت سواحل أوزونيا وكادت ترسو بها، و إذا ريحٌ قوية تدفعها إلى شواطىء ليبيا. هناك استقبلت أينياس الملكةُ الفينيقية التى تنتمي إلى أسرة صيدا الملكية وفتحت له قصرها وقلبها في آن معاً. وقضت الأقدار ألاّ تحتمل ديدو فراق زوجها الفريجي بعد أن هجرها بغتة، فألقت بنفسها على ذبابة السيف من فوق محرقة كانت قد أعدّتها متظاهرة بأنها لتقديم القربان. وكما خذلها أينياس بهجره إياها على حين غِرّة، خيّبت بدورها آمال شعبها فهجرته وهي تغافله.

وللمرة الثانية[٤] يتخذ أينياس هجرته مخلّفاً أسوار مدينة قرطاجه الجديدة المشيّدة فوق الساحل الرمليّ عائدا إلى جبل إريكس[٥] بصقلية وإلى الملك أكستيس[٦] الوفيّ حيث قدّم القرابين ونَحرَ الضحايا أمام مدفن أبيه. ثم أبحر من جديد بسفنه التي كادت إيريس مبعوثة چونو أن تُشعلَ فيها النار، مخلّفا مملكة ابن هيپوتيس[٧] التي تنبثق من تُربتها أبخرة الكبريت المشتعل. وما لبث بعد مروره بصخور «السيرينات» بنات نهر أخيلؤوس أن فَقَدَ ربّانه پالينورس، ثم اجتاز شواطىء جزيرة إيناريميه[٨] وجزيرة پروخيتيه[٩] ومدينة پيثيكوزا[١٠] المشيّدة فوق تل أجرد، والتي اشتُق اسمها من اسم سكانها الپيثيخوى [أى القردة]، إذ يُروَى أن كبير الآلهة كان قد ضاق ذَرْعاً بحدّة ألسنة الكيركوپيس وبرذائل هذا الجنس المخادع وقضى بإنزال العقاب بهم، فحوّلهم من أُناسيّ إلى حيوانات دميمة تختلف شكلاً عن البشر وإن احتفظت ببعض الشّبه به، وجعل چوپيتر أطرافهم دقيقة وأنوفهم فطساء وخدّد أصداغهم بتجاعيد الكهولة، ثم كسا أجسادهم بفراء أصفر وألزمهم هذا المكان. غير أنه قبل أن يمسخهم حرمهم القدرة على الكلام وجرّدهم من ألسنتهم التي تحلف كذباً وتحنث باليمين، ولم يترك لهم القدرة على الشكوى إلاّ بصراخ أجشّ وبأصوات ناشزة. ١٠٠

سيبيلا

وبعد مرور أينياس بهذه الجزر مخلّفا عن يمينه أسوار پارثينوپي[١١] وعن يساره ضريح ميسينوس[١٢] - نافخ البوق الرنّان وابن أيولوس ربّ الرياح - رسا على شاطىء كُوماىْ بمستنقعاته الراكدة المياه. وهناك سَعى إلى المغارة التي تأوي إليها سيبيلا كاهنة أپوللو المُثقلةُ بالسنين، وسألها أن تأذن له بالهبوط إلى مملكة أڤيرنوس [العالم السفلي] حتى يلقَى روح أبيه. فأطرقت سيبيلا برهة، وبعد أن رفعت رأسها تمتمت بصوت الإله الذي تقمّصها قائلة: «إنك لتطلب الكثير أيها البطل الصنديد، يا من كَشَفْتَ عن بسالتك بضربات سيفك، وعن وَرَعك وبرّك بأسلافك باختراقك ألسنة نيران طرواده المشتعلة. فلتطرحْ عنك هموم القلق أيها الطَرَوادي فستتحقّق أمانيك وسأكون لك الهادية المرشدة، وستتعرّف عن قريب على ديار إليزيوم [العالم السفلي] آخر ممالك الكون، وستلقَى روحَ أبيك العزيز، فليس ثمة طريق لا تجد الفضيلة إليه سبيلا».

لوحة ١١٩ . پيكار: انتحار ديدو ملكة قرطاجه
بعد أن هجرها أينياس.

وأشارت إلى غصن ذهبّي يتألق فى الغابة المخصّصة لجونو الأڤيرنية ربّة العالم السُّفلي [پروسيرپينا]، وأمرت أينياس أن يقطع الغصن من الجذع الذي يحمله فانصاع لأمرها، فإذا بصره يقع على تلك المملكة العظمى الذي يحكمها أوركوس ربّ الأهوال حيث شاهد أطياف أجداده وروح أبيه أنخيسيس الهَرِمة الطاهرة، وما هى إلا هنيهة حتى كان قد ألمّ بالشرائع التي تسود هذه الديار، كما وقف على المخاطر التي سيتعرّض لها فى حروبه المقبلة. ثم عاد يسير بخطوات منهكة فى الطريق الصاعد محاولاً التغلب على الإرهاق الذي أحسّ به بمبادلة الحديث مع مُرشدته سيبيلا كاهنة كوماىْ. حتى إذا خلّف هذا الطريق الرهيب الكثيف الظلمات قال لها: «يستوي عندي أن تكوني إلهة أو أن تكوني مستظلّة برعاية الآلهة، فسأظل دوماً معترفاً بفضلك عليّ، لأنك أنت وحدك من أتَحْتِ لي زيارة مملكة الموتى ثم مغادرتها آمناً. واعترافاً بما أسبغتِ عليّ منْ أفضال لأشيّدنّ لك معبداً عند عودتي إلى سطح الأرض، ولأحرقنّ باسمك البخور».

فالتفتت الكاهنة نحوه وهى ترسل زفرة عميقة وقالت: «لستُ إلهة يا أينياس، ولا يجوز أن تحرق البخور المقدّس لتكريم كائن فان. أقول لك ذلك حتى لا ترتكب خطيئةً عن جَهْل، ولتعرف أنني لو كنت قد ضحّيتُ بعُذْريّتي واستسلمتُ لنزوات الإله فويبوس الذي كان يعشقني لحظيتُ بنور الخلود. وكان فويبوس يأمل وقتذاك أن ينالني وما فتىء يُغريني بهداياه، ويقول لي: «ما أشدّ حرصي على أن ألبيّ لك أية رغبة تفصحين عنها يا عذراء كوماي». فالتقطتُ حفنة من الثّرى عرضتُها عليه وطلبتُ منه فى حماقة أن يهبني أعياد ميلاد بقدر ما تحتويه قبضتي من ذرّات حفنة التراب، لكني نسيتُ أن أطلب في الوقت نفسه أن تكون هذه السنون كلها سني شباب إلى نهايتها. ولقد كان من اليسير على فويبوس أن يهبني الشباب الأبدي أيضاً لَو أنني ارتضَيتُ أن يُشْبَع نهمه مني، لكننى ازدريتُ ما طلب وبقيتُ عانساً حتى الآن. أما اليوم فقد غاب العهد السعيد من العمر وأهلّت الشيخوخة الحزينة بخطواتها الراجفة، ومازال عليّ احتمالها سنين طويلة أخرى. فقد مرّت قرون سبعة كما ترى ومازال أمامي أن أشهد ثلاثمئة مرّة حصاد الغلال، وثلاثمئة مرة انسكاب النبيذ الجديد من معصرة الكروم حتى أُكمل عدد ذرّات التراب التي تقابل سِني عمري. وسيأتي وقت أضْمُرُ فيه حتى

أصبح مخلوقاً أشدّ ما يكون ضآلة، وستنكمش أعضائي بفعل الشيخوخة حتى تصبح ملء قبضة كف فحسب. ولن يصدّق مخلوق يراني على تلك الحال أني كنت ذات يوم معشوقة إله. ومَنْ يدري فقد يعافُني فويبوس نفسه، وقد يُنكر أنه مال إليّ ذات يوم؟ وسأبلغ نهاية أيامي على هذه الصورة الذي تختلف عما كنت عليه، وإذا لم يعرفني البعض لفرط ضآلتي فسيعرفني غيرهم بصوتي، فهو كل ما تركته لي الأقدار».

أخيمينيديس وپوليفيموس

وبينا كانت سيبيلا مسترسلة فى حديثها كان أينياس الطروادي فى سبيله إلى ضوء النهار مخلّفاً مملكة ستيكس على مقربة من مدينة «كوماى» اليوبويّة. وبعد أن قدّم القرابين وفق الشعائر المتداولة انحدر إلى الشاطىء الذي لم يكن قد سُمِّي بعد باسم مُرْضعته «كاييتا». وهنا ١٦٠
أيضاً كان مكاريوس بن نيريتوس اليوناني قد هبط بدوره واستقر بعد كل ماعاناه من أهوال ومشاق أثناء تجواله عبر البحار برفقة أوديسيوس المحنّك، فإذا هو يتعرّف على أخيمينيديس الذي كان رفاقه قد تخلّوا عنه وخلّفوه فى مهجره بين صخور جبال إتنا منذ أمد بعيد. ودُهش مكاريوس لهذا اللقاء المباغت بشخص كان يظنه قضى نحبه وسأله: «أيّ إله هذا الذي تدين له بنجاتك يا أخيمينيديس، وأية صدفة تلك التي تردّ إليها سلامتك؟ وأنّى ليوناني أن يجد نفسه قد أبحر فى سفينة من سفن البرابرة الطرواديين؟ وأي ساحل كانت تقصده سفينتك»؟.

وأجاب أخيمينيديس وكان قد تخلّص من ثيابه المهلهلة المخَيطة بالأشواك قائلا: إنه لأحَبُّ إليّ أن ألقَى پوليفيموس مرة ثانية وأحدّق فى فمه الشرّه الذي تنساب منه قطرات الدم البشري عن أن يكون وطني إيثاكا أعزّ لديّ من هذه السفينة، أو أن يكون تبجيلي لأينياس دون تبجيلي لأبي... فمهما بذلت فى خدمة أينياس لن أفيَه حقّه من العرفان والتقدير. وهل لي أن أنسى أنّي بفضله أتكلمُ الآن وأتنفس وأرى الشمس كوكب النهار؟ إني مدين له بحياتي، فلقد أنقذني من الهلاك فى جوف الكيكلوپيس. وها أنذا لو متّ الآن وفارقت الحياة ما فقدتُ الأمل فى أن أُدفن فى قبر وليس فى أمعاء وحش. أوَعلمتم بما أحْسَسْتُه ساعة تركتموني

لوحة ١٢٠ . پيكار : أپوللو يطارح سيبيلا الغرام، فإذا هي تطلب منه أن يهبها أعياد ميلاد بقدر ما تحتويه قبضتها من ذرات التراب .

وأبحرتم نحو البحر الفسيح؟ [وإن كان الخوف قد سلبني كل شعور وإدراك حينذاك]، فكم كنت أودّ أن أناديكم لكني خشيت أن أكشف بذلك عن مكاني للعملاق المفترس، حتى أنتم فى سفينتكم كدتم أن تحوق بكم كارثة لولا صيْحة أوديسيوس. فقد رأيتُ الكيكلوپيس ينتزع صخرة ضخمة من سفح من الجبل، طوّح بها صوب البحر، كما شاهدته بعد ذلك يقذف بذراعيه العملاقتين أحجاراً ثقيلة وكأن منجنيقاً يطوّح بها. وكم كنت أخشى أن تُغرقَ الرياحُ والأمواجُ السفينةَ وقد غاب عنّي أني لم أكن فيها. وما كاد الفرار يُنجيكم من ميتة بشعة أكيدة حتى جُنّ جنون الكيكلوپيس وأنّ أنّات غضب عارم، وانطلق يعدو على غير هدى حول جبل إتنا يتحسّس الغابات الذي تعترض طريقه بيده. وقد عوّق به حرمانه من الإبصار بعد فقأ عينه فأخذ يتعثّر فى الصخور الناتئة، ثم رفع ذراعيه الملطّختين بالدماء واتجه صوب البحر وهو يستنزل اللعنات على سلالة الآخيين صائحا: «لو أن الحظ أعاد إليّ أوديسيوس أو أحد رفاقه، لافترسته فى فورة غضبي ولالتهمت لحمه ولمزّقت بيدي أطرافه النابضة، ولَمَلأتُ حلقي بدمه ولهشّمت عظامه بين فكّيْ. لو أن هذا وقع لي لهان علي فقداني نور عيني الوحيدة»!

بهذه العبارات وغيرها التي أفصح بها عن غضبه امتُقع وجهي من فرط ما أعانيه من فزع وأنا أتأمل وجهه الذي مازالت تتساقط منه قطع اللحم، وأحملق فى كفّيه الخشنتيْن، وفى المحْجر المُقْتلَع منه عينُه المبصرة، وفى أعضائه القبيحة وفى لحيته التي تلطّخت شعراتها بدماء البشر. ومَثلَ الموت أمام عيني ولم يكن الموت إلاّ أقل ما أخشاه من شرّ، إذ كنت على يقين من أنه لن يلبث أن يقبض عليّ ويلتهم لحمي ليستقرّ فى أحشائه. وتبادرت إلى ذهني صورة تلك الأيام التي رأيت فيها رفاقي يُلقَى بهم اثنين اثنين على الأرض ثلاث مرات أو أربعا وهو يجلس القرفصاء فوق أجسادهم كأنه أسدٌ منفوش اللّبد يلتهم أحشاءهم ولحمهم وعظامهم بنخاعها الأبيض وأطرافهم التي ماتزال تنبض بالحياة. كان جسدي كله يرتعد فجَمُدْتُ فى مكاني، كما جَمُدَ الدم فى عروقي وتملّكني اليأس وأنا أتطلّع إليه وهو يلوك ضحاياه وينهش تلك الوجبة الدامية ثم يقيء بعضها فى سيل تختلط فيه هُبَر اللحم بالنبيذ. وما كان أشْقاني وأنا أنتظر هذا المصير إذ أمضيتُ الأيام الطوال أهيم على وجهي مختبئاً بين كهف وآخر، وكلما سمعت صوتاً ارتعدَتْ فرائصي، فكنت أخشى الموت وأتوق إليه فى آن معا. وكنت أسكّن جوعي بأكل

لوحة ١٢١ . بيكار : اللستريجونيون يعتدون
على سفن أوديسيوس ورفاقه من البحّارة.

الأعشاب وثمار البلّوط وأوراق الأشجار وأنا أعيش فى عزلة قاتلة، عاجزا مهجورا يسيطر عليّ اليأس والقنوط مستهدَفاً للهلاك، فريسةً للكيكلوپيس. وبينا أنا فى هذه الحالة رأيت سفينة من بُعد فاندفعتُ ألوّح بيدي مستنجداً وعَدَوْتُ نحو الشاطئ أنادي ملاّحيها ضارعاً. وهكذا قُدِّر لتلك السفينة الطروادية أن تحمل مواطناً يونانيا، فما بالك يا مكاريوس يا أعزّ رفاقي لاتكاشفني بمغامراتك ومخاطرات زعيمك والمقاتلين فى رفقتك وأنتم تمضون تحت رحمة الأمواج[١٣]؟.

مــكاريـوس وأوديســيوس

وأخذ مكاريوس يروي كيف كان أيولوس بن هيپوتيس ربّ الرياح يسود بحار إتروريا، وأنه بعد ما حبس الرياح فى جلد ثور، قدّمه هدية إلى أوديسيوس ملك دوليكيوم الذي أضافه إلى مقتنياته. وبعد أن أمضى أوديسيوس ورفاقه تسعة أيام تدفع أسطولهم فى البحر ريحٌ كسول لمحت أبصارهم ساحل البلاد الذي كانوا يقصدونها. وفى فجر اليوم العاشر ملأ الحسد نفوس رفاق أوديسيوس وتملّكتهم رغبة شرهة فى تقسيم الغنيمة التي يحتويها جلد الثور والتي خالوها ذهباً، فمزّقوا الرّباط الذي كان يمسك الرياح سجينة هذا الجلد، فإذا هى تنطلق وتدفع السفينة فى اتجاه معاكس حتى ألقت بها عند ميناء مملكة أيولوس. ومن هناك أدركنا مدينة لاموس اللّستريجونيّة التي كان يحكمها الملك أنتيفاتس. وقد ذهبتُ موفداً إليه فى حراسة اثنين من رفاقي، غير أننا سرعان ما لُذْنا بالفرار أنا وأحد رفيقيّ بعد أن فوجئنا برفيقنا الثالث وقد أكله أهل لستريجون وبدت شفاههم ملطّخة بدمه. ومضينا هاربين وأنتيفاتس يطاردنا على رأس أفراد شعبه الذين اندفعوا يلقون كتل الصخور و جذوع الأشجار على سفننا حتى أغرقوها بمَنْ عليها من ملاّحين إلاّ سفينة واحدة نجت هى تلك التي كنت عليها مع أوديسيوس. وبعد أن رثَيْنا مَنْ فَقَدْنا من رفاق، وأمضينا وقتاً طويلاً نندب مصيرهم رَسَوْنا على تلك الشواطئ التي يمكن أن تراها من هنا على بُعد. وصدّقني أنه خير لك أن ترى تلك الجزيرة من بعيد من أن تراها عن قُرب كما رأيتُها. أما أنت يا أشرف الطرواديين يا إبن الإلهة [إذ يتعذّر عليّ يا أينياس أن أدعوك بالعدوّ بعد أن انتهت الحرب بيننا] فنصيحتي لك أن تتجنّب شواطئ كيركي. ولمّا رَسَتْ سفينتنا قرب شواطئ كيركي أَبَيْنا أن نغادر السفينة أو أن نقصد بيتاً لا نعرف أهله، فقد كنا مانزال نذكر مغامرتَيْنا مع أنتيفاتس والكيكلوپيس المتوحّشيْن. لكن

الأقدار اختارتني ـ حين اقترعنا ـ كي أذهب ومعي پوليتيس الوفيّ ويوريلوكوس وإلپينور شديد الولع باحتساء النبيذ فى صحبة ثمانية عشر من رفاقنا لنتعرّف على ديار كيركي[١٤] . وما كدنا نصل إلى فناء االدار حتى أفزعنا قطيعٌ من ألف ذئب ومعها ألوف الدببة واللبؤات . ولقد عرفنا بعدُ أنه لم يكن ثمة ما نخشاه من هذه الحيوانات إذ لم يباغتنا واحد منها بشرّ، بل لقد داعبتنا بذيولها ورافقت خطانا فى حنان وأبت مفارقتنا حتى قابلتنا الوصيفات اللاتي قُدْننا إلى ربّة الدار عبر أبهاء كبيرة مرصوفة بالرخام . وكانت كيركي تتربّع على عرش مهيب فى نهاية قاعة فاخرة وقد ارتدت ثوباً يخطف بريقه الأبصار يغشّيه معطف مزدان بخيوط القصب، ومن حولها الحوريات والنيرياديس اللاتي لم يكنّ منشغلات كالعادة بغزل الصوف وجدْل خيوطه الطيّعة بأناملهن المدرّبة[١٥] بل كنّ يفرزن زهور مولاتهن مختلفة الألوان وأعشابها المختلطة ببعضها البعض، ويصنّفنها قبل تنسيقها فى سلال متفرّقة . وكانت كيركي ترقب نشاطهن باهتمام إذ كانت وحدها التي تعرف نفع كل ورقة من أوراق االنبات، كما تعرف أثر خلط بعضها ببعض، ثم كانت بعنايتها الفائقة تزن فائدة كل عُشب بميزان دقيق . وما إن رأتنا حتى بادلتنا التحية وأشرقت طلعتها وهى تسوق إلينا تمنّياتها الطيبة، وبدا وجهها الباسم وكأنه بشيرٌ بنجاح خُطّتنا . ولم تلبث أن أمرت بإعداد مزيج من الشّعير المحمّص والزيت والنبيذ واللبن الخثير، وأضافت الماكرة إليه خلسة عصارات مشؤومة لم نتبيّنها غلبت حلاوة المزيج على طعمها، فتناولنا من يدها الكؤوس التي قدّمتها إلينا بيمناها، ولم تكد أفواهُنا الجافة ظمأ تُسْلمها إلى أجوافنا، ولم تكد الإلهة الرهيبة تلمس أطراف شعورنا بعصاها السحرية [وما أستطيع أن أذكر ماوقع دون أن أشعر بالعار] حتى أحسستُ بجسدي تنبت فيه شعيرات منتصبة، وغاب نُطقي وحلّ محلّه خوار أجشّ، وانكفأتُ بوجهي على الأرض، وإذا فمي يتحوّل إلى خطم متهدّل، وإذا عنقي يتورّم بعضلات غليظة، وإذا يدايْ اللتان تناولت بهما الكأس تستحيلان إلى قدمين أخطو عليهما، ثم دفعوا بنا أنا ورفاقي سجناء فى حظيرة بعد أن صرنا جميعاً ضحايا لهذا السّحر [ألا ما أعظمَ قدرة الشّراب السّحري] . وكان أوريلوكوس وحده هو الذي لم يُمسخ خنزيراً لأنه رفض الكأس الذي قُدِّمت إليه، ولو لم يكن قد ردّ تلك الكأس لكان حتى الآن خنزيراً بين القطعان خشنة الشّعر، ولولا أنه هو الذي أنهى إلى أوديسيوس خبر الكارثة التي حلّت بنا، لما جاء لإنقاذنا والثأر لنا من كيركي . وكان ميركوريوس إله السلام قد أعطاه زهرة بيضاء سوداء العنق، يسمّيها سكان السموات

لوحة ١٢٢ . پيكار: كيركي تستقبل أوديسيوس ورفاقه.

«مـولي»[١٦]، فدخل أوديسيوس دار كيركي وهو آمن من كل خطر بفضل سحر هذه الزهرة، وبفضل وعد الإله بشدّ أزره. ولما دعته الإلهة إلى تناول الشراب الغادر وحاولت لمس شعره بعصاها دفعها بعيداً عنه وشهر سيفه مهدّدا الإلهة التي أصابها الذعر. وبعدها تصافحا إيذاناً بعهد جديد تسوده الثقة المتبادلة، كما رحّبت كيركي بأوديسيوس فى فراشها، وطلب منها مَهْراً جزاء معاشرته إياها أن تُعيد رفاقه إلى صورهم الأولى، فرشّت علينا عصارة عُشب مجهول ومسّت رؤوسنا بعصاها معكوسة وحَوْقَلتْ بعُوذة تُبْطل أثر العوذة الأولى. وكانت كلما عزّمت برُقَاها السحريةِّ اعتدل قوامنا، وتساقط الشعر الذي يكسو جلودنا واختفت شقوق أظلافنا واعتدلت مناكبنا وعادت سواعدنا تظهر كما كانت من جديد. وما كاد أوديسيوس يرى هذا التحوّل حتى انخرط فى البكاء تأثّراً وبكَيْنا معه نحن أيضاً بينا نحتضنه بأذرعتنا، وكان أول ما نطقت به شفاهنا هو العرفان بجميله. وقضينا هناك سنة واحدة رأيتُ خلالها الكثير من الغرائب وسمعت العديد من العجائب. ومن بين ما سمعت ما روته لي سرّاً إحدى الوصيفات الأربع المنوط بهن الأعمال السحرية. فذات يوم بينما كانت كيركي مختليةً بزعيمنا قادتني وصيفتها إلى تمثال شاب من الرخام الأبيض الناصع كالثلج وقد اعتلى رأسه طائر النّقار، وانتصب هذا التمثالَ داخلَ معبد تكتنفه أكاليل زهور كثيرة، فازددتُ تشوّقاً لمعرفة مَنْ يكون هذا الشاب، ولماذا يُعبد على مثل هذا النحو فى مثل هذا المكان المقدس، وما هو سرّ الطائر الأخضر الذي يعلو التمثال؟ فقالت لي: أصِغْ السَّمع يا مكاريوس، وستعرف من خلال ما سأقصّه عليك مدى قدرة ربّتي، فلتمنحني إذن أذناً صاغية:

پيـــكوس وكانِنْـــز

«كان يحكم بلاد أوزونيا فى الماضي الملك پيكوس بن ساتورن الذي كانت جياد الحرب المدرّبة هى شُغله الشاغل. وأمام عينيكِ الآن صورته تستطيع منها أن تكتشف كَمْ كان وسيماً، كما تستطيع منها أيضاً أن تستشفّ طباعه. كانت شجاعته تعادل جمال قسماته، ومع أنه لم يكن قد بلغ من العمر ما يكفي لأن يشترك مرات أربعاً فى مباريات المصارعة التي يقيمها الإغريق كل خمس سنوات فى إحدى مدن إيليس، إلاّ أن جمال ملامحه اجتذب إليه أنظار الدرياديس حوريات جبال لاتيوم، كما سعت إليه أيضاً حوريات الينابيع وجارتّها فى مسعاها

النايادیس بنات میاه نهر ألبولا ونهر نومیکیوس ونهر أنیو ونهر المون قصار المجری ونهر النار المتدفّق الصاخب ونهر الفارفاروس ذي الأشجار الظليلة، كما سعت إليه أيضاً حوريات تلك البركة التي تحيط بها غابات الإلهة ديانا السكوثية[١٧] وحوريات البحيرات المجاورة. غير أن الفتى كان ينأى عنهن جميعاً ولا يقدّم فروض الولاء لغير حورية واحدة يقول الرواة إن ڤينيليا كانت أنجبتها فوق جبل پالاتينوس بعد مضاجعتها الإله چانوس[١٨] الأيوني. وما كادت الفتاة تشبّ ويتكوّر نهداها حتى آثرت پيكوس من مواطني لاتيوم على كل مَنْ تقدّم لخطبتها فتزوجت منه. كانت فتاةً نادرة الجمال غير أن قدرتها على الغناء كانت أكثر ندرة وتفرّداً، ومن هنا سُميت كانِنْز [أى مغنّية باللاتينية]. وكان لوقع أنغامها صدىً يُحرّك الصخور والغابات ويروّض الحيوان الكاسر ويوقف جريان المياه فى الأنهار الكبرى، ويَجْمُدُ بالطيور عن أن تخفق بأجنحتها. وبينا كانت منهمكة بترديد أغانيها ذات يوم انطلق پيكوس من داره مطارداً بسهامه الخنازير البرّية فى براري لاتيوم، وقد امتطى جواداً جامحاً وقبض بكفّه اليسرى على رمحيْن وارتدى الخلاميس[١٩] الأرجواني اللون المضموم بمشبك من الذهب الأشقر. وكانت كيركي بنت إله الشمس الوافدة من البراري التي تحمل اسمها قد دلفت إلى الغابة لتجمع من تلالها الخصبة بعض الأعشاب النّضرة، وما كادت عيناها تقعان على الفتى وهى مختبئة وراء إحدى الأجمات المورقة حتى فُتنت به وسقط من بين يديها ماتقبض عليه من أعشاب، وخُيّل إليها أن ناراً ملتهبة تسري كالبرق فى نخاعها. وبعد أن استعادت رشدها كادت تقرّ لپيكوس بظمئها له إلا أن انشغاله بركض جواده والتفاف تابعيه حوله حالا بينها وبين أن تُعْرِب عن افتتانها به. وعندئذ ناجت نفسها قائلة: «لن تُفلت منّي أيها الفتى ولو حَمَلَتك الرياح بعيداً عنّي ما لم يبطُل سحر كل الأعشاب الذي أجمعُها ولم تفقد عوذاتي قدراتها».

وانكفأت على سحرها فإذا شبح خنزير برّي ينطلق ليقطع الطريق على الملك، وإذا الملك يتراءى له كأنه يندفع صوب أجمة من الأشجار المتضامّة المتشابكة الغصون والأوراق يتعذّر على الجواد اختراقها. فاندفع پيكوس دون رويّة أو تردّد ودون أن يفطن إلى ما دُبّر له فأخذ يطارد ذلك الخنزير الذي تخيّله، ونزل عن صهوة جواده الذي رغَى خطمه بالزَّبد من فرط ما حلّ به من إنهاك، ومضى الملك يعدو فى الغابة العميقة وراء أمل زائف. عندها بدأت كيركي تتلو صلواتها لأربابها الخفيّة مردّدةً تعاويذ سحرية لا تقلّ خفاءً، فإذا الغيومُ تكسو بياضَ القمر

وإذا هى تنسج فوق وجه أبيها الشمس سُحباً مطيرة، واستطاعت بقدرة عوذاتها أن تُغشّي السماء بظلام كثيف وتُطلق من الأرض ضباباً معتماً، فهام رفاق الملك على وجوههم يبحثون عنه وقد حالت الظلمات بينه وبين حاشيته. وهكذا هيّأت كيركي لنفسها المكان والزمان المناسبيْن، وانبرت تخاطبه قائلة: «يا أجمل بَني البشر الفاني، ناشدتُك بعينيك اللتين فتنتا عينيّ، وبتلك القَسَمات الوسيمة التي جعلتني أنا الإلهة أقف أمامك ضارعة أن تخفّف من لهيب تلك النار التي تلتهمني، وأن ترضَى بإله الشمس العليم بكل شيء حماً لك، ولا تذهب بك قسوتك إلى حدّ ازدراء كيركي ابنة التيتان». غير أن پيكوس دفعها بعيداً دون اكتراث بضراعاتها قائلاً: «لن أكون لك أياً كُنت، فثمة امرأةٌ أخرى تأسر قلبي ولا أبغي من الدنيا سوى البقاء أسيراً لها على مرّ السنين، ولا أستطيع فى سبيل حب محرّم أن أخون عهود الزوجية مادامت الأقدار ترعَى لي كانَنز ابنة چانوس».

وبعد أن كرّرت بنت التيتان ضراعاتها سُدى وذهبت محاولاتها أدراج الرياح حذّرته قائلة: «لا يبلغنّ بك الغرور أن تظن أنك بمنجاة من العقاب فلن تعود أبدا لزوجتك كانَنز، وهاك مثالاً يدلُّك على ما قد تكيدُ به المرأة العاشقة لمن عشقته فصدّها. إن هذه المرأة التي أحبّت ثم أُهينت هى أنا... كيركي». وعندها التفتت مرّتين نحو مغرب الشمس ومرّتين نحو مشرقها، ثم مسّت الفتى مرات ثلاثاً بعصاها السحرية وتمتمت بعوذات ثلاث، لكن پيكوس فرّ من أمامها ومالبثت الدهشة أن أصابته حين رأى سرعته تفوق قدرته المعهودة، وإذا هو يرى الريش قد نبت على جانبيه. وإذ أحسّ المهانة لمسخه فى غير إبطاء طيْراً ينضمّ إلى طيور غابات لاتيوم، غرس منقاره الصّلب فى جذع شجرة بلّوط برّي كما نَقَرَ به غصونها الفارعة، وإذا هو يرى ريشه قد اتخذ لون أرجوان الخلاميس الذي كان يرتديه، وتحوّل مشبكه إلى دائرة من الريش تحيط بعنقه وكأنها قلادة من ذهب، ولم يبق من الإنسان الذي كان يحمل اسم پيكوس غير اسمه[٢٠] [الطائر النقّار].

وفيما پيكوس ينتهي إلى هذا المصير كان رفاقه قد انطلقوا يبحثون عنه فى الغابات والوديان فلم تقع عيونهم إلا على كيركي، وكانت قد أعادت الضوء ينير الأجواء وأذنَتْ للريح والشمس بتبديد السّحب، فانهال عليها رفاق پيكوس شاكين مطالبين بمليكهم، ثم هدّدوها بأن يعنفوا بها وتهيّأوا لرشق سهامهم المروعة فى جسدها، لكنها عاجلتهم فنثرت عليهم سُمّاً مُبيداً

وذرّت حولها عصارات فتّاكة، ونادت على الليل وآلهته من أعماق جحيم إيريبوس وعالم الفوضى والعماء، ثم أطلقت صرخات مديدة متوسّلةً بها إلى الإلهة هيكاتي. ألاَ ما أعجبَ ما حدث: فقد وثبت الغابات بعيداً عن مكانها، وأرسلت الأرض أنّات ملتاعة، وشحبت الأشجار من حواليهم، وابتلّت المروج في كل مكان بقطرات الدم، وسمع الناس الأحجار تتأوّه تأوّهات جشّاء كما سمعوا الكلاب تنبح، وتغطّت الأرض بحشود من الأفاعي الخبيثة، ومضت أرواح الموتى ترفرف في الهواء فذُهل رفاق پيكوس مما شاهدوه. ولما رأتهم كيركي على هذا النحو من الهوْل لمست بعصاها السحرية وجوههم التي علاها الذهول، فإذا معجزة أخرى تتجلّى، فقد خرج الفتيان من هيئاتهم الأولى إلى هيئة حيوانات ضارية.

كان فويبوس قد غمر بضوئه سواحل تارتيسوس[٢١] قبل أن يتوارى، وعبثاً ظلت كانِنز ترقب عودة زوجها بعينيها وبقلبها، وكان خدمها قد انتشروا في كل مكان وتبعهم أهل المدينة بحثاً عن پيكوس في أعماق الغابات حاملين الشُّعلات يبدّدون بها حلكة الليل. ولم تكتف الحورية بالبكاء وشدّ شعرها وضرب صدرها والتعبير عن لوعتها بشتّى الوسائل، وإنما انطلقت خارج قصرها إلى وديان مملكة لاتيوم وقد مسّها الجنون، وشهدت أياماً سبعةً وليالي سبعاً ساعيةً لا تطعم طعاماً ولا تذوق نوماً، تهيم بين الجبال حيث تقودها المصادفة، وكان آخر مَنْ رآها ربّ نهر التيبر الذي ألقت بنفسها على ضفّته بعد أن هدّتها آلام الأسى وقسوة القنوط. ومع دموعها ويأسها كانت تردّد بصوتها المتهدّج شكاةً ما أشبهها في شجنها بأنغام حزينة موقّعة لبجعة قد أشرفت على الموت. وتحلّل جسدها مع الألم حتى ساحَ نخاع عظامها، وتهاوت شيئاً فشيئاً حتى تلاشت في الهواء الشفيف. ومع ذلك ظلت ذكراها خالدة حيث هلكت، وهو المكان الذي أطلقت عليه حوريات الماء «الكامينايْ»[٢٢] اسم الحورية كانِنز.

تلك عجيبةٌ من عجائب ظللتُ طوال سنة أسمعها من الآخرين بأذني أو أشهدها بعيني. وكان الفراغ والخمول قد سلبانا الرغبة في مغادرة المكان حتى صدرت لنا الأوامر بالتهيّؤ للإبحار. وإذ أنذرتنا إبنة التيتان بأن الملاحة غير آمنة في مسالك هذه المياه الشاسعة الممتدة، وأن هيجان البحر العنيف ينذرنا بأخطار شتى فقد نالني الخوف. وإذ كنت قد أدركت هذا الشاطىء بعد أهوال ومشاق جمّة فقد قرّ عزمي على استيطانه.

رفـــاق ديوميـــديس

وبعد أن فرغ مكاريوس من سرد قصته وضع أينياس بقايا مرضعته المترمّدة فى إناء رخامي ثم نقش على قبرها عبارة موجزة مؤدّاها: «ها أنذا كاييتا. هنا أَوْدَعَ البطل الورع الذي أرضعتُه من ثديي رفات جثماني بعد حرقه فى النار المقدسة كما تقضي الشرائع وبعد أن انتشلني من نار العدو الإغريقي الحارقة». وما لبث الطرواديون بعد أن فكّوا حبال سفنهم من مَرَابطها المغشّاة بهُيُول العُشْب المُخْضَلّ اللّزج أن خلّفوا وراءهم تلك الجزيرة الغادرة مأوى الإلهة سيئة السيرة، متجّهين بسفنهم نحو منطقة الغابات حيث يصبّ نهر التيبر مياهه المختلطة بالغرْيَن الأغبر فى البحر. وكما قدّم لاتينوس بن فاونوس داره إلى أينياس قدّم إليه ابنته بالمثل، غير أنه لم يُكتبْ لتلك المشيئة أن تتحقق دون قتال، فإذا الحرب تنشب مع شعب عنيد شديد البأس، إذ كان تورنوس قد استخدم كل ما يملك من وسائل الترهيب للظفر بابنة لاتينوس التي كانت خطيبته فيما مضى، فإذا مملكة لاتيوم تخوض حرباً ضد مملكة تيرينيا [إتروريا] بأسرها، وبقى جيشاهما يتنازعان نصراً عصيّاً طال أمده. وأخذ كلٌّ منهما يحاول تدعيم قوته بما يستعين به من إمدادات خارجية، وساندت شعوب شتّى متحالفة مع شعب الروتوليّين أتباعَ لاتينوس، كما ساند آخرون المعسكر الطروادي[٢٣]. ولم تكن زيارة أينياس لـ «إيڤاندر»[٢٤] بلا جدوى على حين باءت بالفشل زيارة ڤينولوس [المنتمي إلى الروتوليّين] لمدينة ديوميديس المنفي بعيدا عن وطنه[٢٥]. وكان ديوميديس يحكم البلاد التي كانت مَهَرَتْه بها زوجه، إلا أنه كان يحكمها فى ظلِّ حَميه داونوس اليابيجي[٢٦] واستطاع أن يشيّد فى هذه الأراضى مدينة عالية الأسوار، ولكن ما إن جاءه ڤينولوس بناء على أوامر تورنوس يطلب عونه حتى تخاذل عن مساعدته متعلّلا بشُحِّ موارده وضعف جيوشه إذ كان عازفاً عن توريط رعايا حميه، فضلا عن أنه لم يكن بين مواطنيه من المحاربين ما يكفي للاشتراك فى القتال فقال معتذرا: «ما أحبُّ أن تحملوا ردّي على أنه تعلاّت زائفة، إذ كلما استعدتُ ذكرياتي آلمتني إيلاماً مبرّحا، لكني مع ذلك سأتحامل على نفسي لأروي لكم قصّتي: بعد أن أشعل الإغريق النار فى مدينة پرجامون فأتت على قلعة إليوم [طرواده]، اغتصب أچاكس بطل ناريكس كاسّاندرا العذراء التي تشملها منيرڤا ربّة العذارى بالرعاية، فإذا نحن الإغريق نكابد العقاب الذي كان يستحقه هو وحدَه، وإذا الريح تدفع سفننا فى المياه المضطربة الثائرة، وإذا نحن نصارع البرق والظلمات والأمطار وغضب السموات والبحر، ثم نلاقي الهول الذي كان ذروة البلاء فى محاذاة صخرة كافاريوس الناتئة

الصمّاء[٢٧] . ولست أبغي الإسهاب فى رواية ما حدث لنا من مغامرات فاجعة، فلقد اجتازت اليونان كلها وقتذاك محنةٌ كان يسيراً أن تستدرّ حتى دموع پريام ملك طروادة. أما أنا فقد نجوت لأن عناية الإلهة منيرڤا المحصَّنة بالدِّرع والرُّمح قد أغاثتني من غضبة أمواج البحر، ولكن ها أنذا الآن أجدني منفياً من موطني أرجوس، لأن ڤينوس الراعية شاءت توقيع العقوبة عليّ جزاء جرح كنت أصبتُها به عن غير قصد من قبل[٢٨] . وهكذا قُدّر لي أن أشقى بهذه المحن فى رحلاتي عبر البحار العميقة مثلما عانيت محناً أخرى فى معارك القتال على اليابسة، حتى لقد غدوت أعدّ رفاقي الذين غالبوا أمواج العواصف فأغرقتهم عند صخرة كافاريوس التي لا ترحم سعداء محظوظين، وأتمنى لو كنت واحداً منهم. أما رفاقي الباقين على قيد الحياة الذين ذاقوا مرارة الحرب ومغالبة الأمواج فقد خذلتهم شجاعتهم وأخذوا يتوسّلون إليّ أن أضع نهاية لتجوالهم المضيَّع عبثا، إلى أن صاح أكمون ابن مدينة بليورون الحاد الطّبع والذي أذكت المحن المتتالية شراسته قائلاً: «تُرى إلى أى حدّ سيكون مدى احتمالكم بعد كل ما عانيتم أيها الرفاق، وهل ثمة محن أخَر تخبّئها لنا ڤينوس إلهة كيثيرا؟ فكلما خشىَ المرءُ مزيداً من المحن تكالبت عليه. وما أقدر الإنسان على أن يغالب مخاوفه إذا ما انتهى إلى ذروة الشقاء فيغلبها ولا يعود القلق من المستقبل يساوره. ألا فلْتسمعني الإلهة ولتُلاحقنا بكُرْهها إيانا نحن رفاق ديوميديس، فنحن بأسْرنا نزدري كراهيتها ولا ترهبنا سطوتُها» . غير أن عبارات أكمون المهينة المفعمة بالتحدّي أيقظَت من جديد غضب ڤينوس وأضرمته. وقد عنّفت الكثرةُ منا أكمون لما صدر عنه وكنت أنا واحدا منهم. وحين حاول الردّ علينا إذا صوته يضيع وحلقه ينطبق وإذا جسده يضمُر وشعره يتحوّل إلى ريش كسا عنقه الممسوخ وصدره وظهره، ونبت على ذراعيه ريشٌ أطولَ، وتقوّس مرفقاه فغدتا جناحيْن خفيفيْن، وامتلأ ما بين أصابع قدميه بغشاء رقيق، وإذا فمه منقارٌ مدبّب فحملق فيه زملاؤه ميكوس وإيداس ونكتيوس وركسنور وأباس مذهولين، وإذا هم بدورهم يُمْسَخُون على هيئته. وهكذا انطلق أكثر رفاقي سرباً من الطيور يخفق بأجنحته فى الهواء محلّقا حول المجذّفين بمجاذيفهم. وإذا أردتَ أن تعرف أشكال هذه الطيور التي وُلدت للتو فلتعلم أنها ليست بجعاً وإن كانت تُشبهُه كثيراً ببياض ريشها[٢٩] .

أما أنا وتلك القلّة الباقية من رفاقي فلقد عكفنا نَفْلَحُ سهول هذه الديار الجرداء التي انتهت إليّ مهراً من داونوس اليابيجي لزواجي من ابنته.

شـجرة الزيتـون البرّيـة

وبعد أن رَوَى ديوميديس حفيد أوينيوس قصته غادر ڤينولوس مملكة كاليدون عائداً إلى وطنه عبر خليج پيوكيتيا وحقول ميساپيا، فإذا بصره يقع على كهف تُظلّه أشجار كثيفة وتحجبه عن العيون قصبات الغاب، كان پان الإله نصف التيس يقيم فيه، وإن تكن حوريات الأنهار قد سكنَّه فى قديم الزمان. ويُروى أن راعياً من أپوليا حلّ فى هذا الكهف ذات يوم مُلقيا الذعر فى نفوس الحوريات فهربن فزعات فى بادئ الأمر، غير أنهن سرعان ما استعدن هدوءهن واطمئنانهن بعد أن أدركن ضعة قدره فلم يبالين بمُطَاردهنّ وعاودن الرقص تدقّ أقدامهن الأرض على إيقاع نشيدهنّ، فانطلق الراعي يسخر منهن محاكيا رقصاتهن بوثبات عشوائية هوجاء قاذفاً إياهن بشتائم بذيئة، ولم يكفّ عن إهانتهن إلاّ بعد أن انطبق ساق شجرة على حلقه فإذا هو يُمسخ شجرة زيتون برّي، وأصبحت عصارة ثمرة هذه الشجرة خير دليل على طبعه، فمرارتُها التي اكتسبتها من خشونة أسلوبه تَنِمّ عن بذاءة لسانه.

سـفن أينياس وقصة أرديا

وحين عاد الرُّسل من بَعثتهم حاملين رفض الإيتوليين تقديم العون، لم يتقاعس الروتوليون عن القتال على الرغم من خذلان أولئك الحلفاء لهم، فتدفّقت سيول الدماء من الطرفيْن. وها هو ذا تُورنوس يقذف شعلات النيران المُلتَهِمَة على السفن المصنوعة من خشب الصنوبر، وإذا مَنْ نجا من الموت غرقاً مات حرقاً، وبينما مولكيبير يغذّي النار بالقطران والراتنج تسلّقتْ الصّاري الضخم مُصْعِدة نحو الشّراع وسط الدخان المنبعث من عوارض هيكل السفينة. وحين تذكّرت أم الآلهة المبجّلة أن خشب الصنوبر الذي صُنعت منه هذه السفن قد اجتُثّ من أشجار جبل إيدا الذي تباركه زحمت الجو بصكّات الصنوج النحاسية وأنغام المصفار المصنوع من خشب البقس، وأقبلت تشقّ الهواء الرخيّ الشفيف على مركبتها التي يجرّها زوج من الأسود المروّضة وصاحت: «عبثاً تطوّح يداك الجاحدتان ياتورنوس بهذه الجمرات الملتهبة فلسوف أنتزعها منك، ولأنقذنّ السفن المحترقة، ولن آذن للنيران النهمة أن تلتهم ما كان يوما جزءا من غاباتي المقدسة».

لوحة ١٢٣ . پيكار: الراعي البذيء يُمْسَخ شجرة
زيتون بعد سخريته من حوريات الأنهار.

وما انتهت الإلهة من تحذيرها حتى أرعدت السماء، وانهمرت إثر البرق أمطار غزيرة يتخلّلها بَرَدٌ متساقط. وأثارت الرياح الثلاث أبناء آستر ايوس[٣٠] فى الهواء فتنة وفى أمواج المياه ثورة، على حين سخّرت أم الآلهة الراعية ريحاً من هذه الرياح لهتْك حبال القنّب التي تعقل سفن الأسطول الفريجى فى مرابطها إلى الساحل فإذا سفنه تغوص فى جوف المياه غارقة، غير أن أخشاب السفن لم تلبث أن تحوّلت لحماً واستحالت حيازيمها المقوّسة وجُوها آدمية، كما أصبحت المجاذيف أصابع وسيقان قادرة على السباحة، وتحوّل ما كان جوانب السفن إلى ضلوع. أما الصّالب[٣١] الذي يتوسّط قاع السفينة فقد استحال عموداً فَقَرياً، وأصبحت الحبال شعراً مرسلاً، وغدت ساريتا السفينة ساعدين غير أن لونهما بَقِىَ لازورديا كما كان من قبل، وتحوّلت السفن التي كانت تهاب الأمواج إلى حوريات بحر مرحات يلهوْن فى المياه التي كن يَهَبْنَها قبلُ. ومن عَجب أن تلكن الحوريات اللواتي وُلدن أشجاراً فوق قمم الجبال الوعرة بتْن لا يُعرْن أصولهن بالا بعد أن احتضنتهن المياه، إلاّ أنهن لم يَنْسيْن مخاطر رحلاتهن فى الخضم، ولهذا فما أكثر ما كُنّ يقدّمن العون للسفن التي تلطمها العواصف باستثناء سفن الآخيين، إذ كنّ مازلْن يذكرن مأساة الفريجيين التي أذكت كراهيتهنّ للبيلازجيين الإغريق، ومن هنا كان ابتهاجهن حين رأيْن حُطام سفينة أوديسيوس، كما قرّت عيونهن بفرحة دونها حين شهدن سفينة ألكينووس ملك الفياكيين الذي أكرم وفادة أوديسيوس تتجمّد ويتحول خشبها إلى صخر وسط البحار. ٥٦٠

وبعد ما تحوّل الأسطول إلى حوريات بحار كان ثمة أمل فى أن يفزع الروتوليون من هذه المعجزة وينفضون أيديهم من الحرب، غير أنهم لم يعدلوا عنها بل استمروا يواصلونها. وكان لكل فريق آلهته التي ترعاه، ومع ذلك كانت لكل منهم شجاعته التي تعدل رعاية الإله. فلم يَعُد النزاع قائماً حول مملكة وُعِدَتْ بأن تكون مَهْراً، ولا حول صولجان صهْر، ولا حولَك أنت يا لاڤينيا العذراء، بل أصبح هَدف المعركة هو النصر وحده. واستمر القتالَ مُستعراً خَشْيَةَ عارَ الانسحاب، إلى أن اطمأنت ڤينوس فى نهاية الأمر إلى فوز جيش ولدها وهزيمة جيش تورنوس، وإلى أن سقطت مدينة أرديا التي اشتُهرت ببأسها خلال حياة تورنوس[٣٢]، حتى إذا تهاوت محترقةً ركاماً وسط ألسنة النيران التي أضرمها الدردانيون وتساقطت بيوتها وسط جحيم النار المستعرّة المتوهّج، انطلق من بين الخرائب والأطلال طيرٌ لم يشهده أحد من قبل، أخذ يضرب الهواء بجناحيه محوّماً فوق أطلال المدينة نافضاً الرماد من فوق جناحيه الخفّاقين،

كما أوحت صيحاته وشحوبه ونحوله بحال المدينة المطحونة المدمّرة، حتى اسمُ المدينة قد حمله هذا الطير فسُمّى أرديا [أى طائر البلشون المائي أو مالك الحزين]، وهو طير دائم الخَفْق بجناحيه والبكاء على مصيره والرثاء لمصابه.

تأليه أينياس

ها هى ذي شجاعة أينياس قد دفعت الآلهة جميعاً ومنْ بينهم چونو إلى اطّراح البغضاء القديمة التي كانوا يضمرونها نحوه منذ القدم. ولمّا كانت سلطة ابنه يولوس قد رسخت واستتبّت، آن الأوان للبطل أينياس بن ڤينوس أن يصعد إلى السماء، فسعت ڤينوس سعيها لدى الآلهة واحداً تلو الآخر، ثم طوّقت بذراعيها عنق أبيها چوپيتر قائلة: « أبتاه.. كم كنت معي دوماً كريما لا ترفض لي طلباً. ناشدتك أن تمنحني اليوم أعظم ما أتمنّاه عليك فتَهَبُ ابني الغالي أينياس نصيباً من الربوبية مهما كان ضئيلاً، فهو حفيدك الذي تجري دماؤنا فى عروقه. ألاَ حقّقت لي رجائي يا أجلّ الملوك، وحسبه أنه ألمَّ بمملكة الظلال يوماً وعَبَرَ نهر ستيكس ذات مرة». لبّى كبير الآلهة طلبها، كما قاسمته ملكة السموات رضاءها فبدت غير متجهّمة يفيض وجهها بفضيلة الرغبة في العطاء. والتفت كبير الآلهة إلى ڤينوس قائلاً: لأنت يا مَنْ رفعتِ إلىّ رجاءك وابنُك الذى تتوسّلين من أجله، جديران بهذه الهبة السماوية، فإليك يا بنيّتي ما تبتغين».

كذا تكلم كبير الآلهة. وعندها قدّمت ڤينوس الذي غمرها الفرح فروض الشكر لأبيها واعتلت مركبتها التي تجرّها اليمامات البيض، وحلّقت فى الأثير حتى بلغت شواطيء لاورنتوم حيث ينعطف نهر نوميكيوس الذي تزخر ضفّتاه بأعواد القصب ليصبّ فى البحر المجاور. هناك أمرت ڤينوس ربّ النهر أن يغمس في مياهه أعضاء أينياس الفانية حتى لا يُصيبها الموت بالتحلّل، وأن يغوص بها في نهره الساكن لتهبط نحو قاع المحيط، فاستجاب لها إله النهر ذو القرنين وغسل منه كل عضو فان دون ما هو أسْمَى وأنبل من أعضائه. وانحنت أمّه ڤينوس بعد ذلك فوق جسده ترشّ عليه العِطر الإلهي وتَدْهَنه به، ثم مسَّتْ شفتيه بمزيج من الأمبروزيا [شهد الآلهة] والنكتار [نبيذ الآلهة لذيذ المذاق]. وبهذا رفعته إلى مرتبة الآلهة، فرحّب به أهالي كويرينوس [أحد تلال روما] وكرّسوه ربّاً للمكان وشيّدوا له المعابد وهياكل القرابين.

لوحـة ١٢٤ . پيكار: تحـوّل سـفن أينيـاس إلى
حوريات بحر.

پومونا وڤيرتُومنوس . إيفيس وأناكْساريتّي

حظيت الدولة بعد ذلك تحت حكم أسكانيوس[٣٣] بن أينياس باسمَيْن هما مملكة ألبا ومملكة لاتيوم، ثم خَلَفه سلڤيوس. ومن بعده حمل لاتينوس بن سلڤيوس صولجان سلفه ملك لاتيوم القديم. وجاء ألبا المشهور بعد لاتينوس ثم ابنه إيپيتوس، إلى أن تولّى كاپيس الحكم ومن بعده كاپيتوس، ومنهما تسلّم التاج تيبرينوس الذي أُضْفيَ اسمه على مياه النهر الإترورى بعد أن غرق فيه. وأنجب تيبرينوس ريمولوس وأكروتا المقاتلَ المعتدّ بنفسه، غير أن البرق ما لبث أن صعق ريمولوس أكبر الأخوين حين أرْدَتْه صاعقةٌ قتيلا عندما كان يحاول محاكاة قصف
٦ الرعد. وكان أكروتا أقل طموحاً من أخيه فسلّم صولجان الحكم إلى أڤنتينوس الذي دُفن بعد موته فى سفح تل كان قد تقلّد زمام الحكم فوقه، فأُطلق اسمه على هذا التل بعد وفاته، وتولّى پروكا بعده عرش الپالاتينوس [أحد تلال روما] الذي عاصرت پومونا عهده، ولم تكن من بين حوريات غابات لاتيوم حورية تفوقها فى فلاحة البساتين وفن تنسيق الحدائق، أو تنافسها فى رعاية ثمار الأشجار، ومن هنا أطلق عليها اسمها پومونا[٣٤]. ولم تكترث هذه الحورية بالغابات والأنهار بل انصبّ عشقها على رعاية الحقول وغصون الأشجار المثقلة أفنانها بالثمار الوفيرة. ولم تقبض بكفّها على عُود حَرْبة تُثْقل يدها بل حملت المنجل المقوّس تشذّب به أحياناً ذؤابات الزرع، وتنسّق الغصون المتواشجة أحياناً أخرى، كما تشقّ أحياناً لحاء جذوع الشجر لتدسّ فيه اللقمة المطعومة من غصن شجرة أخرى يمتصّ منها نُسغَها. وكانت دائمةَ الرعاية للنباتات لا تتركها تعاني عطشا بل كانت ترويها من الجداول الجارية حتى تتشرّب بها أطراف الجذور المتشعّبة. كان هذا همّها الأكبر ومتعتها الوحيدة فى الحياة، لا تعاني من الحب ولوعته ولا تكابد تباريح الغرام. وكان خوفها من عنف الرجال الأخرق وما فى طبعهم من شوق للمرأة سبب عزلتها فى غُوطة الفاكهة التي حرّمت على الرجال دخولها. وكم حاول الساتير، أولئك الفتيان المعربدون الذين لا يصرفون أوقاتهم في غير الرقص، وكم حاول أتباع پان ذوُو
٦٤ القرون المحوطة بأكاليل ورق الصنوبر، وكم حاول سيلينوس[٣٥] الذي يبدو دائماً أصغر من سنّه، وكم حاول پرياپوس ذلك الإله[٣٦] الذي كان يهدّد الأشرار بالإفصاح عن شكله القبيح وعن مذاكيره الضخمة المُمْعنة طولا ملوّحاً بمنجله الحاد، كم حاول أولئك جميعاً الفوز بها عبثا. وكان ڤيرتومنوس يكنّ لها بدوره حباً يفوق حب هؤلاء جميعاً لكنه مثلهم لم يَفُز بها.

عجبا . . . كم من مرة تنكّر في زي مُزارع جلف خشن حاملا إليها سلّة زاخرة بسنابل الشعير فبدا وكأنه فلاحٌ حقاً! وما أكثر ما ظنّ مشاهدوه وحزمة العشب الغضّ الناضر حول جبينه أنه عائد لتوه من بيدر الحصاد. وما أكثر ما كان يقبض على منْخاس الثور بأصابع كفهّ المخشوشنة مما يجعلك توقن أنه مُنْته لتوّه من رفع النير عن أعناق ثيرانه المنهكة، وإذا أمسك بالخطّاف ظن الناس أنه إما قد فرغ من تشذيب الأغصان أو من تقليم الكروم. وكان يسير أحياناً والسُّلّم على كتفه فيظن الناس أنه مُقْبلٌ على جَنْى ثمار التفاح، وإذا أمْسك بسيف ظنّوه جندياً محارباً، وإذا أمسك بقصبة ظنّوه صيّاد سمك. ولقد استطاع بهذه الحيل المختلفة من التنكّر أن يجد الوسيلة التي يقترب بها من پومونا التي كان دائم التلهّف إلى إمتاع عينيه بجمال محيّاها. وذات يوم أحاط جبينه بشريط مطرّز بألوان مختلفة واتكأ على عصا، وسوّى شعراً أبيضَ فوق صدغيه ليبدو في صورة امرأة عجوز، ودلف إلى بساتين پومونا المنسّقة الغَرْس، مُعْربا عن إعجابه بثمارها مغرقا في الثناء على الحورية بقوله: «ما أعظم هذه الغَلّة الوفيرة وإن كنت تفوقينها جمالا وحُسنا!»، ثم هو بعد هذا الثناء يقبّلها قبلات لم يُشْهَد مثلها من امرأة عجوز، ثم افترش الأرض وقد حدّب ظهره ورفع بصره إلى الغصون المتدلّية بثقل عطاء الخريف. وكانت ثمة شجرة دردار سامقة تنتصب أعوادها أمامه تحيط بها عناقيد الكروم وكأنها قلائد العرائس الباهرة، فأطرَى تلك الشجرة ورفيقتها الكَرْمة قائلاً: «لو كانت هذه الشجرة قد نهضت وحدها جذعاً وحيداً دون الكَرْمة التي تكتنفها لما قصدها أحد إلاّ ليقطف أوراقها. كذلك هذه الكَرْمة المتّكئة إلى جذع الدردار لو لم تقترن به لهبطت إلى الأرض مّخذولة. أما أنت فما يبدو عليك أنك تدركين هذا الدرس الذى تُلقّنه لنا هذه الشجرة، فأنت دائمة الهروب من مباهج الحب ولا تحرصين علي الاقتران برجل. ألا فلتكن مشيئة الآلهة أن تَرْضَىْ يوماً بالزواج يا پومونا. فكم منْ عُشّاق قصدوك أكثر ممن قصدوا هيلينا نفسها، أو هيپوداميا التي كانت سبب المعركة بين اللاپيث والقنطور، أو پينيلوپي زوجة أوديسيوس الشجاع أمام الجبناء(٣٧). وإلى الآن وأنت تتمنّعين علي العشّاق، فكم من ألوف الرجال وقعوا صرعى هواك، وكم من عشّاق لك من بين الآلهة وأنصاف الآلهة ومَنْ هُم دونهم من الآلهة التي تعيش في جبال ألبا. ولو أُعطيت شيئاً من الحكمة وشيئاً من الدراية بمصلحتك، أو لو كانت لك الرغبة في أن تعيشي في ظل رجَل تَسْعدين معه وتُسْعدينه لأنصَتٌّ إلي هذه العجوز التي تقف أمامك، فحبّها لك يطغَى علي حب الرجال لك ويفوق هذا الحب. وما أنصحك به يا بنيّتي أن تطرحي جانبا أساليب

لوحة ١٢٥ . پيكار: پومونا وڤيرتومنوس فى
صورة امرأة عجوز.

الزواج التقليدية وتتخذي من ڤيرتومنوس رفيقاً لك في مَضْجَعك وأنا كفيلة بإقناعه، فأنا أدرَى به. وهو ليس ممن يهيمون علي وجوههم في الأرض وراء مغامرات لا طائل منها، بل هو هذا الذي يَفْلَحُ تلك الحقول الشاسعة الممتدة أمام بصرك. وهو لا يسقط فى هوي آخر امرأة يقع عليها بصره شأن مَنْ يتودّدون إليك كل يوم، بل ستكونين له أول حُب وآخر حُب لأنه يتوق الى تكريس حياته كلِّها من أجلك. ولا يفوتُنّك أنه مازال شاباً، وأن الطبيعة قد أسبغت عليه وسامةً أية وسامة! ، وأنه قادر علي أن يتحوّل إلي أية هيئة شاء، وأنه رهن إشارتك دَوْماً لأن يتحوّل إلى الهيئة التي تؤثرين. هذا إلى أنكما تتّفقان مشاربَ وأذواقاً. أليس هو أول من يذوق الفاكهة التي تشتهين، ومَنْ يملأ كفّيه فرحاً بثمار الأشجار التي رَعَيْتها؟ ولكني أعترف لك أن رغباته لا ترنو إلى ثمار أشجارك ولا تطمع بنتاج بستانك ولا بأعشابك العطرية الفوّاحة، بل تتطلّع نحوك أنت بالذات وحدك. فارحمي عاشقاً يعصف به لهيب الحب، واستَيْقني أن كل ما تمنّاه قد عبّر عنه على لساني. واحذري آلهة الانتقام وإلهة إيدليا [ڤينوس]، تلك الإلهة التي تبغض القلوب المتبلّدة المتحجّرة، ولتحذري أيضاً غضب نيميسيس المتحفزّ إلهة الثأر وراعية رامونتي التي لا تخذلها الذاكرة أبداً. ولكي تدركي ما قد تتعرّضين له من سطوة الآلهة وبطشها، إليك قصةً ذاعت في قبرص، فلقد أتاح لي عُمْري المديد أن أقف على الكثير من الخفايا، ومَنْ يدري لعل قصتي تُلين قلبك وترقّق عواطفك.

«كان ثمة رجلٌ من أسرة متواضعة يدعي إيفيس قد وقع بصره علي الأميرة أناكساريتيّ حفيدة تيوكير أحد ملوك فريجيا في سالف الزمان، فإذا هو يحسّ لفحات لهيب العشق. وما أكثر ما حاول كبح جموح حبه غير أن العقل قلما يكبح جنون العشق، فجاء إلي عتبة بيت معبودته متوسّلا حيث اعترف لمرضعتها بحبه المضطرم للأميرة، ملتمساً منها السعي لديها لتبثّها ما يعقدُ عليها من آمال، كما توسّل إلى وصيفاتها بصوت العاشق المعذّب ليمنحنه مساندتهن. وما أكثر ما عهد إليهن برسائله المدوّنة على الألواح التي أوْدَعها عواطفه المشبوبة لتوصيلها إليها، وما أكثر ما علّق فوق باب القصر أكاليل الزهور مندّاة بقطرات دموعه، وما أكثر أيضاً ما كان يُلقي بنفسه على عتبة الباب مُسْلماً جسده الرهيف لصلابة الحجر وهو يشكو قسوة قلب القضبان المنيعة التي تحول دون أن يتمكن من اقتحام قلبها.

كانت أناكساريتّي أشد قسوةً من أمواج البحر التى تهيج عندما يأفل نجما الجدْيين زيتا وإيتا، وكان قلبها أصلب من الحديد الذي صهرته مسابك نوريكوم[٣٨] وأصمّ من الصخور الراسخة في الأرض. وما أكثر ما سخرت منه، وما أكثر ما ردّت على تشبيبه بعبارات قاسية ملؤها العجرفة والتعالي حتي سدّت في وجه عاشقها طريق الأمل. وإذ لم يستطع إيفيس صبراً بعد أن غلب شقاؤه قدرتَه على المعاناة انطلق نحو بيت معشوقته يردّد رسالته الأخيرة لها بصوت عال: «لأنت الفائزة يا أناكساريتّي، ولن تضيقي بإلحاحي بعد اليوم ذَرْعاً. فلْتحتفلي بنصرك المؤزَّر، ولْتُنشدي أهازيج النصر، ولْتتوّجي جبينك بأكاليل الغار المتألقة. فأنت الفائزة، وها أنذا أموتُ طَوْعَ إرادتي. اذهبي راضية يامَنْ قُدّ قلبك من حجر، ويقينا سوف تدركين يوما بأن لحبّي ميزة فتندمين وتقدرينني حق قدري. ولكن اذكري أن حبي لك باق مادمت حيّاً، إذ أن نور الحياة ونور الحب يخمدان فى لحظة معاً. ولن يبلغَك خبرُ موتي شائعةً من الشائعات المتداولة، بل سأمثُلُ أنا نفسي أمام عينيك حتى يتسنّى لكِ يا أظلم النساء أن تُمتّعي ناظريك برؤية جسدي الهامد. ناشدتكم أيها الآلهة في عليائكم أن تجعلوا قصتي مرويّة بالألسنة عبر العصور كلما عنّ لكم أن تتأملوا في أعمال البشر [وما يملك لساني أن يتوسّل إليكم بأكثرَ من هذا]، وأن تضمّوا إلى ذكراي تلك السنين التي اقتطعتموها من عمري». ثم رفع عينيه الدامعتين أمام الباب الذي كثيراً ما علّق عليه أكاليل الزهور، وبذراعيه الممدودتين ربط حبلاً بأعلى مصراعي الباب وعقد عليه أنشوطة، وصاح من جديد قائلاً: «انظري. هاك الأكاليل التي ترتضينها يا أناكساريتّي قاسية الفؤاد!» ثم دسّ رأسه في حلقة الأنشوطة وشنق نفسه. وظل حتى بعد أن لفظ آخر أنفاسه معلّقا بالباب فاقد الحياة شاخصاً ببصره صوب الأميرة. وأخذت قدماه تنوسان فترتطمان بمصراعيْ الباب وينشج عنهما نحيبٌ وكأنه يندب ما وقع له في مرارة، وانزاحت ضلفة الباب قليلاً وإذا أهْلُ البيت تتكشّفُ لهم المأساة، وصرخ الخدم والأتباع وأقبلوا يحاولون رفع إيفيس، ثم حملوا جثته إلي دار أمه الأرملة، فاندفعت تحتضن جثة ابنها الهامدة الباردة مردّدة عبارات الأسى التي نسمعها من الآباء والأمهات في مثل هذه المواقف، وأقدمت علي ما تُقدم عليه الأمهات الثاكلات فانفجرت منتحبةً وتقدّمت جنازة طويلة اخترقت المدينة حاملة جثمان ابنها في طريقه إلي المحرقة. وكان بيت أناكساريتّي قريباً من الطريق الذي تمرّ به الجنازة، وبلغت أصوات النحيب أذُنيْ الفتاة المتحجّرة القلب،

وشرع إله الثأر في إثارة ضميرها. وعلي الرغم من طبيعتها اللامبالية بدأ التعاطف يمور نابضاً مع نبض قلبها وصاحت: «دعوني أُشْرِف علي هذه الجنازة الحزينة». ثم صعدت إلي حجرة مرتفعة في بيتها لتطلّ علي المشهد من نافذتها المُشرَعة على مصراعيها، وما كاد نظرها يقع على إيفيس وهو مُسجّي في نعشه حتي جَمُدَتْ عيناها وسَرَى في جسدها شحوب الموت وجفّت دماؤها وفارقتها حرارة الحياة، وحاولت أن تعود إلى حيث كانت لكنها ظلت جامدة في مكانها، وحاولت سدى أن تتلفّت بوجهها مرة إثر مرة، وإذا التحجّر الكامن في قلبها يسري في جسدها كله. وحتي لا تظنّي يا پومونا أن هذه القصة من بنات الخيال اعلمي أن في سلاميس إلي يومنا هذا تمثالاً لمعشوقة إيفيس بجوار معبد أطلق عليه اسم «ڤينوس المتربِّصة». فلتذكري هذه القصة أيتها الحورية العزيزة ودَعي عنك هذا الكبرياء الذي يملؤك صداً وتمنّعا، وهَبِي نفسك لعاشقك حتى لا يُطْفِئ لفحُ الصباح البارد في الربيع نضارة براعم ثمارك، ولا تنثر ريحُه في هبوبها زهراتك التي هي الأمل في ثمارك.

هكذا حاول الربّ المتنكّر في صورة امرأة عجوز أن يعرض قضيته على پومونا، ولكن إذ ذهبت مساعيه هَباء عاد إلى هيئته الأولى وكشف عن وسامته الفتيّة الجذّابة، وخلع عنه رداء الشيخوخة وظهر أمام الفتاة في أوج مجده كالشمس حين تشرق من وراء السحب المتجمّعة أمام طلعتها، وتأهّب للتسلّح بعنفوان نَهَمه لقضاء مأربه على حين لم تكن ثمة ضرورة لذلك، إذ ما أسرع ما افتُتِنت الحورية بوسامة الربّ وأولعت به مثلما كان هو بها مولعاً.

رومولوس وهيرسيليا

حكم «أموليوس» الشرّير مملكة أوزونيا ذات الثروات الوفيرة بعد «بروكا» اعتماداً على جيشه الجرّار إلى أن استردّ نوميتور[٣٩] العجوز بعون حفيده مملكته السّليبة، واكتمل خلال مهرجان الپاليليا[٤٠] إرساء أسس أسوار مدينة روما. ثم جاء تاتيوس ورؤساء قبائل السابين فشنّوا الهجوم على قلاع المدينة، وكانت الفتاة طارپيا قد مهّدت لهم الطريق إلى القلعة وإذا هي تلْقَي جزاءها العادل بقذائفهم المتلاحقة التي جَنْدَلتها. ثم تسلّل أبناء قبيلة السابين[٤١] من مدينة كوريس في تخفّي الذئاب وحرصها على ألا تفضحهم نأمة أو حركة، فباغتوا حراس المدينة وهم يَغطُّون في نومهم. وكان رومولوس بن إيليا قد أحكم إغلاق أبواب المدينة عدا

لوحة ١٢٦ . پيكار : إيفيس يشنق نفسه فوق أعلى مصراعيْ باب قصر أناكساريتي، التى تطلّ من شرفتها على جنازته .

باب واحد فتحته چونو بنت ساتورن في حرص حتى لا يصدر عنه صرير، فلمحتها ڤينوس وحدها وهي تنزع مزلاج الباب، وكان بإمكانها إغلاق الباب لولا ماجري عليه عُرف الآلهة بألا يُبطلَ إلهٌ عملَ إله آخر. وإذ كانت حوريات المياه الأوزونيّات يعشن قريبات من هذا المكان إلي جوار معبد چانوس في منطقة تتدفّق فيها مياه عين ثرّة لجأت ڤينوس إليهن تطلب العون، ولم يكن أمامَهُن مفرّ من أن يقدّمن العون إذ كان مطلبها عادلا، ففجّرن مياه الأنهار والجداول التي تغذّي ينابيعهن للحيلولة دون العدو واقتحام أسوار المدينة. وبالرغم من ذلك ظل الممرّ المؤدي إلى باب معبد چانوس مفتوحا ولم تُفلحُ المياه وحدها في صدّ العدو، فوضعت الحوريات كبريتاً أصفر في أعماق النبع المتدفّق وأضْرَمْن النار فيه تحت سطح الأرض بالقار المشتعل، فتسرّبت الحرارة إلى أعماق الينبوع وغدت المياه - التي تجاسرت ذات يوم علي تحدّي برودة جبال الألب - في حرارة المُهْل والنار نفسها. ومن هذا الشّواظ الناريّ الملتهب اندلع الدخان في حصْني بوابة المدينة التي استعصى علي السابين الغلاظ أن ينفذوا منها حين طمعوا في حرقها سدى، فقد وجد أهل المدينة في تدفّق هذه المياه عوناً لهم ريثما تسنح لجنود مارس فسحةٌ من الوقت يتسلّحون خلالها ويتحصّنون بتروسهم. وقاد رومولوس هجوم جنده بينما انتثرت أشلاء السابين على الأرض الرومانية وقد اختلطت بها جثث المواطنين الرومان، فامتزج ٨٠٠ دمُ الصِّهر بدمِ زوج ابنته علي نصال السيوف الغادرة يجري جداول. وعندها قرّر الجيشان الكفَّ عن مواصلة القتال حتى الموت، وأن يُبرما بينهما صُلحاً يُنهي الحرب، وأن يشارك تاتيوس رومولوس عرشه.

ومات تاتيوس، وتُوِّج رومولوس ملكاً علي الشعبيْن، فخلع مارس إله الحرب خوذته وتوجّه إلى كبير الآلهة والبشر قائلاً: «ألا لقد حان الوقت يا مولاي. ها هي ذي روما قد استقرت ولم تَعُدْ تركن إلي حماية بطل واحد فحسب، وآن الأوان كي تُنعم عليّ بالجائزة التي وعدتني بها، فترقّى برومولوس من الأرض إلى السماء. وإني لأستعيد قولَك لي في مجلس الآلهة - وإني لأذكر جيدا عبارتك الجليلة التي ظلّت منقوشة في ذاكرتي -: لترفعنّ يا مارس أحد أبنائك إلى ذروة القبة الزرقاء. ألاَ فلْتتجسّد أقوالك الآن أفعالاً».

فأومأ چوپيتر الجبار برأسه مستجيباً، وما لبث أن زخم الأجواء بسُحب داكنة وألقى الفزع والرعب في القلوب برعده وبرقه، فأدرك مارس أن هذه بشائر رضا ربّ الأرباب على عروج

ابنه إلى السماء. واستناداً إلى طول رمحه تمكن بجهد جهيد من اعتلاء مركبته التي تجرّها جياده المجهدة، وساطَها مفرقعا بسوطه فانطلقت تنهب الفضاء إلى أن هبطت فوق قمة تل الپالاتينوس المكسو بالغابات حيث كان رومولوس بن إيليا يقضي بين شعبه بالحكمة والعدل فانتزعه مارس من بينهم. وتناثر في السماء رذاذ جسد الملك الفاني بعد أن تحوّل أثيراً مثلما تتشظّى طلقةٌ قذف بها المنجنيق، وإذا جسده الآدمي يكتسي بجلال يليق بالآلهة في عليائهم، وغدا اسمه كويرينوس مُرْتَدي الترابيا [ثوب الاحتفالات السماوية المقدس].

وحين انخرطت هيرسيليا زوج رومولوس في البكاء ظانةً أنها قد حُرمت منه إلى الأبد، أمرت چونو كبيرةُ الآلهة وصيفتها ورسولها إيريس أن تهبط إلى الأرض لتزفّ للأرملة المكلومة بُشْراها قائلة: «أيتها الملكة، يا فخر القبائل اللاتينية والسّابينيّة، ما كان أجدرك في الماضي أن تكوني زوجة لمثل هذا البطل العظيم، ثم ما أجدرك الآن أن تُمسي زوجة لكويرينوس. جفّفي دمعك، وإذا شئت رؤية زوجك فهلمّي معي إلى الغيضة الخضراء فوق الكويريناليس الذي تُظلُّ أشجاره معبد ملك الرومان».

ونفّذت إيريس رغبة چونو وهبطت نحو الأرض عبر قوس قزح ذي الألوان المبهجة، وأنهت إلى هيرسيليا مشيئة چونو، ولم تجسر الملكة على أن ترفع ناظريها فأجابت في خشوع وتواضع: أنا لا أعرف مَنْ تكونين أيتها الإلهة، إلا أنه من الجليّ أنك تنعمين بسمات الألوهية. خُذي بيدي لأمتّع ناظريّ بوجه زوجي، فلو شاءت الأقدار أن أراه مرة واحدة لحسبتُ نفسي قد دلفت إلى النعيم».

واتجهت هيرسيليا إلى تل رومولوس في رفقة إيريس إبنة ثاوماس العذراء، وإذا بنجم من السماء يهوى بغتة نحو الأرض ليُشعل النار في شعر هيرسيليا ويتّحدَ بها ثم يسري بها إلى السماء حيث استقبلها مؤسس مدينة روما وضمّها إلى صدره وعانقها بذراعيه اللتين كم كانت تذوّقت دفء حنانهما من قبل، ثم وهبها جسداً واسما جديدين، فأصبحت «هورا»[٤٢] الإلهة التي ارتبطت عبادتها بعبادة كويرينوس.

الكتاب الخامس عشر

الكتاب الخامس عشر

نوما وموسكيلوس وكروتون

حار القوم آنذاك فيمن يقع عليه الاختيار لحمل المسؤولية الضخمة التي كان يضطلع بها الملك السالف العظيم. وإذا ربّة الشُّهرة الأمينة حاملة البشائر تصطفي نُوما[١] الذائع الصيت لكي يتولّى زمام السلطة. وكان نوما حكيماً لم يكتف بالتعرّف على تقاليد الشعب السابيني وأعرافه فحسب بل سعى إلى ما هو أبعد من ذلك، وهو اكتشاف أسرار الكون. وإذا حماسته تُملي عليه أن يهجر موطنه فى مدينة كوريس[٢] قاصدا مدينة كروتونا[٣] التي أكرمت وفادة هرقل عندما لجأ إليها ذات يوم. وهناك سأل عن أوّل مَنْ شيّد مدينةً يونانيةً على الساحل الإيطالي، فأجابه شيخ من مواطنيها كان مُلمّاً بتاريخها القديم قائلاً:

يحكي الرواة أن هرقل بن چوپيتر عاد من وراء المحيط ومعه غنائمه من السوائم الأيبيريّة، وبعد رحلة موفّقة بلغ شواطيء لاكينوم فأطلق قطعانه ترعَى الكلأ الغض ودلف إلى بيت كروتون العظيم الفيّاض الجُود حيث صادف منتجعاً يرتاح فيه من عناء الرحلة. وحين استبدّت به الرغبة بمغادرة المكان قال لكروتون: «لتقومنّ فى هذا الموقع مدينة على أيدي ذراريكم»، وإذا الأيام تحقق نبؤته. وكان لآليمون الأرجوسي ابنٌ اسمه موسكيلوس كان من أحبّ الناس فى عصره إلى الآلهة، فمال عليه هرقل حاملُ الهرَاوة بينا هو مستغرقٌ فى نومه هامسا إليه:

«فلْتهجرْ وطنك قاصدا الجدول المغطّى قاعه بالحصى فى بلاد آيسار النائية»، وهدّده بما سيتعرّض له من نوائب إن خالف أمره. وحين نهض ابن آليمون من سباته أخذ يتدبّر رؤياه وقد احتدم فى نفسه صراع بين الامتثال لأمر الإله وشرائع قومه التي تحرّم الهجرة وتقضي بإعدام كل من يستبدل بوطنه وطناً آخر.

وحين غاب وجه الشمس المشرق وراء البحر، ورفع الليل البهيم رأسه المرصّعة بالنجوم من جوف المياه خُيّل لموسكيلوس أنه يواجه الإله نفسه من جديد، وأنه يسمعه يكرّر تهديده ووعيده، وأنه سيضيُره بأضرار أنكى وأعتَى إن لم يستجب لندائه. سيطر الخوف عليه فأخذ يعدّ العُدّة لنقل مقتنيات أسرته إلى موطن آخر، فإذا الناس يتهامسون بخبره، وإذا هو يُقَدَّم إلى القضاء متَّهماً بالخروج على قانون البلاد، وانتهت المحاكمة بإدانته دون سماع شهود، فارتسمت على وجه الفتى البائس آيات الأسى ورفع ناظريه إلى السماء باسطاً كفّيه وهو يستغيث قائلاً: «أتوسّلُ إليك يا هرقل، يا مَنْ صعدت إلى السماء بفضل مآثرك الإثنتىْ عشر، أن تمدّ إليّ يد العون فأنت من دَفَعني إلى هذا الموقف». وجرت العادة وقتذاك أن يستخدم المحلّفون الحصَى الأسود إذا كان المتهم مُدانا والحصَى الأبيض إذا كان بريئاً، وإذا المُحَلَّفون يحكمون فى هذه القضية بإدانة المتهم إذ وضعوا الحصَى الأسود فى الوعاءالذي لا يعرف الرحمة، غير أن الحصَى الأسود ما لبث أن استحال بقدرة الإله هرقل إلى حصى أبيض فتغيّر الحكم وبُرِّئت ساحة موسكيلوس الذي هبّ يُزجي الشكر لربّه ابن أمفيتريون، ثم استقلّ سفينته مُقلعا بها فى البحر الأيوني تدفعه الرياح المواتية، ماراً بالقرب من مستعمرة تارنتوم اللاكيديمونية [الأسپرطية]، ثم مدينة سيباريس وثيريتوم مدينة السَّالنتينيّين(٤) ثم بخليج الثُّوريين(٥) بتيميسا(٦)، ثم بحقول ياپكس(٧) ومضى بمحاذاة الشاطيء يرقب الأراضى المطلّة على البحر، وما كاد يبلغ مصب نهر آيسار الذي دفعته الأقدار إليه حتى عثر على القبر الذي تتوسّد عظام البطل كروتون لحده المقدس، فبدأ يشيّد فى ذلك الموقع - استجابة لأمر الإله - أسوار مدينته التي تحمل اسم البطل المودع فى ثراها». تلك هى قصة أصل المكان ونشأة المدينة كما رواها الأقدمون.

پيثاجوراس

وُلد پيثاجوراس فى جزيرة ساموس[٨]، غير أنه ما لبث أن هجرها بمحض إرادته نفوراً من طغيان حكّامها مؤثراً عليها وطنا آخر هرباً من البطش والاستبداد. وكان پيثاجوراس مشغول الفكر بالآلهة فى عليائها، وببصيرته النافذة أخذ يتعمّق أسرار الطبيعة الكامنة الخافية على البشر. وكان له من رُشد العقل وعمق الدَّرْس ما نفذ به من ظلمة الجهل إلى نور العلم الذي عكف على تبسيطه كى يدركه العامة فى يسر، فاحتشد تلاميذه من حوله مبهورين بعبقريته وسحر حديثه وهو يلقّنهم أسرار الكون الفسيح معلّلاً الأسباب، شارحاً ماهية الطبيعة وكُنه الألوهية، وكيفية تكوّن الثلوج ومصدر البرق، وهل هو چوپيتر الذي يسوق الرعد عبر قبة السماء أم هى الرياح التي تفرّق السّحب بعضَها عن بعض، وأسباب الزلازل وقوانين دورة الكواكب وغوامض الطبيعة، كما كان أول من أنكر على البشر أكل لحم الحيوان. وهكذا كان بحق أول مَنْ نطق بالحكمة، لكن أحداً عندها لم يصدّقه حين انبرى يُبصّر قومه قائلا: «أيها البشر الفانون لا تدنّسوا أجسادكم بطعام لا يستهوي الآلهة وبين أيديكم الغلال والفاكهة التي تُثقل غصون الأشجار وعناقيد الكروم الناضجة وطيّباتٍ من النباتات تُنضجها النار وتجعلها ليّنةً شهيّة. وما تضنّ الطبيعة عليكم باللّبن ولا بالشّهد الذي يفوح بأرجِ الزعتر، وحقول الأرض سخيّة تقدم إليكم نتاجها، وغذاؤها الشّهيّ تُزْحَمُ به موائدكم دون حاجة إلى ذبحٍ أو سفك دم. فالوحوش هى التي تُشبع جوْعتها بلحوم بعضها وليس هذا دأبها كلها، فالخيلُ والأغنام والأبقار لا تقتات إلاّ بالأعشاب. أما الحيوان المعروف بالقسوة المفطور على التوحّش مثل نمور أرمينيا والأسود سريعة الغضب والذئاب والدِّببة فهى التي تجد متعتها فى لعق الدماء.

واأسفاه، ما أبشع أن تبتلع الأمعاءُ أمعاء أخرى، وأن يسمن الجسد على لحم جسد آخر، وأن يحيا كائن على قتل آخر! أوَلاَ تقنعُ بكنوز أمّك الأرض وخيراتها فتتعدّى ذلك إلى أن تنهش بأنيابك أشلاء جسد مخلوق آخر لتملأ فمك كما يفعل الكيكلوپيس؟ هل من وسيلة أخرى لتُشبع نهم معدتك غير التهام كائن آخر مثلك؟ ففى العهد السحيق الذي كنا ندعوه العهد الذهبي كان الناس لا يأكلون إلاّ من ثمار الأشجار ونبات الأرض فحسب، ولا يدنّس الإنسان فمه بدماء الذبائح. كانت الطيور أيامها تحلّق فى الأجواء دون أن تتهدّدها أخطار، وكان الأرنب البرّي يعدو بين الأعشاب بلا خوف ولا وجل، ولم يكن السمك يقع ضحية بريئة بالطُّعْم المُلقَى إليه فيعلق بالشصّ. كانت الطمأنينة والسلام يرفرفان وقتئذ فى كل مكان دون أن

يحسب أحدٌ حساباً للمكائد والخداع، حتى ظهر إنسان مجهول واسع الحيلة مطبوع على الشرّ، حسد السّباع على طعامها، فقذف فى أحشائه النهمة لحم ذبيحة بادئاً الطريق إلى الجريمة المروّعة. وأظن الأمر بدأ بتخضيب السيوف بدم الوحوش التى تهدّد البشر، وقد كان هذا أمراً يحوز الرضا، فليس ثمة إثم فى سفك دم حيوان لا همّ له إلاّ افتراسنا. وإذا كان للإنسان الحق فى أن يدافع عن نفسه، فما أبعده عن الحق حين يتخذ من لحم الحيوان غذاءه. إلا أن الجريمة ما لبثت أن اتسع نطاقها، ويقال إن الخنزير كان أولى الضحايا التي استحقت الموت لاقتلاعه البذور من التربة بخطمه المدبّب هادماً بذلك الآمال المعقودة على الحصاد، ثم جاء دور التيس الذى نُحر فوق مذابح باكخوس عقاباً له على قَضْمه الكروم، فإن كانت هذه هى جريرة ذلكما الحيوانين فما هى جريرتك أيتها النعاج الوادعة التى ما خُلقت إلاّ لنفع البشر. فى ضروعك شرابٌ نغتذي به، وعلى ظهورك أصواف ننسجُ منها ثياباً واقية، فنفعُك لنا حيّة أكثر من نفعك لنا ذبيحة. ما أشقَى الثور الذى لم يعرف الخديعة والمكر ولا الدهاء ولا الأذى وقد وُلد قوياً ليحتمل أشق الأعباء! وكم صار الإنسان ناكراً للجميل حين دفعه طمعه إلى أن يرفع النير عن عنق الثور الذي يحرث له حقله فيذبحه غير مُكْتَفٍ بما يعود عليه من كسب وغلال، هاوياً بالساطور على ذلك العنق المكدود فى خدمته والمُنهَكَ فى حراثة الأرض الصُّلّبة لإنبات الزرع بعد الحصاد.

ولم يقنع البشر بارتكاب هذه الجرائم فحسب بل شاءوا إشراك الآلهة فى إثمهم، وخالوها تستمتع هى الأخرى بذبح الثيران الوديعة! لقد اتخذوا من عنفوان الثور مسوّغاً لهلاكه فقادوه إلى المذبح متوّجاً بأكاليل الغار والذهب، يسمع صلوات الكاهن دون أن يفهمها، ويرى بذور الغلال التى حرثها من قبل تُنثر على جبينه مذرورة بين قرنيه، ثم يهوُون عليه بالساطور الذي سرعان ما يتخضّب بدمه، ذلك الساطور الذى كان الثور يشهد صورته منذ حين وديعاً ساكناً فى المياه الطاهرة التي تحتويها آنية المعبد فلا يراه يحمل له شراً. ثم يستخرجون أحشاءه وهى ما تزال تنبض بالحياة وترفّ بها يتفحّصونها بحثاً عما تُدبّره الآلهة للبشر. كيف تجسرون إذن أيها البشر على أكل هذه اللحوم؟ ألاَ ما أشدّ نهم الإنسان إلى الطعام المحرّم. ناشدتكم الإصغاء إلى نصيحتي والإقلاع عما تقترفون، وأعلموا أنكم حينما تمضغون بأضراسكم لحم الثور الذبيح إنما تلتهمون حارث أرضكم الوفيّ.

وما دمت أتحدث عن أمر إله فسأنصاع إلى أمره كلمة كلمة، وسأكشفُ لكم الستار عن أسرار دلفي[٩] التي أُكنّها فى صدري، وسأفتح أمام عيونكم منافذ السموات، وأكاشفكم برسائل الحكمة العليا، وأبثّكم الأسرار العميقة التي لم تستطع عبقرية بشر بلوغَها فظلت خفيّة عليهم. كم أوّد أن أحلّقَ فى الآفاق بين الكواكب والنجوم تاركاً هذه الأرض التي تُقْعِدُ الهمم، معتلياً السّحاب حتى أهبط على كتفيْ «أطلس» الجبار، وأتطلّع ببصري إلى البشر عن بُعد وهم يهيمون على وجوههم على غير هدى، فأنشرُ لهم لفافة القدر المطويّة وأبثّ فى قلوبهم إيماناً لا يخشون معه الموت. أيها الجنس البشري المفزَّع الذي يقف جامداً خوفاً من الموت الجاثم، ما الذي تخشاه من نهر ستيكس وظلمات العالم السُّفْلي وما يدور حولهما من كلمات جوفاء ليست غير بضاعة يستخدمها الشعراء فى قصائدهم؟ لماذا تخشَى أخطار عالم لا وجود له؟ فلتطمئن نفوسكم إلى أن أجسادكم لن تستشعر ألماً بعد الموت سواء تحوّلت إلى رماد فوق المحرقة أم تحلّلت ببطء فى الثّرى مع مرور الأيام. أما الروح فإن الموت لا يدركها، فهى ما تكاد تخلّف مأوى حتى تجد لها مأوى جديداً يرحّب بها فتعيش به راضية[١٠]. وأذكرُ واعياً ١٦٠
أنني وقت حرب طروادة كنتُ يوفوربوس بن پانثووس الذي تلقّى فى صدره طعنة قاتلة من رمح منيلاوس ثاني قادة الإغريق. وقد تعرّفت على ذلك التُّرس الذي كنت أحمله أيامها على ذراعي اليسرى حين رأيته منذ قليل بمعبد چونو فى أرجوس مدينة أباس[١١]. إن كل شيء يتحوّل لكنه لا يفنَى، وإن نسمات الحياة لَتَمضي فى الكون من هنا إلى هناك تضمّ من الأطراف ما تشاء، وتنفذ إلى جسد مَنْ تختار، فقد تكمن فى جسد حيوان ثم تدعه إلى جسد بشري. وهذه النسمات التي تبثّ فينا الحياة قد تنتقل منا إلى الحيوان دون أن تفقد جوهرها، فهى كالشّمع الليّن الذي يتشكّل صوراً جديدة مختلفة ولا يبقَى على شكل ثابت ومع ذلك لا يفقد هويّته. أقول لكم إني أؤمن بأن الروح تبقى هى هى مهماً حلّت فى أجساد مختلفة، فاحذروا - ناشَدْتُكُم الآلهة - أن تطردوا من دوركم روحاً قد تكون بينها وبين أرواحكم وشائج قُربَى فتنتهكوا بذبحها الحرمات، ولا تجعلوا الجشع ينسيكم البرَّ بأقربائكم، ولا تدعوا الدم يعدو على الدم.

وما دمتُ قد أبحرتُ كالسفينة فى خضمّ أفكاري وجعلتُ الرياح تملأ شراع حديثي فسأستطرد إلى ما هو أبعد وأقول لكم إنه ليس ثمة شيء ثابت فى الكون أجمع، فكلُّ شيء فى

تغيّر مستمر يسيلُ كالماء، وأشكالُ الكائنات عارضة، والزمن نفسه يمضي منساباً وكأنه النهر بل أسرع، لأن ساعة الزمن العَجْلى لا تستطيع أن تتوقف عن الحركة ولو شاءت. فكما تدفع الموجةُ الموجةَ أمامها وتأخذ مكانها فكذلك الساعات تهرب الواحدة من الأخرى، وتطارد هذه تلك فى تجدّد بلا تلبّث، ويغدو ما حدث منذ قليل بعيداً، ثم يحدث ما لم يكن قد حدث من قبل. ليست كل برهة من الزمن إلاّ خَلْقاً جديداً، وإنكم لتشهدون الليل لحظة يفرغ من رحلته يمدّ يده إلى الفجر الذي يُضيء نور النهار ليَخْلُفَ ظُلُمات الليل، وإن لون السماء ليختلف فى أوج الليل عندما يسترخي البشر بعد الكدّ عنه حين يصعد لوسيفر حاملاً النور من أمواج الخضمّ ممتطياً جواده الأبيض، كما يختلف أيضاً قبيل الفجر ساعة ترقش أورورا إبنة پالّلاس العالم بألوانها قبل أن تُسلمه إلى فويبوس. وإن قرص إله الشمس نفسه ليأخذ اللون الأحمر عندما يطفو قليلاً فوق سطح الأرض فى الصباح الباكر، كما يأخذ اللون نفسه آخر النهار عندما يبدأ فى المغيب على المستوى نفسه من سطح الأرض. وهو يُمْسِي أبيضَ حين يبلغ سمت السماء لأن الهواء فى الطبقات العليا أكثر نقاء لبُعده عن أدران الأرض. أما كوكب ديانا [القمر] الذي يتألق ليلاً فإنه لا يبقى على صورة واحدة، بل يتغير حجمه من ليلة إلى أخرى، إذ يكبر كل يوم وهو فى طريقه إلى الاكتمال، ثم يصغر كل يوم وهو فى طريقه إلى المحاق.

ثم ماذا؟ أفَلاَ ترونْ العام كيف يأخذ أشكالاً أربعة متتابعة هى الفصول التي تحاكي مراحل حياتنا. فهو طفل وديع يتغذّى بلبن الثّدي حين يَهِلُّ الربيع، ويظهر العُشب الجديد سندساً غضّاً رقيقاً مترعاً بحيوية نضرة لكنه يفتقر القوة والصّلابة ليبعث الأمل فى قلوب المزارعين، ثم يزدهر كل شيء وتأخذ الورود مختلفة الألوان بالابتسام للأرض الحانية، ولكن ماتزال الأوراق غضّة يعوزها اكتمال النّضج. وبعد انصرام الربيع يصبح العام أشدّ عوداً مع دخول الصيف مثلما يضحَى الطفل شاباً قوياً، فهى المرحلة الحافلة بالقوة والخصوبة والدفء والحماسة. وحين تَفْتُرُ حرارة الشباب يَهِلُّ الخريف إثر الصيف، وهو فصل الامتلاء بالنضج يلتقي فيه الشباب بالشيخوخة، وتظهر بعض الشّعرات الشهباء فوق الصدّغين. ثم يأتي الشتاء الهَرِم مرتجفاً متعثّر الخُطى منحول الشعر، وإن بقيت منه بقية فهى ذات لون ناصع البياض.

وكذلك تتغير أجسادنا نفسها، ولا تكون فى الغد مثل ما كانت عليه بالأمس ولا مثل ما هى عليه اليوم. ولقد كنا يوماً فى أرحام أمهاتنا ـ حين كنا فيها نطفة فحسب ـ الأملَ فى إنسان

سوف يكتمل، فتناولتنا يد الطبيعة المخضرمة وأمدّتنا بالعون، ولم تشأ أن نبقى سجناء فى رحم الأم الضيّق لا نستطيع به حَراكاً فدفعتنا إلى الهواء الطلق. وحين يخرج الطفل إلى النور لأول مرة يبقى مستلقياً لا حول له، ثم يحبُو زاحفاً على يديه وقدميه كذوات الأربع. ورويداً رويداً ينتصب على ساقين مرتجفتين لا تثبتان وقد يعتمد على ما يسنده، ثم يُمسي قوياً سريع الحركة والعدْو، يمرّ بمراحل الشباب إلى أن يبلغ سنوات الرجولة، ثم يأخذ فى الانزلاج على منحدر الشيخوخة التي توهن عزم السنين السالفة وتزعزع أركانها. ويرُوَى أن ميلون[١٢] كان لا يكفّ عن البكاء فى شيخوخته كلما أحسّ ضعف ذراعيه ووَهَنهما بعد ما كانتا فى قوة ذراعيْ هرقل وصلابتهما. كذلك أجهشت هيلينا ابنة تندارس بالبكاء حين تأملت وجهها فى المرآة وقد بدت فيه تجاعيد السّنين، وتساءلت متعجّبة كيف حدث أن اختُطفت مرتين متتاليتين[١٣]؟ إيه أيها الزمن، إنك لتلتهم كل شيء بشراهة فلا تشبع. كذلك أنت أيتها الشيخوخة الغيّورة، تطحنين كل شيء بأضراسك وتنتهين به إلى الموت.

لا ثبات لعناصر الطبيعة، وإليكم تقلّباتها: إن العالم السَّرمَدي يشمل عناصر أربعة هى أصل كل شيء، إثنان منها ثقيلان يغوص بهما ثقلهما إلى أدنى وهما التراب والماء، واثنان لا وزن لهما فلا يعوقهما شيء عن الانطلاق إلى أعلى وهما الهواء والنار الأشدّ نقاء. وعلى الرغم من أن ثمة فراغاً يفصل بين هذه العناصر فإن كل شيء يبدأ منها وينتهي إليها. فالأرض حين تذوب تستحيل سائلاً، والسائل حين يتبخّر يصبح ريحاً وهواء، والهواء بعد أن يفقد وزنه يصّاعد نحو الطبقات العليا لهباً. ثم نشهد بعد ذلك سلسلة من التحوّلات فى اتجاه عكسي، فتعود هذه العناصر إلى شكلها الأصلي مرة ثانية بعد أن تكون قد تحوّلت على النحو الذي ذكرته. فالنار مثلاً تتكاثف فتصبح هواء، والهواء يصبح ماء، والماء عند تجمّده يشكّل أرضاً صلبة، فلا شيء يحتفظ بشكله الأصلي، فالطبيعة فى تجدّد مستمر، والمادة دائمة التشكّل فى أشكال مختلفة، إذ لا شيء يفنَى، فالكون فسيح، وكل شيء فيه يتشكّل على صور جديدة متغيّرة. والميلاد ليس إلاّ بداية حال جديدة تختلف عن حال سبقتها، وليس الموت غير نهاية لهذه الحال من أجل بداية حال غيرها، ومن الممكن نقل جزء من المادة إلى مكان ما وجزء آخر إلى مكان غيره، ولكن حاصل جمع هذه الأجزاء يبقى بلا تغيّر، فليس ثمة شيء يستمر على مظهره وقتاً طويلاً. وهكذا انتقلت العصور من الذهب إلى الحديد، وهكذا تقلّبت مصائر الأمم

والحضارات. وقد رأيتُ أنا نفسي تحوّل أرض جامدة إلى بحر مضطرم، كما رأيت بحراً يتحوّل إلى أرض صُلبة، وكثيراً ما نجد أرضاً مغطّاة بالأصداف رغم علو ارتفاعها عن سطح البحر، أو نعثر على مرساة قديمة فوق قمة جبل، كما حوّلت مياه الأمطار السهول إلى وديان، وكم دفعت السيول جبالاً إلى وسط البحار، وكم جفّت مستنقعات وتركت مكانها صحارَى جرداء، كما تحوّلت أراض جافة إلى مستنقعات راكدة المياه. وفى ذلك كله دليل على قدرة الطبيعة على إظهار أشياء فى مكان ما وحجب غيرها فى مكان آخر. والزلازل المُدَمْدمة الموّارة فى أعماق الأرض تفجّر ينابيع الأنهار فوقها تارة وتمتصّها تارة أخرى تاركة مكانها أرضاً بوراً. ولقد انشقّت الأرض تحت نهر الليكوس[١٤] وابتلعته فى جوفها، وإذا هو يتفجّر ثانية فى مكان بعيد عبر فجوة انبثق منها. وتكرر ذلك مع نهر إيراسينوس العظيم[١٥]، فبعد أن ابتلعته الأرض ظل يسري فى أعماقها حتى برز من جديد فى جلال من خلال حقول أرجوس، وكذلك نهر كاياكوس[١٦] فى ميسيا لم يرض عن ضفافه الأصلية فهجرها إلى ضفاف أخَرْ. أما نهر أمينانوس[١٧] الذى يشقّ مجراه عبر رمال صقلية فإنه يفيض حيناً ويجفّ حيناً آخر. وقد كان الناس يشربون فى سالف الأحقاب من مياه نهر الأنيجروس[١٨] بينما لا نملك اليوم أن ندنو منها بعد أن غسل فيها القنطور جراحه التي أثخنتها سهام هرقل حامل الهراوة، اللهم إلا إذا لم نأخذ بما يزعم الشعراء. ولنذكر أيضاً نهر الهيپانيس[١٩] الذي ينبع من جبال سكوثيا فقد اختلطت عذوبة مياهه قديماً بماء البحر الأُجاج. وفى قديم الزمان كانت مدن أنتيسا[٢٠] وفاروس[٢١] وصُور الفينيقية محاطة بمياه البحار، وقد تعرّت اليوم ثلاثتها عن الماء فلم تعد جُزُراً. ويذكر شيوخ ليوكاديا[٢٢] تلك الجزيرة عندما كانت جزءاً من القارة وهى اليوم محوطة بالبحر من كل الجهات، ويقال كذلك إن زانكليه[٢٣] كانت متصلة بإيطاليا حتى هتكت الأمواج حدود هذه المدينة وأحالتها إلى جزيرة. وإذا كنتَ تبحث عن مدينتيْ هيليكيه[٢٤] وبورا[٢٥] فى البلاد الآخية فإنك لن تعثر عليهما إلاّ تحت سطح المياه، فما يزال الملاّحون يشيرون حتى اليوم إلى أسوار هاتين المدينتين المتداعية الغائرة فى الماء. وثمة تل أجرد مرتفع بجوار ترُويْزن[٢٦] مدينة الملك پيثيوس كان فى الماضي سهلاً منبسطا وأصبح اليوم ركاماً عاليا من تراب، فعندما حُبست الرياح فى الكهوف المظلمة انطلقت تبحث عن متنفَّس دون جدوى، فلما لم تجد منفذاً ثارت ثورة عارمة وأخذت تنفخ فى الأرض كما ينفخ امرؤ فى مثانة حيوان أو قِرْبة من جلد جِدْي ذي قرنين حتى تورّم سطحها فخلّف تلاً عاليا ازداد صلابة مع الأيام.

وكم من نماذج تتتابع على ذهني سمعت بعضها وشهدت البعض الآخر، وسوف أسرد لكم طَرَفاً منها. فالماء مثلاً يتخذ أشكالاً غريبة المظهر، فنبعُك يا آمون ياذا القرنين[٢٧] مياهه باردة فى الظهيرة دافئة عند الشروق والغروب، ويقال إن الأثامانيين[٢٨] يوقدون مشاعلهم بمسّها بتلك المياه حين يكون قرص القمر قد انكمش أصغر ما يكون. ولدى شعب السيكونيس نهر تُجمِّد مياهُه أحشاءَ مَنْ يشربُ منه وتُحيلُ إلى رخام كل ما تمسّه من أشياء. وهناك نهر الكراثيس والسيباريس اللذان يبلغان مشارف حقولنا ويُحيلان لون الشعر إلى كهرمان وذهب[٢٩]، وأكثر من ذلك غرابة أن هناك مياهاً ذات قدرة على تغيير العقول لا الأجساد وحدها. ومَنْ ذا الذي لم يسمع عن بحيرة سالماكيس ذات المياه المسحورة أو البحيرات الإثيوبية[٣٠] التي يُجَنّ مَنْ يشرب منها جرعة أو يسقط فى نوم عميق، وينبوع كليتور[٣١] الذي يُصاب شاربُ مياهه بتقزّز يجعله لا يقرب النبيذ بعد ئذ أبداً، ولا يستعذب غير الماء القراح، ولعل مردَّ ذلك إما إلى قوى سحرية فى مياه هذا الينبوع تُبْطِل نشوة النبيذ، وإما إلى ما يُرْوَى عن أهل البلاد من أن ميلامپوس بن أميثاوون استطاع أن يَشْفِي بنات پرويتوس من هذيانهنّ بأناشيده السحرية وأعشابه المطهِّرة للعقول التي ألقاها فى هذا النبع الذي كنّ يشربن منه، ومنذ ذلك اليوم بعثت مياهه الصُّدود فى النفوس عن النبيذ. أما مياه نهر اللينكستيد[٣٢] فإن لها أثراً على النقيض من ذلك فمَنْ شرب قليلاً منها ترنّح سُكراً كَمَنْ شرب نبيذاً صرْفاً. وهناك بحيرة فى أركاديا أسماها الأقدمون فينيوس[٣٣] تُخْشيَ مياهها لخواصّها المتباينة المتغيّرة، فهى مُسْكِرة إذا شُرِبت خلال الليل لا النهار، وهكذا تختلف خواص مياه البحيرات والينابيع كلٌّ عن الأخرى. وفى قديم الزمان كانت جزيرة أورتيجيا[٣٤] طافية فوق سطح الماء بينما هى اليوم ثابتة. وكانت سفينة الأرجو تخشى صخور السمپليجاديز[٣٥] التي تتصادم مع بعضها البعض فى المياه كلما لطمتها الأمواج العالية، أما الآن فهى مكينة لا قدرة للرياح ولا للمياه عليها. وحتى بركان إتنا ـ ذو الحَمَم الكبريتية ـ لم يعد يقذف بلهيبه دوماً كما كان فى الماضي، لأنه إذا كانت الأرض تتنفّس تنفّس الكائن الحيّ من منافذ عديدة مختلفة تلفظ من خلالها أنفاسها الملتهبة، ففي استطاعتها تغيير تلك المنافذ كلما اهتزّت فتسدّ بعضها لتفتح بعضاً آخر. وإذا كانت ثمة رياح سريعة سجينة فى كهوف الأرض العميقة هى التي تقذف الصخور فى إثر الصخور وكذا المواد القابلة للاشتعال فتلتهب حين تصطدم بالصخور، فإن هذه الكهوف تعود باردة حين تهدأ الرياح وتفقد شدّة اندفاعها.

وإذا كان القار هو الذي يشتعل فجأة، والكبريت هو الذي تلتهب مادته الصفراء بغتة بلهب بالكاد يُرى، فإن الأرض ما تكاد تفقد مع الزمن قدرتها على مدّ النار بهذه العناصر القابلة للالتهاب حتى تفقد الطبيعة النّهمة وقودها وتتوقف قدرتها على خلق اللهب[٣٦]. ويُروى أن فى مناطق الهيپيربوريين[٣٧] فى پاليني رجالاً يكسو أجسادَهم زغبٌ خفيف إذا هم اغتسلوا تسع مرات فى بحيرة تريتون[٣٨] ولست أصدق شيئاً من ذلك، وإن قيل أيضاً إن نساء سكوثيا يستطعن تحقيق هذه المعجزة بدهن أجسادهن بعقاقير سحرية.

وإذا كان لنا أن نسلّم بالأمور التي هناك أدلة قاطعة على صحّتها[٣٩]، فأمامكم أجساد الموتى التي تتحلّل بفعل الزمن أو بفعل الحرارة المُسيلة وتتعفّن. ألا تروْن أنه قد تتوالد فيها كائنات دقيقة؟ اختاروا بضعة ثيران أصيلة وانحروها قربانا ثم ادفنوها فى حفرة واردموها، ولسوف ينبثق من أحشائها العفنة نحلٌ يمتص الزهور ويعشق الحقول ويعمل دؤوباً من أجل الحصول على غذائه على غرار الحيوانات التي تولّد عنها. وإذا دفنت جواد حرب فى التراب فسوف تتوالد من بقاياه أسراب من الزنابير، وإذا نزعت من سرطان البحر مخالبه المقوّسة ودفنت بقاياه فى الأرض لن يلبث أن يخرج منها عقرب يهدّدك بذيله المعقوف. وكذا الديدان المنتشرة فى الحقول التي تغشّي أوراق النباتات بشرانقها ثم تتحوّل إلى فراش جنائزي كما يشهد بذلك أهل الريف أنفسهم. ثم الغرْينْ الذي يحتضن بذوراً تُنبت الضفادع الخُضْر، لكنها تُنبتها باديء الأمر بلا سيقان إلى أن تأخذ القوائم الشبيهة بالزعانف فى النمو رويداً رويداً حتى تنمو لها بعد ذلك قوائم خلفية أطول من القوائم الأمامية تُعينها بعد ذلك على الوثب البعيد. وما تضع أنثى الدب دبّا صغيراً بل كتلة من لحم لا تكاد تنبض فيها حياة، وتظل تلعقها حتى تبرز لها أعضاء وتتشكّل كما تشكلّت هى من قبل وتأخذ صورتها. ألا تروْن أن يرقات النحل منتجة الشّهد التي تصونه فى خلايا النحل السداسية الأضلاع لا تكون لحظة ولادتها إلاّ أجساداً بلا أطراف، وتظل كذلك حتى تنمو لها أجنحة وقوائم؟ أما طير چونو [الطاووس] المرصّع الذيل بالنجوم، وطير چوپيتر [النسر] حامل صاعقته، ويمامات ڤينوس إلهة كيثيرا، وجماعات الطير كلها، فهى تولد جميعاً فى بيضات. ولكن أنّى لمصدّق أن يصدّق ذلك إذا لم يكن يعلم أن هذه هى الحقيقة؟ وثمة مَنْ يعتقد أنه حين يتحلّل الكائن الحيّ فى قبره الضيّق يتحول نخاعه الشوكي إلى ثعبان.

على أن جميع هذه الحيوانات تدين بوجودها لحيوانات أخرى، وليس ثمة غير طائر واحد هو الذي يتكاثر ذاتياً هو ما يسمّيه الأشوريون العنقاء، . ولا يتغذّى هذا الطائر بالأعشاب أو الحبوب وإنما يمتصّ عصارة أعواد البخور والحبّهان، فإذا قارب عمره الذي يطول إلى خمسة قرون من الانتهاء اتخذ لنفسه عُشّاً وسط السّعف في قمة نخلة تتأرجح في مهبّ الريح بعد أن يجمع بمخالبه وبمنقاره النّقيّ من كل دنس أجزاء عشّه من نبات القرفة وعساليج عطر الناردين الطيب الرائحة، ويبسط فوقها أعواد الكافور المختلط بالُمرّ البرّي، ثم يرقد فوقها حتى يلفظ أنفاسه وسط عبق العطر الفوّاح. ويقال إن ذَكَر عنقاء صغير يتولّد بعد ذلك من جسد أبيه ليبدأ حياة تمتد أمدَ عُمر أبيه نفسه. ومع تطوّر نموّه تتطوّر قواه على حمل الأثقال، فيتخفّف شيئاً فشيئاً من أعواد عُشّه التي هي من سعفات نخل باسق، ثم يحمل في خشوع ما بقي من عشّه الذي كان قبلُ قبر أبيه، ويشقّ به الفضاء إلى مدينة «الشمس» حيث يضعه أمام البوابة المقدسة لمعبد هيپريون[٤٠]. وإذا كان في هذا ما يُذْهل فلسوف يزداد ذهولكم إن علمتم أن الضّبع يتحوّل من ذكر إلى أنثى ومن ثم يتحوّل هو نفسه من أنثى إلى ذكر[٤١]، كما ستدهشون أيضاً من حيوان يتغذّى على الريح والهواء ويتموّه بلون المكان الذي يحلّ فيه[٤٢]. وقديماً أهدت الهند المهزومة حيوان الوشق[٤٣] إلى باكخوس الإله المتوّج بعناقيد العنب، ويقال إن كل ما تلفظه مثانة هذا الحيوان يجمد ويتحجّر إذا ما مسَّه هواء[٤٤]، وهذه حال المرجان أيضاً وهو عود طريّ يعيش تحت الماء ويتجمّد حين يخرج إلى الهواء.

سينطفيء ضوء النهار وسيقود فويبوس جياده اللاهثة إلى أعماق البحار لتغتسل قبل أن أفرغ من سَرْد كُل ما يتحوّل في الكون ووصف كل ما يتخذ لنفسه مظهراً جديداً، فناموس الكون هو أن كل شيء فيه في تحوّل مضطرد، وهكذا تقوَى بعض الأمم وتزدهر كما تضمحل أخرى وتتدهور. وقد كانت طروادة مدينة شديدة البأس مزهوّة بأبطالها ومواردها وظلت تدافع عن نفسها بدماء أبنائها طيلة أعوام عشرة، وهاهي ذي اليوم كومة من الأطلال التي لا ترتفع كثيراً عن سطح الأرض، وقبور أسلافها هي كل ثروتها الباقية. وكانت أسپرطة مدينة ذائعة الصيت، وموكناى مزدهرة، ولم تكن تقل عنهما مجداً مدينة كيكروپس [أثينا] ولا مدينة أمفيون [طيبة]، ولم تعد أسپرطة اليوم غير أرض جرداء، كما تقوّضت أسوار موكناى العالية، وماذا خلّفت طيبه مدينة أوديپ غير أسطورته؟ وما الذي بَقَى من أثينا مدينة پانديون؟[٤٥] مما

يخلّدها غير اسمها. واليومَ يقال إن ثمة مدينة عظيمة أسّسها أحفاد داردانوس بجوار نهر التيبر النابع من جبال الأپنيْن هى روما تُرْسي أسس دولة قوية لا يقوّضها الزمن، وقد أخذت تكبر يوماً بعد يوم، ولتُصبحنّ عاصمةً للكون الفسيح كما تكهّن بذلك الهاتف الإلهي والمُنبئون بالمصائر والأقدار. وإذا لم تخنّي حافظتي فإنني لأتذكّر أن أينياس كان ينشج متشككاً فى الخلاص ساعة أخذت طروادة تترنّح فوق دعائمها، فجاءه الكاهن هيلينوس بن پريام قائلاً: «إذا كان لك أن تصدّق ما تنبّأنا به يا ابن الإلهة فلتطمئن إلى أن طروادة لن تضمحل أبداً، لأنك سوف تحيا، ولسوف يفتح لك الحديد والنار معبراً فتغادر هذا المكان مصطحباً معك مهاجري پرجامون بعد أن تُنجّيهم من الكارثة، وستحملهم إلى حيث تجد أرضاً أجنبية تحفل بكم بأحَرّ مما حفلت بك أرض آبائك. وإنني أتنبأ كذلك بأن أحفاد الفريجيين سوف يؤسّسون مدينة لا صنْو لها ولن تكون لها مثيلة كما لم يكن لها شبيهة من قبل. وعلى مدى القرون الممتدة سيهيئُ لها قادتها البأس والسلطان، غير أن واحداً من نسل يوليوس سيجعل منها سيّدة العالم، حتى إذا عرف الناس قدره عرج إلى السماء ضيفاً، تاركاً الأرض ليستقر فى أسمى البقاع».

ذلك ما أتذكر أن هيلينوس قد تكهّن به حين كان أينياس يمضي حاملاً معه تماثيل آلهتنا[٤٦]، وما أسعدني أن أعرف أن هذه المدينة ذات صلة القربى بمدينتنا تكبر وتزدهر، وأن انتصار البيلازجيين [الإغريق] قد أفاد منه الفريجيون [الطرواديون].

ولا ينبغي الآن أن نترك مجال القول يذهب بنا بعيداً عن قصدنا ولْنَعُدْ إلى موضوعنا. إن السماء وكل ما تحتَها يتغير، كذلك الأرض وما تحتويه، ونحن كذلك جزء من الكون لأننا لسنا أجساداً فحسب، بل نحن كذلك أرواح مجنّحة تستطيع أن تجد لها مأوى فى أجساد الحيوانات المفترسة والأليفة معا. لذلك علينا ألاّ نَمَسّ هذه الأجساد بأذى، فلعلها تضمّ أرواح آبائنا أو إخوتنا أو غيرهم من أقربائنا أو من البشر الآخرين. فلنترفّع إذن عن تأثيم جنسنا ولنعفّ عن حشو بطوننا بمثل ما اكتظت به المأدبة التي أقامها أتريوس لأخيه ثاييستيس[٤٧]. ألا ما أقبح عادة أكل اللحم وما أكبر استعداد الإنسان الجاحد لسفك الدم حين يتقدم ممسكاً سكيناً ليهوي بها على عنق الثور اليافع دون أن يَلين قلبه لخواره. مَنْ منكم يرتاح ضميره إذا ما ذبح حَمَلاً يصرخ صراخ طفل وليد؟ وهل منكم مَنْ يستطيع أن يَطْعَمَ لحمَ طير غذّاه بيده؟ هل ثمة فرق بين هذا الفعْل وبين جريمة الاغتيال الحقّة؟ وإلى أين يقودنا هذا الطريق؟ دعوا الثور يَفْلَحُ الأرض فلا

تقضي عليه غير شيخوخته. دعوا الأنعام تزوِّدنا بما يَقينا برد ريح الشمال. دعوا الماعز تملأ بطونها لتُدرّ علينا من ضروعها لبناً تحلبه أيدينا. دعوا الشِّراك جانباً والكمائن ووسائل الغدر، ولا تخدعوا الطّير بعصا مكسوّة بعصارات النباتات اللّزجة فتلصق بها، ولا تسخروا من الوعل بإثارة فزعه من ذلك الريش الذي تضعونه فى طريقه فيتحوّل عنه إلى شراككم[٤٨]. ولا تخفوا الشِّصّ المعقوف فى الطُّعْم الخادع. لكم أن تقضوا على الوحوش الضارية، وحسبكم هذا، دون أن تجعلوا من لحومها طعاماً لكم. ولتبحثوا عن طعام لا تفوزون به إلا بشراسة العُدوانية الهمجيّة، ولا تجعلوا شفاهكم تلامس غير طعام حصلتم عليه دون عنف أو عدوان».

إيجيريا وهيپوليتوس

يقال إن هذه التعاليم وغيرها هى التي شكّلت فكْر «نوما» ووجدانه حين عاد إلى وطنه مستجيبا لنداء شعب لاتيوم اللاتيني لتولّي زمام السلطة. ومن حسن حظه أن زوجته إيجيريا كانت إحدى الحوريات، كما كانت حوريات الماء «الكاميناى»[٤٩] مُلْهماته، فلقَّن شعبه الشعائر الدينية، وحوّل أمّةً تجنح إلى الحرب والعنف إلى أمة تجنح إلى السِّلْم. ولما أدركته الشيخوخة كان حكمه وحياته قد قاربا الانتهاء معاً، فبكته نساء لا تيوم ورجالها كما بكاه شعبها، وإذا زوجته إيجيريا تهجر المدينة لتأوي إلى أدغال أريسيا، حيث لم تكفّ عن النواح والنحيب حتى اضطرب معهما انتظام طقوس عبادة الإلهة ديانا التي كان أوريستيس قد أرسى قواعدها[٥٠]. وكم من مرة حاولت حوريات الغابة والبحيرة التخفيف من أحزانها وصرفها عن النواح، وكم من مرة قال لها البطل هيپوليتوس وهى غارقة فى دمعها: «هوّني عليك من تعذيب نفسك، فليست مأساتك بالمأساة الفريدة، وكم من كثيرات غيرك عانَيْن مثلها، فلتكن لك فيهن عظة وعبرة حتى تخفّفي من أشجانك، وإليك ما وقع لى أقصّه عليك حتى يهونَ عليك بلاؤك. أوَ لَم يبلغ سمعك نبأ مصرع هيپوليتوس الذي قضى نحبه ضحية سذاجة والده وأحابيل زوجة أبيه الآثمة؟ ستدهشين حين تحيطين علما بما وقع، وإن لم أستطع أن أقدم إليك دليلاً ملموساً على صحة اعترافي بأني أنا هيپوليتوس، وأن هيپوليتوس هذا ليس غيري. فلقد حاولت فيدرا إبنة پاسيفاى زوجة أبي إغوائي فما نجحت فى حَمْلي على تدنيس فِراشَ أبي وتحميلي وِزْرَ جُرمها، فاتهمتني بأنني كنت أبغي منها ما كانت تبغيه هى مني، ولستُ أدري حتى اليوم أكان اتهامها

لي خوفاً من أن أفضح أمرها أم عن كراهية منها لي لرفضي الإذعان لرغبتها. ولقد طردني أبي من المدينة رغم براءتي وشيّعني بلعنات مخضّبة بالكراهية، فاعتليتُ مركبتي قاصداً منفاىّ فى ترويزن مدينة الملك پيثيوس. وإذ كنت فى طريقي إليها عَبْرَ شاطىء كورنثه، رأيتُ البحر يثور فجأة وإذا كتلة من الماء ترتفع كأنها جبل ولها خوار الثيران، وإذا هذا الجبل المائي ينشقّ وينطلق منه ثور ذو قرنين قد برز صدره، وأخذ يَمُجُّ مياه البحر من خطمه ومن خياشيمه، فملأ الفزع قلوب رفاقي لكنه لم يحتل قلبي الذي كان منشغلا بقضية نفىْ أبي إياىْ المؤسفة، فانحرفت جيادي عن طريقها فى اتجاه البحر وقد انتصبت آذانها وانتفش شعرها هلعاً من الوحش فشردت متسارعة مطوّحة بالمركبة فوق الصخور الصلدة شديدة الانحدار. وحاولت بيد عاجزة أن أجعلها تحسّ بقَبْضَتَىْ تجذبان الشكائم فى أشداقها المزبدة بالرغاء الأبيض، فملْتُ إلى الوراء أجذب الزمام، وكنت واثقاً من أن جموح جيادي لن يغلبَني على أمري لو لم تصطدم إحدى العجلات بجذع شجرة هشّم المركبة وإطارها، فسقطتُ أسفل عربتي وقد تعثّرت قدماى باللّجام وانجرّ جسدي الذي كان ما يزال حيّاً، وكادت أحشائي تُرى على الأرض نابضة مضطربة، والتصقت عضلاتي بجذع الشجرة وتناثرت أشلائي إلى الأمام وإلى الوراء، وتكسّرت عظامي وكان لتكسّرها صلصلة مسموعة، ثم لفظتُ آخر أنفاس حياتي المكدودة. ولم يكن ثمة جزء من جسدي تستطيعين أن تتعرّفي عليه، فلم يعد جسدي غير مزّق وأشلاء. فهل تَرَيْنَ أيتها الحورية بعد هذا أن مُصابك يوازي مصابي؟ وعلاوة على ذلك فقد شاهدتُ مملكة الظلمات وغسلت جسدي الممزّق فى أمواج مياه «فليجيثون»[٥١] ملتمساً الشفاء لأعضائي المبتورة، ولولا عقاقير ابن أپوللو الفعّالة ما عادت إليّ حياتي التي رُدّت إليّ بفضل أعشاب إسكليپيُوس الشافية وفن پيون [أپوللو] الطبّي رغم اعتراض ديس [پلوتو] ملك العالم السفلي، فقد غشّتني سنثيا [الإلهة ديانا] بسحابة كثيفة حتى لا أثير حسد مَنْ يشهد هذا العطاء الذي مُنحتُه وحتى تقيني الأخطار فأظهر دون أن يُصيبَني أذى، ثم أضافت بعضَ السنين إلى عمري وغيّرت من قسمات وجهي حتى لا يتعرّفَ عليّ أحد. وقد أنعمتْ الإلهة التفكير طويلاً فيما إذا كانت سوف تخصّص جزيرة كريت أم جزيرة ديلوس لتكون موطناً لى، إلى أن استقر رأيها على عدم توطيني فى أيٍ منهما فحملتني إلى حيث أقيم هنا، كما طلبت إليّ أن أطّرح

لوحة ١٢٧ . پيكار : مصرع هيبوليتوس .

اسمي الذي قد يذكّرني بجيادي قائلة : يامَنْ كنت هيبوليتوس [أى الفارس الخيّال]، لتكن منذ اليوم «ڤيربيوس»[٥٢]. ومنذ ذلك الحين وأنا أعيش فى هذه الغيضة واحداً من الآلهة الثانويين أتستّر بمولاتي الإلهة، بوصفي أحد أتباعها».

تاجيـــس وكيپـــوس

لم يُخفّف ما رويته عن مآسي الآخرين من أحزان إيجيريا التي استلقت خائرة القوى عند سفح الجبل تنهمر دموعها مدْرارا، حتى أقبلتْ عليها ديانا أخت فويبوس التي أشفقت على الحورية التعسة متأثّرة بوفائها لزوجها فبدّلت جسدها نبعاً رطباً وجعلت من أطرافها جداول لا تنضب مياهها الجارية. وقد أخذت الدهشة الحوريات أمام هذه المعجزة العجيبة، كذلك لم تَقلّ دهشة ابن الأمازون [أپوللو] عن دهشة الفلاح التيريني[٥٣] الذي شاهد وسط حقله كتلة من الطين تتحرك من تلقاء نفسها دون أن يدفعها أحد، إذ كانت فى يد القدر يحرّكها كيف يشاء، ثم اتخذت شكل إنسان ما لبث أن فغر فاهه المشكّل حديثا ليُدلي بنبوءات المستقبل. وقد أطلق أهل المنطقة اسم تاجيس على هذا المخلوق الذي كان أول من علّم الشعب الإتروسكي أسرار التنبؤ بالمستقبل. وكان رومولوس قد أُصيب بالدهشة نفسها حين رأى عود رمحه الذي كان قد نما قبلُ فوق تل الپالاتينوس وقد أورق فجأة، ولم تعد سنّ الرمح الحادة التي غرسها فى الثّرَى سنّ رمح بل اتخذت لنفسها جذرا واستحالت شجرة تبسط فروعها اللّدنة ظلا لم يكن يتوقّعه النظارة الذين تطّلعوا إليها دهشين. كذلك أصابت الحيرة كيپوس قائد جيوش الجمهورية حين شاهد صورته منعكسة فوق صفحة النهر الصافية، فإذا هو يرى قرنين ينبثقان من جبينه خالهما بادئ الأمر وَهْماً فرفع يديه إلى جبينه مرّة بعد مرّة، وما كان أشدَّ عَجَبه حين لمسهما فلم يعد يكذّب عينيه. وبعد عودته منتصراً على أعدائه رفع ناظريه وذراعيه إلى السماء هاتفاً: «لست أدري يا آلهة السموات ما تُنبيء عنه هذه المعجزة، فإن تكن بشير خير فليكن هذا الخير لوطني ولشعب كويرينوس، وإن تكن نذير سوء فليقع عليّ وحدي شرّه». وجمع حزماً من الأعشاب الخضراء شكّل منها هيكلا حرق فوقه البخور قرباناً للآلهة، وأراق أمامه نبيذ القربان، ثم ذبح أغناماً وبقر بطونها كى يستدلّ من أحشائها التي ما تزال نابضة على ما يخبئه له

القدر. وما كاد العراف الإتروسكي يُمحّص الأحشاء حتى أدرك أن المستقبل يخبّىء له أحداثاً كبارا وإن لم يتبيّن هويّتها بوضوح، ثم رفع عينيه الثاقبتين عن أحشاء الذبائح نحو قرنيْ كيپوس وقال له: «مرحباً بك مولاىْ الملك. ليَخْضَعَنَّ لك يا كيپوس ولقرنيْك(٥٤) لا هذا المكان فحسب، بل وقلاع لا تيوم كلها. فلا تُضِعْ الوقت هباءً وامض إلى أبواب المدينة المفتوحة على مصاريعها ترحيباً بك. هذه هي مشيئة الأقدار، فلن تكاد تطأ أرض المدينة حتى تُتوّج فيها مليكاً، وترتقي عرشاً خالداً».

ارتد كيپوس إلى الوراء وأشاح بنظرته الصارمة عن أسوار المدينة، ثم خاطب الكاهن قائلاً: «فلتحجب الآلهة عني ما تَعِدْ، وخيرٌ لى أن أقضي حياتي فى المنفى عن أن يراني الكاپيتولينوس ملكاً». ولم يكد يفرغ من حديثه هذا حتى جمع الشعب وأعضاء مجلس الشيوخ المُبجَّلين بعد أن أخفى قرنيه تحت وريقات الغار رمز السلام(٥٥)، واعتلى ربوة سوّاها له جنوده البواسل، وأقام الصلاة لآلهة الأسلاف وفق العُرف المألوف، ثم خطب فى الحشد محذّراً: «إن بينكم لرجلاً إن لم تبادروا إلى طرده بعيداً عن المدينة فسوف يُوَلّى عليكم ملكاً، فمن تُراه يكون ذلك الرجل؟ لسوف أكشف لكم عنه لتعرفوه، لا بذكر اسمه بل بالكشف عن العلامة التي تميّزه، إذ له قرنان يعلوان جبينه. وقد أعلن العرّاف أنه إذا وطئ أرض روما فسيستعبدكم، وقد كان بوسعه أن يقتحم بواباتكم المفتوحة على مصاريعها، لكني حُلْتُ بينه وبين ذلك على الرغم من أنه أقرب الناس إلى شخصي. عليكم الآن أن تحولوا دون دخول هذا الرجل مدينتكم، ولتغلّوه بالأصفاد الغلاظ إذا ارتأيتم ذلك، أو فلتتخلّصوا من مخاوفكم بقتل ذلك الطاغية الذي يتهددكم».

وانتشر الهمس وسرت الهمهمة بين الناس وكأنها الريح العنيفة تصفع غصون غيضة أشجار الصنوبر الكثيفة، أو كما يُسمع هدير أمواج البحر من بعيد، غير أن صيحة ارتفعت فوق جميع الصيحات المصطخبة تقول «مَنْ هو هذا الرجل؟». وأخذ الشعب يتطلّع بعضه إلى بعض ليتعرّف على مَنْ تكون له هذه القرون التي أشار إليها القائد فى حديثه. عندها تكلّم كيپوس مرة أخرى قائلا: «ها هوذا الرجل الذي تسألون عنه»، ثم خلع إكليل الغار عن رأسه رغم معارضة الجمهور، وكشف عن صدغيه وقرنيه البارزين فتعرّف عليه الجميع.

أطرق الجميع وهم يتصايحون عاليا، ولم تشرئب إليه الأعناق بأبصارها وإنما تطلّعت إليه القلوب ببصائرها لترى تلك الرأس المهيبة وقد توّجتها جلائل الأعمال، ورفض الجميع بقاء رأس كيپوس عارية عن رمز مجده فأعادوا وضع إكليل الغار فوقها. وإذ كان محرّماً على قادة الجيوش الدخول إلى قلب المدينة مخترقين أبواب أسوارها رأى مجلس الشيوخ أن يهبه مكافأة النصر نصيبا من الأرض بقدر ما يقوَى على حرثه زوجٌ من الثيران من شروق الشمس حتى غروبها، ونقشوا على الأعمدة البرونزية القائمة عند مدخل المدينة شكل قرنيْن يمثّلان قرنيْ البطل تخليداً لذكرى هذه المعجزة على مرّ الزمن.

إسكلپيُوس

حَدِّثْنني يا ربّات الفنون يا مُلْهمات الشعراء، فأنتنّ أدرى بما أسأل عنه، وما يَخْفَى عنكن شيء من أسرار الماضي البعيد، فَلْتَكْشِفْن لي كيف استقبلت الجزيرة التي يحتضنها حوض نهر التيبر العميق إسكليپيُوس ابن كورونيس(٥٦) ونصبته واحداً من آلهة مدينة رومولوس؟

فلقد حدث في قديم الزمان أن غزا وباءٌ فتّاك أجواء لاتيوم، وأخذ سكانها يتساقطون واحداً إثر آخر وتناثرت أجساد المرضى الهزيلة الشاحبة هنا وهناك وقد غاض منها الدم من أثر الوباء المروّع. وحين ضاق أهل روما بكثرة مَنْ يُشيَّعون من الموتى، ورأوا عجز جهودهم البشرية وقصور فن الطب عن القضاء على الوباء استغاثوا بالسماء، فقصدوا دلفي «سُرّة» العالم لاستشارة عرّاف فويبوس متوسّلين إلى الإله أن يدركهم برحمته ويُسْعفهم بما يطمئنهم ويضع نهاية لشقائهم المضني الذي طحن مدينتهم. واضطرب الهيكل واضطرب معه نبات الغار وكنانة السهام التي يحملها الإله نفسه، وإذا كرسيّ العرافة الثلاثي القوائم يَصُوتُ - فاهتزّت لصوته أعماق الهيكل مما أثار الفزَع في نفوس الحاضرين - قائلاً: «كان بوسعكم أيها الرومان أن تلتمسوا ما جئتم تسعون إليه هاهنا من مكان أكثر قربا إليكم. عودوا إلى ذلك المكان الأقرب إليكم، فلستم في حاجة إلى أپوللو ليخفّف عنكم شقاءكم، بل هو ابنه الذي سيتمّ على يديه شفاؤكم، فاقصدوه محمّلين ببركاتي واستضيفوا عندكم ولدي».

وحين علم مجلس الشيوخ ذو الحكمة السديدة ما أمر به الإله تساءل أعضاؤه عن المدينة التي يقيم بها ابن فويبوس، ثم اختاروا وفداً حملته سفينة دفعتها الرياح إلى شواطيء إپيداوروس، وما كادوا يبلغونها بسفينتهم المحدّبة الجوانب حتى مَثَلوا أمام مجلس شيوخ المدينة اليونانية، راجين استضافة بلادهم للإله الذي سيتحقق خلاص أمة الأوزونيين [الإيطاليين] على يديه حسبما قال الهاتف الإلهي. فتشاور المجلس فى الأمر، وانقسمت الآراء بين قلة ترى أنه لا سبيل إلى رفض مدّ يد المساعدة، وكثرة تشير بالرفض حتى لا يُحرموا رعاية الإله مصدر رزقهم حين يُسْلِمُونه إلى غيرهم. وطال نقاشهم حتى طارد الغسق ضوء النهار ولفّ الليل وجه الأرض بظلمته، وإذا أنتم - أيها الرومان - تحلمون برؤية الإله الشافي ماثلاً أمامكم على صورته ذاتها وهو فى معبده، تمسك يسراه بعصاه الخشبية، ويُمشّط بيمناه لحيته المرسلة، ويقول بصوت رفيق: «لا تخشوا شيئاً فسوف آتي مخلّفاً مزاري ورائي وإن كنت سأبدو فى غير صورتي. فأنعموا النظر إلى هذا الأفعوان الذي يلتف حول عصايْ، وتبيَّنوا أجزاءه حتى تتعرّفوا عليه حق المعرفة، فلسوف أبدو فى هيئته غير أن حجمي سيكبر، وسوف ترون لي قامة عالية لا تليق إلاّ بالأجساد السماوية حين تتحوّل من هيئة إلى أخرى»[٥٧].

ثم اختفى الإله على الفور، ومع اختفائه واحتجاب صوته تبدّد النوم، ومع انقشاع النعاس عن العيون بدأ شعاع النهار يومض، وأخذ فجر اليوم الجديد فى طرد نور النجوم، ومضى أعيان المدينة وهم لا يدرون ما سوف يتخذون من قرار يتوافدون على المعبد الفاره[٥٨] لإله الشفاء المنشود، ملتمسين منه أن يكشف لهم عن المكان الذي يقع عليه اختياره للإقامة فيه. وما كادوا يفرغون من ملتمسهم حتى كان الإله قد تحوّل إلى أفعوان ضخم الصدر يعلن بفحيحه عن ظهوره بينهم، وعندها اهتز التمثال[٥٩] والهياكل والأبواب والأرض المرمرية والسقف المذهّب. ثم شمخ الإله برأسه وصدره وتوسّط المبنى مُجيلاً فيه نظرات لها بريق وامض فارتعدت فرائص الناس هلعاً وتعرّف عليه الكاهن - الذي كان يعقد خصلات شعره المقدس بشريط أبيض - وقال: «ها هو ذا الإله... انظروا ها هو ذا الإله، فليلزمْ الجميع الصمت الرصين، ولتطهّروا نفوسكم من الأفكار الدّنسة، وليكن ظهورك بيننا أيها الإله العظيم بشير خير وبركة لهذا الشعب المخلص فى عبادتك». وسجد الحاضرون للإله الماثل أمامهم كما أُمِروا مردّدين دعاء الكاهن. وضم ممثّلو شعب أينياس دعاءهم إلى دعاء الإغريق، فأومأ الإله بوقار

متقبّلا الدعاء وحرّك عُرفه تأكيدا لاستجابته لدعائهم، واستأنف فحيحه المتكرر راشقا بلسانه المتذبذب، ثم زحف على دَرَج السلّم المصقول، والتفت إلى الوراء قبل رحيله يلقي نظرة أخيرة على المعابد العتيقة التي كان على وشك أن يخلّفها. وبعد أن ودّع مسكنه الشهير والمعبد الذي أقام فيه، زحف بجسده الضخم متحوّيا فوق الأرض التي غطتها الزهور ينثرها الناس على طريقه، مخترقا المدينة حتى بلغ المرفأ الذي يكتنفه رصيف صخري دائري، فتلبّث ونظر إلى مودّعيه الأتقياء الذين جاءوا في إثره تكريماً له نظرة مفعمة بالودّ فوّاحة بالشكر تأذن لهم بالانصراف، ثم أخذ مكانه في السفينة الأوزونية التي أدركت بدورها أنها تحمل في جوفها إلهاً إذ أخذت تغوص تحت ثقله في الماء.

وامتلأت قلوب وفد مدينة أينياس بالفرحة، ونحروا ثوراً قرباناً على الشاطىء، وفكّوا حبال السفينة المزدانة بالزهور من مرابطها فدفعتها الرياح الرفيقة في إبحارها، وقد انتصب الإله بقامته مُسنداً عنقه على مؤخرها المقوّس يتأمل المياه اللازوردية. وعندما أشرقت أورورا
٧٠ ابنة باللاس للمرة السادسة أدركت السفينة إيطاليا مارة بشواطيء لاكنيوم الشهيرة بمعبد چونو، وبشواطيء سكولاكيوم مخلّفة وراءها إياپيجيا[٦٠]، وتحاشى الملاّحون بمجاذيفهم صخور أمفريزا عن يسارهم وصخور كوكنثوس عن يمينهم، ثم مضواْ بمحاذاة روميثيوس وكولون وناريسيا لا تعوقهم أخطار البحر، واخترقوا مضيق پيلوورس الصّقلّي حتى بلغوا مملكة ابن الملك هيپوتاديس، ومناجم تيميسيا وليوكوزيا وبساتين الورد في پايستوم الدافئة. ثم لزمت السفينة الشاطيء بجوار كاپري وبرزخ منيرڤا[٦١] وتلال سورنتوم ذات الكروم الوفيرة العناقيد، ثم مدينة هرقل[٦٢] وستابيايْ وپارثينوپي[٦٣] التي يقصدها الناس للاستمتاع بأوقات الفراغ، حتى أدركت كوماي حيث معبد الكاهنة سيبيلا. وتابعت السفينة سيرها حتى بلغت مدينة باياىْ الدافئة المياه، ثم مدينة ليتيرنوم الشهيرة بشجرة المصْطكا، وتجاوزتها إلى مصب نهر الڤولتورنوس المحمّلة مياهه المدوّمة بكثبان الرمال. ثم أدركت سينوويسا التي يحنّ إليها اليمام الأبيض، ثم مستنقعات مينتورناىْ الموبوءة، وكاييتا التي دَفَن فيها البطل أينياس مرضعته، إلى أن اجتازت ديار أنتيفاتيس ومدينة تراخاس المحاطة بالمستنقعات وأرض كيركي، إلى أن بلغت
٧٢ أخيراً شاطيء أنتيوم برماله المتماسكة، وإذ كان البحر عاصفاً قام الملاّحون بإرساء سفينتهم وأشرعتها مفرودة.

لوحة ١٢٨ . پيكار : الإله إسكليپيوس يخرج
على الناس فى هيئة أفعوان رهيب .

وبسط الإله جسده المتحوّي زاحفاً فى خطوط متعرّجة وانثناءات واسعة حتى بلغ المعبد المكرّس لأبيه بجوار الشاطيء الأصفر الضارب إلى السُّمرة. ولمّا هدأت عربدة الأمواج خلّف إله إپيداوروس هياكل أبيه التي لقى فيها أحرّ ترحيب، وعندما استعاد البحر هدوءه عاد الإله زاحفاً إلى السفينة شاقّاً أخدودا فى الرمال بحراشف جسده الحادة، وتسلّق دقّة السفينة حتى استقر فوقها معتمداً برأسه على مؤخرتها الشاهقة، وظل على هذه الحال حتى بلغت السفينة مدينة كاستروم ومدينة لاڤينيوم العريقة المقدسة ثم مصب نهر التيبر حيث توافد الناس من كل حدب وصوب للترحيب به، وأقبل الرجال والنساء وعذارى ڤستا الطرواديات الساهرات على نيران الهياكل يتصايحون فرحين تحية للإله. وعلى امتداد النهر الذي تمخره السفينة تصاعدت من المذابح والهياكل المشيّدة على الضفتين سحب دخان البخور الذي يشيع عطره فى الأجواء، وسالت دماء أضاحي القرابين لتُدفيء نصال المُدَى المستخدمة فى نَحْرِها، ثم هاهى ذى السفينة تدخل مدينة روما عاصمة الكون فينتصب الثعبان مستنداً إلى قمة الصاري يجول بناظريه فيما هو حوله باحثاً عن موقع يليق بمقامه. وفى الموضع الذي يتفرّع عنده نهر التيبر إلى فرعين يحتضنان ما يسمّى «الجزيرة»، وكأنما يمدّ النهر ذراعيه ليضمّ الأرض بينهما، اتجه الثعبان ابن فويبوس بعد أن هبط من السفينة اللاتينية إلى تلك الجزيرة بعد أن استردّ هيئته الإلهية فإذا هو يطهّر المدينة من الوباء المستشري.

تأليـــه يوليوس قيصـــر

وعلى حين وفد علينا هذا الإله من بلاد غريبة كان قيصر إلهُ مدينته هو. ولقد كان قيصر رجل حرب وسلام معاً، لكن، لا الحروب التي خاضها وانتهى فيها إلى النصر، ولا مآثره الحضارية المشهودة فى روما، ولا المجد الذي ظفر به سريعا، ما كان هذا كله ليصل به إلى أن يضيء على صورة كوكب جديد متألق فى السماء، بل مردّ هذا كله إلى أرومته التي ينتمي إليها، فهى وحدَها التي بلغت به هذا المقام السامي. فلم يكن بين مآثر قيصر ما هو أروع من أنه كان أباً لمثل هذا الإبن[٦٤]. وما حقّقه قيصر من قهر لفرسان البحر البريطانيين، وقيادة أسطوله المظفّر فى النيل ذى الروافد السبعة والذي تغشّي مياهَه أوراقُ البردى، وما كان من إخضاعه الثوار النوميديين [الليبيين] لسطوة شعب كويرينوس، وما كان من انتصاره على الملك «چوبا»

سيد الكينيپس وپونتوس المزهوّة بملوكها من أسرة الميثيرايداتيس(٦٥). ثم ما كان من انتصارات لا حصر لها ومن مشاركة فى مواكب نصر عديدة(٦٦)، كل هذا لا يبلغ فى جلاله أنه كان أباً لهذا الابن الإمبراطور العظيم. فحين غدا ابنُ قيصر وصياً على هذا العالم أسبغت الآلهة على البشر رحمتها العميمة، وحتى لا يكون ابنه من ذرية فانية كان لا معدًى من أن يرقَى قيصر إلى مصاف الآلهة.

وعندما شهدت ڤينوس أم أينياس الإلهة المزدانة بالذهب مراسم تأليهه، كما شهدت قبلُ تلك المؤامرة الفاجعة التي حيكت ضدّه، ورأت تلك الميتَة المروّعة التي كانت تترصّد الكاهن الأعظم لمدينة روما ومؤسس حضارتها، استبدّ بها فزعٌ شَحُبَ منه وجهُها، وبدأت تشكو لكل إله تلقاه قائلة: أترونْ تلك المكائد المهلكة التي تُحاك ضدي، ثم هذه المؤامرة التي تهدد حياة مَنْ بقىَ لي من أسرة يوليوس سليل داردانوس؟ أتُراني سأبقَى وحدي تنهشني إلى الأبد أنياب الهموم ويؤرقني القلق؟ أغدو يوماً جريحة برُمح ديموِيديس بن تايديوس الكاليدوني، وإذا أنا فى يوم آخر يسحقني عار سقوط طروادة التي ما أُحْسِنَ الدفاع عنها، ثم أرى إبني يهيم السنين الطوال على وجهه تتقاذفه البحار، وأشهده ينفذ إلى عالم الأشباح الهامد، ثم وهو يحارب تورنوس، وإذا شئنا الحق الصُّراح أقولُ إنه كان يحارب چونو نفسها، ولكن لِمَ أستعيدُ اليومَ ذكرى النوازل التي أصابت أسرتي فى الماضي؟ إن الخوف الذي أستشعره اليوم لا يُجيز لي استدعاء ذكريات الماضي الأليمة. ها هى ذى الخناجر الغادرة تُشْحَذُ ضدّي، هلاّ رددتموها عنّي وحلتُّمْ دون وقوع هذه الجريمة حتى لا تتركوا سبيلاً لنيران معبد ڤستا كيْ تخمد غريقة فى دماء الكاهن الأعظم»؟.

وعبثاً حاولت ڤينوس القلقة أن تبثّ شكواها فى أرجاء السماء، فاستثارت حميّة الآلهة بحق، ومع أنهم كانوا عاجزين عن تعطيل نفاذ الإرادة الصّلبة للأخوات العنيدات ربّات القدر الثلاث، إلا أنهم أطلقوا نُذُراً تنبئ باقتراب الكارثة، فإذا السُّحب الداكنة تُسمع خلالها صلصلة السيوف، وإذا صخب الأبواق الحربية يزلزل السماء بعنف منذراً بفداحة المأساة الفاجعة، ولم تعد الشمس المكتئبة تُرسل سوى أشعة باهتة على الكون المضطرب، وومضت جمرات ملتهبة بين نجوم السماء، وتساقطت خلال الأمطار قطرات دماء، وخُسِفَ وجه

لوحة ١٢٩ . پيكار: مصرع يوليوس قيصر ثم
صعوده إلهاً إلى السماء.

كوكب النهار وغشّت وجهه بقع حمراء داكنة، كما تلطّخت مركبة القمر بالدماء، وتردّد نعيقُ البوم طير نهر ستيكس المشؤوم منذرا فى أكثر من ألف مكان. وفى أكثر من ألف مكان انهمرت الدموع من تماثيل الآلهة العاجية[٦٧]، وانطلق العويل وزمجر الوعيد فى أرجاء الغيضات المقدّسة، ولم يعد ما يُذبح من قرابين كافيا للتكفير عن هَوْل الجريمة ولا تَنِمّ أحشاؤها عن تباشير طيبة بل حملت نُذُراً بوقوع الكارثة، فقد بدت رأس الكبد مبتورة[٦٨]، كما دلّ الكبد نفسه على أن الحرب الأهلية وشيكة، وإذا الروايات تذيع أيضا أنه قد سُمع نباح كلاب فى ساحة السوق وبين الدور والمعابد ليلا كما شوهدت أشباح موتى صامتة تجوس بينها، وإذا زلزالٌ يهزّ أركان روما. وعلى الرغم من تحذيرات الآلهة فلم تُفلح فى القضاء على مؤامرات الخيانة والغدر أوصدّ الأقدار الموشكة. وشُهرَت السيوف المسلولة من أغمادها داخل المبنى المقدس، ومن الغريب أنه لم يكن ثمة مكان آخر يُختار لارتكاب جريمة الاغتيال البشع إلاّ قاعة مجلس الشيوخ. عندها ضربت ڤينوس صدرها بيديها وحاولت إخفاء قيصر العظيم فى السحابة التي أنقذت پاريس من محاولة ابن أتريوس السفّاك إزهاق روحه، كما حمت أينياس من سيف ديوميديس، غير أن أباها كبير الآلهة ناداها قائلاً: أوَ تخالين يا بنيّتي أنك فى اقتدارك وحدك تغيير القدر المحتوم؟ فلتتوجّهي إلى مقرّ ربّات القدر الثلاث حيث ترين سجلاّت الكون المدوّنة على ألواح البرونز والحديد الصّلب، تلك الألواح الخالدة التي لا تبلَى ولا تخشى قصف الرعود ولا غضب البروق ولا أى زلزال مدمّر، وستعرفين ما قُدّر لذراريك محفوراً على الصُّلب المحصَّن ضد العدم. ولقد طالعتُ بنفسي ما هو مدوّن وحفظته ذاكرتي، وسأعيد على سَمْعك ما قرأتُ يا ڤينوس إلهة كيثيرا حتى لا تظلّي يا بنيّتي جاهلة بالمستقبل. لقد انتهى عمر ذلك الابن الذي تبكينَه وأكمَل سنيَّه التي قُدِّرت له فى لوح القدر أن يعيشها على الأرض، غير أنه سيصبح بعدُ إلها يرقَى إلى السماء، وسوف تُقام طقوس عبادته فى معابد الأرض جميعها. وليتحقّقن هذا على يديك أنت وعلى يدىْ ابنه الذي سيرثُ اسمَه ويحملُ وحدَه عبءَ الحكم الذي سيُلقى على عاتقه، وليثأرنّ بجسارة لأبيه الذي اغتيل غدرا، وسيجدنا إلى جانبه نشدّ أزره فى معارك القتال، وسيقود جيشاً يحاصر أسوار مودينا حتى تفتح له أبوابها ناشدة السلام»[٦٩]، وستشعر فارساليا بقوة بأسه، وستسيل أنهار الدماء مرة أخرى فى فيليپي، وسينتهي اسم سكستوس ابن پومپي العظيم إلى الهزيمة فى مياه صقلية، وستسقط العشيقة المصرية لقائد روماني مخدوعة فى أملها بالزواج منه، ويصبح عبثاً تهديدُها

بإخضاع الكابيتولينوس المقدس لمدينتها كانوبي[٧٠]. ولكن ما لي أقصّ عليك قصص بلاد البرابرة والأمم التى تعيش على سواحل المحيطيْن، فلسوف يملك هذا البطل جميع ما على الأرض المعمورة، ولسوف يُذَلّ له البحر نفسه. وحين يُتَاح له أن ينشر السلامَ على العالم سوف يرعَى حقوق المواطنين ويشرّع القوانين التي تكفل العدالة بينهم، وسيصبح سلوكه نموذجاً يحتذيه رفيعو الأخلاق، وسيتجه بفكره وبنفاذ بصيرته إلى المستقبل ورخاء ذراري شعبه، فيأمر بأن يحمل ابن قرينته المُبجَّلة اسمه وأعباء الحكم معاً. ثم إنه فى النهاية حين يبلغ من العمر ما بلغه نسطور حاكم پيلوس الكهل سيرقَى إلى السماء حيث سيتخذ مكانه بين كواكب أسرته الإلهية. أما الآن، فخُذي معك هذه الروح التى فاضت عن جسد قيصر المذبوح وأحيليها نجماً حتى يسهر يوليوس المؤلّه إلى الأبد من علياء سمائه على الكابيتولينوس المقدّس والفُورَم راعيا وحاميا».

وما إن فرغ چوپيتر من حديثه حتى وقفت ڤينوس الراعية وسط مجلس الشيوخ دون أن تلمحها عين بشر، ورفعت روح قيصرها الغالي من جسده بعد ما فارقته قبل أن تتبدّد فى الهواء، وحملتها نحو نجوم السماء، فإذا هى تحسّ وهى تحملها أنها تشتعل شيئاً فشيئاً إلى أن التهبت تماما، فأفلتتها بعيدا عن حُضنها وحلّقت عالياً حتى جاوزت القمر وهى تجرّ وراءها جدائل ملتهبة لها شكل شُهب كوكب متألق[٧١].

والآن. . . . . بعد أن رأى قيصر من علياء السماء مآثر ابنه المشهودة اعترف أنها تفوق مآثره هو، سعيداً بتفوّق ابنه عليه. ومع أن الإبن كان قد حَرَّم على الناس أن يُقدّروا مآثره فوق تقديرهم لمآثر أبيه، إلا أن شُهرة الإنسان تجري على ألسنة الناس طليقة لا تخضع للحظر. ولقد رفعته الشّهرة عالياً على الرغم منه فلم تخضع لغير إرادة القدر وحده، مثلما تراجع مجد أتريوس أمام مجد ابنه أجاممنون العظيم، وكما بزّت شُهرة ثيسيوس شُهرة أبيه إيجيوس، وكما فاق أخيل أباه پيليوس. ثم يأتي فى ختام النماذج الجديرة ببطلينا[٧٢] ذكْر ساتورن الذي تراجع أمام ذكر ابنه چوپيتر حاكم السماوات العُلى وممالك الكون الثلاث. كذلك خضعت الأرض لسلطان أوغسطس، وكان كلٌ من چوپيتر وأوغسطس أباً لدولته وسيّداً عليها.

ابتهـــال

أيتـهـا الآلـهـة المقـدسـة ، يا رفـاق أينيـاس ، أنتم يا مَنْ تشقّ أمـامكم ألسنةُ اللّهب وصليل السيوف الطريقَ رحباً مديدا بلا نهاية ، يا آلهة أرضنا ، يا كويرينوس [رومولوس] ، يا أبَ المدينة الحاني عليها وصاحب الطّول فيها ، وأنت يا جراديڤوس [مارس] والد كويرينوس الذي لم يُقهر قط ، وأنت يا ڤسْتا يا مَنْ احتفظت أبداً بالمعبد المقدس فى ربوع آلهة أسرة قيصر . وأنت يا فويبوس يامَنْ تقترنَ عبادتك بعبادة ڤستا ، وأنت يا چوپيتر يا ساكن قمة تل تارپيوس(٧٣) . أيتها الآلهة جمعاء ، يا مَنْ يليق بالشاعر أن يسبّح بأسمائكم القدسيّة ، ناشدتكم جميعاً أن تُرجئوا إلى مابعد هذا الجيل ذلك اليوم الذي يغادر فيه أوغسطس العظيم هذه الدنيا التي تَدين لحكمه الناصع ، يوم يصعدُ إلى السماء نجماً متألقاً ، حيث يستجيب لضراعات البشر إلهاً ، ولو أنهم سيُحرمون منه ملكاً يستجيب لضراعاتهم .

ختـــام

ها أنذا قد فرغتُ من كتابي هذا الذي تعجزُ غضبةُ چوپيتر الجبّار عن أن تمحو أثره ، وتعجزُ النار والحديد بل وأنياب الزمن العاصف عن أن تُبدّد كلماته . ولْتضع الأقدار ما شاءت أن تضع خاتمة لسنوات عمري مجهول النهاية ، فهى لا تملك سوى بَدَني الفاني . أما أنبلَ ما فى ذاتي فسينطلق خالداً فوق مَسْرَى النجوم فى الأفلاك ، وسيبقى اسمي متوهّجاً ما بقى الدهر . ولسوف يتردّد صدى قصيدي أنّى ينبسطُ سلطان الدولة الرومانية ، وإن صَدَقَ حَدْسُ الشعراء فلسوف أخلدُ على مرّ الزمان عَلَماً خفّاقا .

الـفـنـان پـيـكـاسـو

رسوم مطبوعة بطريقة الخدش الغائر على سطح معدني

رسوم

پیکاسو

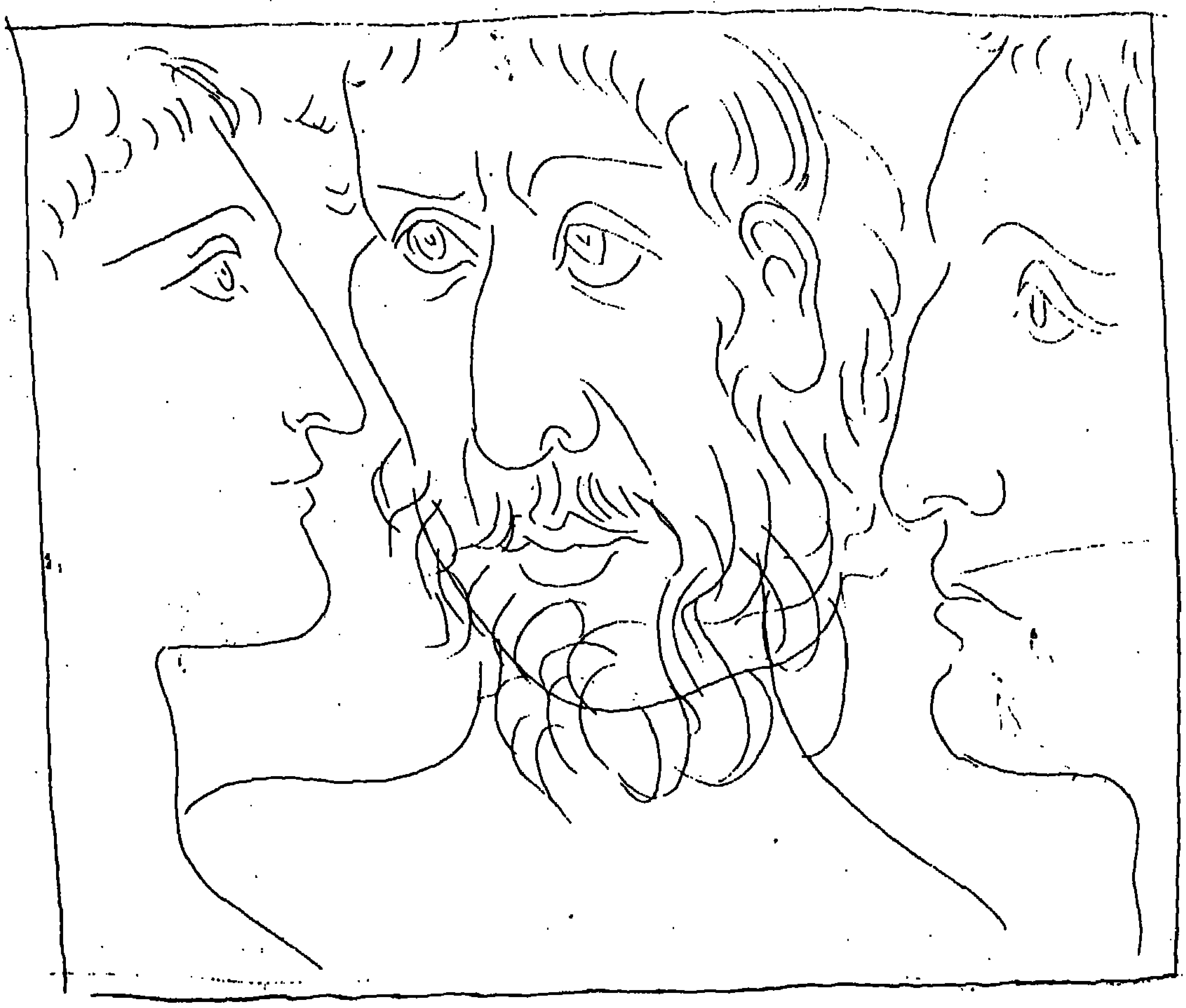

بيكاسو : الكتاب الأول
١ - چوپيتر ونپتون وپلوتو

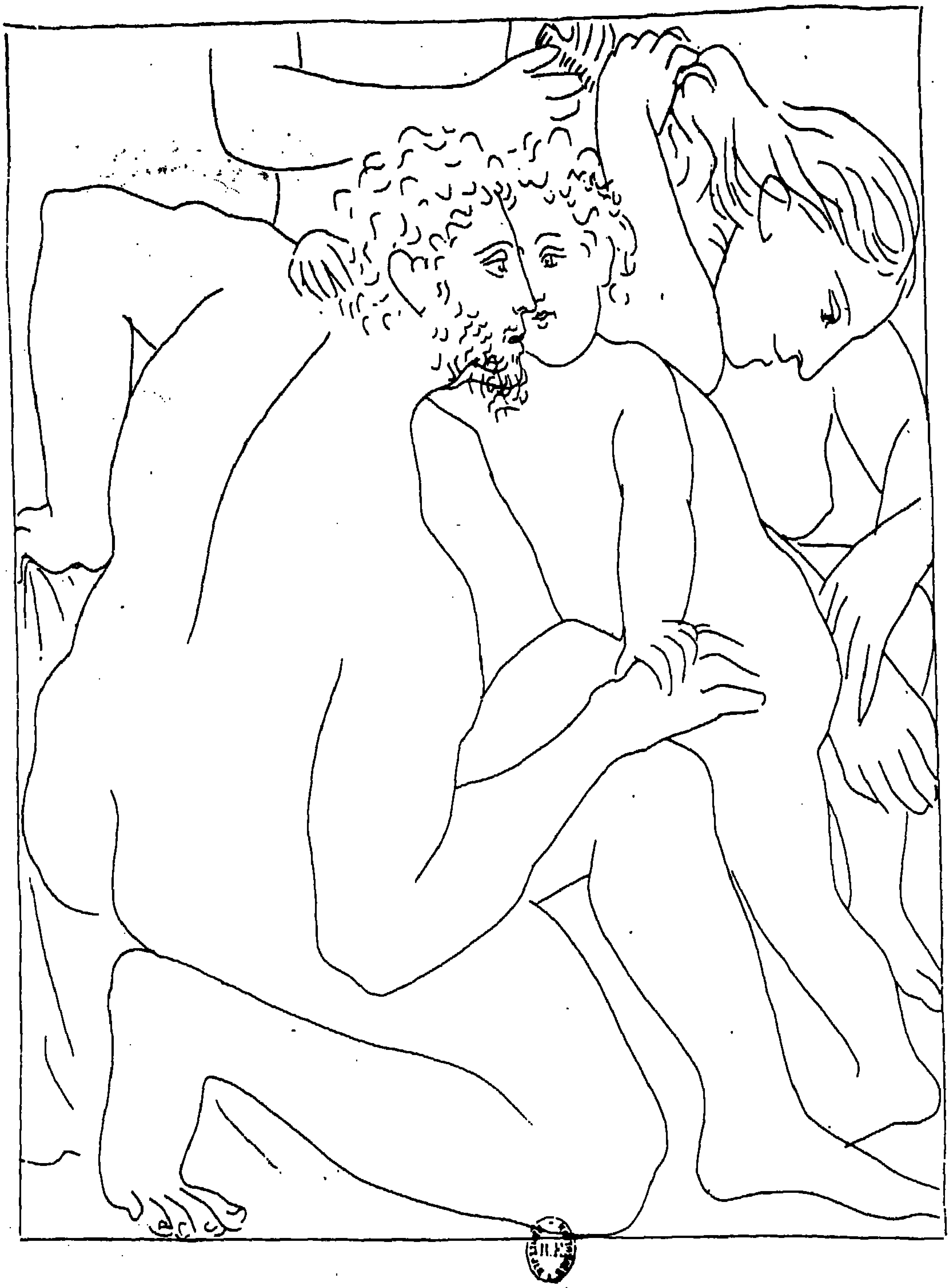

پيكاسو : الكتاب الأول
٢ - ديوكاليون وپيرا

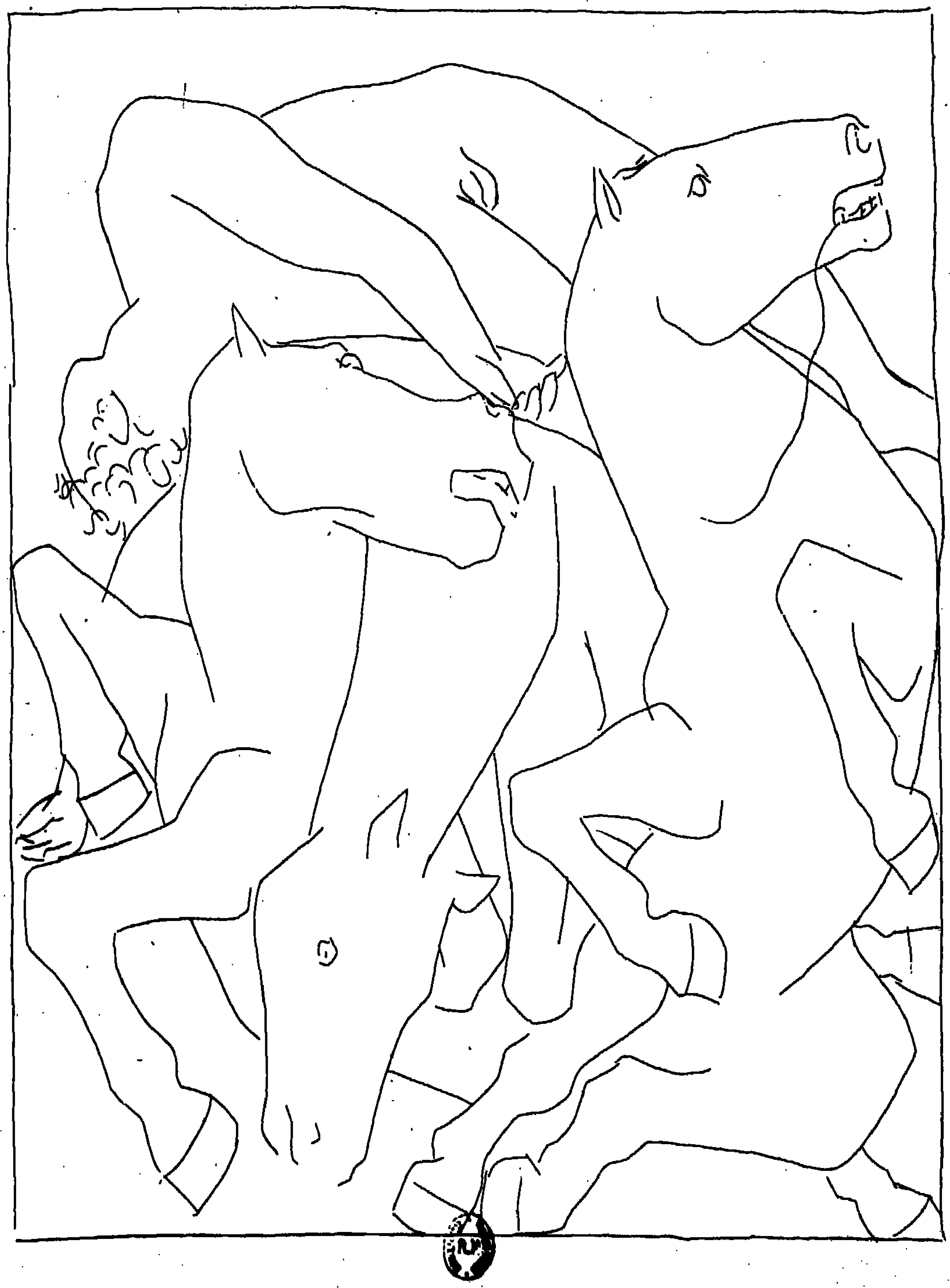

بيكاسو : الكتاب الثانى
٣ـ فايثون يقود مركبة الشمس

بيكاسو: الكتاب الثانى
٤ ـ أپوللو وكورونيس

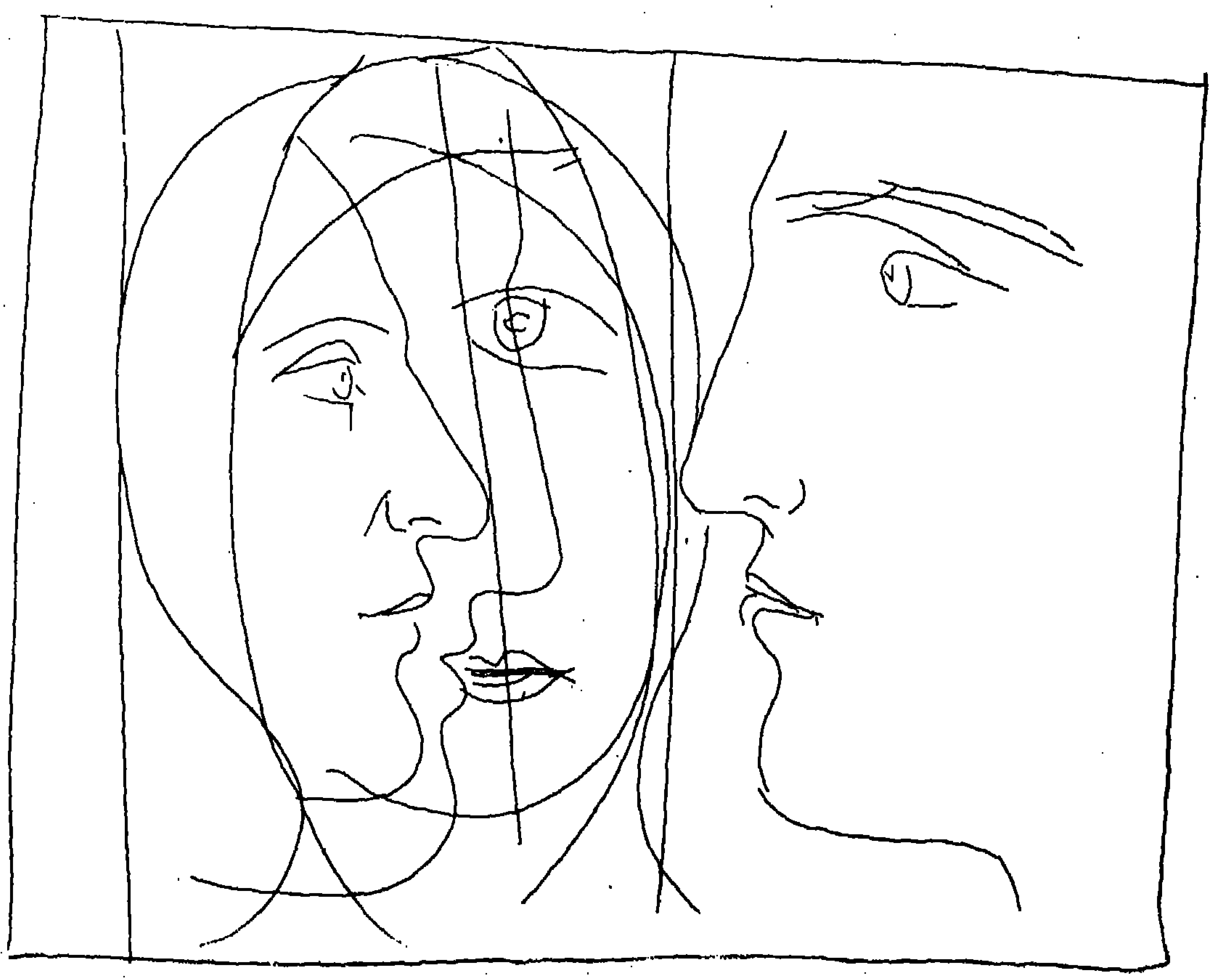

پيكاسو : الكتاب الثالث
٥ ـ نارسيسوس وإكو

پيكاسو : الكتاب الثالث
٦ ـ چوپيتر وسيميليه

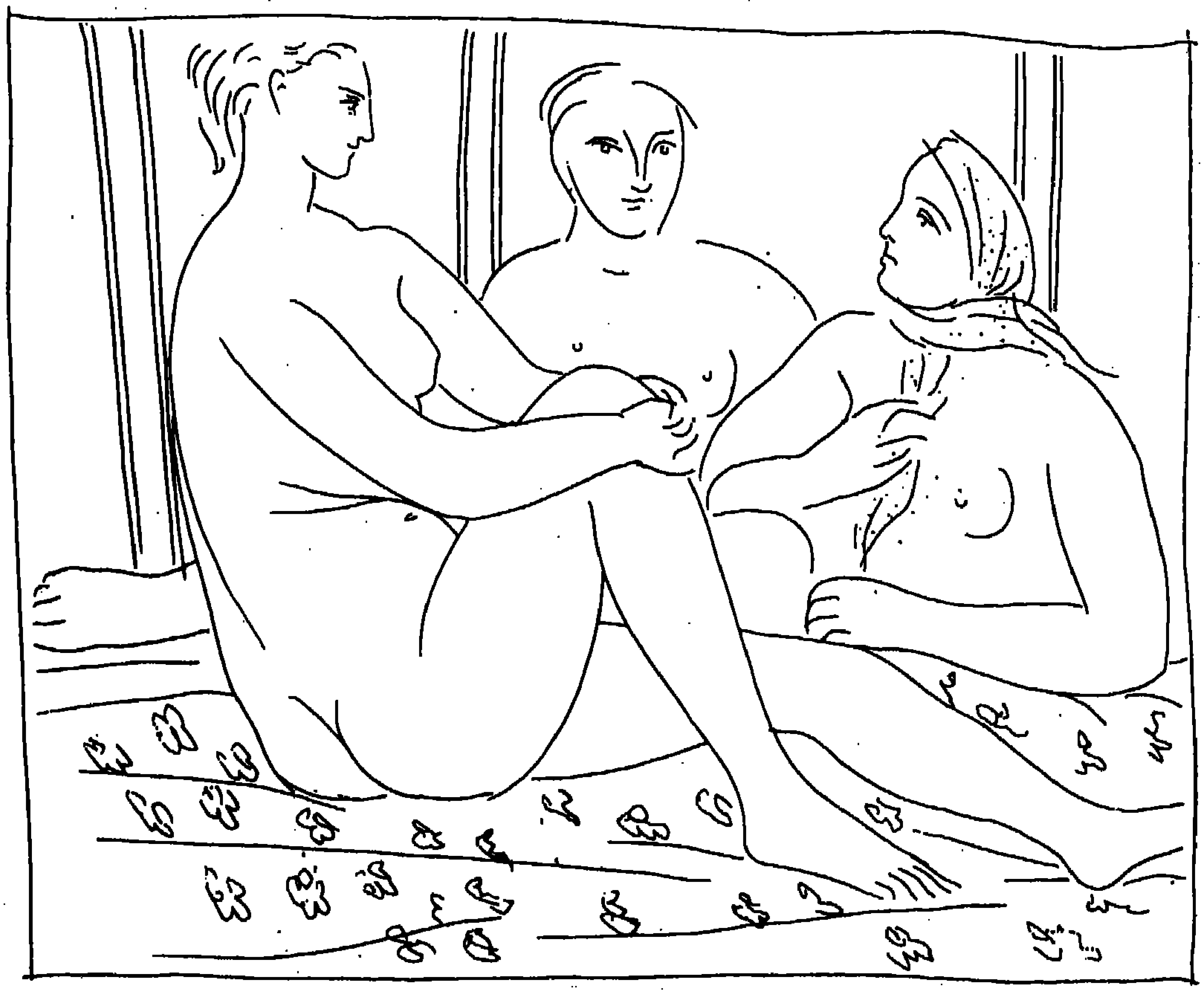

بيكاسو : الكتاب الرابع
٧ ـ بنات ميناس

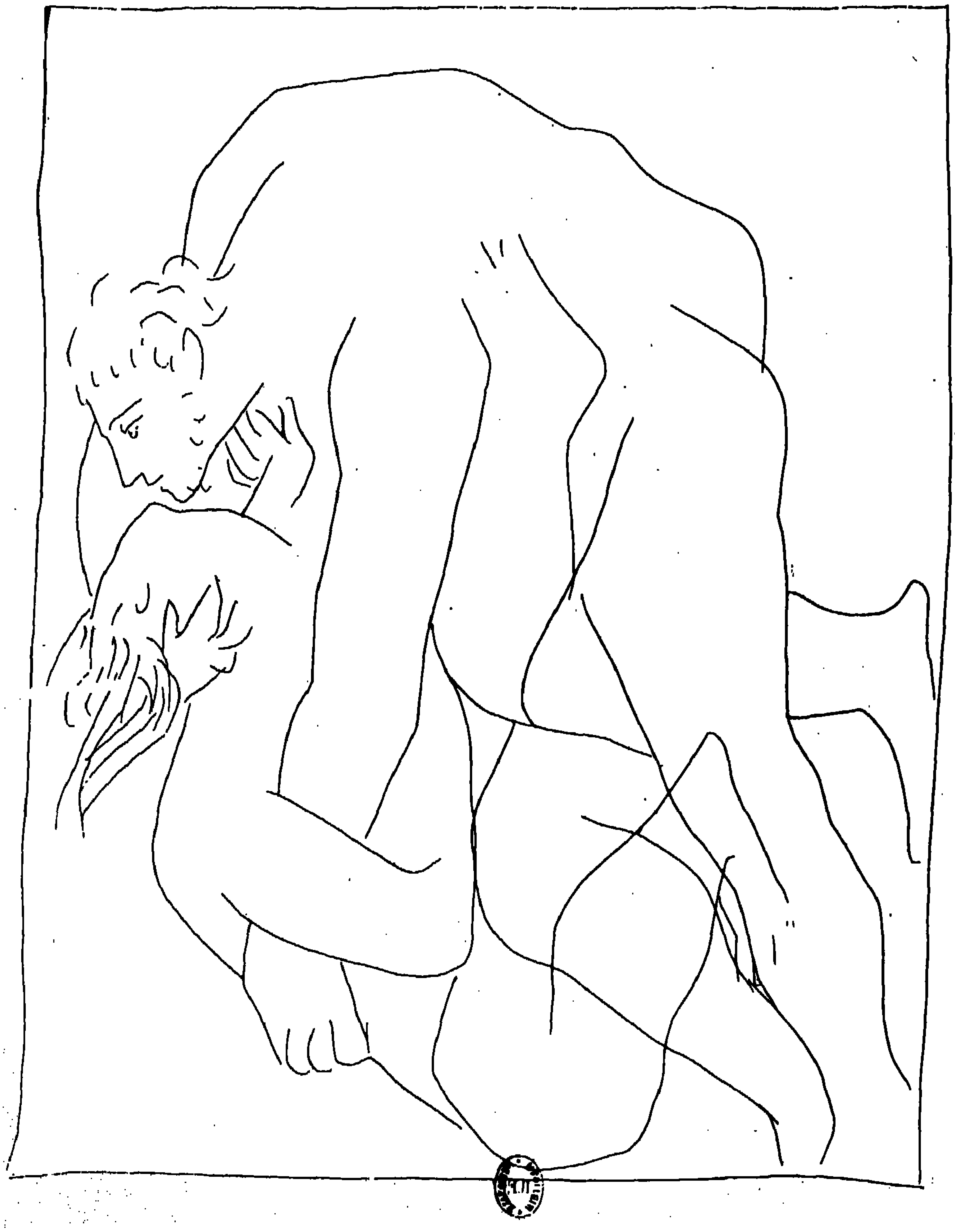

پيكاسو : الكتاب الرابع
٨ ـ ڤينوس ومارس

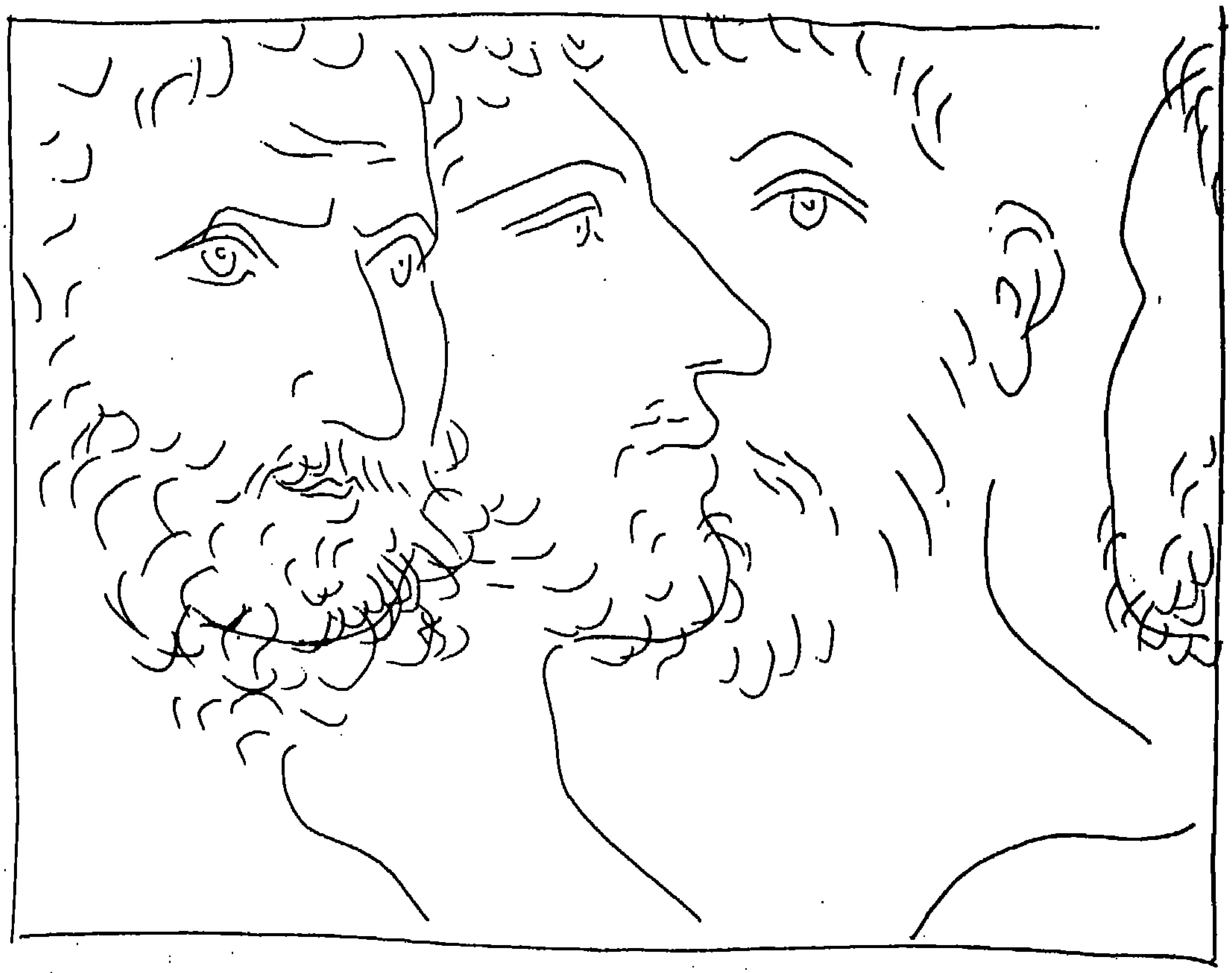

بيكاسو : الكتاب الخامس
٩ - پيرسيوس وأعوانه

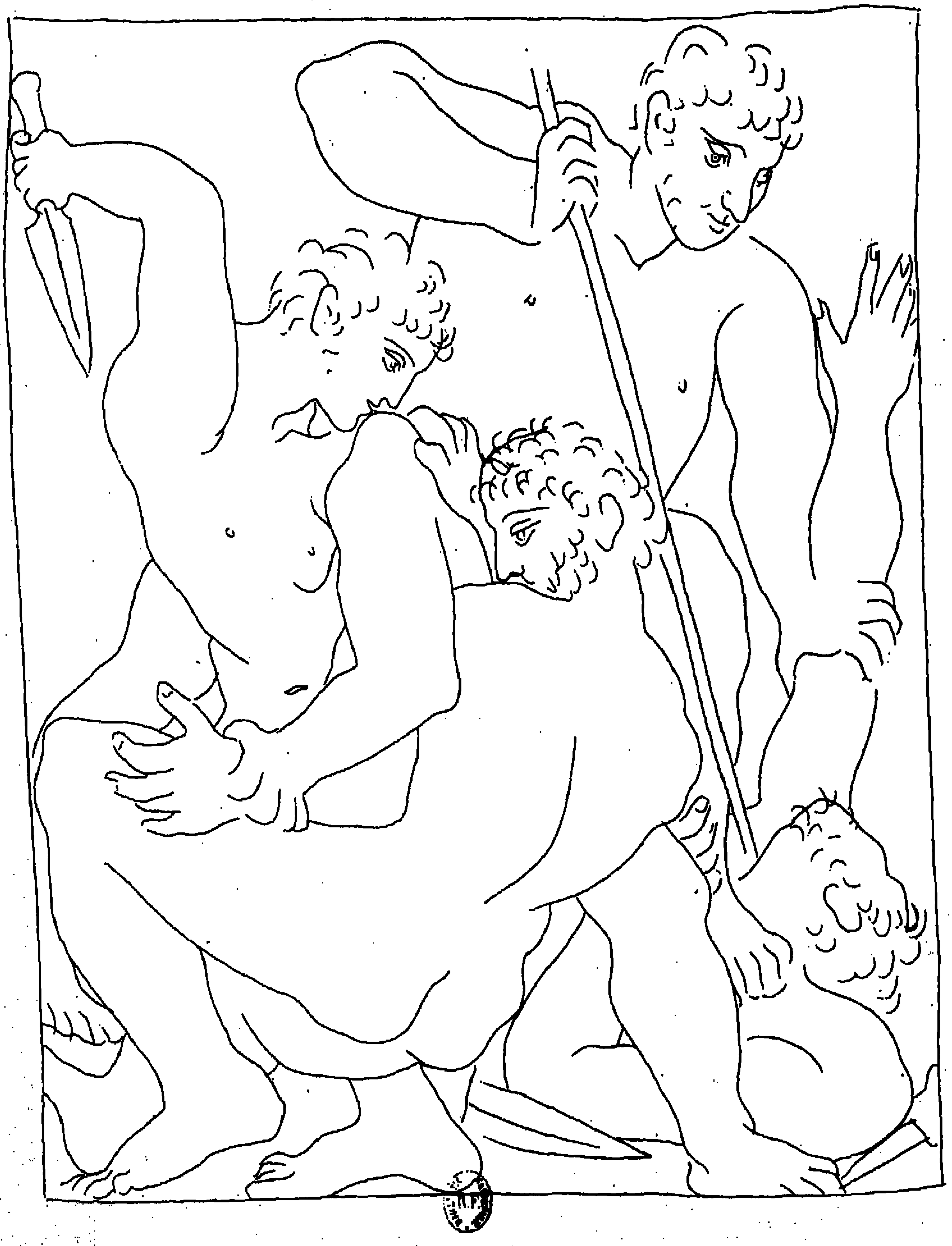

پيكاسو : الكتاب الخامس
١٠ - پيرسيوس يصرع أعوان فينيوس

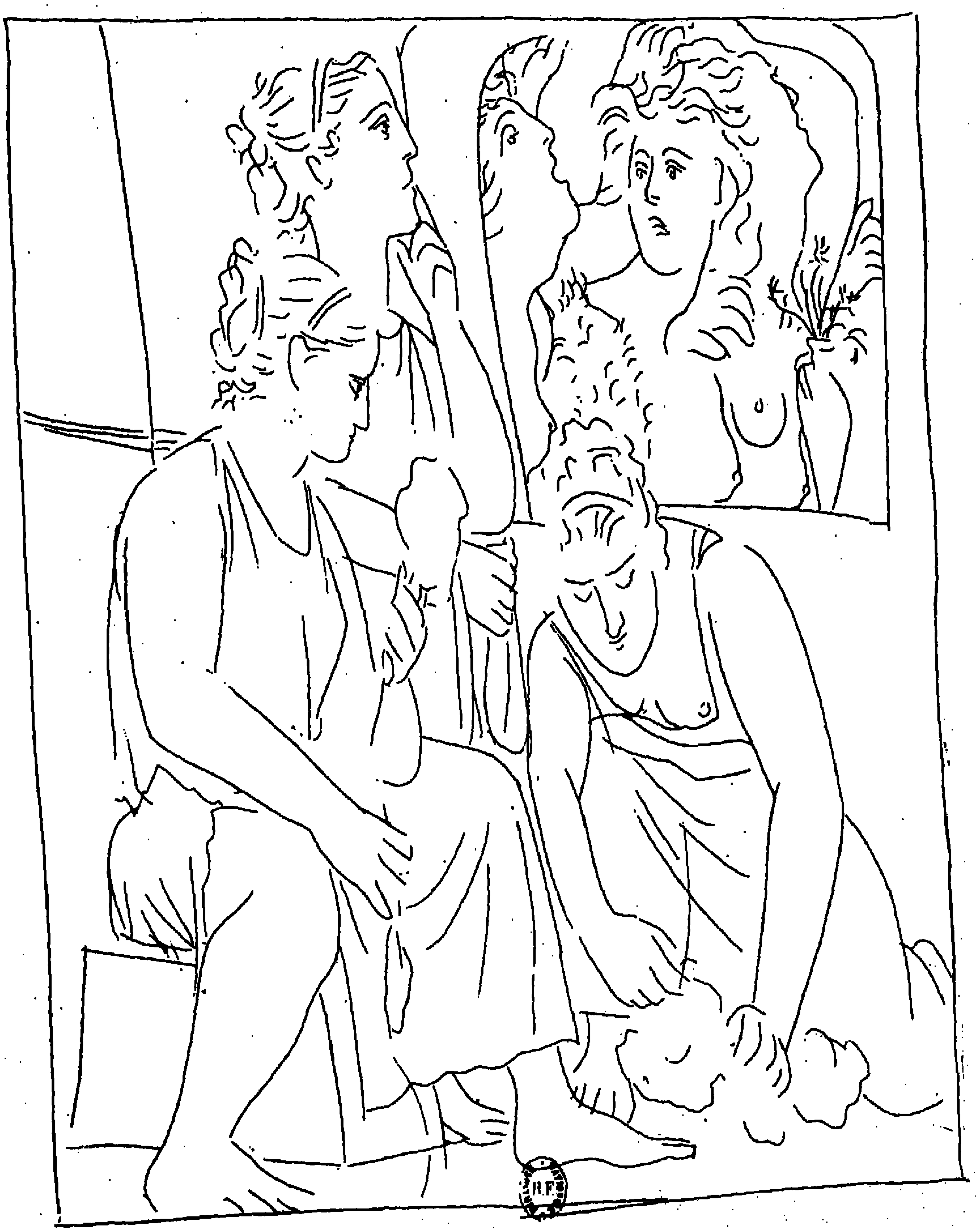

بيكاسو : الكتاب السادس
١١ -پالاس وأراخني

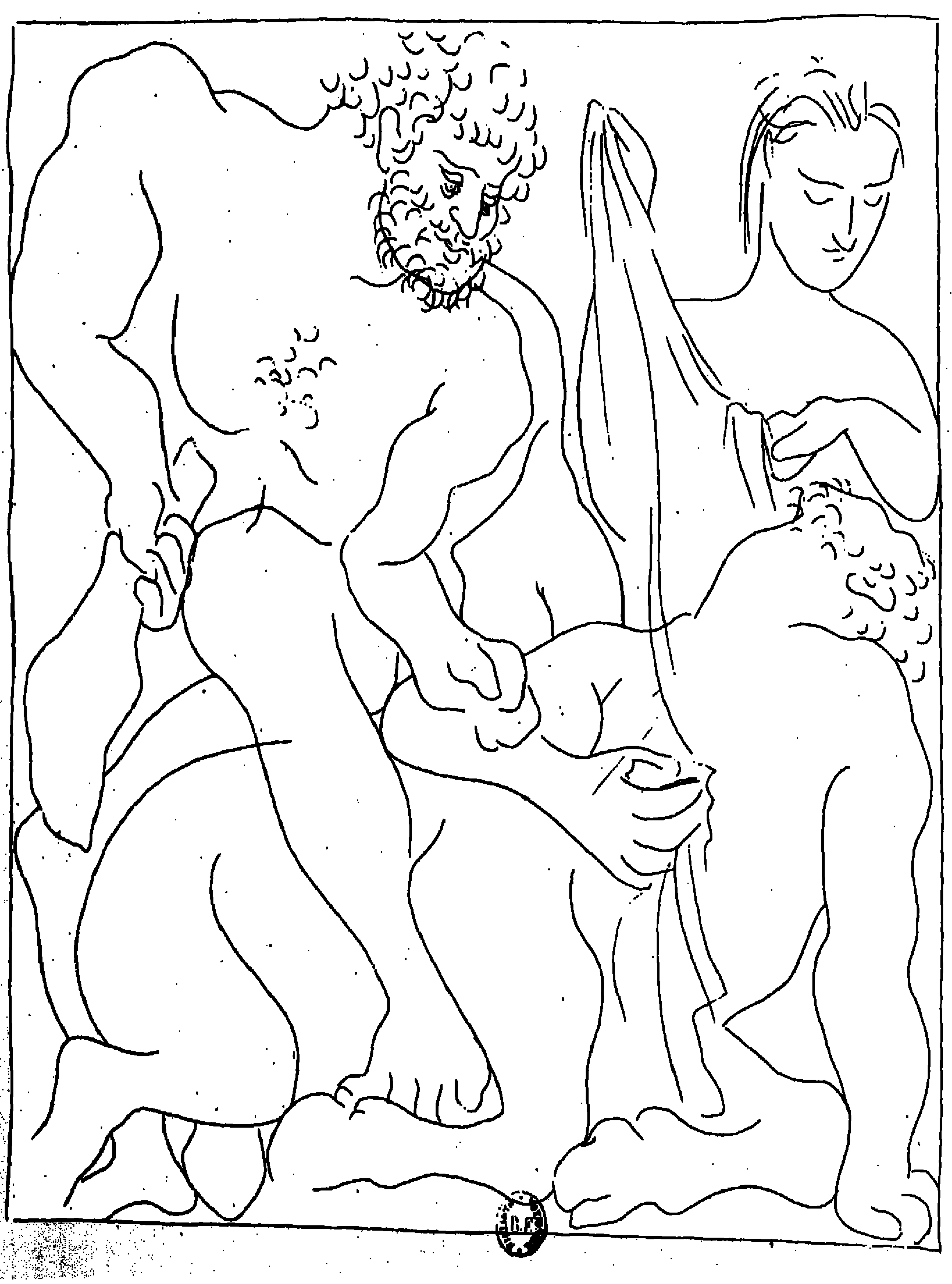

پيكاسو : الكتاب السادس
١٢ ـ أپوللو يسلخ مارسياس

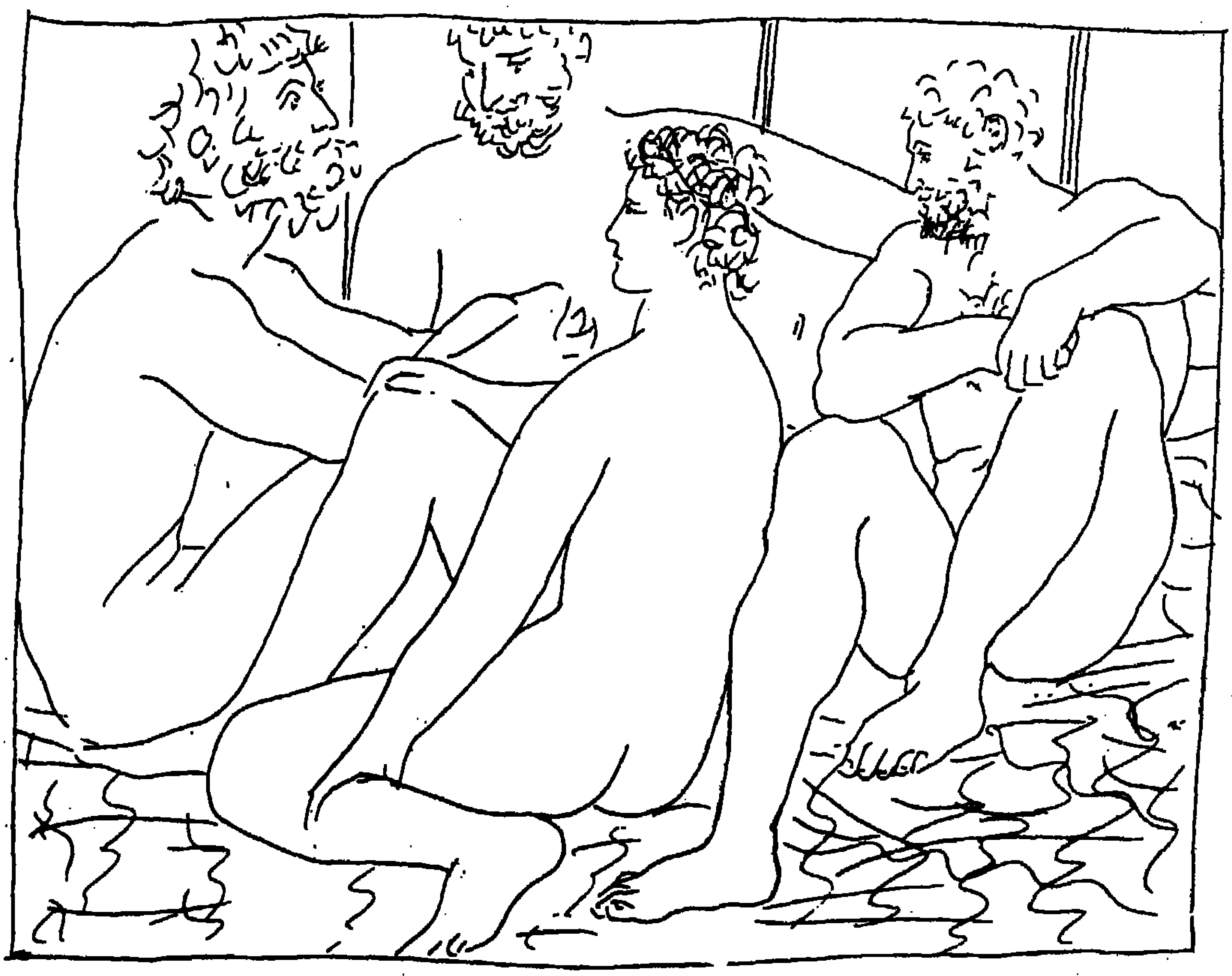

بيكاسو : الكتاب السابع
١٣ ـ كيفالوس يروي قصّته لأبناء آياكوس ملك جزيرة إيجينا.

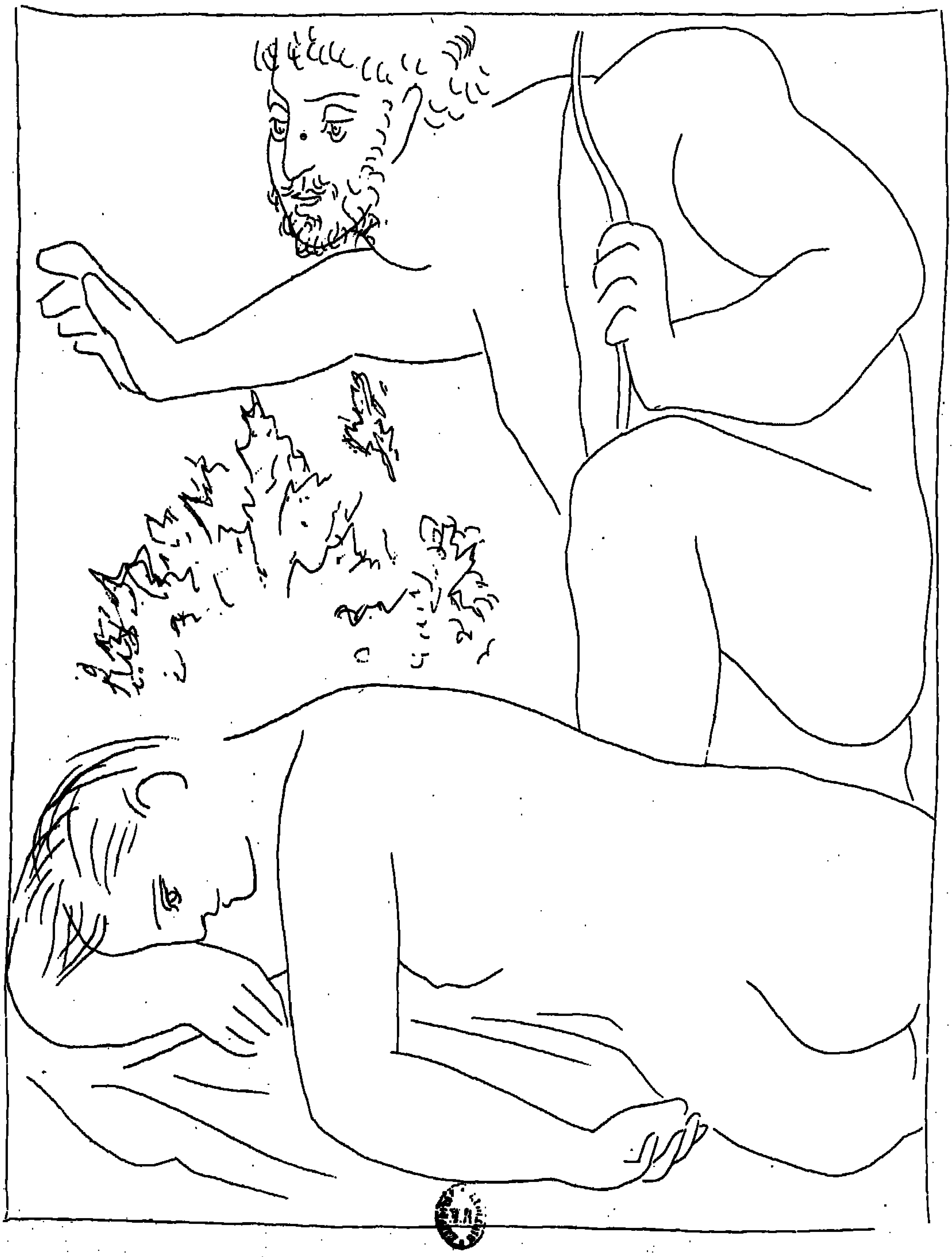

بيكاسو : الكتاب السابع
١٤ ـ كيفالوس وپروكريس

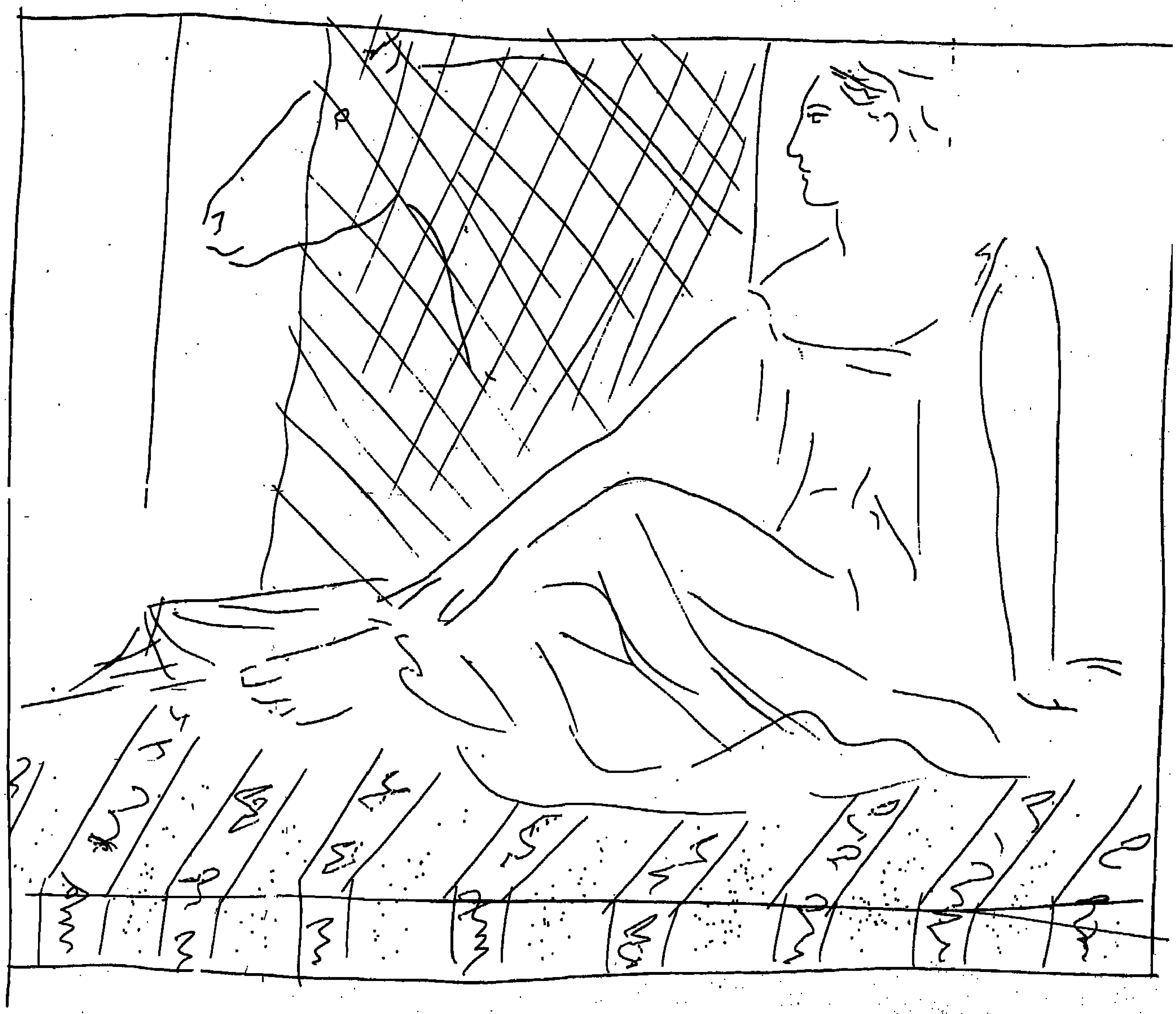

بيكاسو : الكتاب الثامن
١٥ ـ پاسيفاى

بيكاسو : الكتاب الثامن
١٦ - ملياجر يصرع الخنزير البرّي

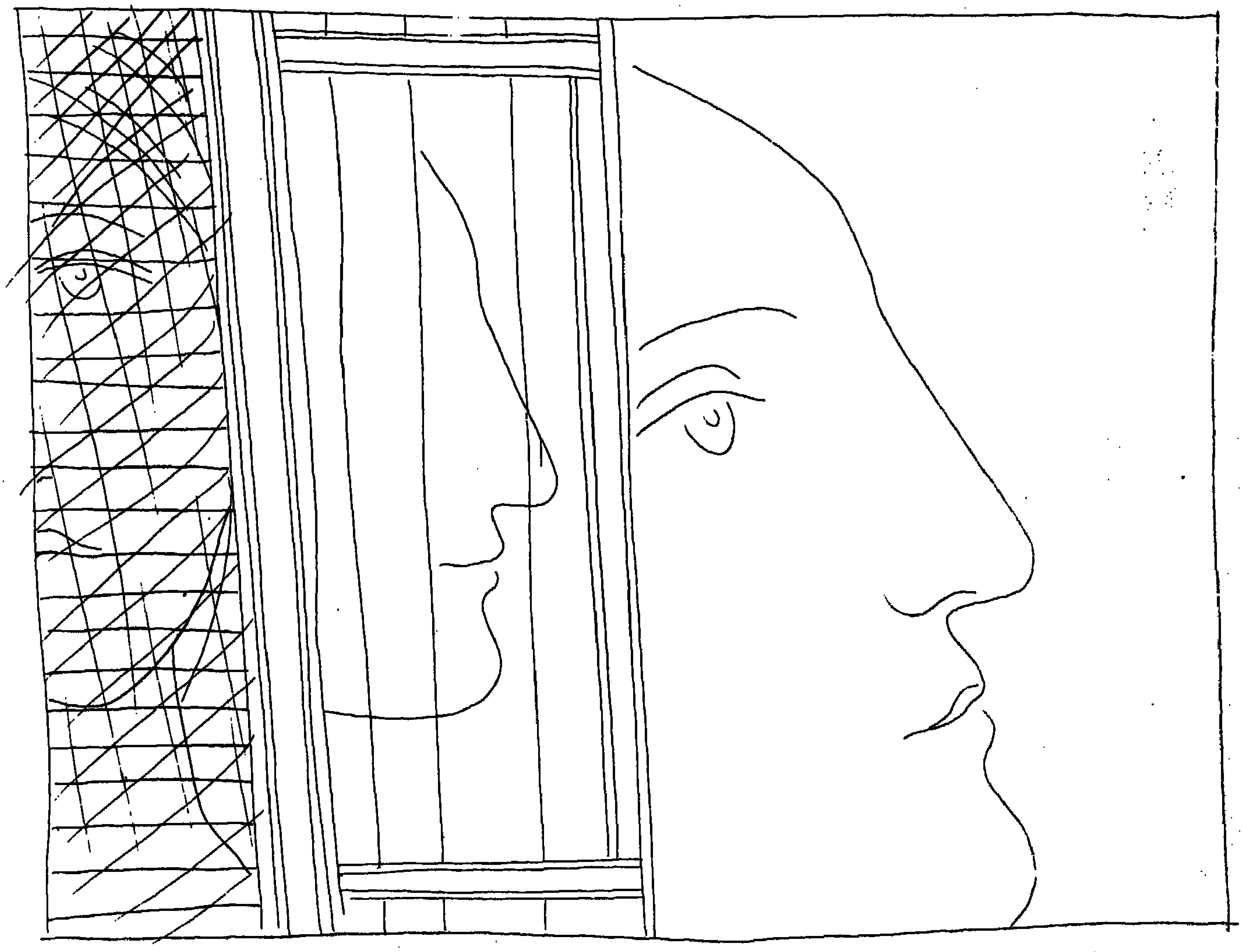

پيكاسو : الكتاب التاسع
١٧ ـ هرقل ونيسوس وديانيرا

بيكاسو : الكتاب التاسع
١٨ ـ القنطور نيسوس يقدم قميصه إلى ديانيرا

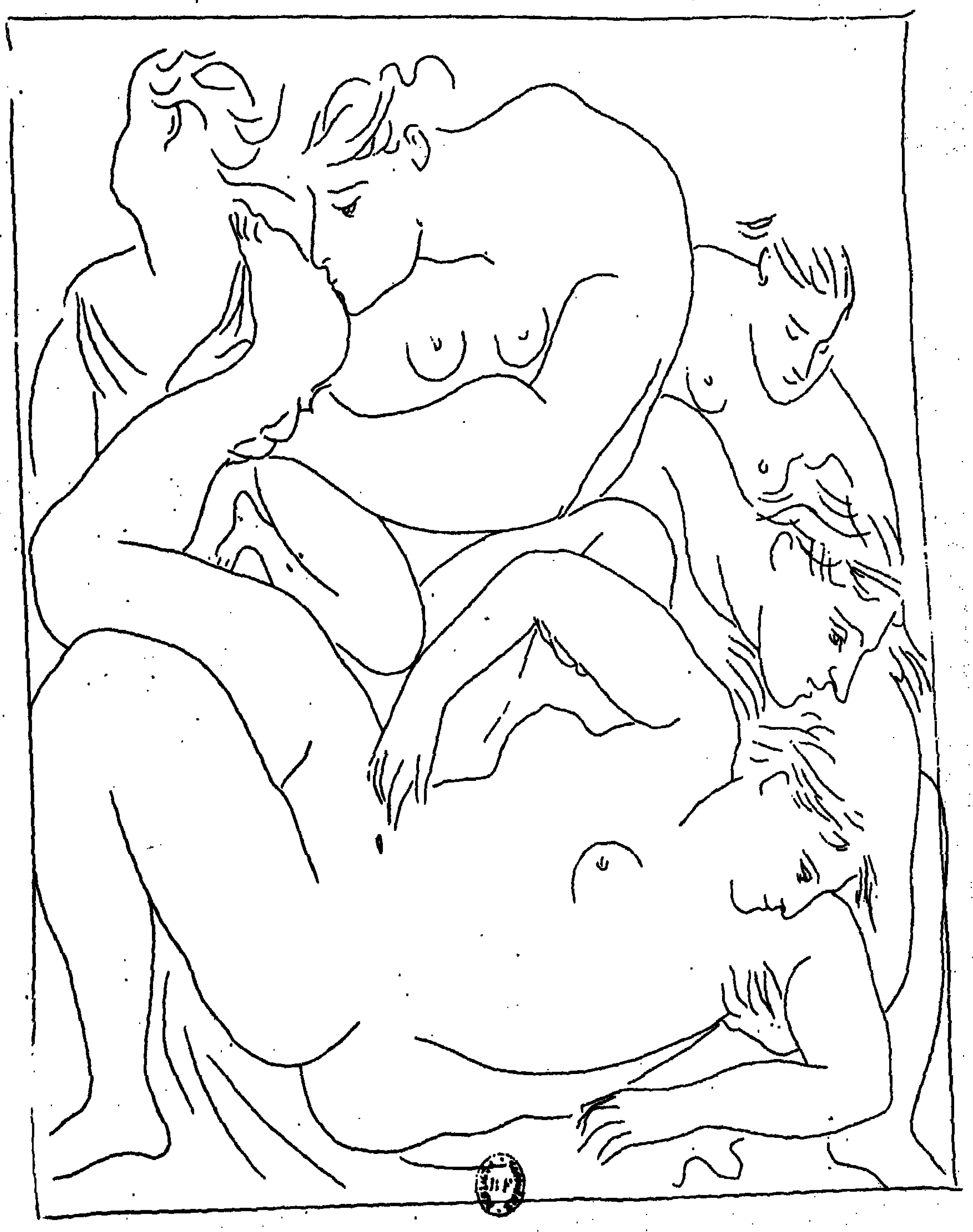

بيكاسو : الكتاب العاشر
١٩ ـ الأفعى تلدغ كاحل يوريديكي

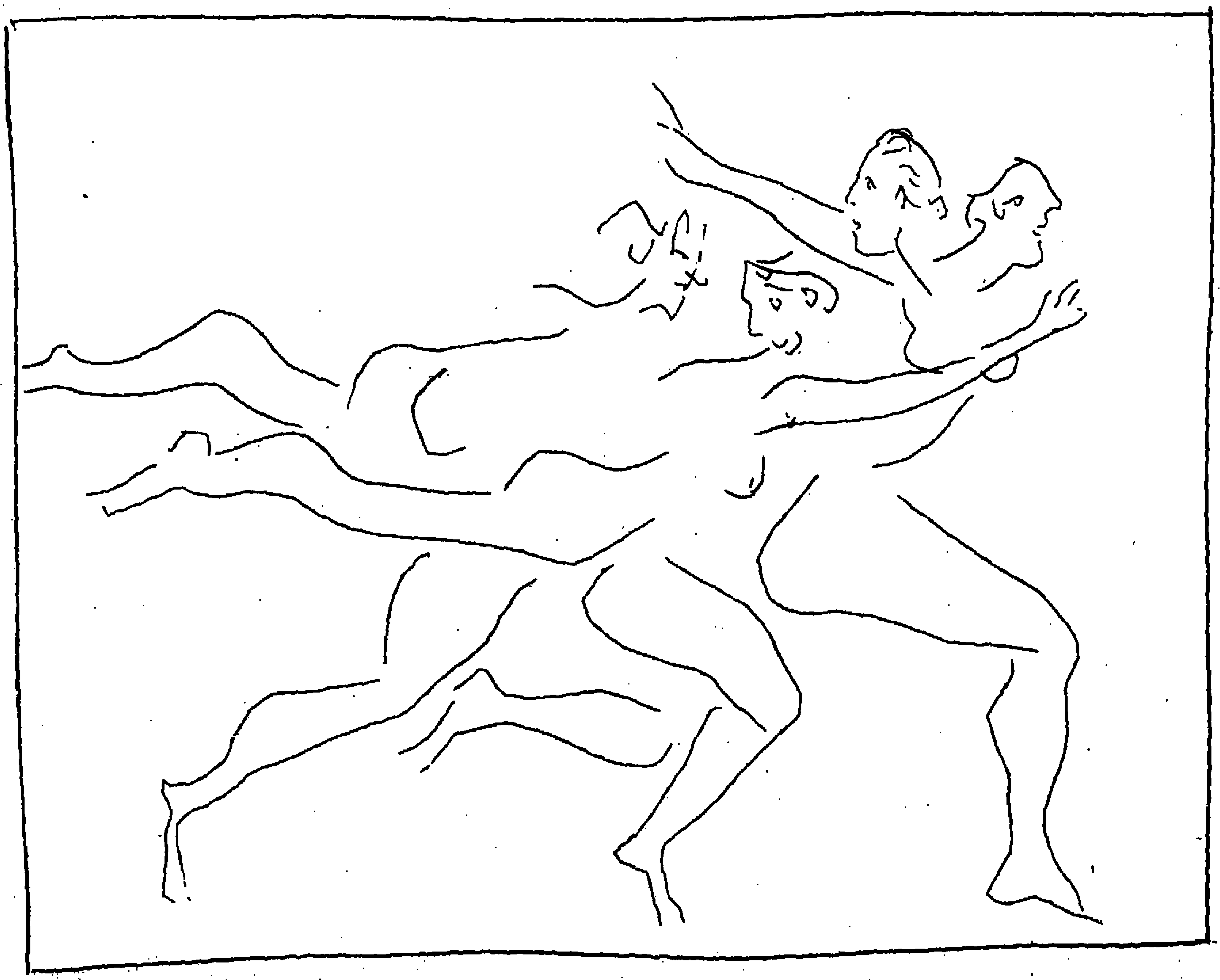

بيكاسو : الكتاب العاشر
٢٠ ـ سباق أتالانتا وهيپومينيس

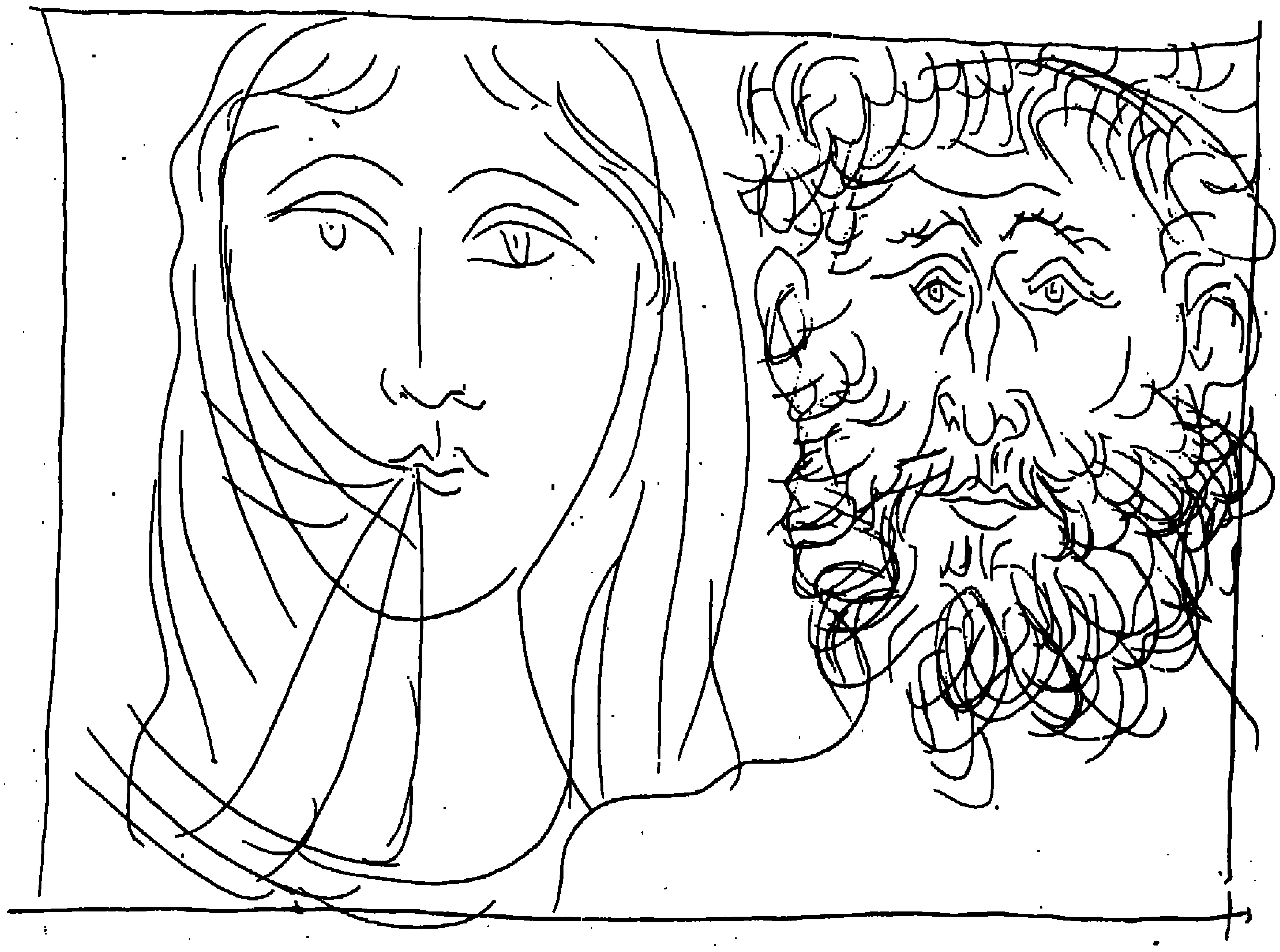

پیکاسو : الکتاب الحادی عشر
٢١ - پیکاسو . کیکس وألکیونیه .

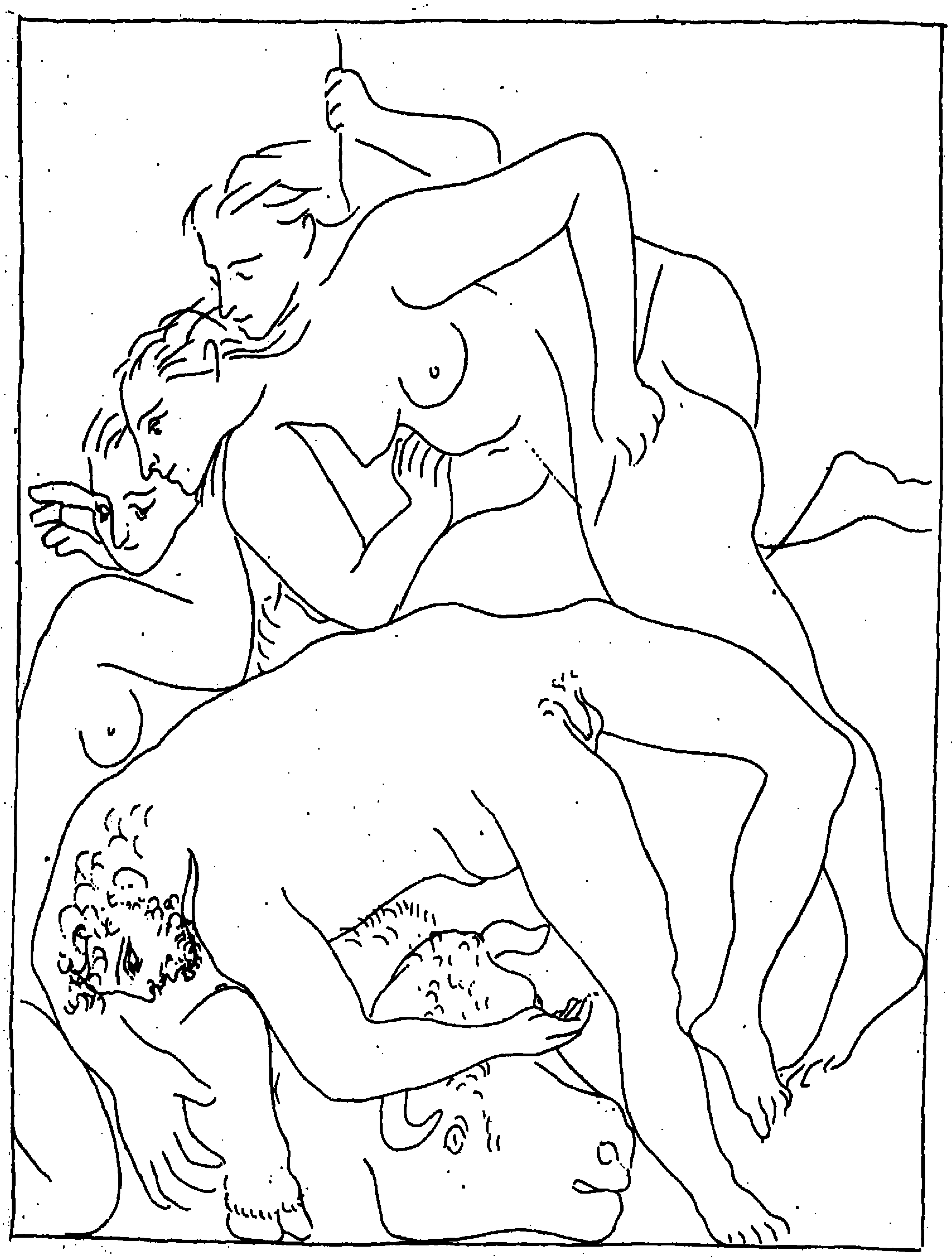

پيكاسو : الكتاب الحادى عشر
٢٢ ـ موت أورفيوس .

بيكاسو : الكتاب الحادى عشر
٢٣ـ موت أورفيوس (رسم إضافى).

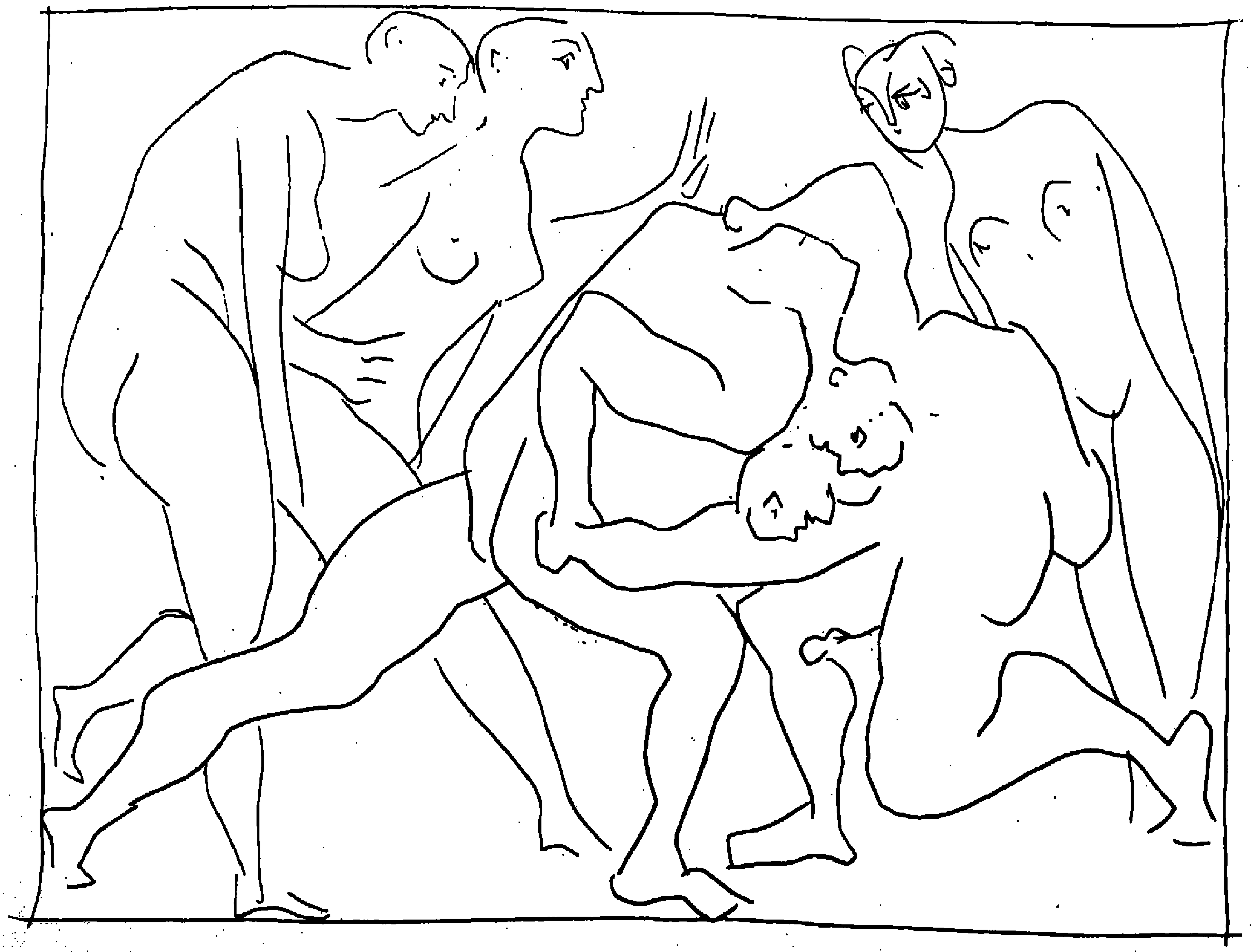

بيكاسو : الكتاب الثاني عشر
٢٤ ـ اعتداء القنطوري على اللابيث.

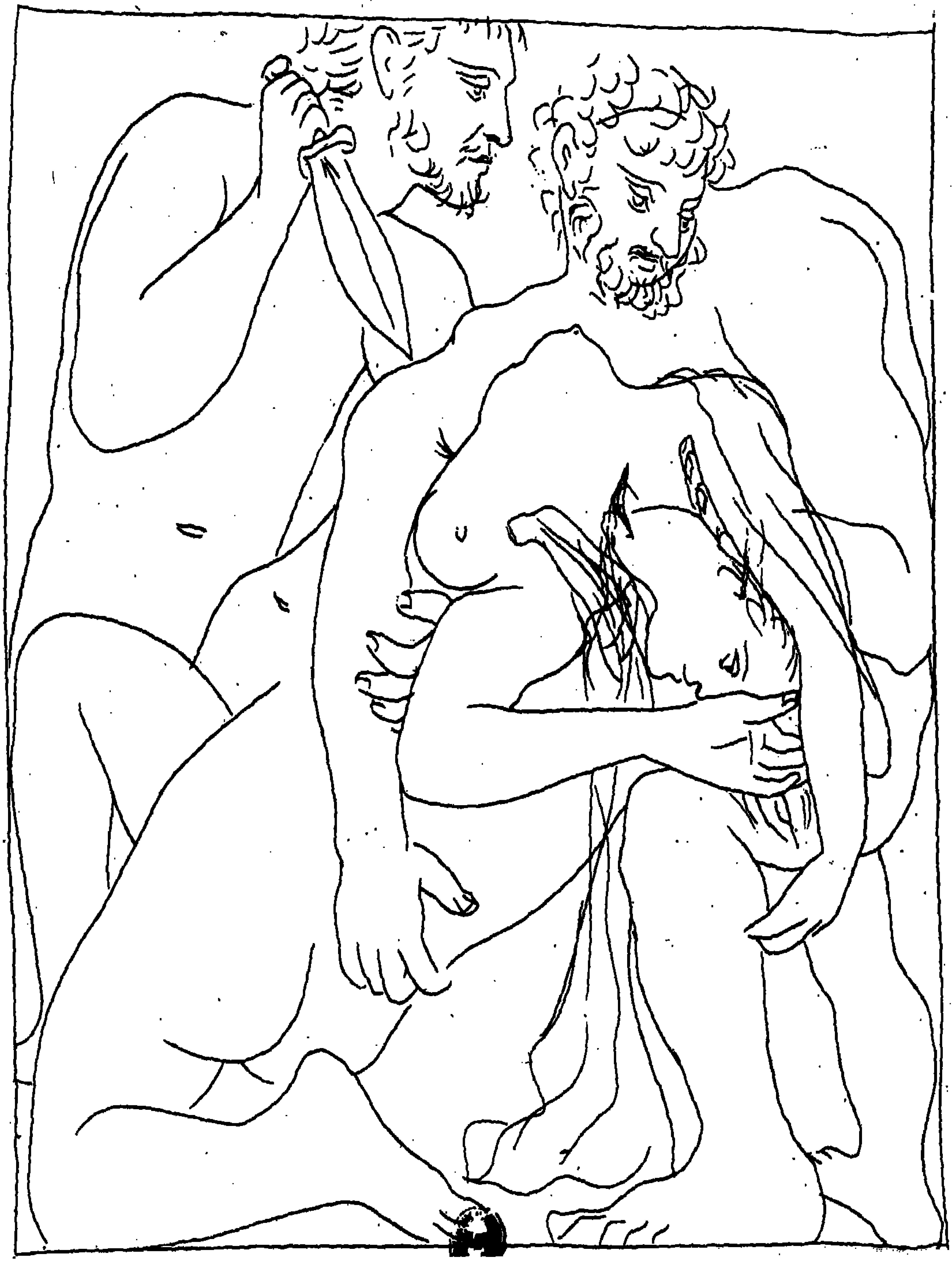

پيكاسو : الكتاب الثانى عشر
٢٥ ـ التضحية بإيفيجينيا .

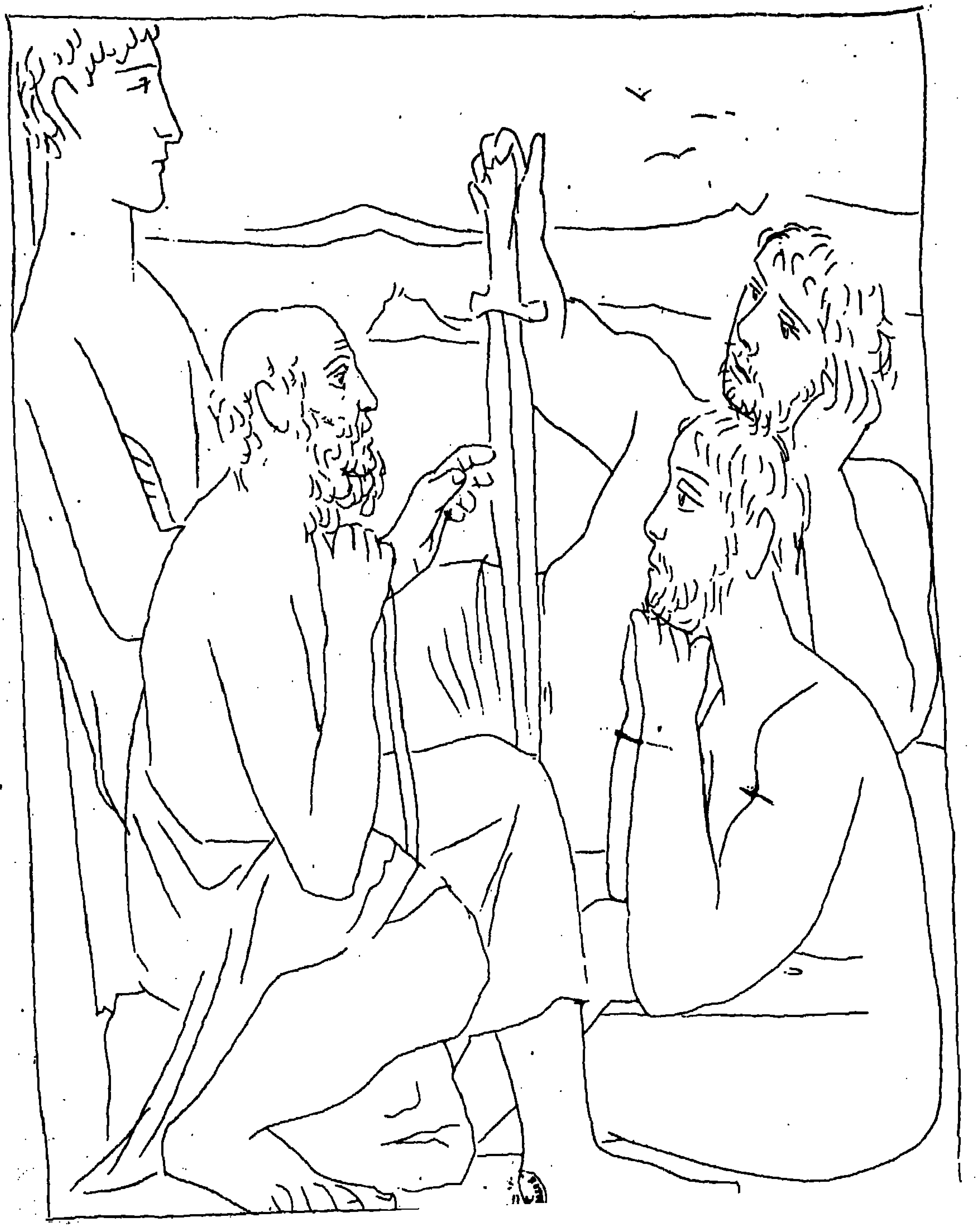

پيكاسو : الكتاب الثالث عشر.
٢٦ - أچاكس يطالب بأسلحة أخيل.

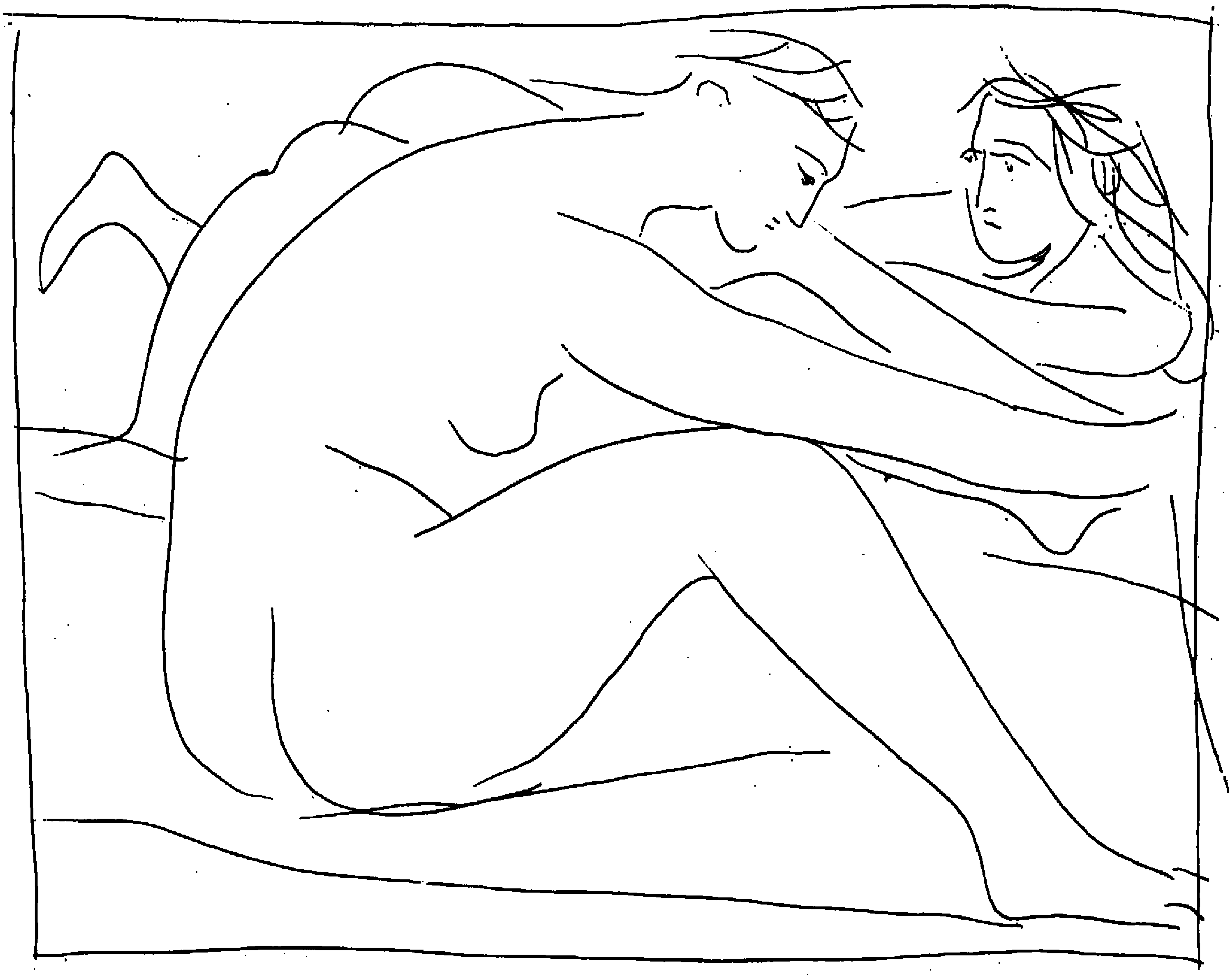

پيكاسو : الكتاب الثالث عشر
٢٧ ـ هيكوبا .

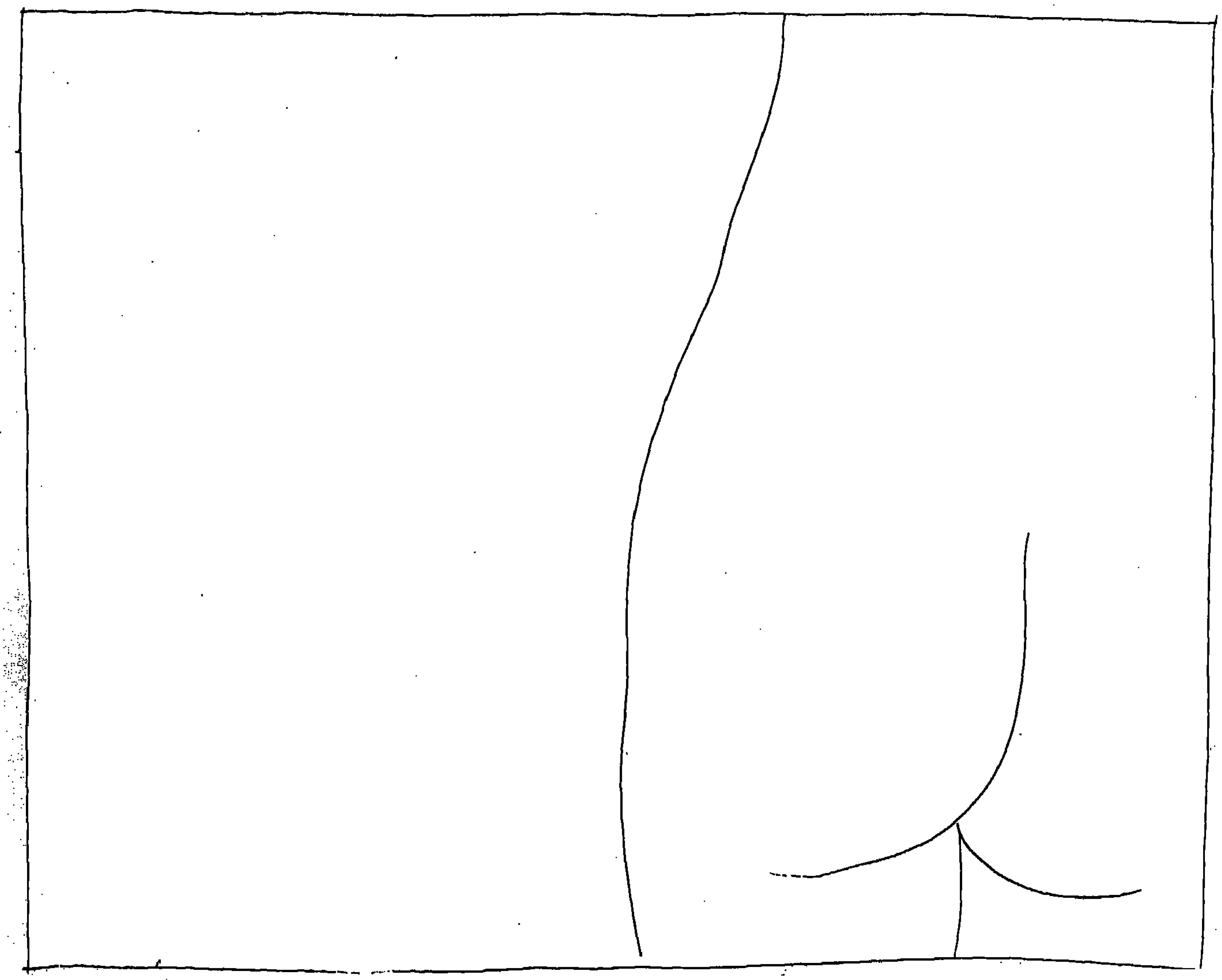

پيكاسو : الكتاب الرابع عشر
٢٨ ـ ردفا أنثى.

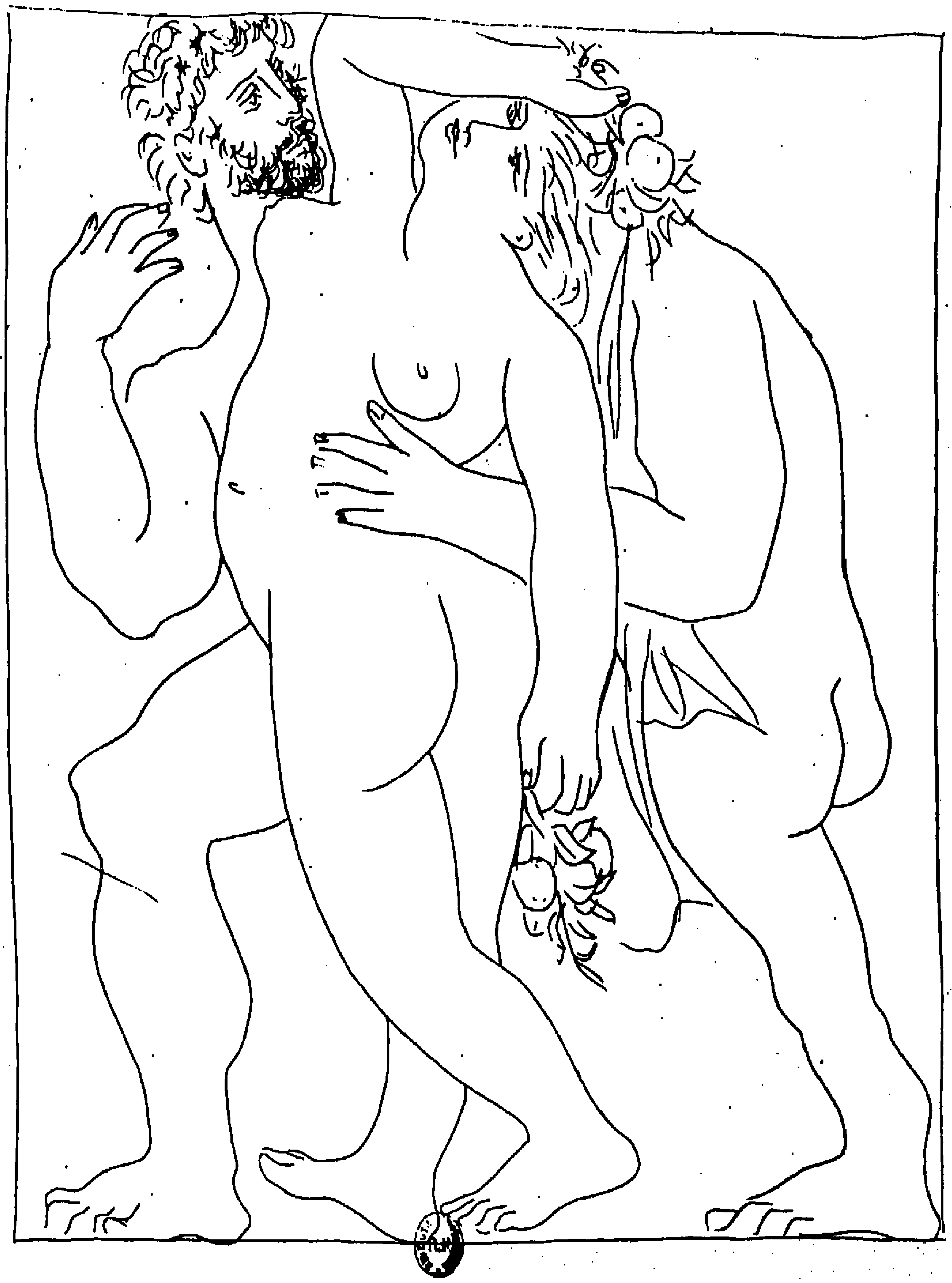

پيكاسو : الكتاب الرابع عشر
٢٩ ـ پومونا وڤيرتومنوس.

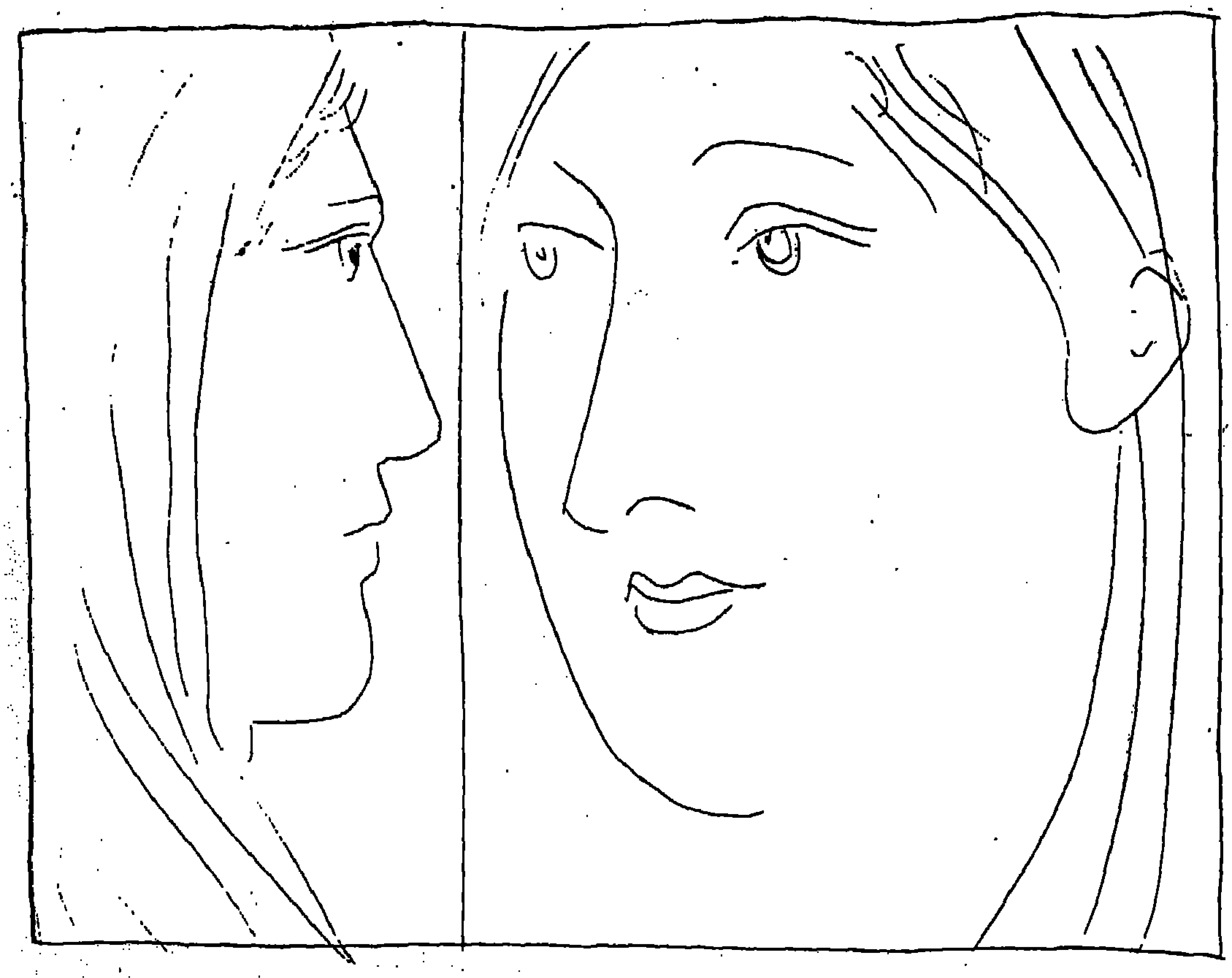

بيكاسو : الكتاب الخامس عشر
٣٠ـ هيبوليتوس وفيدرا

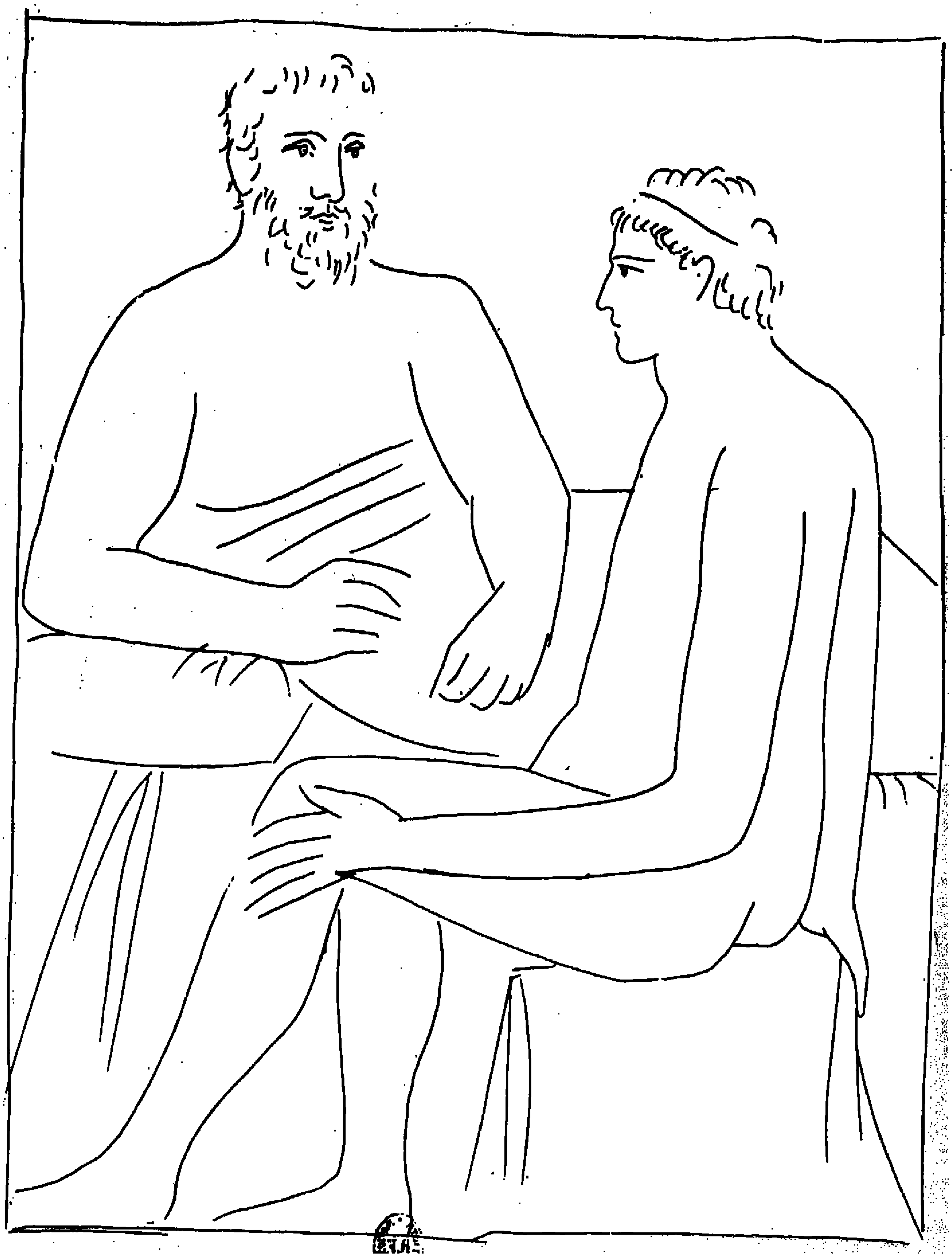

بيكاسو : الكتاب الخامس عشر
٣١ ـ تأليه يوليوس قيصر.

التعقيبات

تعقيبات الكتاب الأول

(١) كان القدماء يفرّقون بين المناطق الشديدة الحرارة الواقعة داخل المدارين والمناطق المعتدلة الحرارة شمالهما وجنوبهما مباشرة والمناطق الجليدية حول القطبين، . وذكر ڤرچيل فى كتابه «فن الفلاحة» هذا التقسيم للأرض إلى خمس مناطق تقابل خمساً أخرى فى السموات.

(٢) يابيتوس أحد المردة التيتان أبناء جيا وهو والد أطلس وپروميثيوس، وكان الأخير يُعدّ راعي البشر وحاميهم من غضب الآلهة ومانحهم خيرات الحضارة وأهمها النار، ويقال إنه خلق الإنسان من تراب.

(٣) كان القدماء يتصورون أن الشّهد قطرات ندى تسّاقط من السماء ثم يجمعها النحل من ورق شجر البلوط الذي كان مكرّساً للإله چوپيتر.

(٤) ساتورن الذي يتحدث عنه أوڤيد يقابل كرونوس اليوناني الذي خلعه ابنه چوپيتر «زيوس» عن عرشه وألقى به فى نهر تارتاروس بالعالم السفلي. أما ساتورن الإله الذي كان يعبده الرومان فمختلف كل الاختلاف عن كرونوس لما يتحلّى به من صفات طيبة ومن خُلق يجنح إلى السلم.

(٥) هى بنت زيوس وثيميس، وكانت قد عاشت على الأرض بين البشر طوال العصر الذهبي إذ كانت تمثّل العدالة، وقد ذكر ڤرچيل الحادث نفسه فى كتابه «فن الفلاحة».

(٦) العمالقة كائنات بشعة كثيراً ما يختلط الأمر بينهم وبين المردة. وذكر هزيودوس أن العمالقة أبناء جايا ربّة الأرض أنجبتهم من الدم الذي انتثر من جرح أورانوس «السماء» الذي ألحقه به ابنه كرونوس. وقد جمع عالم لغة يوناني اسمه أپوللودوروس فى القرن الثاني قبل الميلاد كل ما يتصل بقصة صراعهم ضد الآلهة. وكانت هذه القصة من أحب الموضوعات إلى الفنانين الإغريق والمتأغرقين، الأمر الذي نلمسه بوضوح فى منحوتات إفريز مذبح پرجامون الكبير.

(٧) كان الإمبراطور أوغسطس يقطن قصرا فوق تل الپالاتينوس فى روما، وهو التل الذي شيدت عليه بعد ذلك قصور غيره من الأباطرة أمثال سپتيموس سيڤيروس وفلاڤيانوس. ويبدو من هذه العبارة مدى التملّق الذي ذهب إليه أوڤيد.

(٨) أغلب هذه الكائنات من الآلهة اللاتين المحليين ولا صلة لهم بأولئك الذين عهدناهم فى عصر الإغريق.

(٩) إشارة إلى مقتل قيصر بواسطة بروتوس وكاسيوس وغيرهما عام ٤٤ ق. م.

(١٠) أسماء جبال ثلاثة فى أركاديا بالمورة وكان لچوپيتر معبد مشهور فى ليكايوس.

(١١) أطلق اسم الطاغية Tyrant على الملوك الذين اعتلوا العرش فى المدن اليونانية التي خضعت لنظام حكم القلة «الأوليجاركية» بغير نظام الوراثة كما كان متبعاً خلال القرنين السابع والسادس ق. م. وأطلق على عهدهم اسم عهد الملوك الطغاة. غير أن حكمهم لم يكن بالضرورة متصفاً بالقهر والطغيان، فقد التصق هذا المعنى المستهجن باللفظ فيما بعد، خاصة فى عهد دويلة المدينة «پوليس» الديمقراطية فى القرن الخامس ق. م. حيث ظفر قتلة الملوك الطغاة بالتمجيد والتكريم. كذلك جاء أفلاطون فساعد على إضفاء دلالة مستهجنة على هذا اللفظ حين وصف هذا النظام فى «الجمهورية» بأنه أسوأ نظم الحكم الممكنة.

(١٢) كان المولوسيون يقطنون منطقة جبلية فى الشمال الشرقي من بلاد اليونان، ويقال إن نيوپتوليموس بن أخيل كان قد أدرك شواطىء مولوسيا «إپيروس الآن» أثناء عودته من طروادة بصحبة أسيرته أندروماخي أرملة هكتور.

(١٣) كانت ربات الانتقام المسماة «إيرينيس» عند الإغريق و«فورياى» عند الرومان مسؤولات عن عاقبة كل مخالفة للقوانين الإلهية وغيرها من مبادىء الأخلاق والقوانين الوضعية البشرية. ويقصد أوڤيد هنا أنهن يعاقبن المذنبين ببثّ الجنون فيهم، الأمر الذي يدفعهم إلى الإفراط فى ارتكاب الجرائم.

(١٤) الكيكلوپيس الثلاثة هم برونتس وستيروپيس وآرجيس وهم أبناء جايا وأورانوس، وكانوا حلفاء لچوپيتر فى معاركه ضد العمالقة، بل هم الذين زوّدوه بالرعد والصواعق.

(١٥) جمع حيزوم وهو صدر السفينة.

(١٦) شاعت فكرة أن الطوفان عقاب للبشر لورودها فى الكتب السماوية. وكانت الأساطير الشرقية تتضمن نفس قصة الطوفان كما نرى فى ملحمة جلجامش الكلدانية حيث نجد البطل يسمع قصة الطوفان على لسان جدّه الذي نجا وحده من الغرق بتشييده سفينة بأمر الإله «إيا».

(١٧) تفصل فوكيس بين بويوتيا وأويتا جنوب ثيساليا. وكانت لجبل پارناسوس قمم كثيرة تصل أهمها إلى ارتفاع ٢٤٥٧ متراً فوق سطح البحر.

(١٨) كان ديوكاليون ابن عمّ پيرا، فهو ابن پروميثيوس وهى ابنة إپيميثيوس شقيق پروميثيوس. وثمة أسطورة تقول إن ديوكاليون وپيرا قد وُضعا فى صندوق مغلق أرسته المياه على قمة جبل پارناسوس، وقيل إنه جبل أوتريس أو إتنا أو أثوس.

(١٩) يذكر هرمان فرانكل فى كتابه عن أوڤيد صفحة ٧٦ أن المقصود من الأم هنا «جايا» الأم الأرض، أما العظام فهى الصخور والحصى التي كان ديوكاليون وپيرا يقذفانهما من وراء ظهريهما فيولد منها جنس جديد من البشر.

(٢٠) استمد أوڤيد هذه النظرية من فلسفة الرواقيين الذين استمدوها بدورهم من الفيلسوف أنكساجوراس.

(٢١) كان الثعبان عند الإغريق تجسيدا لآلهة الخصوبة. وكان فوز أپوللو على پيثون رمزاً لخلع جايا من الألوهية. والمعروف أن عبادتها ظلت فى پيثو، وهو الاسم القديم لدلفي إلى أن وفدت عبادة خليفتها أپوللو إلى المكان نفسه، وأغلب الظن أنها عبادة كريتية الأصل. وكانت الألعاب الپيثوية التي تقام فى دلفي تكريما لأپوللو مجرد مباراة موسيقية فى بادىء الأمر، ثم تحولت فى عام ٨٥٢ ق.م. إلى مهرجان يضم مباريات فى الفروسية وألعاب القوى كما كانت الحال فى الألعاب الإغريقية الأخرى.

(٢٢) يخترق نهر پينيوس إقليم ثيساليا ويجتاز عند نهايته وادى تمپي المشهور.

(٢٣) كانت كلاروس على شواطىء أيونيا، وتنيدوس جزيرة فى مدخل الهليسپونت، وپاتارا مدينة كبيرة على شواطىء ليسيا، وكلها تضم معابد أپوللو.

(٢٤) اشتهرت كلاب الغال بسرعة العدْو.

(٢٥) هايمونيا اسم آخر لثيساليا.

(٢٦) حوريات الأشجار.

(٢٧) جبل بأركاديا.

(٢٨) نهر فى أركاديا.

(٢٩) كان الطاووس هو طائر جونو المقدس.

(٣٠) كان الإغريق يخلطون دائماً بين إيو وبين إيزيس الإلهة المصرية الممثّلة دائماً بقرنىْ بقرة. وكانت عبادة إيزيس قد انتشرت فى أنحاء العالم الإغريقي منذ تأسست مدينة الإسكندرية ثم انتشرت عبادتها فى الدولة الرومانية مع الأباطرة الأول، كما كان المصريون يرتدون ثياباً من الكتان فى حين يرتدي الإغريق ثياباً صوفية. ويروي أيسخولوس قصة مسخ إيو فى مسرحيته «الضارعات» و«پروميثيوس مغلولا». أما المؤرخ هيرودوتس فيذهب إلى أن إيو بنت إيناخوس ملك أرجوس قد اختطفها تجار فينيقيون وأبحروا بها إلى مصر.

(٣١) اعتبر الإغريق إيپافوس هو العجل أبيس المصري.

(٣٢) كليمينيه هى إبنة أوقيانوس وتيثيس، وهى زوجة ميروپس ملك إثيوپيا «النوبة»، وكانت قد أنجبت من هليوس إله الشمس قبل زواجها فايثون والهيلياديس بنات الشمس.

تعقيبات الكتاب الثانى

(١) فى الأصل مولكيبير، وهو لقب من ألقاب ڤولكانوس إله الحدادة عند الرومان [هيفايستوس عند الإغريق].

(٢) تريتون بن نپتون «پوسيدون» وأمفيتريتي، وكان إله بحر من المرتبة الثانية مثل نيريوس وپروتيوس، وكان يصوَّر على شكل إنسان حتى خصره، ومؤخرته ذيل سمكة مزدوج.

(٣) پروتيوس حارس كلاب البحر للإله نپتون، وكانت له ملكة التنبؤ كما كانت له القدرة على التشكّل فى أى شكل يريد بما فى ذلك النار.

(٤) أيجيون بن أورانوس وجيا، وقد ساعد چوپيتر عندما حاول نپتون وچونو ومنيرڤا تقييده بالأغلال.

(٥) دوريس هى بنت أوقيانوس وتيثيس وزوجة نيريوس وأم النيريايديس الخمسين.

(٦) كانت الشمس والقمر والكواكب وقبة السماء نفسها المرصّعة بالنجوم الثابتة تدور كلها وفق نظرية پيثاجوراس حول الأرض يومياً من الشرق إلى الغرب، بينما الأرض ثابتة لا تتحرك. أما فكرة تقسيم النجوم إلى إثنتى عشر برجاً على الطريق الذي تسلكه الشمس فترجع إلى الفلكيين البابليين.

(٧) تيثيس بنت جايا وأورانوس وزوجة أوقيانوس وأم الأوقيانيديس الثلاثة آلاف وكذلك الثلاثة آلاف نهر.

(٨) كانت الشمس تسير وفق نظرية پيثاجوراس فى اتجاه مضاد لاتجاه الكون، بدفع دورة الكون لها.

(٩) يهدف أوڤيد من ذكر أبراج الثور والرامي والأسد والعقرب والسرطان إلى إبراز المخاطر التى سيمرّ بها فايثون. وكان «الرامي» يصور عادة على شكل قنطور يرمي بقوسه. لذلك سُمّي بالقنطور الهايموني وهو اسم من أسماء ثيساليا، الوطن الأسطوري للقنطور.

(١٠) كان الشعراء منذ هوميروس يكثرون من ترديد اسميْ نجمة الصبح «لوسيفر» باللاتينية و«فوسفوروس» باليونانية أى حاملة الضوء، مع أنهما ليستا فى الواقع سوى كوكبة واحدة هى الزُهرة.

(١١) يعنى اسم الجواد إيووس «الشرقي» باللغة اليونانية نسبة إلى مشرق الشمس. أما الجياد الثلاثة الأخرى فتحمل كلها صفات الحرارة والبريق فى آن معا.

(١٢) ملك إثيوپيا وزوج كليمينيه أم فايثون.

(١٣) جبل آثوس فى مقدونيا.

(١٤) جبل تاوروس فى جنوب آسيا الصغرى.

(١٥) جبل تمولوس فى ليديا بآسيا الصغرى.

(١٦) جبل أويتا فى جنوب ثيساليا واشتهر بموت هرقل فوقه.

(١٧) هناك جبلان يحملان اسم إيدا أحدهما فى كريت حيث ترعرع فوقه چوپيتر، والآخر بجوار طروادة.

(١٨) جبل هيموس فى طراقيا.

(١٩) بركان إتنا فى صقلية.

(٢٠) جبل إيريكس فى صقلية.

(٢١) جبل كينثوس فى ديلوس التي وُلد بها أپوللو وديانا.

(٢٢) جبل أوثريس فى جنوب ثيساليا.

(٢٣) سلسلة جبال رودوپي فى جنوب طراقيا، وهى الآن جزء من بلغاريا.

(٢٤) جبل ميماس فى شبه جزيرة تُواجه جزيرة خيوس.

(٢٥) جبل ديندِما فى فريچيا.

(٢٦) ميكالي شبه جزيرة تواجه جزيرة صاموس.

(٢٧) جبل كيثايرون يفصل بين أتيكا وبويوتيا وكانت تقام فيه طقوس الأسرار الديونيسية.

(٢٨) جبال سكيثيا [أوسكوذيا] بالقوقاز.

(٢٩) جبال أوسّا وپيندوس وأوليمپوس فى ثيساليا. ويضيف أوڤيد إلى هذه الجبال اليونانية جبالاً إيطالية هى سلسلة جبال الألب والأپنين.

(٣٠) ثمة ينابيع كثيرة فى بويوتيا تحمل اسم ديركي زوجة ليكوس ملك طيبه اليونانية.

(٣١) لجأت أميمونيه إحدى بنات داناوس إلى أرجوس فى فترة قحط واقتربت من نهر تشرب منه فحاول ساتير هتك عرضها فاستنجدت بپوسيدون الذي طرد الساتير وقذف برمحه الثلاثي الشُّعَب إلى صخرة ما لبثت أن تفجّرت منها المياه.

(٣٢) إفيري هو الاسم القديم لكورنثه حيث يوجد ينبوعان يحملان اسم پيريني، ويروي أن أحدهما انبثق من ضربة حافر الجواد پيجاسوس المجنّح.

(٣٣) نهر تانايس هو نهر الدون الحالي فى روسيا.

(٣٤) نهر پينيوس فى ثيساليا.

(٣٥) نهر كايكوس فى آسيا الصغرى.

(٣٦) نهر إسمينوس فى بويوتيا بالقرب من طيبه.

(٣٧) نهر زانثوس هو النهر الطروادي الذي ذكر هوميروس فى الإلياذة أنه كان يهدّد أخيل بالموت.

(٣٨) نهر ليكورمارس فى غرب اليونان.

(٣٩) نهر مياندر فى كاريا بآسيا الصغرى.

(٤٠) نهر ثرمودون بمملكة پونتوس الواقعة فى آسيا الصغرى والتي تطل على البحر الأسود.

(٤١) نهر فازيس فى كولخيس على الشاطىء الشرقي من البحر الأسود حيث الكرج [چورچيا] الآن.

(٤٢) نهر هيستر هو نهر الدانوب.

(٤٣) نهر ألفيوس أهم نهر فى المورة.

(٤٤) نهر سپيرخيوس فى أواسط اليونان.

(٤٥) نهر مايونيا فى ليديا بآسيا الصغرى.

(٤٦) نهر كايستر فى ليديا المشهور ببجعاته.

(٤٧) نهر الهيبر هو نهر ماريستا فى طراقيا.

(٤٨) نهر ستريمون هو نهر ستروما فى طراقيا.

(٤٩) جبل إيزماروس على الشاطىء الجنوبي لطراقيا.

(٥٠) تطلق كلمة هيسپريا على أوربا الغربية، من إيطاليا حتى شبه الجزيرة الأيبيرية.

(٥١) هى جزر السيكلاد.
(٥٢) أطلس ابن المردة التيتان وكان قد أسر فى حربهم ضد زيوس فأمره الأخير بأن يحمل السماء فوق كتفيه إلى الأبد.
(٥٣) نهر إيريدانوس هو نهر الرون فى رأى البعض، ونهر البو فى رأى البعض الآخر. ويقصد أوفيد هنا نهر البو.
(٥٤) اتخذ أوريبيديس من أسطورة فايثون مأساة لم تنته إلينا إذ فقدت.
(٥٥) كان الكهرمان عند أرسطو وپلينيوس عصارة تسيل من بعض الأشجار مثل شجر الحوْر. ويرى غيرهما أنه بول متجمد لحيوان الوشق من فصيلة السنانير، بينما يميل أوفيد إلى الرأى الأول كما يبدو من النص. ومما يلفت النظر أن الكهرمان فى روما كان بمنزلة الأحجار الكريمة.
(٥٦) كانت شعوب ليجوريا تقطن الشاطيء الشمالى الغربي من إيطاليا.
(٥٧) إيريدانوس نهر أسطوري اقترن أحياناً بنهر البو وأحياناً أخرى بنهر الرون.
(٥٨) كان لچوپيتر معبد شهير فوق جبل ليكايوس فى أركاديا.
(٥٩) ربّة مفترقات الطرق المسماة تريڤيا هى فى واقع الأمر هيكاتي أخت ليتو، وكانت إحدى الإلهات المتصلة بالقمر، الأمر الذي أدى إلى الخلط بينها وبين ديانا التي كانت بدورها يُخلط بينها وبين فوبيبه، والراجح أن أوفيد يقصد ديانا فى هذا النص. أما جبل ماينالوس فهو جبل مقدس فى أركاديا للإله پان إله الطبيعة.
(٦٠) ديكتينا لقب من ألقاب الإلهة الكريتية بريتومارتيس التي كثيراً ما كان الإغريق يخلطون بينها وبين أرتميس «ديانا».
(٦١) كاليستو هى ابنة ليكاؤون الذي سبق أن عرفنا تحوله إلى ذئب فى الكتاب الأول. وكانت الطقوس تقام له فوق جبل ليكايوس إلى جوار طقوس پان حتى حلّت محلهما عبادة چوپيتر وحده.
(٦٢) إيريمانثوس سلسلة من الجبال فى أركاديا اشتهرت قديماً بقتل هرقل للخنزير البرّي فوقها. وأصبح اسم هذه الجبال يطلق فيما بعد على كاليستو بعد أن تحولت إلى دبّة ثم إلى ثريّا فى السماء.
(٦٣) هما الدب الأكبر وحارسه الدب الأصغر ويطلق عليهما «السماكان».
(٦٤) إشارة إلى القصة المشهورة التي تعزو إلى الإوز الذي كان يربّيه جند قلعة الكاپيتولينوس الفضل فى إيقاظ الجند وتنبيههم بصياحهم عندما اقترب الأعداء البرابرة من القلعة.
(٦٥) كلمة يونانية عتيقة معناها الشاطيء أطلقت على أتيكا، وهذا هو ما يعنيه أوفيد.
(٦٦) كيكروپس هو البطل الأسطوري لمدينة أثينا فهو ابن إلهة الأرض، ولذا يمثل على شكل حيوان نصفه إنسان ونصفه الآخر أفعى.
(٦٧) أى البومة طائر منيرڤا المقدس.
(٦٨) هى بنت نكتيوس ملك جزيرة لسبوس، اضطرت إلى الخضوع لشهوة أبيها الشاذة فحوّلتها الإلهة أثينه [منيرڤا] إلى بومة رفقا بها وكانت تصحبها فى رفقتها دائماً. ومما يلفت النظر أن خطبة الغداف قد استوحاها أوفيد من خطبة مماثلة عزاها الشاعر كاليماخوس إلى نفس الطائر فى قصيدته الطويلة «هيكاليه» التي نسب فيها الشاعر خطباً للطيور.
(٦٩) هذا الابن هو إسكليپيُوس الذي سيروي أوفيد قصة رحيله من إپيداوروس إلى روما فى الكتاب الخامس عشر.
(٧٠) القنطور خيرون هو ابن كرونوس وفيليرا بنت أوقيانوس. واشتهر بأنه تعهّد أخيل وإسكليپيُوس بالتربية والرعاية، وكان للقنطور وجه إنسان وصدره فوق جسد حصان.
(٧١) معنى أوكيروييه باليونانية التيار الجارف.
(٧٢) خاريكلو هى بنت أپوللو.

(٧٣) كان مقدَّراً لإسكليبيوس أن يردّ الحياة لهيبوليتوس [انظر الكتاب الخامس عشر].

(٧٤) كان خيرون خالداً بطبيعته غير أن هرقل قذفه بسهم مغموس فى دم الهيدرا فأصابه بآلام مبرّحة جعلته يناشد الآلهة تجريده من الخلود ليستريح من عذابه فاستجابت الآلهة له وحوّلته إلى كوكبة فى السماء.

(٧٥) هو هيبيه أى المُهرة.

(٧٦) إيليس إقليم فى غرب المورة يشمل مدينة أوليمبيا المقدسة حيث كانت تقام الألعاب الأوليمبية.

(٧٧) مسينيا مقاطعة بشه جزيرة المورة.

(٧٨) پيلوس مدينة بشبه جزيرة المورة.

(٧٩) صخرة قائمة بجوار پيلوس. وقد ظن بعض الشارحين أن الإشارة هنا إلى حجر الفلاسفة الذي يُمتحن به وجود الذهب والفضة.

(٨٠) أحد الموانىء الثلاثة لمدينة أثينا بجوار خليج فاليرون.

(٨١) ممشى قرب أثينا على ضفاف نهر إليسوس كان أرسطو يلقى فيه دروسه الفلسفية، وهو أصل كلمة «ليسيه» الفرنسية التي تعني مدرسة.

(٨٢) معناها أرض الشواطىء وهو اسم قديم لأتيكا.

(٨٣) كان من صفات هذا الصولجان الشهير أنه يلقي النعاس فى الناس ويثير الأحلام وفق مشيئة ميركوريوس.

(٨٤) كان الذّبل المتخذ من درق السلحفاة مادة أساسية فى الزخارف والترصيع وقتذاك.

(٨٥) كانت أجلاوروس بنت كيكروپس ملك أثينا. ويقال إن منيرڤا كانت ترعَى إريختونيوس بن ڤولكانوس وأخفته فى سلّة سلّمتها إلى بنات كيكروپس الثلاث وأمرتهن ألا يتطلّعن إلى ما تحويه فأطاعتها پاندروسوس وهيرسي، غير أن شقيقتهما أجلاوروس رفعت غطاء السلّة، فإذا فى داخلها طفل وإلى جواره ثعبان.

(٨٦) كان ڤولكانوس من أهل ليمنوس فى الأصل.

(٨٧) خشية أن يمسّها الضرر.

(٨٨) تريتونيا لقب كثيراً ما يطلق على منيرڤا. ويرى البعض أن التريتون جدول صغير فى بويوتيا ترعرعت على ضفّتيه الإلهة فى صباها. ويرى البعض الآخر أنه اسم بحيرة فى ليبيا.

(٨٩) هو لون ذراعيْ ربة الحسد رمز كل ما هو شرير.

(٩٠) كان ميركوريوس هو ابن مايا بنت أطلس، وتشكّل أمه مع أخواتها كوكبة فى السماء، وعلينا أن نفترض أن چوپيتر يستطع أن يرى وهو يتطلع نحو الغرب مدن فينيقيا على يساره بالشرق.

تعقيبات الكتاب الثالث

(١) يردّ أوڤيد كلمة بويوتيا إلى كلمة بوس اليونانية التي تعنى البقرة، إلا أن الرأى الغالب أن هذه المنطقة قد سُمِّيت على اسم البطل بويوتوس بن پوسيدون.

(٢) ينبوع فوق الجبل المقدس لأپوللو وربات الفنون، أى جبل پارناسوس.

(٣) وصف أوريپيدس قصة صراع كادموس فى أحد أناشيد الكوروس بمأساة «الفينيقيات»، وكثيراً ما صوّر الفنانون هذا الموضوع على الأواني الخزفية.

(٤) يروي أوڤيد قصة هذا التحول بالتفصيل فى الكتاب الرابع.

(٥) اشتُق اسم إخيون من كلمة إخيس اليونانية التي تعنى الأفعى أو التنين، وقد حمل أحد العمالقة هذا الاسم كذلك.

(٦) ثمة تشابه بين هذه القصة وقصة چاسون الذي أمره الملك أيتيس بأن ينثر أنياب تنين على الأرض، وبعد أن فعل نبت منها جند تصارعوا وقتل بعضهم بعضا [انظر الكتاب السابع].

(٧) هياس هو اسم بطل أطلق على شعب بدائي بأسره فى بويوتيا. ويقال إن كادموس قد طردهم من وطنهم، وصارت كلمة هياس فيما بعد مطابقة لكلمة بويوتي.

(٨) لا توجد هذه الأسماء فى غير نص أوڤيد.

(٩) يدل هذا السرد الطويل على المكانة التي كان الرومان يخصّون بها كلاب الصيد العريقة شأن العرب مع الخيل. ويلاحظ أن أسماء هذه الكلاب تحمل فى أصلها الإغريقي معنى يشير إلى سرعتها أو سلوكها أو لونها، إلى غير ذلك.

(١٠) ألهمت أسطورة أكتايون منذ البداية الفنانين الإغريق، فصوّرها پوليجنوتوس فى دلفي، كما مُثّل أكتايون والكلاب فى أعقابه فوق حشوة منحوتات بمعبد هيرا فى سيلينوس من القرن الخامس ق.م. وكثيراً ما صوّرت مأساة أكتايون فوق الأواني الإغريقية، وثمة لوحة جدارية مصوّرة لنفس الأسطورة فى پومپي. هذا إلى لوحة الفنان تتسيانو الرائعة خلال عصر النهضة بالبندقية [انظر تقديم هذا الكتاب].

(١١) تيفويوس هو أحد العمالقة الذين تحدّوا چوپيتر.

(١٢) إينو هى بنت كادموس وزوجة أثاماس.

(١٣) ثمة مدن كثيرة فى العالم القديم تحمل اسم نيسا، وأغلب الظن أن أوڤيد لم يقصد موقعاً جغرافياً معيناً. فهناك أساطير تروي أن نيسا كان اسم تلك الحورية التي أرضعت باكخوس واضطلعت بتربيته، ومازال حقيقة هذه الأسطورة غامضة. أما مشهد مولد باكخوس فهو موضوع مألوف فى النقوش البارزة والأواني الخزفية المصورة وخاصة فوق المزاج «كراتيرون» الضخم الموجودة بمتحف ناپلي.

(١٤) أى حين سوف يدرك أن الصورة المنعكسة من صفحة الغدير ما هى إلا صورته هو نفسه. وعندها يقضي نحبه.

(١٥) إحدى ربات اللقدر، وهى تجسيد لنقمة الآلهة إزاء غرور البشر عندما يبتسم لهم الحظ، وكان من أعبائها توقيع العقاب على خطيئة الغطرسةمن غير وجه حق.

(١٦) كانت المشاعل تُهزّ لتأجيج لهيبها قبل إشعال المحرقة.

(١٧) هى زهرة النرجس ومنها اشتُقت كلمة «النرجسية» التي تعنى الإعجاب المَرَضي بالذات.

(١٨) ليبر إله إيطالي قديم حل محل ديونيسوس ولقب من ألقاب هذا الإله ويعنى «الحر» أو «المحرَّر» بوصفه إله النبيذ والنشوة.

(١٩) هم الفينيقيون الذين أقاموا مع كادموس مدينة طيبه التي سبق ذكرها.

(٢٠) ثيرسوس باكخوس أى صولجانه، وهو عصا تتوّجُها حلية على شكل ثمرة الصنوبر وتلتف حولها أغصان كروم دقيقة هى شعار باكخوس وأشياعه.

(٢١) أكريسوس ملك أرجوس هو والد داناى. وهنا يخالف أوڤيد الأسطورة القائلة بأن طيبه كانت أول مدينة يونانية يزورها الإله ديونيسوس، حسب ما ورد بمسرحية «عابدات باكخوس» لأوريپيديس.

(٢٢) تيريني وإتروسكي كلمتان مترادفتان، ويقال إن أصل الإتروسكين من ليديا بآسيا الصغرى، وكان الاسم الأصلي لليديا مايونيا.

(٢٣) نجمة عنزة أولينوس هى أهم نجمة فى مجموعة «الحوذي» بجوار «الدب الأصغر»، ويرجع اسمها إلى العنزة التي أرضعت الإله چوپيتر وهو طفل. وكثيراً ما يختلط أمر هذه العنزة بالحورية أمالثيا التي ظن البعض أنها ابنة أولينوس. وهناك رأى آخر بأن أولينوس مدينة قديمة فى اليونان حيث أرضعت العنزة الإله چوپيتر.

(٢٤) تعني كلمة بروريوس فى اليونانية «المرشد» فى مقدمة السفينة. وقد ذكره هوميروس كاسم شخص من بين الفياكيين [انظر الكتاب الثامن من الأوذيسيا: ١١٣].

(٢٥) يؤخذ على أوڤيد هنا نقص معارفه الجغرافية؛ إذ قال على لسان أكويتيس أن سفينته كانت تميل نحو الجنوب وهى تتجه نحو ديلوس، وأنها قد رست على الشاطىء الغربي من جزيرة خيوس، فإذا كان حقاً يقصد بلوغ ناكسوس بعد ذلك من غرب خيوس لوجَب عليه أن تتجه السفينة جنوباً لا شرقاً.

(٢٦) ديا اسم لجزيرة ناكسوس.

(٢٧) «إيو» هى صيحة النشوة المحمومة لعابدات باكخوس ينادين بها الآلهة، وقد تكون أحيانا تعبيرا عن شدّة الحزن.

(٢٨) أوتونوئى هى أم أكتايون الذي نهشته كلابه حتى قضت عليه كما مرّ بنا.

تعقيبات الكتاب الرابع

(١) يذكر أوفيد بعض الألقاب التي كانت تطلق على ديونيسوس. وكان اسم باكخوس شائعاً بين القبائل اللاتينية وأغلب الظن أنه من أصل شرقي، انتشر فى بلاد اليونان ابتداء من القرن الخامس ق. م، وكان الإغريق يعنون بهذه الألقاب صفات الإله ديونيسوس العربيدة الماجنة. أما بروميوس فهو لقب متعلق بهزيم الرعد لحظة مولده، ويدل اسم ليبوس على قدرة الإله على تخليص الناس من همومهم، ويتعلق اسم ابن النار بظروف ميلاده [انظر الكتاب الثالث].

(٢) إشارة إلى ظروف ميلاد الإله [انظر الكتاب الثالث] وطفل نيسا [انظر الكتاب الثالث] وثيونيوس نسبة إلى الكلمة اليونانية لينوس بمعنى معصرة العنب. ونكتليوس هو لقب الإله الذي يُحتفل بطقوسه الماجنة ليلاً، أما إيليليوس ويوهان فمشتقان من صرخات النشوة المحمومة، وياخوس هو اللقب الذي أُضفى على ديونيسوس فى مدينة إليوسيس. أما ليبر فهو اسم أحد آلهة الخصوبة القدامى بين العشائر اللاتينية، واعتبره الرومان الإله ديونيسوس نفسه، ومعناه «الحُرّ» أو «المحرِّر».

(٣) لأنه كان يتمثل أحياناً على شكل ثور.

(٤) انظر قصة بنثيوس فى هذا الكتاب الثالث. أما ليكورجوس فكان ملكاً لطراقيا وعدواً لديونيسوس فأصابه الإله بالجنون، الأمر الذي أدى به إلى قتل زوجته وابنه وإلى موته هو نفسه قتيلاً بعد أن سحلته خيوله.

(٥) هو ميلينوس بن پان الذي تولى تربية ديونيسوس وكان رغم إدمانه الخمر معروفاً بالحكمة.

(٦) ديركيتيس نسبة إلى الربّة السورية ديركيتو التي تحمل أيضاً اسمى أترجاتيس وعشتاروت، وكانت تُمثَّل بجسم سمكة.

(٧) أنجبت الربة ديركيتو - كما تقول الأسطورة - بنتاً هى سميراميس المشهورة التي تزوجت من نينوس ملك آشور الذي شيّد لها حدائق بابل المعلقة. وقد أمرت سميراميس أن تسوَّر المدينة بأسوار ضخمة عليها مائتان وخمسون برجاً، وفى نهاية حكمها علمت أن ابنها نينياس كان يتآمر ضدها فوهبته العرش بمحض إرادتها وتحولت إلى يمامة وطارت بعيداً.

(٨) هى قصة حورية الماء بجزيرة نوسالا وكانت تجتذب بفتنتها الشباب ثم تحولهم إلى أسماك، فعاقبها إله الشمس ربّ هذه الجزيرة بأن مسخها سمكة.

(٩) كان الرومان يوزّعون مياه القنوات الحجرية العالية بواسطة أنابيب بين الأبنية العامة والخاصة. وهنا يلجأ أوفيد إلى تصوير الأسطورة مستعيناً بمشاهداته الخاصة فى حياته الواقعية.

(١٠) كليمينيه ورودوس حوريتان إحداهما هى أم فايثون والثانية على قول البعض أم الهيلياديس. أما كيركي التي سيقص أوفيد قصتها مع جلاوكوس وسكيللا فى الكتاب الرابع عشر فكانت أمها برسيا بنت أوقيانوس. وسمّيت جزيرة آيا التي سكنتها فيما بعد شبه جزيرة كيركيو فى إيطاليا. وكليتييه أيضاً هى بنت أوقيانوس.

(١١) سمّى عدة ملوك بهذا الاسم فى آشور، ويقال إن أحدهم كان جد الملكة ديدو القرطاجية وملوك صور.

(١٢) تحولت إلى زهرة اشتهرت فيما بعد باسم «عبّاد الشمس» أو رقيب الشمس.

(١٣) كان دافنس بن هرمس من إحدى الحوريات شفيعاً للرعاة، ويقال إنه مبتكر الأناشيد الرعوية، وكثيرا ما يذكر ثيوكريتوس اسمه. وقد أحبته حورية اسمها ليكا [أو نايس] ثم خانها ففقد ببصره ومُسخ صخرة وصارت أسطورته ملتصقة بريف صقلية [انظر الكتاب الثانى].

(١٤) كيلميس هو أحد كهنة كوبيلي في جبل إيدا. والكوريتيس هم أبناء الأرض مثل المردة التيتان، وكانوا قد رعوا زيوس في طفولته. أما كروكوس فهو الذي أحب سميلاكس حبا يائساً فمسخته الآلهة نبات الزعفران، كما مُسخت سميلاكس زهرة من فصيلة الزنبق تسمى الفشاغ.

(١٥) يتكون الاسم من اسميْ هرمس [ميركوريوس] وأفروديتي [ڤينوس] مجتمعين.

(١٦) كيتوروس اسم مدينة وجبل على الشاطىء الشمالي لآسيا الصغرى، وقد اشتهرت بصناعة الأمشاط من الخشب.

(١٧) كان ثمة اعتقاد شائع بإمكان منع خسوف القمر بقرع الدفوف وصكّ الصنوج البرونزية.

(١٨) كانت جدّته مايا أم هرمس بنتاً للمارد أطلس.

(١٩) تحولت بنات ميناياس إلى خفافيش، وهي باللاتينية «ڤيسپر تيليونيس» نسبة إلى «ڤيسپر» نجم أوج الليل.

(٢٠) إينو هي صغرى بنات كادموس وشقيقة سيميليه، وقد قامت بتنشئة ديونيسوس عقب ولادته. أما زوجها أثاماس بن أيولوس فكان ملكاً لأورخوميني في بويوتيا وقد أنجبت منه ولدين.

(٢١) لم تكن تحظى بالسكينة غير أرواح الموتى التي أديت لها الطقوس الجنائزية.

(٢٢) أحب إيكسيون چونو وحاول إغرائها فأبلغت زوجها چوپيتر الذي شكلّ امرأة على غرار چونو من السّحاب ورفعها إلى المكان الذي كان سيلقى فيه چونو، وضاجع إيكسيون السّحابة فأنجب منها فصيلة القنطوري، ثم عاقبه چوپيتر بأن قذف به إلى العالم السفلي حيث شدّه ميركوريوس على عجلة تدور إلى ما لا نهاية.

(٢٣) سيزيفوس هو أحد الأبناء الستة لأيولوس ومنهم أثاماس.

(٢٤) إخيدنا وحش نصفه امرأة ونصفه ثعبان. وكانت أم الكلب أورثوس الذي صارعه هرقل والكلب كيربيروس ذي الرؤوس الثلاث والهيدرا والخيميرا وأسد نيميا.

(٢٥) «أفروديتي» مشتق من «أفروس» أي الزَّبد باليونانية.

(٢٦) تروي الأسطورة أن الطفل الرضيع ميليكيرتيه قد حمله درفيل إلى شواطىء كورنثه، وهناك تلقّاه عمه سيزيفوس ودفنه ثم أقام الألعاب التي سميت بالألعاب البرزخية تكريما لذكراه. أما ليوكوثوى [إينو] وپلايمون [ميليكيرتيه] فقد اتُّخذا إلهين في روما بدلاً من الآلهة الإيطالية القبلية ماتوتا وبورتونوس. وكان أيسخولوس وسوفوكليس قد تناولا هذه الأسطورة في مأساتين بعنوان «أثاماس» لم يبق لنا منهما شيء. كذلك تناول أوريپيديس نفس الأسطورة في مأساة مفقودة بعنوان «إينو».

(٢٧) ألبانيا الآن.

(٢٨) كان آباس ملك أرجوس وأب أكريسيوس أحد أقرباء كادموس ودناووس وآيجپتوس [انظر الكتاب الثالث]. وكان أكريسيوس والد داناى قد أفزعه ما تكهّن به العرّاف بأنه سيموت قتيلاً بيد حفيده فحبس ابنته في حجرة محصنّة بالنحاس. وإذ وقع بصر زيوس عليها مسّت شغاف قلبه فتسلل إلى معقلها من النافذة على شكل شؤبوب من قطرات الذهب فأنجبت منه پيرسيوس. وبعد أن سمع أكريسيوس صيحات الطفل پيرسيوس لم يصدق أن أباه كان رب الأرباب. وإذ كانت نبوءة العراف ما فتئت تؤرقه أغلق على الأم داناى وطفلها پيرسيوس صندوقاً وقذف به إلى البحر حيث رسا على شاطىء سيريفوس فالتقطه الملك پوليديكتس. وقد تناول سوفوكليس موضوع هذه الأسطورة في مأساة مفقودة أطلق عليها اسم «أكريسيوس».

(٢٩) كانت مملكة أطلس تشمل أقصى غرب أفريقيا الشمالية وشبه جزيرة أيبريا.

(٣٠) لوسيفر هو نجم الصباح أو كوكبة الزهرة التي تبدو قبيل الشروق.

(٣١) أيولوس هو رب الرياح.

(٣٢) تعني كلمة إثيوبيا موطن ذوي البشرة المحروقة، وكان الإغريق يطلقون هذا الاسم على كافة شعوب الجنوب حتى خط الاستواء. وقد ميّز أيسخولوس بين نوعين من الإثيوبيين: ذوي الشعر المجعّد وهم الزنوج، وذوي الشعر السبط وهم الهنود. واقتصرت هذه التسمية بعد هيرودوتوس (القرن الخامس ق. م.) على البلاد الواقعة جنوبي مصر وهى النوبة والسودان وشمال الحبشة.

(٣٣) كان القدامى يجهلون الأصل الحيواني للمرجان.

(٣٤) خريساوور هو شقيق الجواد پيجاسوس، وقد تزوج ابنة أوقيانوس وأنجب منها جريون الوحش ذا الرؤوس الثلاث الذي صارعه هرقل.

(٣٥) رأس الجورجونة هى الشعار المنقوش فى منتصف درع الربة أثينه [منيرڤا].

تعقيبات الكتاب الخامس

(١) فينيوس هو شقيق كيفيوس وابن بيلوس [انظر الكتاب الثالث]. وهو غير فينيوس الذي حرّره أهل أرجوس من طيور الهاربيس (انظر الكتاب السابع).

(٢) كان آمون يُعبد على شكل كبش، وعندما وحّد الإغريق بينه وبين «زيوس آمون» صوّروه دائماً بقرنيْ كبش.

(٣) القفاز هو «الكايستوس» المكون من عدّة سيور جلدية تنفذ منها مسامير برونزية يلفّها المصارعون والمجالدون والملاكمون حول قبضاتهم. وكانت مباريات الكايستوس من أخطر الألعاب اليونانية وأهمها. ولا يعدّ أحد المصارعين فائزاً إلا إذا قضى على حياة خصمه. وثمة وصف لهذه المباراة فى إلياذة هوميروس (٢٣ : ٦٥١ وما بعده) وفى إنيادة ڤرچيل بالكتاب الخامس (٤٢٦ وما بعده).

(٤) نهر سينيپس هو نهر صغير فى طرابلس ببرقة إلى جوار مدينة ليبتس ماجنا [لبدة الحالية].

(٥) فزان الحالية.

(٦) أطلق اسم «منديس» على الجدى الذي يصوّر فى النقوش عادة على هيئة كبش يشبه آمون. وحين جاء هيرودوتوس إلى مصر ظنّه الإله پان واكتشف عبادة هامة له بمدينة منديس بشمالي مصر. وأصبحت منديس خلال العصر البطلمي من أهم مدن القطر، فقد لقّب بطليموس الثاني نفسه بأنه ابن الجدى الحىّ العظيم الذي يسكن منديس، كما وُصفت الملكة أرسينوى الثانية بأنها عشيقة الجدى الحىّ العظيم، الأمر الذي أدى إلى تأليهها. وقد عُثر على نصب تذكاري تنصّ نقوشه على أن مقاطعة منديس كانت دون غيرها من المقاطعات معفاة من الضرائب، بل لقد خُصّص كل دخلها لعبادة الإله الجدى.

(٧) خاونيا فى شمال اليونان [إيپيروس الآن].

(٨) الأنباط قوم من العرب قطنوا قديماً جنوبي فلسطين فى إقليم كانت عاصمته البتراء. وما أكثر ما استخدم الشعراء اللاتين هذا الاسم كناية عن الشعوب الشرقية.

(٩) انظر الكتاب الرابع: كان پوليديكتيس قد وقع فى غرام داناى وحاول أن يتخلص من ابنها پيرسيوس بأن فرض عليه اجتياز مخاطر مستعصية، منها قطع رأس الجورجونة. وسيريفوس جزيرة من جزر السيكلاديس = الكيكلاديس [جزر الأرخبيل] غربي جزيرة پاروس.

(١٠) پيللا مدينة فى مقدونية أصبحت عاصمة لها فى عهد الملك فيليپ الثانى، وپايونيا منطقة جبلية شمالي مقدونيا.

(١١) ثيسپياى مدينة جنوبي غرب طيبة فى بويوتيا بها معبد مقدس لربّات الفنون باق إلى اليوم.

(١٢) يخلط أوڤيد عمداً بين الآلهة الإغريق والآلهة المصرية، فالعملاق تيفويوس [تيفون] هو الروح الشريرة عند قدماء المصريين [سيث خصم أوزيريس]، وزيوس هو آمون الإله الكبش، وديونيسوس الإله الذي كُرّس له التيس هو منديس الإله الجدى، وأرتميس هى باستت الإلهة القطة، وهيرا هى إيزيس ذات قرون البقر، وهرمس هو تحوت الإله على شكل أيبس. وكان الغراب طير أپوللو، وكانت أفروديتي تشبه عشتاروت الآشورية.

(١٣) كاليوپي هى ربّة الشعر الملحمي وفنون الخطابة.

(١٤) اسم لإيطاليا عند الرومان مشتق من أوزون بن أوديسيوس.
(١٥) بيلوروس وپاخينوس وليليبايوم هى الرؤوس الثلاثة البارزة من جزيرة صقلية، يقع أولها فى الشرق وثانيها فى الجنوب وثالثها فى الغرب.
(١٦) قيل إن أينياس كان قد شيّد لأمه ڤينوس معبداً بمنطقة إريكس غرب صقلية [وإريكس اسم مدينة وجبل فى آن معا].
(١٧) پيرسيفوني هى ابنة زيوس شقيق ملك العالم السفلي والإلهة سيريس.
(١٨) مدينة «هنّا» فى وسط صقلية وتدعى الآن «إنا»، ويقال إن اختطاف هاديس لپروسيرپينا قد وقع بها.
(١٩) كان نهر الكايستر فى ليديا بآسيا الصغرى مشهوراً ببجعاته.
(٢٠) الپاليكي هما توأم لچوپيتر من الحورية ثاليا كانا يُعبدان كبطلين فى صقلية. أما برك الباليكي الكبريتية فكانت بين قطانيا وسراقوسه شرقى صقلية.
(٢١) سُمّى الباكخاداى على اسم باكخيس، وكان فى الزمن الغابر ملكاً على كورنثه، وقد هجرت هذه السلالة كورنثة إلى كل من صقلية حيث شيّدوا سراقوسة، وإلليريا حيث أسّسوا أسرتها المالكة.
(٢٢) أنابيس اسم نهر صغير فى صقلية جنوبي سراقوسه.
(٢٣) ستليو هو نوع من السّحالي [أو السمندل]. والنص غير واضح إذ أن الصفة المستخدمة بدلاً من الاسم تدل على أن البثور قد انتثرت فوق جسده وهو وصف دقيق للسحليّة المسمّاة ستليو، وإن لم يذكر أوڤيد اسم السحليّة صراحة فى النص.
(٢٤) ألفيوس هو نهر مشهور فى المورة يسري جزء منه فى قاع الأرض.
(٢٥) پيزا بلدة فى إيليس قريبة من نهر ألفيوس ومدينة أوليمپيا حيث كانت تقام الألعاب الأوليمپية.
(٢٦) عندما وقع نهر ألفيوس فى غرام قناة أريثوزا فرّت منه وسرت تحت الأرض فى المورة ثم خلال قاع البحر حتى انبثقت من جديد فى صقلية.
(٢٧) ستيمفالوس اسم مدينة ونهر وبحيرة فى أركاديا اشتهرت بالطيور الجارحة ذات الريش الحديدي التي قضى عليها هرقل ضمن مآثره الخارقة.
(٢٨) أورخومينوس مدينة فى أركاديا غير مدينة أخرى فى بويوتيا شهيرة بنفس الاسم.
(٢٩) مدينة تحت سفح جبل إيريمانثوس على حدود أركاديا.
(٣٠) سيلليني وميناليوس وإريمانثوس جبال ثلاثة فى شمال وجنوب وغرب أركاديا على التوالي، وكانت إيليس أشهر مدن مقاطعة إيليس على ضفاف نهر پينيوس بالمورة بعد تدمير مدينة پيزا التي كانت أهم مدينة فى إيليس.
(٣١) كلمة تعنى جزيرة السّمان، وهى أحد أسماء جزيرة ديلوس التي وُلدت فيها «ديانا».
(٣٢) نوع من فصيلة النمور أصغر حجماً وأجحظ عينا يسمّى أيضاً الوشق.

تعقيبات الكتاب السادس

(١) هى فوخيا الآن وكانت ميناء ذات بوغازين فى آسيا بين أزمير وكوماى.

(٢) تيمولوس اسم جبل فى ليديا يفصل بين حوضيْ نهر هرموس وكايستر.

(٣) پاكتولوس أحد روافد نهر هرموس اشتهر برماله التي تفيض بالذهب.

(٤) صخرة مارس «أريس» هى الأريوپاجوس، ذلك التل القريب من أكروپول أثينا الذي كان قلعة كيكروپس، وقد شهدت المناظرة الكبرى بين الربّة أثينه والإله پوسيدون من أجل إطلاق اسم على المدينة. وكانت هذه المناظرة مألوفة بين الفنانين الإغريق، فسجّلها فيدياس نحتا على الجبين المثلث الغربي للپارثينون.

(٥) يعدّ معبد الإريختيوم فوق هضبة الأكروپول تسجيلاً لهذين الحدثين الأسطوريين يتمثّل فى احتفاظ إحدى ردهاته بفرع من شجر الزيتون المُعجز الذى روى الرواة أنه قد احترق عندما دمّر خشيارشا [خاشيار شاه أو خشاياثرا أو أكسركسيس عند اليونان] الأكروپولَ ثم عاد فانبثق من جديد بعد يومين. وثمة حفرة فى الصخر أسفل البوابة الشمالية للمبنى قيل إنها من أثر رمح پوسيدون.

(٦) هما أخ وأخت تسمّيا باسم چوپيتر وچونو فمُسخا جبلين عقاباً لهما.

(٧) هى چيرانا ملكة شعب من الأقزام يقطنون أعلَى النيل ألّهها شعبها مما أثار غضب چونو وديانا فحوّلتها چونو إلى طائر كركي.

(٨) تقول الأسطورة إن قبائل الأقزام كانت فى حرب متواصلة مع الطيور كبيرة الحجم وخاصة طائر الكركي.

(٩) كانت أنتيجوني [وهى غير أنتيجوني ابنة أوديپ] ابنة لاووميدون ملك طروادة، وكانت - مثل رودوپي وچيرانا - قد أثارت غضب چونو حين تباهت بأن شعرها يُزري بجمال شعر چونو.

(١٠) كان سنيراس ملك پافوس فى قبرص وكاهناً لأفروديتي فى الوقت نفسه، اشتهر بأنه أسس مدينة أزمير، وقيل إنه أبو أدونيس. أما بناته فقد أعجبن بأنفسهن أكثر من إعجابهن بچونو فحوّلتهن الإلهة إلى درجات من الرخام لسلّم معبدها [انظر الكتاب العاشر].

(١١) إبنه كيوس أحد العمالقة وفويبي إبنة إلهة الأرض، وقد أحبها چوپيتر وتخفّى فى صورة نسر ليضاجعها، فلما أغضبته حوّلها إلى طائر السّمان.

(١٢) أنجب مكاريوس ابن أيولوس بنتا هى أمفيسا أو إيسيه التى أحبّها أپوللو، ويقال إنها أطلقت اسمها على مدينة مفيسا القريبة من دلفي.

(١٣) يعود السر فى جمع القنطور بين جسد الحصان وصدر الإنسان ووجهه إلى أن كرونوس الذي يسميه الرومان ساتورنوس كان يخون زوجته ريا مع فيليرا إبنة أوقيانوس، فلما فاجأت الزوجة العاشقين يوماً تخفّى كرونوس فى شكل حصان ليفلت منها، الأمر الذي أدّى إلى ظهور هذه الطبيعة المزدوجة فى ابنة خيرون.

(١٤) اسمه الحديث كودروس وهو اسم مدينة وجبل فى جالاطيا بالأناضول.

(١٥) سيپيلوس جبل شهير شمالي أزمير فى آسيا الصغرى.

(١٦) كان تانتالوس ملك ليديا وابن زيوس هو والد نيوبي. وكان قد استقبل الآلهة على مائدته، ولكنه قدّم لهم إبنه پيلوپس ليأكلوه فغضبوا عليه وعاقبوه وألقوا به إلى العالم السفلي. وكانت أم نيوبي هى ديوني إبنة أطلس التي كانت قد تزوجت من أمفيون وهو ابن زيوس من أنتيوپي، وقد اشتهر بأنه شيد أسوار طيبة بالعزف على قيثارته كناية عن براعته فى العزف.

(١٧) كانت ليتو إبنة المارد كويوس الذي كان أقل شهرة من أخويه هيپيريون وياپيتوس.

(١٨) على سفح جبل سيپيلوس فى ليديا صخرة على هيئة امرأة باكية ينساب منها جدول ماء يقال إنه دموع نيوبي. وأغلب الظن أن أوڤيد استوحى الوصف الذي ذكره من إحدى المجموعات المنحوتة التي تصور بنات نيوبي المعزوّة إلى پراكستيليس أو سكوپاس. ويقال إن هذا التمثال كان قد نُقل إلى روما منذ عهد قريب [بالنسبة لأوڤيد] ونُصِب فى معبد أپوللو فوق تل پالاتينوس.

(١٩) الخيمايرا وحش مشهور له رءوس ثلاث أحدها لأسد والثاني لجدي والثالث لتنين، وتنفث ثلاثتها لهباً، وقد وُلد هذا الوحش من إخيدنا وتيفون.

(٢٠) تروي الأسطورة أنه بعد ذلك توجّهت الإلهة يرافقها بعض الذئاب «ليكوى باليونانية Lykoi» إلى نهر زانثوس حيث استطاعت أن تروي ظمأها وتغتسل هى وابناها. وتكريماً لمرافقيها سُمّيت المنطقة ليكيا.

(٢١) تروي الأسطورة أن الربّة أثينه [منيرڤا] هى التي اخترعت المزمار المزدوج الذي صنعته من غاب بحيرة تريتون. فسخرت منها كل من هيرا وأفروديتي، على أنها لاحظت أنها كلما أمسكت بالمزمار وتأملت نفسها على سطح مياه أحد ينابيع إيدا أصاب وجهها التشوّه فحنقت لذلك، وألقت بالمزمار إلى الأرض مُقْسمة بأن مَنْ يلتقطه سيناله شرّ العذاب. وحدث أن التقطه ساتير اسمه مارسياس برع فى النفخ فيه إلى درجة تحدّى معها أپوللو، فأقيمت بينهما مباراة ظفر فيها أپوللو بجائزة ربات الفنون فى عزف القيثارة. فأمر الإله الفائز بسلخ جلد منافسه. وكان أوليمپوس أحد رفاق مارسياس الأوفياء هو الذي جمع ما تبقّى من أشلائه ودفنها. أما نهر مارسياس فهو من روافد نهر مياندر.

(٢٢) انظر الكتاب الثامن.

(٢٣) أى أن إثم عشق الأب لابنته ليس أبشع فى نظر الشاعر من إثم عشق شقيقة زوجته.

(٢٤) مُسخت فيلوميلا بلبلا، فى حين مُسخت پروكني عصفور جنة يكسو صدره الاحمرار.

(٢٥) الكيكونيس من سكان طراقيا وقد أغار عليهم أوديسيوس أثناء عودته من طروادة لوقوفهم فى صف پريام ملك طروادة ضد الآخيين.

(٢٦) كان كالاييس وزيتيس من بين ملاّحي سفينة الأرجو، ويرجع الفضل لهما فى تخليص فينيوس من طيور الهارپيس [انظر الكتاب السابع].

(٢٧) سكان أورخومينوس فى بويوتيا نسبة إلى ملكهم ميناس.

تعقيبات الكتاب السابع

(١) الميناسيون [أبناء سلالة ميناس] هم أهل أرجوس، أطلق عليهم هذا الاسم نسبة إلى ميناس جدّهم لأمّهم. وقد أطلق هذا الاسم على چاسون نفسه لأنه كان حفيد ميناس عن طريق أمه ألكيميديه. وكانت پاجاساى بلداً فى خليج پاجاساى جنوب ثيساليا على مقربة من مدينة يولكوس عاصمة مملكة أيسون والد چاسون.

(٢) كان فينيوس ملك طراقيا قد فقأ أعين ابنيه عقاباً لهما على تهمة كاذبة ألصقتها بهما زوجته، فقضى الآلهة أن يفقد فينيوس بصره، وأن تتولّى طيور الهارپيس تعذيبه - وهى طيور ذات رؤوس نساء آدمية - بعرض الطعام عليه ثم إبعاده عن فمه حينما يقبل على تناوله.

(٣) ينحدر نهر فاسيس من القوقاز ويروي إقليم كولخيس وهى چورچيا الحالية، ويصب النهر فى شرق البحر الأسود.

(٤) الفروة الذهبية هى فروة الكبش الذي حمل فريكسوس وشقيقته هيلي عبر البحر، وكانت هيلي قد سقطت فى مضيق الدردنيل الذي أضفت عليه اسمها. وأدرك فريكسوس كولخيس وحده حيث قدّم الكبش قرباناً للإله أريس [مارس].

(٥) كان على بحّارة سفينة الأرجو أن يتجنّبوا صخوراً تطفو على سطح الماء عند مدخل البحر الأسود تسمى السمپليجاديس، كانت تلتصق بالسفن وتهوي بها إلى قاع البحر.

(٦) أى هيكاتي إحدى ربات القمر والعالم السفلي فى آن معاً، راعية الساحرات ومفترقات الطرق التي تبثّ الذعر فى نفوس المسافرين ليلاً. وكانت تُصوَّر على شكل ثلاثة شخوص واقفة ظهراً إلى ظهر تمثّل الحالات الثلاث المتوالية للقمر، أى الهلال ثم البدر ثم المحاق، لهذا اشتهرت هيكاتي باليقظة لأنها تستطيع الرؤية فى اتجاهات ثلاثة فى الوقت نفسه.

(٧) هو أييتيس والد ميديا وابن الشمس.

(٨) الپيلازجيون اسم أول قبائل عاشت فى اليونان القديمة، وأصبحت هذه التسمية تُطلق فيما بعد على اليونانيين عامة.

(٩) ليست قصة الاستيلاء على الفروة الذهبية هنا إلاّ توطئه لسرد أعمال ميديا السحرية، وهو ما جعل أوڤيد يطرح جانباً قصة ملاّحي الأرجو.

(١٠) سبق أن ذكرنا أنه شاع بين اليونانيين القدماء أن مصدر خسوف القمر هو محاولات الساحرات التحكّم به، وأن إبطال فعل السحر يتم عن طريق صكّ الصنوج البرونزية. أما نسبة الصنوج إلى مدينة تيميسا فليس مؤكداً، وقد يكون المقصود هو مدينة تاموسوس فى قبرص، وهى مستعمرة فينيقية قديمة تجاورها مناجم النحاس.

(١١) أو إله الشمس أبو أييتيس.

(١٢) هذه الجبال هى التي تكتنف سهول ثيساليا.

(١٣) ذُكرت أسماء كافة هذه الأنهار فى الكتاب الأول. أما بويبي فهى بحيرة فى ثيساليا عند سفح جبل پيليون.

(١٤) سترد هذه القصة تفصيلاً فى الكتاب الثالث عشر.

(١٥) ربّة الشباب وهى چوڤنتا عند الرومان، وتقابل هيبي عند الإغريق.

(١٦) مسخت حوريات البحر كيرامبوس جعراناً لمحاولته هتك أعراضهن وخلّفنه فوق جبل پارناسوس.

(١٧) فى آسيا الصغرى.

(١٨) يعني أوفيد شواطىء جزيرة ليسبوس، وهو يورد هذه القصة بالتفصيل فى الكتاب الحادى عشر.

(١٩) المقصود هنا جبل إيدا فى فريجيا.

(٢٠) كان رعاة البقر يطاردون ثيونيوس بن باكخوس لأنه كان سرق منهم عجلاً فحوّله أبوه إلى شكل صياد حتى لا يتعرفوا عليه، وفى الوقت نفسه حوّل العجل إلى وعل.

(٢١) المقصود هنا مدن مملكة طروادة.

(٢٢) مايرا لقب مشتق من كلمة يونانية معناها الكلبة، وهى إشارة إلى هيكوبا التي تحولت إلى كلبة بعد مصرع أبنائها [انظر الكتاب الثالث عشر].

(٢٣) مسخت چونو سيدات كوس بقرات بعد أن قتل هرقل يوريپيلوس بن نپتون.

(٢٤) كان أهل رودس يُسمَّوْن التلخينيين نسبة إلى تلخينيا وهو لقب من ألقاب چونو. أما ياليسوس فكانت مدينة فى شمال جزيرة رودس يقال إن أهلها كانوا مهرة فى صهر المعادن وفى السّحر أيضاً.

(٢٥) ألسيداماس هو أحد مواطني كارثايا وهى مدينة فى جنوب جزيرة كوس فى بحر إيجه، وكانت إبنته كتيسيلا قد تحولت إلى يمامة لأن أباها خطبها إلى رجل آخر غير الذي وعده بخطبتها من قبل.

(٢٦) ليس المقصود هنا وادى تمپي المشهور وإنما إقليم آخر فى بويوتيا. أما سيجنوس المذكور هنا فهو غير سيجنوس الوارد فى الكتاب الثاني وغير ابن پوسيدون [نپتون] الواردة قصته فى الكتاب الثانى عشر.

(٢٧) فيليوس شاب بويوتي كان يعشق سيجنوس بن هربيه عشقاً محرّماً، وقد ازدرى سيجنوس هذه العلاقة قائلاً لفيليوس إنه لو أراد الفوز بعطفه فعليه أن يفتك بأسد ضخم وأن يقتنص نسرين كبيرين على قيد الحياة وأن يقدم إلى چوپيتر قرباناً ثوراً برّياً كان ينشر الرعب فى الريف كله. واستطاع فيليوس تحقيق ذلك كله بالحيلة وبنصائح هرقل، الأمر الذي جعله ينسى عشقه لسيجنوس.

(٢٨) بليورون مدينة فى جنوب إيتوليا.

(٢٩) كومبي إبنة أوفيوس هى أول من ابتكر الدرع النحاسي. وقد تآمر أبناؤها على قتلها فمسختها الآلهة طَيْراً كى تنجو من هذا المصير.

(٣٠) تواجه جزيرة كالاوريا شواطىء أرجوس، وقد اشتهرت لانتحار ديوسثينيس فيها بالسّم، ولا يَرِدُ تحوّل ملك كالاوريا وملكتها إلى طائرين إلا فى نص أوفيد.

(٣١) ليتو أم أپوللو وديانا.

(٣٢) كان يوميلوس قد قتل ابنه بوتريس فى لحظة غضب فحوّله أپوللو إلى طائر عقاباً له.

(٣٣) أصل هذه الأسطورة مجهول تماماً.

(٣٤) كان بيريفاس ملكاً فى أتيكا قبل كيكروپس واشتهر بالعدل، وعَبَدَه القوم مثلما كانوا يعبدون زيوس [چوپيتر] الذي نقم عليه إثر ذلك فحوّله إلى نسر صار منذ ذلك الوقت ملحقاً بشخص أپوللو، أما زوجته فيني فقد مسخها عقاباً بحرياً.

(٣٥) ألكيوني هى إبنة القرصان سكيرون دفعها أبوها إلى الماء فحوّلها الآلهة إلى طير القاوند.

(٣٦) يمر أوفيد بسرعة غير متوقعة على ختام أسطورة ميديا التي انتقمت من چاسون بعد أن تركها من أجل كريوسا بنت كريون ملك كورنثه بأن أرسلت إلى العروس الجديدة وشاحاً وتاجاً مغموسين فى السّم، ثم أشعلت النار فى القصر وذبحت أولادها من چاسون وهربت. وهذا هو موضوع مأساة ميديا عند أوريپيديس وعند سنيكا، بل وعند أوفيد نفسه.

(٣٧) تروي الأسطورة أن هذا الثور هو نفسه الذي قبض عليه هرقل ثم ساقه إلى يويسشيا حيث عتقه. ويقال إن الثور قد عبر برزخ كورنثه وبلغ أتيكا وأخذ يثير الرعب بين الناس. وجاء ثيسيوس فروّضه وقادة إلى أثينا ثم قدمه قرباناً إلى الإله أبوللو فى دلفي.

(٣٨) كانت أنثى الخنزير البرّي تثير الرعب بين أهل كروميون الواقعة إلى جوار كورنثه. وكانت هذه الخنزيرة حيواناً خرافياً ولدت من تيفون وإخيدنا واستطاع ثيسيوس أن يقضي عليها.

(٣٩) كان پيريفيتيس بن ڤولكانوس [هيفايستوس] يقرع كل من يمرّ به بهراوته النحاسية الضخمة، واستطاع ثيسيوس أن يتغلب عليه ويسلبه سلاحه الرهيب.

(٤٠) كان اللص پروكروستيس يتصيّد المسافرين المارين بمدينة إليوسيس ويرغمهم على الاستلقاء فوق أريكته ويشدّ أطرافهم ثم يبتر من أجسامهم ما يجعلها تطابق حجم الأريكة. وقد تغلب عليه ثيسيوس وأرغمه على معاناة العذاب نفسه الذي كان يذيقه الآخرين.

(٤١) كان سيرسيون بن نپتون يتحدّى المارة بإليوسيس إلى المصارعة فيقضي عليهم، وقد صارعه ثيسيوس وسحقه فى الأرض.

(٤٢) ألكاثوى اسم قديم لميجارا مشتق من اسم أحد ملوكها الذي يدعى ألكاثوس، وتروي الأساطير أن أحد ملوك ألكاثوى القدامى كان ليلكس الذي وفد عليها من مصر. ويسمّى شعب هذه المنطقة بالليليجيين نسبة إلى ليلكس.

(٤٣) «مينوس» لقب يطلق على الشخصية الملكية فى كريت لا على شخص بذاته، مثل كلمة «فرعون» المصرية. فمنذ فجر التاريخ القديم كان ثمة تمايز بين شخصين يحملان اسم مينوس أحدهما هو ابن أوروپا الأسطوري والآخر حفيده زوج پاسيفاى وعاهل دولة البحار، غير أن أغلب الشعراء يخلط بينهما. أما الحضارة المعروفة بالمينويّة فقد ازدهرت فى كريت إبان النصف الأول من الألف الثاني قبل المسيح. ومن آثارها الشهيرة ما اكتشف فى كنوسوس وماليا على الشاطىء الشمالي وفيستوس فى جنوب الجزيرة. وامتد سلطان كريت حتى مدن أرجوس وفى كافة جزر الأرخبيل.

(٤٤) لم تُذكر قصة آرنيه إلاّ فى هذا النص.

(٤٥) أطلق أياكوس بن إيجينا وزيوس اسم أمه إيجينا على جزيرة أوينوپيا.

(٤٦) كانت دودونا فى إپيروس شمالي اليونان تزهو بأهم معابد زيوس فى كافة أنحاء اليونان، وكان التعبير عن الإرادة الإلهية فيها يتم من خلال حفيف أوراق شجر البلوط المقدس.

(٤٧) تعنى كلمة ميرميس المشتقة منها كلمة «ميرميدون» باليونانية «النملة».

(٤٨) انظر الكتاب السادس.

(٤٩) كانت فكرة غيرة الآلهة من سعادة البشر المفرطة مألوفة عند القدامى، وكانت نيميسيس ربة الانتقام الإلهي تعاقب كل من يزهو من البشر بسعادته ويختال. وقد أعطى أوڤيد مثالاً لهذا الانتقام فى قصة نيوبي فى الكتاب السادس.

(٥٠) لا يوجد هذا البيت فى الكثير من مخطوطات كتاب أوڤيد ويعتبر دخيلاً على النص ولا تبدو له أية صلة سواء بما سبقه أو بما لحقه. والسفنكس وحشٌ له رأس امرأة وصدرها، وجسد كلب، وذيل ثعبان، وجناحيْ طائر، ومخالب أسد، وصوت آدمي، ظهرت إلى الوجود-كما يقال-إثر العلاقة بين العملاق تيفون والوحش إخيدنا (نصفها الأعلى لامرأة فائقة الجمال والأسفل ذيل ثعبان). وقد أطلقت الإلهة چونو «السفنكس» إلى المنطقة المحيطة بطيبة لتوقيع العقاب على أسرة كادموس التي عانت الكثير من جراء اضطهادها لها وكراهيتها الأبدية، وإذا «السفنكس» تنشر الذعر فى أنحاء بويوتيا من خلال الألغاز والأحاجي التي كانت تطرحها على السكان ثم التهامهم إذا عجزوا عن تفسيرها. وقد تنبأ الهاتف الإلهي لأهل طيبة بأن «السفنكس» ستقضي على نفسها بنفسها عندما يقف شخص ما على تفسير صحيح لأحد

الألغاز التي تطرحها، وخلاصته: ما هو الحيوان الذي يسير على أربع صباحا، وعلى اثنين ظهرا، وعلى ثلاث مساء؟ فأعلن كريون ملك طيبة بأنه على استعداد للتنازل عن عرشه وعن شقيقته چوكاستا زوجةً لمن يستطيع إنقاذ وطنه من بطش هذا الوحش الرهيب بالاهتداء إلى تفسير سليم لهذا اللغز، وإذا أوديپ يوفّق إلى تقديم التفسير الصحيح، وهو أن الإنسان هو الذي يحبو على يديه وقدميه طفلا في فجر حياته، ويسير على ساقيه منتصبا خلال ظُهر حياته، ويسير متوكّئا على عصاه في شيخوخته عند غروب حياته. وما كادت السفنكس تسمع هذا التفسير حتى ألقت بنفسها من حالق وزفرت آخر أنفاسها.

تعقيبات الكتاب الثامن

(١) السيرتيس هى تلك المياه الضحلة بالقرب من شواطىء تونس وطرابلس وبرقة والسيرتيس الكبرى [وتقابل خليج سدر اليوم بين بنغازي ومسراطه] وهى الجزء الجنوبي الشرقي لهذه المنطقة الخطرة أمام الملاحة بسبب الشط الرملي المختفي تحت سطح البحر. والسيرتيس الصغرى [وتقابل خليج قابس] هى الجزء الجنوبي الغربي منها. وثمة من يقول إن خطورة هذه المياه ليست سوى شائعة أطلقها التجار الفينيقيون حتى يفرضوا احتكارهم للتجارة فى هذه المنطقة حارمين منافسيهم. فالمعروف أن هذه السُّمعة لم تمنع ازدهار التجارة فى جزيرة مييننكس [جربه] التي اشتهرت بتجارة الصبغات الأرجوانية وميناء تاكابي [قابس الحديثة] وميناء تاباروra [صفاقس الحديثة].

(٢) هامت پاسيفاى زوجة مينوس ولعاً بثور ظهر بغتة من المياه بمشيئة الإله نپتون فأمرت الفنان دايدالوس بأن يصنع بقرة جوفاء من الخشب كانت تتخفّى داخلها كى تضاجع الثور الذي أنجبت منه إبناً هو المينوطور [الوحش ذو رأس الثور وجسد الإنسان]. وإذ اشمئز الملك مينوس من رؤيته أمر بسجنه فى المتاهة. ويبدو أن أسطورة البقرة الخشبية من أصل مصري، إذ يذكر هيرودوتوس فى الكتاب الثاني من تاريخه قصة تحنيط إبنة منكاورع ودفنها فى تمثال خشبي أجوف لبقرة مطلية بالذهب.

(٣) يُرجع أوڤيد كلمة كيريس - دون أدلّة - إلى الفعل اليوناني «خيرين» الذي يعني قطع أو جزّ. ولا يزال اسم هذا الطائر البحري «كيريس» معروفا فى اللغات الحيّة.

(٤) ثمة رأى يقول إن دايدالوس هو اسم أسطورى يعني المهندس الصانع، ويقال إنه من أهل أثينا وإنه ينتمي إلى أسرة آل إيريختيوس. وكانت ثمة عشيرة فى أثينا اسمها آل دايدالوس، والراجح أن دايدالوس الحقيقي هو الذي قتل ابن أخته، أما دايدالوس الأسطوري فهو مبدع الفنون بما فيها النحت والعمارة وحفر الخشب والعاج، وقد نُسبت إليه تماثيل عدة ترجع إلى العهد السحيق، فسُمّى أوائل المثّالين فى أثينا بأبناء دايدالوس. وليس هناك دليل تاريخي على قصته التي وقعت أحداثها فى كريت إلاّ أنها تدل على الأهمية الكبرى التي كان يعطيها الإغريق للحضارة الكريتية فى تاريخ ثقافتهم وفنونهم.

(٥) يتيح لنا هذا الوصف للمتاهة أن ندرك الأسس التي بُنيت عليها الأسطورة، فقصر مينوس الذي تم الكشف عنه فى كنوسوس عبارة عن مجموعة لا تحصى من القاعات ذات المنافع المختلفة، فمنها قاعة العرش وقاعة العبادة وقاعة الحريم وقاعة الجلوس والمخازن وما إلى ذلك، وكلها متصلة بعضها ببعض الأمر الذي لابد قد أصاب بالحيرة الإغريق الذين ألفوا بساطة تصميم مبانيهم. وقد تكون كلمة «لا بيرنثوس» أي المتاهة مشتقة من الكلمة اليونانية فى لهجتها الكارية [لابريس] التي تطلق على البلطة المزدوجة. ومعروف أن لهذه البلطة دوراً كبيراً فى العقيدة الكريتية فَصُوَرُها منقوشة على أعمدة المعابد وعلى الحشوات المحفورة. وقد تكون المتاهة هى «قصر البلطة» دون أن يُقصد بها متاهة، غير أن هذا الاشتقاق مازال موضع جدل وبحث. ويُرْجع البعض الثور إلى أصول أسطورية مصرية إلاّ أنه موجود فى الرسوم الجدارية لقصر كنوسوس فى مشاهد لمسابقات الثيران. وقد عثر فى حفائر كنوسوس على رؤوس ثيران من الفضة ذوات قرون من الذهب انبثقت منها البلطة المزدوجة المشار إليها، ومايزال الأمر يكتنفه الغموض.

(٦) المعروف أن مينوس كان قد فرض على أهل أثينا جزية سنوية من سبعة شبان وسبع فتيات يُقَدَّمُون غذاء للمينوطور. وكان ثيسيوس قد تطوّع بمحض إرادته ضمن أفراد هؤلاء الضحايا كى يقضي على الوحش. أما ديا فهو اسم قديم لجزيرة ناكسوس.

(٧) كوكبة الإكليل الشمالي (أو الفكة) الموجود بين نجم الجاثي على ركبته [أو نجم الراقص] وكوكبة حامل الثعبان [الحورية].

(٨) يوصي دايدالوس هنا ابنه بنصائح شبيهة بتلك التي أوصى بها فويبوس ابنه فايثون فى الكتاب الثاني.

(٩) يخطىء أوڤيد هنا كما أخطأ فى وصفه طيران ميديا فى الكتاب السابع، إذ تقع ساموس إلى الشمال الشرقي من جزيرة إيكاريا التي سقط بجوارها إيكاروس، فى حين تقع ديلوس شمال پاروس، وجزيرتا لبنثوس وكاليمني شرقي ناكسوس.

(١٠) يُروي أن دايدالوس قد التجأ إلى صقلية محتمياً بالملك كوكالوس ملك كاميكوس [أجريجنتوم الآن]، فجاءه مينوس بأسطول ضخم يطالبه بالفنان الهارب. وتظاهر كوكالوس ودعا مينوس إلى وليمة حيث أزهق روحه غرقا فى حمام من الماء المغلي بمساعدة بناته. وكانت الأسطورة هذه موضوع مأساة مفقودة لسوفوكليس اسمها «كاميكوى».

(١١) كاليدون مدينة فى إيتوليا على ضفة نهر إيفينوس وكان ملكها أوينيوس هو والد ملياجر.

(١٢) سيريس أو كيريس إحدى ربات اللاتينيين تقوم بإنماء الزرع وحمايته.

(١٣) يبدأ أوڤيد هنا سرد أسماء الأبطال الذين اشتركوا فى صيد الخنزير البرّي مثلما فعل حين سرد أنواع الكلاب فى مصرع أكتايون [الكتاب الثالث]، ويرى البعض أن هذا الميل إلى السرد لم يكن مجرد نزعة انفرد بها أوڤيد بل إنه اقتبسه عن مصدر أدبي مجهول الاسم.

(١٤) انظر الكتاب الثانى عشر (١٨٩).

(١٥) كان أمفياراووس الأرجوسي عرّافاً مشهوراً تنبأ بالموت لكل مَنْ يشترك فى الحرب ضد طيبة. وكانت زوجته إيريفيليه قد فُتنت بالعقد الذهبي الذي أهداه إليها پولينيكيه وكان فى الماضي عقد هارمونيا زوجة كادموس. وعندما قرر أدراستوس ملك أرجوس وشقيق إيريفيليه أن يشنّ الحرب ضد طيبة بناء على رغبة پولينيكيه طالب أدراستوس صهره أمفياراووس أن يخرج معه إلى القتال فاختبأ أمفياراووس فى بيته لأنه يعلم سلفاً أنه مُلاق حتفه فى المعركة حسب نبوءته هو نفسه، فأجبرت إيريفيليه زوجها على الاشتراك فى هذه الحرب. وبعد أن لبّى طلبها صاغراً أرسل چوپيتر صاعقة شقّت الأرض أمام قدميه فابتلعته، ويقال إنها حيلة لجأ إليها چوپيتر كىْ يضمن له الخلود. ومازال أطلال معبده الذي كان يتنبأ فيه بالغيب قائمة بجوار قرية أوروپوس فى أتيكا.

(١٦) هى أتالانتا من تيجيا [فى أركاديا] بنت ياسوس، تركها أبوها فى العراء لأنه كان يأمل أن ينجب ولداً مكانها، فأرضعتها دبّة وعاشت على الصيد فى الغابات [انظر الكتاب العاشر].

(١٧) اسم جبل فى أركاديا.

(١٨) هن ربّات الأقدار كلوثو ولاخيسيس وأتروپوس.

(١٩) تقوم ربّات الأقدار برعاية قوانين الأسرة التي تحرّم قتل الأقارب، وقد قتل ملياجر خالَيْه فاستحق عقابهن.

(٢٠) يفصل نهر أخيلؤوس بين نهر أركانانيا وإيتوليا فى غربي اليونان، ويزداد فيضانه حين يصل غرب كاليدون، ولم يكن هذا النهر فى الواقع على طريق عودة ثيسيوس إلى أثينا. ويعدّ هذا النهر أطول أنهار اليونان وأغزرها مياهاً.

(٢١) هو پيريثوس نديم ثيسيوس الذي رافقه حينما هبط إلى العالم السفلي. [انظر قصة زفافه إلى هيپوداميا وما وقع من عراك بين اللاپيث والقنطور فى الكتاب الثانى عشر].

(٢٢) لا علاقة بين ليلكس فى هذا الفصل وليلكس الوارد فى الكتاب السابع .

(٢٣) أرخبيل من الجزر الصغيرة الآهلة عند مصب نهر أخيلؤوس على الشاطىء الغربى لأركانانيا ، ومن وقت لآخر كان الغرين يقوم مقام الجسر بين هذه الجزر .

(٢٤) لم يكن پيريثوس كافراً بالآلهة مثل أبيه إيكسيون الذي حاول ذات مرة هتك عرض چونو . وكان پيريثوس قد هبط إلى العالم السفلي فى رفقة ثيسيوس لكى يختطف پيرسيفوني ، غير أن هاديس اعترض طريقه وكبّله بالأغلال . واستطاع هرقل فيما بعد أن يفك أسره وأن يعيده إلى الأرض مع صديقه ثيسيوس .

(٢٥) ليلكس هو ابن پيثيوس بن پيلوپس بن تانتالوس الذي وَلِيَ عرش فريچيا ، ثم لجأ إلى اليونان بعد أن بعثته الآلهة من الموت [انظر الكتاب السادس ٤٠٣ وما بعد] .

(٢٦) هى منسترا . وليست القصة التي يرويها أوڤيد عن عذاب الجوع الذي فرضته الإلهة ديميتير على إيريزيختون إلاّ توطئة تفسّر كيف تلقت منسترا من نپتون هبة تحوّل شكلها من حال إلى حال . وكان زوجها أوتوليكسوس بن هرمس قد تلقى عن أبيه القدرة على سرقة ما يريد دون أن يُضبط متلبساً وذلك لقدرته أيضاً على التشكّل كيفما يريد ، وكان أبا لأنتيكليا أم أوديسيوس . ويقال إن مكر أوديسيوس كان موروثاً عن جدّه هذا [انظر الكتاب الحادي عشر والكتاب الثالث عشر] .

(٢٧) لا غرو فسيريس هى ربّة الخصوبة والحصاد الوفير .

(٢٨) المركبة التي تجرّها التنانين المجنّحة ، وكانت ديميتير [سيريس] قد أعطتها من قبل لترپتوليموس ليمضي بها إلى البشر كاشفاً عن خيرات الأرض . وقد شاع تصوير ترپتوليموس فوق مركبته فى الفنون الإغريقية .

(٢٩) حورية الجبال والهضاب .

تعقيبات الكتاب التاسع

(١) نيسوس أحد القنطوري وهو ابن إيكسيون، أنجبه من الغمامة التي أرسلتها چونو بينها وبين إيكسيون حين حاول الاعتداء عليها. وقد نال إيكسيون عقابه فى العالم السفلي بأن شدّته الآلهة على عجلة تدور بلا انقطاع.

(٢) كان هرقل قد غمس سهامه فى الدم السام للهيدرا الليرناوية. عن تفاصيل أسطورة هرقل وأعماله الإثنى عشر راجع المقدمة التي صدّر بها د. أحمد عتمان ترجمته لمسرحية سينيكا «هرقل فوق جبل أويتا» (من المسرح العالمي. الكويت عدد ١٣٨ مارس ١٩٨١ ص١٠-١٠٧).

(٣) أويخاليا اسم حملته ثلاث مدن يونانية أحدها فى ثيساليا والثانية فى ميسينيا والثالثة فى يوبويا. وقد ارتبطت أسطورة الملك يوريتوس بن أپوللو بهذه الأخيرة، وكان رامي سهام لا يبارى وعد بأن يزوّج ابنته ممن يقهره فى مباراة الرماية ففاز هرقل، غير أن يوريتوس وأبناءه أبوا تسليم يولي بنت يوريتوس إليه وفاء بالوعد، فغضب هرقل وأباد المدينة وقتل الملك وأبناءه وأخذ يولي أسيرة.

(٤) كان للإله چوپيتر معبد على رأس كينايون أو كينايوم إلى الشمال الغربي من يوبويا.

(٥) تتذكر ديانيرا مصرع خالىْ ملياجر على يديه انتقاماً لإهانتهما لأتالانتا [انظر الكتاب الثامن].

(٦) يبدأ أوڤيد هنا استعراض مآثر هرقل. وكان بوزيريس ملك مصر يذبح كل غريب يفد إلى بلاده قرباناً للآلهة، وعند وصول هرقل إلى مصر كاد يلقى نفس المصير غير أنه حطّم قيوده وقتل بوزيريس وابنه وحاشيته.

(٧) يوريسثيوس هو ملك أرجوس الذي فرض على هرقل - بتدبير من چونو - القيام بالمغامرات الإثنى عشر التي وردت على لسان هرقل خلال الفقرات السابقة.

(٨) كان فيلوكتيتيس بن بوياس أعزّ صديق لهرقل. وبعد أن عاون هرقل بإعداد المحرقة وهبه هرقل قوسه وسهامه. واشترك فيلوكتيتيس فى حملة الآخيين ضد الطرواديين، غير أن ثعباناً أرسلته چونو لدغه فى قدمه فتركه رفاقه الإغريق فى جزيرة لمنوس لاشمئزازهم من رائحة نتن الصّديد الصادرة عن جرحه. وعندما قال العرّاف إن طروادة لن تستسلم بغير سهام هرقل التي كان يحتفظ بها فيلوكتيتيس أوفد الإغريق أوديسيوس ونيوپتوليموس وديوميديس لإحضاره. ولسوفوكليس مسرحية تتناول هذا الموضوع.

(٩) كانت اللحظات الأخيرة من حياة هرقل موضوع مأساة التراخينيات «نساء تراخيس» لسوفوكليس.

(١٠) المقصود به هيلوس أكبر أبناء هرقل وديانيرا. إذ حاول يوريسثيوس بعد موت هرقل أن يخطف أبناءه الذين كانوا قد التجأوا إلى كيكس ملك تراخيس الذي أرسلهم إلى أثينا حماية لهم فهاجم يوريسثيوس أتيكا مطالباً ثيسيوس بهم إلاّ أن الأخير هزم يوريسثيوس. وهذه القصة موضوع مأساة «أبناء هرقل» لأوريپيديس.

(١١) ليس المقصود هو نبات اللوتس العطري بل المقصود هو شجرة العنّاب واسمها باليونانية اللوتيس نسبة إلى الحورية لوتيس. ومن هنا جاء اللبس من تسمية هذا النبات باللوتس صنو الماء فى نص أوڤيد.

(١٢) تزوج هرقل هيبي ابنة چونو بعد أن تحول إلهاً فى السماء.

(١٣) كان أمفياراوس قد أوصى ابنه ألكمايون بأن يثأر له فقتل أمه. وقد فقد ألكمايون صوابه نتيجة لذلك وطاردته ربات الانتقام كما ورد فى «مأساة السبعة ضد طيبة»، ففر من أرجوس ملتجئاً إلى أركاديا حيث تزوج من ألفيسيبويا إبنة الملك

وأمهرها قلادة أمّه الذهبية. وازداد جنونه بمرور الأيام فقصد الهاتف الإلهي البيثي الذي أمره بأن يقصد مصب نهر أخيلووس حيث تزوج كاليرهوى بنت إله النهر التي طلبت منه أن يهديها القلادة الذهبية، فعاد إلى أركاديا ليسترد القلادة من زوجته الأولى، لكن أصهاره قتلوه ووضعوا القلادة فى معبد أبوللو بدلفي. فتضرّعت كاليرهوى إلى چوپيتر كى يتيح لأبنائها الثأر لأبيهم قبل إدراكهم سنّ الرشد، الأمر الذي وافق عليه ربّ الأرباب.

(١٤) هى أورورا التي مُنح زوجها تيثونوس الخلود دون أن يظفر بالشباب الأبدي. ويبدو أن الصواب قد جانب أوڤيد حين نسب أورورا إلى المارد پالاس بينما هى فى واقع الأمر وفق رواية هزيودوس ابنة المارد هيپيريون.

(١٥) ابن چوپيتر من إلكترا بنت أطلس، وكان يحظى بعطف سيريس التي عشقته وأنجبت منه پلوتوس فغضب عليه چوپيتر وسلّط عليه صاعقة قتلته.

(١٦) مينوس ورادامانثوس وأياكوس أبناء چوپيتر من أوروپا.

(١٧) مدينة ميليتوس فى آسيا الصغرى التي كوّنها طمي نهر الماياندر.

(١٨) زوّج إله الريح أيولوس أبناءه من بناته الست.

(١٩) هنا نوع من البلاغة اللفظية، فكلمة SALUS تحمل معنى السلام كما تحمل معنى السلامة فى الوقت نفسه، وهى تورية قصدها الشاعر.

(٢٠) أسس كاونوس مدينة باسمه فى كاريا بآسيا الصغرى على ضفاف نهر كاليبس بالقرب من البحر.

(٢١) الثيرسوس عصا تنتهى بحلية على شكل ثمرة صنوبر هى صولجان باكخوس.

(٢٢) بوباسوس مدينة فى كاريا شرقي كنيدوس.

(٢٣) الاسم القديم للشعوب القاطنة فى كاريا بآسيا الصغرى.

(٢٤) ذكر هزيودوس أن الخيميرا هى إبنة تيفون وإخيدنا، ومن ثم كانت أختاً للكلب كيربيروس وللأفعوان الليرناوي. وأغلب الظن أن وصف هذا الكائن الخرافي يرجع إلى أصول شرقية بعيدة.

(٢٥) روى أوڤيد أسطورة إبنة إيناخوس التي رحلت إلى مصر وتحولت إلى الإلهة إيزيس [انظر الكتاب الأول]. وتدل الإشارة الواردة فى النص على إقبال الرومان على العقائد المصرية، والمعروف أن إيزيس كانت تُمثّل بقرص القمر فوق رأسها بين قرنين مثلما كانت تُمثّل إيو. وفى وصفه لإيو نسب أوڤيد سنابل القمح والصّل لها كما كانت الحال بالنسبة للآلهة والفراعنة عند المصريين القدماء.

(٢٦) هو حور [حورس] بن إيزيس وقد سمّاه الإغريق هارپوقراطيس وصوّروه دائماً طفلاً يضع أصبعه فى فمه.

(٢٧) پاسيفاى زوجة مينوس ملك كريت.

(٢٨) هيمينايوس هو الإله الجميل راعي الزواج وأحفال الزفاف. وقال البعض إنه ابن أبوللو من إحدى ربّات الفنون، وادّعى البعض الآخر أنه ابن باكخوس وڤينوس، ويصوَّر حاملاً شعلة الزواج وإكليل العرس وطرحة الزفاف.

(٢٩) مدينة غرب الإسكندرية [ربما هى مرسى مطروح الآن] وكثيراً ما كانت كلمة «پاريتوني» تعنى المصرى أو السكندري لدى الرومان.

(٣٠) جزيرة أمام الإسكندرية أوصلها بطلميوس «المُنقذ» بالمدينة وشيّد فوقها منارة الإسكندرية الشهيرة.

(٣١) يقول نيكاندر إن هناك قصة مشابهة لهذه القصة تدور أحداثها أيضاً فى فيستوس، واسم بطل هذه القصة ليوكيپوس لا إيفيس، وإن الفضل فى تحولها إلى فتى مردّه إلى لاتو لا إلى إيزيس. ويذكر نيكاندر بهذه المناسبة اثنين تمتعا بالقدرة نفسها على التحوّل من أنثى إلى ذكر والعكس وهما تيريزياس وكاينيوس اللاپيثي، وقد ذكر أوڤيد أولهما فى الكتاب الثالث وثانيهما فى الكتاب الثاني عشر.

تعقيبات الكتاب العاشر

(١) كان الزعفران هو لون الطّرحة التي تتلفّع بها العروس عند الرومان والمسماة «فلاميوم».
(٢) اسم شعب طراقي يقطن شواطيء نهر الهيبروس.
(٣) بوابة تيناريوس هى إحدى بوابات العالم السفلي ومكانها برزخ تيناريوس المسمّى الآن برزخ ماتابان بالمورة.
(٤) هو الكلب كيربيروس.
(٥) تانتالوس بن چوپيتر من إحدى الحوريات هو أحد ملوك ليديا، صوّره الشعراء من قديم الزمن بأنه عوقب على سرقته كلباً كان يحبه چوپيتر حباً شديداً، وقيل إنه عوقب على سرقته للنكتار والأمبروزيا من مائدة الآلهة، وقال البعض الآخر إنه عوقب لقتله ابنه پيلوپس وطهى جثته طعاماً للالهة. وثمة رواية أخرى تذهب إلى أنه عوقب لأنه كان يعاشر جانيميديس غلام چوپيتر المحبّب معاشرة شاذة. وكان عقابه بالعالم السفلي أن يظمأ ظمأ شديداً وهو واقف فى بركة ماء يرتفع ماؤها حتى ذقنه فإذا ما قَرُب من فمه انحسر الماء، كما علّقت فوقه غصون مثقلة بالثمار التي تبعدها الريح كلما حاول قطفها.
(٦) كان سيزيفوس شقيقاً لأثاماس وسالمونيوس وابناً لأيولوس والحورية إيناريتا واشتهر بأنه أخبث أمراء عصره. تزوج من ميروپي بنت أطلس وأسّس مدينة إيفيري التي سمّيت كورنثوس فيما بعد. وقد عاقبه الآلهة بعد موته بسبب اعتداءاته المتلاحقة على حقول البلاد المجاورة وكثرة أسلابه وغنائمه. وقال البعض إن چوپيتر هو الذي عاقبه، لأنه عندما مرض وقارَب الموت توسّل إلى زوجته ألا تدفن جثته بعد موته، وعندما بلغ العالم السفلي سمح له الإله پلوتو أن يعود إلى الأرض لكى يعاقب زوجته على تهاونها فى تأدية الطقوس الجنائزية مع الوعد بأن يعود على الفور، وكان سيزيفوس يظن أنه بهذه الحيلة سيعود إلى الحياة من جديد. فأرسل پلوتو الإله مارس بعد اكتشاف حيلته لإعادته إلى العالم السفلي رغم أنفه، وكان عقابه أن يدفع صخرة كبيرة إلى أعلى الجبل ما تلبث أن تتدحرج إلى الوادي فيعود إلى دفعها من جديد بلا توقف. وقد اتخذ ألبير كامو الكاتب الفرنسي الوجودي أسطورة سيزيفوس عنواناً لكتاب فلسفي عن عبث الحياة ولا معقوليتها.
(٧) دخل أورفيوس العالم السفلي عن طريق بوابة تيناريوس وهى كهوف فى جنوب المورة، إلا أنه صعد إلى الأرض من جديد عند بحيرة أڤيرنوس بجوار كوماى فى إقليم كامپانيا بإيطاليا.
(٨) إشارة إلى أسطورة مجهولة الأصل، وقيل إنها قصة إنسان اعترض طريق هرقل خلال عودته من العالم السفلي حاملاً الكلب كيربيروس.
(٩) لا يُعرف شيء عن أولينوس إلاّ أنه مؤسس إحدى مدن آخايا التي تحمل اسمه، أما أولينوس المشار إليه هنا مع زوجته التعسة فغير معروف. وأغلب الظن أنها إحدى الأساطير المعروفة فى عهد أوڤيد عن تحول الناس إلى أحجار وصخور.
(١٠) يتغنّى أورفيوس بعد ذلك مباشرة بحب الآلهة للغلمان جانيميديس وهياكينثوس وكيباريسوس.
(١١) خاؤونيا إقليم فى إيپيروس على شواطيء بحر أيونيا.
(١٢) سجّل أوڤيد هذه الأسطورة فى الكتاب الرابع من «التقويم»، وهى أن كوبيلي أحبت الشاب الفريچي آتيس فخرجت بذلك عن تعاليم الربة العذراء التي ترعاها والتي انتقمت من الشاب بأن أصابته بالجنون ودفعته إلى أن يخصي ذاته، ثم عفت عنه الإلهة وأصبح المرافق الرسمى لكوبيلي. وقد اقترنت عبادته فى روما بعبادتها منذ عام ٢٠٤ق.م. وكانت

شجرة الصنوبر هى شجرته المقدسة التي تلعب دوراً هاماً فى طقوس عبادته . ويذكر أوڤيد هنا تحوله إلى شجرة صنوبر وإن لم تكن هذه القصة ذات أساس معروف .

(١٣) كارثيا مدينة فى جنوب جزيرة كوس .

(١٤) كان شجر السرو ومايزال متصلاً بالطقوس الجنائزية ، وكان يُزرع حول محارق الجثث .

(١٥) كانت سهول فليجرا هى الميدان الذي كُتب النصر فيه لجوبيتر على العمالقة . ويقول البعض إنها فى خلقدونيه بآسيا الصغرى فى حين يعتقد البعض الآخر أنها قريبة من مدينة كوماى فى جنوب إيطاليا ، وتسمى المنطقة غربى نابلي حتى اليوم بالسهول الفليجرية .

(١٦) تنسب بنوة جانيميديس عادة إلى تروس ، ومن ثم فهو شقيق إيلوس لا ابنه كما جاء فى نص أوڤيد .

(١٧) كان يُحتفل بأعياد هياكينثوس فى شهر مايو بمدينة أميكلاى فى لاكونيا على مقربة من أسپرطة .

(١٨) المقصود هنا أماثوس ، وهى مدينة فى جنوب شرقي قبرص اشتهرت بمعبد الإلهة ڤينوس ربة الجزيرة .

(١٩) البروپيتيديس هن بعض نساء قبرص ممن تمرّدن على الإلهة ڤينوس فقضت الإلهة بأن تُوفَد بناتهن إلى الشواطيء لاحتراف الدعارة مع الغرباء . وقيل إنهن قد مُسخن أحجاراً لاستهتارهن بكل إحساس بالفضيلة .

(٢٠) الكيراستيس كلمة ترجع إلى الأسطورة القائلة بأن أول شعب سكن قبرص كان ذكوره ذوي قرون . ومردّ ذلك إلى أن كلمة كيراستيسن معناها ذو القرون . وقد لُقِّبت الجزيرة بهذا الإسم بسبب كثرة نتوءاتها وألسنتها فى البحر .

(٢١) أوفيوسا تعنى جزيرة الأفاعي ، وهو لقب أطلق على جزر عدة فى البحر المتوسط مثل رودس وتينوس . وأوڤيد هو الشاعر الوحيد الذي أطلق هذا اللقب على جزيرة قبرص إذ هو ليس من أسمائها الأصلية .

(٢٢) انفرد أوڤيد بين الشعراء بقصّ هذه الأسطورة التي تتجاهل تماماً وجود كاهنات عاهرات فى معابد ڤينوس .

(٢٣) هيميتوس جبل باليونان شهير بعسله حتى اليوم .

(٢٤) پافوس اسم لمدينة تقع فى الجنوب الغربي لجزيرة قبرص ، وقد عُرفت به الجزيرة بأسرها أحياناً .

(٢٥) اسم لجزيرة خرافية فى البحر الأحمر ، تصوَّر أوڤيد أنها اليمن أو طرفُ شبه الجزيرة العربية التي اشتهرت بالتوابل والأعشاب العطرية .

(٢٦) هن ربّات الانتقام «فورياي» ، ألكتو وميجيرا وتيسيفوني .

(٢٧) عُرف عن الفرس إباحة زواج الأبناء بأمهاتهم ، وعن مصر القديمة إباحة زواج الأخ بأخته وخاصة بين الفراعنة ، وعن أثينا القديمة إباحة زواج الأخ والأخت غير الشقيقين .

(٢٨) جزيرة على شواطيء المورة مكرَّسة للإلهة ڤينوس .

(٢٩) اسم مدينة فى جنوب مقاطعة كاريا على طرف شبه الجزيرة التي تحمل اسم كنيدوس فى آسيا الصغرى ، وكانت ڤينوس ربّتها .

(٣٠) يشير إلى أتالانتا إبنة إسخوينيوس ، وكان بعض كتاب الأساطير يخلط بينها وبين بنت ياسوس التي تحمل الاسم نفسه وبطلة اقتناص الخنزير البرّي فى كاليدون [انظر الكتاب الثامن] . أما إسخوينيوس فكان من أصل بويوتي وهاجر إلى أركاديا والقصتان تدور أحداثهما فى أركاديا ، وقد يكون هذا مصدر اللّبس .

(٣١) كان إخيون أحد العمالقة الذين ولدوا من أسنان التنين التي نثرها كادموس على الأرض [انظر الكتاب الثالث] ، وقد ساعد إخيون كادموس بتشييد طيبة فى اليونان وتزوّج بابنته أجاڤيه فأنجبا پنثيوس .

(٣٢) كان يُحتفل صيف كل عام بذكرى موت أدونيس ، وشاعت هذه الشعائر فى بيبلوس فى فينيقيا إلى أن انتشرت فى أنحاء العالم الإغريقى كله . فكانت النسوة يلتففن حول تمثال ممدّد لأدونيس على محفّة الموت يَنُحْن ويبكين معبّرات عن

حزنهن، وقد وصف ثيوقريطوس واحدة من الحفلات هذه فى الإسكندرية فى إحدى قصائده الرعوية. وكان البعث يلي موت أدونيس، هذا البعث الذي أمر به چوپيتر بناء على التماس ڤينوس. وكان يُحتفل بذكرى بعثه مثلما كان يُحتفل بذكرى موته. ويقال إن أدونيس كان يقضي بعض شهور كل عام فى العالم السفلي بجوار پروسيرپينا [پيرسيفوني] التي عشقته، ثم يخرج إلى ڤينوس ليقضي معها بقية العام. وتعبّر هذه الخرافة عن أطوار الخصوبة فى الكون، وتعاقُب الفصول والمواسم.

(٣٣) تسمّى هذه الزهرة باليونانية «الأنيموني» أى زهرة الريح، وهى مشتقّة من كلمة أنيموس التي تعني الريح.

تعقيبات الكتاب الحادي عشر

(١) انظر الكتاب العاشر.

(٢) اشتهرت هؤلاء النسوة بحمل ثيرسوس من نوع مختلف عن ذلك الذي ينتهي ساقه بثمرة صنوبر، وهو المسمّى «ثيرسو لوخوس» أي الثيرسوس على شكل الحربة وينتهي ساقه بحدّ سهم، وهو الثيرسوس المقصود هنا.

(٣) المدمّة أداة ذات أسنان لجمع العشب أو لتقليب التربة وتسويتها.

(٤) عاصمة مملكة ليديا بآسيا الصغرى اشتهرت بمقاومتها حصار أعدائها من كل الأجناس.

(٥) اسم مدينة أقل أهمية من ساردبس فى ليديا على الطريق بين ساردبس وإفسوس.

(٦) قد يكون هذا هو المثال الوحيد فى الشعر اللاتيني لتجسيد الجبال، فى حين كانت الأنهار كلها تُخَاطَب كأنها أشخاص إلهية.

(٧) قد يكون هذا الوصف لأبوللو ترجمة حرفية لتمثال أبوللو حامل القيثارة المحفوظ بمتحف الفاتيكان.

(٨) الهيلسبونت وسط الدردنيل حيث سقطت هيلّيه إبنة أثاماس ونيفيلي وهى تحاول الهروب برفقة شقيقها فريكسوس على ظهر كبش ذي فروة ذهبية خوفاً من إينو زوجة أبيها.

(٩) المعنى الحرفي لكلمة بانومفايوس هو المكان الذي تنبثق منه رسالة الهاتف أو الوحى الإلهي.

(١٠) هذه إشارة إلى إريختونيوس بن داردانوس وكان يملك حسب قول هوميروس فى الكتاب العشرين من الإلياذة ثلاثة آلاف فرس خارقة للعادة، وجاء بورياس إله ريح الشمال على شكل فحل الجياد فأنجب منهن إثنى عشر مُهرة خالدة كانت تستطيع العدو فوق سنابل القمح دون أن تنثني أعوادها، كما كانت تستطيع الركض فوق زبد الأمواج، وقد طالب هرقل بها ثمناً لتحريره هيزيونيه من الوحش البحري، لكن لا وميدون حاول خداعه بإعطائه جياداً عادية فعاد هرقل إلى طروادة وقتل لا وميدون وكل أبنائه وأسَرَ هيزيونيه.

(١١) كان پيليوس بن أياكوس وشقيق تيلامون قد تزوج من ثيتيس وأنجب منها أخيل.

(١٢) اسم جزيرة بين ردوس وكريت اسمها الآن اسكارپانتو، وقد أطلق اسمها على المياه المجاورة لها، إذ يُدعى البحر بين الجزيرتين البحر الكارپاتي.

(١٣) انظر الكتاب السابع. فوكوس هو ابن إياكوس والحورية پساماثيه، والأخ غير الشقيق لتيلامون وپيليوس، لقى مصرعه عَرَضا على يدى پيليوس.

(١٤) تراخيس مدينة على حدود دوريس ولوكريس عند سفح جبل أويتا. وترجع شهرة هذه المدينة إلى الدور الذي لعبته فى أسطورة هرقل، وقد سميت مأساة «نساء تراخيس» لسوفو كليس التي تقصّ موت هرقل بهذا الاسم لأن الكوروس فيها مكوّن من نساء تراخيس، كما تدور أحداث المأساة فى قصر كيكس ملك تراخيس.

(١٥) اسم مدينة فى بويوتيا سُمّيت باسم الحورية ثيزبي، غير أنه لا يُعْرَفُ شيء عن اقتران المدينة باليمام، إلا أن هوميروس أطلق عليها فى الكتاب الثاني من الإلياذة اسم پوليتريرون أى العامرة باليمام.

(١٦) الحورية پساماثيه ابنة نيريوس هى أم فوكوس.

(١٧) هم أهل ماجنيزيا، وهو اسم أطلق على ثلاثة أقاليم أولها - وهو المقصود هنا في ثيساليا - هو المنطقة الساحلية جنوب مصب نهر پينيوس، وثانيها مدينة في كاريا على ضفاف نهر الماندر، وثالثها في ليديا على سفح جبل سپيلوم حيث تحولت نيوبي إلى صخرة.

(١٨) ذكر أوڤيد أكاستوس بن پيلياس ملك يولكوس بين الفرسان الذين اشتركوا في حملة الصيد بكاليدون [انظر الكتاب الثامن].

(١٩) اكتُشفت بالفعل بعض النُّصُب الجنائزية في جبانات قديمة بأثينا مخصّصة لضحايا البحر، وأغلبها في جبانة كيراميكوس، أي حيّ الفخّارين.

(٢٠) الشمع في الأصل.

(٢١) المقصود هنا أن يديْ ألكيونيه مدنّستان من حيث لا تدري، لأنها لم تؤد شعائر الدفن الواجبة على الأرملة الوفية المسؤولة عن إقامة الطقوس الجنائزية لزوجها المتوفي.

(٢٢) هو الإله سومنوس عند الرومان وهيپنوس عند الإغريق.

(٢٣) بلاد السيميريين بلاد خرافية على حدود العالم المعروف وقتذاك، وقد ذكر بعض القدماء أنها في أقصى الغرب، وذكر البعض الآخر أنها في شمال البحر الأسود.

(٢٤) هو الطائر المعروف باسم القاوند أو الألسهيون، من الطيور البحرية الأسطورية ويشبه طائر النورس.

(٢٥) كبرينيه اسم مشترك لمدينة ولنهر مجاورين لطروادة.

(٢٦) اسم الطير باللاتينية هو «ميرجوس» ويعني الغطّاس كما هو معروف الآن في اللغات الأوروبية، ويميل العرب إلى تسميته بالغمّاس.

تعقيبات الكتاب الثاني عشر

(١) فويبي أو فويبيه هى ديانا ربّة القمر و إلهة الصّيد شقيقة فويبوس «أپوللو» إله الشمس.

(٢) يلاحظ أن هذا هو موضوع مأساة أوريپيدس: «إيفيجينيا فى أوْليس».

(٣) تنبأ عرّاف يوناني بهلاك أول يوناني يهبط على شاطىء طروادة فقدّم پروتيسيلاوس نفسه قرباناً لتلك النبوءة وسقط بسهام هكتور. وكان الإغريق قد أقاموا له قبراً بالقرب من الهيليسپونت، ومن الغريب أن شاهد هذا القبر الذي يسجل اسمه قد اكتُشف مؤخرا فى حفائر طروادة.

(٤) انظر الكتاب الحادي عشر.

(٥) ليس المقصود هنا الدرع الذي أعدّه هيفايستوس نزولاً على إرادة ثيتيس لابنها أخيل والذي وصفه هوميروس فى الكتاب الثامن عشر من الإلياذة، وإنما المقصود درع مصنوع من طبقات من جلد الثيران وصفه هوميروس منسوباً إلى كل من أوديسيوس وأجاكس [انظر مستهل الكتاب الثالث عشر].

(٦) يسرد أخيل أشهر مآثره منذ أن بدأ الإغريق فى حصار طروادة، وكانت ليرنيسوس مدينة فى مملكة ميزيا بآسيا الصغرى، وتنيدوس جزيرة صغيرة تقابل الشاطىء الطروادي، وأطلق أوڤيد على ثيبيه اسم طيبه، وهى مدينة قائمة على سفح جبل پلاكوس فى ميزيا، وكانت عاصمة مملكة إيتيون والد أندروماخي الذي قتله أخيل مع أبنائه، أما الكاياكوس فهو اسم نهر فى ميزيا.

(٧) كان لنسطور أحد عشر أخاً قتلهم هرقل مع أبيهم، ولم يبق من الأسرة سوى نسطور فمنحه الإله أپوللو الحق فى أن يحيا مجموع عدد السنين التي كان مقدّرا أن يحياها إخوته لو استكملوا أعمارهم. لذلك يقال إنه عاش ثلاثمئة سنة.

(٨) هذه بطبيعة الحال أمنية بعيدة عن التحقيق، يقصد بها نسطور الإشادة بقوته وبأسه أيام شبابه، فيزهو بأنه لو كانت حرب طرواده قد وقعت قبل موعدها فى تلك الآونة لكان قد أبلى فيها أحسن البلاء.

(٩) ديفوبوس هو شقيق هكتور، وپوليداماس هو ابن پانثوس وكلاهما مذكوران فى الإلياذة. وقد اتخذت الإلهة أثينه شكل ديفوبوس لتُطمئنَ هكتور الذي كان يطارده أخيل ولتُعيده إلى المعركة حيث كان مقدّراً له أن يموت. أما پوليداماس فهو الذي نصح هكتور بالحرص ولم يستمع الأخير إلى نصحه.

(١٠) يشبّه أوڤيد هنا پاريس بامرأة احتقاراً لشأنه.

(١١) الثيرمودون نهر صغير يصبّ فى البحر الأسود ويسري خلال بلاد الأمازونات فى پونتوس على شاطىء البحر الأسود، وكانت مليكتهن پنثيسيليا قد جاءت لنجدة الطرواديين فالتقت فى المعركة بأخيل الذي قضى عليها.

(١٢) ڤولكانوس أو هيفايستوس هو إله النار والحدادة، وهو الذي صقل أسلحة أخيل وبذلك يكون قد أعدّه للقتال كما حرقه فيما بعد بلهيبه فوق محرقة الموتى.

تعقيبات الكتاب الثالث عشر

(١) انظر النشيدين الثالث عشر والرابع عشر من الإلياذة.

(٢) كان أوديسيوس يخشى ما تنبأ به العرّاف من أنه لو اشترك فى حرب طروادة لما عاد إلي داره إلاّ بعد عشرين سنة وحيداً فقيراً، وقد دفعته شدّة خوفه إلى أن يتظاهر بالجنون حتى لا يضطر إلي الإبحار للمعركة، غير أن پالاميديس شكّ فى تظاهره بالجنون فخطف تيليماخوس بن أوديسيوس من مهده وجعله يمسك بمحراث يجرّه ثور وجواد، فذُعر أبوه ولم يستطع المضي فى التظاهر بالجنون واعترف بخدعته لكنه لم يغتفر لپالاميديس ما صنعه.

(٣) انظر الكتاب التاسع.

(٤) هذه إشارة إلى نفى تيلامون والد أچاكس بسبب قتله أخاه غير الشقيق فوكوس [انظر الكتاب السابع].

(٥) مثلما فعل تيلامون بقتله أخيه.

(٦) كان تيوكروس بن تيلامون أخا لأچاكس من والده بينما كانت أم أچاكس هى ابنة لاؤوميدون وشقيقة پريام [انظر الكتاب الحادي عشر].

(٧) عُرف الإغريق باسم الآخيين كما كانوا يُنسبون أحياناً إلى داناووس شقيق أيجوپتوس ومؤسس مدينة أرجوس الذي أصبح أجاممنون ملكاً عليها فيما بعد.

(٨) يتبع أوڤيد هنا مأساة «إيفيجينيا فى أوليس» لأورپيدس متابعة تكاد تكون حرفية.

(٩) أثارت وقاحة ثيرسيتيس البطل أوديسيوس فضربه بصولجانه ضربة أقعدته مرتعداً من الخوف والألم. وجاء وصف هذا الحادث على لسان هوميروس فى الكتاب الثاني من الإلياذة.

(١٠) كان دولون قد عرض خدماته على مواطنيه الطرواديين بأن يتجسّس على مداولات أجاممنون والقادة الإغريق مقابل وعده بأن يهبوه جياد أخيل ومركبته بعد القضاء عليه.

(١١) إشارة إلى ما اقترحه أچاكس ساخراً من قسمة الأسلحة بين أوديسيوس وديوميديس مناصفة، الأمر الذي يعدّ أكرم من امتناع الإغريق عن مكافأة أوديسيوس بأى شيء على الإطلاق.

(١٢) هذه قائمة القادة الليكيين التي ينسج فيها أوڤيد على منوال هوميروس بسرد أسماء الأعداء القتلى.

(١٣) هو العرّاف هيلينوس الذي كشف للإغريق بعد أن أسروه كيف يتسلّلون إلى طروادة.

(١٤) المقصود أچاكس بن أويليوس ملك اللوكريين.

(١٥) كان أچاكس يلتف بجلد الأسد الذي أعطاه إياه هرقل، الأمر الذي جعله منيعاً على ضربات السيوف إلاّ فى مكان واحد اختلف الشعراء على تحديده، ويقول أوڤيد أنه الصدر، بينما يقول البعض الآخر أنه العنق أو الجنب.

(١٦) أى تُمثّل المقطع الأول من اسم أچاكس «آى» كما يُنطق باللاتينية «أياكس»، ويذكّرنا مقطعه الثاني بصرخة الألم والاستنجاد «آى» التي صدرت عن هياكينثوس AI AI.

(١٧) تهاونت نساء ليمنوس فى تكريم الإلهة ڤينوس فترة طويلة، أى أنهن لم يمارسن مُتع الهوى وتَمَنَّعْنَ عن مضاجعة أزواجهن مما دفع بالأخيرين إلى هجرهن نحو نساء من طراقيا، فغضبت الزوجات الزاهدات وقتلن كافة الرجال فيما عدا

هيپسيپيله بنت الملك ثواس التي هرّبت أباها من المذبحة الكبرى ثم أصبحت ملكة لبلادها، وهى التي رحّبت ببحارة الأرجو عند مرورهم بوطنها وهامت بجاسون فحملت منه بولدين.

(١٨) انتزع الإغريق أستياناكس بن هكتور من أحضان أمه قسرا وألقوا به من فوق أسوار طروادة. وقد سجل أوريپيديس هذا المشهد الفاجع فى مأساة الطرواديات [البيت ٧٠٩ وما بعده].

(١٩) ذُكر حادث الاغتيال هذا فى مقدمة مأساة هيكوبا لأوريپيديس على لسان شبح پوليدوروس، ويذكره ڤرچيل أيضاً فى الكتاب الثالث من الإلياذة [البيت ١٩ وما بعده].

(٢٠) يشير إلى يوم طمع فى الظفر بالأسيرة بريزييس فى مستهل ملحمة الإلياذة.

(٢١) يعرض الجزء الثاني من مسرحية «هيكوبا» لأوريپيديس قصة عثور هيكوبا على جثة ابنها پوليدوروس ثم انتقامها من قاتله پوليمسطور ملك طراقيا، وهو ما يتناقض مع ما ذكره هوميروس فى الإلياذة (٢٠ : ٤٠٧) من أن پوليدوروس هو ابن پريام من زوجة غير هيكوبا هى «لاووثويه»، وأن أخيل هو الذي قتله أمام هيكتور.

(٢٢) توجد «كينوس سيما» أى مقبرة الكلبة على مقربة من الهيليسپونت وفقاً لما جاء على لسان العالم الجغرافي استرابون.

(٢٣) أوروا [إيوس اليونانية] هى أم ممنون من تيثونوس شقيق پريام، وفى تلك القُربى يكمن سر مناصرتها للجانب الطروادي.

(٢٤) انظر الكتاب السادس.

(٢٥) كانت ڤينوس قد وقعت فى غرام أنخيسيس، أما وصفها بزوجته فهو من قبيل الأدب فى الحديث.

(٢٦) كانت لأسوار طيبة [بويوتيا] أبواب سبع.

(٢٧) كوكبة الجوزاء.

(٢٨) هما كوكبتا الإكليل الجنوبي والإكليل الشمالي عند الفلكيين العرب.

(٢٩) كان أوريون بن هيريوس من أهل طيبة، وكانت له ابنتان هما متيوخي ومينيپّي تقدمتا بمحض إرادتهما قرباناً لإنقاذ أهل المدينة حين حلّ بها الطاعون، وهو ما كان طالب به الهاتف الإلهي فى معبد أپوللو بجورتينا. وقد انتحرتا على النحو المذكور بالنص فنالتا رضا الآلهة التي حوّلتهما إلى كوكبتين، فى حين تحوّل أوريون بعد موته إلى كوكبة الجوزاء. والملاحظ أن النص هنا يفتقر إلى الوضوح، و أن «الإكليلين» تأويل لنص فيه لبس بالمخطوطة الباقية.

(٣٠) جاء وصف هذه الرحلة بالإلياذة لڤرچيل [الكتاب الثالث - الأبيات من ١٢١ إلى ١٩١].

(٣١) مجموعة جزر أمام الشاطىء الغربي من المورة.

(٣٢) دوليخيون ونيريتوس اسما جزيرتين مجاورتين لجزيرة إيثاكا. أما ساميه فهى جزيرة صغيرة فى بحر أيونيا قريبة من جزيرة إيثاكا تحمل أيضاً اسم كيفالينيا. وأمبراكيا مدينة فى إيپيروس غيّر الإمبراطور أوغسطس اسمها بعد انتصاره فى معركة أكتيوم وسمّاها نيكوپوليس أى مدينة النصر.

(٣٣) تنازع كل من أپوللو وأرتميس وهرقل السيادة على هذه المدينة فاحتكموا إلى كراجاليوس بن دريوپْس الذي كان يرعى قطعانه بجوار المدينة فقضى بحكمه لصالح هرقل، فغضب أپوللو ومسخه صخرة. وكان لأپوللو فى مدينة أكتيوم معبد شهير، والملاحظ أن أوكتاڤيوس قيصر الذي أصبح الإمبراطور أوغسطس فيما بعد قد انتصر على ماركوس أنطونيوس والملكة كيلوباترة فى معركة بحرية شهيرة سنة ٣١ق.م. على مقربة من مدينة أكتيوم.

(٣٤) انظر الكتاب السابع.

(٣٥) كان مونيخوس ملك المولوسيين حاكماً عادلاً وعرّافاً مشهوراً يحيا مع أسرته حياة الورع. وقد سطت عليه عصبة من اللصوص وأشعلوا النار فى دياره، فمسخ چوپيتر أسرته الورعة سرباً من الطيور لإنقاذها من الحريق.

(٣٦) فاياكيا اسم جزيرة فى بحر أيونيا قريبة من شواطىء إپيروس تغيّر اسمها إلى كوركيرا [كورفو الحالية] اشتهر أهلها بالمجون والولع بالترف.

(٣٧) نتوء فى جنوب صقلية.

(٣٨) استوحى أوڤيد وصف سيكللا هنا من الأوذيسيا لهوميروس [النشيد الثاني عشر. البيت ٨٥ وما بعده فى خطبة كيركي أمام أوديسيوس].

(٣٩) كان پوليفيموس إبنا لنپتون إله البحار.

(٤٠) تحوّل أكيس حفيد نهر ثيمايثوس بدوره إلى نهر، وهو ذلك الجدول المنحدر من جبل إتنا والذي يحمل اسمه.

(٤١) جلاوكوس إله من آلهة البحار اختلف الرواة حول قصته، فهو يُمثّل أحياناً فى هيئة شاب أمرد، وأحياناً أخرى فى هيئة عرّاف عجوز يخشاه الملاّحون، وكثيراً ما يثور الخلط بينه وبين پروتيوس، ويروي أوڤيد بعد ذلك قصة مسخه على لسانه.

(٤٢) كيركي هى بنت هليوس إله الشمس الذي كان - على ما رواه هزيودوس - ابن هيپريوس وثيا، ويصفه أوڤيد بأنه أحد المردة. وكان هليوس إله الشمس غير أپوللو إلى أن أصبح الاثنان شخصاً واحداً فيما بعد، وكان أبوه المارد هيپريون بدوره إبناً لجيا ربة الأرض وأخاً لكرونوس [ساتورن].

تعقيبات الكتاب الرابع عشر

(١) اسم العملاق المشار إليه إنكيلاديس [انظر الإلياذة لڤرچيل الكتاب الثالث ٥٧٨].
(٢) مدينة فى صقلية.
(٣) كان إله الشمس قد وَشَى بعلاقة مارس وڤينوس الغرامية [انظر الكتاب الرابع].
(٤) كان فراره في المرة الأولى برفقة أبيه وابنه من طروادة بعد سقوطها.
(٥) جبل في صقلية كان أينياس قد دفن أباه إلي جواره.
(٦) ملك من ملوك صقلية قدَّم العون إلى پريام في الحرب الطروادية وساعد أينياس خلال رحلته.
(٧) أمير طروادي تحوّل إلى نهر، وهو والد أيولوس.
(٨) جزيرة إسكيا اليوم بإيطاليا.
(٩) جزيرة پروكيدا الآن.
(١٠) تعلو جبلاً فى جزيرة پيثيكوزا التي يظن البعض أنها سُمّيت كذلك نسبة إلى أن چوپيتر قد مسخ سكانها قروداً. وپيثيخوي تعني القرد الصغير باللغة اليونانية.
(١١) الاسم القديم لناپلي.
(١٢) أطلق اسم ميسينوس على لسان ناتىء في البحر عند ساحل كامپانيا، وكان ميسينوس قد دفن فيه بناء علي توصية أينياس [انظر إنيادة ڤرچيل. الكتاب السادس].
(١٣) أقحم أوڤيد خطبة مكاريوس كما فعل ڤرچيل من قبل فى قصته عن پوليفيموس لكى يمزج بين مغامرات أوديسيوس وأينياس.
(١٤) اقتبس أوڤيد هذه الحادثة من الأوذيسيا [الكتاب العاشر البيت: ٨٧ وما بعده]. أما ڤرچيل فلا يروي في إنيادته وقوف أينياس عند ديار الساحرة بل يجعل الإله نپتون يحرف سفن البطل عند الجزيرة [الإنيادة ٧].
(١٥) يتبع أوڤيد هنا وصف هوميروس بدقة لكنه ينحرف عن الأصل في وصف غزل الصوف، فإن النص الهوميري يقول إن يوريلوكوس ورفاقه قد سمعوا كيركي وهي تغني أمام نولها نشيدها الذي دعاه هوميروس «نشيد النسجية».
(١٦) يري بعض العلماء أن المقصود بنبات «المولي» هو «رجلة البحر» غير أن هذا الرأى ليس له ما يسانده.
(١٧) هي بحيرة نيمي الشهيرة بجوار روما، وسُمّيت أيضاً مرآة ديانا. وكان بجوار شواطئها معبد مقدس لديانا ربّة مدينة أريسيا. والجدير بالذكر أن عبادة ديانا في هذا المعبد كانت شديدة القرب في طقوسها من عبادة أرتميس [ديانا] فى جبال طوروس، مما جعل أوڤيد يلقّبها بديانا السكوثية.
(١٨) چانوس هو ابن أپوللو وقد أسّس قرية بجوار نهر التيبر سُمّيت چانيكولوم أصبحت فيما بعد جزءاً من روما، وقد تُوِّج چانوس أول ملك لإيطاليا القديمة كما أُلّه بعد موته، وكان يمثّل بوجْهَيْن لأنه كان يعرف الماضي والمستقبل.
(١٩) قميص قصير خفيف يرتديه الشبّان.
(٢٠) تعني پيكوس باللاتينية الطائر النقّار.

(٢١) منطقة مصب نهر الوادي الكبير بإسبانيا.

(٢٢) الكاميناي اسم لحوريات المياه وأشهرهنّ إيجيريا التي كانت ملهمة نوما پومپيليوس، ومن ثم أطلق اسم إيجيريا على أية امرأة تكون ملهمة لأحد المفكرين أو الفنانين.

(٢٣) يشير أوڤيد إلى الكتاب السابع من الإنيادة الذي تدور كل أحداثه حول ما يومىء إليه أوڤيد.

(٢٤) جاء من أركاديا وأسّس مدينة پالنتيوم علي سفح تلال پالاتينوس، وقد أصبحت فيما بعد جزءاً من روما.

(٢٥) تدور هذه الأحداث في الكتابين الثامن والحادي عشر من إنيادة ڤرچيل، ويذكرها هنا أوڤيد في إيجاز مفرط اعتماداً علي أن جمهور القراء وقتئذ كان علي بيّنة كاملة بكل ما ورد في الإنيادة وبخاصة تلك الأساطير التي تروي نشأة روما.

(٢٦) المقصود زوجته الثانية، فقد تزوج ديوميديس إبنة أدرستوس ملك أرجوس، غير أن زوجته خانته فطلّقها وعاد إلى بلاده في أپتوليا، وخلال عودته إلى دياره جنحت سفينته نحو شواطىء ياپيچيا التي يحكمها الملك داونوس. وقد طلب داونوس من ديوميديس أن يُعينه في حربه ضد الميساپيين وهو شعب مجاور لبلاده، وبعد انتصارهما زوّجه الملك إبنته إيفيپيه.

(٢٧) في الطرف الجنوبي الشرقي لمقاطعة يوبويا.

(٢٨) كان ديوميديس قد جرح يد ڤينوس عن غير قصد وهو يقاتل أينياس.

(٢٩) المقصود طائر النورس.

(٣٠) استرايوس هو ابن التيتان كريوس، تزوج من إيوس [أورورا عند الرومان] وأنجب رياحاً ثلاثة هى النسيم «زفير» وريح الشمال «بوْرياس» وريح الجنوب «نوطوس».

(٣١) العارضة الرئيسية التي تمتد علي طول قاع المركب.

(٣٢) كانت لاڤينيا ابنة الملك لاتينوس من زوجته أماتا، وكانت قد خُطِبَتْ لقريبها الملك تورنوس لكن الهاتف الإلهي أمر أباها أن يزوّجها من أمير أجنبي، لذلك قُدّمت لأينياس عروساً له.

(٣٣) أسكانيوس ويولوس.

(٣٤) نسبة إلي «پوموم» أي ثمار الفاكهة أو التوت.

(٣٥) ابن راع وعنزة كان يعيش في الغابات، وكثيراً ما يُصَوَّر ممسكاً بغصن شجرة سرو لأنه كان قد عشق غلاماً تحول إلي شجرة سرو هروباً من ملاحقته إياه.

(٣٦) كان الساتير وأتباع پان وسيلينوس من أرباب الريف. أما هذا الإله فهو الإله اللاتيني القديم راعي الحقول. ويصفه أوڤيد بأنه پرياپوس الذي كانت تُنْحَتُ له التماثيل العارية ناعظة عضو الذكورة لطرد شرور الحسد ولضمان خصوبة الأرض.

(٣٧) أورد العلامة هاينسيوس تصحيحاً لهذا النص أخذ به الكثير من الشارحين، وهو «الشجاع أمام الجبناء» وهو ما أخذت به. أما النص القديم فهو: «الذي كان يبدو شجاعاً حيناً، وجبانا حينا آخر».

(٣٨) منطقة جبلية وسط أوروپا على ضفة نهر الدانوب شهيرة بمناجم الحديد.

(٣٩) الابن الأكبر لپروكا وكان أخوه أموليوس قد خلعه، ولكن حفيديه رومولوس وريموس ساعداه على أن يسترد ملكه السليب.

(٤٠) عيدٌ لتكريم پاليس إلهة القطعان والمراعي، وهى التي أضفت اسمها علي تل الپالاتينوس في روما.

(٤١) السابين قبيلة مجاورة للاّتين الذي احتلوا منبت روما الأصلي، ولم يكن بين اللاتين من النساء سوى بعض العاهرات، وقد شاء رومولوس لرجاله الظفر بنساء كريمات حتى يتكاثروا فيشكّلوا حضارة جديدة. وكان السابين يأبون الزواج من

غير عشيرتهم فدعا رومولوس أشراف السابين إلى حفل كبير في الخلاء وهمس إلى رفاقه أن يخفوا سيوفهم في العشب حتى إذا أطلق إشارته أمسك كلٌ بسيفه وقتل أحد رجال السابين ودفع إحدى العذارى السابينات إلى قلعة المدينة الجديدة.
[انظر الكتاب الأول من «فن الهوى» لأوفيد. ترجمة كاتب هذه السطور].

(٤٢) كانت هورا كويريني [أي التابعة لكويرينوس] توصف أحياناً بأنها الربة فورتونا سابينية الأصل التي تلعب دوراً كبيراً في الأساطير الرومانية. وأحياناً أخرى كان يخلط بين مويريني وبين الإلهة هورتا التي يبدو أنها من أصل إتروسكي، والتي أقام الرومان لها فيما بعد معبدا. ويقول بعض الشّرّاح إن هورا كويريني قد تحوّلت إلى إلهة راعية للشباب في العقيدة الرومانية.

تعقيبات الكتاب الخامس عشر

(١) اشتهر نوما پومپيليوس من السّابينيين بالحكمة والمعرفة، وقيل إنه تتلمذ على پيثاجوراس وتولى العرش فى أوائل القرن الثامن ق.م. على الأرجح.

(٢) مدينة قديمة كان السابينيّون قد اختاروها عاصمة لهم.

(٣) مدينة عند مدخل خليج تورنتو وكانت جزءاً من «اليونان الكبرى» افتتح فيها پيثاجوراس مدرسته الشهيرة.

(٤) شعب كان يقطن الطرف الجنوبي الشرقي من شبه جزيرة إيطاليا.

(٥) أهل مدينة كانت تحمل الاسم نفسه، وحلّت محل سيباريس بعد تدميرها، وكانت أيضاً تشرف على خليج تورنتو فى جنوب إيطاليا.

(٦) مدينة قديمة فى مقاطعة پروتيوم، وهو اسم الإقليم الذي يشغل كل جنوب شبه جزيرة إيطاليا، وقد اشتهرت بمناجم النحاس.

(٧) هم اليايبجيون [انظر الكتاب الرابع عشر].

(٨) الاسم القديم لجزيرة كيفالونيا، وهو أيضاً اسم أكبر مدينة فيها.

(٩) يزعم پيثاجوراس هنا أنه استوحى كلامه من وحيٍ إلهي، مثله فى ذلك مثل الهاتف الإلهي فى دلفي الذي يَصُوتُ بصوت أپوللو.

(١٠) يبدأ پيثاجوراس هنا عرض نظرية تناسخ الأورواح التي اقترنت باسمه عبر التاريخ.

(١١) كان أباس الملك الثاني عشر لدولة أرجوس. ورُويَ أن معبد چونو [هيرا] فى أرجوس الذي كان يحوي تمثالاً للإلهة من صنع پوليكليتوس كان يضم تُرس البطل الطروادي يوفوربوس الذي قتله منيلاوس إثر محاولته نزع الأسلحة من جثة پاتروكلوس الهامدة.

(١٢) كان ميلون بطلاً مشهورا فى حلبة ألعاب القوى فى مدينة كروتونا، عاش فى أوائل القرن السادس عشر ق.م. وفى الإشارة إلى شيخوخته مفارقة زمنية، إذ المفروض أنه كان من تلاميذ پيثاجوراس الذي يتحدث بنفسه فى هذا النص.

(١٣) اختطف ثيستيوس هيلينا وهى بعدُ صبيّة بينما كانت تقدم القرابين لأرتميس واصطحبها معه إلى أثينا، ثم اختطفها پاريس بعد زواجها من منيلاوس وهرب بها إلى طروادة.

(١٤) نهر فى فريچيا يختفي فى غار ثم يظهر من جديد ليرتمي فى أحضان نهر مياندر.

(١٥) نهر فى أركاديا يصبّ فى خليج كورنثه.

(١٦) نهر فى آسيا الصغرى.

(١٧) نهر فى صقلية بجوار مدينة قطانيا.

(١٨) نهر فى اليونان.

(١٩) نهر فى صارماتيا جنوبي روسيا يصبّ فى البحر الأسود واسمه الآن نهر البوج.

(٢٠) مدينة صغيرة على الشاطىء الغربي لجزيرة ليزبوس.

(٢١) جزيرة صغيرة مواجهة للإسكندرية يربط بينهما لسان ضيق من اليابسة، اشتهرت بمنارتها (رأس التين حالياً).
(٢٢) إحدى الجزر الأيونية.
(٢٣) الاسم القديم لميسينا بصقلية.
(٢٤) دمّرها زلزال عام ٣٧٢ ق.م.
(٢٥) كانت توأم هيكيليه ودُمّرت معها.
(٢٦) لعل أوفيد كان يقصد برزخ ميثونيه أو ميثانا، ويقع إلى الشمال من المنطقة التي يشير إليها.
(٢٧) ذكر هيرودوتوس ينبوع آمون فى كتابه «التاريخ» وما يزال معروفاً فى الصحراء السودانية، ويبدو أن حرارته قد تصل أحياناً إلى خمسين درجة مئوية ثم تهبط أحياناً أخرى إلى درجة الصفر.
(٢٨) شعب كان يقطن إبيروس على الحدود الألبانية.
(٢٩) اشتهر هذان النهران بغزارة طَمْيهما فكان مَنْ يستحم فيهما من بشر أو حيوان يخرج من النهر مُغشّىً بالطين البُنّي.
(٣٠) انظر الكتاب الرابع حيث تجرى أحداث قصة هيرمافروديتوس وسالماكيس. أما البحيرات الإثيوبية فلا نعرف ما يقصده أوفيد منها.
(٣١) مدينة أركاديا.
(٣٢) منطقة جبلية فى مقدونيا.
(٣٣) اسم لمدينة فى شمال أركاديا وللبحيرة المجاورة لها.
(٣٤) هى جزيرة ديلوس الآن، وكانت فى الماضي تتأرجح فوق المياه، اختارتها ليتو مأوىً تلد فيه بعد أن طاردتها چونو فى جميع أنحاء الأرض، ولم تَثْبُتْ الجزيرة إلا بعد أن وضعت ليتو أپوللو وأرتميس.
(٣٥) جزيرتان صخريتان عند مدخل البحر الأسود.
(٣٦) يتناول سنيكا فى كتابه السادس «عن أمور الطبيعة» أسرار الزلازل بما لا يخرج عن النص الوارد هنا.
(٣٧) شعب خرافى كان يسكن منطقة فى أقصى شمال العالم المعروف.
(٣٨) خلط أوفيد هنا بين تريتون الموجودة فى طراقيا وپالليني الموجودة فى خالكيديكس.
(٣٩) يبدأ پيثاجوراس فى سرد بعض الخرافات الشعبية السائدة.
(٤٠) ذهب هيرودوتوس إلى أن معبد هيپريون هو معبد الشمس فى هيلوپوليس بمصر، بينما ذهب پلينيوس إلى أنه موجود فى جزيرة خرافية اسمها پانشايا فى بحر إريتريا بين آسيا الصغرى وبويوتيا.
(٤١) كان ثمة اعتقاد شعبي بأن الضبع يبدّل جنسه مرة كل سنة إلى أن دحض أرسطو هذا الزعم الخاطىء.
(٤٢) هو الحرباء التي قال عنها «پلينيوس» إنها تتموّه بكل الألوان عدا الأحمر والأبيض.
(٤٣) من فصيلة السنانير وهو أصغر حجماً من النمر.
(٤٤) ثمة حجر كريم يسمّى «بَوْل الوشق» يقابل حجر التورمالين الآن.
(٤٥) أحد ملوك أثينا فى قديم الزمان.
(٤٦) سبق أن ذكر پيثاجوراس أنه عاش حياة سالفة فى طروادة، إذ كانت روحه تتقمّص جسد البطل الطروادي يوفوربوس المعاصر لأينياس.
(٤٧) كان أتريوس بن پيلوپس عدوا لأخيه ثاييستيس، وقد تظاهر بالصلح معه ودعاه إلى وليمة ذبح فيها أبناء أخيه وقدّم إليه لحم أبنائه فأكله وهو لا يدري.

(٤٨) إحدى طرق صيد الوعول، وذلك بوضع حبل فى طريقها مزدان بالريش الأحمر الذي يُصيبها بالفزع فتنحرف نحو الشراك التي تنتظرها .

(٤٩) الكامينات كنّ حوريات ماء، أشهرهن إيجيريا التي كانت مُلهمة «نوما» كما أسلفنا ثم تزوجها حسبما يذهب أوڤيد فى هذا النص . وكن يتكهنّ بالمستقبل كربّات الفنون «الموساي»، وكان لهن معبد عند أحد أبواب روما، هو الباب الكاميني فى طريق آپيا جنوبى المدينة .

(٥٠) كان وادي آريسيا عند سفح جبال ألبانوس فى إيطاليا غير بعيد عن بحيرة نيمى، وعلى مقربة من معبد ديانا الأريسينية الذي كان يتولّى كاهنُه منصبَه فيه بعد أن يقتل سلفه . وكانت الشعائر تقام فيه لديانا الطوريسية الذي كان أوريستيس قد اختطف منه صنم «الإكسوانون» بصحبة إيفيجينيا [إيفيينِيا] كاهنة المعبد . وكان سكان أريسيا يدّعون حيازة هذا الصنّم الذي حمله إليهم أوريستيس، غير أن الروايات اليونانية كلها تؤكد أنه موجود بمعبد أرتميس فى هالاى بأتيكا [وذلك بالنسبة لأهل أثينا] بينما يدّعى أهل أسپرطه أنه فى معبد أرتميس أورثيا فى أسپرطة نفسها .

(٥١) نهر من اللهيب فى الجحيم .

(٥٢) اسم جنّى غابة قرب بحيرة نيمى، وكانت هذه الغابة محرّمة على الجياد، وقد أصبحت عبادة ڤيربيوس مقترنة بعبادة ديانا الأريسينية، وكان ڤيربيوس أول كاهن لها فى معبدها .

(٥٣) أى فلاح إتروريا .

(٥٤) كانت «القرون» فى الماضى رمزاً للقوة .

(٥٥) هى رمز الانتصار وبالتالى السلام الذي يجيء فى إثر الانتصار .

(٥٦) إسكليپيوس بن أپوللو من الحورية كورونيس، وقد بدأت الطقوس تقام له في ثيساليا، ثم أخذت تنتشر حتى عمّت أنحاء اليونان، وتمركزت فى إپيداوروس، ولم تدخل روما إلا عام ٢٩١ ق . م . بعد الطاعون الذي اجتاحها عام ٢٩٣ ق . م .

(٥٧) كانت الآلهة تبدو فى التماثيل الفنية القديمة أكبر حجماً من البشر .

(٥٨) أقيم هذا المعبد عام ٣٨٠ - ٣٧٥ ق . م . وكان على بُعد خمسة عشر كيلو متراً من المدينة، وقد اكتُشفت بين أطلاله آثار فنية ووثائق بالغة القيمة .

(٥٩) قام بنحته المثال تراسيميدس الفاروسى .

(٦٠) اسم قديم للوكانيا .

(٦١) برزخ كامپانللا حالياً .

(٦٢) هرقولانيوم .

(٦٣) الاسم القديم لناپلي .

(٦٤) يضع أوڤيد أوكتاڤيوس وهو ابن قيصر بالتبنّي فى مصاف أبنائه الحقيقيين، متحدّثا عنه بهذه الصفة .

(٦٥) اسم ملوك وحكام ولايات پونتوس الموجودة فى آسيا الصغرى المطلّة على البحر الأسود وعاصمتها طرابزون .

(٦٦) يشير أوڤيد هنا إلى حملة قيصر على بريطانيا عام ٥٤ ق . م . ومعركة الإسكندرية عام ٤٨ ق . م . وهزيمة يوبا ملك نيميديا، وإلى انتصاره على فارناكيوس بن مثريدات الأعظم ملك پونتوس عام ٤٧ ق . م . وتجدر الإشارة إلى أن قيصر لم يشارك فى غير موكبين من مواكب نصره، أولهما عام ٤٦ ق . م . بعد انتصارته فى بلاد الغال ومصر وپونتوس، وثانيهما عام ٤٥ ق . م . بعد انتصارته فى أيبريا .

(٦٧) كان العاج يستخدم فى صنع تماثيل الآلهة أو بعض أجزائها، وكانت التماثيل العاجية تُدهن بالزيت فتُرسل وميضا يوحي بأنها تدمع.

(٦٨) كان الكهنة يفحصون أحشاء الذبائح ويهتمون بالقلب والرئتين والمعدة والطحال والكليتين، وكانوا يسمّون أعلى الكبد رأسه ويعدّون انفصاله عن بقية الكبد نذير سوء.

(٦٩) انتصار أوكتافيوس على أنطونيوس فى مودينا عام ٤٣ ق.م.، وكان أنطونيوس هو الذي حاصر المدينة التي كان على رأسها ديكيموس بروتوس حاكم المقاطعات الرومانية جنوبي الألب. ويبدو أن أوفيد قد خلط هنا بين المحاصِر والمحاصَر.

(٧٠) كانت كيلوباترة هى ملكة مصر التي تزوجت أنطونيوس، وتقع كانوبي شرقي الإسكندرية، وكانت مركزاً دينياً بينما كان معبد الكابيتولينوس أقدس معابد روما، وبهذا يريد أوفيد اتهام كليوباترة بمحاولة إحلال آلهة المصريين محل آلهة الرومان.

(٧١) يروي سويتونيوس أنه أثناء الألعاب التي أقامها أوكتافيوس تكريماً لقيصر المؤله، كان الكوكب المذنّب يتألق فى السماء طوال ليال سبع، وقد شاع الاعتقاد بأنه روح قيصر وقد تحوّل إلى كوكب هو المعروف باسم ڤينوس.

(٧٢) يوليوس قيصر وأوغسطس.

(٧٣) الجزء الشرقي من تل الكابيتولينوس، وكان يضم القلعة التي سُمِّيت باسمه، بينما يضمّ الجزء الغربي معبد چوپيتر، وكان يُسمَّى قبلُ جبل تارپيوس، وقد انحصر اسم تارپيوس بعد ذلك فى صخرة بالطرف الجنوبي الغربي من التل كانت تستخدم فى تنفيذ أحكام الإعدام بقذف المحكوم عليهم من فوقها.

ثبت التراجم

THE METAMORPHOSES OF OVID: TRANSLATED AND WITH AN INTRODUCTION BY MARY M. INNES. PENGUIN BOOKS, HARMONDSWORTH, 1955.

OVID: THE METAMOROHOSES. 2 VOLS. TRANSLATED AND WITH AN INTRODUCTION BY F. J. MILLER (THE LOEB CLASSICAL LIBRARY) LONDON AND NEW YORK. (ND).

OVIDE LES METAMORPHOSES: TRADUCTION NOUVELLE AVEC UNE INTRODUCTION ET DES NOTES PAR JOSEPH CHAMONARD. 2 VOLS. EDITIONS GARNIER, PARIS, 1955.

OVIDE: LES METAMORPHOSES.: TEXTE ETABLI ET TRADUIT PAR GEORGE LAFAZE (COLLECTION DES UNIVERSITES DE FRANCE PUBLIEE SOUS LE PATRONAGE DE L'ASSOCIATION GUILLAUME BUDE) PARIS, 1928. 3 VOLS.

OVID: THE METAMORPHOSES. TRANSLATED AND WITH AN INTRODUCTION, BY A. D. MELVILLE. OXFORD UNIVERSITY PRESS. NEWYORK 1986.

ثبت المعاجم

CARY, M., DENNISTION, J. D., WIGHT DUFF, J, NOCK, A. D, ROSS, W. D., SCULLARD, H. H., WITH THE ASSISTANCE OF ROSE, H. J, HARVEY, H. P. AND SOUTER, A.: THE *OXFORD CLASSICAL DICTIONARY. OXFORD*, 1949.

ERNOUT, A. ET MEILLET, A.: *DICTIONNAIRE ETYMOLOGIQUE DE LA LANGUE LATINE.* 3 EME EDITION. PARIS, 1951.

HOWE, GEORGE & HARRER, G. A.; *A HANDBOOK OF CLASSICAL MYTHOLOGY.* F. S. CROTS. NEW YORK 1987.

LEMPRIERE, J.: *LEMPRIERE CLASSICAL DICTIONARY OF PROPER NAMES MENTIONED IN ANCIENT AUTHORS.* ROUTLEDGE & KEGAN PAUL. LONDON 1963.

LEWIS, CHARLTION AND SHORT, D. P. CHARLTION AND SHORT, D. P. CHARLES: *A LATIN DICTIONARY.* LONDON 1879.

STIMPSON, D. P.: *CASSELLE'S NEW LATIN-ENGLISH-LATIN DICTIONARY* . 2nd *EDITION. LONDON 1962.*

ثبت المراجع

BEAMER, MAUDE: *GREEK ART IN OVID'S POEMS.* (PUBLISHED ABSTRACT OF UNIVERSITY OF MISSOURI DISSERTATION, 1936).

BREWER, W.: *OVID'S METAMORPHOSES IN EUROPEAN CULTURE.* 1933.

CLARK, KENNETH: *LANDSCAPE INTO ART.* LONDON 1949.

FRANKEL, HERMANN: *OVID-A POET BETWEEN TWO WORLDS.* BERKELEY AND LOS ANGELES, 1945.

HAGSTRUM, JANH.; *THE SISTER ARTS.* CHICAGO 1958.

LAFAYE, G.: *LES METAMORPHOSES D'OVIDE ET LEURS MODELES GRECS.* (UNIVERSITE DE PARIS, BIBLIOTHEOUE DE LA FACULTE DES LETTRES, XIX) PARIS, 1904.

LASLO, NICOLAS: *RIFLESSI D'ARTE FIGURATA NELLE METAMORFOSI DI OVIDIO* (EPHEMERIS DACOROMANA, VI) ROME 1935.

MORNAND, PIERRE & THOME, J. R.: *VINGT ARTISTES DU LIVRE.* LE COURRIER GRAPHIQUE, ALBERT CYMBOLISTE, EDITEUR, PARIS.

MURRAY, GILBERT: *ESSAYS AND ADDRESSES.* LONDON, 1921.

PANOVSKY, ERWIN: *PROBLEMS IN TITIAN, MAINLY ICONOGRAPHIC.* PHAIDON, OXFORD, 1970.

RAND, EDWAD K: *OVID AND HIS INFLUENCE.* BOSTON 1925.

RIPERT, EMILE: *OVID, POETE DE L'AMOUR, DES DIEUX ET DE L'EXIL.* PARIS 1921.

WILKINSON, L. P.: OVID RECALLED. CAMBRIDGE, 1955.

المُلحق الأول

دليل المنجزات الفنية التشكيلية

المستوحاة من كتاب «مسخ الكائنات» لأوڤيد(*)

التصـــوير

آدم إلزهايمر : «الطوفان». متحف ستيدل بفرانكفورت .

آنجر : «تأليه هوميروس» . متحف اللوڤر .

أحد أتباع پيزيللينو : «صيد الخنزير البرّي فى كاليدونيا». متحف متروپوليتان بنيويورك .

أحد أتباع فرا أنچيليكو : «پاريس يختطف هيلينا». متحف الناشونال جاليرى بلندن .

إدوارد بيرن چونز : «پجماليون». متحف برمنجهام .

إلجرتشينو: «أپوللو يسلخ مارسياس». جاليري پيتي بفلورنسا .

إلجرتشينو: «أورورا». قصر لودوڤيزي بروما .

إلجرتشينو: «كيركي». متحف اللوڤر بپاريس .

أنطوني ڤان دايك: «چوپيتر وأنتيوپي». متحف ميونخ .

أنطوني ڤان دايك: «دايدالوس وإيكاروس». متحف تورنتو بكندا .

أنطوني ڤان دايك: «سيلينوس ثملا». متحف درسدن .

أنطوني ڤان دايك: «كيوپيد وپسيخيه». هامپتون كورت بإنجلترا .

أنطوني ڤان دايك: «ڤينوس إلى جوار مسبك ڤولكانوس». متحف تاريخ الفنون بڤيينا .

أنطوني ڤان دايك: «ڤينوس وڤولكانوس». متحف اللوڤر .

أنطونيو پولايولو: «أپوللو ودافني». الناشونال جاليري بلندن .

أنطونيو پولايولو: «اختطاف ديانيرا». متحف الفنون بجامعة ييل بنيوهاڤن .

أنطونيو فانتوزي : «كيركي وبحّارة أوديسيوس». مدرس فونتنبلو .

أوچين ديلاكروا: «ميديا وأطفالها». متحف اللوڤر بپاريس .

(*) للمزيد من التفاصيل انظر : «الإغريق بين الأسطورة والإبداع» لكاتب هذه السطور. الطبعة الثانية ١٩٩٢ . الهيئة المصرية العامة للكتاب .

بارثولوماوس سپرانجر: «ڤينوس وأدونيس». متحف تاريخ الفنون بڤيينا.

بارثولوماوس سپرانجر: «منيرڤا». متحف تاريخ الفنون بڤيينا.

بارثولوماوس سپرانجر: «هيرمافروديتوس وسالماكيس». متحف تاريخ الفنون بڤيينا.

بارثولوماوس سپرانجر: «أوديسيوس وكيركي». متحف تاريخ الفنون بڤيينا.

باروتشي: «أينياس يفرّ من طرواده مع زوجته وابنه حاملاً أباه». متحف ڤيلا بورجيزي بروما.

باسانو: «هرقل وأومفالوس». متحف تاريخ الفنون بڤيينا.

پرودون: «اختطاف پسيخيه». متحف اللوڤر.

بروبجل: «أينياس فى العالم السُّفلي». متحف تاريخ الفنون بڤيينا.

بروبجل: «سقوط إيكاروس». متحف تاريخ الفنون بڤيينا.

بروبجل: «سيريس توزّع الخيرات». متحف تاريخ الفنون بڤيينا.

بلانشار: «حفل باكخوسي». متحف نانسي.

بنڤنوتو تشلليني: «پيرسيوس و أندروميدا». متحف البارچللو بفلورنسا.

بوتيتشيللي: «أثينه [منيرڤا] والقنطور». متحف أوفتزي بفلورنسا.

بوتيتشيللي: «مولد ڤينوس». متحف أوفيتزي بفلورنسا.

بوشيه: «حوريتان وجان الغاب [الساتير]». الناشونال جاليري بلندن.

بوشيه: «داناى». متحف كونياك.

بوشيه: «ديانا تأخذ زينتها». اللوڤر.

بوشيه: «زيوس وأنتيوپي». متحف پوشكين بموسكو.

بوشيه: «ليدا وطائر البجع». متحف لوكسمبورج.

پييرو دي كوزيمو: «إنقاذ أندروميدا». متحف الأوفيتزي بفلورنسا.

پييرو دي كوزيمو: «مصرع پروكريس». الناشونال جاليري بلندن.

پييرو دي كوزيمو: «المعركة بين اللاپيث والقنطوري». الناشونال جاليري بلندن.

پيير نارسيس جيران: «تقديم القربان لإسكلپيوس». متحف اللوڤر بباريس.

تتسيانو: «اختطاف أوروپا». متحف جاردنر ببوسطن.

تتسيانو: «باكخوس وأريادني». الناشونال جاليري بلندن.

تتسيانو: «پيرسيوس وأندروميدا». الناشونال جاليري بلندن.

تتسيانو: «تانتالوس». المتحف البريطاني.

تتسيانو: «چوپيتر وأنتيوپي». متحف اللوڤر.

تتسيانو: «داناى». متحف البرادو بمدريد.

تتسيانو: «ديانا و أكتايون». متحف بردْچوُوتر هاوس بلندن.

تتسيانو: «ديانا وكاليستو». متحف بردْجْوُوتر هاوس بلندن.

تتسيانو: «سيزيفوس يحمل الحجر». متحف الپرادو بمدريد.

تتسيانو: «ڤينوس وأدونيس». المتحف القومي للفنون بواشنطن.

تتسيانو: «ڤينوس تناشد أدونيس ألاّ يخرج إلى الصيد». متحف الپرادو بمدريد.

تتسيانو: ڤينوس على أجنحة النغم». متحف الپرادو بمدريد.

تتسيانو: ڤينوس فى استرخاء حالم». متحف أوفيتزي بفلورنسا.

تتسيانو: «ڤينوس وكيوپيد». متحف ڤيلا بورجيزي بروما.

تتسيانو: «كاليستو». متحف جلاسجو.

تتسيانو: «مصرع أكتايون». متحف جلاسجو.

تتسيانو: «النسر ينهش كبد تيتوس». متحف الپرادو بمدريد.

تنتوريتو: «أريادني وباكخوس». قصر الدوچ بالبندقية.

تنتوريتو: «باكخوس وأريادني». قصر الدوچ بالبندقية.

تنتوريتو: «پيرسيوس و أندروميدا». متحف الإرميتاج بسان بطرسبرج.

تنتوريتو: «چونو وهرقل». كوبام هُول بإنجلترا.

تنتوريتو: «ربّات الفنون فى الأوليمپوس». هامپتون كورت بإنجلترا.

تنتوريتو: «مسبك ڤولكانوس». قصر الدوچ بالبندقية.

تنتوريتو: «كيوپيد وڤينوس وڤولكانوس». متحف پيتي بفلورنسا.

تيرنر: «پوليفيموس يهزأ بسفينة أوديسيوس». الناشونال جاليري بلندن.

تيرنر: «ديدو تشيّد قرطاچه». الناشونال جاليري بلندن.

تيرنر: «ديدو وأينياس». الناشونال جاليري بلندن.

تييپولو: «أپوللو ودافني». متحف اللوڤر بپاريس.

تييپولو: «تشييد حصان طرواده». الناشونال جاليري بلندن.

تييپولو: «داناى». متحف ستوكهولم.

تييپولو: «سَحْبُ حصان طرواده». الناشونال جاليري بلندن.

تييپولو: «ڤينوس والزمن». الناشونال جاليري بلندن.

چان راوو: «پيجماليون وجالاطيا وڤينوس». متحف اللوڤر بپاريس.

چان ريستو: «هيرا [چونو] تزور أوقيانوس وثيتيس». متحف پوشكين بموسكو.

جانستر: «ڤينوس وأدونيس». متحف تاريخ الفنون بڤيينا.

جوتزولي: «اختطاف هيلينا». الناشونال جاليري بلندن.

چورچ فردريك واطسن: «أورفيوس ويوريديكي». تيت جاليري بلندن.

چوردانو: «أريادني». متحف درسدن.

جوستاف مورو: «پاسيفاي والثور».

چوليو رومانو: «پوليفيموس». متحف مانتوا.

چوليو رومانو: «چونو وهرقل». بريدج ووتر هاوس بلندن.

چوليو رومانو: «رقصة أپوللو مع ربات الفن». متحف پيتي بفلورنسا.

چوليو رومانو: «طفولة چوپيتر». الناشونال جاليري بلندن.

چوليو رومانو: «ڤينوس وڤولكانوس». متحف اللوڤر.

جيدوريني: «أپوللو يسلخ جلد مارسياس». متحف ميونخ.

جيدو ريني: «اختطاف هيلينا». متحف اللوڤر.

جيدو ريني: «أوروزا». قصر روسپيليوزي بروما.

جيدو ريني: «باكخوس عليلا». متحف ڤيلا بورجيزي بروما.

جيدو ريني: «هرقل وآخيلؤوس». متحف اللوڤر بپاريس.

جيدو ريني: «هرقل والهيدرا». متحف اللوڤر بپاريس.

جيران: «أورورا وكيفالوس».

جيران: «تقديم القربان لإسكلپيوس». متحف اللوڤر.

داڤيد: «پاريس وهيلينا». متحف اللوڤر.

دانتي جابرييلي روسيتّي: «پروسيرپينا». متحف ليڤرپول.

درپير: «الحوريات ينعين إيكاروس». تيت جاليري بلندن.

دورر: «هرقل والطيور الستيمفالية». متحف تاريخ الفنون بڤيينا.

دومينيكينو: «ديانا وأكتايون». قصر پيتي بفلورنسا.

ديلاكروا: «القنطور خيرون يدرّب أخيل على تصويب السهام». مجموعة خاصة.

ديلاكروا: «هرقل يحمل الخنزير البرّي». متحف كارناڤاليه.

دُوسّو دوسيّ: «كيركي وعشّاقها». المتحف القومي للفنون بواشنطن.

ديهيه: «پيجماليون وجالاطيا. متحف تُور بفرنسا.

رافائيل: «أپوللو ومارسياس». متحف اللوڤر بپاريس.

رافائيل: «جالاطيا». قصر ڤارنيزينا بروما.

رافائيل: «حفل الآلهة فى الپارناسوس». متحف الڤاتيكان.

رافائيل: «كيوپيد وپسيخيه». قصر فارنيزينا بروما.

رافائيل: «حريق البورجو». متحف الڤاتيكان.

رمبرانت: «اختطاف پروسيرپينا». متحف برلين.

روبنز: «أچاكس وكاسّاندرا». متحف ليختنشتاين بڤيينا.

روبنز: «اختطاف پروسيرپينا». قصر بلنهم وودستك بإنجلترا.

روبنز: «أتَالانتا وملياجر». متحف البرادو بمدريد.

روبنز: «أورفيوس ويوريديكي». متحف البرادو بمدريد.

روبنز: «أينياس وديدو». متحف ستيدل بفرانكفورت.

روبنز: «پيرسيوس و أندروميدا». متحف الإرميتاچ بسان بطرسبرج.

روبنز: «پيرسيوس وأندروميدا». قصر بلنهم.

روبنز: «تحكيم پاريس». الناشونال جاليري بلندن.

روبنز: «چونو وهرقل». متحف البرادو بمدريد.

روبنز: «ديانا». متحف درسدن.

روبنز: «زيوس يختطف جانيميديس». متحف تاريخ الفنون بڤيينا.

روبنز: «سيلينوس فى حفل باكخوسي». متحف أوفيتزي بفلورنسا.

روبنز: «عيد ڤينوس». متحف تاريخ الفنون بڤيينا.

روبنز: «فايثون وأمفيتريتي». متحف برلين.

روبنز: «ڤينوس وأدونيس». متحف الإرميتاچ بسان بطرسبرج.

روبنز: «منيرڤا تطالب مارس بنشر السلام». الناشونال جاليري بلندن.

روبنز: «مولد ڤينوس». الناشونال جاليري بلندن.

روبنز: «هاديس [پلوتو] يختطف پروسيرپينا [پيرسيفوني]». متحف لوپتي پاليه پاريس.

روبنز: «هزيمة المَرَدة». متحف بروكسل.

رينيو: «تحكيم پاريس».

رينولدز: «موت ديدو». قصر باكنجهام بلندن.

سباستيان بوردون: «انتحار ديدو». متحف بيزييه.

سيزان: «ليدا وطائر البجع». مجموعة بيليران بپاريس.

سكيافوني: «أسطورة ميداس». أكاديمية الفنون الجميلة بالبندقية.

شارل ده لافوس: «باكخوس وأردياني». متحف ديچون.

شازيران: «پوسيدون [نپتون]» متحف بيزانسون.

ڤاتو: «زيوس وأنتيوپي. متحف اللوڤر.

ڤان هيمزكرك: «ڤينوس ومارس وڤولكانوس». متحف تاريخ الفنون بڤيينا.

فرانسوا لوموان: «نارسيسوس». متحف هامبورج.

ڤركبوز: «هرقل وديانيرا ونيسوس». متحف تاريخ الفنون بڤيينا.

فرانشسكو ألباني: «أپوللو ودافنى». متحف اللوڤر بباريس.
فرانشسكو ألباني: «أوروپا». متحف الأوفيتزى بفلورنسا.
فرنشسكو ألباني: «فوزُ جالاطيا». متحف درسدن.
فرانشسكو جويا: «كرونوس يلتهم أبناءه». متحف الپرادو بمدريد.
فرنشسكو ميلزي: «ڤيرتومنوس وپومونا». متحف برلين.
فلاكسمان: «أوديسيوس يفقأ عين پوليفيموس».
فنان مجهول: «رأس ميدوسا بعد جزّ عنقها». ڤيلا لودوڤيزي بروما.
ڤيرونيزي: «اختطاف أوروپا». قصر الدوج بالبندقية.
ڤيرونيزي: «اختطاف أوروپا». متحف الكاپيتولينوس.
ڤيرونيزي: «پيرسيوس وأندروميدا». متحف الإرميتاج بسان بطرسبرج.
ڤيرونيزي: «ڤينوس وأدونيس». متحف تاريخ الفنون بڤيينا.
ڤيرونيزي: «ڤينوس وڤولكانوس». متحف ڤيلا بورجيزي.
ڤيرونيزي: «ڤينوس ومارس». متحف المتروپوليتان بنيويورك.
ڤيرونيزي: «هرقل وديانيرا ونيسوس». متحف تاريخ الفنون بڤيينا.
ڤيلاسكيز: «باكخوس». متحف الپرادو بمدريد.
ڤيلاسكيز: «ڤينوس فى المرآة». متحف الناشونال جاليري بلندن.
ڤيلاسكيز: «أپوللو يزور مسبك ڤولكانوس». متحف الپرادو بمدريد.
فيورنتينو روسّو: «ربّات الفنون أو الپيريديس». متحف اللوڤر بپاريس.
كاراتشي: «پوليفيموس وأكيس وجالاطيا». قصر فارنيزي بروما.
كاراتشي: «پيرسيوس وأندروميدا». قصر فارنيزي بروما.
كاراتشي: «چوپيتر وچونو». قصر فارنيزي بروما.
كاراڤاچيو: «پسيخيه فى الأوليمپوس». متحف اللوڤر.
كاراڤاچيو: «رأس ميدوسا». متحف أوفيتزي بفلورنسا.
كراناخ: «ڤينوس». متحف ڤيلا بورجيزي بروما.
كراناخ: «ڤينوس وكيوپيد». متحف ستيدل بفرانكفورت.
كراناخ: «ڤينوس وكيوپيد». متحف الناشونال جاليري بلندن.
كراناخ: «نهاية العصر الفضي وبداية العصر البرونزي». الناشونال جاليري بلندن.
كرسبي: «القنطور خيرون يعلّم البطل أخيل الصيد». متحف تاريخ الفنون بڤيينا.
كوريچيو: «جانيميديس والنسر». متحف درسدن.
كوريچيو: «چوپيتر وإيو». متحف تاريخ الفنون بڤيينا.

كوريچيو: «داناى». متحف ڤيلا بورجيزي بروما.

كوريچيو: «زيوس وإيو». متحف تاريخ الفنون بڤيينا.

كوريچيو: «ميركوريوس يُملي تعليماته على كيوپيد بحضور ڤينوس». الناشونال جاليري بلندن.

كلود لوران: «أپوللو ومارسياس». متحف الإرميتاچ بسان بطرسبرج.

كلود لوران: «أوروپا». متحف قصر باكنجهام بلندن.

كلود لوران: «نارسيسوس وإكُو». الناشونال جاليري بلندن.

كلويه: «ديانا الصيّادة». متحف روان.

كياري: «أپوللو ودافني». جاليريا سيادا بروما.

لاستمان: «هيرا تكتشف علاقة زيوس بإيو». الناشونال جاليري بلندن.

لوقا چوردانو: «أريادني». متحف درسدن.

لوقا چوردانو: «پيرسيوس وڤينوس». متحف درسدن.

لوكاس: «أكيس وجالاطيا وپوليفيموس». قصر تريانون بڤرساى.

لوكليرك ده جوبلان: «اختطاف أوروپا». متحف دنكرك.

لوموان: «اختطاف أوروپا». متحف پوشكين بموسكو.

لوموان: «هرقل وأومفالوس». متحف اللوڤر.

لوي ده بولوني: «چوپيتر وسيميليه». متحف لومان.

ليوناردو دافنشي: «ليدا وطائر البجع». متحف ڤيلا بورجيزي بروما.

ماتوار: «زيوس وإيو».

ماتوار: «هيبي تصبّ الخمر فى كأس أبيها چوپيتر». متحف تروا.

مدرسة پيزيللينو: «چاسون وملاّحو الأرجو». متحف مترو پوليتان بنيويورك.

مدرسة پيزيللينو: «چاسون يضع النّير على الثيران النحاسية ويذبح الجند المسلّحين». متحف مترو پوليتان بنيويورك.

مدرسة پيزيللينو: «چاسون يغادر الملك أييتيس لتنفيذ ما أسنده إليه من مهام». متحف مترو پوليتان بنيويورك.

مدرسة پيزيللينو: «عصر الحديد». مكتبة پيرپونت مورجان.

ميكلانچلو: «ليدا وطائر البجع». الناشونال جاليري بلندن.

المدرسة الفرنسية: «مصرع أدونيس». متحف بلوا.

مدرسة فونتنبلو: «حمام ديانا». متحف اللوڤر.

مصانع بروكسل للنسجيات المرسّمة: «ڤيرتومنوس وپومونا». متحف بروكسل.

نيكولا پوسان: «أپوللو ودافني». متحف ميونخ.

نيكولا پوسان: «إكو ونارسيسوس». متحف اللوڤر بپاريس.

نيكولا پوسان: «حفل باكخوسي أمام تمثال لپان»: الناشونال جاليري بلندن.

نيكولا پوسان: «سيريس إلهة الحصاد». الناشونال جاليري بلندن.

نيكولا پوسان: «أينياس عند ديدو». متحف بيزانسون.

النحت

أندريا پيزانو: «دايدالوس». متحف الكامپانيلي [برج الأجراس] بفلورنسا.

أنطوان لوي باري: «القنطور واللاپيث». متحف اللوڤر بپاريس.

أنطونيو كانوڤا: «آچاكس». متحف الڤاتيكان بروما.

أنطونيو كانوڤا: «پسيخيه تستردّ الحياة إثر قبلة كيوپيد». متحف اللوڤر.

أنطونيو كانوڤا: «ثيسيوس». حدائق الڤولكسجارتن بڤيينا.

أنطونيو كانوڤا: «ثيسيوس يصرع القنطور». متحف تاريخ الفنون بڤيينا.

أنطونيو كانوڤا: «دايدالوس وإيكاروس». متحف تاريخ الفنون بڤيينا.

أنطونيو كانوڤا: «هرقل وليتشاس». المتحف القومي بروما.

أوتريكولي: «چوپيتر». متحف الڤاتيكان.

برتل ثورڤالدسن: «أدونيس». متحف ميونخ.

برتل ثورڤالدسن: «باكخوس وأريادني». متحف كوپنهاجن.

برتل ثورڤالدسن: «جانيميديس». متحف ثورڤالدسن بكوپنهاجن.

برتل ثورڤالدسن: «ڤولكانوس يعدّ سهام كيوپيد» متحف ثورڤالدسن بكوپنهاجن.

برتل ثورڤالدسن: «مارس وكيوپيد». متحف ثورڤالدسن بكوپنهاجن.

برتل ثورڤالدسن: «منيرڤا وپروميثيوس». نقش بارز.

پوچيه: «هرقل يصرع الهيدرا». متحف روان.

چان ده بولوني: «هرقل يحمل الكون».

چان ده بولوني: «هرقل يصرع القنطور نيسوس». متحف چاكمار أندريه بپاريس.

چيمس پراديه: «ربّات الحسن الثلاث». متحف اللوڤر.

چيمس پراديه: «مصرع أولاد نيوبي». متحف اللوڤر.

جيوم كوستون: «پان يعلّم أپوللو العزف على المزمار».

ديوا: «ليدا وطائر البجع». متحف لوكسمبورج.

رود: «الإله ميركوريوس [هرميس]». متحف اللوڤر.

رينزو برنيني: «أپوللو ودافني». متحف ڤيلا بورجيزي بروما.

رينزو برنيني: «پلوتو وپروسيرپينا». ڤيلا بورجيزي بروما.

رينزو برنيني: «نافورة تريتون» بروما.

سانسوڤينو: «باكخوس». متحف بارچيللو بفلورنسا.

سلوطز: «سقوط إيكاروس». متحف اللوڤر.

فرانش ڤيل: «أورفيوس». متحف اللوڤر.

فنان مجهول: «أپوللو ودافني». متحف ڤيلا بورجيزي بروما.

فنان مجهول: «أولاد نيوبي». متحف الأوفيتزي بفلورنسا.

فنان مجهول: «نيوبي وطفلها». متحف الأوفيتزي بفلورنسا.

كلوديون: «موكب عابدات باكخوس». متحف اللوڤر.

ميكلانچلو: «أدونيس يحتضر». متحف بارچيللو بفلورنسا.

ميكلا نچلو: «باكخوس ثملا». متحف بارچيللو بفلورنسا.

نيقولا سباستيان آدم: «پروميثيوس مغلولاً والنسر ينهش كبده». متحف اللوڤر.

المُلحق الثاني

دليل الأعمال الموسيقية والغنائية والراقصة

المستوحاة من كتاب «مسخ الكائنات» لأوڤيد(*)

أپوللو: باليه من مشهدين من موسيقى ستراڤنسكي (١٩٤٧).

أتالانتا: أوپرا من موسيقى هيندل (١٧٣٦).

أدميتوس ملك ثيساليا: أوپرا من موسيقى هيندل، عُرِضت لأول مرة في لندن سنة ١٧٢٧.

أريادني: أوپرا من موسيقى مونتڤردى عن قصة رينوتشيني، قدّمت لأول مرة فى بلاط دوق مانتوا بمناسبة قران إحدى أميرات أسرة ساڤوى سنة ١٦٠٨. ولم يبق من هذه الأوپرا إلا جزء واحد أعاد المؤلف صياغته فى شكل مادريجال لأصوات خمسة، نُشرت سنة ١٦١٤ فى كتابه السادس عن المادريجال.

أريادني: أوپرا من موسيقى هيندل (١٧٤٣).

أريادني وذو اللحية الزرقاء: أوپرا من موسيقى پول دوكا (١٩٠٨).

أريادني في ناكسوس: أوپرا من موسيقى ريتشارد شتراوس عن قصة هوفمانستال. قُدّمت لأول مرة فى شتوتجارت سنة ١٩١٢، وكانت خاتمة من فصل واحد لمسرحية «البرجوازي النبيل» التي اقتبسها هوفمانستال عن موليير. وأعيد تقديم «أردياني فى ناكسوس» فى ڤيينا سنة ١٩١٦ حيث كتب لها شتراوس مقدمة جديدة استغنى بها عن رواية موليير.

إفيجينيا [إفيينْيا] في أوليس: أوپرا فى ثلاثة فصول من موسيقى جلوك، عن قصة لرواية مقتبسة عن راسين، وعن أوريپيديس. قدّمت لأول مرة فى باريس سنة ١٧٧٤، وهى أول ما كتب الموسيقار للمسرح الفرنسي ولاقت نجاحاً باهراً. وقد راجع ڤاجنر هذه الأوپرا فغيّر من توزيعها الموسيقي، وأعاد كتابة الإلقاء الغنائي، وأضاف شخصية جديدة فى الفصل الثالث. وقدّمها جوستاف مالر فى ڤيينا سنة ١٩٠٤، كما عُزِفت بلندن فى نهاية سنة ١٩٣٣.

إفيجينيا [إيفيينْيا] في تاورس: أوپرا من أربعة فصول من موسيقى جلوك عن قصة جيبار، قُدّمت لأول مرة فى باريس سنة ١٧٧٩، وهى امتداد لقصة إفيجينيا فى أوليس. وقدم ريتشارد شتراوس صورة محوّرة لهذه الأوپرا فى نيويورك سنة ١٩١٦، حيث غيّر خاتمتىْ الفصلين الأول والرابع.

أكيس وجالاطيا: أوراتوريو من موسيقى هيندل (١٧١٩).

(*) للمزيد من التفاصيل انظر: «الزمن ونسيج النغم» لكاتب هذه السطور. الطبعة الثانية ١٩٩٦. الهيئة المصرية العامة للكتاب.

أكيس وجالاطيا وبوليفيموس: سيريناده من موسيقى هيندل قام موتسارت بتوزيع موسيقاها (١٧٠٨).

إلكترا: أوبرا من موسيقى ريتشارد شتراوس عن قصة هوفمانستال، وهى صورة حديثة مبتكرة لمأساة سوفوكليس، قدّمت لأول مرة فى درسدن سنة ١٩٠٩.

ألكستيس: أوبرا فى ثلاثة فصول من موسيقى جلوك مقتبسة عن مأساة أوريبيديس، وقُدّمت لأول مرة فى ڤيينا سنة ١٧٦٧، ثم فى باريس سنة ١٧٧٦.

انتصار أفروديتي: مشاهد موسيقية للمؤلف الموسيقى كارل أورف (١٩٥٣).

انتصار نپتون: باليه من موسيقى لورد برنرز وتصميم «بالانشين»، قُدّم فى لندن لأول مرة سنة ١٩٢٦.

أهل الأوليمپوس: أوبرا من موسيقى بليس عن قصة ج. ى پريستلي، قدّمت لأول مرة فى لندن سنة ١٩٤٩.

أوديپ ملكا: أوبرا من موسيقى كارل أورف (١٩٥٩).

أوديپ ملكا: أوراتوريو مسرحي من موسيقى ستراڤنسكى عن نص لاتيني كتبه دانيلو، ترجمه إلى الفرنسية چان كوكتو، والقصة مقتبسة عن سوفوكليس. قُدّم لأول مرة فى باريس سنة ١٩٢٧.

أورفيو: باليه من مشاهد ثلاثة من موسيقى ستراڤنسكي (١٩٤٧).

أورفيوس: أوبرا من موسيقى مونتڤردي عن قصة لستريجيو، قُدّمت لأول مرة فى بلاط أمير جونزاجا بمانتوا سنة ١٦٠٧.

أورفيوس في الجحيم: أوبرا هزلية من موسيقى أوفنباخ عن قصة كريميو وهاليڤي، قُدّمت لأول مرة فى باريس سنة ١٨٥٨.

أورفيوس ويوريديكي: أوبرا فى ثلاثة فصول من موسيقى جلوك عن قصة كالزابيجي، قُدّمت لأول مرة فى ڤيينا سنة ١٧٦٢.

باكخوس وأريادني: باليه تصميم سيرج ليفار على موسيقى ألبير روسيل، قُدّم لأول مرة فى باريس سنة ١٩٣١. وقد أعدّ المؤلف متتاليتين للأوركسترا ضمن موسيقى الباليه.

پروميثيوس: باليه من موسيقى بيتهوڤن، تصميم فيجانو، قدم لأول مرة فى ڤيينا سنة ١٨٠١. واستمد بيتهوڤن من هذا الباليه لحنا جعله أساساً للتنويعات رقم ٣٥ للبيانو، ثم جعله مرة أخرى موضوعاً موسيقياً فى الحركة الأخيرة من سيمفونيته الثالثة «البطولة».

پروميثيوس: قصيد سيمفوني من تأليف فرانز ليست كتبه سنة ١٨٥٠ كمقدمة للكورس فى قصيدة لهيردر.

پروميثيوس، قصيد النار: مصنّف للبيانو من تأليف سكريابين عُزف لأول مرة فى موسكو سنة ١٩١١.

پيرسيفوني: ميلودراما للمسرح أو قاعة الكونسير من موسيقى ستراڤنسكي عن قصة لأندريه چيد، قدمت لأول مرة فى باريس سنة ١٩٣٤.

پسيخه: قصيد سيمفوني من موسيقى سيزار فرانك (١٨٨٧).

پنتسيليا: قصيد سيمفوني من تأليف ڤولف ١٨٨٣ ـ ١٨٨٥.

پيجماليون: أوبرا من موسيقى كيروبيني (١٨٠٩).

ثيسيوس: أوبرا من موسيقى لوللي قُدّمت لأول مرة فى بلاط سان جرمان سنة ١٦٧٥، ثم خرجت للجماهير أول مرة فى باريس سنة ١٦٧٥ أيضاً.

دافـــني: أوبرا من موسيقى جاكوبو بيري عن قصة أوتاڤيو رينوتشيني. قُدّمت لأول مرة فى مهرجان فلورنسا سنة ١٥٩٧، وهى أول أوبرا إيطالية وفاتحة المؤلفات الموسيقية المعروفة فى تلك الفترة.

دافني: أوبرا عن نفس القصة من موسيقى شوتز قُدّمت فى تورجاو سنة ١٦٢٧ فكانت أول أوبرا ألمانية معروفة.

دافني: تراچيديا موسيقية من تأليف ريتشارد شتراوس عن قصة لجريجور، وقُدّمت لأول مرة فى درسدن سنة ١٩٣٨.

دافنيس وكلوويه: باليه من موسيقى راڤيل من تصميم فوكين، قُدّم لأول مرة فى باريس سنة ١٩١٢. وتعتبر المتتاليتان الموسيقيتان من هذا الباليه أكثر مؤلفات راڤيل شعبية وانتشاراً.

ديدو وأينياس: أوبرا من موسيقى هنري پيرسيل (١٦٨٩).

الطرواديون: أوبرا من موسيقى هكتور برليوز.

١ - فتح طروادة، وقدمت لأول مرة فى سنة ١٨٩٠.

٢ - الطرواديون فى قرطاج، وقُدّمت لأول مرة فى باريس سنة ١٨٦٣.

وكانت الأوبرا أصلاً عملاً واحداً فى ستة فصول، ونظراً لطولها انقسمت إلى قسمين، وقُدّم القسمان معاً فى ليلة واحدة لأول مرة فى لندن سنة ١٩٥٧.

فويبوس وپان: غنائية دنيوية من موسيقى باخ كتبها سنة ١٦٣١.

ڤينوس وأدونيس: قناعية من موسيقى بلو، لكاتب مجهول. قُدّمت لأول مرة فى بلاط لندن سنة ١٦٨٤.

كيفالوس وپروكريس: أوبرا من موسيقى جريتري، قُدّمت لأول مرة فى بلاط ڤرساى بفرنسا سنة ١٧٧٣، ثم قُدّمت للجماهير لأول مرة سنة ١٧٧٥ بپاريس.

ميديا: أوبرا من موسيقى لويچي كيروبيني، قُدّمت لأول مرة سنة ١٧٧٩.

ميديا: باليه من موسيقى ريڤاز كابتشڤادزه وتصميم رقصات چورچي ألكسيدزه.

نهاية العمالقة: أوبرا من موسيقى جلوك (١٧٤٦).

نهدا تيريزياس: أوبرا هزلية من موسيقى پولانك عن قصة لأپولليني، قُدّمت لأول مرة فى باريس سنة ١٩٤٧.

شباب هرقل: قصيد سيمفوني لكاميْ سان صانس.

هرقل وهيبي: قصيد سيمفوني من موسيقى جلوك (١٦٤٧).

هيپوليتوس وأريسيا: أوبرا من موسيقى رامو عن قصة بيلجران. قدمت فى باريس لأول مرة سنة ١٧٣٢.

هيلينا وپاريس: أوبرا من موسيقى جلوك عن قصة كالزابيجي قُدّمت فى ڤيينا لأول مرة سنة ١٧٧٠.

هيلينا المصرية: أوبرا من موسيقى ريتشارد شتراوس عن قصة هوفمانستال، قُدّمت لأول مرة سنة ١٩٢٨ فى درسدن، وهى تتناول الآثار المترتّبة على حرب طروادة وعفو منيلاوس عن هيلينا. وقد اهتم كل من مؤلف القصة والموسيقار بالجانب الأسطوري للقصة.

يوريديكي: أوبرا من موسيقى پيري عن قصة مينوتشيني، قُدّمت لأول مرة فى فلورنسا سنة ١٦٠٠. وإذ كانت موسيقى أوبرا دافني مفقودة، يعدّ البعض أوبرا يوريديكي أولى الأوبرات. وكتبت هذه الأوبرا بمناسبة زواج هنري الرابع من ماريا ده ميديتشي، وقد استخدم كاتشيني نفس القصة لأوبراه بنفس الاسم.

ثبت ببليوجرافى لصاحب هذه الترجمة

● **موسوعة تاريخ الفن: العين تسمع والأذن ترى*.**		
١ – الفن المصري: العمارة	دراسة	طبعة أولى ١٩٧١ طبعة ثالثة ١٩٩٧
٢ – الفن المصري: النحت والتصوير	دراسة	طبعة أولى ١٩٧٢ طبعة ثانية ١٩٩٨
٣ – الفن المصري القديم: الفن السكندري والقبطي	دراسة	طبعة أولى ١٩٧٦ طبعة ثانية ١٩٩٨
٤ – الفن العراقي القديم	دراسة	طبعة أولى ١٩٧٤
٥ – التصوير الإسلامي الديني والعربي	دراسة	طبعة أولى ١٩٧٨
٦ – التصوير الإسلامي الفارسي والتركي	دراسة	طبعة أولى ١٩٨٣
٧ – الفن الإغريقى	دراسة	طبعة أولى ١٩٨١ طبعة ثانية ١٩٩٨
٨ – الفن الفارسي القديم	دراسة	طبعة أولى ١٩٨٩
٩ – فنون عصر النهضة [الرنيسانس والباروك والروكوكو]	دراسة	طبعة أولى ١٩٨٨ طبعة ثانية ١٩٩٦
١٠ – الفن الروماني	دراسة	طبعة أولى ١٩٩١
١١ – الفن البيزنطي	دراسة	طبعة أولى ١٩٩٢
١٢ – فنون العصور الوسطى	دراسة	طبعة أولى ١٩٩٢
١٣ – التصوير المغولي الإسلامي فى الهند	دراسة	طبعة أولى ١٩٩١
١٤ – الزمن ونسيج النغم (من نشيد أبوللو إلى توراجاليلا)	دراسة	طبعة أولى ١٩٨٠ طبعة ثانية ١٩٩٦
١٥ – القيم الجمالية فى العمارة الإسلامية	دراسة	طبعة أولى ١٩٨١ طبعة ثانية ١٩٩١
١٦ – الإغريق بين الأسطورة والإبداع	دراسة	طبعة أولى ١٩٧٨ طبعة ثانية ١٩٩٢
١٧ – ميكلانجلو	دراسة	طبعة أولى ١٩٨٠
١٨ – فن الواسطى من خلال مقامات الحريري [أثر إسلامى مصور]	دراسة وتحقيق	طبعة أولى ١٩٧٤ طبعة ثانية ١٩٩٢
١٩ – معراج نامه [أثر إسلامي مصور]	دراسة وتحقيق	طبعة أولي ١٩٨٧
● **أعمال الشاعر أوفيد**		
٢٠ – ميتامور فوزيس [مسخ الكائنات]	ترجمة	طبعة أولى ١٩٧١ طبعة رابعة ١٩٩٧ طبعة خامسة ١٩٩٧
٢١ – آرس أماتوريا [فن الهوى]	ترجمة	طبعة أولى ١٩٧٣ طبعة رابعة ١٩٩٨

* الصور الملونة بالأجزاء التسعة الأولى من هذه الموسوعة طبعت بمؤسسة رينبرد للطباعة بلندن على نفقة المنظمة الدولية للتربية والعلوم والثقافة «يونسكو».

● **أعمال جبران خليل جبران**

٢٢ – النبي: لجبران خليل جبران	ترجمة	طبعة أولى ١٩٥٩ طبعة تاسعة ١٩٩٨
٢٣ – حديقة النبي: لجبران خليل جبران	ترجمة	طبعة أولى ١٩٦٠ طبعة ثامنة ١٩٩٨
٢٤ – عيسى ابن الإنسان: لجبران خليل جبران	ترجمة	طبعة أولى ١٩٦٢ طبعة خامسة ١٩٩٧
٢٥ – رمل وزبد: لجبران خليل جبران	ترجمة	طبعة أولى ١٩٦٣ طبعة خامسة ١٩٩٧
٢٦ – أرباب الأرض: لجبران خليل جبران	ترجمة	طبعة أولى ١٩٦٥ طبعة رابعة ١٩٩٧
٢٧ – روائع جبران خليل جبران، الأعمال المتكاملة	ترجمة	طبعة أولى ١٩٨٠ طبعة ثانية ١٩٩٠
٢٨ – كتاب المعارف لابن قتيبة	تحقيق	طبعة أولى ١٩٦٠ طبعة سادسة ١٩٩٢
٢٩ – مولع بڤاجنر: لبرنارد شو	ترجمة	طبعة أولى ١٩٦٥ طبعة ثانية ١٩٩٢
٣٠ – مولع حذر بڤاجنر	دراسة نقدية	طبعة أولى ١٩٧٥ طبعة ثانية ١٩٩٣
٣١ – المسرح المصري القديم: لإتيين دريوتون	ترجمة	طبعة أولى ١٩٦٧ طبعة ثانية ١٩٨٩
٣٢ – إنسان العصر يتوّج رمسيس	تأليف	طبعة أولى ١٩٧١
٣٣ – فرنسا والفرنسيون على لسان الرائد طومسون لپييردانينوس	ترجمة	طبعة أولى ١٩٦٤ طبعة ثانية ١٩٨٩
٣٤ – إعصار من الشرق أو جنكيز خان	تأليف	طبعة أولى ١٩٥٢ طبعة خامسة ١٩٩٢
٣٥ – العودة إلى الإيمان: لهنرى لنك	ترجمة	طبعة أولى ١٩٥٠ طبعة رابعة ١٩٩٦
٣٦ – السيد آدم: لپات فرانك	ترجمة	طبعة أولى ١٩٤٨ طبعة ثانية ١٩٦٥
٣٧ – سروال القس: لثورن سميث	ترجمة	طبعة أولى ١٩٥٢ طبعة ثانية ١٩٧٦
٣٨ – الحرب الميكانيكية: للجنرال فولر	ترجمة	طبعة أولى ١٩٤٢ طبعة ثانية ١٩٥٢
٣٩ – قائد البانزر: للجنرال جوديريان	ترجمة	طبعة أولى ١٩٥٢
٤٠ – حرب التحرير	تأليف بالمشاركة	طبعة أولى ١٩٥١ طبعة ثانية ١٩٦٧
٤١ – تربية الطفل من الوجهة النفسية	ترجمة بالمشاركة	طبعة أولى ١٩٤٤
٤٢ – علم النفس فى خدمتك	ترجمة بالمشاركة	طبعة أولى ١٩٤٥
٤٣ – مصر فى عيون الغرباء من الرحّالة والفنانين والأدباء (١٨٠٠–١٩٠٠)	دراسة	طبعة أولى ١٩٨٤ طبعة ثانية ١٩٩٨
٤٤ – مذكراتى فى السياسة والثقافة	تأليف	طبعة أولى ١٩٨٨ طبعة ثالثة ١٩٩٨
٤٥ – المعجم الموسوعى للمصطلحات الثقافية [إنجليزى – فرنسى – عربى]	إعداد وتحرير	طبعة أولى ١٩٩٠

بالفرنسية

Ramsès Re-Couronné: Hommage Vivant au Pharaon Mort, «UNESCO»1974. — ٤٦

بالإنجليزية

In The Minds of Men. Protection and Development of Mankind's Cultural Heritage «UNESCO» 1972. — ٤٧

The Muslim Painter and the Divine. The Persian Impact on Islamic Religious Painting. Rainbird Publishing Group, Park Lane Publishing Press, London 1981. — ٤٨

The Miraj-Mameh: A Masterpiece of Islamic Painting. Pyramid Studies and other Essays presented to. I. E. S. Edwards. The Egypt Exploration Society. London 1988. — ٤٩

أبحـــاث

* The Portrayal of the Prophet. The Times Literary Supplement December 1976.
* Problématique de la Figuration dans l'art Islamique.- La Figuration Sacrée. - La Figuration Profane. - Plastique et Musique dans l'Art pharaonique. - Wagner entre la théorie et l'application.

سلسلة محاضرات ألقيت بالكوليج ده فرانس بباريس خلال شهرى يناير وفبراير ١٩٧٣ .

Annuaire du Collège de France 73e Année Paris, 11, Place Marcelin-Berthelot 1973.

★ المشاكل المعاصرة للفنون العربية . مؤتمر منظمة اليونسكو المنعقد بمدينة الحمامات . تونس ١٩٧٤ .
★ حرية الفنان . نشر بمجلة عالم الفكر . المجلد الرابع يناير ١٩٧٤ . الكويت .
★ رعاية الدولة للثقافة والفنون . محاضرة ألقيت بنادى الجسرة الثقافى بالدوحة (دولة قطر) فبراير ١٩٨٩ .
★ سبيل إلى تعميم مدن التكنولوجيا «تكنوبوليس» فى العالم العربي . بحث مقدّم إلى «ندوة العالم العربي أمام التحدي العلمي والتكنولوجي» . معهد العالم العربي بباريس . يونية ١٩٩٠ .
★ إطلالة على التصوير الإسلامي : العربي والفارسي والمغولي والتركي . محاضرة ألقيت بالمجمع الثقافي . أبو ظبي . أبريل ١٩٩١ .
★ الدولة والثقافة . وجهة نظر من خلال التجربة . محاضرة ألقيت بندوة الثقافة والعلوم دبيّ . نوفمبر ١٩٩٣ .
★ التصوير الإسلامي بين الإباحة والتحريم .. بحث ألقى فى الدورة العاشرة لمؤتمر المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية بعمّان . الأردن فى المدة من ٥ إلى ٧ يولية ١٩٩٥ .
★ تساؤلات حول هويّة التصاوير الجدارية فى بايستوم . بحث ألقي فى مؤتمر «مصر فى إيطاليا منذ القدم حتى العصور الوسطى» المنعقد بروما فى المدة من ١٣ إلى ١٩ نوفمبر ١٩٩٥ .
★ الفن والحياة . محاضرة ألقيت ببهو قاعة الاحتفالات الكبرى بجامعة القاهرة فى ٦ مارس ١٩٩٦ . الموسم الثقافي – الفني .
★ نظرية الفن . محاضرة ألقيت بالمجمع الثقافى . أبو ظبى . أبريل ١٩٩٦ .
★ التطّهر النفسي «كاثارسيس» من خلال الفن . محاضرة لمجلة الطب النفسي المعاصر «محاضرة عكاشة» ، ألقيت بفندق مريديان القاهرة في ٤ أبريل ١٩٩٧.

تحـــت الطبـــع

★ موسوعة التصوير الإسلامى .
★ فنون عصر النهضة : الباروك .
★ فنون عصر النهضة : الروكوكو .

فهرست

كلمة أولى	٩
الكتاب الأول :	٥٥
أصـل العـالـم The Creation	٥٧
العمـالقـة The Giants	٦٤
ليكـاؤون Lycaon	٦٦
ديـوكـاليـون وبيـرا Deucalion and Pyrrha	٧٤
بيثـون Python	٧٨
دافـنـي Daphne	٨٠
إيـو وأرجـس وبان وسـيرينكـس Io, Argus, Pan and Syrinx	٨٥
فايثـون Phaethon	٩١
الكتاب الثاني :	٩٧
فايثـون Phaethon	٩٩
سـيجنـوس Cycnus	١١٠
كاليسـتو Callisto	١١٢
أركـاس Arcas	١١٦
كـورونيـس Coronis	١١٨
أوكـيرويـه Ocyrhoë	١٢٣
خـيرون Chiron	١٢٣
بـاتـوس Battus	١٢٤
أجـلاوروس Aglauros	١٢٦
أوروبـا Europa	١٣٢
الكتاب الثالث :	١٣٧
كـادمـوس Cadmus	١٣٩
أكتـايـون Actaeon	١٤٣
سـيميليه Semele	١٤٨

تـيريـزيـاس Tiresias ١٥٠
نارسيســوس وإكـو Narcissus and Echo ١٥٢
پنثيـوس . أكويتيـس Pentheus. Acoetes ١٦٠

الكتاب الرابع : ١٦٩
بنـات مينيـاس The Daughters of Minyas ١٧١
پيرامـوس وسـيزبي Narcissus and Echo ١٧٣
ڤيـنـوس ومـارس Venus and Mars ١٧٧
ربّ الشمـس وليـوكـوثـوى وكليتييـه Leucothoe and Clytie ١٧٧
سالماكيـس وهـرمافروديتـوس Salmacis and Hermaphroditus ١٨٢
أثـامـاس وإينـو Athamas and Ino ١٨٧
كـادمـوس وهارمـونيـا Cadmus and Harmonia ١٩٢
پيرسـيوس وأطلـس وأندروميـدا Perseus, Atlas and Andromida ١٩٣

الكتاب الخامس : ٢٠١
پيرسـيوس وفينياس Perseus and Phineus ٢٠٣
ينبـوع هيپـوكـريني Hippocrene Spring ٢١١
ربّـات الفـن وبنـات پيـروس The Muses and Pierus daugthers ٢١١
سـيريـس وپروسـيرپينـا Ceres and Proserpine ٢١٥
الحـورية كيـاني Cyanee ٢١٩
أسـكالافـوس والسـيرينـات Ascalaphus and the Sirenes ٢٢٣
أريثـوزا وتريپتـوليمـوس Arethusa and Triptolemus ٢٢٤

الكتاب السادس : ٢٣١
پالـلاس وأراخنـي Pallas and Arachne ٢٣٣
نيـوبي Niobe ٢٣٨
فلاّحـو ليكيـا The Lycian Peasants ٢٤٥
مارسيـاس وپيلـوپـس Marsyas and Pelops ٢٤٨
پروكني وفيلـوميـلا Procne, Philomela ٢٤٩
بوريـاس وزيتيـس وكالاييـس Boreas, Zetes and Calais ٢٥٨

الكتاب السابع : ٢٦١
چاسـون وميديـا Jason and Medea ٢٦٣
آيســون يستعيد شبابه Aeson ٢٦٨
پليـاس Pelias ٢٧٣
ثيسـيوس Theseus ٢٧٧
مينوس وآيـاكـوس Minos, Aeacus ٢٧٩
الطاعـون فـي إيجينـا Aegina ٢٨٢
الميرميـدون The Myrmidons ٢٨٤
كيفالـوس وپـروكـريـس Cephalus and Procris ٢٨٧

الكتاب الثامن : ٢٩٥
مينـوس وسـكيللا Minos and Scylla ٢٩٧
المتاهـة وتـاج أريـادني Ariadne ٣٠٢
ديدالوس وإيكـاروس Daedalus and Icarus ٣٠٤
پيرديكـس Perdix ٣٠٧
الخـنزيـر الكاليـدوني. مليـاجـر The Calydonian Boar and Meleager ٣٠٧
ثـأر ألثـايـا Althaea ٣١٥
أخيلـؤوس Achelous ٣٢١
فيليمـون وبـوكيـس Philemon and Baucis ٣٢٤
إيريزيختـون Erysichthon ٣٢٨

الكتاب التاسع : ٣٣٥
أخيلـؤوس وهـرقـل Acheloüs and Hercules ٣٣٧
نيسـوس Nisus ومـوت هـرقـل ٣٤٠
ألكمينـا وجـالانثيـس Alcmena and Galanthis ٣٤٨
دريوپي. يـولاووس Dryope. Iolaüs ٣٤٩
بيبليـس Byblis ٣٥٣
إيفيـس Iphis ٣٦٠

الكتاب العاشر :	٣٦٧
أورفيــوس Orphous	٣٦٩
كيبـاريســوس Cyparissus	٣٧٣
جانيميـديـس Ganymedes	٣٧٧
هيـاكينثــوس Hyacinthus	٣٧٧
الكيراستيـس والپروپيتيـديـس Cerastae. Propoetedes	٣٨٠
پيجماليـون Pygmalion	٣٨٢
مورهـا Myrrha	٣٨٤
أدونيـس وڤينـوس Adonis and Venus	٣٩٢
أتالانتـا وهيپـومينـوس Atalanta and Hyppomenes	٣٩٢
الكتاب الحادى عشر :	٤٠٣
مـوت أورفيـوس Orpheus	٤٠٥
ميـداس Midas	٣٠٨
لاؤوميـدون . هرزيونيه Laomedon. Hersione	٤١٢
پيليـوس وثيتيـس Peleus and Thetis	٤١٣
پيليـوس لـدى كيكـس Peleus	٤١٥
كيكـس وألكيـونيـه Ceyx and Alcyone	٤٢٠
آيسـاكـوس Aesacus	٤٢٩
الكتاب الثانى عشر :	٤٣٣
الإغـريـق فـي أوليـس Aulis	٤٣٥
ربـّة الشـهرة	٤٣٥
سيجنوس Cygnus	٤٣٨
كاينيـس وكاينيـوس Caenis and Caeneus	٤٤٠
القنطـوري Centaur	٤٤٢
پيريكليمينـوس بن نپتـون Periclymenus	٤٥٠
مـوت أخيـل Achilles	٤٥١

الكتاب الثالث عشر :	٤٥٣
أجاكس وأوديسيوس يطالبان بأسلحة أخيل Ajax and Ulysses	٤٥٥
هيكوبا Hecuba	٤٧٠
ممنون Memnon	٤٧٥
أينياس عند الملك أنيوس Aeneas and King Anius	٤٧٦
أكيس وجالاطيا والعملاق پوليفيموس Acis, Galatea and Polyphemus	٤٨٠
جلاوكوس Glaucus	٤٨٥
الكتاب الرابع عشر :	٤٨٩
سكيللا وكيركي Scylla and Circe	٤٩١
الكيركوپيس The Cercopes	٤٩٤
سيبيلا Cybele	٤٩٥
أخيمينيديس وپوليفيموس Achaemenides and Polyphemus	٤٩٨
مكاريوس وأوديسيوس Macareus and Ulysses	٥٠٢
پيكوس وكانِنز Picus and Canens	٥٠٥
رفاق ديوميديس Diomedes	٥٠٩
شجرة الزيتون البرّية	٥١١
سفن أينياس وقصة أرديا Aeneas. Ardea	٥١١
تأليه أينياس Apotheosis of Aeneas	٥١٤
پومونا وڤيرتومنوس Pomona and Vertumnus	٥١٦
إيفيس وأناكساريتي Iphis and Anaxarete	٥١٦
رومولوس وهيرسيليا Romulus and Hersilia	٥٢١
الكتاب الخامس عشر :	٥٢٥
نوما وموسكيلوس وكروتون Numa. Myscelus	٥٢٧
پيثاجوراس Pythagoras	٥٢٩
إيجيريا وهيپوليتوس Egeria and Hyppolytus	٥٣٩
تاجيس وكيپوس Tages and Cipus	٥٤٢
إسكليپيوس Aesculapius	٥٤٤
تأليه يوليوس قيصر The Apotheosis of Julius Caesar	٥٤٨
ابتهال	٥٥٣
ختام	٥٥٣

ابتهـــال	٥٥٣
ختـــام	٥٥٣
رسوم الفنان پيكاسو	٥٥٥
التعقيبات :	٥٨٩
تعقيبات الكتاب الأول	٥٩١
تعقيبات الكتاب الثاني	٥٩٣
تعقيبات الكتاب الثالث	٥٩٧
تعقيبات الكتاب الرابع	٥٩٩
تعقيبات الكتاب الخامس	٦٠٢
تعقيبات الكتاب السادس	٦٠٤
تعقيبات الكتاب السابع	٦٠٦
تعقيبات الكتاب الثامن	٦١٠
تعقيبات الكتاب التاسع	٦١٣
تعقيبات الكتاب العاشر	٦١٥
تعقيبات الكتاب الحادي عشر	٦١٨
تعقيبات الكتاب الثاني عشر	٦٢٠
تعقيبات الكتاب الثالث عشر	٦٢١
تعقيبات الكتاب الرابع عشر	٦٢٤
تعقيبات الكتاب الخامس عشر	٦٢٧
ثبت التراجم	٦٣١
ثبت المعاجم	٦٣١
ثبت المراجع	٦٣٢
الملحق الأول :	
دليل المنجزات الفنية التشكيلية المستوحاة من كتاب «مسخ الكائنات» لأوڤيد:	٦٣٣
التصوير	٦٣٣
النحت	٦٤٠
الملحق الثانى :	
دليل الأعمال الموسيقية والغنائية والراقصة المستوحاة من كتاب «مسخ الكائنات» لأوڤيد	٦٤٣
ثبت ببليوجرافى لصاحب هذه الترجمة :	٦٤٧

البيهر خويسون جنيها

أقــوال النقــاد

احــد [illegible] ... ولسوف يبقى فى ذاكرة الاجيال القادمة ولامد طويل . فترجمة الميتامورفوز لاوفيد بقلم الدكتور ثروت عكاشة كانت اقتحاما خطيرا فى لغة سائغة دفاقة الحيوية .. هى بالنسبة للمثقف المستنير عمل ممتع ونافع معا . وهو من اجله يستحق كل تحية وثناء .

دكتور لويس عوض

(الاهرام ٢٤/ ١١/ ١٩٧٢)

لابد لكل قارئ مثقف ان يمر بعينيه اياما على واحد من هذه الاعمال الكبرى لانه سوف يجد صداها فى كل الاداب العالمية القديمة والحديثة . ولابد ان د . ثروت عكاشة يجد لذته فى ان يتحدى الاعمال الادبية والفنية العسيرة . ومن هذه اللذة يتكون اقباله على الاعمال الادبية البعيدة عن تناول المثقفين . هذه موسوعة العذاب الاغريقى احكمت ترجمتها وصياغتها وقدمت بكل اخلاص الى المكتبة العربية .

انيس منصور

(الاخبار ١٦/ ٦/ ١٩٧٢)

لقد ظل هذا العمل الكبير الذى يعتبر من شوامخ الأدب القديم السنين من الاعوام دون ان تتقدم الاقلام العربية على ترجمته الى لغة الضاد حتى ظهر هذا الكتاب المترجم الانيق ليملأ هذا الفراغ . لقد اقبل الدكتور ثروت عكاشة على هذا الجهد الشاق حبا وعشقا لمادته وايمانا باهميته للاكتمال والنضج الثقافى . مضيفا الى معطياته الثقافية السابقة هذا العمل الجاد والممتع والمفيد.

حسين بيكار

(اخبار اليوم ١٦/ ١٢/ ١٩٧٢)

ان بلادنا بحاجة الى مزيد من الاصول الكبرى للفكر والفن . وهى بحاجة الى الموسسات الثقافية الكبيرة . وينبغى ان تستقبل الاعمال الكبيرة مثل مسخ الكائنات بالحب والتقدير . ومرحبا باوفيد امام العاشقين فى المكتبة العربية مترجما مثل هذه الترجمة الامينة الجميلة . ان مثل هذا العمل الكبير الذى يقدمه لنا الدكتور ثروت عكاشة يحمل معه دليلا جديدا على ما يملكه من طموح ثقافى بالغ السمو فى محاولة خلق اتصال كهربائى بين الثقافة العربية والثقافة العالمية حتى تتوهج ثقافتنا بنور العصر وتتخلص من غبار التخلف الفكرى ... هو احد الكتب الاساسية فى الادب العالمى . ومن الخطا والتقصير ان تخلو المكتبة العربيه من هذا الاثر الفنى والفكرى الهام .

رجاء النقاش

(المصور ٢٦/ ١/ ١٩٧٣)

لابد ان يغبط المرء الدكتور ثروت عكاشة ويحسده ايضا على هذا الانتاج المتلاحق الفياض . وترجمة اوفيد بهذه الامانة والعناية والعذوبة نموذج للترجمة التى ليست نقلا ولكن خلقا .

محمد عودة

(الجمهورية ٩/ ١٢/ ١٩٧٢)

صورة الغلاف [illegible]

[illegible]
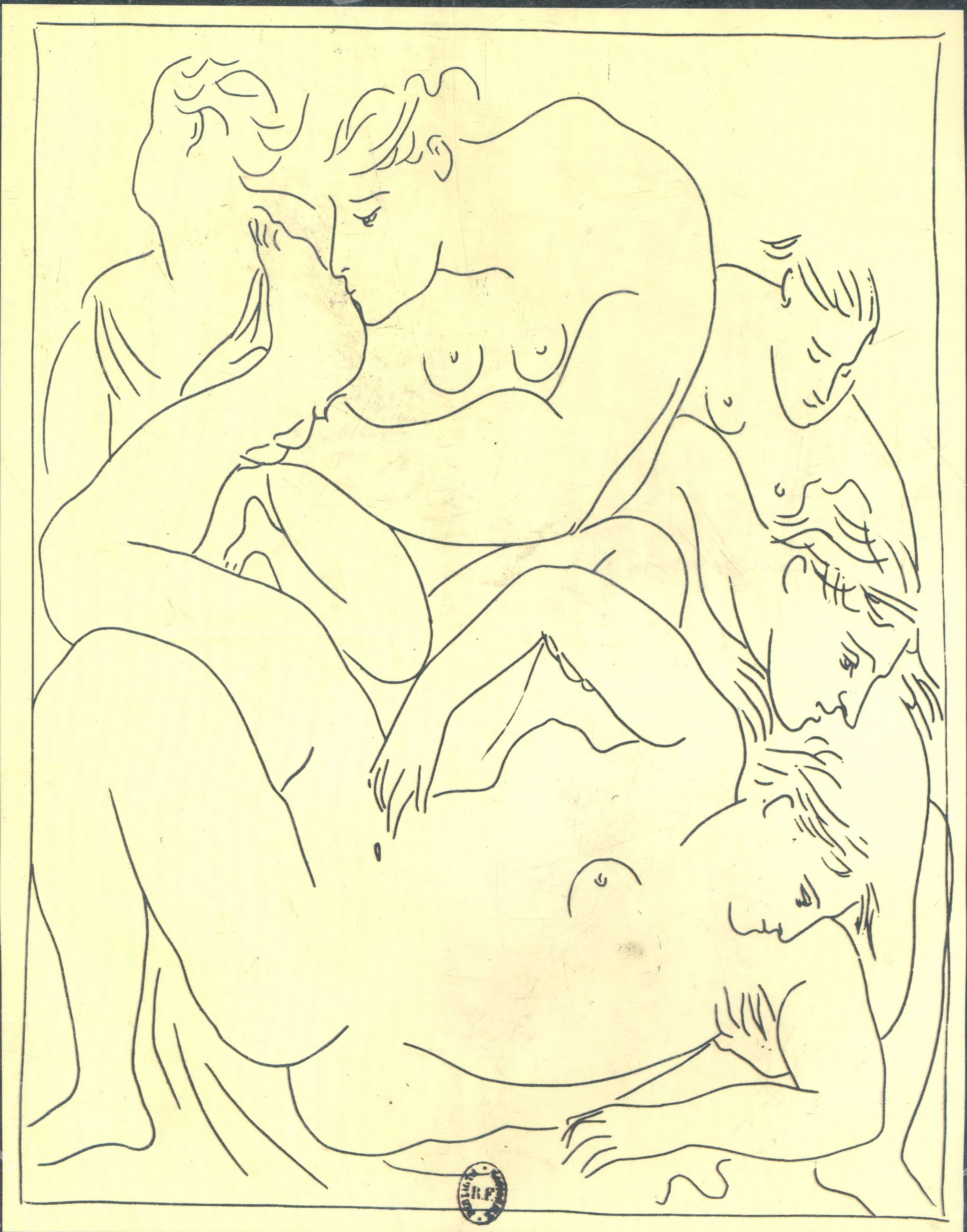
[illegible]